سورة الملك (١)



﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ① ﴾

الملك لله وحده ليس لأحد غيره ، وهو سبحانه قدير على كل شيء ، كُنَّا عدماً فأحيانا الله فى كوْن هو سبحانه خالقه ، هو سبحانه أعدَّه لنا قبل أنْ يخلقنا.

وسورة تبارك تُقدِّم لنا تصوراً واسعاً شاملاً يتجاوز عالم الأرض الضيق وحيِّز الدنيا المحدود إلى عوالم فى السماوات لا يعتريها الخلل ، ففهْم الإنسان لطبيعة تواجده فى هذا الكون المنضبط بأمر الله وحده يجعله متوافقاً مع منظومة الكون الكبرى المسبِّحة لله .

(١) سورة الملك سورة مكية عدد آياتها ٣٠ ، نزلت بعد سورة الطور ، وتُسمَّى الواقية والمنجية والدافعة ، وعن ابن عباس قال ، قال رسول الله ﷺ « وددت أن تبارك الذى بيده الملك فى قلب كل مؤمن » . وعن أبى هريرة أن رسول الله قال : « إن سورة من كتاب الله ما هى إلا ثلاثون آية شفعت لرجل وأخرجته يوم القيامة من النار وأدخلته الجنة وهى سورة تبارك » . ذكرهما الثعلبى فى تفسيره (٩/ ٣٥٤) .

ويقـول الحق سبحانـه ﴿ تَبَارَكَ .. (١)﴾ [تبـارك] وتبارك أى تنزَّه الله تعالى . ولـو استعرضـتَ كلمة (تبارك) فى القرآن الكريم ستجـد فيها ألفاً بعد الباء ، وتأتـى مـرة بغير ألف ، فالمسألة ليست لها رتابـةُ كتابة لأنها لو كانت رتابةَ كتابة لجاءتْ على نظام واحد .

وقـد شاء الحق سبحانه هـذا الأمر لتكون كتابةُ القـرآن معجزة ، كما كانت ألفاظُـه وتراكيبه معجزةً . وقد قـال البعض : إن العرب المعاصرين لرسول الله ﷺ لم يكونوا أهلَ إتقانٍ للكتابة .

ونقول : لو كانوا على غير دراية بالكتابة لما كتبوا (بسم) من غير ألف فى موقعهـا ، لقد علمـوا أنَّ القرآن يجب أنْ يُكتب كما نـزل به جبريل عليه السلام على رسول الله كتابةً توقيفية ، أى كما أمر الحق سبحانه .

وكلمـة ﴿ تَبَـارَكَ .. (١)﴾ [تبارك] مادة الباء والـراء والكاف عادة تدل على البركة ، وهـى أنْ يعطيك الشيءُ من الخير فوق ما تظن فيه ويزيد عن تقديرك ، كمـا لو رأيتَ طعام الثلاثة يكفى العشرة فتقول : إنَّ هذا الطعام مبارك أو فيه بركة .

ومن معانـى تبارك : تعالى قدْره . وتبارك : تنزَّه عن شبه ما سواه ، وتبارك: عظُمَ خيره وعطاؤه . وهذه الثلاثة مُكمِّلة لبعضها .

ومـن العجيـب أن هـذا اللفـظ ﴿ تَبَـارَكَ .. (١)﴾ [تبارك] مُعجز فـى رَسْمه ، ومُعجز فى اشتقاقه ، فلو تتبعتَ القرآن لوجدتَ أنَّ هذه الكلمة وردتْ فى القرآن تسع مرات ؛ سبع منها بالألف (تبارك) ، ومرتان بدون الألف .

فلمـاذا لم تُكتب بالألف فى الجميع أو بدونهـا فى الجميع ؟ ذلك ليدلّك على أنّ رسم القرآن رسمٌ توقيفيٌّ ، ليس أمراً (ميكانيكياً) ، كما فى قوله تعالى فى أول سورة العلق ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ (١)﴾ [العلق] ، فرسم كلمة اسم هنا

بالألف ، وفى باقى القرآن بدون الألف .

فالقرآن ليس عادياً فى رَسْمه وكتابته ، وليس عادياً فى قراءته ، فأنت تقرأ في أى كتاب آخر على أىّ حال كنت ، إلا فى القرآن لابدّ أنْ تكون على وضوء وتدخل عليه بطهر .

إذن فـ ﴿ تَبَارَكَ ..(١)﴾ [الفرقان] تدور حول معانٍ ثلاثة : تعالى قَدْره وتنزّه عن مشابهة ما سواه ، وعَظُم خَيْره وعطاؤه ، ومن تعاظم خيره سبحانه أنه لا مثيلَ له : فى قدره ، ولا فى ذاته ، ولا فى صفاته ، ولا فى فعله . وهذا كلُّه من مصلحتنا نحن ، فلا كبيرَ إلا الله ، ولا جبَّارَ إلا الله ، ولا غنيَّ إلا الله .

وعندما نقرأ كلمة ﴿ بِيَدِهِ ..(١)﴾ [تبارك] لابد أنْ نعلم أنَّ الله سبحانه وتعالى أعلمُ بذاته فنقف عند الوصف ، نعم له يدٌ ، وله يدان ، وإياك أنْ تتصور أنَّ كل ما يتعلق بالله مثل ما يتعلق بك .

فالأصل أنَّ لك وجوداً ، ولله سبحانه وجود ، لكن وجودك غير وجود الله ، وكذلك يده ليست كيدك ، حتى لا نُشبِّه ونقول : إنَّ له يداً مثل أيدينا ، فلنقلْ إنَّ المراد باليد هو القدرة أو النعمة ، والهدف الراقى هو تنزيه الحق .

وهناك مَنْ يقول : إنَّ لله يداً ولكن ليست كأيدينا لأننا نأخذ كلَّ ما يأتى وَصْفاً لله على أنه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١)﴾ [الشورى] والتأويل ممكن .

ويقول الحق ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ .. (٦٤)﴾ [المائدة] والحق سبحانه عندما يقول ﴿ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ .. (١٠)﴾ [الفتح] أى أن قدرة الله فوق قدرتهم ، وكما قال سبحانه عن قدرته فى الخلق : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ[١]

(١) بأييد : أى بقوة وقدرة . وهى مكتوبة فى رسم المصحف بياءين بعد الألف (بأييد) ، فرقاً بين (الأيد) الذى هو القوة ، وبين (الأيدى) جمع (يد) ولا شك أن القوة التى بنى بها الله السماء هى أحق بالثبوت فى الوجود من (الأيدى) [الموسوعة القرآنية - الإبيارى ٣/١٠٤] .

﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧)﴾ [الذاريات]

فإذا كان الملْك بيد **الله** فلا تقلق على رزق ، فاطمئن فما دام **الله** قد استدعاك فإنه ضمن لك رزقك ، ورزقُكَ ينزل من السماء على الأرض فينبت نباتٌ يأكل منه كل كائن على الأرض ، والإنسان أحد هذه الكائنات ، وقد يأكل بعض ما يأكل النبات كالأنعام والماشية .

ورزقك إنما هو مرتبط بكلٍّ ظواهر الطبيعة على الأرض من رياح وهواء ودفء شمس أو مطر ينزل من السحاب ، وهذا كله فى مُلْك **الله** سبحانه ، هو بيده سبحانه لا بيد إله آخر لأنه لا يوجد إله آخر ، فَلِمَ تقلقُ على رزقك ؟

والحق سبحانه ﴿ **بِيَدِهِ الْمُلْكُ** .. (١)﴾ [تبارك] والملْك يقتضى مالكاً ويقتضى مملوكاً ، ويقتضى قدرةً على استمرار هذا الملْك وعدم زواله ، فكأنَّ الحق سبحانه وتعالى يريد أنْ يبين لنا أنه يقدر ويملك المقدرة .

والإنسان ليست له قدرة التملك ولا المقدرة على استبقاء ما يملكه ، وهناك كلمتان (ملْك) و (مُلْك) . وكلمة (مِلك) تعنى أن للإنسان ملكيةَ بعض الأشياء، كملكية إنسان لملابسه وكتبه وأشيائه .

لكنّ تملّكَ مالكِ هذا الملك فهذا نُسمِّيه (مُلْك) ؛ فإذا كانت هذه الملكية فى الأمر الظاهر لنا فإننا نُسمِّيه (عالم المُلك) ، وهو العالم المُشاهد ، وإذا كانت هذه المِلكية فى الأمر الخفى فإننا نسميه (عالم الملكوت) .

إذن نحن هنا أمام (مِلك) و (مُلك) و (ملكوت) . والملكية بالنسبة للإنسان تتلخص فى أنْ يملك الإنسانُ شيئاً فيصير مالكاً ، وإنسانٌ آخر يُولِّيه **الله** على جماعة من البشر فيصير ملكاً ، هذا فى المجال البشرى .

أمـا فى المجال الإلهى فإننا نصعد لـنرى مَنْ يملك كل مالكٍ وملك ، إنه الله سبحـانـه وتعالى ، ولا يظن أحدٌ أن هناك إنساناً قد ملك شيئاً أو جاهاً فى هذه الدنيا بغير مراد الله فيه .

والحـق سبحانـه يقول : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) ﴾ [آل عمـران]

فمَـنْ كان لـه ملْك فإنه لا يدوم ، لأن الله ينزع الملْك ممنْ يشاء ويعطيه لمَنْ يشـاء ، فالله سبحانه هو الذى يعطى الملْك لمَنْ يشاء وهو سبحانه الذى ينزعه ممَّنْ يشاء ، إنها إرادةُ الله الخالق الأعلى ، فعندما يريد فلا رادّ لقضائه .

فــالله بمطلق قدرته وقوته على الملْك خلق الموت والحياة ، وخلق السماوات بكواكبهـا وشموسهـا ونجومهـا ، الله بقدرتـه ذلَّـلَ الأرض والجبـال والأنـهار لخدمـة الإنســان ، وطلب من الإنسـان أنْ يسعى فى منـاكـب الأرض ونواحيهـا ابتغاءَ رزق الله .

فــالله سبحانــه هو القادر والقدير خلق إنسانــاً وأعطى له القدرة على تعمير الأرض وشقّ الطرق والجبال ، ولكن هذا بإقدار الله له لا لذاتية فى الإنسان .

والحـق سبحانـه يقول : ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) ﴾ [تبـارك] ، فللحق سبحانه طلاقةُ القدرة فى مُلكه ، ولذلك إذا قال إنه سيأتى بأمر فسيتحقق هذا الأمر حتماً وسيتم ، ولا توجد قدرة فى هذا الكون إلا قدرة الله سبحانه ، ولا قوةَ إلا قوته جلَّ جلاله ، ولا فعْلَ إلا ما أراد .

والله سبحانـه لا يُعجـزه شيء ولا يخرج عن طاعته شيء ، إنه سبحانه على

كل شـيء قديـر ، فكلّ شيء يدخل فى إرادة الله وقدرته ، فالله له ملك السماوات والأرض ، وهو على كل شيء قدير .

وهو سبحانه القادر الأعلى ، القادر على كل شيء ، القادر على الإيجاد وعلى الإمداد ، وعلى البداية والنهاية المحدودة ، وبداية الخلود إما إلى جنة وإما إلى نار ، فهو القادر على كل شيء .

وما دامت الأحداث تختلف باختلاف القدرات فقدرة الله هى القدرة العليا التى لا تحتاج لزمنٍ لفعل الأحداث .

والحق سبحانه يقول : ﴿ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠) ﴾ [الروم]

فالحق سبحانه له صفاتُ الكمال والقدرة على كلِّ شيء عِلْماً وقدرةً وحكمة وبسْطاً وقبضاً ونفعاً وضراً.

والله قدير حتى قبل أنْ يُوجد مقدور عليه ، فلم يكُنْ قديراً فقط عندما خلق الإنسان ، بل بصفة القدرة خلق الإنسانَ ، لأن الله سبحانه وتعالى ليس أغياراً، لذلك يظل قديراً وموجوداً فى كل لحظة ، وهو القدير أبداً .

وكلمة (قدير) بصيغة (فعيل) التى تأتى بمعنى (فاعل) وتأتى بمعنى (مفعول) مثلما تقول : الله رحيم . أى : أنه راحم هو فاعل ، ونقول : فلان قتيل: أى مقتول أى مفعول به .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ (٢) ﴾

الله جعل للإنسان روحاً يهبه بها الحياة ، ولذلك لنا أنْ نتصوَّر أنَّ للموت حقيقة ، فإذا ما تسلل للإنسان فإنه يسلب الروحَ منه .

وبذلك نستطيع أنْ نفهم قوْلَ الحق سبحانه ﴿ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ .. (٢)﴾ [تبارك] إذن : فالموت ليس عملية سلبية كما يتوهم بعض الناس ، بل هو عملية إيجابية ، وهو مخلوق بسرٍّ دقيق للغاية يناسب دقَّة الصانع .

والحق سبحانه هنا قدَّم الموت على الحياة ، مع أننا فى ظاهر الأمر نرى أن الحياة تأتى أولاً ثم يأتى الموت ، لا ، إن الموت يكون أولاً ، ومن بعده تكون الحياة .

فالحياة تعطى للإنسان ذاتيةً ليستقبل بها الأسباب المخلوقة ، فيحرث الأرض أو يتاجر فى الأشياء أو يصنع ما يلائم حياته ويمتع به السمع والبصر فيظن أن الحياة هى المخلوقة أولاً .

يُنبِّهنا ويُوضِّح لنا الحق : لا تستقبل الحياة إلا إذا استقبلتَ قبلها ما يناقض الحياة ، فيقول لنا عن نفسه : ﴿ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ .. (٢)﴾ [تبارك]

وهذا ما يسهِّل علينا فَهْم الحديث القدسى الشريف الذى يشرح لنا كيف يكون الحال بعد أنْ يوجد أهلُ الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار ، ويأتى الحق سبحانه بالموت فى صورة كبش ويذبحه .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « يُؤتَى بالموت يوم القيامة فيُوقف على الصراط . فيقال : يا أهل الجنة . فيطلعون خائفين وجلين أنْ يخرجوا من مكانهم الذى هم فيه . فيقال : هل تعرفون هذا ؟ قالوا : نعم ربنا هذا الموت . ثم يُقال : يا أهل النار . فيطلعون فرحين مستبشرين أن يخرجوا من مكانهم الذى هم فيه . فيُقال : هل تعرفون هذا ؟ قالوا : نعم هذا الموت ، فيأمر به فيُذبح على الصراط . ثم يُقال للفريقين كليهما : خلود فيما تجدون لا موتَ فيه أبداً »[(١)] .

وتجسيد الموت فى صورة كبش معناه أن للموت كينونة ، ويعلمنا الله أنه

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٣٠) والترمذى فى سننه (٣١٥٦) وقال : حسن صحيح . والآجرى فى كتابه الشريعة (٩٤٢) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

يقضى على الموت فنحيا فى خلود بلا موت .

والحق سبحانه وتعالى هو الذى خلق الموت والحياة وهو الباقى أبداً ، وليس فى حاجة لاستبقاء حياته إلى أحد من البشر ؛ فهو سبحانه قادر على كل شيء ولا يخرج شيءٌ عن نطاق قدرته .

وهو سبحانه قبل أنْ يمتنَّ علينا بالحياة فهو يُحذِّرنا أنْ يأخذنا الغرور بهذه الحياة ، فالحق سبحانه ينبه الإنسان إلى أنْ يستقبل الحياة وهو يعرف أنه سبحانه أوجد ناقض الحياة وهو الموت .

فإياك أنْ تأخذ الحياة على أنها تعطيك قوة الحركة والإدراك والإرادة برتابة وأبدية ، لأن هناك ناقضاً للحياة وهو الموت .

والحق سبحانه لم يقل إنه خلق الحياة والموت ، بل قال : ﴿ خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ .. (٢)﴾ [تبارك] وذلك حتى يستقبل كلٌّ منّا الحياة ويسبقها فى الذِّهْن ما ينقض هذه الحياة وهو الموت .

وذلك حتى لا تتعالى ولا تغفل عن هذه النهاية ولتكُنْ على بالك ، فتُرتِّب حركة حياتك على هذا الأساس .

وكأنَّ الحق سبحانه ينعى إلينا أنفسنا قبل أنْ يخلق فينا الحياة ، وقدَّم الموت على الحياة لتستقبل قبلها الموت الذى ينقضها فلا تغتر بالحياة وتعمل لما بعد الموت .

والذى يستعرض آيات القرآن يجد أن الحياة سبقتْ الموت فى كلِّ الآيات إلا فى آية واحدة فى سورة تبارك ﴿ الَّذى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ .. (٢)﴾ [تبارك]

وعِلَّة ذلك أن الله تعالى يعطى للإنسان بالحياة إرادة تنشيء الحركة فى كلِّ أجهزته ، والحياة قد تُورث الإنسان غروراً فى سيطرته وإرادته على جوارحه فيطغى ، فأراد ربُّه عز وجل أنْ يُنبِّهه : تذكَّرْ أننى أميت؛ ليستقبل الحياة ومعها

نقيضها فيستقيم فى حركة الحياة .

وصفة الخَلْق والإماتة صفاتٌ لله قديمة قبل أنْ يخلق شيئاً أو يُميت شيئاً ، لأنها صفاتٌ ثابتة لله قبل أنْ يباشر متعلقات هذه الصفات .

وكما أن الحياة مخلوقة ، فالموت كذلك مخلوق ، والموت أمر حِسِّى مُشَاهد، والموت والحياة بيد الله ، وأمرُ الموت مرهونٌ بمشيئة الله وطلاقة قدرته وتحديده لكلِّ أجل بوقت معلوم لا يتقدَّم ولا يتأخَّر ، وسيلقى كلّ إنسان نتيجة عمله .

فأمر الموت والحياة بيد واهب الحياة ، فلا يظن ظَانّ أن القتال هو الذى يُسبِّب الموت ، وها هو ذا قوْل خالد بن الوليد على فراش الموت باقياً ليعرفه كلُّ مؤمن بالله :

لقد شهدتُ مائة زحف أو زُهَاءها وما فى جسدى شبر إلا وفيه ضربة سيف أو طعنة برمح ، وها أنذا أموت على فراشى كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء(١) .

إذن : فأمر الحياة والموت ليس مرهوناً بقتال أو غيره ، إنما هو محدَّد بمشيئة الله ، والحق سبحانه يقول: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣)﴾ [الحجر]

وحين يتناول الحق سبحانه فى هذه الآية أمر الموت والحياة ، وعودة الكون فى النهاية إلى منشئه سبحانه ، فهو يُحدثنا عن أمرين يعتوران حياة كل موجود ، هما الحياة والموت ، وكلاهما يجرى على كل الكائنات ، فكلّ شيء له مدة يحياها وأجَل يقضيه .

وخلْق الموت والحياة له غايةٌ ذكرها الحق سبحانه فى قوله تعالى :

(١) ذكره ابن عبد البر فى الاستيعاب (١/٤٠٩) والذهبى فى سير أعلام النبلاء (١/٣٨٢) والكاندهلوى فى حياة الصحابة (١/٥٦٥) . وذكره ابن كثير فى البداية والنهاية (٧/١٢٩) وعزاه للواقدى عن ابن أبى الزناد .

﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا .. (٢)﴾ [تبارك]

فالابتلاء غاية للحياة والموت ، فالحياة ليست رتابة ، بل هى ابتلاء واختبار للبشر ، والابتلاء ليس أمراً مذموماً فى ذاته ، هو مذموم باعتبار ما تئول إليه نهايته ، وما دام سبحانه يبتلينا فيما آتانا فيجب أنْ نكون حكماء، وأنْ نتسابق إلى الخير .

يقول تعالى : ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨)﴾ [المائدة]

والتسابق إلى الخيرات إنما يكون بهدف النجاح فى الابتلاء ، والنجاح يعطينا أكثر مما ننال بعدم الانصياع . إذن : فالابتلاء فى مصلحتنا يعطى الناجحين فيه نجاحاً أخلد .

فمعنى ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ .. (٢)﴾ [تبارك] أى ليختبركم اختبارَ إقرارٍ على نفوسكم أى ليختبركم أيّكم أحسنُ عملاً ، ولكن مَنِ الذى يُحدِّد العمل ؟ إنه الله سبحانه وتعالى .

وهل الحق سبحانه فى حاجة إلى أنْ يختبر مخلوقاته ؟ لا ، فالله سبحانه يعلم أزلاً كلَّ ما يأتى من الخَلْق ، ولكنه سبحانه أراد بالاختبار أنْ يُطابقَ ما يأتى منهم على ما عمله أزلاً حجة عليهم ، وهكذا فاختبار الحق سبحانه لنا اختبارُ الحجة علينا .

والابتلاء من الله نعمة وليس شراً كما يظن بعضُ الناس ، فالابتلاء هو امتحان إنْ نجحنا فيه فهو خير ، وإنْ رسبنا فيه فهو شرٌّ ، فالابتلاء ليس شراً ولكنه مقياسٌ لاختبار الخير والشر .

الذى ابتلى هو الله سبحانه ، هو الرب والربّ معناه المربِّى الذى يأخذ مَنْ يُربّيه بأساليب تؤهله إلى الكمال المطلوب منه ، ومن أساس التربية أنْ يمتحن المربِّى مَنْ يربيه ليعلم هل نجح فى التربية أم لا ؟

ولا بدّ أنه سيأتينى من الابتلاء خير ، وقد يكون الابتلاء فتنة يتعرض

لهـا الإنسـان ، فالفتنة أيضاً هى الابتلاء والاختبـار ، ويُقال : فتنتُ الذهب أى وضعـتُ الذهب فـى بوتقة وحوَّلته بالحرارة العالية مـن جسم صلب إلى سائل حتى تستخلصه من المواد العالقة الشائبة التى فيه ليصير نقياً .

والفتنة فى ذاتها ليست مذمومة ، ولكن المذموم منها هو النتيجة التى تصل إليهـا ، أينجح الإنسان فيها أم يرسـب ؟ لأن الاختبارات التى يمرُّ بها الإنسان كلها هى فتنة ، والذى ينجح تكون الفتنة بالنسبة إليه طيبة .

والـذى يرسب ويفشـل فالفتنة بالنسبـة إليه سيئة ، والحـق سبحانه أعطى للإنسـان قدرة الاختيار ، وقد أراده الله مختـاراً وأن يُبتلى وأن يُختبر ، أينجح أم يرسب ؟ أيكون مؤمناً أم كافراً ؟

والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً وكان فى باله الله حين عمل ، والخاسرون هم الذين يعملون للناس ، لأن الناس لا يملكون لهم نفعاً ، فمَنْ أحسن عملاً لله أخذ أجره من الله فى الدنيا والآخرة .

وقـد قـال تعـالى : ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠)﴾ [الكهف]

و (مَنْ) هنا عامة للمؤمن والكافر ، لذلك لم يقُلْ سبحانه : إنَّا لا نضيع أجر مَنْ أحسن الإيمان ، لأن العامل الذى يحسن العمل قد يكون كافراً ؟ ومع ذلك لا يبخسه الله تعالى حقّه ، بل يعطيه حظه من الجزاء فى الدنيا .

فالكافـر إن اجتهـد وأحسـن فـى علم أو زراعـة أو تجـارة لا يُحرم ثمـرة عمله واجتهاده ، لكنها تُعجَّل له فى الدنيا وتنتهى المسألة حيث لا حظَّ له فى الآخرة.

وهو سبحانه ﴿ الْعَزِيزُ .. (٢)﴾ [تبارك] العزيز الذى لا يُغلب لجبروته ولا يسأله أحد ، فهو سبحانه الغالب على أمره ، وهو القوى الشديد الذى لا ينال منه أحد .

فكلمة (العزيز) تفيد الغلبة والقهر والقدرة فلا يستطيع أحدٌ أنْ يعلو عليه، فالعزة هى القوة والغلبة ، وهو سبحانه العزيز المطلق لأنه لا إله إلا هو لا يُغلب ولا يُقهر.

وهو سبحانه (رب العزة) فى كل ألوانها ، إنْ كانت عزة حكمة فهو الحكيم،

وإنْ كانت عزة غضب وانتقام فهو المنتقم الجبار، وإنْ كانت عزة قبْض على الأمور فهو العزيز، وإنْ كانت عزة حلم فهو الحليم.

ولأنه سبحانه (العزيز) الذى لا يُغلب ولا يُقهر، فهو أيضاً ﴿الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢)﴾ [تبارك]، فهو لعزته يغفر ولجبروته يصفح لأنه غنيٌّ عن العالمين.

ولكى نفهم هذا نقرأ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَـٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَا أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦)﴾ [المائدة]

إلى أنْ يقول: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨)﴾ [المائدة]. وكان المنطق العقلى يقتضى أنْ نقول: فإنك أنت الغفور الرحيم، فالمقام مقام مغفرة.

لكن عيسى عليه السلام يأتى بها لا من ناحية الغفران والرحمة، وإنما من ناحية طلاقة القدرة والعزة التى لا يستدرك عليها أحد، لذلك قال: ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨)﴾ [المائدة]

فلو قال الناسُ: لماذا غفرت لهم مع أنهم قالوا كذا وكذا؟ فالإجابة أننى أنا العزيز الذى أغلب ولا أغلب، ولا يستدرك أحدٌ على حكمى.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا[(١)] مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾﴾

(١) طباقاً: بعضها فوق بعض بين كل سماءين مسيرة خمسمائة عاماً وغلظ كل سماء مسيرة خمسمائة عام. قال الأخفش فى معانى القرآن (٢/٥٤٦): طباقاً واحدها الطبق. وقال الطبرى فى تفسيره (٢٣/٥٠٥): أى طبقاً فوق طبق بعضها فوق بعض.

تفاوت: اختلاف. فلا خلل فى خلق الله، ولا اختلاف ولا اضطراب ولا تشقق فلا ترى فيها شقوقاً.

فطور: يعنى من فروج. وقال قتادة: من خلل. [تفسير عبد الرزاق ٣٢٦٣] والفطور: الصدوع.

الله هـو الإلـه الخالق للكـون ، وهو سبحانـه الخالق البديـع الحكيم الرحيم بعبـاده ، وهو الخالق لـكلِّ ما فى السماوات والأرض ، ومنـزه سبحانه عن أنْ يكـون لـه شريـكٌ فيمـا خلق فهو ﴿ الَّذِى خَلَقَ .. (٣)﴾ [تبـارك]

والله خالـق ، والله رحمـن ، والله رحيم ، والله قهار ، وسبحانه رحمن ورحيم وقهـار ، وخالق حتى قبل أنْ يبرز ويظهـر ما يخلقه ، لأنه بصفة الخالقية فيه خلـق ، وهـو رازق قبل أنْ يخلـق المـرزوق ، فالصفة موجودة فيـه قائمة به ، وبوجود هذه الصفات فيه يقول للشيء : كُنْ فيكون .

وإذا جاء الرسول وأبلغنا أنَّ الله هو الذى خلق الشمس ، فإما أنْ يكون صادقاً فنُسلِّـم جميعـاً بأنَّ الله هو الخالق والموجد ، وإما أنه غير صادق فنقول : لماذا لم يخرج إذن أحد يدَّعى أنه هو الذى خلقها .

ولكـن دقـة وإعجـاز الخلق الذى لا يمكـن أنْ تصل إليه قـوة بشرية مفردة ، أو قـوى بشرية متعددة متعاونة ، جعـل القضية محسومة له سبحانه وتعالى، وإلى أنْ يأتـى مَنْ يدَّعى أنه خلق شيئاً من الكون – ولن يأتى – فقضية الخَلق محسومة لله سبحانه، ولا يوجد هنـاك منـازع .

ويأتى رسولٌ ليقول : إن خالق الأرض والشمس والسماوات والكون هو الحقّ سبحانه وتعالى ، فلم يأتِ أحدٌ يدَّعى أنه قد خلق شيئاً من هذا ، مما يؤكد صحة دعوى الرسول ، مما يؤكد أن مَنْ أوجد هذا الكون هو قوة بلا حدود ، وقدرة بلا قيود .

والحـق سبحانه يسـأل : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥)﴾ [الطـور]

فـإذا كان الجـواب لا هـذا ولا هـذه ، فلا هم خُلقـوا هكذا من غـير شيء ولا هـم الخالقـون . إذن فلابدّ أنْ هنـاك خالقاً وموجداً لنا ، فـإذا جاء لنا الرسول وأبلغنا: إنَّ خالق هذا الكون وخالقنا هو الله فلابد أنْ نُصدِّقه ، لأنه لم يدَّعِ أحدٌ ولا يستطيع أنْ يدَّعى أنه خالق هذا الكون أو أنه خلق نفسه .

والله هــو الخـالــق بتدبير دقيق ، ولله سبحـانه آيات فى كونه ، فحينما تتأمل فــى كَـوْن الله من حولك تجـد آيات تـدلّ على إبـداع الخـالق سبحـانــه وعجيب صَنْعته، وتجد تنـاسقاً وانسجاماً بين هذه الآيات الكونية .

يقــول تعالى عن هــذا النوع من الآيات : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْـلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَـرُ.. (٣٧)﴾ [فصلت] ، ﴿وَمِـنْ آيَاتِـهِ الْجَـوَارِ فِـي الْبَحْـرِ كَالأَعْـلامِ (٣٢)﴾ [الشورى] ، وهذه الآيات تلفتنا إلى قدرة الخـالق سبحـانه وتعـالى .

والخـالـق جـلّ وعلا خلق الكون بـأرضه وسمـائه ، وخلق الخَلْق ، وأنزل القرآن ليُنظـم حياتهم ، وبعـد أن استتبَّ له الأمر لم يترك الكون هكذا يعمل ميكانيكياً، ولم ينعزل عن كونـه وعن خَلْقه ، لأنهم فى حـاجة إلى قيوميته تعـالى فى خَلْقه.

وقـد يشـترك الخَلْق مـع الخالق فى بعضـ الصفـات ، كما فــى قوله تعـالى : ﴿فَتَبَـارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾ [المؤمنون] ، وقـال تعـالى : ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا .. (١٧)﴾ [العنكبـوت]

ومعنــى ذلـك أن هنـاك خـالقين غيره سبحـانــه ، ومعنى الخَلْـق الإيجـاد من عـدم ، فـالذى جـاء بـالرمل وصنـع منه كوبـاً فهو خـالق للكوب صـانـع له ، فـأنت أوجدتَ شيئـاً لم يكُنْ موجوداً ، والله أوجد شيئـاً ، ولكنك أوجدت من موجود الله قبل أنْ توجد أنت .

فهــو إذن أحســن الخـالقــين فـــى حــين لم يضـنّ عليـك ربُّـك بــأنْ ينصفك ويُسمِّيك خـالقـاً ، وهذا يُوجِب عليك أنْ تنصفه سبحـانـه وتقول :﴿ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾ [المؤمنـون]

والله تعــالى احــترم إيجــادك لمعــدوم فسمَّــاك خـالقـاً لــه ، ولم يضـنّ عليك فـأعطــاك صفـةً مــن صفـاتـه إنمـا أخبرك أنه أحسن الخـالقــين ، فهو سبحـانـه هو أحسن الخـالقين ، وهـو خير الرازقين ، وهـو خير الوارثين ، وهـو خير المـاكرين .

ومن الأَوْلَى أَنْ نلتفت إلى الخالق العظيم الذى أبدع لنا هذا الكون ، ومهمة آيات الله الكونية أَنْ تلفت نظر المخلوق إلى بديع صُنْع الخالق وضرورة الإيمان به ، فمنها نعلم أَنَّ وراء الكون البديع خالقاً وقوة تمدّه وتُديرُه .

والله سبحانه وتعالى قبل أَنْ يخلقنا خلق لنا السماوات والأرض ، وأوجد لنا الماء والهواء ، ووضع فى الأرض أقواتها إلى يوم القيامة ، وخَلْق السماوات والأرض أكبر من خَلْق الإنسان .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) ﴾ [غافر]

ولذلك عندما جاء الإسلام ليعرض العلم التجريبى أو المادى جاء ليلفتنا إلى آيات الخالق فى الكون ، وطلب منا أَنْ نتأمل فى هذه الآيات ونُعمِل فيها العقل والإدراك .

واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

وهكذا يلفتنا الله جلَّ جلاله إلى آياته التى فى السماوات والأرض لنُعمل فيها العقل والإدراك لنستنبط منها ما يعطينا الحضارة ، والله قد خلق السماوات والأرض وكلّ ما فيها من خَلْق على غير مثال سابق .

قال تعالى :﴿ بَدِيعُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ (١١٧) ﴾ [البقرة] أى لم يكن هناك سماء أو أرض أو ملائكة أو جنّ أو إنسان ، ثم أوجد الله سبحانه متشابهاً لهم فى شكل أو حجم أو قدرة ، أى أنه سبحانه لم يلجأ إلى ما نُسمّيه نحن بالقالب.

فمسألة خَلْق السماوات والأرض يجب أَنْ يبدأ منها التعجب ، وأنت أيها الإنسان يجب أَنْ تفطن إلى ما خُلق لك لتستدلّ على خالقك ولتؤمن ولتشهد أنه إلهٌ واحد .

فلو أنهم نظروا فى خَلْق السماوات والأرض لاهتدوا بفطرتهم إلى أن لهذا الوجود المتقن المحكم صانعاً قد صنعه لكنهم لا يعقلون، والحقّ سبحانه وحده الذى يحفظ السماوات والأرض فى توازن عجيب ومذهل.

يقول تعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤١) ﴾ [فاطر]

فلئن قُدِّر لهما أنْ تزولا فلن يحفظهما أحد بعد الله، أى لا يستطيع أحدٌ إمساكهما فهما قائمتان بقدرة الواحد القهار، وإذا أراد الله أنْ تزولا فلا يستطيع أحدٌ أنْ يمسكهما ويمنعهما من الزوال.

والله خلق ﴿ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ (٣) ﴾ [الملك] وكلمة السماوات فى اللغة جمع، وفى آية أخرى يقول سبحانه: ﴿ فَقَضَاهُنَّ[1] سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) ﴾ [فصلت]

وقديماً كانوا يقولون: إن المقصود بالسبع سماوات هو الكواكب السبعة الشمس والقمر وعطارد والزهرة والمريخ والمشترى والأرض.

وشاء سبحانه أنْ يكذِّب هذا القول وأصحابه أحياء، فرأى علماء الفلك كواكبَ أخرى مثل: نبتون وبلوتو. وكان فى ذلك لفتة سماوية لمن قالوا: إنَّ المقصود بالسماوات السبع هو الكواكب السبعة.

وقد قالوا هذا القول بحُسْن نية وبرغبة فى ربط القرآن بالعلم، لكنهم نسوا أنْ يُدقِّقوا الفهم لما فى كتاب الله، فسبحانه قد أوضح أن الشمس والقمر والكواكب زينة السماء الدنيا، فما بالنا بطبيعة وزينة بقية السماوات؟

---

(١) فقضاهن: خلقهن وفرغ منهن. قال أبو ذؤيب: فقضاهن: فخلقهن وصنعهن. وقال الثعلبى: فقضاهن: أتمهن وفرغ من خلقهن، وقال الواحدى: فقضاهن: صنعهن وأحكمهن. [التفسير الوسيط للواحدى ٤/٢٧].

ويقول الحق سبحانه ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧) ﴾ [المؤمنون] وطرائق جمع طريقة أى مطروقة للملائكة ، والشيء المطروق ما له حجم يتسع بالطّرْق ، كما تطرق قطعة من الحديد مثلاً ، فانظر إلى السماء واتساعها ، وقُلْ : سبحان مَنْ طرقها .

وتلحظ أنَّ الحق سبحانه لم يذكر هنا الأرض ، لماذا ؟ قالوا : لأن الأرض نقف عليها ثابتين لا نخاف من شيء ، إنما الخوف من السماء أنْ تندكَّ فوقنا ، لذلك يقول سبحانه بعدها : ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧) ﴾ [المؤمنون]

فلن نغفل عن السماء من فوقكم وسوف نُمسكها بأيدينا ، والحق سبحانه يعطينا الدليل الحسيَّ على هذا ، وكيف أن الله تعالى رفع السماء فوقنا بلا عمد ، ومثال ذلك الطير يُمسكه اللهُ فى السماء .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ[1] وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩) ﴾ [الملك]

والسماء هى كلّ ما علاك فأظلّك ، هذا معنى السماء فى اللغة ، لكن هل السماء التى يريدها الله هى كلّ ما علاك ؟ إن النجم هو ما علاك ، وقد يُقال : إن الشمس علتْكَ والقمر علانا جميعاً .

ونلفت الانتباه هنا ونقول للذين أحبوا أنْ يجعلوا السماوات هى الكواكب : إنها ليست دائماً ما علانا ، فالشمس تعلو وقتاً وتنخفض وقتاً آخر ، وكذلك القمر .

إذن فالوصف منحسرٌ عن الشمس أو القمر بعض الوقت ، ولا يصح أنْ يُوصف أيٌّ منهما بأنه سماء دائماً ، وشيء آخر وهو أنهم حينما قالوا عن الكواكب التى كانت معروفة بأنها كواكب سبعة ، وقالوا : إنها هى السماوات

---

(١) صافات : يبسطن أجنحتهن فى جو السماء . مفتوحة الأجنحة . قال ابن الجوزى فى زاد المسير (٣١٦/٤) : أى نصف أجنحتها فى الهواء ، وتقبض أجنحتها بعد البسط .

قد وقعوا فى خطأ .

وقد كشف الله لهم بالعلم أنَّ للشمس توابع أخرى ، فمرة رأى العلماء ثمانية توابع ، ومرّة تسعة ، وأخرى عشرة توابع ، وهكذا انهدمت فكرة أن التوابع هى السماء وبقيتْ السماء هى ما فوق هذا كله .

وقد خلق اللهُ السماوات طبقاتٍ فوق بعضها ، والحق سبحانه يقول : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ (١٩) ﴾ [الانشقاق] يعنى : طبقاً بعد طبق .

فالله هو الخالق لسبع سماوات بإتقان بعضها فوق بعض ، فلا يرى الناظرُ أيَّ خلل فى هذا الخَلْق ، وليُعد الإنسانُ النظرَ إلى السماء فلن يجد أيَّ خلل من شقوق أو فروق .

ولك أنْ تلاحظ صنعة البشر إذا أراد أحدُنا أنْ يبنى مثلاً أو يصنع سقفاً ، فالبناء يُبنى بمنتهى الدقة ، ومع ذلك ترى طوبة بارزة عن طوبة ، فيأتى عامل المحارة فيحاول تسوية الجدار ويزنه بميزان الماء ، ومع ذلك نجد فى الجدار تعاريج ، ثم يأتى عامل الدهانات فيحاول إصلاح مثل هذه العيوب فيُعد لها معجوناً ويكون له فى الحائط دور هام .

وبعد أنْ يستنفد الإنسانُ كلَّ وسائله فى إعداد بيته كما يحب تأتى بعد عدة أيام ، فترى الحق سبحانه يُعدِّل على الجميع ويُظهر لهم عيوب صنعتهم مهما بلغت من الدقة بقليل من الغبار ينزل عمودياً فيُريك بوضوح ما فى الحائط من عيوب .

وإذا كانت صنعة البشر تختلف باختلاف مهارة كل منهم وحذقه فى عمله ، فما بالك إنْ كان الصانعُ هو الله الذى يبنى ويُسوِّى ويُزيِّن ؟

﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ (٣) ﴾ [الملك] فبرحمته سبحانه خلق اللهُ الكونَ على هذه الكيفية ، فأتى الحقُّ سبحانه هنا بالاسم الذى كان يجب أنْ يقدره حقَّ قدْره وهو (الرحمن) .

فهم يعيشون فى كون الله الذى أعدَّه لهم برحمته ، فكلّ ما حولهم وما يقيتهم وما يستمتعون به من نعم الله من عطاءات الله ، وكان الواجب أنْ يقدروا صنعة الرحمن دون أنْ يكون لهم حَوْلٌ أو قوة .

فالرحمن الذى يُنعم بالنعم كلها ، وقد اختار الرحمن دون الجبار أو القهار، لأن الرحمةَ صفةُ تحنين للخَلْق .

وخَلْق الرحمن ليس فيه ﴿ مِنْ تَفَاوُت (٣) ﴾ [الملك] وانظر إلى أمهر الصُّناع الآن يُسوى سقفاً لعدة حجرات ويستخدم مادة واحدة ويُلوِّنها بلون واحد ، لا بد أنْ تجد اختلافاً من واحدة للأخرى ، حتى إن خلط العاملُ اللونَ مرة واحدة لكلِّ الحجرات يأتى اللون مختلفاً ، لماذا ؟لأنه حين يأخذ من هذا الخليط تجد ما يتبقى أكثر تركيزاً ، فإذا لم يكمل العمل فى نفس اليوم تجد ما تبقى إلى الغد يفقد كمية من الماء تؤثر أيضاً فى درجة اللون .

وقوله ﴿ مِنْ تَفَاوُت (٣) ﴾ [الملك] أى أن خَلْق الرحمن خالٍ من أى شيء مما قد يُسمى تفاوتاً واختلافاً. ومثال هذا حين تذهب إلى إنسان وتطلب منه مالاً يقول لك : ما عندى مال . أى لا أملك مالاً ولكنه قد يملك جنيهاً أو جنيهين، ولا يعتبر هذا مالاً يمكن أنْ يُوفى بما تريده .

وتذهب إلى رجل آخر بنفس الغرض تقول أريد مالاً ، يقول لك : ما عندى من مال أى ليس عندى ولا قرش واحد . ما عندى أيّ مبلغ مما يُقال له مال حتى ولو كان عدة قروش .

فلا ترى فى خَلْق الله من اختلاف فى الخِلْقة والصنعة فهى مستوية لا تنافرَ فيها ولا مخالفة ولا نقصَ ولا عيب ولا خلل ، فلا ترى فى السماء اضطراباً وتبايناً فى الخِلْقة ولا اعوجاجاً .

وحقيقة التفاوت عدم التناسب كأنَّ بعض الشيء يفوت بعضه ولا يلائمه ولا يتناسب معه ، وهذا لا يجوز على خَلْق الله ، فيقول الناظر : لو كان كذا كان

أحسن ، ولكن الله خلقها محكمة متقنة .

﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ (٣) ﴾ [الملك] فليُعد الإنسانُ النظر إلى السماء وليس مجرد النظر بل النَظر المقترن بالتأمل والتفكّر في خَلْق الله فهو بصر وليس نظراً حسياً مجرداً ، لذلك قال تعالى ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ (٣) ﴾ [الملك]

وأنت قد ترى بعض الألفاظ فتظن أنَّ معناها واحد في الجملة ، إلا أن لكل لفظ منها ملحظاً ، فأنت قد تسمع مثلاً : رأى ، نظر ، لمح ، رمق ، رنا . كل هذه تدلُّ على البصر والرؤية ؛ لكن لكلِّ لفظ معنى : رمق : رأى بمؤخَّر عينه ، ولمح: شاهد من بُعْد . رنا : نظر بإطالة . وهكذا .

والبصر مهمة العين في الأمور الحسية ، لكن عندما يقترن البصر بالبصيرة فيضيء القلب بالنور حتى يصل ببصره إلى إدراك أنَّ خَلْق الله لا يعتوره تفاوتٌ ولا خللٌ ، فمَنْ وهبه الله دقةَ العلم وبصيرة العلماء يرى بإشعاعات البصر والعلم عالم الملكوت ويستخرج الأسرار ويستنبط الحقائق .

﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ﴾ [الملك] فليُعد الإنسانُ النظر إلى السماء فلن يجد أيَّ خلل من شقوق أو فروق . و (فطور) هنا معناها شقوق .

فالحق سبحانه بتمام قدرته يعطي الشيء من الصفات ما يجعله صالحاً لأداء ما خُلق له فلا يظننَّ ظانٌّ أنه خرج عن قدرة خالقه سبحانه ، وخلق السماوات والأرض بتمام إبداع وإحكام ، وهو القادر على أنْ يفطرهما ، ويجعلهما غير صالحين في أيِّ وقت شاء ، ومثلهما الشمس تُكوَّر والنجوم تُطمس والجبال تُنسَف .

فالسماء العليا هي بشكل واحد لا ترى فيها من فطور ، والحق سبحانه قد أحكم خَلْق السماء ، فقال تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ (٤٧) ﴾ [الذاريات] وفي آية أخرى قال : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) ﴾ [الذاريات]

يعنى : محبوكة ومحكمة ، والحبكة معناها أن ذراتها التى لا تُدرك ملتحمة مع بعضها ، ليس التحاماً كلياً إنما التحامُ ذرات ، لذلك ترى السماء ملساء .

ولذلك قال عنها الخالق عزَّ وجل : ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا[1] فَسَوَّاهَا (٢٨) ﴾ [النازعات] ولك أنْ تنظر إلى السماء حالَ صفائها وسوف تراها ملساء لا نتوءَ فيها ولا اعوجاج على اتساعها هذا ، وقيامها هكذا بلا عمد .

لذلك يدعوك الحق تبارك وتعالى إلى النظر والتأمل يقول لك : لن نغشّك انظر فى السماء وتأمل ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ﴾ [الملك]

والحق سبحانه يقول : ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (١٠١) ﴾ [يونس] فالكون كله أمامكم فلماذا لا تنظرون ولا تتأملون ؟

فالحق سبحانه قد رفع السماء ووضع الميزان ، فالسماء لا تقع على الأرض والنظام محكم تماماً ، والشمس تطلع من الشرق وتغرب فى الغرب ، والقمر والنجوم تسير فى مُنتهى الدقّة والإبداع ، لأنه لا دخْلَ لأحد من البشر فيه .

فإنْ أردتم أنْ تصلُحَ حياتكم ، وأنْ تستقيم أموركم كما استقامت هندسةُ السماء والأرض فخذوا الميزان من السماء فى أعمالكم ، واتبعوا القول الحق : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) ﴾ [الرحمن]

وما دمتم قد رأيتم أنَّ الأمور الموجودة التى تسير بنظام لا تتحكمون فيه تعمل باستقامة وترون أن الفساد قد جاء من ناحية الأمور التى دخلتم فيها ، فلماذا لا نتبع منهج الله فى الأمور التى لنا دَخْلٌ فيها ؟

إنك إنْ عملتَ فى الحياة بمنهج الله الذى خلق الحياة فإنَّ أمورك تستقيم

---

(١) سَمْكها : بناءها وبنيانها . وقال السمرقندى : سمكها سقفها . قال الفراء : كل شيء حمل شيئاً من البناء وغيره فهو سمك وبناء . وقال الواحدى فى الوجيز (١١٧١/١) : سمكها : سقفها .

لك كما استقامتْ الأمور العُلْيا فى الكون ، فالسماء لا تقع على الأرض لأنها محكومةٌ بنظام محكم تماماً ، والأرض لا تدور بعيداً عن فلكها ، لأن خالقها قد قدَّر لها النظام المحكم تماماً .

إنه نظامٌ دقيق مُحكم لأنه لا دَخْل للإنسان فيه ، اصنعوا ميزاناً فى كل الأمور التى لكم فيها اختيارٌ حتى لا تطغوا فى الميزان ، فكمالُ قدرة الله أحكمت خَلْق السماء .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤ ﴾

فَأَعِدْ البصر ثانية مرة بعد أخرى ، فانظر هل ترى من فطور أو تفاوت أو خلل ؟ فإنْ لم تستدرك التثبُّت والتأمل بالمرة الأولى فرُدَّ البصر مرة أخرى مُسْتقصياً ، وردِّد البصر مرة أخرى بعد مرة ، وذلك لأن الإنسان إذا نظر فى الشيء مرة لا يرى عيبه ما لم ينظر إليه مرة أخرى .

فإنْ كنتَ تظنُّ أنَّ فى خَلْق السماء عيباً ما أو اختلافاً فانظر المرة بعد الأخرى ليزول ما تتوهّمه ، كأنَّ الله يقول له : انظر كما تشاء وخُذْ راحتك فى النظر والتأمل .

والنتيجة أنك سينقلب إليك البصر خاسئاً ، فبصرك سينقلب إليك كليلاً ضعيفاً لا يقوى على مواجهة الضوء الشديد كما لو واجهتَ بعينيك ضوءَ الشمس أو ضوءَ سيارة مباشر ، فإنه يمنعك من الرؤية لأن الضوءَ الأصل فيه

أن نرى به ما لا نراه.

فـ ﴿ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ (٤) ﴾ [الملك] أي يرجع إليك البصر (خاسئاً) صاغراً بمنزلة الخاسيء وهو الذليل المطرود المبعد عن أنْ ينظر باستدامة ، فالخاسيء الذي لم يَرَ ما يهوى ، فهو خاسيءٌ ولم يحصل له ما طلب من رؤية التشقق والخلل .

ولن ينقلب ويرجع إليك البصرُ خاسئاً فقط ، بل سينقلب ﴿ وَهُوَ حَسِيرٌ (٤) ﴾ [الملك] أي كليل ضعيف عن تحمّل الضوء ، والحسرةُ شدة التلهف على الشيءِ الفائت .

ويقول تعالى : ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) ﴾ [الأنبياء] فيستحسرون من حسر يعني ضعف وكلَّ وتعب وأصابه الملل والإعياء .

والحقُّ سبحانه قد ذكر خَلْق السماوات والأرض فقال : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ (٤) ﴾ [السجدة]

فذكر سبحانه استواءه تعالى على العرش بعد خَلْق السماوات والأرض ، ونحن نأخذ كلَّ صفة عن الله في نطاق التنزيه ، سبحان الله وليس كمثله شيء فليس استواءُ الله مثل استواء البشر .

ويقول تعالى : ﴿ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥) ﴾ [طه] فهل لله جسمٌ يستقرُ به على عرش ؟ فنقول : هذا هو المتشابه الذي يجب على المؤمن الإيمانُ به ، ذلك أن وجودك أيها الإنسان ليس كوجود الله ، ويدك ليست كيد الله ، واستواؤك ليس كاستواء الله .

ورسول الله ﷺ يقول عن عرش الله :

(ثم علي ظهورهم العرش بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء) وهذا يدلُّ على عظيم خلق الله سبحانه (ثم الله تبارك وتعالى فوق ذلك)[1] نؤمن بها كما هى ، لا نحاول أن نفهمها بمفهومنا البشرى ، فكلٌّ ما خطر ببالك فالله سبحانه على خلاف ذلك .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥ ﴾

(قد) حرف تحقيق للخبر ، فهو من حروف توكيد الخبر ، وهو حرفٌ يدخل على الفعل ، ويدخل على الماضى والمضارع . وقوله تعالى (ولقد) فالواو استئنافية ، واللام واقعةٌ فى جواب القسم . وقد حرف تحقيق .

والله قد زيَّن السماء الدنيا بمصابيح ، والمصابيح هى النجوم ، ونحن نُذهَل عندما نعرف أنَّ بعض النجوم يصل ضوؤها إلينا فى خمسين سنة ضوئية ، وعندما نريد أنْ نرصد المسافة بيننا وبين أحد النجوم فلسوف نُضطر إلى استخدام أعداد كثيرة من الأصفار أمام رقم ما .

وقد وضع علماءُ الفلك وحدةً ملائمة لقياس أبعاد النجوم ، وهى ما نُسميه

---

(١) عن عباس بن عبد المطلب قال : كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ بالبطحاء فمرت سحابة فقال رسول الله : أتدرون ما هذا ؟ قلنا : السحاب . قال : والمزن ؟ قلنا : والمزن . قال : والعنان . قال : فسكتنا فقال : هل تدرون كم بين السماء والأرض ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : بينهما مسيرة خمسمائة سنة ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة ،وكثف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة ، وفوق السماء السابعة بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين ركبهن وأظلافهن كما بين السماء والأرض ثم فوق ذلك العرش بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض ، والله فوق ذلك وليس يخفى عليه من أعمال بنى آدم شيء . [أخرجه أحمد فى مسنده ١٧٧٠]

السنة الضوئية ، ونحن نعرف أن سرعة الضوء حوالى ثلاثمائة ألف كيلو متر فى الثانية .

والشمس كنجم مضيء كبير بيننا وبينها ثلاثة وتسعون مليوناً من الأميال ، ويصلنا ضوؤها فى خلال ثمانى دقائق وثلث الدقيقة ، والشِّعرى اليمانية[1]، وهى ألمع نجوم السماء يصل إلينا ضوؤها فى تسع سنوات ضوئية ، والسنة الضوئية هى وحدة لقياس المسافات الفلكية .

ونحن ننظر فنجد نجوماً لامعة تحت السماء الدنيا ، والله قد أوضح أنَّ الشمس والقمر والكواكب زينة السماء الدنيا ، فما بالنا بطبيعة وزينة بقية السماوات ؟

وهذه المصابيح النجوم والكواكب هى الزينة المدلاَّة من السماء الدنيا ، تُضيء لنا ولكنها ليستْ هى السماء الدنيا ، والله عزَّ وجلَّ يقول : ﴿ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ (١٢) ﴾ [فصلت]

فأين السماء الدنيا من النجوم المضيئة التى نُشاهدها ؟ وبيننا وبين الشمس ثمانى دقائق ضوئية ، وبيننا وبين المرأة المسلسلة[2] مائة سنة ضوئية ، وبيننا وبين المجرة مليون سنة ضوئية .

ولك أنْ تضرب مليون سنة فى ٣٦٥ يوماً ، وتضرب الناتج فى ٢٤ ساعة، وتضرب الناتج فى ستين دقيقة ، ثم فى ستين ثانية ، ثم تضرب الناتج من ذلك فى ٣٠٠ ألف كيلو ، ثم تأمل الرقم الذى وصلتَ إليه .

والشمس هى أكبر نجم تُزيِّن سماءنا ، يستفيد منه كلُّ الخَلْق المؤمن والعاصى، والكافر والمشرك ، فإذا غابتْ الشمس نجد كلَّ واحد منا يستعين

(١) الشعرى اليمانية أسطع النجوم فى السماء ليلاً ورابع ألمع جرم فى السماء بعد الشمس والقمر ، وهو عبارة عن نجمين مترافقين . وقال تعالى ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى (٤٩) ﴾ [النجم] .
(٢) مجرة المرأة المسلسلة هى أقرب المجرات لمجرتنا وهى تبعد عنا نحو ٢,٥ مليون سنة ضوئية وتحتوى على ٢٥٠ مليار نجم ويبلغ قطرها ١٥٠ ألف سنة ضوئية ، يمكن رؤية المجرة بالعين المجردة .

بنور يعطيه الضوء فى حيِّز محدود وعلى قدْر إمكاناته .

فواحدٌ يُوقِد شمعة ، وواحدٌ يأتى بمصباح (جاز) صغير ، وواحد يستخدم الكهرباء فيأتى بمصباح (نيون) ، وواحد يأتى بالعديد من مصابيح الكهرباء ليملأ المكانَ بالنور ، كُلٌّ على قدْر إمكاناته .

فإذا طلعتْ شمسُ الله فهل يُبقى أحدٌ على مصباحه مُضَاء ؟ إن الجميع يُطفئون مصابيحهم لأن شمس الله قد سطعتْ تُنير للجميع ؟ ذلك هو النور الحسيّ ، والفرْق بين نور بقدرات الإنسان ونور من خَلْق الله يتمثَّل فى أنَّ النور الذى من خَلْق الله يُطفيء المصابيح كلها لأنه يغمر الجميع .

والله لم يجعل النجوم مجرد مصابيح تُزيِّن السماء فقط ، بل جعلها علامات يهتدى بها الناس ، قال تعالى : ﴿ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) ﴾ [النحل]

ونعلم أنَّ كلَّ مَنْ يسير فى البحر إنما يهتدى بالنجم ، وكذلك فى الصحراء . وقد كانت قريش لها رحلتان فى العام رحلة الشتاء ورحلة الصيف ، وكانت تسلك سُبلاً متعددة فتهتدى بالنجوم فى طريقها ، ولذلك لا بدّ أنْ يكون عندها خبرة بمواقع النجوم .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) ﴾ [الأنعام]

وقد جعل الحقُّ سبحانه النجومَ ليهتدى بها هؤلاء الذين يسهرون أو يضربون فى الأرض أو يمشُون فى البحر بسفنهم ، وهم يحتاجون إلى ضوء قليل ليهديهم ، ولذلك كان العرب يهتدون بالنجوم .

يقول الواحد منهم للآخر : اجعل النجم الفلانى أمام عينيك ، واجعل النجم الفلانى عن يسارك وامش تجد كذا ، أو اجعل النجم الفلانى خلفك وامش تجد كذا .

والنجوم ليست فقط للاهتداء فى ظلمات البر والبحر، لأنه لو كان القصد منها أنْ نهتدى بها فى ظلمات البر والبحر لكانتْ كلُّها متساوية فى الأحجام، لكنا نرى نجماً كبيراً وآخر صغيراً، وقد يكون النجم الصغير أكبرَ فى الواقع من النجم الكبير لكنه يبعد عنا بمسافة أكبر.

وقد جعل الحق سبحانه للنجوم مهمة جمالية كبيرة، وهى أنْ تكون زينة لكلِّ مَنْ ينظر إليها، لذلك قال سبحانه ﴿ وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) ﴾ [الحجر] ذلك أن الشيء قد يكون نافعاً، لكن ليس له قيمة جمالية.

وشاء الحق سبحانه أنْ يجعل للنجوم قيمة جمالية، وللنفس الإنسانية ملكة لرؤية الزينة، فالزينة تستميل النفس الإنسانية، لذلك يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا[1] وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) ﴾ [الحجر]

والجمال قيمة ونعمة يُنعم الله بها، ونجده سبحانه يقول عن بعض نعمه التى أنعم بها علينا ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً (٨) ﴾ [النحل]

وهو سبحانه وتعالى الذى جعل تلك الدواب لها منظر جميل، فهو سبحانه القائل: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) ﴾ [النحل]، وهو سبحانه لم يخلق النعم لنستخدمها فقط فى أغراضها المتاحة، ولكن بعضاً منها يروى أحاسيس الجمال التى خلقها فينا سبحانه، وكلما تأثرنا بالجمال وجدنا الجميل، وفى توحيده تفريدٌ لجلاله.

والله بتزيين السماء الدنيا بمصابيح يشيع نعم الله على خَلْق الله، فالله يعطى فائدة حَمْل الأثقال لمن يملك الأثقال، يقول تعالى: ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٧) ﴾ [النحل]

---

(١) البروج: الكواكب. قاله مجاهد. وقد فسَّره مقاتل بن سليمان بالنجوم. وقال عطية بن سعد: قصوراً فى السماء فيها الحرس. وكذا قال أبو صالح. وقال آخرون: هى النجوم الكبار [تفسير الطبرى ١٧/٤٨٣].

أمـا الـذى لا يملك الأثقال فهو يرى الحصـان يسير بجمال فيسـعد برؤيته فيستمتع بما لا يملك ، وهذه إشاعةٌ لنِعَم الله على خَلْق الله .

فالحق سبحانه قد أعطانا الترف بجانب الضروريات ، فالدفء والمنافع والأكل ضروريـاتٌ للحياة ، أما الجمال فهـو من ترف الحياة ، والجمال هو ما تراه العين فيتحقق السرور فى النفس .

والـدفء والمنافـع والأكل هو أمور خاصـة لمَنْ يملك الأنعـام ، أما الجمال فمشاع عام للناس ، فحين ترى حصاناً جميلاً ، أو ترى بقرة مزهوة بالصحة فأنت ترى نعمة الله التى خلقها لتسُرَّ الناظر إليها .

فهناك جمال وأُبَّهة تُرضـى شيئاً فى نفوسكم ، وتشيع ملكة من ملكاتها فـالله عزَّ وجلَّ أعطانا ضروريـات الحياة وأعطانـا كمالياتهـا وجمالياتها ، والزينة من أجل الجمال .

ويقول الحق سبحانه ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (٧) لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا[١] وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) ﴾ [الصافات]

فحين تنظر إلى السماء ليلاً نجدها مزدانة بالنجوم تتلألأ ، وقد قال عبدالله ابن مسعود رضـى الله عنه أن جرير بن عبدالله قال لرسـول الله ﷺ : « حدِّثنى يارسـول الله عـن السـماء الدنيا . فقال : أما السمـاء الدنيا فـإنَّ الله خلقها من دخـان ثـم رفعها ، وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً ، وزيَّنها بمصـابيح النجوم وجعلها رجوماً للشياطين ، وحفظها من كل شيطان رجيم»[٢] .

والحق سبحانه قال : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ (٥) ﴾ [الملك] ، ويقول تعالى:

---

(١) دحوراً : مطرودين . [مجاهد فى تفسيره ٥٦٦/١] قال مقاتل بن سليمان فى تفسيره (٦٠٢/٣) : دحوراً يعنى طرداً بالشهب من الكواكب . والدحر : الدفع والإبعاد . وقال ابن الجوزى فى زاد المسير (٣٩/٥) دحوراً فيه تأويلان . أحدهما : قذفاً فى النار . الثانى : طرداً بالشهب . والدحور : الدفع بعنف.

(٢) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦٩/٥) وعزاه لابن مردويه عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

﴿ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) ﴾ [فصلت]

فالله جعل المصابيح التى زيَّن بها السماء الدنيا رجوماً للشياطين تُرجم بها . (حفظاً) وحرساً من الشياطين أنْ تستمع للملأ الأعلى .

وقوله ﴿وَجَعَلْنَاهَا(٥) ﴾ [الملك] يعود على جنس المصابيح لا على عين المصابيح ، لأنه لا يُرمى بالكواكب التى فى السماء ، بل يُرمى بشُهب من دون الكواكب ، وقد تكون مستمدة منها .

فبعض النجوم زينةٌ للسماء لا يتحرك ، وبعضها يُهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ، وبعضها رجوم للشياطين .

والنجوم التى زُينتْ بها السماء ليست هى التى يُرمى بها ، بل هى نجوم وكواكب مضيئة متلألئة عليها كتلؤلؤ المصابيح ، فالسماء الدنيا كالسقف المرفوع المُزيَّن بمصابيح معلَّقة به .

وقد وصف الله هذه النجوم بأنها مصابيح ملحوظٌ فيها إضاءتها ، فالمصابيح تعطى ضوءاً ، أما القمر فيعطى نوراً ، يقول تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا (٥) ﴾ [يونس] ، وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) ﴾ [نوح]

أما الشمس فتعطى ضياءً ولذلك فهى سراج ، والفرق بين الضياء والنور يتمثل فى أنَّ الضياء تصحبه الحرارة والدفء ، أما نور القمر فهو نور حليم .

والنور هو ضوء ليس فيه حرارة ، والحرارة لا تنشأ إلا حين يكون الضوء ذاتياً من المضيء مثل الشمس ، أما القمر فضووءه غير ذاتى ويكتسب ضوءه من أشعة الشمس حين تنعكس عليه ، فهو مثل المرآة حين تُسلّط عليها بعضاً من الضوء فهى تعكسه .

والرجوم والرُّجم هى النجوم التى يُرمى بها ، وهى الشُّهب التى جعلناها .

مرامي لهم ، وهم لا يُرمون بالنجوم نفسها إنما بشُهب أُخذت من النجوم ، وما ذاك إلا كقبس يُؤخذ من نار والنار ثابتة في مكانها .

وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ[1] نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) ﴾ [طه]

سيأتيهم بقبس من النار وتبقى النار كما هي ، والقبس هو شعلةُ النار التي تُتخذ من النار إنْ أدركت النار وهي ذات لهب ، فتأخذ منها عوداً مُشتعلاً مثل الشمعة.

وفي سياق آخر قال : جذوة . وهي النار حينما ينطفيء لهيبها ويبقى منها جمراتٍ يمكن أنْ تشعل منها النار ، وفي موضع آخر قال : ﴿ سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ (٧) ﴾ [النمل]

والله جعل الشُّهب ﴿ رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ (٥) ﴾ [الملك] وكان الشياطين قبل نزول القرآن يسترقون السَّمْع ، وكان للشياطين مقاعد للسمع في السماء تقعد فيها لتستمع إلى ما ينزل من السماء إلى الأرض ليتم تنفيذه[2].

يقول تعالى : ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا (٩) ﴾[الجن] فكانوا يسترقون السمع ويأخذون بضعاً من كلمات المنهج ويزيدون عليها فتبدو بها حقيقةٌ واحدة وألف كذبة .

ولذلك نجد الشياطين تقول ما ذكره الحق سبحانه على ألسنتهم في كتابه

---

(١) آنست الشيء : رأيته . وسُمّي الإنس إنساً لظهورهم . وقال أبو زيد : أنست الشيء أبصرته من بُعْد . [المخصص لابن سيده المرسي ١/١١٢] .

(٢) عن ابن عباس أنه لم تكن قبيلة من الجن إلا ولهم مقاعد للسمع ، فكان إذا نزل الوحي سمعت الملائكة صوتاً كصوت الحديدة ألقيتها على الصفا ، فإذا سمعته الملائكة خروا سجداً فلم يرفعوا رؤوسهم حتى ينزل فإذا نزل قال بعضهم لبعض : ماذا قال ربكم ؟ فإن كان مما يكون في السماء قالوا : الحق وهو العلي الكبير ، وإن كان مما يكون في الأرض من أمر الغيب أو موت أو شيء مما يكون في الأرض تكلموا به فقالوا : يكون كذا وكذا ، فتسمعه الشياطين فينزلونه على أوليائهم ، فلما بعث الله محمداً دُحروا بالنجوم . [مصنف ابن أبي شيبة ٣٦٥٤٢] .

العزيز : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا (٩) ﴾ [الجن]

ثم يقول الحق سبحانه ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (٥) ﴾ [الملك] أى : أعددنا للشياطين فى الآخرة عذاب السعير ، فرجمهم بالشهب هو فى الدنيا ، وعذابُ السعير هو عذابهم فى الآخرة .

والمقصود بالشياطين مردة الجنّ ، وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (٧) لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠) ﴾ [الصافات]

والسُّعر اسم من أسماء الجحيم ، وقسم من أقسام النار ، فهناك لظى ، وهناك حُطمة ، وهناك سقر ، وهناك الهاوية . والسعير هى النار المتوهِّجة التى لا تخمد ولا تنطفيء ، فالسعير اسمٌ للنار المسعورة التى تلتهم كلَّ ما أمامها . كما نقول : كلب مسعور .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝٦ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧ ﴾

وإذا كان للشياطين عذابُ السعير فإن للذين كفروا بربهم عذابَ جهنم ، فالذين كفروا بالله لهم العذاب الذى يبدأ بسماع شهيق جهنم فى أثناء فورانها .

والشهيق هو قوة تجذب وتسحب الهواء إلى الأنف والصدر ، فما بالنا بقوة شهيق جهنم وهى تجذب وتسحب الذين وقع عليهم الأمر بالعذاب ؟

وهذه النار نفسها تردُّ على سؤال الحق لها عندما تسمع قوله : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ

﴿جَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠)﴾ [ق] ، فقوة العذاب التى جعلها الله مهمة لجهنم هى التى تُلحُّ وتندفع لطَلَب المزيد من عقاب الكافرين .

ولأن للنار شهيقاً فهى تستنشق المكتوبَ عليهم العذاب ، والشهيق يتم بسرعة أكبر من الزفير ، والشهيق فى الحياة يكون للهواء ، وهذا الشهيق الذى يعطى الحياة فى الأرض يوجد أيضاً فى الآخرة ولكنه شهيق النار .

إنها تشهق لتبتلع العصاة ، فالنار تشتاق للكفار وتنتظرهم وتتلهَّف عليهم ، كما يقول تعالى : ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠)﴾ [ق]

وكما للنار شهيقٌ فإن لها زفيراً أيضاً ، يقول تعالى : ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢)﴾ [الفرقان] ، والزفير : النفَس الخارج .

ومَنْ يدخل النار سيكون له شهيقٌ وزفير أيضاً ، يقول تعالى : ﴿فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦)﴾ [هود] ونحن نعلم أن الذى يتنفس فى النار سيخرج الهواء من صدره ساخناً مثلما يأخذ الشهيق ساخناً .

ولنا أنْ نتخيَّل صورة التنفس داخل النار وسط جوِّها المكفهر باللهب ، فالإنسان يتنفس ليستروح بالهواء ، فكيف يأخذه من النار ؟ إن فى ذلك عذاباً عظيماً .

كيف يستروح بهواء نار تفور ﴿وَهِيَ تَفُورُ (٧)﴾ [الملك] ومعنى كلمة (تفور) أى أنها وصلتْ إلى درجة الغليان كالماء مثلاً ، والماء يحتوى على هواء بدليل أنَّ السمك يتنفس من الماء ، وحين نغلى الماء نرى فقاقيع الهواء ، وهى تخرج من الماء ، فكيف يتنفس السمك ؟

وهم إنما يُلقوْن فى النار إلقاءً ، فليس دخولهم دخولاً هيِّناً ليِّناً فيه رِفْق ورحمة ، والإلقاء لا يكون إلا لمادة وعين ، وفعل الإلقاء ورد فى آيات كثيرة .

فقال تعالى: ﴿ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ[1] وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي (١٥٠) ﴾ [الأعراف]. فإلقاء الألواح إلقاءٌ لأمر مادى.

ويقول تعالى: ﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) ﴾ [الشعراء] إلقاء للحبال والعصى.

وهنا أيضاً فى قوله تعالى: ﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا (٧) ﴾ [الملك] وهو إلقاءٌ لأجسامهم وأبدانهم بما فيها من أرواح وإلقاؤها فى النار.

ولكن الله سبحانه قد يذكر الإلقاء فى الأمور المعنوية، يقول تعالى: ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ (١٥١) ﴾ [آل عمران]

كأن الله يريد أنْ يجعل المعنى وهو الرعب شائعاً، فكأنَّ الله سيجمع الرعب ويضعه فى قلوب الذين كفروا، ويكون عمله فى القلوب مادياً، والرعب أمر معنوى ولكن أصبح أثرُه فى القلوب مادياً.

﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا (٧) ﴾ [الملك] فهم عند إلقائهم فى النار يسمعون للنار شهيقاً وهى تلتهمهم وتبلعهم، كأنها عملية شفط لهم وإدخالهم إلى داخل النار.

فالمشهد حافلٌ بالحياة والحركة، أناسٌ يلقون فى نارٍ متقدمة تشهق تبتلع ما يُلقَى فيها فتتلقَّاهم بألسنة لهبها وهى تغلى وتفور. وقد وصف الحق سبحانه هذا المصير فقال: ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٦) ﴾ [الملك]

والمصير هو المرجع الأخير لأى شيء، وهنا معناها أى ساءت نهايتكم

---

(١) قيل فى التفسير إنهما كانا لوحين، قال الزجاج: يجوز فى اللغة أن يقال للوحين ألواح. واللوح هو كل صفيحة عريضة خشباً كانت أو عظماً أو غيرهما وما يُكتب فيه من خشب ونحوه. [المعجم الوسيط ٢/ ٨٤٥].

ومرجعكم ، فمصيركم المؤدى إلى جهنم غاية فى السوء ، ولأن مصير هؤلاء هو جهنم ، فكان عليهم أنْ يستحضر هذا الجزاء وقت الاختيار للفعل .

وأسوأ ما فى هذا المصير أنه لا مفرَّ منه ، يقول الحق سبحانه : ﴿ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (١٠) كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢) ﴾ [القيامة]

ويقول الحق سبحانه : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٣٧) ﴾ [المائدة]

فكلما مسَّهم لَفْح النار يريدون أنْ يخرجوا منها ، لكن كيف تأتى لهم إرادةُ الخروج من النار فكأنهم لحظة لفحها عليهم وتقلّبهم هنا وهناك تدفعهم ألسنة اللهب إلى القرب من الخارج فيظنون أنَّ العذاب قد انتهى .

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٣٧) ﴾ [المائدة] أى عذاب دائم ، فإنْ كان العذاب أليماً يبقى الألم على شدَّته ولا يُخفَّف أبداً ، وإنْ كان مهيناً تبقى الإهانةُ مستمرة ولا تزول أبداً ، وفى كلتا الحالتين هو عذاب فيه إقامة ، وفيه دوام واستمرار .

ثم يقول الحق سبحانه يصف النار :

﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ(١) مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾

فالنار من فورانها وغليانها وشهيقها وزفيرها ﴿ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ (٨) ﴾ [الملك] فالنار تتميز من الغيظ على الكافرين ، مثلما ترى قِدْراً يفور ويغلى ما فيه ، فبعضُ الفقاقيع تخرج منه وتنفصل عمَّا فى القِدْر .

والإنسان منا عندما يكون فى حالة من الغيظ تخرج منه وتنفصل عنه أشياء كفقاقيع غليان القِدْر ، إنه يرغى ويزبد أى يشتد غضبه ، وهذه الفقاقيع من شدة

(١) تكاد تميز : تكاد تتفرَّق جهنم عليهم من الغيظ . قال ابن عباس : تكاد يفارق بعضها بعضاً وتنفطر . قال ابن زيد : التميز التفرق من الغيظ .

فورانها تتميز وتنفصل عن بعضها وتنفصل عن القدر.

كذلك النار تتميز من الغيظ، فتؤدى مهمتها الموكولة إليها، وهى تؤدى مهمتها بغيظ لأن الكافر من هؤلاء لم يعرف قيمة الإيمان.

والله يعطينا مثالاً آخر فيقول: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ[1] كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (٢٩)﴾ [الدخان]

فالأرض تغضب وتسخط وتضجّ بوجود الكافرين بنعمة الله فيها، ولذلك لا تبكى السماء والأرض على الخسْف والتنكيل بهؤلاء العصاة الكافرين المشركين، بينما تبكى السماء والأرض إنْ فارقها مؤمن.

فالأرض لا انسجامَ لها مع كائن عاص، كذلك النار تتميز غضباً وغيظاً وحنقاً ممَّنْ كفر بالله، وهى مع هذا تعشق أَنْ تعذب الكافر وكأنَّ العقوبة تعشق أَنْ تقع على المجرم، كأنَّ العذاب سعى إليه لينالَه ويمسَّه.

فالنار مغتاظةٌ من هؤلاء تتأهّب لهم وتنتظرهم، وما دام الغيظ فوق تحمُّل النفس وسعتها فلا بدَّ أَنْ يشعر الإنسان بالضيق وأنه يكادُ ينفجر.

فمعنى ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ (٨)﴾ [الملك] أى تكاد أبعاضُها تنفصل بعضها عن بعض، والغيظ هو انفعال محبوس فى الصدور، وهو حالةُ غليان بالغضب أو القهر.

فالغيظُ نوعٌ من الغضب مصحوبٌ ومشُوبٌ بحزن وأسى وحسرة، والغيظ يقع للمؤمن والكافر، فحين نرى عناد الكفار وسخريتهم واستهزاءهم بالإيمان نغتاظ، لكن يُذهب اللهُ غيظ قلوبنا.

فالنار ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ (٨)﴾ [الملك]، ثم يقول تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا

---

(١) النعمة هنا لها أربعة أوجه: نيل مصر قاله ابن عمر. ثانيها: الفيوم قاله ابن لهيعة. الثالث: أرض مصر لكثرة خيرها قاله ابن زياد. الرابع: ما كانوا فيه من السعة والدعة.

﴿فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨)﴾ [الملك]

وأهل النار إنما كانوا يُلْقَوْن فى النار فوجاً وراء فوج ، ويقول تعالى ﴿هَـٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩)﴾ [ص]

ويقول تعالى : ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ(١) (٨٣)﴾ [النمل]

والفوج هم الجماعة والزُّمرة من الناس ، ويقول الحق سبحانه : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦)﴾ [هود] فالذين حكموا على أنفسهم بالشقاء لخروجهم عن منهج الله يجمعهم الشقاء ، لكنهم يدخلون النارَ أفراداً وزمراً.

والحق سبحانه يقول : ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا (٧١)﴾ [الزمر]، وفى آية أخرى يقول سبحانه : ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا (٣٨)﴾ [الأعراف] إنهم يأتون إلى الله زُمراً وجماعات.

﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا (٨)﴾ [الملك] خزنة جهنم من الملائكة ، مالك وأعوانه وهذا السؤال نفسه قد ساقتْه آية سورة الزمر ، قال تعالى ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَـٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١)﴾ [الزمر]

فـ ﴿خَزَنَتُهَا (٨)﴾ [الملك] أى خزنة النار قالوا لهم على سبيل التقريع والتوبيخ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا (٧١)﴾ [الزمر]

---

(١) يوزعون : يُحبس أولهم على آخرهم . قال ابن قتيبة : أصل الوزع الكف والمنع . زاد المسير ٣/٣٥٦.

هـذا الاستفهام ألزمهم الحجـة وأفحمهم ، فربُّهم عزَّ وجـلَّ لم يأخذهم على غِرّة، إنما أرسل لهم رسلاً ، وهؤلاء الرسل (منكم) أى من جنسكم ومن أوسطكم، والأقرب إليكم لتسهل القدوة به .

وهنا ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) ﴾[الملك] والإنذارات التى تحدث للناس فى حياتهم مـن تمام رحمة الله بالخَلْق، والنذير يكون شـهيداً علـى أمة من الأمم أنه بلَّغها المنهج ، ورسول الله ﷺ شهيد على أمته أنه بلَّغ .

والنذير هو مَنْ يخبر بشرٍّ زمنُه لم يجئ ، لتكون هناك فرصـةٌ لتلافى العمل الـذى يُوقـع فى الشـر ، ويقابله البشـير وهو مَنْ يبشر بخير سـيأتى إنْ سـلك الإنسـانُ الطريقَ إلى ذلك الخير . إذن : الإنذار والبشـارة هى أخبار تتعلق بأمر لم يجئ .

وفى الإنذار تخويفٌ ونوعٌ من التعليم ، وأنت حين تريد أنْ تجعل ابنك مُجداً فى دراسته تقول له : إنْ لم تذاكر فسوف تكون كابن فلان الذى أصبح صعلوكاً تافهاً فى الحياة .

إذن فأنت تنذر ابنك ليتلافى من الآن العمل الذى يؤدى به إلى الفشل الدراسى ، والبِشـارة والنذارة لا تكون إلا للمُخيَّر ، ونعلم أنَّ الحق سبحانه أخبرنا ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) ﴾ [فاطر]

وهذا النذير شـهيدٌ على تلك الأمة أنه بلَّغها المنهج ، وكل الرسـل جاءوا نذيراً لأممهم ، يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٥) ﴾ [هود]

والرسل مُبشِّرون ومُنذرون ، فمَنْ يؤمن هو مَنْ يتلقَّى البشارة ، أما مَنْ عليه أنْ يتوقَّع النذارة فهو الكافر المنكر ، وفى الإنذار تخويفٌ بشـيء ينال منك فى المستقبل ، وعليك أنْ تُعدّ العُدَّة لتبتعد بنفسك أنْ تكون فيه .

والتبشير يكون بأمر تتمناه النفس ، وبالإنذار والتبشير يتضح الموقفُ بجلاء ويُحاط الإنسان بكلِّ قضايا الحياة ويتضح مسار كلِّ أمر من الأمور ، فالبشارة تصلح للإخبار بخبر يسُرّ أو بخبر يُحزن ويسيء ، ولكنها غلبت على الخبر السَّار وخصّت النذارة بالخبر الذى يُحزن وتنقبض النفسُ له .

ولكن الإنذار بالشر قبل أنْ يقع والتحذِير منه قبل أوانه نعمة ، بل من أعظم نِعَم الله على الإنسان ليحتاط للأمر ، فالتهديد والوعيد والتبصير والتخويف إنما لنحذر المخوف منه فلا نقع فيه .

والنذارة لا بدّ لها من فترة حتى يتجنَّب الإنسانُ ما يأتى بالشر ، فالإنذار إعلامٌ بشيء مخيف قبل وقوعه لنتفادى أنْ نقع فيه وأنْ نتلافاه ، فأنت تحثّ الإنسان على ألاَّ يُقبل أو يُقدم على ما يضُّره .

فكلمة (الإنذار) كلمةٌ عامة لكلِّ الناس حتى يتجنبوا ما يقودهم إلى النار ، فالإنذار لوْنٌ من ضرورة التخلية من العيوب قبل التحلية بالكمال ، فأنت تدفع عن نفسك الأمرَ الذى يأتى بالضر أولاً ثم تتجه إلى ما يجلب النفع من بعد ذلك ، لأن درْءَ المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة .

والمنذر الذى يحذر من الشر قبل وقوعه ليحتاط السامعُ فلا يقع فى دواعى الشر ، ولا يكون الإنذارُ ساعةَ وقوع الشَّر ، لأنه فى هذه الحالة لا يُجدى .

فالجن والإنس يُرسَل لهم رُسُل ومنذرون ، قال تعالى : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا (١٣٠) ﴾ [الأنعام]

فالجن لهم رسل والإنس لهم رسل ، وقال البعض : الرسل من الإنس خاصة لأن القرآن جاء فيه على لسانهم : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠) ﴾ [الأحقاف]

فالجن احتجُّوا بكتاب أُنزل من بعد موسى عليه السلام وعندهم خبر عن الكتاب الذى جاء بعده، كأنَّ الجن يأخذون رسالتهم من الإنس. فكأنَّ الله قد أرسل رسلاً من الإنس فقط وبلغ الجنُّ ما قاله الرسول.

والله يرسل منذرين لكى لا يكون للناس حجةٌ، يقول تعالى ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ (١٦٥) ﴾ [النساء]

فالله يرسل الرسل مبلِّغين عن الله حتى لا يكونَ لأحد حجةٌ بعد الرسل.

﴿ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ ﴾

فالحق سبحانه قبل أنْ يعاقب على جُرْم، وقبل أنْ يُجرِّم يُنزل النصَّ بواسطة الرسل. أى أن الله لا يهلكهم بسبب ظلم وقع منهم إلا بعد ذلك البلاغ. وليس لأحد عذرٌ بعد البلاغ، فالحكمة من إرسال الرسل إقامة الحجة على المرسل إليهم.

وهنا لما سُئِل الكافرون عن الإتيان بهم والإلقاء بهم فى النار: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَى (٩) ﴾ [الملك] و(بلى) حرف جواب مثل نعم تماماً، ولكن (بلى) حرف جواب لإثبات ما بعد النفى.

فـ(بلى) تأتى بعد النفى، ونعم تأتى بعد الإجابة. فإذا قال إنسانٌ: ليس لك عندى شيءٌ وقلت نعم، فمعناها أنه صحيح أنك ليس لك عنده شيء، أما إذا قلت بلى فمعنى ذلك أنَّ لك عنده شيئاً أو أشياء.

وساعة تأتى قضية منفية ثم تأتى بعدها كلمة (بلى) فإنها تنقض القضية التى سبقتْها ومعنى ذلك أنها تثبت ضدها، فـ(بلى) تأتى فى جواب سؤال

منفـى ، وذلك مثل قوله تعالى ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى (١٧٢) ﴾ [الأعراف] فهى أداةُ نفى للنفى السابق عليها ، ومعلومٌ أنَّ نفى النفى إثباتٌ .

ومثلـه قولـه تعـالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا (٣٨) ﴾ [النحل]

فكان ما أقسموا عليه بالله أنـه ﴿ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ (٣٨) ﴾ [النحل] وهذا إنكارٌ للبعث ، فيردّ عليهم الحق سبحانه (بلى) ، وهى أداة لنفى السابق عليها، وإثبات ما بعدها ؛ فيكون المعنى : بل يبعث الله مَنْ يموت .

﴿ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ (٩) ﴾ [الملك] وهنا هم يعترفون بأنه قد جاءهم نذير ولكنهم كذّبوا ، وقد أرسل الله إليهم الرسول على فترة حتى يقطع عنهم الحجة والعذر فلا يقولوا ﴿ مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ (١٩) ﴾ [المائدة]

فقد جاءنا نذير فأنذرنا وخوّفنا وأخبرنا بهذا اليوم ، فكذَّبنا ذلك النذير وكذّبنا الرسل وأفرطنا فى التكذيب حتى نفينا الإنزال والإرسال رأساً .

﴿ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ (٩) ﴾ [الملك] والتكذيب مسألة منكرة وهو تأبٍّ من المكذِّب ، والتكذيب هو الوقوف إيجابياً فى موقف الضّد وموقف الصَّدِّ عن سبيل الله .

فالكافرون لهم ثلاثُ مراحل : الإعراض ، والتكذيب ، والاستهزاء ، فالإعراض أمرٌ سلبيٌّ ، أما التكذيب فهو عمل إيجابى وإنْ كان فى اتجاه مضاد للإيمان ، أما الاستهزاء فيتجاوز التكذيب إلى السخرية والاصطدام بمَنْ آمن .

وهم بهذا لا يقدرون الله حَقَّ قدْره ، فهم يقولون ﴿ مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ (٩) ﴾ [الملك] ويقول تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ (٩١) ﴾ [الأنعام]

وهـؤلاء يسـألهم الله ﴿ قُلْ مَنْ أَنـزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِـهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ (٩١) ﴾ [الأنعام] فهـم أنكروا أنْ يكون الله قد اختـار مـن بعض خَلْقه مَنْ يجعلهم أهلاً لتلقِّى منهجه لإبلاغه إلى خَلْقه .

وممَّـنْ قالوا ﴿ مَا نَزَّلَ اللهُ مِن شَيْءٍ (٩) ﴾ [الملك] بعضٌ من أهل الكتاب ، ففى السيرة نجد واحداً من الأحبار كان دائبَ الخوض فى الإسـلام وكان اسـمه (مالك بن الصيف) ، فلقيه رسول الله ﷺ .

والحَبْر هو عالم اليهـود والمفترض فيه أنْ يكون من الزهـاد فيهم منقطعاً للعلم إلا أنه كان سميناً على الرغم من أنَّ عادة المنقطعين للعبادة وللعلم أنهم لا يأخذون من الزاد إلا ما يقيت ويقيم الأود.

فلما علم رسول الله ﷺ أن مالك بن الصـيف وهو من أحبار اليهود يخوض كثيراً فى الإسلام قال له : أفى توراتكم : إن الله يبغض الحبر السمين ، فبُهِتَ الرجلُ وقال : ﴿ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ (٩١) ﴾ [الأنعام]

يعنى ما أنزل الله على بشر من شـيء من الذى أنت تقوله ، وهكذا نعلم أن مثـل هذا القـول قد يأتى من أهـل الكتاب ، وحين قال مالك هـذه القولة قام عليه رجالٌ من اليهود وقالوا له : كيف تقول ﴿ مَا أَنْزَلَ االلهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ (٩١) ﴾ [الأنعام]

فقال لهم : أغضبنى محمد . فرددتُ على الغضب بباطل .

وهنـا قـال مَنْ سمعه من اليهـود : إذن أنت لا تصلـح أنْ تكونَ حـبراً لأنك فضحتنا وعزلوه ، وجاءوا بكعب بن الأشرف وولَّوه مكانه(١).

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٣/ ٣١٤) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف ، فخاصم النبى ﷺ فقال له النبى : أنشدك بالذى أنزل التوراة على موسى : هل تجد فى التوراة أن الله يبغض الحبر السمين وكان حبراً سميناً فغضب وقال : والله ما أنزل الله على بشر من شيء فقال له أصحابه : ويحك . ولا على موسى .

ويحكم الله سبحانه عليهم فيصفهم ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) ﴾ [الملك] يعني ما أنتم إلا في ضلال كبير، واستخدام (إن أنتم) موجود في القرآن كثيراً.

ومثله قوله تعالى ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) ﴾ [هود] أي: ما أنتم إلا كاذبون في إشراككم مع الله الأوثان.

وقال تعالى: ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا (١٠) ﴾ [إبراهيم] أي: ما أنتم إلا بشر مثلنا فليس لكم علينا فضلٌ.

ويقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (٥٨) ﴾ [الروم]

فيصفون محمداً وأصحابه بأنهم مبطلون، أي ما أنتم يا محمد وأصحابك إلا مبطلون، أي أصحاب أباطيل، فهم يتهمون الرسل في بلاغهم عن الله بأنهم أهلُ باطل وكذب.

لذلك قال تعالى لهم: ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) ﴾ [الملك] والضلال هو أنْ تسلك سبيلاً لا يؤدي بك إلى غايتك، فأهل الضلال أغواهم ضلالهم فلم يعُدْ لهم هادٍ.

فالضلال يأتي على معانٍ متعددة، فقد يأتي الضلالُ مرة بمعنى الذهاب والفناء في الشيء، مثل قوله الحق: ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠) ﴾ [السجدة]

وقد يأتي الضلال مرة أخرى بمعنى عدم اهتداء الإنسان إلى وجه الحق،

كما قال الحق وصفاً لرسوله ﷺ ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) ﴾ [الضحى] أى : أنك لم يعجبك يا محمد منهج قريش فى عبادة الأصنام ، وظللتَ تبحث عن المنهج الحق إلى أنْ هداك الله فأنزل إليك هذا المنهج القويم ، لقد كنت ضالاً تبحث عن الهداية فجاءتْك النعمةُ الكاملة من الله .

وهناك لوْنٌ آخر من الضلال وهو أنْ يتعرَّف الإنسانُ على المنهج الحق لكنه ينحرف عنه ويتجه بعيداً عن هذا المنهج إلى مناهج بشرية نابعة من الأهواء تقود حتماً إلى الضلال .

والضلال فى الدنيا والأمور المادية قد لا يوصلنى لغايتى المرجوة ، وقد لا يوصلنى لشرٍّ منها أو لمقابلها ، لكن فى الأمر القيمى ماذا يفعل ؟ إنه لا يُوصلك إلى الغاية المرجوة وهى الجنة فحسب ، ولكنه يُوصل للمقابل وهو النار ، هذا هو الضلال المبين الواضح .

فالضلال إذن أنْ يسلك الإنسانُ سبيلاً غيرَ مُوصِّل للغاية ، وكلما خطا الإنسان خطوةً فى هذا السبيل ابتعد عنها ، وهذا الابتعاد عن الغاية هو الضلال البعيد.

فالضلال لا يقتصر عليهم ، لكن الضلال سيكون ممتداً ، وقد قال تعالى : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا بَعِيدًا (١٣٦) ﴾ [النساء]

فـ (ضل) أى سار على غير هُدى ، فعندما يتوه الإنسان عن هدفه المقصود يُقال : ضَلَّ الطريق . والذى ﴿ ضَلَّ ضَلالًا بَعِيدًا (١٣٦) ﴾ [النساء] هو مَنْ يذهب إلى متاهة بعيدة ، والمقصود بها متاهة الكفر .

وهناك ضلال عن الهدى يمكن استدراكه ، أما الضلال البعيد والغرق فى

متاهة الكفر فمن الصعب استدراكه ، والشيء البعيد هو الذى بينه وبين مصدره مسافةٌ زمنية طويلة .

والذى يضلُّ قصارى ضلاله أنْ ينتهى بانتهاء حياته ، لكن الذى يعمل على إضلال غيره فهو يجعل الضلال يمتدّ ، أى أن الضلال سيأخذ فى هذه الحالة زمناً أكبر من حياة المُضل ، ويتوالى الضلال عن المضلِّين أجيالاً ، وهكذا يصبح الضلالُ مُمتداً .

و (ضل) يقابلها اهتدى . و (ضَلَّ) أى لم يذهب إلى السبيل الموصِّلة للغاية. و (اهتدى) أى ذهب إلى السبيل الموصِّلة إلى الغاية . ومَنْ لا يعرف السبيل الموصِّلة إلى الغاية يكون قد ضَلَّ أيضاً .

ولكن هناك مَنْ يضل وهو يعلم السبيل الموصِّلة إلى الغاية وهذا هو الكفر، وعندما يتكلَّم الحق عن الذين كفروا يصفهم بأنهم ضلُّوا ضلالاً بعيداً لأن الطريق إلى الهداية كان أمامهم ولم يسلكوه ، وهذا هو ضلالُ القمة .

وقوله ﴿ فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) ﴾ [الملك] أى ضلال عظيم كثير ، فهم لم يكتفوا بمجرد الضلال بل جعلوا ضلالهم كبيراً ، فى ذهاب عن الحقِّ وبُعْد عن الصواب كبير .

والبعض من العلماء ذهب إلى أنَّ قوله ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) ﴾ [الملك] هو من قول الكافرين أنفسهم تكملةً لقولهم ﴿ وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ (٩) ﴾ [الملك] ثم يستطردون أنهم خاطبوا رسلهم قائلين : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) ﴾ [الملك]

وقد ذكر الله لنا بعض هذا فى القرآن الكريم ، قال تعالى بخصوص نوح عليه السلام : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) ﴾

[القمر] فاتهموا نوحاً عليه السلام بالجنون .

ويقول تعالى : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) ﴾ [هود]

فقد كانوا يسخرون منه كيف تصل هذه السفينة من (نينوى)[1] إلى البحر، وليس عندها بحر ولا نهر، ولم يكونوا يعلمون ما علمه نوح عليه السلام من أن الماء هو الذى سوف يأتى ليحمل السفينة .

حتى أنهم قالوا له : ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٦٠) ﴾ [الأعراف] فهم خائفون أنْ تكون دعوة نوح عليه السلام هى الدعوة إلى الطريق المستقيم وأن كلامه هو الهداية فيمُنّون أنفسهم أن هذا ضلال وخروجٌ عن المنهج الحق ، فيرمون ما بهم من ضلال على نوح عليه السلام .

ثم يستطردون كلامهم فيقولون كما يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ١٠ ﴾

أى لو كانت لنا عقولٌ ننتفع بها أو نسمع ما أنزله الله من الحق ، وقال البعض من العلماء : لو كنا نسمع سمْعَ مَنْ يعى ويتفكّر ، أو نعقل عقلَ مَنْ يُميِّز وينظر ما كُنَّا من أهل النار .

ووسائل الإدراك والهدى السمع والعقل ، فالسمع لما أنزل الله وجاءتْ به الرسل والعقل الذى ينفع صاحبه ويُوقفه على حقائق الأشياء ، فلا سمعَ لهم ولا عقل .

فوسائلُ الإدراك عندهم تعطلت ، فآذانهم صُمَّتْ فهى لا تسمع منهجَ الحق،

(١) نينوى : محافظة فى شمال العراق ومركزها الموصل التى تعد ثانى أكبر مدن العراق تبعد عن بغداد ٤٠٢ كم ، ومن معالمها جامع النبى يونس وهو على تلة والضريح فى تجويف هذه التلة ينظر إليها الزائرون من أعلى .

وألسنتُهم تعطلتْ عن نقْل ما فى قلوبهم ، وأبصارهم لا ترى آيات الله فى الكون، فآلات إدراكهم لهدى الله معطلة عندهم .

لذلك وصف الحق سبحانه الذين كفروا فقالوا : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ(١) بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٧١) ﴾ [البقرة]

فهناك شيء قد سدَّ منفذ السمع فلا تسمع ، ويسبِّب الصمم فهم بُكْم، فالإنسان إنْ لم يسمع فهو لن يتكلم ، فالأذن جُعِلت لتسمع السماع المفيد فكأنّها مُعطَّلة لا تسمع شيئاً .

والعقل وُجد ليفكر به ، فإذا لم يفكر تفكيراً سليماً منطقياً فكأن صاحبه لا عقلَ له ، فالأصمّ حقيقةً خيرٌ من الذى يملك حاسة السمع ولا يفهم بها ، لأن الأصمَّ له عذره والأبكم كذلك ، والمجنون أيضاً له عذره .

وعملية العقل تنشأ بعد أنْ تسمع وبعد اكتمال الحواس ، ولذلك فالإنسان فى تكوينه الأول حركيّ حِسِّيّ يرى ويسمع ويتذوق ثم يتكوَّن عنده من ذلك القضايا العقلية .

وليس معنى أنهم لا يسمعون أنهم صُمٌّ بجارحة الأذن ، فهم يسمعونه بآذانهم ولكنهم لا يفقهون ما يسمعونه ، وقد قال الحق سبحانه عنهم : ﴿ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨) ﴾ [النساء]

وساعة تقول فلان لا يفقه ، فهذا معناه أنَّ عقله ممنوعٌ من الفهم ، أما عندما نقول : لا يكاد يفقه . فهو يعنى : لا يقرب حتى من الفهم ، فمنطق العقل والفكر يقودان إلى ضرورة الفهم ، وعندما لا يفهمون ذلك فنحن نستعجب من عدم فهمهم ، ولا نستعجب من عدم فهمهم إلا إذا كان الأمرُ المطروح أمامهم

(١) النَّعْق : مصدر نعق ينعق وهو صياح الراعى بالغنم وزجره إياها . ووجه الكلام : كمثل المنعوق به فجاء الناعق فى موضع المنعوق به لأنه جعل الكفار بمنزلة الغنم المنعوق بها [جمهرة اللغة لابن دريد ٢/٩٤٣] .

أمراً يستوعبه العقل .

فالفقه هو أنْ تفهم ، أى أن يكون عندك مَلَكة فَهْم تفهم بها ما يُقال لك علماً، فالفهم أوّلُ مرحلة والعلم مرحلة تالية ، فالفقه هو الفهم .

ويقول تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ (٤٦) ﴾ [الحج]

فهل يعقل الإنسانُ بقلبه ، فنحن نعلم أن العقل فى المخ والقلب فى الصدر ، فللإنسان وسائلُ إدراك هى الحواس التى تلتقط المحسَّات كالعين واللمس .

فلما يدرك الإنسان هذه الأشياء بوسائل الإدراك يتدخَّل العقلُ ليغربل هذه المدركات ويختار من البدائل ما يناسبه ، وبعد أنْ يختار العقل ويوازن بين البدائل يحكم بقضية تستقر فى الذِّهْن وتقتنع بها ، ولا تحتاج لإدراك بعد ذلك، ولا لاختيار بين البدائل .

وللعقل مهام أخرى غير أنه يختار ويفاضل بين البدائل ، فالعقل من مهامِّه أنْ يعقل صاحبه عن الخطأ ، ويعقله عن أنْ يشرد فى المتاهات والبعض يظنُّ أنَّ معنى عقل يعنى حريَة الفكر وأنْ يشطح المرءُ بعقله فى الأفكار كيف يشاء، لا ، العقل من عقال الناقة الذى يمنعها ويحجزها أنْ تشرد منك .

فليس العقل لأنْ ترتع به فى خواطرك ، إنما جاء العقل ليقيد هذه الخواطر ويضبط السلوك . يقول لك : اعقل خواطرك وادرسها لا تنطلق فيها على هواك تفعل ما تحب ، بل تفعل ما يصحّ وتقول ما ينبغى .

وهم تركوا أنفسهم لضلالهم وأهوائهم الفاسدة البعيدة عن منهج الله ، فهم لم يكونوا يسمعون لهدى الله السمعَ الذى يفيدهم ويجعلهم يعقلون ويفقهون ويفهمون ويعقلون أنفسهم عن الوقوع فى الكفر والخطأ .

ولأنهم لم يكونوا يسمعون أو يعقلون أصبحوا في أصحاب السعير، والشيطان هو الذي أوقعهم في هذا ودعاهم لأنْ يكونوا في أصحاب السعير، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) ﴾ [فاطر]

فهم سيصبحون من أصحاب السعير وستكون بينهم وبين النار أُلْفة، وأنها تريدهم وتعشقهم حتى صارت بينهما مصاحبة.

ولكن الحق يقول هنا ﴿فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠)﴾ [الملك] فلم يستخدم الحق سبحانه كلمة (من) بل استخدم (في)، فكأنَّ هؤلاء الذين نتحدَّث عنهم في وسط النار، وأهلُ النار محيطون بهم، فهم في المركز.

هذا الفهم جاء من معنى (في) هنا، لكن لماذا استحقَّ هؤلاء أنْ يكونوا في الوسط وفي المركز وأهل النار حولهم ؟

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١١ ﴾

إنه اعترافٌ منهم باقترافهم الظلم وقيامهم عليه، فهذا اعترافٌ وإقرار منهم، وهما سيِّدا الأدلة، لأن كلام المقابل إنما يكون شهادة، ولكن كلام المقرِّ هو إقرارُ اعتراف.

وقد ذكر الحق سبحانه إقرارهم واعترافهم في آيات أخرى نحو قوله تعالى: ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا(١) إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٥) ﴾ [الأعراف]، وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤) ﴾ [الأنبياء]

فقد كنا ظالمين لأنفسنا بظلمنا لربنا في أننا كفرنا به، كما قال تعالى

(١) البأس: الشدة والبلاء. والبأس: العذاب في الدنيا. والبأس النقمات.

فى آية أخرى : ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ[1] فِى جَنْبِ اللهِ (٥٦) ﴾ [الزمر]

ويحدِّثنا الحق سبحانه عن آخرين ﴿ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٠٢) ﴾ [التوبة]

وهؤلاء إنما اعترفوا ولم يُصرُّوا على النفاق، وليسوا كالأوَّلين الذين أصرُّوا على نفاقهم وكفرهم فاعترفوا عند معاينتهم للعذاب، واعترافهم هو اعترافٌ بذنب واحد يجمعهم هو كفرهم بالله، لذلك قال تعالى فى سورة الملك ﴿ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ (١١) ﴾ [الملك]

أما ﴿ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ (١٠٢) ﴾ [التوبة] فهى ذنوب متعددة ومعاصٍ وقعوا فيها رغم إيمانهم، لذلك جاءت بصيغة الجمع لاختلاف الذنب من واحد إلى آخر.

والاعتراف لونٌ من الإقرار، والإقرار بالذنب أنواعٌ، فهناك مَنْ يُقرّ بالذنب إفاقة، وآخر يُقر بالذنب فى صفاقة، مثلما تقول لواحد : هل ضربتَ فلاناً ؟ فيقول : نعم ضربتُه أى أنه اعترف بذنبه، وقد يضيف : وسأضرب مَنْ يدافع عنه أيضاً، وهذا اعترافٌ فيه صفاقة. أما مَنْ يعترف اعترافَ إفاقة فهو يُقرُّ بأنه ارتكب الذنب ويطلب الصفح عنه، وهذا هو الاعتراف المقبول عند الله، وهم قد ﴿ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ (١٠٢) ﴾ [التوبة] اعترافَ إفاقة.

بدليل أن الله قال فيهم ﴿ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا (١٠٢) ﴾ [التوبة] وعملهم الصالح هنا هو إقرارهم بالذنب ومعرفتهم أن فضيحة الدنيا أهون من فضيحة الآخرة، أما عملهم السيء فهو التخلّف عن الجهاد والإنفاق،

---

(١) قال مجاهد : يعنى ما ضيَّعت من أمر الله وقصَّرت فيه. وقال الطبرى : أى ما ضيعت من العمل بما أمرنى الله به، وقصرت فى الدنيا فى طاعة الله.

واعترافهم هذا هو اعتراف الإفاقة .

والاعتراف منهم إجابةٌ بالإقرار، والإقرار هو سيد الأدلة، ومن نحو اعترافهم وإقرارهم ماذكره الحق سبحانه عنهم ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٦١) ﴾ [العنكبوت]

فمسألة الخَلْق هذه من الوضوح بحيث لا يستطيع أحدٌ إنكارها، لذلك يقولون هنا في إجابة السؤال، ﴿ لَيَقُولُنَّ اللهُ (٦١) ﴾ [العنكبوت]، وهذا الاعتراف منهم يستوجب من المؤمن أنْ يحمد الله عليه فيقول : الحمد لله أن اعترفوا بهذه الحقيقة بأنفسهم، الحمد لله الذي أنطقهم بكلمة الحق وأظهر الحجة التي تبطل كفرهم .

لذلك يقول تعالى بعدها ﴿ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٦١) ﴾ [العنكبوت] أي : كيف بعد هذا الاعتراف ينصرفون عن الله وينصرفون عن الحق ؟

والحق سبحانه يقول ﴿ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ (١١) ﴾ [الملك]، لكن ما فائدة هذا الاعتراف الآن ؟ وبماذا ينفعهم وهو في دار الحساب ؟ لا في دار العمل والتكليف؟

وما أشبه هذا الاعتراف باعتراف فرعون قبل أنْ يغرق ﴿ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ (٩٠) ﴾ [يونس] لذلك ردَّ الله عليه : ﴿ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) ﴾ [يونس]

فلم تكُنْ في جعبته إلا كفرٌ بالله وعصيان لأوامره، فكيف يعترف بالبعث والقيامة والحساب، فكان يؤنس نفسه بتكذيب ما أخبره به الرسول .

والنفس البشرية وإنْ كانت لها شهوات إلا أنَّ لها اعتدالاً مزاجياً يتدخَّل بالندم عندما يرتكب الإنسان إثماً أو معصية، ولذلك تجد كثيراً من الناس

يعانى من متاعب لأنهم ارتكبوا معاصىَ ، لكنهم يريدون الاعتراف بها لأيّ إنسان .

وأى إنسان يتلقى الاعتراف ليست لديه القدرة على تدارك آثار تلك المتاعب ، لأنها وقعت وانتهى الأمر ، لكن لماذا يريد الإنسانُ أنْ يعترف لآخر بمعصية ؟

إنه اعترافٌ للتنفيس ، لأن كلَّ حركة فى النفس البشرية ينتج عنها تأثير فى النزوع ، فعندما يُغضبك أحدٌ فأنت تنزع إلى الانتقام ولهذا يأمرك الشرعُ حين يغضبك أحدٌ أنْ تُغيِّر من وضعك .

﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ (١١)﴾ [الملك] وهم لا يعترفون إلا إذا سُقط فى أيديهم فقالوا : لئن لم يتداركنا الله برحمته ومغفرته لنكونن من الهالكين ، وهذا اعترافٌ منهم بذنبهم والتجاءٌ إلى الله عز وجل .

وذنبهم هو إنكارُ وجود الله ، وإنكارُ وجود الله ليس بعده ذنب ، ولا يوجد ما هو أكثر منه فى الذنوب ، فليس بعد الكفر ذنب ، فالكفر أكبر الذنوب .

هؤلاء يُقال لهم : ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١)﴾ [الملك] ومعنى سُحْقاً أى بُعداً لهم وخسارة وشقاء ، فما أشقاهم وأرداهم حيث فاتهم ثوابُ الله وكانوا ملازمين للسعير التى تستعر فى أبدانهم وتطلع على أفئدتهم .

فبُعداً لهم من الله ومن رحمته ، و (سُحْقاً) منصوب على المصدر أى : أسحقهم الله سُحْقاً . وكان القياس إسحاقاً . والسحيق البعيد .

ومنه قوله تعالى : ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١)﴾ [المؤمنون] أى بُعداً لهم عن رحمتنا ونعيمنا الذى كنا نُمنِّيهم به ونعدهم به لو آمنوا .

وليس البُعد عن العذاب لأن البُعد مسافة زمنية أو مكانية نقول هذا بعيد . أى زمنه أو مكانه . المراد هنا البُعد عن النعيم الذى كان ينتظرهم إنْ آمنوا .

ويقول تعالى : ﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (٤٤)﴾ [المؤمنون] يعنى : بُعداً لهم عن

رحمة الله ، وبُعداً لهم عن نعيم الله الذى كان ينتظرهم ولو أنهم آمنوا لنالوه ، فمَنْ يبعد عن الله يزده بُعداً ، وهو بُعد نهائى .

والحق سبحانه يقول عن قوم هود : ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠)﴾ [هود]

فهم يستحقون ما وقع عليهم من إهلاكٍ وطردٍ من رحمة الله ولن يعطف عليهم أحد لضخامة ذنبهم ، وكلمة (بُعداً) ليست دعاء على قوم هود بالبُعْد ، لأنها هلكت بالفعل .

ومادة كلمة (بُعداً) هى (الباء) و (العين) و (الدال) وتُستعمل استعمالين ، مرة تريد منها الفراق ، والفراق بينونة إلى لقاء مظنون ، أما إذا كانت إلى بينونة متيقنة ألا تكون ، ولذلك جاء بعدها ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥)﴾ [هود]

وهى تدلّ على أنه بُعْدٌ لا لقاءَ بعده إلا حين يجمع الحق سبحانه الناس يوم القيامة ، والشاعر يقول :

يَقُولونَ لاَ تَبْعُد وَهَم يَدفِنُونني وَأَيْنَ مكَانُ البُعْد إلاَّ مكَانيا

فهذا هو البُعْد الذى يذهب إليه الإنسان ولا يعود ، ورسول الله إنما قال سُحْقاً سُحْقاً للذين بعدوا عن منهج الله وتنكّبوا الطريق وغيَّروا وبدَّلوا .

فقال رسول الله لأصحابه : أنا فرطكم على الحوض . قالوا : يا رسول الله كيف تعرف منْ لم يأتِ من أمتك ؟ قال : أرأيتم لو أن رجلاً له خيل غر مُحجلة[(١)] بين ظهرانى خيل دُهْم[(٢)] بهْم ، ألم يكن يعرفها ؟ قالوا : بلى . قال : فإنهم يأتون يوم القيامة غراً مُحجَّلين من أثر الوضوء . قال : أنا فرطكم على الحوض ،

---

(١) الغُر جمع الأغر من الخيل : الأبيض موضع الجَبهة ، فالغرة بياض فى وجه الفرس . والمحجلة فى قوائمها بالبياض أيضاً . يريد أن علامة أمته فى القيامة فى وجوهها ومواضع وضوئها [مشارق الأنوار على صحاح الآثار - مادة غرر] .

(٢) الدُّهم : السُّود . والبُهْم : التى لا يخالط سوادها لون آخر . فالبهيم الأسود الذى لا شية فيه . [مشارق الأنوار على صحاح الآثار ١٠٢/١] .

لَيُذَادَنَّ رجال عن حوضى كما يُذاد البعير الضال فأناديهم : ألاَ هَلُموا فيُقال : إنهم قد بدَّلوا بعدك ولم يزالوا يرجعون على أعقابهم فأقول : ألا سُحْقاً سُحْقاً. أى : بُعداً بُعداً [١] .

والسحيق : البعيد . وبعض العلماء قالوا : السُّحق وادٍ فى جهنم يُسعَّر ويُوقد ويشتعل ناراً وسعيراً فيصبحون هم أصحاب السعير .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢ ﴾

الخشية لله وحده والمؤمن لا يخشى بشراً لأنه يعلم أنَّ القوة لله جميعاً ، ولذلك فإنه يُقدم على كل عمل بقلب لا يهاب أحداً إلا الحق ، والخشية تكونُ لله، فإنْ خفتم فخافوا الله وحافظوا على تنفيذ منهج الله .

والخشية خوفٌ متوهَّم ممَّنْ تظنّ أنه قادر على الضر ، ولا أحدَ غير الله قادرٌ على النفع والضُّر ، لذلك لا يصح أنْ يخاف الإنسان من سواه ، أمَّا أنْ تظن أن السلطان أو القريب منه قادر على الضر فهذا أمرٌ غير صحيح ، وليخْشَ كُلُّ إنسان الحق سبحانه وهو جلَّ وعلا نصحنا أنْ تكون الخشية منه دون سواه.

فالخشية تكون من الذى يمكن أنْ يصيب بمكروه ، ولذلك جعل الحق هنا الخشية منه سبحانه ، أى أنهم يخافون الله مالكهم وخالقهم ومُربِّيَهمْ خوْف إجلالٍ وتعظيم .

فالخشية خوفٌ بمهابة لأن الخوف قد يكون خوفاً دون مهابة ، أما الخوفُ من الله فخوفٌ ومهابة معاً ، فهى خوفٌ بتعظيم ومهابة ، فقد تخاف من شيء وأنت تكرهه أو تحتقره .

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (٤٣٠٦) ومالك فى موطئه (٧٢) وأحمد فى مسنده (٩٢٩٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

فالخشية كأنْ تخاف من أبيك أو من أستاذك أنْ يراك مُقصِّراً ، فمعنى الخوف من الله أنْ تخاف أنْ تكون مُقصِّراً فيما طُلب منك وفيما كلَّفك به ، لأنَّ مقاييسه تعالى عالية .

والذين يخشوْنَ ربهم بالغيب صفة للمتقين ، الذين قال الله فيهم : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ (٤٩) ﴾ [الأنبياء]

ومعنى ﴿ بِالْغَيْبِ (١٢) ﴾ [الملك] أنهم يخافون الله مع أنهم لا يرونه بأعينهم ، إنما يرونه في آثار صُنعه . أو بالغيب يعني الأمور الغيبية التي لا يشاهدونها لكن أخبرهم الله بها فأصبحتْ بعد إخبار الله كأنها مشهدٌ لهم يروْنَها بأعينهم .

أو يكون المعنى : يخشون ربهم في خلواتهم عن الخَلْق ، فمهابة الله والأدب معه تلازمهم حتى في خُلْوتهم وانفرادهم على خلاف من يُظهر هذا السلوك أمام الناس رياءً وهو نمرود في خلوته .

هؤلاء الذين يخشون ربهم بالغيب تجدهم ﴿ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩) ﴾ [الأنبياء] والإشفاق بمعنى الخوف ، لكنه خوفٌ يصاحب الحذر مما تخاف فالخوف من الله مصحوب بالمهابة ، والخوف من الساعة مصحوبٌ بالحذر منها ، مخافة أنْ تقوم عليهم قبل أنْ يُعدُّوا أنفسهم لها إعداداً كاملاً يُفرحهم بجزاء الله ساعة يلقونه .

فالخشية أشد الخوف ، والإنسان قد يخاف من شيء ، لكن يبقى عنده أملٌ في النجاة ويتوقَّع من الأسباب ما ينقذه ويُؤمِّن خوفه ، لكن حين تخاف من الله فهو خوفٌ لامنفذ للأمل فيه ، ولا تَهبُّ فيه هبَّة تُشعرك بلطف .

وهناك نوعان من الخشية ذكرهما الحق سبحانه في قوله : ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ (٣٧) ﴾ [الأحزاب]

فالخشـية نوعـان : خشـية من شـيء تخاف أنْ يضرك وخشـية اسـتحياء ، فالخشية فى قوله : ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ (٣٧) ﴾ [الأحزاب] خشية استحياء ، ويكفى أنَّ الحـق سـبحانه قال فى حـقِّ رسـول الله ﷺ : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُـؤْذِى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ (٥٣) ﴾ [الأحزاب]

فالخشـية هنا تعنى خوفَ رسـول الله من ألسـنة الكفار التى سـتخوض فى حقه ، والتى سـتقول إنّ محمداً تزوَّج من امرأة مُتبناه ، لكن غاب عن هؤلاء أنَّ الله تعالى ألغى مسألة التبنِّى فليس لهم حجة .

وطبيعـيٌّ أنْ يخـاف رسـولُ الله من ألسـنة الكفـار لأنه جاء لنقْض عاداتٍ وتقاليد جاهلية ، وكان هو ﷺ أول من تحمَّل تبعة هذا التغيير ، لأنه جاء على يديه وفى شخصه ﷺ .

وسـيدنا رسـول الله حين يسـتحى من زواجـه من زينب أو مـن كلام النـاس فإنما يريد أنْ يُبريء عِرْضـه وسـاحته مما يشـين ، وقد كان ﷺ يدفع الشبهة عن نفسه دائماً .

لذلك لما رآه بعض أصحابه مع امرأةٍ مالوا عنه ﷺ خشية أنْ يتسبَّبوا له فى حرج ، فناداهما رسـول الله « على رِسْـلكما إنها صـفية » فقالوا : نحن لا نشُكّ فيك يا رسول الله . فقال : « إنَّ الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم »[1] .

فرسـول الله يريد أنْ ينفض عن نفسـه أيَّ شبهة ، يريد ألاَّ يجعل لأحد جميلاً

(١) عن صفية بنت حُيى زوج النبى ﷺ أنها جاءت إلى رسول الله تزوره وهو معتكف فى المسجد فى العشر الأواخر من شهر رمضان فتحدثت عنده ساعة من العشاء ثم قامت تنقلب فقام معها رسول الله ﷺ يقلبها ، حتى إذا بلغت باب المسجد الذى كان عند مسكن أم سلمة زوج النبى فمرّ بهما رجلان من الأنصار فسلّما على رسول الله ﷺ ثم نفذا ، فقال لهما رسول الله : على رسلكما إنها صفية بنت حُيي. قالا : سبحان الله يا رسول الله وكبُر عليهما ذلك فقال رسول الله : « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم ، وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شيئاً » [أخرجه أحمد فى مسنده (٢٦٨٦٣) ، وابن ماجه فى سننه (١٧٧٩) ، وعبد بن حميد فى مسنده (١٥٥٦)] .

عليه بأنه ستر على رسول الله .

فخشيته ﷺ لم تكُنْ خشيةَ خَوْف من شيء يضره ، إنما خشية استحياء ليدفع رسول الله الشبهة عن نفسه ، والرسل لا يخشوْن شيئاً في البلاغ عن الله.

فكأنه تعالى نفى عن الرسول أنْ تكون خشيته في البلاغ ،إنما خشيته استحياؤُه مخافةَ أنْ تلُوكه ألسنةُ قومه ، وإلا فهم لا يملكون له شيئاً يضرُّه أو يُخيفه .

لذلك يصف اللهُ رسله فيقول : ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا (٣٩) ﴾ [الأحزاب]

وهم يخشوْنَ ربهم بالغيب ، والغيبُ هو كلُّ ما غاب عن مدركات الحسِّ ، فالأشياءُ المُحسَّة التي نراها ونلمسها لا يختلف فيها أحد ، ولذلك يُقال ليس مع العين أين ، لأن ما تراه لا تريد عليه دليلاً ، أما الغيب فلا تدركه الحواسُّ إنما يُدرك بغيرها .

فهم يخافون الله مالكهم وخالقهم ومُربِّيَهم خوْفَ إجلال وتعظيم ، وأولو الألباب يخافون سُوء حِساب الحق سبحانه لهم ، فيدعوهم هذا الخوف إلى أنْ يصلوا ما أمر به سبحانه أن يُوصل ، وأنْ يبتعدوا عن أيِّ شيء يُغضبه .

هؤلاء الذين يخافون الله ويخشوْنَه بالغيب ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢) ﴾ [الملك] وخشيةُ الله تجعل العبد ممَّنْ قال الله فيهم ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ

وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ (٣٥) ﴾ [الأحزاب]

لولا خشيةُ الإنسان لله واستحضاره عقابَ الله له وتمثُّله ثوابَ الله ومراقبته لله عزَّ وجلَّ ما أصبح مسلماً ومؤمناً قانتاً صادقاً صابراً خاشعاً متصدِّقاً صائماً حافظاً لفرْجه ذاكراً لله .

أولئك ﴿ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥) ﴾ [الأحزاب] بعد كلِّ هذه الصفات يحتاجون للمغفرة ، الله يُطهِّرهم من كل أدران الذنوب قبل أنْ يأخذوا أجرهم ، فالحق سبحانه يُزيل الذنوبَ أولاً بالمغفرة .

وهو (أجر عظيم) (أجر كبير) وكل أجر على عمل يأخذ عمره بقدر حيِّزه الزمنى ، فأجرُ الإنسان على عمله فى الدنيا يذهب ويزول ، لأن الإنسانَ نفسه يذهب إلى الموت ، أما أجر الآخرة فهو الباقى أبداً ، وهو أجرٌ لا يفوت الإنسانَ ولا يفوته الإنسان ، ذلك هو الأجر العظيم .

فلا شيءَ يضيع عند الله ، يقول تعالى : ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠) ﴾ [البقرة]

فليطمئن كلُّ مؤمن لأن حركة حياته هى ثوابٌ وأجر عند الله ، فإذا صلَّى له أجر ، وإذا زكَّى له أجر ، وإذا تصدَّق له أجر ، وإذا صام له أجر ، وإذا حَجَّ له أجر ، كلُّ ما يفعله من منهج الله له أجر .

وليس أجراً بقدر العمل بل أضعاف العمل ، أجر مضاعف أضعافاً مضاعفة ، وهو أجر ليس بقدرات البشر ولكنه بقدرة الله سبحانه ، وهو أجرٌ ليس زائلاً كعطاء الدنيا ولكنه باقٍ وخالد .

والخير الذى ستفعله لن تدخره عندك أو عند مَنْ قد ينكره ويقول : لا شيءَ لك عندى ، ولكن الله سيدخره لك . فانظر إلى الاطمئنان والعمل فى يد الله الأمينة وفى قدرته التى تُضاعف ما ادخرته عنده أضعافاً مضاعفة وتجده فى الوقت الذى تكون فى أحوج اللحظات إليه ، وهو وقت الحساب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ ﴾

كيف تنادى ربك وهو أقرب إليك من حبل الوريد ؟ وكيف تناديه سبحانه وهو يسمعك حتى قبل أنْ تتكلم ؟ فإذا كان إقباله عليك موجوداً فى كلِّ وقت ، فما الغرض من النداء ؟

ونداؤك ودعاؤك لله ليس كنداء ودعاء الخَلْق للخَلْق ، يحتاج إلى رفع الصوت حتى يسمع ، إنه نداء ودعاء الله تبارك وتعالى الذى يستوى عنده السرُّ والجهر.

ومن أدب دعاء الله سبحانه أنْ ندعوه كما أمرنا ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً (٥٥) ﴾ [الأعراف] ، وهو سبحانه ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) ﴾ [طه] أى : وما هو أخفى من السر لأن السر قبل أنْ يكون سِراً علم أنه سيكون سراً .

وقد جعل الحق سبحانه أحسنَ الدعاء الدعاء الخفى ، فالإنسان قد يدعو ربه بشيء إنْ سمعه غيره ربما استنقصه ، فجعل الدعاء خفياً بين العبد وربه حتى لا يُفتضح أمره عند الناس ، والله سبحانه ستَّار يحب الستر حتى على العاصين .

وقد يكون الدعاء من طائع ولكنه يريد من الله أمراً لا يحب أنْ يطلع عليه أحدٌ ، مثال ذلك دعاء زكريا عليه السلام : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦) ﴾ [مريم]

أخفى زكريا عليه السلام دعاءه لله لأنه طلب الولد فى وجود أبناء عمومته الذين سيحملون منهجه من بعده ، إلا أنه لم يأتمنهم على منهج الله ، لأن ظاهر حركتهم فى الحياة غير متّسق مع المنهج ، فكيف يأمنهم على منهج الله وهم غير مؤتمنين على أنفسهم ؟

فإذا دعا زكريا ربه أن يرزقه الولد ليرث النبوة من بعده ، فسوف يغضب هؤلاء من دعاء زكريا ويعادونه ، لذلك جاء دعاؤه خفياً يُسرّه بينه وبين ربه تعالى .

﴿ وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) ﴾ [طه] والله كما يعلم الجهر يعلم السر ، وما هو أخفى من السر ، والجهر هو أنْ تُسمع مَنْ يريد أنْ يسمع ، أما السر فهو أنْ تخصَّ واحداً بأنْ تضع فى أذنه كلاماً لا تحب أنْ يشيع عند الناس .

فسواء أسررتُم قولكم أو جهرتم به فإنه سبحانه ﴿ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) ﴾ [الملك] أى يعلم مكنونات صدوركم قبل أنْ تصير كلاماً .

بل إنه سبحانه يعلم ﴿ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ (١٦) ﴾ [ق] فوسوسة النفس وذات الصدور هى الأخفى من السرِّ ، فلدينا جَهْر وسرٌّ وأخفى من السرِّ .

﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ [1] صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) ﴾ [القصص] ، ويقول فى آية أخرى ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) ﴾ [الأنبياء]

وكلمة ﴿ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) ﴾ [الملك]معناها صاحبة الصدور ، وفى الصدر يحرص الإنسان على إخفاء الأمر الذى يحب أنْ يحتفظ به لنفسه بحرص كحرص الصاحب على صاحبه ، كأنَّ الصدر حريصٌ على ألاَّ يسلم ما فيه .

فيقصد بـ ﴿ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) ﴾ [الملك] أى المعانى التى لا تفارق الصدور،

---

(١) تُكن صدورهم ، يعنى ما تُسر قلوبهم . قاله مقاتل بن سليمان . أى ما تخفى صدورهم . قال الطبرى فى تفسيره (١٩/٤٩٣) : « يعلم ضمائر صدور خلقه ومكنون أنفسهم وخفيّ أسرارهم » .

فهى صاحبات دائمة الوجود فى تلك الصدور ، سواء كانت حقداً أو كراهية ، أو هى الأحاسيس التى لا تظهر فى الحركة العادية سواء كانت نيةً حسنة أو نيةً سيئة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾

منهج الله هو أقوم المناهج وأصلحها ، لأنه منهجُ الخالق سبحانه الذى يعلم مَنْ خلق ويعلم ما يصلحهم ، فالصانع من البشر يعلم صنعته ويضع لها من تعليمات التشغيل والصيانة ما يضمن لها سلامة الأداء وأمن الاستعمال.

فإذا ما استعملت الآلة حَسْب قانون صانعها أدَّتْ مهمتها بدقَّة ، وسلمتْ من الأعطال ، فالذى خلق الإنسان أعلم بقانون صيانته فيقول له : افعل كذا ولا تفعل كذا .

فآفة الناس فى الدنيا أنهم وهم صنعة الحق سبحانه يتركون قانونه ويأخذون قانون صيانتهم من أمثالهم ، وهى قوانين وضعية قاصرة لا تسمو بحال من الأحوال إلى قانون الحق سبحانه ، بل لا وجه للمقارنة بينهما .

إذن : لا تستقيم الحياةُ إلاَّ بمنهج الله تعالى ، ومَنْ ينفذ هذا المنهج الإلهى يتمتع باستقامة الحياة وسلامتها وينعم بالأمن الإيمانى ، وهذه نعمة فى الدنيا ، وإنْ كانت وحدها لكانت كافية .

لكن الحق سبحانه يُبشِّرنا بما هو أعظم منها ، وبما ينتظرنا من نعيم الآخرة وجزائها ، فجمع لنا ربنا تبارك وتعالى نعيمى الدنيا والآخرة .

نعيم الدنيا لأنك سِرْتَ فيها على منهج معتدل ونظام دقيق ، يضمن لك فيها الاستقامة والسلام والتعايش الآمن مع الخلق .

ومن ذلك قول الحق سبحانه ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) ﴾ [البقرة]

قوله تعالى فى آية أخرى : ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) ﴾ [طه]

ويقول تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) ﴾ [النحل]

والله يعلم كلَّ شيءٍ فيك ، لا يدخل معك فى متاهة ، هو سبحانه يقول لك : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك]

فالذى صنع الكرسى – ولله المثل الأعلى – ألا يعرف أنّ الكرسى مصنوعٌ من الخشب ، ونوع الخشب (زان) أو (أرو) أو (مُجنة) ، وأن المسمار الذى يربط الجزء بالجزء إما مسمار صلب ، وإما من مصدر آخر .

وكذلك يعلم صانع الكرسى أى صنف من الغراء استعمل فى لصق أجزاء الكرسى ، وكذلك مواد الدهان التى تم دهن الكرسى بها .

فقول الحق سبحانه : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك] لا يحتاج إلى جدال ، ولذلك نجد النجار الذى يرغب فى أنْ تكون صنعته مكشوفة واضحة يقول للمشترى :

سوف أصنع الكرسى من خشب الزان وعليك أنْ تمرَّ يومياً لترى مراحل صُنعه، ويبدأ صناعة الكرسى مرحلة مرحلة تحت إشراف الزبون ، وكذلك يعرف البدوى كيف يتكون الرَّحْل ، وهو ما يُوضع على ظهر البعير للركوب ، العربى يعرف كيف يتكوَّن الفسطاط وهو بيتٌ يُتَّخذ من الشعر .

وقد جاء سبحانه بما يدحضْ أيَّ جدل ، وبدون الدخول فى أية مهاترات أو مناقشات لها مقدمات ونتائج ومقدم وتال .

جاء الحق بهذا القول الفَصْل : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ

الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك] فهو سبحانه الذى لا تخفى عليه خافية ، وهو الذى خلق كل الخَلْق ويعلم - وهو العليم - ما يصلح للبشر من قوانين .

وفى أعرافنا البشرية نجد أن الذى يصنع الصنعة يضع قانون صيانتها لتؤدى مهمتها كما ينبغى ، كذلك الله الذى خلق الإنسان هو سبحانه الذى وضع له قانون صيانته بـ (افعل) و (لا تفعل) .

ولذلك يقول سبحانه : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك] ونجد الإنسان منّا يذهب بساعته إلى عامل إصلاح الساعات فيكشف عليها ويقرر ما فيها من فساد ، فما بالنا بخالق الإنسان ؟

إن العبث الذى يوجد فى العالم سببه أنَّ الناس قد استقبلوا خَلْق الله لهم ، ولم يدَّع أحدٌ أنه خلق نفسه أو خلق غيره ، ومع ذلك يحاولون أنْ يُقنِّنوا قوانين صيانة للإنسان خارجة عن منهج الله .

ونقول : دعوا خالق الإنسان يضع لكم قانون صيانة الإنسان ، بـ (افعل) و (لا تفعل) ، وإنْ أردتم أنْ تشرِّعوا فلتُشرِّعوا فى ضوء منهج الله ، وإنْ حدث أيّ عطب فى الإنسان فلنرده إلى قانون صيانة الصانع الأول ، وهو القرآن .

فالمتاعب إنما تنبع من أنَّ الإنسان يتناسى فى بعض الأحيان أنه من صنعة الله ، ويحاول أنْ يصنع لنفسه قانون صيانة بعيداً عن منهج الله .

والذى يزيل متاعب الإنسانية هو أنْ تعود إلى قانون صيانتها الذى وضعه الخالق تبارك وتعالى .

ونحن فى حياتنا نجد الذى صنع جهازاً يستفيد منه غيره ، يوضح مواصفات استعمال الجهاز أو الأداة حتى ولو كانت نورجاً أو محراثاً ، وذلك ليضمن للجهاز الحركة السوية التى يؤدى بها الجهاز عمله .

والواحد منا إنْ تعطلت منه السيارة يستدعى الميكانيكى الذى ينظر ما فيها ،

فإنْ كان أميناً فهو يشخِّص بدقة ما تحتاجه السيارة ويُصلحها ، وإنْ كان غير أمين ستجده يفسد الصالح ويزيد من الأعمال التى لا تحتاجها السيارة .

وهكذا نرى أن كلَّ صانع فى مجاله يعلم أسرار صنعته ، فما بالنا بالخالق الأعظم سبحانه وتعالى ؟ إنه خبيرٌ عليمٌ بكلِّ شيء ، فلا بدَّ من علم لأن الذى يصنع صنعة لا بد أنْ يعرف ما يصلحها وما يفسدها ، وذلك يتطلب قدرة للإدراك ، فالعلم وحده لا يكفى .

وكلُّ صانع أدرى بصنعته ، وهو الذى يضع لها قانون صيانتها ، لأنه يعلم ما يُصلحها وما يُفسدها ، ومنهج الله الذى جاء بـ (افعل) و (لا تفعل) هو منهج لا يقبل الزيادة أو التعديل ، فما كان فيه أمر ونهى فعليك الالتزام به .

وإلا لو خرجتَ عن هذا الإطار الذى رسمه لك ربُّك وخالقك فسوف تُحدث فى الكون فساداً بترك الأمر أو بإتيان النهى ، فكلُّ صاحب صنعة عالمٌ بصنعته وخبيرٌ بدقائقها ومواطن العطب فيها ، فما بالك بالخالق سبحانه ؟

وصاحب الصنعة فى الدنيا يجعل معها (كتالوجاً) يُبيِّن طريقة صيانتها، وأول فشل فى الكون أن الناس المخلوقين لله يريدون أنْ يضعوا للبشر قانون صيانتهم من عند أنفسهم .

ونقول : هذا لا يصح لأن الذى يُقنِّن ويضع للناس ما يصونهم ينبغى أنْ تتوفر فيه شروط : أولها أنْ يكون على علم محيط لا يستدرك عليه ، وأنت أيها الإنسان علمك محدود كثيراً ما تستدرك أنت عليه بعد حين ، ويتبين لك عدم مناسبته وعدم صلاحيته .

والحق سبحانه وتعالى هو وحده الذى لا يُستدرك عليه ، لأن علمه محيطٌ بكلِّ شيء لا تخفى عليه خافية .

والخلق جميعاً الذين يُشرِّع لهم أمامه سواء ، وكلهم عباده لا يحابى منهم أحداً ، ولا يميز أحداً على أحد ، وليس له سبحانه من خَلْقه صاحبة ولا ولد .

لذلك يُطمئننا سبحانه بقوله : ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ[1] رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) ﴾ [الجن]

وكأن الله تعالى يقول : اطمئنوا فربُّكم ليس له صاحبة تُؤثِّر عليه ، ولا ولد يُحابيه ، فالصاحبة والولد نقطة الضعف وسبب الميل فى مسألة التشريع .

وكذلك هو سبحانه لا ينتفع بما يُشرِّعه لنا لأنه سبحانه خلقنا بقدرته ، وهو الغنيُّ عنّا لا تنفعه طاعةُ الطائعين ولا تضرّه معصية العاصين . إذن فهو سبحانه وحده المستكمل لشروط التشريع والمستحق له سبحانه .

فالحق سبحانه المستحقّ وحده للتشريع لأنه سبحانه العليم ، وهو اللطيف وهو الخبير .

والعليم أى الذى يعلم كلَّ شيء خافياً كان أو ظاهراً ، والعلم كله منه وعلمه هو الذى يجعله يصنع كلَّ شيء بحكمة ، وهو سبحانه العليم بكلِّ خبايا البشر ، وعلم الله علم ذاتيّ .

ولو أخذتْ البشرية عن الله العلم بكلِّ شيء لصارتْ الدنيا إلى انسجامها ، وهو سبحانه العليم بكلِّ خفايا عباده والكاشف لكلِّ الملَكات النفسية فى خَلْقه .

وقد علم سبحانه أزلاً بكل سلوك وكل خافية ، وهو العليم أبداً بما ينفع الناس جميعاً ، والحق سبحانه يعلم الظاهر والباطن ، ويعلم خائنةَ الأعين وما تُخفى الصدور ، وهو العليم بما تتطلبه الحكمة علماً يحيط بكلِّ الزوايا والجهات .

والحق سبحانه هو القائل فى آية أخرى : ﴿ اللهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ

---

(١) تعالى جد ربنا : ارتفع ذكره وعظمته . [تفسير مقاتل بن سليمان ٤/٤٦١] أى تعالت عظمته وعلا جلاله . تعالى فعله وأمره وقدرته ، وهو مستعار من الجدِّ بمعنى الحظ والبخْت . (غاية الأمانى فى تفسير الكلام الربانى لشهاب الدين الكورانى الشافعى ١/٢٤٨) .

جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤) ﴾ [الروم]

فقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤) ﴾ [الروم] أى أن هذا الخَلْق ناشيءٌ عن علم ، لكن العلم وحده لا يكفى ، فقد تكون عالماً لكنك غير قادر على تنفيذ ما تعلم كمهندس الكهرباء ، لديه علم واسع عنها ، لكنه لا يستطيع تنفيذ شبكة أو معمل كهرباء فيذهب إلى أحد الممولين ليُعينه على التنفيذ ، لذلك وصف الحق سبحانه نفسه بالعلم والقدرة .

وفى آية أخرى يؤكد الحقُّ سبحانه المعنى فيقول : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠) ﴾ [الشورى]

علم وقدرة ، علم بالقوانين التى وضعها الحق سبحانه لخَلْقه وقدرة مطلقة لله سبحانه على خرق هذه القوانين ، وجعل القوانين تفعل أو لا تفعل .

وهو سبحانه (اللطيف) يقول تعالى : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣) ﴾ [الأنعام] فأنت أيها المؤمن تصدق ذلك ، فذات الحق لاتبصرها العيون وهو يعلم كلَّ ما هو خفىٌّ عنك ، ولا تدركه عيونك .

وفى الكون أشياء قد لاندركها على الرغم من أنه سبحانه وتعالى خلقها وعملت فى خدمتك ، وبعد أن أدركتها ظلت تعمل فى خدمتك ، فإنْ حدَّثك الحق سبحانه بشيء لاتدركه فلا تقلْ : ما دام هذا الشيء غير مدرك فهو غير موجود.

وعلى سبيل المثال أنت لاتدرك الكهرباء ولا الجاذبية ولا قمة أسرار الحياة، وهى الروح التى تعطيك سر الحياة وتنفعل بها كل جوارحك ، وإنْ خرجتْ الروح صرْتَ جثة هامدة ، إنَّ أحداً لا يعرف مكان الروح ولا يدركها ولا سمعها أحد أو شمّها أو ذاقها أو لمسها .

إن الـروحَ موجـودةٌ فى ذاتـك ولا تدركها ، وها أنت ذا لا تستطيع أنْ تدرك مخلوقاً لله فكيف تدرك خالقك وهو الله ؟ إنك لو أدركته لما صـار إلهاً لأنك إنْ أدركتَ شيئاً فقد قدرتْ عليه جوارحك ويصير مقدوراً عليه لعينك أو ليدك .

و (اللطيف) لها معنى خاص ، فالشيء اللطيف يُستعمل فى الدقيق التكوين ولله المثل الأعلى ، فالميكروب لم نعرفه إلا مؤخراً لأنه بلغ من اللطف والدقة بحيث لا تدركه العين ، لكن عندما اخترعنا الميكروسكوب رأيناه ، وإنْ بَعُدَ الميكروب عن ذلك فلن نراه .

فكلما دَقَّ الشيء يلطف ولا يمكن أنْ نراه ، فالشيء إذا لَطُفَ شَرُف وعلا ونقول ولله المثل الأعلى : فلان لطيف المعشر ، والحق سبحانه لطيف فى ذاته ويلطف بعباده .

فساعة تسمع (لاطف) فهذا اسم فاعل مثل (آكل) وحين نقول (لطيف) فهى مبالغة فى اللطف ، لأنه لاطف بكل إنسان وكل كائن ، وهذا يحتاج إلى مبالغة، ولذلك نقول (رحيم) ، وهى صيغة مبالغة لأنه يُسبغ رحمته على عباده .

وأول مظهر من مظاهر اللطف هو تدبير أمورهم الدقيقة تدبيراً يحقق مصالحهم فى وجودهم ، إننا حين ندبر كوب ماء لكل إنسان ندبر الكثير ، فما بالنا بتدبير اللطيف بعباده ؟

لقد خلق الله لنا الأرض ، ثلاثة أرباعها ماء والرُّبْع يابس ، لأنه جَلَّ وعلا يريد أنْ يُوسِّع رقعة الماء لأن المياه كلما اتسعتْ رقعتها كان البخْر فيها أسهل وأكثر ، لكن لو كانت المياه عميقة ومساحتها قليلة فالبخر على مستوى السطح فقط ، وهنا لا يأتى السحاب بما يكفى الخَلْق من الماء .

لقد وسَّع الله سبحانه رقعة الماء كى يتبخَّر الماء ثم ينعقد كسُحب فى السماء ، ويصادف منطقة باردة لينزل لنا المياه العذبة لنشرب منها وتشرب أنعامنا

ونسقى الزرع ، وكلٌّ ذلك من لطف التدبير .

ومن مظاهر اللطف فى الحق نجد أموراً لا تُوصف ، ولذلك كل واحد من العلماء ينظر لزاوية من زوايا لُطْف الله بخَلْقه ، فواحد قال هو سُبوغ النعمة(١). وقال الثانى : هو دقة التدبير . وقال الثالث : إن من مظاهر لطف الحق أنه يستقل كثيراً من النعم على خَلْقه ، فالنعم التى منحها خَلْقه قليلة لأن خزائنه سبحانه ملأى وعطاياه لا تنفد ولا يعتريها نقص .

فمظاهر اللطف لا حصر لها ، وعلى قدر دقَّة اللطف تكون دقة مأتاه وإحصائه ، فهو اللطيف الذى إذا ناديته لبّاك ، وإذا قصدته آواك ، وإذا أحببتَه أدناك ، وإذا أطعتَه كافأك ، وإذا أعطيته وأقرضته من فضله وماله الذى منحك عافاك ، وإذا أعرضتَ عنه دعاك .

ويأتى عالم آخر ممَّنْ انفعلوا بصفات اللطف فيقول : الذى يجازيك إنْ وفَّيْت ويعفو عنك إنْ قصَّرت . وعالم آخر يضيف إلى معانى اللطف فيقول : مَن افتخر به أعزّه ، ومَن افتقر إليه أغناه . وعالم ينفعل انفعالاً آخر بمظاهر اللطف فيقول : مَنْ عطاؤه خير ومنعه ذخيرة ، أى أنه لو منع عبده شيئاً فإنه يدخره له فى الآخرة ، كل هذه مظاهر للطف .

والحق سبحانه يصف ذاته بأنه هو ﴿اللَّطِيفُ(٢) الْخَبِيرُ (١٤)﴾ [الملك]فهو لطيف يعلم ما يدخل ويتغلغل فى الأشياء ، خبير بكلِّ شيء، وقدير على كلِّ شيء .

ويقول تعالى : ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠)﴾ [يوسف] فسبحانه هو المدبّر الذى لا تخفى عليه خافية أبداً ، وكلمة (لُطْف) ضد كلمة كثافة ، فاللطيف هو الذى له جُرْم دقيق ، والشيء كلما لَطُف عَنُف ، لأنه لا

(١) سبوغ النعمة : اتساعها ووفرتها . والدرع السابغة : التامة الوافرة الطويلة الواسعة . [تاج العروس – مادة سبغ] .

(٢) اللطيف : لطف علمه بما فى القلوب خبير بما فيها .

توجد عوائق تمنعه .

ولا شيءَ يعوق الله أبداً ، وهو العليم بموقع وموضع كل شيء ، فهو سبحانه يجمع بين اللطف والخبرة ، فلُطْفه لا يقف أمامه شيءٌ ، ولا يوجد ما هو مستور عنه ، ولا يقوم أمام مراده شيء .

وسبحانه خبير بمواضع الأشياء ، وعلمه سبحانه مطلق ، وهو حكيم يُجرى كلَّ حدث بمراد دقيق ، ولا يضيف إليه أحد أيّ شيء فهو صاحب الكمال المطلق ، وهو سبحانه الخبير بما نعمل ويعلم كلَّ شيء بإحاطة تامة .

والخبير يختلف عن العالم الذى قد يعلم الإجماليات ، لكن الخبير هو المدرّب على التخصص ، ولذلك غالباً ما تأتى كلمتا (اللطيف والخبير) معاً ، لأن الخبير هو مَنْ يعلم مواقع الأشياء ؛ واللطيف هو مَنْ يعرف الوصول إلى مواقع تلك الأشياء .

ومثال هذا أنك قد تعرف مكان اختباء رجل فى جبل مثلاً ، هذه المعرفة وهذه الخبرة لا تكفيان للوصول ، والنفاذ إلى مكانه ، بل إنَّ هذا يحتاج إلى ما هو أكثر ، وهو الدقة واللطف .

فالخبير الذى يعلم خبايا الأمور حتى فى مسائل الدنيا الهامة ، نقول : نستدعى لها الخبير ، لأن المختصّ العادى لا يقدر عليها ، فالخبير مَنْ وصل إلى منتهى العلم الدقيق ، ومنه قولنا : اسأل أهل الخبرة ، يعنى لا يسأل أهل العلم السطحى ، فالخبير هو الذى لا يغيب عنه شيء[1] .

فاللطف هو الدقّة فى تناول الأشياء وحُسْن تأتِّى الأمور مهما كانت وسائلها ضيقة . وسبق أنْ قلنا : إن الأشياء الضارة كلما لطفت عنفت ، فالحديد الذى تجعله على النوافذ ليحميك من الذئاب غير الحديد الذى يحميك من الثعابين أو

(١) ويقول تعالى : ﴿ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (٥٩) ﴾ [الفرقان] أى اسأل عنه إنساناً خبيراً . ويقال : فلان بهذا الأمر خبير وله به خبر وهو أخبر به من فلان أى أعلم.

من الناموس والذباب .. إلخ .

لذلك نجد أن أفتك الأمراض تأتى من الفيروسات اللطيفة التى لم تُعرف ، وحُسْن التأتِّى للأمور يعنى التغلغل فى الأشياء مهما دقَّتْ ، فقد تُضطر مثلاً لأن تُدخل يدك فى شىء ضيق لتتناول شيئاً بداخله ، فلا تستطيع ، فنستعين على ذلك بالولد الصغير لأن يده ألطف من يدك ، أو تستعين على ذلك بآلة أدقّ لتؤدى بها هذا الغرض .

ووصف اللطيف يُتمِّمه وصف الخبير ، فإذا كان اللطيف يعنى الدقة فى تناول الأشياء وحُسْن التأتى ، فالخبرة تعنى معرفة الموضع ، فاللطف لا يتأتَّى إلا بالخبرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا[1] فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا[2] وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾

فالحق سبحانه يلفتنا إلى خلق الأرض ، والأرض هى المكان الذى يعيش فيه الناسُ ، ولا يستطيع أحد أنْ يدّعى أنه خلق الأرض أو أوجدها ، ولنا أنْ نلتفت إلى فارق مهم بين (الخلق) وبين (الجعل) ، فالخَلْق شيءٌ والجَعْل شيء آخر .

الخَلْق هو إيجادٌ من عدم ، والجعل هو توجيه مخلوق لله إلى مهمته فى

---

(١) ذلولاً : مُذللة سهلة لم يجعلها ممتنعة بالحزونة والغلظ (زاد المسير لابن الجوزى ٤/ ٣١٥) . فجعلها مهاداً ذلولاً توطأ بالأقدام وتضرب بالمعاول والفؤوس فهى ذلول مسخرة لما يريد العبد منها .

(٢) مناكبها ، فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : طرقاتها . رواه العوفى عن ابن عباس وبه قال مجاهد .

ثانيها : جبالها . رواه ابن أبى طلحة عن ابن عباس وبه قال قتادة . واختاره الزجاج .

ثالثها : جوانبها . قاله مقاتل والفراء وأبو عبيدة واختاره ابن قتيبة .

الحياة، فخلْق الله لا يخلقون شيئاً، إنما الخَلْق والإيجاد له سبحانه، وعلينا – نحن الخلْق – أنْ نُخصِّص كل شيء لمهمته فى حياته التى أرادها الله .

أي أنْ نترك (الجعل) لله ولا نتدخَّل فيه، بمعنى أن الخالق سبحانه وتعالى خلق الخنزير – على سبيل المثال – ليأكل من القاذورات، وليحمى الإنسان من أمراض وأضرار كثيرة .

وعلى الإنسان أنْ يُخصِّص الخنزير لهذه المهمة فلا يحوّله إلى غير مهمته كأنْ يأكله مثلاً، لأن تحويل مهمة مخلوق لله إلى غير مهمته هو أمر يضرُّ بالإنسان الذى أراده الله سيداً مُستخلفاً فى الكون .

والخالق سبحانه هو الذى (خلق) وهو الذى (جعل)، ومثال هذا يقول تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا (٥) ﴾ [يونس] فالأمر ليس أمر التذكير بخَلْق الله للشمس والقمر، بل هو أمر التذكير بما جُعلت له الشمس وبما جُعل له القمر، أى المهمة التى خُلق من أجلها كل منهما .

فالفساد إنما ينشأ فى الكون حينما نجعل مخلوقاً لله فى مهمة غير تلك التى جعلها الله له، وعلينا أنْ نُسلِّم بأنَّ كلَّ شيء مخلوق لمهمة، فلا يصح أنْ نُوجِّه شيئاً إلى غير مهمته، وتوجيه أشياء إلى غير ما جُعلت له أنتج آثاراً ضارة .

فالأرض خلقها الله وجعلها لمهام محددة حدَّدها الله فى كتابه، قال تعالى: ﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا (٢٢) ﴾ [البقرة] فكلمة فراشاً توحى بأنه أعدّ الأرض إعداداً مريحاً بشرياً، كما تفرش على الأرض شيئاً تجلس عليه أو تنام عليه فيكون فراشاً مريحاً .

ونحن نتوارث الأرض جيلاً بعد جيل، وهى تصلح لحياتنا جميعاً، ومنذ أنْ خُلقت الأرض إلى يوم القيامة ستظل فراشاً للإنسان، وحتى عندما تقدَّمتْ الحضارة وزادت الرفاهية ظلَّتْ الأرض فراشاً رغم ما وُجد عليها من أشياء ليِّنة .

فكأنَّ الله تعالى قد أعدّها لنا إعداداً يتناسب مع كل جيل ، فكُلُّ جيل رُفّه فى العيش بسبب تقدُّم الحضارة كشف الله سبحانه من العلم ما يُطوِّع له الأرض ويجعلها فراشاً .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا (١٠) ﴾ [الزخرف] والمهد هو فراش الطفل ، ولا بدَّ أن يكون مريحاً لأن الطفل إذا وجد فى الفراش أيَّ شيء يُتعبه فإنه لا يملك الإمكانات التى تجعله يريحه .

ولذلك تُمهِّد الأم لطفلها مكان نومه حتى ينام نوماً مريحاً ، ولكن الذى يمهد الأرض لكلِّ خَلْقه هو الله سبحانه وتعالى ، فيجعلها فراشاً لعباده.

فقوله تعالى : ﴿ مَهْدًا (١٠) ﴾ [الزخرف] من التمهيد وتوطئة الشيء ليكون صالحاً لمهمته كما تفعل فى فراشك قبل أنْ تنام ، ومن ذلك يُسمَّى فراش الطفل مهداً لأنك تمهِّده له وتُسوِّيه وتُزيل عنه ما يقلقه أو يزعجه ليستقرَّ فى مهده ويستريح .

فمعنى ﴿ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا (٥٣) ﴾ [طه] أى : سوَّاها ومهَّدها لتكون صالحة لحياتكم ومعيشتكم عليها ، وليس معنى مهَّدها جعلها مستوية ، إنما سوَّاها لمهمتها . وإلا ففى الأرض جبال ومرتفعات ووديان ، وبدونها لا يستقيم لنا العيش عليها .

فتسويتها تقتضى إصلاحها للعيش عليها ، سواء بالاستواء أو التعرّج والارتفاع أو الانخفاض ، فالتسوية جَعْل الشيء صالحاً لمهمته ، سواء كان بالاعتدال أو الاعوجاج ، سواء أكان بالأمت أو بالاستقامة .

ومن هذا قوله ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) ﴾ [الروم] فكأنَّ الذى يعمل الصالح فى الدنيا يُمهِّد لنفسه فراشاً فى الآخرة ، كما يحكى أبو

منصـور بن حـازم عن أبى عبدالله الحسين يقول : العمل الصالح يسبق صاحبه إلى الجنة ليمهد له فراشه كما يُمهِّد الخادم لأحدكم فراشه .

وقد جعل الحق سبحانه الأرض مطيعة للإنسان تعطيه كلَّ ما يحتاج إليه . فالأرض مُسخَّرة من الحق سبحانه للإنسان يسعى فيها ويضرب فيها ، ويأكل من رزق الله الناتج منها ، فالأرض الذَّلول المسخَّرة ، وهذا مِثْل وَصْف الحق سبحانه للبقرة التى طلب الله من اليهود .

﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ ..(٧١) ﴾ [البقرة] ، فلم تكن بقرة بنى إسرائيل ذلولاً مسخَّرة فى أعمال الأرض .

فالبقرة الذلول هى البقرة المروَّضة الممرنة التى تؤدى مهمتها بلا تعب ، تماماً مثل الخيل المروضة التى لا تتعب راكبها لأنها تم ترويضها .

وقال الله سبحانه لهم أول وَصْف للبقرة أنها ليست مروَّضة ، لا أحدَ قادها ولا قامت بعمل ، إنها انطلقت على طبيعتها وعلى سجيَّتها فى الحقول بدون قائد .

فالبقرة المطلوبة كانت بقرة مرفهة غير سهلة الانقياد ، فلا تُستخدم لا فى حرث الأرض وإثارتها ، ولا فى سقيها بعد أنْ تحرث ، فهى بقرة غير ذلول .

وقد ذلَّل الله لنا الأنعام ، فقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ[1] وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) ﴾ [يس]

---

(١) فمنها ركوبهم : أى منها ما يركبون . لأنك تقول : هذه دابة ركوب . والرُّكوب هو فعلهم . وقال الثعلبى فى الكشف والبيان : (فمنها ركوبهم) قرأ العامة بفتح الراء أى مركوبهم . كما يقال : ناقة حلوب أى محلوب . وقرأ الأعمش والحسن : بضم الراء على المصدر .

وعلى المؤمن أنْ يتذكَّر أيضاً أن الحق سبحانه ذلَّل الجمل لصاحبه ، وجعل الطفل الصغير يأمر الجمل فيرقد على الأرض ليضع عليه الأحمال الثقيلة ويأمره فيقوم .

أما إنْ واجه الثعبان أو الحية فهو لا يجرؤ على تذليلهما ، وهنا لفْتٌ من الحق للخَلْق لقدرته المطلقة ، فقد ذلَّل لهم الكبير، وأفزعهم أضعاف ذلك من الثعبان ذى الجسم الصغير .

ومن التذليل يأتى رضوخ بقية الكائنات للإنسان ، فالحمار عند الفلاح يحمل السماد للأرض من بقايا فضلات الإنسان والحيوان ، ولا ينطق الحمار معترضاً .

ويأتى الفلاح ليرتقى فى حياته ويصير شيخاً للخفر ، فيأمر أنْ يستحم الحمار ويشترى له السِّرْج ليركبه وهو ذاهبٌ للقاء المأمور فى المركز ولم يعص الحمار فى الحالتين ، إنه التذليل .

إياك أنْ تظن أنَّ مهارتك وحدها أيها الإنسان هى التى ذللتْ لك الكائنات، فلو اعتمد الأمر على المهارة وحدها لذلَّل الإنسان البرغوث الصغير الذى يهاجمه فى أيٍّ وقت ، وقد يُفزعك ذلك البرغوث الصغير طوال الليل وقد تسهر أسرة بأكملها من أجل قتل برغوث واحد .

والحق سبحانه هو الذى ذلَّلَ للإنسان كلَّ شيء ، ولو لم يُذللها لما استجابتْ لك أيها الإنسان ، ومن حكمته تعالى ورحمته بنا أنْ ذلَّل لنا سُبُل الحياة ، وذلَّل لنا ما ننتفع به ، ولولا تذليله هذه الأشياء ما انتفعنا بها .

فنرى الجمل الضخم يسوقه الصبى الصغير ويتحكم فيه يُنيخه ويُحمِّله الأثقال ويسير به كما أراد ، فى حين إذا ثار الجمل أو غضب لا يستطيع أحدٌ التحكم فيه ، وما تحكّم فيه الصبى الصغير بقوته ولكن بتذليل الله له .

أمـا الثعبـان مثـلاً فهو على صِـغَر حجمـه يُمثل خطـراً يفزع منـه الجميع ويهابُون الاقتراب منه ، ذلك لأن الله سبحانه لم يُذللـه لنـا ، فأفزعنا على صِغَر حجمه .

وفى ذلك حكمة بالغة وكأنَّ الحق سبحانه يقول لنا : إذا ذلَّلت لكم شيئاً ولو كان أكبر المخلوقات كالجمل والفيل تستطيعون الانتفاع به ، وإنْ لم أذلّله لكم فلا قدرةَ لكم على تذليله مهما كان حقيراً صغيراً .

إذن الأمـور ليست بقدرتك ، ولكـن خُذْها كما خلقها الله لـك ، يقول تعالى :
﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ (٧٢)﴾ [يس]

أى جعلناهـا خاضـعة لتصرُّفهـم ، وهـذا التذليل ليس بقهر من الإنسـان للأنعام ولكنه بتسخير من الله وهى مُيسَّرة لخدمة الإنسان .

ومثال آخر قوله الحق : ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلا (٦٩)﴾ [النحل] أى : متطامنة مُهيأة ، تنقَّلى حُرَّة بين الأزهار هنا وهناك ، ولذلك لا نستطيع أنْ نبنى للنحل بيوتاً يقيم فيها ، لا بدَّ له من التنقل من بستان لآخر .

فقوله تعالى ﴿ذُلُلا (٦٩)﴾ [النحل] أى مُذلَّلـة مُمهدة طيِّعة ، فتخرج النحل تسعى فى هذه السُّبل فلا يردّها شيء ولا يمنعها مانع ، تطير هنا وهناك من زهرة لأخرى ، وهل رأيتَ شجرة مثلاً ردَّتْ نحلة ؟ لا قد ذلَّل الله لها حياتها ويسَّرها .

والكون مُسخَّر لخدمة الإنسان والتسخير معناه التذليل ، وأنْ لا تتمرد ظواهر الكون على الإنسـان ، وإذا كانت هناك ظواهر فى الكون تتمرد بقدر الله مثل الفيضانات والبراكين والكوارث الطبيعية نقول : إن ذلك يحدث ليلفتنا الحق سبحانه إلى أنَّ كلَّ ما فى الكون لا يخدمنا بذاتنا ولا بسيطرتنا عليه ، وإنما يخدمنا بأمر الله له .

وإلاَّ لو كانت المخلوقات تخدمك بذاتك فاقدر عليها حينما تتمرد على خدمتك ، وكلٌّ ما فى الكون خاضع لطلاقة قدرة الله ، حتى الأسباب والمسبِّبات خاضعة أيضاً لطلاقة القدرة الإلهية ، فالأسباب والمسبِّبات فى الكون لا تخرج عن إرادة الله .

لذلك إذا تمرد الماء بالطوفان وتمردت الرياح بالعاصفة وتمردت الأرض بالزلازل والبراكين ، فما ذلك إلا ليعرف الإنسان أنه ليس بقدرته أنْ يسيطر على الكون الذى يعيش فيه .

والإنسان عاجز عن أنْ يُخضع حيواناً إلا بتذليل الله له ، ومن عجيب أنك ترى الحيوانات تدرك مالا يدركه الإنسان فى الكون فهى تحسُّ بالزلزال قبل أنْ يقع وتخرج من مكان الزلزال هاربة ، بينما الإنسان لا يستطيع بعقله أنْ يفهم ما سيحدث .

والله جعل لنا الأرضَ ذلولاً مُذلَّلة مُسخَّرة مُهيئة لنا للاستفادة بها حرثاً وبذراً وزرعاً ويسَّر لنا السير فيها ، قال تعالى : ﴿ فَانْتَشِرُوا فِى الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ الله (١٠) ﴾ [الجمعة]

فالله أمرنا بالسعى فى الأرض ، فالمشى والسعى فى الأرض مطلوب ﴿فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا (١٥) ﴾ [الملك]

وقد قرن الحق سبحانه بين الضاربين فى الأرض للرزق والمقاتلين فى سبيل الله فى قراءة ما تيسَّر من القرآن . قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ (٢٠) ﴾ [المزمل]

ثم قال تعالى : ﴿ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى

الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ (٢٠)﴾ [المزمل]

وقانون الإصلاح الذى جعله الله لحياة البشر يقوم على دعامتين : الضرب فى الأرض والسعى فى مناكبها وفيه مقومات الحياة ، ثم نقاتل فى سبيل الله لبقاء الدعوة والمنهج ، فالأولى للقالب ، وبها نأكل ونشرب ونعيش ، والأخرى للقيم .

فإنْ قعدتْ الأمة أو تكاسلتْ عن أيٍّ من هاتين الدعامتين ضاعت وهلكت وصارت مطمعاً لأعدائها ، لذلك تجد الآن الأمم المتخلفة فقيرة تعيش على صدقات الأمم الغنية لأنها كفرت بأنعم الله وسترتْها ولم تعمل على استنباطها قعدت عن الاستعمار[1] والاستصلاح .

وأنت حين تذهب فى الأرض فعليك أنْ تضربها حرثاً وتضربها بذراً ، لا تأخذ الأمر بهوادة ولين ، فالأرض مُسخَّرة من الحق سبحانه للإنسان يسعى فيها ويضرب فيها ويأكل من رزق الله الناتج منها .

والسير فى الأرض منه سير اعتبار لينظر فى ملكوت السماوات والأرض وليستنبط من آيات الله ما يدلُّ على تأكيد إيمانه بربه ، ومنه سير استثمار بأنْ يضرب فى الأرض ليبتغى من فضل الله .

وقوله﴿مَنَاكِبِهَا (١٥)﴾ [الملك] أى : جوانبها وأطرافها ونواحيها وطرقها وفجاجها .

ثم قال ﴿وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ (١٥)﴾ [الملك] فنسب الرزق إلى الله وفى آيات أخرى ينسب الرزق إلى الإنسان : ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥)وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦)﴾ [الفجر]

---

(١) قال ابن عربى قال بعض علماء الشافعية : الاستعمار طلب العمارة . وقوله تعالى : ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا (٦١)﴾ [هود] خلقكم لعمارتها . وقال الشيخ رشيد رضا فى تفسير المنار (١٢/١٠١) : جعلكم عماراً فيها من العمران فقد كانوا زراعاً وصناعاً وبنائين . واستعمل الاستعمار فى عصرنا بمعنى استيلاء الدول القوية على بلاد المستضعفين واستعباد أهلها لمصالحهم . والمراد أنه هو المنشىء لخلقكم والممدكم بأسباب العمران » .

والحق سبحانه يُطمئن كلَّ إنسان أنَّ رزقه يعرف عنوانه ، والإنسان لا يعلم عنوان الرزق ، فالرزق يأتى لك من حيث لا تحتسب ، لكن السعى إلى الرزق شيءٌ آخر ، فقد تسعى إلى رزق ليس لك ، بل هو رزقٌ لغيرك .

فمثلاً أنت قد تزرع أرضك قمحاً فيأتى لك سفر للخارج وتترك قمحك ، ليأكله غيرك وتأكل أنت من قمح غيرك .

ورزقُ الله عطاؤه ، وقد يأتى رزقه من بعد ذلك من منطقة أخرى ، وبسبب آخر ﴿ اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦) ﴾ [الرعد]

والناس ينظرون إلى الرزق من ناحية واحدة ، فهو عندهم المال ، فهذا غنيّ وهذا فقير ، والحقيقة أن الرزق ليس المال فقط ، بل كل شيء تنتفع به فهو رزقك ، فهذا رزقه عقله ، وهذا رزقه قوته العضلية .

إذن يجب ألاَّ ننظر إلى الرزق على أنه لونٌ واحد ، بل ننظر إلى كلِّ ما خلق الله لخَلْقه من مواهب مختلفة : صحة ، قدرة ، ذكاء ، حلْم ، شجاعة ، كلّ هذا من الرزق الذى يحدث فيه التفاضل بين الناس .

والحق سبحانه هو الرازق الأعلى ومن بحره يغترف الجميع ، ولله تعالى فى رزقه حكمة وقدر ، فليس بسْط الرزق دليل كرامة ، ولا تضييقه دليل إهانة ، بدليل أنَّ الله يبسط الرزق لقارون ، ثم أخذه أخْذ عزيز مقتدر .

والحق سبحانه يقول ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ [العنكبوت] والمعنى : إنْ ضاق رزقك فى مكان فاطلبه فى مكان آخر .

فالأرض كلُّها لله لا حدودَ فيها ولا فواصلَ بينها ، فلما قسَّمها الناس وجعلوا لها حدوداً تمنع الحركة فيها حدثتْ كثيرٌ من الإشكالات ، وصَعُبَ على الناس التنقُّل للسياحة أو لطلب الرزق إنْ ضاق بأحد رزقه .

وهاهى السودان بجوارنا بها مساحاتٌ شاسعة من الأراضى الخصبة التى إنْ زُرعَتْ سدَّت حاجة العالم العربى كله ، أنستطيع الذهاب لزراعتها ؟ ساعتها سيقولون : جاءوا ليستعمرونا .

لذلك لما أُتيح لى التحدث فى هيئة الأمم قلت : إنه لا يمكن أنْ تُحلّ قضايا العالم الراهنة ، والحق سبحانه قد استخلفنا فى الأرض من أجل أنْ نعمرها .

فخلافة الإنسان فى الأرض تقتضى أنْ يتحرَّك ويعمر الأرض ، وحين يريد الله منَّا أنْ نتحرك ونعمر الأرض فلا بدّ من أعمال تنظم هذه الحركة ، ولا بدَّ من فنون متعددة تقوم على العمارة ، ويوزِّع الله الطاقات الفاعلة لهذه الفنون المتعددة ويجعلها مواهبَ مفكرة ومُخططة فى البشر .

فكلُّ عمل يؤدى إلى عمارة الكون واستنباط أسرار الله فى الوجود يُعتبر عبادةً لله ، لأنك تُخرِج من كنوز الله التى أودعها فى الأرض ما يلفت الناسَ إلى الحقيقة التى جاء بها الإيمان ؛ فاقرأ قول الحق ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠)﴾ [الرحمن] أى : الأرض كل الأرض للأنام كل الأنام ، بلا استطالة سيطرة ولا احتكار.

ثم يقول تعالى : ﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥)﴾ [الملك] أى النشر ، والنشر يعنى الانطلاق فى الأرض بالحركة ، كما فى قوله تعالى : ﴿فَانْتَشِرُوا فِى الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ (١٠)﴾ [الجمعة]

والحق سبحانه قد جعل النهار نُشُوراً بعد سبات الليل ، ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا (١) وَالنَّوْمَ سُبَاتًا (٢) وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (٤٧)﴾ [الفرقان]

---

(١) لباساً : أى أن الليل ساتر بظلمته ، لأن ظلمته تغشى الأشخاص وتشتمل عليها اشتمال اللباس على لابسه . (زاد المسير لابن الجوزى ٣/٣٢٣) وقال القطان فى تفسيره (تيسير التفسير ٣/٣٩٨) : « وجعلنا الليل بظلامه ساتراً لكم كاللباس الذى يغطى الجسم ويستره » .

(٢) سباتاً : أى راحة لأبدانكم قاله ابن قتيبة . والسبات ليس بموت ، رجل مسبوت فيه روح . وليس السبات ها هنا النوم فيكون معناه : وجعلنا نومكم نوماً ولكن السبات الراحة أى جعلنا النوم راحة لأبدانكم . [تأويل مشكل القرآن ١/٥٤] .

فأنت أيُّها المتحرك فى الكون ينطبق عليك ما ينطبق على كلِّ متحرك ، لا بدَّ لك من سُكون بقدر حركتك ، ولذلك انقسم الزمان إلى ليل تسكن فيه ، وإلى نهار تتحرَّك فيه .

ويعلم سبحانه أزلاً أنه لا يمكن أنْ يكون الليل - أى وقت الراحة - سُباتاً لكل الناس ، بل لا بدَّ من أناس يقومون بأمور تقتضى اليقظة بالليل ،ولهؤلاء يقول سبحانه : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ (٢٣) ﴾ [الروم]

إنه يعطى فرصة لهؤلاء الذين تظلّ عيونهم ساهرة طوال الليل ليستريحوا بالنهار ، إذن فمن عظمة الحق أنه جعل الزمان خِلفة[1] ، فلو كان الليل سرمداً والنهار سرمداً لفسدت الحياة .

ولذلك نجد أن الحق أقسم بقوله ﴿ وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) ﴾ [الضحى] ، فالضحى محلّ الحركة والكدح ، والليل محلّ السكون ، ولا بدَّ أنْ يُوجد الاثنان معاً .

والنشور أيضاً الانتشار من القبور للبعث ، قال تعالى : ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (٣) ﴾ [الفرقان] أى موتاً أو حياة لغيرهم ، فهم لا يملكون شيئاً من هذا كله ، لأن من صفات الإله الحق الذى يُحيى ويُميت ، ثم ينشر الناس فى الآخرة .

فالنشور البعث للحساب ، والنشر معناه تفريق المنشور فى الحيِّز ، فهناك شيءٌ مطويٌّ وشيء آخر منشور ، والشيء المطويّ فيه تجمُّع ، والشيء المنشور فيه تفريقٌ وتوزيع .

---

(١) يقول تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً..(٦٢) ﴾ [الفرقان] قال مجاهد : يعنى أسود وأبيض . وقال الحسن البصرى فيما رواه عبد الرزاق فى تفسيره (٢٠٩٦) أى جعل أحدهما خلفاً للآخر ، إن فات الرجل من النهار شيء أدركه من الليل ، وإن فاته من الليل أدركه من النهار » .

فحيِّز الشـيء المتجمِّع ضـيق ، وحيِّز الشيء المبثوث واسع ، والحق سبحانه يقـول : ﴿ يَـٰأَيُّهَـا النَّاسُ اتَّقُـوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُـمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِـدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً (١) ﴾ [النساء]

﴿ وَبَثَّ (١) ﴾ [النساء] أى نشر ، وسنقف عند كلمة (نشر) لأن الخَلْق يجب أنْ ينتشروا فى الأرض كى يأخذوا جميعاً من خيرات الله فى الأرض جميعاً .

ولا بـدَّ أنْ يُوجِّه العبد المؤمن حركة حياته إلى عمل نـافع يتسـع لـه ولمَنْ لا يقدر على الحركة فى الحياة ، والله سبحـانـه وتعالى حينما يطالبنا بـالسعى فى الأرض لا يطالبنـا أنْ يكون ذلك على قدر احتياجاتنا فقط .

بل يطالبنـا أنْ يكون تحرُّكنا أكثر من حاجة حياتنا حتى يتسع هذا التحرك ليشـملَ حيـاةَ غير القادر على حركة الحياة ، فيتسـع المجتمـع للجميع ويزول منه الحقد والحسد وتُصفِّى النفوس .

والله يريـد أنْ تكون حركةُ حياتنـا نظيفـةً شريفة ، حركة كريمة ، فلا يدخل فى بطنك إلا مـا عرقتَ من أجله ويـأخذ كلّ إنسان حقَّه ، وقبل أنْ يفكر الإنسانُ فى أنْ يـأكل عليه أنْ يتحرَّك ليأكل ، لا أنْ ينتظر ثمرة حركة الآخرين ، لماذا ؟

لأن هـذا الكسـل يُشيع الفوضـى فى الحيـاة ، وحين نـرى إنسـانـاً لا يعمل ويعيش فى راحة ويأكل من عمل غيره فإنَّ هذا الإنسـان يصـبح مثلاً يحتذى بـه الآخرون، فيقنع النـاسَ جميعاً بـالسـكون عن الحركة ويعيشـون عـالةً على الآخرين .

ويترتَّـب علـى ذلك توقُّف حركـة الحياة ، وهذا بـاطلٌ زائل وبـه تنتهى ثمارُ حركـة المتحرك وهنـا يجـوع الكلّ ، إنَّ الحقّ يريد للإنسـان أنْ يتحرك ليُشـبع حـاجته من طعام وشراب ومأوى ، وبذلك تستمر دورة الحياة .

إنــه سـبحانه يريد أنْ يضـمن لنـا شرف الحركة فى الحيـاة بمعنى أنْ تكون

لك حركة فى كل شيء تنتفع به ، لأنَّ حركتك لن يقتصر نفعُها عليك ، ولكنها سلسلةٌ متدافعة من الحركات المختلفة .

وحين تشيع أنت شرف الحركة فالكلّ سيتحرك نحو هذا الشرف ، لكنَّ الباطلَ سيتحقّق بعكس ذلك ، فأنت حين تأكل من حركة الآخرين تُشيع الفوضى فى الكون .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ ﴾

والحق سبحانه يقول ﴿وَهُوَ الَّذِى فِى السَّمَاءِ إِلَـٰهٌ وَفِى الْأَرْضِ إِلَـٰهٌ (٨٤) ﴾ [الزخرف] ، وأمْن مكر الله سبحانه قال فيه الحق سبحانه : ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩) ﴾ [الأعراف] وأمْن مكر الله كبيرةٌ من الكبائر .

يقول تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى[1] أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩) ﴾ [الأعراف]

فما الذى جعلهم يأمنون على أنفسهم أنْ تنزل بهم أهوالٌ كالتى نزلت بمَنْ سبقهم من الأمم ، فلا تأمن يا صاحب النهار أنْ يأتى البأس ليلاً أو نهاراً ، وأنت يا صاحب الليل لا تأمن أنْ يكون البأسُ نهاراً أو ليلاً .

والأمن هو الاطمئنان إلى قضية لا تثير مخاوفَ ولا متاعب ، ويُقال : فلان

(١) قال أبو بكر بن الأنبارى : القرية معناها فى كلام العرب : الموضع الذى يجتمع الناس فيه . يقال : قد قريت الماء فى الحوض إذا جمعته فيه . ويقال لمكة : أم القرى لأنها أصل القرى . [الزاهر فى معانى كلمات الناس ٢/ ١٠٠] والقرية : المصر الجامع .

آمن ، أى لا يوجد ما يُكدِّر حياته .

والحق سبحانه يقول : ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ (٩٩) ﴾ [الأعراف] ونحن نسمع بعض الكلمات حين ينسبها الله لنفسه نستعظمها ونقول : هل يمكر ربنا ؟ لأننا ننظر إلى المكر كعملية لا تليق . وهنا نقول : انتبه إلى أن القرآن قد قال ﴿ وَلا يَحِيقُ(١) الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ (٤٣) ﴾ [فاطر]

إذن فهناك مكر خير ، ويقول تعالى : ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩) ﴾ [الأعراف] ، وجاء فى منهج الرسل جميعاً أن الذى يأمن مكر الله هو الخاسر .

مكْر الله سبحانه إذن أقوى من أى مكر بشرى ، فمكر البشر قد يُهدم من بعض الماكرين أو من التجسس عليهم ، لكن إذا كاد الله لهم أيعلمون من كيده شيئاً ؟ طبعاً لا يعلمون .

وفى سورة الإسراء يقول تعالى : ﴿ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا(٢) ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (٦٨) ﴾ [الإسراء] وقال : ﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا(٣) مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (٦٩) ﴾ [الإسراء]

فلا تظنوا أن البَرَّ أمان لا خطر فيه ، لا بل خطرى موجود غير بعيد منكم

---

(١) يحيق : حاق به البلاء أحاط به [الصحاح للجوهرى - مادة حيق] . ويحيق أيضاً : نزل . قال ابن فارس فى معجم مقاييس اللغة : هو نزول الشيء بالشيء .. وقال العسكرى فى الفروق اللغوية (١/ ٣٠٤) : لا يقال حاق إلا فى نزول المكروه فقط .

(٢) الحاصب : ريح تحمل التراب والحصباء وهو الحصى الصغار . [تهذيب اللغة ٤/ ١٥٣] وقال الرازى أبو عبد الله فى مختار الصحاح (مادة حصب) : الحاصب الريح الشديدة تثير الحصباء .

(٣) قاصفاً من الريح : أى عاصفاً من الريح وهى الشدة . والقاصف : الريح الشديدة [تفسير يحى بن سلام] قال أبو عبيدة معمر بن المثنى فى مجاز القرآن (١/ ٣٨٥) أى تقصف كل شيء أى تحطم كل شيء لا تبقى لهم ثاغية ولا راغية .

سواء أكنتم فى البحر أو فى البر.

والخسْـف هو تغييب الأرض ما على ظهرها ، فانخسف الشيء أى غاب فى باطن الأرض ومنه خسوف القمر أى غياب ضوئه . ومن ذلك أيضاً قوله تعالى عن قارون : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ (٨١) ﴾ [القصص]

وهذا نوع من العذاب الذى جاء على صور متعددة كما ذكرها القرآن الكريم: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

فالخسف أنْ تنشقّ الأرض فتبتلع ما عليها ، كالذى يقول : يا أرض انشقى وابلعينى . والخسف كان حدث مع قارون فكان خسفاً به وبداره التى فيها كنوزه وخزائنه وما يملك .

فهل يأمن أحد أنْ يخسف الله بهم الأرض فإذا هى تمور ، يعنى فإذا هى تدور بكم إلى الأرض السفلى ، ومَوْرُها تحرّكها فتفور بهم الأرض فالله يحرك الأرض عند الخسف بهم حتى تضطرب وتتحرك فتعلو عليهم وهم يخسفون فيها، والأرض تمور فوقهم فتقلبهم إلى أسفل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ ﴾

عذاب البشر للبشر على قدر البشر ، لكن عذاب الله يتناسب مع قدرة الله فهل لنا طاقة بهذا العذاب والعياذ بالله ؟ ليس لنا طاقة به ، والعذاب يأتى بغتة مرة ويأتى جهرة مرة أخرى .

إنـه يأتى بغتة حتى يكون الإنسـانُ متوقِّعاً له فـى أيّ لحظة ، ويأتى جهرة حتى يرعب الإنسان ويخيفه قبل أنْ يقع ، يقول تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (٤٧) ﴾ [الأنعام]

والحق سبحانه يقول ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٥) ﴾ [البقرة] فالموت إنْ جاءهم بغتة فقد لا يشعرون بهوله إلا لحظة وقوعه ، ولكن حينما يأتيهم الموت وهم ينظرون فهم يرونه وهم فى فزع ورعب .

فهل أنتم تأمنون عذاب الله ، فاجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية لأنكم لستم بقادريـن على تحمُّل عذاب الله ، والعـذاب يأتى بغتة عقاباً ويأتى جهرة حتى لا يقولـنّ أحـد : لولا مجـىء العذاب بغتة لكان قد احتاط لذلـك الأمر ، ويأتيهم العذاب وهم مُبلسون . أى يائسون لا منجى ولا منقذ ولا خلاص لهم.

ولكن ما السبب فى تلوين العذاب بين « بغتة » و (جهرة) البغتة تثبت لمن يعبـد غير الله أنـه مخدوع فى عبادته لغير الله ، لأنه لو كان يعبد إلهاً حقاً لما قَبِل هذا الإله أنْ يُعذّب أتباعه من حيث لا يشعر .

إذن : فالبغتـة تُثبت عجز المعبودين من أصـنام وغيرهـا ، فقد عجزتْ تلك الأصنام أنْ تحتاط للعابدين لها .

وقـد يقـول قائل منهم : لقد جاءنـا العذاب فجأة ، لكن لو جـاء لنا مواجهة لكُنَّـا قادرين على مواجهته والوقوف أمامه ، فيأتى الله أيضـاً بـالعذاب جهرةً فلا يستطيعون مواجهته فتنقطع حُجتهم ، وعلى الرغم من ذلك تموت فى قلوب هؤلاء المعاندين القدرةُ على إبصار ضرورة الإيمان .

ولا أحدَ بقادر على أنْ يردَّ عذابَ الله ، يقول تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦) ﴾ [هود] ، فعذابُ الله إذا جاء لا يُردّ .

فالله يُذكِّر هؤلاء الظالمين بأنَّ عذابَ الله حين يجيء لا يمكن أن يقوم أمامه

قائمٌ يمنعه ، فتنبَّهوا جيداً إلى أنكم عُرْضة أنْ يُنزل الله تعالى بكم العذاب ، فمَنْ يدفع عذابَ الله إنْ حلَّ ؟

وباستقراء تاريخ الأمم السابقة نلاحظ ما حاقَ بهم من سنة إهلاك الظالمين ، فقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط نزل بهم عذاب الله الذى لا يُردّ عن القوم الكافرين ، ولكنه كان عذابَ استئصال .

يقول الحق سبحانه عن عذاب هؤلاء : ﴿ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

فالله عزَّ وجلَّ هو الذى كان يتولّى التأديب ، فالله لم يطلب من أيِّ رسول أن يحارب فى سبيل العقيدة ، فعيسى عليه السلام لم يجئ ليقاتل بالسيف ليحمى العقيدة إنما جاء واعظاً ليدلّ الناس على العقيدة .

ولكن أمة محمد ﷺ هى التى أَذن الله لها أنْ تحمل السيف لتؤدب به الذين يحولون دون بلوغ العقيدة الصحيحة للناس ، والسيف لم يأتِ ليفرض العقيدة إنما ليحمى الاختيار فى النفس الإيمانية .

فبدلاً من أنْ يترك الناسَ مقهورين على اعتناق عقيدة خاطئة ، فالمسلمون يرفعون السيف فى وجه الظالم القاهر لعباد الله ، وعباد الله لهم أنْ يختاروا عقيدتهم .

وهذه الأنواع من العذابات نزلتْ بالمكذِّبين من قوم عاد وثمود ومدين وقوم لوط وقارون وفرعون وهامان ، فهم مشتركون فى التكذيب لكنهم مختلفون فى العذاب الواقع بكلٍّ منهم .

وأول أنواع هذه العذابات المذكورة فى سورة العنكبوت ، وهنا فى سورة الملْك هو إرسال الحاصب على القوم المكذِّبين المعذَّبين ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

وهنا يقول سبحانه : ﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا (١٧) ﴾ [الملك] ، والحاصب هو الريح التي تهبُّ محمَّلة بالحصى .

ويقول تعالى أيضاً ﴿ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ[1] أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (٦٨) ﴾ [الإسراء]

أي يرسل عليكم ريحاً تحمل الحصباء وترجمكم بها رجماً ، والحصباء الحصى الصِّغار وهي لونٌ من ألوان العذاب الذي لا يُدفع ولا يُردّ ، لذلك قال بعدها : ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (٦٨) ﴾ [الإسراء]

أي : لا تجدوا مَنْ ينصركم أو يدفع عنكم : فلا تأمنوا سواء كنتم في بحر أو في برٍّ .

فالحاصب هو الحصى الصِّغار ترمي لا لتجرح ولكن يُحمى عليها لتكوى وتلسع حين يرميهم بها الريح ، ولم يقُلْ هنا : أن يرسل عليكم ناراً ، مثلاً لأن النار ربما إنْ أحرقتْه يموت وينقطع ألمه ، لكن رميهم بالحجارة المحمية تلسعهم وتُديم آلامهم ، كما نسمعهم يقولون : سأحرقه لكن على نار هادئة ذلك ليطيل أمد إيلامه .

وأصل الحاصب الريح تحصب بالحصباء وهي صغار الحصى ، وإنما وُصفت الريح بأنها تحصب لرميها الناس بذلك ، فالحاصب الريح العاصف التي فيها الحصى الصِّغار .

والمتأمل لقوله تعالى : ﴿ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ (١٧) ﴾ [الملك] يجد أن الله سبحانه قال : ﴿ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ (١٧) ﴾ [الملك] كأنها مُسلَّطة عليهم كل فرد منهم بذاته .

---

(١) جانب البر: ناحية من البر. [قاله مقاتل بن سليمان ٢/ ٤٩٩] فيخسف الله جانب البر الذي هو مأمنكم أي أن يغيبه الله تعالى ، جانبه الذي هم فيه استلزم خسفه هلاكهم . [تفسير الألوسي ٨/ ١٦٠] .

ومثله قوله تعالى : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ[1] مِّن نَّارٍ (٣٥) ﴾ [الرحمن]

ويقول تعالى أيضاً : ﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (٦٩) ﴾ [الإسراء]

وهي مرسلة من فوقهم ، وقد كان عذاب قوم لوط أن قُذِفوا بحجارة من السماء كتلك الحجارة التي ألقتْها الطيرُ الأبابيل بحجارة من سجِّيل طين مُتحجِّر على مَنْ أراد سوءاً ببيت الله الحرام .

وقد يسأل سائل : الحق سبحانه هنا ذكر الخسف بالأرض أولاً ، ثم جاء ذكر ما يأتي من السماء ، فقال تعالى : ﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) ﴾ [الملك]

ثم قال : ﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا (١٧) ﴾ [الملك] ولكن الحق سبحانه قال في موضع آخر : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ (٦٥) ﴾ [الأنعام] ثم ﴿ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ (٦٥) ﴾ [الأنعام]

وهذا من عجيب نَظْم القرآن الذي وضع اللفظ الصحيح في مكانه ، فسورة الملك ساقتْ أولاً ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥) ﴾ [الملك]

فملاءمة السياق هنا تقتضي التذكير بأن الله قادرٌ على خَسْف الأرض من تحتهم ، أما في سورة الأنعام فالله قال : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً .. (٦١) ﴾ [الأنعام] فناسب أنْ يذكر ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ (٦٥) ﴾ [الأنعام] ، فبدأ بالعذاب الآتي من فوقهم لا من

(١) شواظ : يعني لهب من نار ليس له دخان . وقال الطبري : الشواظ هو اللهب الأخضر المتقطع من النار.

الأرض أو عليها .

﴿ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧) ﴾ [الملك] أى : فستعلمون يا أهل مكة عند نزول العذاب كيف نذير ، فستعلمون كيف عاقبة نذيرى لكم و ﴿ نَذِيرِ (١٧) ﴾ [الملك] هنا أى إنذارى لكم .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا(١) فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (١٩) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٢١) ﴾ [القمر]

و (النُّذر) جمع نذير . والنذر تأتى قبل العذاب ، فالله لا يعذب أحداً إلاَّ بعد أنْ ينذره ، و الواو هنا فى ﴿ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨) ﴾[القمر] لا تقتضى الترتيب فى الحدث ، إنما تفيد الجمع بين الحدثين فقط .

وإرسال الرسل هو إيصال لإنذار الله للمكذبين أنهم سيتعرضون لعذاب الله إنْ كذَّبوا وبقوا مكذِّبين لله ولرسله وغير مؤمنين بالكتب ، وقال تعالى :﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥) ﴾ [الإسراء]

فالله رحم الخَلْق بإرسال الرسل ليُبيِّنوا للإنسان الطريق الصحيح من الطريق المعوج ، فلا عقوبةَ إلا بتجريم ، ولا تجريمَ إلا بنص ، ولا نصَّ إلا بإبلاغ ، وقد أبلغتكم الرسل وسبق إليكم الإنذار .

وعن أبى أمامة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « يبيتُ من هذه الأمة قوم على أَكْل وشُرْب ولهو ولعب ، فيصبحون قد مُسخوا قردةً وخنازير وليُصيبنَّهم خَسْف وقذف حتى يصبح الناس . فيقولون : خسف الليلة ببنى فلان ، وخُسِف

---

(١) ريحاً صرصراً : أى ريحاً باردةً شديدة . وعن مجاهد : شديدة السَّموم عليهم . وقال السدى : باردة ذات الصوت . فالصرر صوت الريح إذا هبَّت بشدة . [الطبرى فى تفسيره ٢١/٤٤٥] .

الليلة بدار فلان .

وليرسلنَّ عليهم حاصبَ حجارة من السماء كما أُرسلت على قوم لوط على قبائل منها وعلى دُورٍ .

وليُرسلنَّ عليهم الريح العقيم التى أهلكتْ قوم عاد على قبائل منها وعلى دور بشُربْهم الخمر ولُبْسهم الحرير واتخاذهم القَيْنات وأكلهم الربا وقطيعتهم الرحم »(١) .

فلا تفعلوا ما يُغضب الله حتى لا يصيبكم عذاب مَنْ قبلكم من الأمم ، واجعلوا بينكم وبين النار وغضب الله وقاية ، فالحرام لا يأتى منه خير مُطلقاً ، بل ينقلب على صاحبه شراً ووبالاً ونقمة ، فإنْ كان طعامُكَ حراماً ولبسك حراماً ، فإنَّ هذا يدخل فى تكوين خلاياك ويصبح الحرام فى جسدك ، فإذا دخل الحرام إلى الجسد يميل فعلُك إلى الحرام ، وتصبح طباعك قريبةً إلى طباع القردة والخنازير.

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨) ﴾

فليسوا هم أول مَنْ كذَّب ، بل هو دأب الذين من قبل ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ(٢) الْمُرْسَلِينَ (٨٠) ﴾ [الحجر] وأصحاب الحجر هم قوم صالح .

وهؤلاء مثل آل فرعون ، قال تعالى : ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١١) ﴾ [آل عمران]

---

(١) أخرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده (١٢٣٣) . والقينات جمع قينة وهى المغنية .

(٢) أصحاب الحجر : أصحاب الوادى . وهم ثمود قوم صالح . وهم قوم من العرب العاربة ، سكنوا الحجر بين الحجاز وتبوك ، وهو وادٍ بين المدينة والشام .

فكان دأب آل فرعون هو التكذيب والطغيان ، ولأن التكذيب أصبح دأبهم وعادتهم وديدنهم ، أوقع الله عليهم العذاب ويجازيهم على ذلك بتعذيبهم .

والتكذيب هو تأبٍّ من المكذِّب ، وهو إنكار لقول أو فعل ، والتكذيب هو الوقوف إيجابياً في موقف الضدِّ والصَّدِّ عن سبيل الله ، والتكذيب كان سبباً أيضاً في إغراق الذين كذَّبوا من قوم نوح عليه السلام .

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (٦٤) ﴾ [الأعراف]

وكان هذا أول حدث عقابيٍّ في تاريخ الديانات ، لأن رسالة نوح عليه السلام هي أول رسالة تعرضت إلى مثل هذا التكذيب ومثل هذا العناد ، والتكذيب بآيات الله تعالى يعني إخراج الصدق إلى الكذب وإخراج الواقع إلى غير الواقع.

والذين كذَّبوا بالآيات إما أنهم لا يؤمنون بإله أو يؤمنون بإله ولا يؤمنون برسول ، أو يؤمنون بإله ، ويؤمنون برسول ولا يؤمنون بما أُنزل على الرسول ﷺ .

وهذا التكذيب ظاهرة عاني منها كلّ الرسل السابقين لك لأنهم يجيئون بما ينكره المرسل إليهم أولاً فلا بدّ أنْ يكذِّبوا ، والحق سبحانه يقول : ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) ﴾ [الحج]

فإنْ يكذِّبوك في دعوتك فيواجهونك ويقفون في سبيل دعوتك ليُبطلوها فاعلم أنك لسْت في ذلك بدعاً من الرسل ، فقد كُذِّب كثير من الرسل قبلك ، ومسألة التكذيب منفصلة عن عاقبته .

نعم كذّب القوم ، ولكن أتركناهم أم أخذناهم أخْذ عزيز مقتدر ، سوف يحلّ بهم ما حَلَّ بسابقيهم من المكذبين والمعاندين ، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ (١٨) ﴾ [العنكبوت]

فعليكم أنْ تنتبهوا إلى ما صُنع بالأمم المكذّبة وكيف كانت عاقبتهم، فاحذروا أنْ يُصيبكم ما أصابهم، والحق سبحانه يوضح: إنْ كانوا قد كذَّبوك فلا تحزن فقد كذبوا من قبلك رسلاً كثيرين.

وكأنَّ الله يقول لرسوله ﷺ: يا محمد لسْتَ بدعاً من الرسل فإنْ وقف منك قومك موقفَ العناد والتكذيب، فكُنْ على يقين وعلى ثقة من نصر الله لك.

﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨) ﴾ [الملك] فالحقُّ سبحانه يُلقى الخبر فى صورة استفهام لتقول أنت ما حدث وتشهد به. والمراد: أعاقبناهم بما يستحقون؟

والنكير هو الإنكار على شخص بتغيير حاله من نعمة إلى نقمة، كالذى يُكرمك ويُواسيك ويبشّ فى وجهك ويُغدق عليك، ثم يقطع عنك هذا كله، فتقول: لماذا تنكَّر لى فلان؟ يعنى: قطع عنى نعمته.

﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨) ﴾ [الملك] أى: فكيف كان إنكارى لموقفهم من عدم أداء حقوق النعمة فبدَّلها الله عليهم نقمة.

ثم يقول تعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَـٰٓفَّـٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَـٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾

فالله تعالى يلفت نظر هؤلاء المكذبين لله ورسوله ولكتابه إلى السماء، ولكن الحق سبحانه يسوق الأمر فى هيئة استفهام ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا (١٩) ﴾ [الملك]، وهذا تأكيد أنهم فعلاً رأوا، فلماذا يكفرون ويكذِّبون إذن؟!

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢)﴾ [يس]

وفي آية أخرى يقول تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١)﴾ [الرعد]

ويذكِّرهم الحق سبحانه بأمر يعيشونه في حياتهم ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا (٦٧)﴾ [العنكبوت]

ويذكر الحق سبحانه عاداً فيقول تعالى : ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً (١٥)﴾ [فصلت]

و (يروا) هنا بمعنى (يعلموا) ولم يقُلْ الحق سبحانه ذلك لأن العلم قد يكون علماً بغيب ، ولكن (يروا) تعني أنهم قد علموا ماجاء بالآية على مشهد ورؤية واضحة ، وليس مع العين أين .

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا (١٩)﴾ [الملك] أي أعمُوا ولم يروا ولم يتدبروا فيما خلق الله ، ومما خلق الله الماء الذي يسوقه إلى الأرض الجرز[1] الخالية من كل شيء الجرداء ، يقول تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧)﴾ [السجدة]

وهنا يلفت الحق سبحانه إلى الطير السابح في السماء ؛ يقول تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ (١٩)﴾ [الملك]

فالطير يطير في السماء بحركة الجناحين التي تدفع الهواء وتقاوم الجاذبية فلا يسقط ، كالسبع الذي يدفع بذراعيه الماء ليسبح ، فإذا ما قبض الطائرُ جناحيه ومع ذلك يظل مُعلَّقاً في السماء لا يسقط ، فمَنْ يُمسكه في هذه الحالة؟

---

(١) الأرض الجُرُز التي لا تُمطر إلا مطراً لا يغني عنها شيئاً إلا ما يأتيها من السيول . [تفسير مجاهد] وقال مقاتل بن سليمان في تفسيره (٣/٤٥٣) : يعني الملساء ليس فيها نبت فنخرج به بالماء زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم .

هذه صورة تشاهدونها لا يشك فيها أحد ، وهذه الطير تسبِّح الله سبحانه ، يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ (٤١) ﴾ [النور]

ونحن نرى الطير في جو السماء ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩) ﴾ [النحل] وهي ليست رفرفة أجنحة ، فنحن نرى الطائر يُثبِّت أجنحته في الهواء ، ومع ذلك لا يقع إلى الأرض .

فهناك إذن ما يمسكه من الوقوع ، لذلك قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ (١٩) ﴾ [الملك] أي أنها في حالة بسْط الأجنحة وفي حالة قبْضها تظلّ معلَّقة لا تسقط، وكذلك نجد من الطيور ما له أجنحة طويلة، لكنه لا يطير مثل الأوز وغيره من الطيور .

إذن ليست المسألة مسألة أجنحة ، بل هي آية من آيات الله تمسك هذا الطير في جوِّ السماء ، فتراه حراً طليقاً لا يجذبه شيء إلى الأرض ، ولا يجذبه شيءٌ إلى السماء ، بل هو حُرّ يرتفع إنْ أراد الارتفاع وينزل إنْ أراد النزول .

والله يريد أنْ يجعل الطير مثلاً ونموذجاً لشيء أعظم ، فالطير كائنٌ له وزن وثقل يخضع لقانون الجاذبية التي تجذب للأرض كل ثقل يُعلَّق في الهواء .

لكن الحق سبحانه يخرق هذا القانون للطير حين يصُفُّ أجنحته في الهواء يظل مُعلَّقاً لا يسقط ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ (١٩) ﴾ [الملك]

فترى الطير في السماء مَادًّا جناحيه ثابتاً بدون حركة ، ومع ذلك لا يقع على الأرض ولا يُمسكه في جَوِّ السماء إذن إلا قدرة الله .

وكأنَّ الخالق يقول : خُذوا من الطير المشاهد نموذجاً ووسيلة إيضاح ، فإذا قلت لكم ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ (٦٥) ﴾ [الحج]

فصدِّقوا وآمنوا أنَّ الله يمسك السماء ، بل ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ (٤١) ﴾[فاطر] فخُذْ من المشهد الذى تدركه دليلاً على ما لا تدركه .

والحق سبحانه وتعالى ، يُطمئننا فيقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤١) ﴾ [فاطر]

فالحقُّ سبحانه وتعالى وحده الذى يحفظ السماوات والأرض فى توازن عجيب ومذهل ، ولئن قدِّر لهما أنْ تزولا فلن يحفظهما أحدٌ بعد الله ، أي لا يستطيع أحدٌ إمساكهما ، فهما قائمتان بقدرة الواحد القهار ، وإذا أراد الله أنْ تزولا فلا يستطيع أحدٌ أنْ يمسكهما ويمنعهما من الزوال .

وقد أوجد الحق سبحانه قوانين الجاذبية لتمارس السماوات والأرض أعمالهما ويحفظهما بقدرته من الزوال وجعل من الجاذبية نظاماً بديعاً يحفظ الكون من الاختلال .

فالأمر قائم على قدرة الله دون وجود عَمَد تحمل السماء ، فالسماء مرفوعة فوقنا بلا عمد ، لا يُمسكها فوقنا إلا الله بقدرته وقيوميته أنْ تقع على الأرض إلا بإذنه تعالى .

والله عز وجل يقول : ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧) ﴾ [المؤمنون] فلن نغفل عن السماء من فوقكم وسوف نمسكها ، وإمساك الطير في جَوِّ السماء دليل حِسِّى على إمساك الله للسماء أنْ تقع على الأرض .

وقد أوجد الحق قوانين الجاذبية لتمارس السماوات والأرض أعمالهما ويحفظهما بقدرته من الزوال ، وجعل من الجاذبية نظاماً بعيداً يحفظ الكون من الاختلال ، فالجاذبية كانت موجودة ولم يعرفها الإنسان إلا مؤخراً .

والحق سبحانه استحقَّ بهذا بإمساكه السماوات والأرض وبإمساكه الطير في جوِّ السماء استحقّ الله بهذا وَصْف الرحمن ، قال تعالى : ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَـٰنُ (١٩) ﴾ [الملك]

وكلمة (الرحمن) من صيغ المبالغة ، فإذا قيل رحمن تكون مبالغة فى الصفة ، وكذا إذا قيل رحيم تكون مبالغة في الصفة ، والله سبحانه رحمن الدنيا ورحيم الآخرة .

واسم (الرحمن) يفيد أن رحمته سبحانه تعُم الخَلْق جميعاً ، والرحمن ينعم بالنعم كلها ، والرحمة صفة التحنين للخَلْق ، ولم يقُلْ الحق سبحانه : ما يمسكهن إلا الجبار أو القهار رغم أنَّ إمساك السماء أنْ تقع على الأرض وإمساك الطير في جَوِّ السماء يقتضى اسم الجبار في ظاهر الأمر ، فهو يحفظ السماء بجبروته وقهره .

فأسماء الجبار والقهار من خدم الرحمة ومن أسبابها ، فالله يرحم عباده حتى بصفات القهر والانتقام ، والله أرحم الراحمين ورحمته وسعتْ كل شيء ومسائل الخَلْق كلها تدور في إطار الرحمانية .

فالله سبحانه وتعالى للمؤمن والكافر ، فهو الذي استدعاهم جميعاً إلى الوجود ، ولذلك فإنه يعطيهم من النعم برحمته وليس بما يستحقون ، فالشمس تشرق على المؤمن والكافر ، ولا تحجب أشعتها عن الكافر وتعطيها للمؤمن فقط ، والمطر ينزل على مَنْ يعبدون الله ومَنْ يعبدون أوثاناً من دون الله ، والهواء يتنفسه من قال لا إله إلا الله ومَنْ لم يقُلها .

وكل النعم التى هى من عطاء الربوبية لله هى فى الدنيا لخَلْقه جميعاً وهذه رحمة ، فالله ربُّ الجميع مَنْ أطاعه ومَنْ عصاه وهذه رحمة ، والله قابلٌ للتوبة وهذه رحمة .

﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩) ﴾ [الملك] فلا تعتقدوا أنَّ هناك شيئاً يخفى على الله، أو أنّ أحداً يستطيع أنْ يخدع الله ، فالله سبحانه وتعالى بصيرٌ بكل شيء، ليس بالظاهر منك فقط ، ولكن بما تُخفيه فى نفسك ولا تُطلع عليه أحداً من خَلْق الله .

فالله يعلم ويرى كلَّ ما تصنعون ، وأنتم تحت سمعى وبصرى وكلاءتى ، حتى أن الله عز وجل عندما ذكر نوحاً عليه السلام قال : ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧) ﴾ [هود]

ومعنى ﴿ بِأَعْيُنِنَا (٣٧) ﴾ [هود] أى : بحفظنا ورعايتنا ، وكلمة (بأعيننا) تفيد شمول الحفظ وكمال الرعاية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ (٢٠) ﴾

كلمة (جند) مفردة لكنها تدل على جماعة ، وأصل الكلمة من (جند) وهى الأرض الغليظة الصلبة القوية ، ونظراً لأن الجنود المفروض فيهم الغلظة والقوة فقد أُطلِق عليهم لفظ (جند) .

وبرغم أن كلمة (جند) مفرد إلا أنها تدلّ على القوم مثل (رهط) و (طائفة) ويُسمُّونها اسم جمع .

فمَنْ هذا الذى هو جند لكم أيها الكافرون به ينصركم من دون الرحمن إنْ أراد بكم سوءاً فيدفع عنكم ما أراد بكم من ذلك، فقوله ﴿أَمَّنْ هَذَا الذى(٢٠)﴾ [الملك] هو استفهام بمعنى التوبيخ والإنكار.

فأى هذه الأصنام والأوثان تمنعكم من عذاب الله وتدفعه عنكم، نحو قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ[1] (٤٣)﴾ [الأنبياء]

فهذه الآلهة لا تستطيع نصر أنفسها فكيف ينصرونكم ويمنعونكم من عذاب الله إنْ وقع بكم؟ وقوله ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣)﴾ [الأنبياء]، فالمراد يصحبه كى يحميه بهذه الصحبة وينجو من العذاب، فهؤلاء لن نكون فى صحبتهم لنُنجيهم، ولا أحدَ يستطيع أنْ يصحبهم لينجيهم من عذابنا، لا هذه ولا تلك.

فقوله ﴿أَمَّنْ هَـٰذَا الَّـذى(٢٠)﴾ [الملك] خطاب للكافرين على وجه التوبيخ والتهديد وإقامة الحجة عليهم، فلا جندَ لكم ينصركم ويمنعكم منى إنْ أردتُ عذابكم، فليس لكم من دون الله من ولى ولا واقٍ ولا ناصرَ لكم غيره.

فلن تجدوا مَنْ ينصركم أو يدفع عنكم، ولا أملَ لكم فى ناصر ينصركم أو مدافع يحميكم، فعندما تقعون فى عداء مع منهج الله؛ يتخلى الله عنكم ولا ينصركم أحد؛ لأنه لا ولى ولا ناصر إلا الله تعالى.

والحق سبحانه يقول ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا[2] مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ(٢٥)﴾ [العنكبوت]

---

(١) ولا هم منا يُصحبون: أى لا يُجارون ولا ينقذهم صاحب لهم من عذابنا. [القاموس القويم للقرآن الكريم ١/٣٦٩] وقال ابن منظور فى لسان العرب مادة: صحب. يصحب: يمنع ويحفظ، وهو من قوله تعالى: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣)﴾ [الأنبياء] أى يمنعون. وتقول: صحبك الله أى حفظك.

(٢) الأوثان: الأصنام. مفرده وثن. وأصل الكلمة من وثن بالمكان أى أقام به وثبت فيه فهو أثن أى مقيم ثابت. [القاموس القويم ٢/٣٢٠].

فـلا نـاصرَ لكم من أوليائكم الذيـن عبدتموهم من دون الله حيث يطلبون النصـرة مـن أحجـار وأصنـام لا تنطـق ولا تجيـب.

﴿ فَأَمَّـا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُـمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى الدُّنْيَـا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٥٦) ﴾ [آل عمران] ، فليس لأحد من هؤلاء من ناصر لأن الذى يهزمه الله ويعذبـه لا نـاصـر لـه.

فلن يجد الظالم مَنْ يدرأ عنه هذا العذاب لأنه لن يجد ناصراً له ولن يجد شفيعـاً فلـن يأتـى أحد ويقول : إن فلاناً يتعذب فهيا بنـا ننصره ، لن يأتى أحـدٌ لينصـره ، ولـن يجـد نـاصـراً أو معينـاً يخلِّصهـم مـن العـذاب.

وفـى سـورة الصافـات يقول تعـالى : ﴿ وَقِفُوهُـمْ إِنَّهُـمْ مَسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُـمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَـوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) ﴾ [الصافات] أين الفتوات الأقويـاء ينصرونكـم؟

وهـذا الاستفهـام علـى سبيـل السخرية والتهكـم . يعنـى : مالكم الآن لا ينصـر بعضكـم بعضـاً وكنتـم تنـاصـرون فـى الدنيـا ، الأتبـاع ينصرون السـادة ، والسـادة يُجنِّـدون الأتبـاع ويدعمونهـم ويحفزونهـم.

ولأن لا أحدَ سينصرهم أو يعينهم تجدهـم مستسلمين خاضعين مُنقادين أذلاء مُهانـين ، أى رفع الرايـة البيضـاء ، فلم يعد لديه شيءٌ من القوة يدافع بهـا عـن نفسـه ولا حجـةَ ولا منطق ، إنـه الآن ينتظـر أمر الله فيـه فى ذلَّة وصَغـار.

والحـق سبحـانـه يقـول هنـا (ينصركـم) ، فالنصيـر هو الـذى ينصرك بـالقـوة والفتونـة فمَـنْ هذا الـذى يستطيـع أنْ يدفع عنكم الله مـن الأنصار والأعـوان ؟ فمَـنْ ينصركم منى إنْ أردت عذابكم ؟ فلا جنـدَ لهم ولا أعوان.

والحـق سبحـانـه لم يقُلْ : أمَّـن ذا الذى ؟ بل قـال تعـالـى : ﴿ أَمَّنْ هَـٰذَا الَّذِى (٢٠) ﴾ [الملك] فـاستخدم سبحـانه هـاء التنبيه فى (هذا) ، فـالمقـام مقـام ترهيب وإنذار

وتخويف وتحذير، فجاء بـ (هـا) التنبيه زيادةً في التحذير والتنبيه وهو ما يقتضيه المقام .

والنُّصرة تأتي على معنيين ، تأتي بمعنى أنه لا يغلب ، وتأتي بمعنى أنَّ هناك قوة تنتصر له أي تنصره ، ولكن هؤلاء لا ناصر لهم من أوليائهم الذين عبدوهم من دون الله حيث يطلبون النصرة من أحجار وأصنام لا تنطق ولا تجيب .

﴿ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١) ﴾ [الأنعام] والولي هو الذي ينصرك إنْ كنتَ في مأزق ، ومأزق الآخرة كبير ، فماذا عن الإنسان الذي ليس له ولاية ؟ إنه العذاب الحق .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلَا شَفِيعٌ (٥١) ﴾ [الأنعام] أي ليس له من يشفع عند مَنْ يملك النصرة وهو الله ، فالذي يحبك إنْ لم ينصرك بذاته فإنه قد يشفع لك عند مَنْ يستطيع أنْ ينصرك ، وهذا أيضاً لا يوجد لمن لم يتعظ ويتذكر ولم يتبع المنهج الإيماني .

وقوله تعالى : ﴿ مِنْ دُونِ الرَّحْمَٰنِ (٢٠) ﴾ [الملك] يذكر صفة الرحمة والرحمانية لله عز وجل فيذكر اسم الرحمن ، ولم يقُلْ تعالى : من دون الله . فالحق سبحانه يذكِّر عباده برحمانية الله ، وأنه إنْ كان قد تخلى عنكم المناصرون والمؤيدون إلاَّ أنَّ الله عز وجل برحمانيته سينصركم إنْ آمنتم بالله .

فالله عز وجل إنما يريد أنْ يؤمن عباده لا أنْ يكفروا ، يقول تعالى ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧) ﴾ [النساء]

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (٢٠) ﴾ [الملك] فغرور الدنيا قد يركب بعض الناس فيظنون أنهم في مَنَعَة من الله ، وأنهم لن يلاقوه .

وهناك (غُرور) بضم الغين ، و(غَرور) بفتح العين ، فالغرور بضم العين هو

الشـيء يُصوَّر لك على أنه حقيقة وهـو في الواقع وهم ، أما الغرور بفتح الغين فهـو مَـنْ يفعل هذه العمليـة . ولذلك فالغَرور هو الشيطان لأنـه يزين للإنسان الأمـر الوهمى ويؤثر مثلما يؤثر السـراب ، فالإنسان حين يرى انكسار الأشعة يُخيَّـل إليه أنه يرى ماء ، ويقول الحق عن ذلك ﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا (٣٩) ﴾ [النور]

وكذلـك الغـرور حيث يزين الشيطـان شيئاً للإنسان ويُوهمـه أنه سيستمتع بـه ، فـإذا ما ذهب الإنسـان إليه فلن يجد له حقيقة ، بـل العكس . فالغرور هو الإطمـاع فيمـا لا يصـح ولا يحصل ، فعندمـا تقول لواحد والعيـاذ بالله (أنت مغرور) فأنت تقصد أنه يسلك سبيلاً لا يوصله إلى الهدف المنشود .

والحق سبحانه يقول : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ (٥) ﴾ [فاطر]

ويقول تعالى : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠) ﴾ [الحديد]

ويُقـال عن الرجل الذى ليس له تجربة : إنه غِرٌّ ، فيأتى بأشياء بدون تجربة فـلا ينتفـع منها ولا تصح ، لذلك سمَّـى اللهُ الشيطان (الغـرور) ، لأنه نُطمعنا نحن البشر بأشياء متوهَّمة لن تحدث .

فالغـرور يجعـل العمر كله يضيـع ، لأن الإنسانَ لم يتبـع المنهج الحق ، بل يمتـد الضيـاع والعـذاب إلى العمر الثانى وهو الحياة فـى الآخرة ، يقول الحق : ﴿ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) ﴾ [آل عمران]

والكافـر مـن هؤلاء يتملَّكـه الغرور وهـو يتقلّب فى النعمة التـى وهبه الله

إياهـا فيأتيه عذابُ الله بغتةً ، لأنه استجاب لوعود الشيطان ، ووعودُ الشيطان ليستْ إلا غروراً ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (٦٤) ﴾ [الإسراء]

وهو سبحانه يُحذِّرنا أنْ يأخذنا الغرور بهذه الحياة ، فالإنسان بدون منهج الله يسبح فى بحر الغرور والتكبُّر ، ومعنى الغرور أنْ يغترّ فيعزل النعمة عن المنعم وينسبها لنفسه كما فعل قارون فاغترَّ بماله وعلمه .

واستخدام الحق سبحانه (إنْ) ثم (إلاَّ) هذا لتأكيد أن الكافرين فى غرور ، وليس لحالهم وجهٌ آخر لأنهم فى الحقيقة يغرُّون أنفسهم ويخدعونها ، يغترون بدنيا زائلة وبآلهة مُدَّعاة موهومة لا تنفع ولا تضر .

يغرُّهم الشيطان ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (٦٤) ﴾ [الإسراء] ولكن الشيطان لا يستطيع أنْ يغُرَّ بوعوده إلا صاحب الغِرَّة والغفلة ، ومنها الغرور أى يزيِّن لك الباطل فى صورة الحق فيقولون : غرَّه .

وأنت لا تستطيع أبداً أنْ تصور لإنسان الباطل فى صورة الحق إلا إذا كان عقلُه قاصراً غافلاً ، لأنه لو عقل وانتبه لتبيَّن له الحق من الباطل ، إنما تأخذه على غرَّة من فكره ، وعلى غفلة من عقله .

والغرور يوضحه لنا الشاعر[1] وهو يخاطب محبوبته ، فيقول :

أَفَاطِمُ مَهْلاً بَعْضَ هَذَا التَّدلُّلِ وَإِنْ كُنْتِ قَدْ أزمَعْتِ صَرْمِى[2] فَأجمِل
أَغرَّكِ مِنِّى أَنَّ حُبَّكِ قَاتِلى وَأَنَّكِ مَهْمَا تَأمُرِى القَلْبَ يَفْعلِ

(١) هو امرؤ القيس بن حُجر بن الحارث الكندى ، أشهر شعراء العرب ، يمانى الأصل ولد بنجد عام ١٣٠ قبل الهجرة ، كان أبوه ملك أسد وغطفان وأمه أخت المهلهل الشاعر ، فلقنه المهلهل الشعر فقاله وهو غلام . ويُعرف امرؤ القيس بالملك الضليل لاضطراب أمره طول حياته ، وذى القروح لما أصابه فى مرض موته توفى عام ٨٠ قبل الهجرة عن ٥٠ عاماً .

(٢) الصرم : القطع البائن . والصرم : الهجران . [لسان العرب - مادة : صرم] والبيتان من معلقة امرئ القيس وهي من بحر الطويل أولها :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فمعنى غرَّك : أدخل فيك الغرور بحيث تقبل على الأشياء وتتصرف فيها فى كَنَف هذا الغرور وعلى ضوئه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟(١) فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ ﴾

فمَـنْ هذا الذى يُطعمكم ويسقيكم ويأتى بأقواتكم إنْ أمسك رزقه عنكم ، مَنْ يرزقكم إنْ حبس رزقه عنكم ؟ فمَن الذى يرزقكم سواه ؟ فهل أحد من تلك الآلهة يرزقكم إنْ أمسك الله رزقه عنكم ؟

فـلا أحدَ يعطى ويمنـع ويخلق ويـرزق وينصـر إلا الله عز وجـل ، فالله هو يعطيكـم منافع الدنيا ، وهـو سبحانه الذى يعطيكم أسبـابَ رزقه من الأمطار وغيرها أو إيقاف الهواء فلم تجر الرياح ، أو جَعْل الماء غوراً .

وسيأتـى قوله تعالى فى آخر سورة الملك ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (٣٠)﴾ [الملك]

قوله (أمسك) مادة الميم والسين والكاف تدل على الارتباط الوثيق ، فالذى يجعل الإنسـان متصلاً بالشيء هو ماسكه وتقول (مسـك) و (أمسِك) وتقول (استمسـك) و (تماسك) وكلها مادة واحـدة . وقوله الحق ﴿ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ (١٧٠) ﴾[الأعراف] مبالغة فى المسك .

فــ (أمسك) منع رزقه والرزق هنـا منسوب لله عز وجل ، ونلحظ أن كلمة (رزقــه) وردت فى القـرآن أربع مرات ، مرتين منها مضافة إلى الإنسان يقول

---

(١) لجَّ فى الأمر: تمادى فيه وألحَّ واستمرَّ. قال تعالى: ﴿ لَلَجُّوا فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥)﴾ [المؤمنون] أى : لتمادوا واستمروا .

تعالى : ﴿ لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ[1] عَلَيْهِ رِزْقُهُ (٧) ﴾ [الطلاق] ، وفى سورة الفجر يقول سبحانه : ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ (١٦) ﴾ [الفجر]

ومرتان مضافة إلى الحق سبحانه ، والمرتان في سورة واحدة هى سورة الملك ، قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ (١٥)﴾ [الملك] ويقول أيضاً : ﴿ أَمَّنْ هَـٰذَا الَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ (٢١)﴾ [الملك]

فالرزق رزقُ الله سبحانه ، ووردت هنا في سورة الملْك مضافةً لله عز وجل ، وهذا يناسب أنَّ بيده سبحانه الملك : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ (١)﴾[الملك] فبيده سبحانه كلّ شيء ، وهو القادر على كل شيء .

وحين نتكلم عن الرزق يظن كثيرٌ من الناس أن الرزق هو المال ، نقول له : لا.. الرزق هو ما يُنتفع به فالقوة رزق ، والعلم رزق ، والحكمة رزق ، والتواضع رزق ، وكلُّ ما فيه حركةٌ للحياة رزق .

ومن الرزق المطر وما ينتج عنه وينبت من الأرض ، يقول تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢) ﴾ [البقرة]

فالمطر ينزل من السماء فينبت به الزرع والثمر وهذا رزقٌ لنا ، والرزق هو ما يُنتفع به وليس هو ما تحصَّل عليه ، فالمال جزء من الرزق ، والصحة رزق ، والولد رزق ، والطعام رزق ، والبركة فى الرزق ، وكلُّ نعمة من الله سبحانه هى رزق .

---

(١) قدر الله الرزق يقدره : جعله ضيقاً على قدر الحاجة لا يزيد ومنه قوله تعالى : ﴿ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ.. (١٦) ﴾ [الفجر] أى ضيَّقه وجعله على قدر الحاجات الضرورية لا يزيد عليها . [القاموس القويم ١٠٢/٢] .

والحق سبحانه يلفتنا بقوله : ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ (٢٢) ﴾ [البقرة] إلى أن الرزق يأتى من أعلى ، وذلك مثل قوله : ﴿ وَفِى السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) ﴾ [الذاريات]

ولذلك قال بعض العلماء هنا أن الرزق المقصود هنا ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١) ﴾ [الملك] هو المطر ، فمَنِ الذى يرزقكم مطراً إنْ أمسك الله ماء السماء عنكم .

والبعض يقول : إنما ينزل المطر بقوانين الكون ، فيلفتنا الله تبارك وتعالى إلى خطأ هذا الكلام بأنْ تأتى مواسمُ جفاف لا تسقط فيها حبة مطر واحدة لنعلم أنَّ المطر لا يسقط بقوانين الكون ولكن بإرادة خالق الكون ، مقنن القوانين .

فإذا كانت القوانين وحدها تعمل ، فمَنْ الذى عطَّلها ؟ ولكن إرادة الخالق فوق القوانين إنْ شاءت جعلتْها تعمل ، وإنْ شاءتْ جعلتْها لا تعمل ، إذن فكلُّ شيء فى الكون باسم الله هو الذى سخَّر وأعطى ، وهو الذى يمنح ويمنع .

والحق سبحانه لم يحكمنا فى قضية الخَلْق الأولى بشيء واحد بأنْ يجبرنا على كلِّ شيء ، بل جبرنا سبحانه بأنه لم يُدخل أسبابنا ولا حركتنا فى كثير من الحركات التى تترتب عليها الحياة ، فلم يجعل الشمس بأيدينا ولا القمر ولا الريح ولا المطر .

كلُّ هذه الأسباب جعلها بيده هو ، لماذا ؟ لأن هذه الأسباب ستفعل للمخلوق قبل أنْ تكون له قدرة ، هذه الأسباب تفعل للإنسان قبل أنْ تُوجد له حياة ، لتمهد للحياة التى يهبك اللهُ إياها .

فلو ترك اللهُ كلَّ هذه الأشياء لأسباب الإنسان لتأخرتْ هذه الأشياء إلى أنْ يُوجد للإنسان إرادةٌ ، وتُوجد له قدرة وعلم .

ومن عظيم حكمة الله سبحانه ﴿ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِى الْأَرْضِ (٢١) ﴾ [الزمر] ، فجعل الله للحياة مسارب فى الأرض حتى تستطيع البلاد ذات الحرارة الشديدة الوصول إلى المياه الجوفية ولا تتعرض المياه المنتشرة فى مسطحات كبيرة للتبخر .

لقد أخفى الله جزءاً من المياه فى الأرض لصالح الإنسان ، وفى البلاد الحارة نجد الملح واضحاً على سطح التربة دليلاً على أن الحق سبحانه وضع قانون تقطير المياه العَذْبة لتكون صالحة للشرب والزراعة .

وهو سبحانه الذى أنزل من السماء ماء ، وليس لأحد من خَلْقه أى دخل فى هذا ، لأن الماء إنما يتبخر دون أنْ يدرى الإنسان ، ولم يُعرف ذلك إلا منذ قرون قليلة ، وعرفنا كيف يتكوَّن السحاب من البخار ثم ينزل المطر من بعد ذلك .

فلا دخْلَ للإنسان بهذا الأمر ، لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً (٦٣) ﴾ [الحج]

ولكن هل استقبل الكافرون معطيات الله لنا فى الكونِ بالإيمان أم عتَوْا وتجبَّروا وتكبَّروا عن أنْ يؤمنوا ، يقول تعالى : ﴿ بَلْ لَجُوا فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١) ﴾ [الملك]

كلمة (بل) للإضراب فهى تنفى ما قبلها وتثبت ما بعدها ، فالمعنى أنهم لم يؤمنوا ولم يسلكوا ما يقتضيه ما اطلعوا عليه من بعثات الرسل ، بل أضربوا عن هذا وذهبوا إلى سلوك العُتو والنفور .

فـ (بل) حرفٌ يفيد الإضراب عن الكلام السابق ، وتقرير كلام جديد يُثبت الحكم للكلام بعدها .

﴿ بَلْ لَجُّوا (٢١) ﴾ [الملك] أى دخلوا دخولاً أدَّى إلى تماديهم فى العتو والنفور وأبَوْا غير هذا ، فهم لا يعتبرون ولا يتفكرون بل لجوا فى طغيانهم وتماديهم وتباعدهم عن الإيمان .

فـ(لجوا): تقحّموا فى المعاصى، واللجاج: تقحُّم الأمر مع كثرة الصوارف الواضحة عنه. واستمروا فى طغيانهم وإفكهم وضلالهم، فهم داموا على اللجاج والعناد.

﴿ بَلْ لَّجُّوا فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١) ﴾ [الملك] والعتو الكبرياء والإباء، وعتوا يعنى أبوْا وعصوْا واستكبروا. وهذا مُرودٌ منهم وبلوغ الغاية من الفساد، وعتوْا: بالغوا فى الظلم والتحدى وتجاوزوا الحدود.

والعاتى الذى بلغ فى الظلم الحدّ مثل الطاغوت الذى إنْ خاف الناسُ منه انتفش وتمادى وازداد قوة.

والعُتو: الكفر والطغيان والتجبُّر والإفساد كثيراً: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِى أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١) ﴾ [الفرقان]

فاستكبروا وحاولوا أنْ يجعلوا أنفسهم فوق قدرهم، وكلّ إنسان منّا له قدْرٌ محدود.

والنّفور: الكفور والتباعد عن الإيمان والنفور من الحق والاستكبار عن اتباع الإيمان، فالعتو هو التمادى فى الكفر، والنفور هو التباعد عن الحق، فقد حملهم اللجاج على الكفر والنفور عن الحق.

وهل ينفر الإنسانُ من الحق والإيمان؟ ذكر الله هذا فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥) ﴾ [الزمر]

كلمة ﴿ اشْمَأَزَّتْ (٤٥) ﴾ [الزمر] يعنى نفرت، والإنسان حينما يحس أو يدرك شيئاً لا يحبه يشمئز يعنى يظهر على سحنته الامتعاض ثم تحدث منه نفْرة وقشعريرة كئيبة ثم ينصرف عن هذا الشيء، كذلك حالُ هؤلاء لما سمعوا ذكر الله وحده نفرتْ نفوسهم وانقبضوا عن توحيد الله.

واشمئزاز القلوب أمر غيبيّ ينضح على الوجه بالانفعال، وقد قال تعالى أيضاً: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا[1] فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤١) ﴾ [الإسراء]

فبدل أنْ يذكروا ويعودوا إلى جادة الصواب ازدادوا إعراضاً ونفوراً، ولكن لماذا نفروا؟ لأنك أتيت لهم بما يُخوِّفهم ويُزعجهم، فهم يُولُّون مدبرين في خوف ونفور.

والنفور الانفكاك عن الشيء بكُره. يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَـٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَـٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (٦٠) ﴾ [الفرقان]

بل إنَّ الحق سبحانه يُعطينا صورة لهذا النفور عن الإيمان والتذكرة، فيصف الحق سبحانه إعراضهم فيقول: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ[2] مُّسْتَنفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ[3] (٥١) ﴾ [المدثر]

فكان القياس ألاَّ يُعرضوا عن التذكرة، وهم لم يُعرضوا إعراضاً هادئاً طبيعياً، بل أعرضوا كأنهم حُمر وحشية قد نفرتْ من شيء ما فجأة فتكون ردودُ أفعالها على غير اتساق.

فهم يفعلون الأفعال جزافاً بدون تفكير في حيثيات الفعل أو عدم الفعل، فهذا ليس عمل العاقلين، فهذه الحمر الوحشية كأنها فرَّتْ من قسورة، والقسورة هو الأسد، فالحُمر تنفر من الأسد مذعورة مستنفرة.

---

(١) ولقد صرَّفنا: أي بيَّنا. بأنواع تصاريف الكلام من الخبر والعِبر وضرب الأمثال والأمر والنهي والوعظ والزجر. وضربنا لهم مثلاً من كل جنس.

(٢) الحُمر: جمع حمار والمقصود به الحمار الوحشي أو المخطط لأن الله قال بعدها ﴿ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ (٥١) ﴾ [المدثر] والقسورة هو الأسد فالحق سبحانه يتحدث هنا عن بيئة برية، أما الحمار الأهلي فقد ذكره الله في آيات أخرى ﴿ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا.. (٥) ﴾ [الجمعة] ولما جمع الحمار الأهلي قال حمير ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩) ﴾ [لقمان]. عادل أبو المعاطي.

(٣) القسورة: الأسد. [القاموس القويم ٢/١١٥] وللكلمة معانٍ أخرى ذكرها ابن منظور في اللسان (مادة قسر): فقال ابن الأعرابي: القسورة الرماة من الصيادين كذا قاله ابن الأثير. فكأن الحُمر هنا فرت من الصيادين وسهامهم.

فهم فارُّون أمام الدعوة ، لا يلوون على شيء سائرين على غير هُدَى ، تجدّ في هربها لا تلوي على شيء تبغي الفرار .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

يعطينا الحق سبحانه هنا مقابلة ويعقد مقارنة بين صنفين من الناس ، الأول يمشي مُكباً على وجهه قد تنكَّب طريق الحق واستبدل به الضلال والزيغ عن الحق ، والصنف الثاني مَنْ يمشي على صراط مستقيم .

ولكن الحق سبحانه يعقد هذه المقارنة في صورة استفهام يسأله ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم (٢٢)﴾[الملك] فأيهما أهدى منهما وقد سلك الهداية ؟

والاهتداء سبيل واحد لا غير هو منهج الله تعالى وصراطه المستقيم فللهداية طريقٌ واحد أوضحه رسول الله ﷺ بقوله : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »(١).

أما طرق الضلال فمتعددة ومناهجه مختلفة ، فللضلال ألف طريق ، وهذا واضح في قول الحق سبحانه : ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِه (١٥٣)﴾ [الأنعام]

والنبي ﷺ حينما قرأ هذه الآية خطَّ للصحابة خطاً مستقيماً ، وخطَّ حوله

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في كتاب السنة (١٥) وقال الألباني في (ظلال الجنة في تخريج السنة ١٢/١): إسناده ضعيف رجاله ثقات غير نعيم بن حماد ضعيف لكثرة خطئه ، والحديث أخرجه الحسن بن سفيان في الأربعين له (ق ٦٥ /١).

خطوطـاً متعرِّجـة ، ثـم أشـار إلى الخـط المستقيـم وقـال : « هذا مـا أنا عليه وأصحـابى »[١].

إذن الهدايـة طريق واحد ، وللضلال ألفُ مذهب وألف منهج ، لذلك لو نظرتَ إلى أهـل الضـلال لوجـدتَ لهم فـى ضلالهم مذاهـب ، ولكلٍّ واحـد منهم هواه الخاص فى الضلال .

ويقول تعالى : ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ[٢] زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (٩٧) ﴾ [الإسراء]

وعـن أبـى هريرة رضى الله عنه قال قال رسـول الله ﷺ : يُحشر النـاس يوم القيامـة ثلاثةَ أصنـاف : صنف مشاة ، وصنف ركبان ، وصنف على وجوهـهم، فقالوا : يا رسول الله وكيف يمشون على وجوهـهم ؟ قال : إنَّ الذى أمشاهم على أرجلهـم قـادر على أنْ يُمشيهم علـى وجوهـهم ، أما إنهم يتقـون بوجوهـهم كل حدب وشوك »[٣].

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٤١٤٢ ، ١٥٢٧٧) عن ابن مسعود وعن جابر بن عبد الله وأخرجه ابن ماجه فى سننه من حديث جابر (١١) قال : كنا عند النبى ﷺ فخط خطاً وخط خطين عن يمينه وخط خطين عن يساره ثم وضع يده فى الخط الأوسط فقال : « هذا سبيل الله » ثم تلا الآية .

أما قوله « ما أنا عليه وأصحابى » . فقد أخرج الترمذى فى سننه (٢٦٤١) عن عبد الله بن عمرو قال رسول الله : « ليأتين على أمتى ما أتى على بنى إسرائيل حذو النعل بالنعل ، وإن بنى إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة ، وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين ملة كلهم فى النار إلا ملة واحدة ، هى ما أنا عليه وأصحابى » .

(٢) كلما خبت : أى كلما أطفئت . قاله مجاهد فى تفسيره (٤٤٢/١) وقال مقاتل بن سليمان : ذلك إذا أكلتهم النار فلم يبق منهم غير العظام وصاروا فحماً سكنت النار وهو الخبت . [تفسير مقاتل ٥٥٢/٢] .

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (٨٦٤٧) عن أبى هريرة وكذا (١٢٧٠٨) عن أنس بن مالك مختصراً . وأصله عند مسلم فى صحيحه (٢٨٠٦/٥٤) أن رجلاً قال : يا رسول الله كيف يُحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال : أليس الذى أمشاه على رجليه فى الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة ؟ .

ومـا العجب فى ذلك ؟ ونحن نرى مخلوقات الله ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُم مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥) ﴾ [النور]

ألم تَـرَ الثعبان كيـف هو سريعٌ فى مشيته خفيف فـى حركته ، فالذى خلق قـادرٌ أنْ يُمشِى مَـنْ ضلَّ فى القيامة على بطنه ، لأن المسألة إرادةُ مريد ليُوقع بهم غاية الذلة والهوان .

وياليتهـم تنتهـى بهم المهانة والمذلَّة عنـد هذا الحد ، بـل ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا (٩٧) ﴾ [الإسراء]

وهـذا استطراق لوسائل الإهـانـة ، ففضلاً عن مشيهم على الوجوه فهم عُمى لا يروْن شيئاً ولا يهتدون ، وهم صُم لا يسمعون نداءً ، وهم بُكْم لا يقدرون على الكلام .

وهـذه صفاتُ الكافر فـى الدنيا أيضاً ، وهو المكبّ علـى وجهه فى الضلال يسير علـى غير هدى ، يقول تعالى : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) ﴾ [البقرة]

والعمـه عمى البصيرة ، ويعمهون أى يتخبَّطـون ، فالعمه ينشأ عنه التخبُّط سـواء التخبُّـط الحسى من عمى البصر ، أو التخبُّـط فى القيم ومنهج الحياة من عمى البصيرة .

والعمـه أيضاً هو التردد والحيرة ، فهم فـى طغيانهم يترددون ، وهم فاقدو القلب والبصيرة ، فهم مضطربون فى اختياراتهم ، فهم يتحيَّرون ويعمون عن الرشْد والصواب ، فلا يميزون بين خير وشر ، ولا يعرفون أين يذهبون ؟

وهـم ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨) ﴾ [البقرة] فمنافذ الإدراك عندهم لا تعمـل ، فهـم لا يـروْن آيـات الله ويقين الإيمـان ، ولا يسمعون آيـات القرآن

ويعقلونها ، فقد سُدَّتْ عليهم جميع منافذ الإدراك .

ومع صممهم وبكمهم تجدهم يُولُّون مدبرين ، يقول تعالى : ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) ﴾ [الروم] يعنى : أعطوك ظهورهم . إذن : لم يعُدْ لهم منفذ للتلقى ولا للإدراك فهم صُم بُكم .

وبالإدبار تعطلت أيضاً حاسة الصبر ، فلا أملَ فى مثل هؤلاء ، ولا سبيلَ إلي هدايتهم ، والدلالة على الطريق والهداية إليه لا تتأتَّى مع العمى خصوصاً إذا أصرَّ الأعمى على عماه .

فهو ﴿ يَمْشِي مُكِبًّا (٢٢) ﴾ [الملك] فى الضلالة والكفر أعمى القلب ، فهو مُطرق إلى هوى نفسه بغير هدى من ربه ، لا يبصر ما بين يديه وما عن يمينه وشماله . فـ (مُكباً) أى مُطرقاً إلى الأرض .

والمقصود هنا أنه الكافر قد أكبَّ على معاصى الله فى الدنيا ، فهذا يحشره الله على وجهه . فقيل : يا نبى الله كيف يُحشر الكافر على وجهه ؟ قال : إنَّ الذى أمشاه على رجليه قادر أنْ يحشره يوم القيامة على وجهه[1].

فالكافر يمشى ضالاً فى الظلمة أعمى القلب لا يبصر موضع قدميه ، راكباً رأسه فى الضلالة والجهالة ، أعمى القلب والعين ، لا يبصر يميناً ولا شمالاً .

و ﴿ مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ (٢٢) ﴾ [الملك] هو انتكاسٌ وارتكاسٌ لخِلْقة البشر ، لأن الله عز وجل إنما خلق الإنسان ﴿ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ﴾ [التين] والله خلق كلَّ ذى روح مُكباً على وجهه إلا الإنسان ، خلقه الله مديد القامة يمشى على قدميه منتصبَ القامة ، يتناول مأكوله بيده .

وقد بيَّن الحقُّ سبحانه أنَّ الكافرين هم كالأنعام التى تأكل وتشرب ، بل إن

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١٣٣٩٢) وعبد بن حميد فى مسنده (١١٨١) وابن حبان فى صحيحه (٧٣٢٣) ومسلم فى صحيحه (٢٨٠٦/٥٤) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

الأنعامَ أفضلُ منهم ، فالأنعام تقوم بمهمتها فى الحياة ، بينما هم لا يقومون بمهمة العبادة .

ويقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) ﴾ [الأعراف]

والأنعـام ليست ضالة لأنهـا محكومةٌ بالغريـزة لا اختيارَ لهـا فى شيء ، لكـن الكفار الذين ذرأهـم ربُّنا لجهنم من الجن والإنس ، لا يعرفون ربهم بينما الأنعام والجمادات والنباتات تعرف ربها ، لأن الحق سبحانه يقول : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ (٤٤) ﴾ [الإسراء]

وقد سأل أهلُ قريش الكافرون بعضَ أحبار اليهود أيهم أهدى هم أم محمد ، يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ[1] وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَـؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً (٥١) ﴾ [النساء]

فقال بعض سادة قريش : أنتم أهل الكتاب وأهل العلم القديم فأخبرونا عنا وعن محمد ، فقال الأحبار : ما أنتم وما محمد ؟ فقال سادة قريش : نحن ننحر الكوماء[2] ونسقى اللبن على الماء ونفكّ العانى ونصل الأرحام ونسقى الحجيج ودين محمد الحديث . فقال الأحبار : أنتم خيرٌ منه وأهدى سبيلاً [3].

فاليهود قالوا : إن عبدة الأصنام أهدى من رسول الله ﷺ وأتباعه : قالوا

(١) الجبت بكسر الجيم : كل ما عُبد من دون الله كالصنم والكاهن ونحو ذلك . [القاموس القويم ١/ ١١٥] قال الجوهرى : وهذا ليس من محض العربية لاجتماع الجيم والتاء فى كلمة من غير حرف ذولقى . [اللسان - مادة : جبت] .

(٢) الكوماء : الناقة العظيمة السنام . وهى المرتفعة السنام . [غريب الحديث للقاسم بن سلام ٣/ ٨٤] والزمخشرى فى كتاب [الفائق فى غريب الحديث والأثر ١/ ٣٨٨] .

(٣) أخرجه ابن جرير الطبرى فى تفسيره (٩٧٨٩) وعزاه السيوطى فى الدر المنثور (٢/ ٥٦٢) للطبرانى والبيهقى فى دلائل النبوة من طريق عكرمة عن ابن عباس . والعانى : الأسير .

ذلك رغم أن كتبهم قد ذكرتْ لهم أنَّ رسول الله سيأتي بالدين الخاتم ، حتى إنهم كانوا يقولون لأهل المدينة من المشركين : لقد أطلَّ زمانُ نبيٍّ سنتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم[1].

وهنا السؤال مستمر إلى يوم القيامة : ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٢)﴾ [الملك]

فأيُّهما أهدى ؟ الكافر الذى تمرَّد على خالقه وعصى ويسير وجهُهُ إلى الأرض ، كمَنْ أخلد إلى الأرض ، هل هذا يستوى مع مَنْ يمشى سوياً على صراط مستقيم ؟

و ﴿سَوِيًّا (٢٢)﴾[الملك] أى مُسْتوياً غير ذى عوَج ، والحق سبحانه يصف هنا الإنسان المتبع للإيمان بأنه يمشى سوياً ، وأحياناً يصف الحق سبحانه الطريق نفسه والصراط أنه سوىّ ، يقول تعالى : ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣)﴾ [مريم]

والصراط السوى هو الطريق المستقيم الذى يُوصِّلك للغاية بأيسر مشقة وفى أقصر وقت ، وهو الطريق الذى لا التواءَ فيه بحيث يكون أقربَ المسافات إلى الهدف ، فالطريق إذا التوى انحرف عن الهدف .

وما هو الصراط ؟ إنه الطريق الموصِّلة إلى الغاية ، والصراط المستقيم هو أقصر الطرق إلى تحقيق الغاية ، فأقصر طريق بين نقطتين هو الطريق المستقيم ،ولذلك إذا كنتَ تقصد مكاناً فأقصرُ طريق تسلكه هو الطريق الذى لا اعوجاجَ فيه ، ولكنه مستقيم تماماً .

والبُعْد عن الطريق المستقيم لا يبدأ بانحراف كبير ، بل بانحراف صغير جداً، ولكنه ينتهى إلى تباعد كبير .

ويكفى أنْ تراقب قضبان السكة الحديد عندما يبدأ القطار فى اتخاذ طريق

---

(١) أورده الطبرى فى تفسيره (٢/ ٣٣٣) فى قوله تعالى : ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا.. (٨٩)﴾ [البقرة] .

غير الذى كان يسلكه ، فهو لا ينحرف فى أول الأمر إلا بضعةَ ملليمترات ، أى : أن أول التحويلة ضيق جداً ، وكلما مشيتَ اتسع الفارق وازدادَ اتساعاً .

بحيث عند النهاية تجد أن الطريق الذى مشيتَ فيه يبعد عن الطريق الأول عشرات الكيلو مترات وربما مئات (الكيلومترات) . إذن : فأىّ انحراف مهما كان بسيطاً يُبعدك عن الطريق المستقيم بُعداً كبيراً .

والصراط السوى هو الطريق المستقيم الذى يُوصِّلك للغاية بأيسر مشقة ، وفى أقصر وقت .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

أى قُلْ يا محمد أن الله هو الذى أنشأكم ، والحق سبحانه هنا لم يذكر من أى شيء أنشأنا ، ولكنه سبحانه قال فى آيات أخرى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ (٩٨) ﴾ [الأنعام] ، ويقول : ﴿ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا (٦١) ﴾ [هود]

ويقول تعالى : ﴿ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (١٣٣) ﴾ [الأنعام] والإنشاء هو الإيجاد ابتداءً من غير واسطة شيء ، ويُقَال : أنشأ أى أوجد وجوداً ابتداء من غير الاستعانة بشيء آخر ، لذلك لا نقول لمن اخترع : إنه أنشأ . لأنه استعان بأشياء كثيرة ليصل إلى اختراعه .

فقد يكون مستعيناً بمادة أخذها من الجبال ، وبخبرة تجارب صنعها مَنْ سبقوه ، ولكن الحق سبحانه وتعالى هو الذى ينشيء من عدم ، والوجود من العدم قسمان : قسم أوجدته باستعانة موجود ، وقسم أوجدته من عدم محض.

وهذا الأخير هو الإنشاء ولا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى ، والحق سبحانه جلّتْ مشيئته فى الإنشاء ، فهو يُنشيء الإنسان من التقاء الزوج والزوجة .

وإنْ أرجعتَ هذا الإنشاء إلى البداية الأولى فى آدم عليه السلام ، فستجد أن الحق سبحانه وتعالى قد خلقه من نفس مادة الأرض ، والأرض مخلوقٌ من مخلوقات الله .

فمنيُّ الزوج وبويضة الزوجة يتكوّنان من خلاصة الدم الذى هو خلاصة الأغذية وهى تأتى من الأرض ، فسواء رمزت لآدم بإنشائه من الأرض أو أبقيتها فى ذريته ، فكلُّ شيء مردُّه إلى الله .

والإنشاء هو عملية بناء ، والذى خلق قال أنا خلقتك من تراب ، من طين، من حمأ مسنون ، من صلصال كالفخار ، فالماء وُضِع على تراب فأصبح طيناً، والطين تركناه فتغيَّر لونه وأصبح صلصالاً ، الصلصال جفَّ فأصبح حمأً مسنوناً ، ثم نحته فى صورة إنسان ونفخ الحق سبحانه وتعالى فيه الروح فأصبح بشراً ، ثم يأتىَ الموت وهو نقْضٌ للحياة ، ونقضُ كلِّ شيء يأتى على عكس بنائه .

بناء العمارة يبدأ من أسفل إلى أعلى ، وهدمها يبدأ من أعلى إلى أسفل ، ولذلك فإن آخر مرحلة من رحلةٍ ما هى أول خطوة فى طريق العودة ، فإذا كنتَ مسافراً إلى الإسكندرية ، فأول مكان فى طريق العودة هو آخر مكان وصلت إليه.

أول شيء يخرج من الجسد هو الروح وهو آخر ما دخل فيه ، ثم بعد ذلك يتصلَّب الجسم ويصبح كالحمأ المسنون ثم يتعفَّن فيصبح كالصلصال ، ثم يتبخَّر الماء الذى فيه فيعود تراباً ، وهكذا يكون الموت نقض صورة الحيأة متفقاً مع المراحل التى بيَّنها لنا الحق سبحانه .

والحق سبحانه يعطينا وصفاً لإنشاء الإنسان ، فيقول تعالى فى إنشاء

الإنسان في بطن أمه : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون]

فهو أنشأه في بطن أمه خَلْقاً تابعاً لأمه في أطوار ومراحل ، ثم يُنشئه خَلْقاً آخر ونشأة أخرى عند إخراجه كوليد يحيا حياة أخرى لا يعتمد فيها على أحد ؛ كأنه كان تابعاً لأمه فيُخرجه الله خَلْقاً آخر مستقلاً بذاته ، فتكون الرأس إلى أسفل، وهي أول ما ينزل من المولود ، وبمجرد نزوله تبدأ عملية التنفس ، ومن هذه اللحظة ينفصل الجنين عن أمه ، وبالتنفس تكون له ذاتية .

فإذا ما تعسّر خروج باقي جسمه فتكون له فرصة التنفس ، وهذا من لطف الله سبحانه لأن الجنين في هذه الحالة لا يختنق أثناء معالجة باقي جسمه .

وهو في كل هذه الأطوار : النطفة ثم العلقة ثم المضغة ثم العظام واللحم ما يزال تابعاً لأمه متصلاً بها ويتغذى منها ، فلما شاء الله له أنْ يُولد ينفصل عن أمه ليباشر حياته بذاته .

والله أنشأنا من عدم ، وسوَّانا على هيئة مستقيمة وعلى أحسن تقويم ، ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) ﴾ [الأعلى]

وهذه التسوية كانت أولاً للإنسان الأول الذي خلقه الله من الطين ، كما قال سبحانه : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) ﴾ [الحجر]

قال تعالى : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ[1] (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ

---

(١) مهين : حقير الشأن لا قيمة له . [القاموس القويم ٢ / ٢٤٣] والمهين : الضعيف ، وماء الرجل ضعيف فأي شيء يؤثر على الحيوانات المنوية فيه ، فتضعف عن تلقيح بويضة المرأة . وتذكير الإنسان بأنه من هذا الماء لئلا يتكبر على من خلقه .

السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (٩) ﴾ [السجدة]

وقد مرَّ آدم عليه السلام فى هذه التسوية بالمراحل التى ذكرتْها الآيات الطين ثم التشكيل والتصوير ثم النفخ فى الروح ، كذلك الأمر فى سلالته يُسوِّيها الخالق عز وجل وتمر بمثل هذه المراحل : من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة ثم تُنفخ فيه الروح .

والله بعد أنْ ينشيء الإنسان ويخلقه من ماء أبيه وبويضة أمه ، فإنه سبحانه يجعل له ﴿ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ (٢٣)﴾ [الملك] فقوله ﴿ وَجَعَلَ (٢٣)﴾ [الملك] فالجعْل غير الخَلْق وغير الإنشاء ، فالخَلْق شيء والجعْل شيء آخر ، فالخَلْق هو إيجادٌ من عدم ، والجَعْل هو توجيه مخلوق لله إلى مهمته فى الحياة .

فالله خلق الإنسان وأنشأه إنشاءً ، ولكن ليمارس مهمته فى الحياة جعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً ، وكذلك خلق اللهُ الشمس والقمر ، ثم جعل أحدهما للضياء ، وجعل الآخر نوراً .

وفى المستوى البشرى أنت تجعل الطين إبريقاً ، وقد تجعله جرَّة أو أى شيء آخر من الفخاريات وأنت لم تخلق القطن الذى صُنع منه القماش .

أما الحق سبحانه فقد خلق الإنسان من العدم بل خلق المادة التى خلق منها الإنسان الماء والتراب الذى أصبح طيناً ، ثم جعل له سمعاً وبصراً ليمارس مهمته ، فالجَعْل هو توجيه ما خلق إلى مهمته .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) ﴾ [النحل]

وهذه الثلاثة هى آلاتٌ للإدراك ، ومنافذ للعلم ، فوسيلة العلم تأتى من الحواس ، وسيدة الحواس هى العين ، لأنه من الممكن أنْ تسمع شيئاً من واحد بتجربته هو ، لكن عندما ترى أنت بنفسك فتكون التجربة خاصة بك ، ولذلك

يقال : ليس مَنْ رأى كمن سمع .

وقد أورد سبحانه السمع والأبصار أولاً لأنهما الوسيلتان الأساسيتان ، وأورد من بعد ذلك (الأفئدة) وهى المختصة بالمعانى والقلبيات وغيرها ، فحواسّ الإنسان من سمع وبصر تعطيه القدرة على تكوين الخبرة ، وهى منافذ الإدراك .

فوسائل الإدراك من سمع وبصر وفؤاد ، وما تراه العين هو تجربة الإنسان بنفسه ، أما ما يسمعه الإنسان فهو تجربة كل غَيْرٍ له ، وبذلك يكون السمع أكثر اتساعاً من العين .

والسمع هو وسيلة الإدراك التى تُوجد أولاً فى الإنسان حين يُولد ، ونجد المولود لا يهتز عندما يقترب شيءٌ من عينيه لأنه لا يرى بدقة ، وقد يستمر ذلك لمدة عشرة أيام ، ومن بعد ذلك يبدأ فى الرؤية .

لكن الطفل إذا سمع صوتاً بجانب أذنيه ينفعل ، فحاسَّة السمع هى التى توجد أولاً ، ولذلك يأتى لنا الحق بذلك السمع أولاً ، ومن بعد ذلك الأبصار ثم الأفئدة .

فـ (الجَعْل) هنا هو أنه سبحانه خصَّص جزءاً من خلايا الإنسان ليكون عيناً ، وجزءاً آخر ليكون أذناً ، وجزءاً ثالثاً ليكون لساناً ، وقد رتَّب الحق سبحانه ممارسة هذه الحواس لمهامها . فالأذن تؤدى مهمتها من فور ولادته ، بينما عينه لا تؤدى مهمة الرؤية إلا بعد مدة ، فأولاً يأتى السمع ثم يأتى البصر ، ومن السمع والبصر تتكوَّن المعلومات ، فتنشأ عند الإنسان معلومات عقلية .

فيقولون للطفل مثلاً : إياك أنْ تُقبل على هذه النار حتى لا تحرقك فلا يصدق ، ومنظر النار يجذبه فيلمسها فتلسعه مرة واحدة ، وبعد أنْ لسعته مرة واحدة لم يعُدْ فى حاجة إلى أنْ يتكرر له القول بأنَّ النارَ مُحرقة .

فقد تكوَّنتْ عنده معلومة عقلية ، فأولاً يأتىْ السمع ثم الأبصار ثم تأتى الأفئدة ، فوسائلُ الإدراك العلمى فى الإنسان هى السمع والبصر والذوق واللمس والشَّم ، هذه هى الحواس التى تعطى العلم للإنسان الذى لم يكُنْ يعلم شيئاً .

ولكن لماذا أفرد الحق سبحانه السمع ، وأورد البصر والفؤاد هنا مجموعاً، فقال تعالى : ﴿ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ (٢٣)﴾ [الملك] ؟ فالأذن تستقبل بها أصواتاً متعددة فى وقت واحد ، أما مجال الرؤية فمحدودة ، وأنت حين لا تريد أن ترى شيئاً تُبعد عينيك عنه ، والأصوات تصل إلى أذنك من كل مكان دون أنْ تستطيع منعها .

لذلك يأتى السمعُ مفرداً والأبصارُ متعددة ، لأن هذا يرى شيئاً وهذا يرى شيئاً ، لكنك بالأذن تسمع نائماً أو متيقظاً وتأتيك الأصوات ويتوحَّد المدرَك من السمع ، فهى آلة الاستدعاء والإيقاظ .

والسمع والبصر سيِّدا الحواس ، فآياتُ الكون تحتاج إلى الرؤية ، وإبلاغ الرسل يحتاج للسماع ، وقد لفتنا الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه إلى العجائب فقال : « اعجبوا لهذا الإنسان ، ينظر بشحم ، ويتكلم بلحم ، ويسمع بعظم ، ويتنفس من خرم » وأضاف البعض : « ونشم بغضروف ، ونلمس بجلد، ونفكر بعجين » .

فالإنسان يُولد وكأن مخَّه قطعة من العجين التى تعمل فى استقبال المعلومات من الكون وتخزينها فيه ، وهى التى ستكون ركيزة لتشكيل الفؤاد من بعد ذلك .

وحين نظر العلماء فى معانى الألفاظ قالوا : « النظائر حين تخالف فلا بدَّ من علَّة للمخالفة » فالسمع آلة إدراك ، والبصر آلة إدراك ، فلماذا قال الحق

سبحانه فى آلة الإدراك (السمع) . وقال فى الآلة الثانية (الأبصار) ؟ ولماذا جاء السمع بالإفراد وجاء الأبصار بالجمع ، ولم يأتِ بالاثنين على وتيرة واحدة؟

والمتكلِّم هو الله تعالى ، وكلٌّ كلمة منه لها حكمةٌ وموضوعة بميزان ، وأنت حين تسمع تسمع أى صوت قادم من أى مكان ، لكنك بالعين ترى من جهة واحدة ، فإنْ أردتَ أنْ ترى ما على يمينك فأنت تتجه بعينيك إلى اليمين ، وإنْ أردت أنْ ترى ما خلفك فأنت تُغيِّر من وقفتك .

فالأذن تسمع بدون عمل منك ، لكن البصر يحتاج إلى عمليات متعددة لترى ما تريد ، وأيضاً فالسمع لا اختيارَ لك فيه ، فأنت لا تستطيع أنْ تحجبَ أذنك عن سماع شيء ، أما الإبصار فأنت تتحكم فيه بالحركة أو بإغلاق العين .

والإنسان مسئول عن كل ما يسمعه بأذنه ويُبصره بعينه ويعتقده بقلبه ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦) ﴾ [الإسراء]

فعليك أنْ تعرف أيها المسلم أنك مسئولٌ عن السمع والبصر والقلب واللسان ، ستُسأل عن ذلك يوم القيامة ، لذلك لا يصح أنْ تتوانى عن إحسان قولك وفعلك ، وبذلك لا يكون هناك خوفٌ عليك فى الدنيا أو الآخرة .

والمسئولية عن سمعك وبصرك ولسانك وحواسّك كلها مسئولية فردية ذاتية ، فكلٌّ واحد مسئولٌ عن سمعه وبصره وفؤاده هو ، وليس مسئولاً عن أسماع وأبصار وأفئدة الناس وألسنتهم .

ولسانك إنْ صُنْته عن قول السوء والفُحْش صان كرامتك واحترمك الناس وقدَّروك لحُسْن منطقك ومقالتك ، ولتعلم أنَّ جوارحك كلها ستصبح ألسنةً تشهد عليك بما فعلتَ وأذنبتَ وجرحْتَ فى الدنيا .

يقـول تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ (٢١) ﴾ [فصلت]

ستشهد الأرجل والجلود وغيرها من الأبعاض ،لأنها في الدنيا كانت مقهورة لإرادتي ، أنا أقول ليدي : افعلي كذا ،ولرِجْلي : اسعي لكذا ، وللساني : سبّ فلاناً.

فالله سخَّر الجوارح وأمرها : يا جوارح أنت خاضعةٌ لإرادة صاحبك في الدنيا ، لكن في يوم القيامة أيكون لي إرادةٌ علي جوارحي ؟ لا . ستتمرد عليّ جوارحي : ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ (٢١) ﴾ [فصلت]

فجوارح الإنسان من يد ورِجْل وجلد ستنطق يوم القيامة ، فهل تعقلْتَ كيف تنطق اليد ؟ وكيف ينطق الجلد ؟ وكيف تنطق الرِّجْل في الآخرة ، فالجوارح تنطق لتقيم الحجة على أولئك المذنبين .

فالجوارح كانت هي أدوات المذنبين في ارتكاب الجرائم ، فاليد هي التي امتدت لتسرق ، واللسان هو الذي نطق قول الزور ، والقلب هو الذي عقد ، والساق هي التي مشتْ إلى المعصية .

والإنسان مُركَّب من جوارح ، وهذه الجوارح لها أجهزة تكوِّن الكُلَّ الإنساني ، ومدير كل الجسم هو العقل ، فهو الذي يأمر اليد لتمتد وتسرق ، وتمتد لتربُت على اليتيم ، والعين تأخذ أوامرها من العقل ، فإما أنْ يأمرها أن تنظر إلى جمال الكون وتعتبر بما تراه من أحداث ، أو يأمرها بأن تنظر إلى الحرام .

فبيدك تستطيع أن تضرب وتعتدي ، وبيدك تنفق وتقيل عثرة المحتاج ، وبرِجْلك تسعى إلى بيت الله ، أو تسعى إلى مجلس الخمر والفساد .

فجـوارح الإنســان وطاقاته مُسخَّرة لإرادته ، فلسانـك تستطيع أنْ تقول : لا إلــه إلا الله ، كمــا تستطيــع أن تقول : لا إله ، أو تقول : الله ثالثُ ثلاثة ، واللسان مِطْـواع لـك لا يعصــاك فى هذه أو تلـك ، وما أعطاك الله هـذه الحرية وكفل لك الاختيار إلا لأنه سيحاسبك عليها يوم القيامة : أردتَ الخير الذى وجَّهك إليه ؟ أم أردتَ الشر الذى نهاك عنه ؟

أما يوم القيامة فتنحلّ هذه الإرادة ويبطل سلطانها على الجوارح فى يوم ينادى فيه الحق تبارك وتعالى : ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر]

يوم ستشهد الجوارحُ على صاحبها وتنطق وتكون كلُّها ألسنة ناطقة ، يقول تعالى : ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤)﴾ [النور]

لقـد تحررت الجـوارح من قيـد الإرادة وجاء الوقت لتشتكـى إلى الله وتنطق بكلمة الحق التى كتمتها تحت وطأة الإرادة وقهرها . ومعنى ﴿الَّذِى أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ (٢١)﴾ [فصلت] أن لكل شيء فى الكون نُطْقاً يناسبه ، كما نطقتْ النملة وقالت : ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ (١٨)﴾ [النمل]

ونطق الهدهد ، فقال : ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢)﴾ [النمل]

وللجـوارح نفسهـا حياةٌ ولها كلامٌ ومنطق لكن لا ندركه نحن ، لأن حياتها ليسـت كحياتنـا ، والله سبحانـه هو الذى جعل لنا هذه الجـوارح سمعاً وبصراً وفؤاداً ولساناً .

قال تعالى : ﴿قُلْ هُوَ الَّذِى أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٢٣)﴾ [الملك] وشُكْرنا لله لهذه الجوارح أنْ نصونها عن أنْ نجعلها تأتـى بمـا هو معصيةٌ لله ، لا فـى سمع ولا فى بصر ولا فى نطـق ، وأنْ نخزن ألسنتنا عن قالة السوء والفُحْش .

فـإذا تحدَّثنا مع الناس فالله سبحانه وتعالى هو الذى أعطى ألسنتنا القدرة

على النطق ، ولو شاء لجعلها خرساء لا تنطق ، وهذا يستوجب منّا الشكر والحمد.

وفى هذه الآية يقطع الحق سبحانه بأننا قليلاً ما نشكر نعم الله علينا ، ولكنه سبحانه يمتنّ علينا فى آية أخرى رجاء أنْ نشكره سبحانه ، يقول تعالى : ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)﴾ [النحل]

وساعة نسمع (لعلك تشكر) فهذا يعنى أنك إنْ فعلتَ ما أمرك به فستجد أمراً عظيماً ، والأمر الطبيعى يقتضى أنْ تشكر عليه كأنَّ ما فعله اللهُ للإنسان يُوجب عند الإنسان نعمة أخرى لا يمكن أنْ يستقبلها إلا بالشكر .

فالسمع والأبصار والأفئدة هى منافذ الإدراك ، والحق سبحانه يوضح : أنا خلقتُ لك هذه الأدوات للإدراك لعلك تشكر ، أى لعلك تلمح آثارها فى نفسك مما يُربِّى عندك ملكةَ الإدراك للمدركات .

والشكر هو الثناء من المنعَم عليه على المنعِم بالنعمة ، وقول الحق سبحانه ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٢٣)﴾ [الملك] يدلّ على أن هناك مَنْ يشكر من الناس نِعمَ الله شُكراً عاماً على مجموع النعم ، أو يشكره شكراً خاصاً عند كل نعمة ، ومنهم مَنْ يشكر شُكْراً خاصاً لا عند كل نعمة ، ولكن عند جزئيات النعمة الواحدة .

فعندما يبدأ فى الأكل يقول : بسم الله الرحمن الرحيم ، ويقول بعد الأكل : الحمد لله . وهناك مَنْ يقول عند تناول لقمة واحدة : بسم الله . وعندما يمضغها ويبلعها يقول : الحمد لله لأنها لم تقف فى حَلْقه .

وأيضاً حين نشرب علينا أنْ نشرب على ثلاث دفعات : أول دفعة نقول : بسم الله . وننتهى منها فنقول : الحمد لله . وكذلك فى الدفعة الثانية والدفعة الثالثة.

ومَنْ يفعل ذلك فلا تتأتى منه معصية ، ما دامت آثار شَرْبة الماء هذه فى جسمه لأنها كلها (بسم الله) فتحرسه من الخطيئة ، لأن النعمة الواحدة لو استقصيتها لوجدتَ فيها نعماً كثيرة .

وأنتم حين لا تشكرون إنما تُضيِّقون عليكم أبواب النعم من الله ، لأنكم لو شكرتموه على النعم لزادت النعم عليكم ، يقول تعالى : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ (٧) ﴾ [إبراهيم] ومن الحمق ألاَّ نشكر .

والشكر لا يكون إلا على النعمة ، فكأنَّ وسائل الإدراك هذه مما تسمعه بأذنك وتراه ببصرك أو تُدركه بفؤادك هى من نعم الله التى يجب أنْ نشكره عليها لأنها أعطتْنا العلم الحسى بعد أنْ كنا لا نعلم شيئاً ، فالحق سبحانه يستحق الشكر عليها .

وشاء سبحانه أنْ يترك الشكر للبشر على تلك النعم ولم يُسخِّرهم شاكرين، فكلما سمعتَ صوتاً أو حكمة تحمد الله أنْ جعل لك أذناً تسمع بها ، وكلما أبصرتَ منظراً بديعاً تحمد الله أنْ جعل لك عيناً ترى ، وكلما شممتَ رائحة زكية تحمد الله أنْ جعل لك أنفاً تشم ، وهكذا تستوجب النعم شكر المنعم سبحانه .

ولكى تقف على نِعم الله عليك انظر إلى مَنْ حُرموا منها ، وتأمّل حالك وحالهم، وما أنت فيه من نعم الحياة ولذاتها ، وما هم فيه من حرمان .

والبعض يقول فى معنى ﴿ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (٢٣) ﴾ [الملك] أنه تعالى عبَّر عن عدم الشكر بالقلة ، وهذا الفهم لا يستقيم هنا ، فالله تعالى أثبت لعباده شكراً لكنه قليل ، وربّك عز وجل يريد شكراً دائماً يصاحب كلّ نعمة يُنعم بها عليك .

فساعةَ ترى الأعمى الذى حُرم نعمة البصر يتخبَّط فى الطريق تقول الحمد لله لأنك تعيش وتتقلَّب فى نِعَم الله ، لكن لا تتذكرها إلا حين ترى مَنْ حُرم منها .

فإن أردت أنْ تدوم لك النعمةُ فاعقلها بذكر الله ، فإنْ أردتَ صيانة النعمة فلا تنسَ المنعم لأنه وحده القادر على حفظها وصيانتها ، ولا يُصاب الإنسان

فى النعمة إلا إذا غفل عن المنعم وترك الشكر عليها .

والشكر لله هو أول الحكمة ، لأن مَنْ يشكر تعود إليه ثمرة شكره ، وشكر المؤمن لربه لا ينتهى ، وشُكْرك لنعمة اللسان والنطق بأنْ تصون لسانك وتحفظه عن أنْ ينطلق فى إيذاء الناس والاعتداء عليهم بالقول ، واعلم أن الله قد جعل على لسانك أبواباً ، أسنانك وشفتيْك ، فلماذا تفتح للسانك هذه الأبواب ؟

وعن عمرو بن دينار قال : تكلم رجل عند النبى ﷺ فأكثر فقال رسول الله: «كم دون لسانك من باب ؟ قال : أسنانى وشفتاى . قال : أما كان فى ذلك ما يرد كلامك»[1] .

فإنْ لم تجد خيراً تقوله فاصمت ، وكما يقول لقمان عليه السلام : الصمت حُكْم وقليل فاعله[2] . ورسولنا الكريم ﷺ : « مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقُلْ خيراً أو ليصمت »[3].

ومن حُسْن الصمت أن تكون من عباد الرحمن الذين قال الله فيهم : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) ﴾ [الفرقان] والجاهل هو السفيه الذى لا يزن الكلام ولا يضع الكلمة فى موضعها ، ولا يدرك مقاييس الأمور لا فى الخَلْق ولا فى الأدب .

---

(١) ذكره أبو حامد الغزالى فى إحياء علوم الدين ، حديث عمرو بن دينار : تكلم رجل عند النبى ﷺ فأكثر فقال : كم دون لسانك من حجاب ؟ فقال : شفتاى وأسنانى . قال : أفما كان لك ما يرد كلامك . قال الحافظ العراقى : أخرجه ابن أبى الدنيا هكذا مرسلاً ورجاله ثقات .

(٢) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥١٩/٦) وعزاه للإمام أحمد بن حنبل عن ابن أبى نجيح قال قال لقمان عليه السلام : الصمت حكم وقليل فاعله . قال الميدانى فى الأمثال : الحكم بضم الحاء الحكمة ومنه ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) ﴾ [مريم] يعنى أن استعمال الصمت حكمة ولكن قلّ من يستعملها.

(٣) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠١٨ ، ٦١٣٦ ، ٦١٣٨ ، ٦٤٧٥) وكذا مسلم فى صحيحه (٧٤ / ٤٧) الحث على إكرام الجار وكذلك (٧٥ / ٤٧) . وتمامه : « ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » .

فإذا خاطبك الجاهل فحذار أنْ تكون مثله فى الردّ عليه كما سفه عليك ، بل قرِّعه بأدب وقلْ ﴿ سَلَامًا (٦٣) ﴾ [الفرقان] لتُشعره بالفرق بينكما .

وما أجملَ ما قاله الإمام الشافعي[1] في هذا المعنى :

إِذَا نَطَقَ السَّفِيهُ فَلاَ تُجِبْهُ ... فَخَيْرٌ مِنْ إجَابتِهِ السُّكُوتُ

فَإنْ كلَّمتَهُ فَرَّجْــتَ عَنْهُ ... وَإنْ خَلَّيْتَــهُ كَمَــداً يَمُوتُ

فإذا اشتدَّ السفيه سفاهةً وطغى عليك وتجبَّر فلا بدّ لك من ردِّ العدوان بمثله لأنك حلمتَ عليه فلم يتواضع لك وظنَّ حلمك ضعفاً ، وهنا عليك أنْ تُريه الفرق بين الضعف وكرم الخلق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) ﴾

فهو الذى بثَّكم ونشركم فى أنحاء الأرض لتعمر كلها ، وتعجب حين ترى أناساً متشبثين بالجبال والصحراء القفر الجرداء ، ولا يرضون بها بديلاً ، ويتحملون فى سبيل البقاء بها العنت والمشقة ، حتى إنك لتقول : لماذا لا يتركون هذا المكان إلى مكان خصب ؟

فالخالق عزَّ وجل نثر خيراته فى أنحاء الأرض بالتساوى ، فكل قطعة طولية من الأرض فيها من الخيرات مثل ما فى القطعة الأخرى .

وقد رأينا فى اليمن والسعودية والكويت مَنْ صبروا على أقدار الله فى هذه البلاد الصحراوية التى كانت جدباء ، رأيناهم فى اليمن بعد أنْ أغرقها سيل العرم .

---

(١) هو محمد بن إدريس الهاشمى القرشى أبو عبد الله ، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة ، ولد فى غزة عام ١٥٠ هجرية ، زار بغداد مرتين ، وقصد مصر سنة ١٩٩ هجرية وكان عمره ٤٩ عاماً فتوفى بها عام ٢٠٤ هـ عن ٥٤ سنة ، كان بارعاً فى الشعر واللغة وأيام العرب والفقه والحديث له كتاب الأم والرسالة والمسند وغيرها .

وقـد حكـى لنا أهلُ هذه البـلاد ما كانوا فيه من الضيـق وقسوة الحياة ، ثم جاءتهم عاقبةُ صبرهم وجعل الله سبحانه هذه الجبال وهذه الصحراوات أغنى بـلاد الدنيا ، لأنهم رَضُوا فى الأولى بقضـاء الله ، فأبدلهم بصبرهم على لأواء الصحراء نعيماً ، لو حُرم منه المنعّمون فى الدنيا لماتوا من البرد .

فبثُّ الخليقة ونَشْرها فى أنحاء الأرض له حكمة أرادها الخالق عزَّ وجل، فـ (ذَرأ) أى خلـق وبـثّ ونشر ، بأنْ جعله خَلْقاً يتكاثر بذاته ، إما بالحمل للأنثى من الذكر فى الإنسان أو الحيوان والنبات ، وإما بواسطة تفريخ البيض كما فى الطيور .

فالـذَّرْء ليس هو مطلق الخَلْق ، بل هو خَلْق بذاته فـى التكاثر بذاته ، والحق سبحانه قد خلق آدم أولاً ، ثم أخرج منه النسل ليتكاثر النسل بذاته حين يجتمع زوجان فينتجان مثيلاً لهما .

والحـق سبحانه يقول ﴿يَـأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً (١)﴾ [النساء]

فـ (بـث منهما) أى بث من آدم وحواء وهمـا اثنان ، والجمع البشرى الذى ظهـر مـن الاثنين سيبث منه أكـثر ، وبعد ذلك يبث من المبثـوث الثانى مبثوثاً ثالثاً .

وكلمـا امتددنـا فى البث تنشـأ كثرة ، وعندما تنظـر لأى بلد من البلاد تجد تعداده منذ قرن مضـى أقلّ بكثير جداً من تعـداده الآن ، مثال ذلك كان تعداد مصـر منذ قـرن لا يتعدى خمسـة ملايين ، ومنـذ قرنين كان أقلَّ عـدداً ، ومن عشرة قرون كان أقلّ ، ومن عشرين قرناً كان أقلّ .

إذن فكلمـا امتـدَّ بك المستقبل بالتعداد يزيد لأنـه سبحانه يبث من الذكورة والأنوثة رجالاً كثيراً ونساء ، وسيبث منهم أيضاً عدداً أكبر .

والبَثُّ والذَّرْء هو الانتشار ، ونلحظ أن الحق سبحانه قال هنا ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا (١) ﴾ [النساء] فالنشر فى الأرض خاصّ بالرجل ، فالحق سبحانه يقول : ﴿ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ (١٠) ﴾ [الجمعة]

ويقول سبحانه : ﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ (١٥) ﴾ [الملك] والأنثى تجلس فى بيتها تديره لتكون سكناً يسكن إليها ، والرجل هو المتحرك فى هذا الكون ، وهى بذلك تؤدى مهمتها .

ولكن الحق سبحانه لم يقُلْ (رجالاً كثيراً) وسكت ، بل أضاف (ونساء) فالنساء مُتضمّنات فى داخل الرجل فهُنَّ شقائق الرجال[1] ، ولكن لسْنَ هُنَّ المطالَبات بالانتشار فى الأرض .

والمبثوث فى الأرض قسمان : قسم اكتملتْ له القوة وأصبحت له صلاحية فى أنْ يحقق أموره النفعية بذاته ، وقسم ضعيف ليست له صلاحية فى أنْ يقوم بأمر ذاته ، وهُنَّ النساء واليتامى .

والحق سبحانه يعطينا صورةً لانتشار الإنسان فى الأرض ، فيقول تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠) ﴾ [الروم]

فالأصل الذى خُلق منه آدم هو التراب ، والتراب مع الماء يصير طيناً ، والإنسان خُلق من هذا الطين ، فكيف أصبح من لحم ودم وأصبح نسلاً يتناسل ويتكاثر بذاته ؟ هنا تكون الآية : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠) ﴾ [الروم]

فبعد أنْ خلقنا اللهُ من تراب تكاثر الخَلْق وتزايدوا بسرعة فى الأرض ، لذلك قال تعالى : ﴿ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠) ﴾ [الروم] فاستخدم الحق سبحانه (إذا) الفجائية .

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يجد البلل ولا يذكر احتلاماً قال يغتسل . وعن الرجل يرى أنه قد احتلم ولا يرى بللاً . قال : لا غسل عليه . فقالت أم سليم : هل على المرأة ترى ذلك شىء ؟ قال : نعم إنما النساء شقائق الرجال » . أخرجه أحمد فى مسنده (٢٦١٩٥) .

والخَلْق يجب أنْ ينتشروا فى الأرض أى يأخذوا جميعاً من خيرات الله فى الأرض جميعاً ، والنشر معناه تفريق المنشور فى الحيز ، فهناك شيء مطوىّ وشيء آخر منشور ، والشيء المطوى فيه تجمع ، والشيء المنشور فيه تفريق وتوزيع . إذن فحيز الشيء المتجمع ضيق ، وحيّز الشيء المبثوث واسع .

والانتشار يعنى أنْ ينساح البشر فى الأرض لينتظموا فى كل حركات الحياة، وبذلك تعمر كلّ حركة فيها ، والحق سبحانه أمر عباده المؤمنين بالانتشار لأن له هدفاً وغاية ، والهدف والغاية هو السعى وطلب الرزق .

﴿ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ (١٠) ﴾ [الجمعة] والانتشار فى الأرض للسعى فى طلب الرزق يجب أنْ يكون بنظام معين ، بحيث لا يحدث تكدس فى مكان أو زحام ، فى حين يخلو مكان آخر لا يجد مَنْ يعمره ويستنبط خيراته .

والانتشار هو الضرب فى الأرض ، ولكنه ليس مجرد الانتشار فيها ، إنما المراد العمل والكفاح واستخراج خيراتها ، فالخالق سبحانه نثر القُوت فى أنحاء الأرض بالتساوى ونثر فيها الخيرات .

لذلك كل يوم تعطينا الأرضُ جديداً من نعم الله ، كنا لا نعرف من خيرات الأرض إلا الزراعة ، فلما تقدَّمت العلوم والاكتشافات وتطورت أدواته عرفنا المعادن والبترول والكنوز المطمورة فى الأرض .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) ﴾ [الملك] فلا تفهموا أنكم بنشركم فى الأرض وتفريقكم فيها أنكم تَفلتون منا ، أو أننا لا نقدر على جمعكم مرة أخرى ، فكما نشرناكم لحكمة نجمعكم لحكمة لا يخرج من أيدينا أحد .

وهو سبحانه القادر أن يحشركم وليس لكم اختيار ، والحق سبحانه هو القادر على أنْ يأتى بك وقد سلب منك الاختيار .

والحق سبحانه هو القائل : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (٢٩) ﴾ [الشورى]

والحشر هو الجمع والحشد ، ويوم الحشر هو يوم الجمع أى جمع الناس أجمعين من لدُنْ آدم عليه السلام وإلى أنْ تقوم الساعة فى مكان واحد ، ولغاية واحدة ، وإذا كنا الآن نضجّ من الزحام ونشكو من ضيق الأرض بأهلها ونحن فى جيل واحد ، فما بالك بموقف يُجمع فيه كل الخلائق من آدم إلى قيام الساعة ؟

ورسول الله ﷺ يقول : « يحشر الله الخَلْق ثم ينادى : يا عبادى أحضروا حجتكم ويسِّروا جوابكم ، فإنكم مجموعون مُحاسبون مسئولون ، يا ملائكتى أقيموا عبادى صفوفاً على أطراف أنامل أقدامهم للحساب »[1].

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٢٥) ﴾

وهم يكذِّبون أن الله سيحشرهم وسيجمعهم يوم القيامة للحساب بعد أنْ يكونوا تراباً ، وهذا الإنكار والتكذيب والاستهزاء هو منطق المشركين والملحدين فى كل زمان ومكان ، ولكن وعد الله حَقّ ووعد الله قادم ، وهم يتساءلون بسخرية عن هذا الوعد بالعذاب .

فقولهم عن وقت تحقق هذا الوعد بـ (متى) هو استبطاءٌ منهم لوعد الله بالآخرة والعَرْض عليه سبحانه ، وأنه سيعذبهم بالنار التى تُنضج جلودهم ويبدلهم الله جُلوداً غيرها ، وذلك لأنهم لا يُصدِّقون هذا ولا يؤمنون به .

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/ ٤٠٠) وعزاه لابن منده فى التوحيد عن معاذ بن جبل أن النبى ﷺ قال : « إن الله ينادى يوم القيامة يا عبادى أنا الله لا إله إلا أنا أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين وأسرع الحاسبين » الحديث .

فيقـول المكذِّبـون بـالبعث والحشـر ﴿مَتَى هَـٰذَا الْوَعْـدُ (٢٥)﴾ [الملك] أى البعث ﴿إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٥)﴾ [الملك] فى أن هنـاك بعثاً ، وسمَّوا إخبار الله لهم بالبعث وعداً مع أنه فى حقهم وعيد .

وفرْق بين وعد وأوعد : وعد للخير وأوعد للشر ، لكن الله يطمس على ألسنتهم وهم أهل الفصاحة فيقولون : ﴿ مَتَى هَـٰذَا الْوَعْدُ (٧١)﴾ [النمل] ، وهو بـالنسبة إليهم وعيد ، لأن إيعاد المخالف لك بشرّ وعدٌ لك بخير .

ووَعْـد الله آتٍ ، يقـول تعـالى : ﴿ إِنَّ مَا تُوعَـدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُـمْ بِمُعْجِزِينَ (١٣٤) ﴾ [الأنعـام] ، فـالله إذا وعـد فلا بد أنْ يتحقق وعـده وإذا أوعد فلا بـد أنْ يـأتى وعيده ، والوعد إذا أُطلق فهو فى الخير ، والوعيد يكون فى الشر .

والغريـب أنهم يقولون ﴿إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٥)﴾ [الملك] ويغفلون عن أن الذى يُخلِـف الوعد أو الوعيد من الخَلْـق فهذا أمر متوقَّع لأنه من الأغيار ويتغير رأيه فلم يعُدْ أهلاً لهذا الوعد ، لأنه ربما يكون قد وعد بشيء كان يظن أنه فى مُكْنته وبعد ذلك خرج عن مُكْنته ، فليس له سيطرة على الأشياء .

لكـن إذا كان مَنْ وعد قـادراً ولا يوجد إله آخر يناقضه فيما وعد أو أوعد به فلا بدّ أنْ يتحقق الوعد أو يأتى الوعيد ، ولذلك حينما يحكم الله حكماً فـالمؤمن يأخذ هذا الحكم قضية مُسلَّمة لأنه لا إله مع الله سيغير الحكم ، وسبحـانه ليس من الأغيار .

ومثـال هـذا قوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَـدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَـى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَـبَ (٢) سَيَصْلَى نَـارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا[1] حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (٥) ﴾ [المسد]

وهـذا وعيـد فى أمـر لهم فيه اختيار ومـع ذلك لم يُسلموا ، وجـاء بعدهـا ما

(١) الجيد : بكسر الجيم : العنق . وقيل موضع القلادة من العنق ، وقد غلب على عنق المرأة . [لسان العرب – مادة : جيد] .

يؤكـد لـكل مسلم : إياك أنْ تـأخذ هذه القضية مـأخذ الشك ، وتقول : قد يتوب أبو لـهب هذا وزوجه ويُسلمان ، ألم تتُبْ هند ؟ ألم يُسلم أبو سفيان ؟

لكنــه سبحـانه عـالم بمـا يصير إليه اختيـار أبى لهب واختيـار زوجه وإنْ كـان كل منهمــا مختــاراً ، ولا يوجد إله سواه ليغير الأمر عمـا قـال ، فلا يوجد إلهٌ آخر ليُعدّل هذا الأمر .

وقـد يظـن بعض النـاس أن الله قـد يـأتى بمـا وعد به لكنهم قـد يـهربون منه ولكـن ليس الأمر كما يظنون ، فـالوعـد آتٍ وأنتم لا تستطيعون الـهرب منه ، ولا أحدَ بقادر على أنْ يمنع الله عن تحقيق مـا وعد أو أوعد ، ولن تفرُّوا من وعده أو وعيده ، ولن تغلبوا الله أو تفوتوه وتُعجزوه ، فـالله غـالبٌ على أمره .

والله حـين يوعـد فـهو سبحـانه قــادر على إنفـاذ مـا أوعد بــه ، ولن يفلت أحدٌ منــه أبـداً ، فوعد الله وعْد مطلق لا إخلالَ بـه ، لأن الذى يُخل بـالوعد هـو الإنسان الذى تعتريه الأغيـار ، فقد يـأتى ميعـاد الوفـاء بـالوعد ، ويجد الإنسـان نفسه فى موقف العـاجز أو المتغير قلبيـاً .

لكن سـاعة يكون الله هـو الذى وعد فسبحـانه الذى لا تُداخلـه الأغيـار ، بل هـو الـذى يُجـرى الأغيار ، لذلك يكـون وعده هـو الوعد الخـالـص الذى لا تـوجد قوة أخرى تحول دون أنْ ينفذ اللهُ وعده .

والحـق سبحـانه يقول : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَــهَ إِلَّا هُـوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (٨٧) ﴾ [النســاء]

وكلمـة (يجمع) تعنـى أنه يُخرجنا مع بعضنـا من قبورنـا جميعاً ويحشرنـا جميعــاً أمامــه ، وقد تعنى (ليجمعنكم) أى ليحشرنكم من قبوركم لتلقّى جزاء يوم القيـامة .

ثم يقول الحق سبحـانه لمحمد ﷺ :

﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

هنا قال ﴿ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ (٢٦) ﴾ [الملك] ولكن فى آية أخرى أُمر ﷺ أن يقول ﴿ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لاَ تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلاَ تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠) ﴾ [سبأ]

فالميعاد مُقدَّر قد قدَّره الله لا يعلمه إلا الله، لذلك عندما سُئل رسول الله : متى الساعة ؟ قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل[1] .

وقد قال الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ (٣٤) ﴾ [لقمان] فالسؤال عن الساعة أمر غيبى لا يعلمه إلا الله، فهو سؤال لاجدوى منه، لذلك لما سئل رسول الله من أحد الصحابة : متى الساعة ؟ قال للسائل : وماذا أعددتَ لها ؟[2] فأخذه إلى ما ينبغى له أنْ يسأل عنه ويهتم به .

والكافرون يكذِّبون بالساعة، يقول تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لاَ يَعْزُبُ[3] عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِى الأَرْضِ (٣) ﴾ [سبأ]

وعلم الساعة عند الله تعالى، والساعة لا تعنى القيامة فحسب، إنما لكلٍّ منا ساعته لأنه مَنْ مات فقد قامت قيامته، ونحن لا نملك أمر الساعة، فالساعة تأتى بغتة ومفاجئة، وصاخّة طامّة مُرجفة مُزلزلة، فاحذروا أنْ تصيبكم هذه الرجفة وأنتم فى غفلة عنها .

(١) حديث متفق عليه . وهو حديث جبريل الذى سأل فيه عن الإسلام والإيمان والإحسان ثم سأل عن موعد الساعة . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠، ٤٧٧٧) وكذلك مسلم فى صحيحه (٨، ٩، ١٠) وهو حديث طويل .

(٢) عن أنس بن مالك قال : بينما أنا والنبى ﷺ خارجان من المسجد فلقينا رجل عند سدة المسجد فقال: يا رسول الله متى الساعة ؟ قال ﷺ : ما أعددت لها ؟ فكأن الرجل استكان ثم قال : يا رسول الله ما أعددت لها كبير صيام ولا صلاة ولا صدقة ولكنى أحب الله ورسوله . قال : أنت مع من أحببت . أخرجه البخارى فى صحيحه (٧١٥٣) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٦٣٩) .

(٣) عزب الأمر يعزب : بعد وغاب وصعب مطلبه . قال تعالى : ﴿ لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ.. (٣) ﴾ [سبأ] أى لا يغيب ولا يبعد عنه أى شيء، فهو يعلم الصغير والكبير من الأمور والأشياء . [القاموس القويم ١٨/٢] .

يقـول الحق سبحانـه : ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) ﴾ [الأحزاب]

وقـد سُئل رسـول الله كثـيراً عـن الساعـة ، والسؤال الـذى سُئلـه رسول الله ﷺ كان مُتوجهـاً إلى أمريـن : الأول إعجـازى لأنهم كانـوا يعلمون من كتبهم وأنبيائهم بعض الأمور فيريدون أنْ يُحرجوا بها رسول الله حين يسألونه عنها فلا يجدون جواباً .

وهـم يعرفـون أن رسول الله أمى لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يجلس إلى معلم أبداً، لكـن الحق سبحانـه كان يسعـف رسوله ويُعلِّمـه الجواب فيجيـب لهم الجواب الصحيـح فيموتون غيظاً ويتمحَّكون فـى أى مسألة ليُثبتوا لأنفسهم أن محمداً لا يعلمها .

ثـم يسأل اليهود رسول الله عن الساعة ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ (٦٣) ﴾ [الأحـزاب]

وهـم يسألـون عـن الساعـة يعنى عن يـوم القيامـة لأنهم ينكرونـه ، ومن مصلحتهـم ألاَّ يكـون هذا اليوم حتـى لا يقفوا موقف المساءلـة والحساب على مـا أجرموه فى الدنيا من ظلم وشرك وعربدة وسفك للدماء وولوغ فى أعراض النـاس .

وقضية القيامة والحساب واضحة بالفطرة ، والمنكرون لها هم الذين أسرفوا علـى أنفسهم ويخافون ما ينتظرهم مـن العقاب فى هذا اليوم ، ولا يملكون إلا إنكاره وعدم الاعتراف به .

والمعنـى ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ (٦٣) ﴾ [الأحـزاب] يعنى : أتوجد أم لا توجـد ؟ وإذا كانـت توجد قـالوا : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) ﴾ [الأعـراف] فـكان ردّ رسـول الله علـى مَـنْ سألـه عـن الساعـة :

﴿ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ (٢٦)﴾ [الملك] ، ثم عقّب هذا بقوله ﴿ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ(٢٦)﴾ [الملك] ، فهذه هى مهمتى أنْ أنذركم ، فأنا نذير واضح لكم ، فمهمتى النذارة والبلاغ .

والنذير هو مَنْ يخبر بشرٍّ لم يأت وقته بَعْد ، وقد خصَّ الإنذار لأنهم أهلُ لجاج وأهل باطل وجحود ، فيناسبهم كلمة الإنذار دون البشارة .

ففى آيات أخرى قال تعالى : ﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) ﴾ [هود] ، والنذير هو مَنْ يخبر بشرٍّ زمنه لم يجئ لتكون هناك فرصةٌ لتلافى العمل الذى يُوقع فى الشر ، والبشير هو مَنْ يبشِّر بخير سيأتى إنْ سلك الإنسانُ الطريقَ إلى ذلك الخير .

فالإنذار والبشارة هى أخبار تتعلق بأمر لم يأت ، وفى الإنذار تخويف ونوع من التعليم ، وهو ﷺ قد نزل عليه القرآن بالنذارة والبشارة .

والإنذار إنما هو بالوحى الذى أوحاه الله إلى نبيه محمد ﷺ : ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١) ﴾ [الأنعام]

فأنذر بالوحى الذى تتبعه هؤلاء الذين يخشون يوم اللقاء مع الله ، والإنذار هو إعلامٌ بشيء مخيف قبل وقوعه لنتفادى أنْ يقع ، فالوحى إنذارٌ لهم ، والرسل إنما أُرسلوا مبشرين ومنذرين ، قال سبحانه : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ (٤٨) ﴾ [الأنعام]

فمهمة الرسل هى البشارة والإنذار فلا تخرجوا بهم أيها الناس إلى مرتبة أخرى أو منزلة ليست لهم فتطلبوا منهم آيات أو أشياء ، فالآيات والأشياء كلها من تصريف الحق تبارك وتعالى .

ومهمة التبشير والإنذار هى أنْ يتذكر الناس أن هناك جنةً وناراً ، ولذلك

يبشر كل رسول مَنْ آمن من قومه بالجنة ، وينذر من كفر من هؤلاء القوم بالنار .

والتبشير والإنذار يقطع حجة الناس على الله ، يقول تعالى : ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ (١٦٥) ﴾ [النساء] ، فليس للناس على الله حجة بعد الرسل ، وليس لأحد عذر بعد البلاغ .

لذلك حينما يدخل أهلُ النار النارَ يخاطبهم ربهم : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ (٧١) ﴾ [الزمر] ، فالله قطع عليهم الحجة حين بعث إليهم رسول الله بمنهج الحق الذى يدلهم على الخير والثواب عليه فى الجنة ، ويحذرهم من الشر والعقاب عليه فى النار .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً(١) سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ (٢٧) ﴾

فلما رأوا يوم الحساب والذى أوعدهم الله به قد اقترب سيئت وجوههم بما رأوه من عذاب الذل والمهانة والإيلام ، وقد خصّ الله الوجوه بالذكر لأن آثار انفعالاتهم لما رأوه إنما تظهر على وجوههم حزناً وقلقاً .

وفى آية أخرى ذكر الحق سبحانه اسوداد الوجه ، قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) ﴾ [آل عمران]

فتسودُّ الوجوه الكافرة ، فما فى داخل النفس إنما ينضح على قالب الإنسان وتظهره ملامحه ، فمَنْ يرى مقعده من النار لا بد أنْ يكون مظلمَ الوجه ، وهؤلاء قد رآهم الناسُ بيضَ الوجوه فى الدنيا ، ولكن يرونهم يوم القيامة

---

(١) زلف إليه زلفة : قرب ودنا ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً .. (٢٧) ﴾ [الملك] أى قريباً وهو وصف بالمصدر بلفظه ويُعرب حالاً أى ذا قرب أى قريباً قرباً شديداً . [القاموس القويم ١/٢٨٨] .

وعلى وجوههم غبرة سوداء وترهقهم قترة .

فوجوههم تسودُّ وتصبح قبيحة المنظر وتضطرب أبصارهم وتتقلّب هنا وهناك ، فهى حين ترى الفزع الذى يخيفها تتقلب ، تنظر هنا وتنظر هنا علَّها ترى ما يُطمئنها أو يُخفِّف عنها ما تجد ، لكن هيهات فلن ترى إلا فزعاً آخر أشدَّ وأنكى .

لذلك تخشع أبصارهم ذُلاً وانكساراً ﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ (٤٣) ﴾ [القلم] ويقول تعالى : ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩) ﴾ [النازعات] يعنى : ذليلة منكسرة حيث لا مفرّ ولا منجى .

ويقول تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٣) تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (٥) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (٦) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (٧) ﴾ [الغاشية]

﴿ وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ (٢٧) ﴾ [الملك] وهو توبيخ لهم لما ادعوه من تكذيب يوم الحساب ، أو هو توبيخ لهم من أنهم طلبوا ما أوعدهم الله به ، فقالوا : ﴿ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ (٢٥) ﴾ [الملك]

فها هو وعدُ الله ، فهذا هو يوم القيامة الذى كنتم أيها المشركون تدعون به أى تدعون بطلانه ، تزعمون أنه لا يأتيكم ، فها أنتم ترونه زلفة أى قريباً منكم .

والحق سبحانه هنا استخدم ثلاثة أفعال ماضية (رأوه) (سيئت) (قيل)، والكلام إنما هو عن مستقبل سيأتى يوم القيامة ، لكنه سبحانه أتى بها وكأنها فى الماضى .

كأن الحق سبحانه يقول : إن هذه الأمور الآتية محققة الوقوع بحيث يصح اعتبارها ماضية ، فالزمن المستقبل بالنسبة للحق سبحانه هو ماض لعلمه سبحانه بما سيحدث فى المستقبل ؛ لأنه سبحانه يعلم الأشياء دفعة واحدة ؛ فلا ترتب لعلمه سبحانه.

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ (٢٨) ﴾ [الملك] استخدمه الحق سبحانه فى آيات كثيرة، منها : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا(١) إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) ﴾ [القصص]

ويقول تعالى فى آية أخرى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (٤٦) ﴾ [الأنعام]

وبعدها يقول تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (٤٧) ﴾ [الأنعام]

فقوله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَكُمْ (٤٧) ﴾ [الأنعام] يشمل ويضم ضمير المخاطب وهو التاء المفتوحة ، ويشمل أيضاً كاف الخطاب والجمع بين علامتى الخطاب (التاء) و (الكاف) يدل على أن ذلك تنبيه على شيء ما عليه من مزيد .

ومرة يقول الحق (أرأيتم) أى أخبرونى أنتم وأعلمونى إعلاماً يؤكد لى صدق القضية ، ويأتى الاستفهام هنا من مادة (أرى) و (رأى) .

فالحق سبحانه فى معرض تعداد نعمه علينا يقول : (أرأيتم) يعنى : أخبرونى ماذا تفعلون . وهو استفهام معناه التقرير يستخبرهم ليقررهم .

---

(١) السرمد : دوام الزمان من ليل أو نهار . وليل سرمد : طويل . والسرمد : الدائم الذى لا ينقطع . [لسان العرب – مادة سرمد] . قال أبو عبيدة فى مجاز القرآن (٢/ ١٠٩) : كل شيء لا ينقطع من عيش أو رخاء أو غم أو بلاء دائم فهو سرمد .

﴿ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللهُ (٢٨)﴾ [الملك] والهلاك ضد الحياة . ومعنى (هالك) أى ليس فيه حياة ، والهلاك : الموت .

فـ ﴿ أَرَأَيْتُمْ (٢٨)﴾ [الملك] إنْ أهلكنى الله فأماتنى ومن معى أو رحمنا فأبقانا وأخَّر فى آجالنا . وقد كان الكفار يتمنون هلاك النبى ﷺ وهلاك المسلمين . فأمره الله أنْ يقول لهم : إنْ أهلكنى الله ، وأهلك مَنْ معى أو رحمنا فإنكم لا تنجون من عذاب الله فى كل الأحوال .

فإذا كنتُ أنا كنبى ورسول من الله قد يرحمنى الله وقد يهلكنى ونحن مؤمنون بالله ، فما بالُ مَنْ كفر به سبحانه ؟ من الذى يجيركم من عذاب الله إذا نزل بكم ؟ أتظنون أن الأصنام تجيركم ؟

فلا أحدَ يجير إلا الله ، والحق سبحانه يقول : ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) ﴾ [المؤمنون]

ومسألة الإجارة لها ثلاثة عناصر : مجير وهو الذى يقبل أنْ يغيثك ويحتضنك ويدافع عنك . ومُجار وهو الضعيف الذى يطلب الحماية . ومُجار عليه وهو القوى الذى يريد أنْ يبطش .

فالحق سبحانه يجير مَن استجار به ، ويغيث مَنْ استغاثه ، والذى يجيرك إنما يجيرك من مُساوٍ له فى القوة فيستطيع أنْ يمنعك منه ، ويحميك من بطشه، فمَنْ ذا الذى يحميك من الله ؟ ومَنْ يجيرك إنْ كان الله هو طالبك ؟

﴿ فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٨)﴾ [الملك] أى عذاب مؤلم . وعندما تسمع صيغة (فعيل) فنحن نأخذها بمعنى فاعل أو مفعول ، لذلك نفهم (أليم) على أنه مؤلم .

ولا بد أنْ نأخذ قوة الحدث بفاعل الحدث ، فالحدث يختلف باختلاف فاعله قوة وضعفاً على المفعول به الذى هو مناط الحدث ، فإذا كان فاعل العذاب هو

الله فلا بدّ أنْ يكون عذاباً أليماً ولا حدود لألمه .

فـإذا كان الحـدث التعذيبى منسوباً إلى الله وله مطلق القـوة والقدرة ، لذلك فالعذاب لن يُطاق ، ولن يجد الظالم مَنْ يدرأ عنه هذا العذاب لأنه لن يجد ناصراً لـه ولـن يجد شفيعاً ، فلن يأتى أحد ويقول : إنّ فلاناً يتعذب فهيا بنا ننصره ، لا يأتى أحد لينصره .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ ﴾

﴿الرَّحْمَـٰنُ (٢٩)﴾ [الملك] من صيغ المبالغة ، والله سبحانه هو رحمن الدنيا ورحيـم الآخـرة ، والله رحمـن بربوبيته لخَلْقـه ، فهو سبحانه يمهـل العاصى ويفتح أبواب التوبة لكلِّ مَنْ يلجأ إليه .

وهـو سبحانه يأتى باسمه (الرحمن) ، والـذى يفيد التطوع بالخير ، وكان مـن الواجـب أنْ يقـدرُوا هذا الخير الذى قدَّمـه لهم سبحانـه دون أنْ يكون لهم حَوْلٌ أو قوة .

و (الرحمن) ينعم بالنعم كلها وهو المتولِّى تربية الخلق ، ولو لم يفعل سوى خَلْقهـم وتربيتهـم ومدّهم بالحياة ومقوماتها لكان يكفـى ذلك ليعبدوه وحده ولا يشركوا به أحداً .

والرحمة صفة تحنين للخَلْق ، واختار اسم (الرحمن) ، فمجال التكليف كله الرحمـة ، ومـا نزل المنهج من الله إلا لينظم حيـاة النـاس ويحقق لهم السعادة فى حركة الحياة .

فالرحمانيـة الإلهية هـى الغالبة فى كل التشريـع ، ألا ترى قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَـٰنُ (١) عَلَّـمَ الْقُـرْآنَ (٢)﴾ [الرحمن] فـالقـرآن الذى نـزل لينظم حياة

الناس ويحكمها ويُصلح حركة الحياة ويضع السلام بينك وبين الله ، وبينك وبين نفسك ، وبينك وبين الناس ، هذا القرآن مظهر من مظاهر هذه الرحمانية الإلهية .

والله يجير برحمته مَنْ يشاء ، أما أنتم فلن تتداركم رحمة الله فلن تجدوا مُجيراً يجيركم من عذاب الله ، والحق سبحانه باختيار اسم (الرحمن) هو ليُطمئن الذين أسرفوا على أنفسهم بالمعاصى أن ربهم رحمن رحيم ، إنْ تابوا إليه قبِلهم ، وإنْ وعدهم وعْداً أوفى .

ومسألة الخَلْق تدور فى إطار الرحمانية ، وكان من الواجب أنْ تطيع ، وأنْ تخضع له .

﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَـٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا (٢٩) ﴾ [الملك] وآمنا به . أى : اعتقدنا وصدَّقنا . ويُقال : آمن بالشيء أى صدَّقه . وآمن بكذا أى صدَّق ما قيل. وقال إخوة يوسف لأبيهم : ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) ﴾ [يوسف]

أى لن تُصدِّقنا . وآمن إذا تعدَّت بالباء فمعناها الاعتقاد ، وإنْ تعدت باللام ، فمعناها التصديق ، وإنْ تعدت بغير الباء وغير اللام فمعناها إعطاء الأمان ، مثل قوله تعالى ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

وتجيء أيضاً (آمن) و (أمن) بمعنى الائتمان ، مثل قول الحق سبحانه وتعالى على لسان يعقوب ﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ (٦٤) ﴾ [يوسف]

إذن ، فـ (آمن) إنْ تعدت بالباء فيكون معناها الاعتقاد الإيمانى ، وإنْ تعدَّت باللام فمعناها التصديق ، وإنْ تعدَّت بنفسها إلى الفعل فهى إعطاء الأمان والسلام والاطمئنان ، وإنْ تعدت بالمفعول أيضاً فمعناها القدرة على

أداء الأمانات ، مصداقاً لقوله الحق : ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا (٧٥)﴾ [آل عمران]

فـ ﴿آمَنَّا بِهِ (٢٩)﴾ [الملك] اعتقدنا وصدَّقنا ، أما أنتم فكفرتم وكذَّبتم وكفرتم نعمة الله وأشركتم بالله .

ونحن لم نؤمن بالرحمن فقط بل عليه توكلنا ، وقد تقدم الجار والمجرور ، ومعنى ذلك قصْر وحَصْر الأمر والتوكل على الله فحسب ، فلا توكل على سواه، والتوكل الحقيقى أن تعمل الجوارح وتتوكل القلوب ، وكم من عامل بلا توكل فتكون نتيجة عمله إحباطاً .

والمؤمنون يتوكلون على الله ليتولاهم ، وهم لا يتوكلون على مَنْ قد يصبح غداً ميْتاً ؛ ولكنهم يتوكلون على الحى الموجود دائماً ، العزيز الذى لا يُقهر ، القوى الذى لا يُغلب .

والحق سبحانه يقول : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧)﴾ [الشعراء] فعزَّته سبحانه ورحمته لك أنت ولمصلحتك ، فتوكل على الذى يحبك ويُقدِّر عملك.
﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٣)﴾ [الأحزاب]

وقد ضرب لنا رسول الله ﷺ مثلاً توضيحياً بتوكُّل الطير ، فقال « لو أنكم توكلتم على الله حقّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً وتروح بطاناً »[(١)] .

فالطير تسعى على رزقها وتبحث عنه ، فتخرج من وكناتها وأوكارها طلباً للرزق (تغدو خماصاً) فتخرج فى الغدوات ضامرةَ البطن جائعة ، وتعود فى الرواح ممتلئةَ البطن قد شبعتْ من رزق الله .

فالطير استخدمت الأسباب ، فإذا توكلت على الله فاستنفد الأسباب الموجودة

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه (٤١٦٤) وأحمد فى مسنده (٢٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣٧٣) والترمذى فى سننه (٢٣٤٤) وقال : هذا حديث حسن صحيح . وهو من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

لك من ربك ، فإنْ عزَّتْ عليك الأسباب فلا تيأس ، لأن لك رباً أقوى من الأسباب لأنه سبحانه خالق الأسباب .

﴿ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٩) ﴾ [الملك]، وفي آية أخرى يقول سبحانه: ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى (١٣٥) ﴾ [طه]

هذا العلم بأصحاب الصراط السوى وبمن اهتدى ممن هو فى ضلال مبين سيحدث ساعةَ تقوم الساعة حين الانصراف إما إلى جنة وإما إلى نار ، ساعتها ستعلمون مَنْ أصحاب الصراط السوى ، نحن أم أنتم ؟

لكنه سيكون علماً لا ينفع ولا يُجدى ، فقد جاء بعد فوات الأوان ، فالوقت وقت الحساب وقد فات وقت الأفعال والأعمال .

ولكن ما هو الضلال ؟ الضلال هو أن تسلك سبيلاً لا يؤدى بك إلى غايتك . والضلال يأتى على معانٍ متعددة ، فقد يأتى الضلال مرّة بمعنى الذهاب والفناء فى الشيء ، مثل قوله الحق ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠) ﴾ [السجدة]

وقد يأتى الضلال مرة أخرى بمعنى عدم اهتداء الإنسان إلى وجه الحق كما قال الحق وَصْفاً لرسوله ﷺ عندما رفض عبادة الأصنام وظلّ يبحث عن المنهج الحق ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) ﴾ [الضحى]

أى أنك يا محمد لم يعجبك منهج قريش فى عبادة الأصنام وظللتَ تبحث عن المنهج الحق إلى أنْ هداك الله فأنزل إليك هذا المنهج القويم ، لقد كنتَ ضالاً تبحث عن الهداية فجاءتْك النعمة الكاملة من الله .

وهناك لونٌ آخر من الضلال وهو أنْ يتعرَّف الإنسان على المنهج الحق ، لكنه ينحرف عنه ويتجه بعيداً عن هذا المنهج مثل قوله الحق : ﴿ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ (٦٩) ﴾ [آل عمران]

وهـم ﴿ فِي ضَـلالٍ مُبِينٍ (٢٩) ﴾ [الملـك] أى فى ضلال ظاهـر وهو ضلال واضح صريح يعرفه صاحبه فيقع فى غيبة عن الحق أوتيـه عن الحق ، و﴿ مُبِينٍ (٢٩) ﴾ [الملك] أى محيط بصورة لا يمكن النفاذ منها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ (٣٠) ﴾

الحـق سبحانـه جعل لنـا خزانات للماء تحـت الأرض ، لا لنُحـرم منه حين يوجـد ، لكن لنجده حـين يُفقد ، وكوْن الماء ينابيع فـى الأرض يجعلنا نتغلب على مشاكل كثيرة ، فالأرض تحفظه لنا فلا يتبخر ولا نحتاج إلى بناء السدود وغيرها مما يحفظ لنا الماء العذب .

وقـد أعطانـا رسول الله ﷺ مثـلاً فقال : « مثَل ما بعثنـى الله به من الهدى والعلـم كمثـل الغيث الكثير أصـاب أرضاً ، فكان منها نقيـاً - أرضاً خصبة - قبلـتْ الماء ، فأنبتت الكلأ والعشـب ، وكـان منها أجادب أمسكتْ الماء ، فشرب النـاس منـه وسقوا أنعامهـم وزروعهم ، وكان منها قيعـان لا تمسك مـاء ، ولا تنبت كلأ، فذلك مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم »[1].

فهـذه أنـواع ثلاثة من الأرض تمثـل انتفـاع الناس بالعلـم ، فالأولى تمسك الماء وتخرج الزرع ، والثانية تمسك الماء حتى ينتفع الناس به ولك أنْ تسأل : فما فائدة الثالثة القيعان التى لا تمسك ماء ، ولا تنبت كلأ ؟ ولماذا خلقها الله إذن ؟

نقول : هذه القيعان هـى التى تسلك الماء فى باطن الأرض ، وصدق الله إذ قـال : ﴿ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢) ﴾ [الحجر]،

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٩) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٢٨٢) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

وقال سبحانه : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (٣٠)﴾ [الملك]

إذن هذه القيعان لها مهمة يعرفها مَنْ فطن لهذه المسألة ، وإلا فالله تعالى لم يخلق شيئاً عبثاً أبداً ، كذلك يكون انتفاع الناس بالعلم ، فمنهم مَنْ نرى أثر علمه خيراً عاجلاً ، ومنهم مَنْ يتأخر نَفْع علمه للأجيال القادمة .

ثم إياك أنْ تظن أن الماء حين يسلكه الله ينابيع في باطن الأرض يسيح فيها أو يحدث له استطراقٌ سائلي يختلط فيه العذب بالمالح ، لا ... إنما يسير الماء العذب في شبه أنابيب ومسارب خاصة ، يجدونها حتى تحت مياه الخليج المالحة .

وهذه من عجائب الخلق الدالة على قدرة الخالق عز وجل ، وكما يوجد برزخ بين الماءين على وجه الأرض ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠)﴾ [الرحمن] ، كذلك هناك برزخ للماءين تحت الأرض .

والله قد أعدَّ لنا الأرض صالحة بكلِّ نواميسها وقوانينها ، فالمناطق التي لا ينزل بها المطر يعوضها الله عنه بالمياه الجوفية في باطن الأرض ، فماء المطر الزائد يسلكه الله ينابيع في الأرض ويجعله مخزوناً لوقت الحاجة إليه ، وتخزين الماء العذب في باطن الأرض حتى لا تُبخره الشمس .

يقول تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (٣٠)﴾ [الملك]

ومعنى ﴿ غَوْرًا (٣٠)﴾ [الملك] أي : غائراً في الأرض ، فإنْ قلت : يمكن أن يكون الماء غائراً ، ويقول تعالى : ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١)﴾ [الكهف]

والسنتهم تعطلت عن نقل ما فى قلوبهم، وأبصارهم لا ترى آيات الله فى الكون، فآلات إدراكهم لهدى الله معطلة عندهم.

لذلك وصف الحق سبحانه الذين كفروا فقالوا: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ[1] بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٧١) ﴾ [البقرة]

فهناك شيء قد سدَّ منفذ السمع فلا تسمع، ويسبِّب الصمم فهم بُكْم، فالإنسان إنْ لم يسمع فهو لن يتكلم، فالأذن جُعِلت لتسمع السماع المفيد فكأنَّها مُعطَّلة لا تسمع شيئاً.

والعقل وُجد ليفكر به، فإذا لم يفكر تفكيراً سليماً منطقياً فكأن صاحبه لا عقلَ له، فالأصمّ حقيقةً خيرٌ من الذى يملك حاسة السمع ولا يفهم بها، لأن الأصمَّ له عذره والأبكم كذلك، والمجنون أيضاً له عذره.

وعملية العقل تنشأ بعد أنْ تسمع وبعد اكتمال الحواس، ولذلك فالإنسان فى تكوينه الأول حركيّ حِسّيّ يرى ويسمع ويتذوق ثم يتكوَّن عنده من ذلك القضايا العقلية.

وليس معنى أنهم لا يسمعون أنهم صُمٌّ بجارحة الأذن، فهم يسمعونه بآذانهم ولكنهم لا يفقهون ما يسمعونه، وقد قال الحق سبحانه عنهم: ﴿ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨) ﴾ [النساء]

وساعة تقول فلان لا يفقه، فهذا معناه أنَّ عقله ممنوعٌ من الفهم، أما عندما نقول: لا يكاد يفقه. فهو يعنى: لا يقرب حتى من الفهم، فمنطق العقل والفكر يقودان إلى ضرورة الفهم، وعندما لا يفهمون ذلك نحن نستعجب من عدم فهمهم، ولا نستعجب من عدم فهمهم إلا إذا كان الأمر المطروح أمامهم

---

(١) النَّعْق: مصدر نعق ينعق وهو صياح الراعى بالغنم وزجره إياها. ووجه الكلام: كمثل المنعوق به فجاء الناعق فى موضع المنعوق به لأنه جعل الكفار بمنزلة الغنم المنعوق بها [جمهرة اللغة لابن دريد ٢/٩٤٣].

يصنـع لـه الحق مسارب فـى الأرض لأنه ماء عـذب ، حتى يستخـدم الإنسان ذكاءه الموهـوب له من الله ليستخرج المياه من الأرض ، فالحق سبحانه خلق لنا كل ما يمكن أنْ يحقق لنا استخراج قوت الحياة .

ويقـول الحق سبحانه : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨) ﴾ [المؤمنون] فنأخذ حاجتنا من ماء المطر ، والباقى يتسرب فى باطن الأرض ، كما قال سبحانه : ﴿ فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ (٢١) ﴾ [الزمر]

ومـن عجيب قـدرة الله فى الميـاه الجوفية أنهـا تسير فى مسـارب مختلفة بحيث لا يختلط المـاء العذب بالماء المالح مع ما يتميـز به الماء من خاصية الاستطـراق ، والعاملـون فى مجال حفـر الآبار يجدون من ذلـك عجائب ، فقد يجدون الماء العذب بجوار المالح ، بل وفى وسط البحر لأنها ليست مستطرقة ، إنما تسير فى شعيرات ينفصل بعضها عن بعض .

والمياه الجوفية مخزون طبيعى من الماء نُخرجه عند الحاجة ، ويُسعدنا إذا نضب الماء العذب الموجود على السطح ﴿ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ (١٨) ﴾ [المؤمنون] ليكون احتياطياً لحين الحاجة إليه ، فإذا جفَّ المطر تستطيعون أن تستنبطوه .

ثـم يُذكّرنـا الحق سبحانه بقدرته على سلب هـذه النعمة ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨) ﴾ [المؤمنون] يعنى : سيروا فى هذه النعمة سيراً لن يُعرِّضها للزوال ، وقال هنا : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ (٣٠) ﴾ [الملك]

والمـاء المعين الماء الجـارى الظاهر الذى تناله وسائـل الناس العادية فى الاستخراج ، فمَنْ يأتيكم بهذا الماء المعين إنْ ذهب الماء فى الأرض وغار ولم تعودوا قادرين على تحصيله والوصول إليه ؟

ومَـنْ يتأمل قوله تعـالى ﴿ مَاؤُكُمْ (٣٠) ﴾ [الملك] يجد عجباً ، فالحق سبحانه نسب الماء إليهم وأنه ماؤهم ، ومع هذا فهم غير قادرين عليه ، ولا على الإتيان

به ، بل أنتم تعدونه فى أيديكم .

والله وحده هو القادر أنْ يأتى به ، فهو سبحانه ﴿ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ (١)﴾ [الملك] وإذا كان الله هو القادر ، وإذا كان الله مالك الملك فلم تشركون معه غيره ؟

والحق سبحانه يسألهم وهو سبحانه يعلم إجابتهم ، وأنهم لا بد لهم أن يقولوا : لا يأتينا به إلا الله تعالى ، فقُل لهم : فلم تشركون به مَنْ لا يقدر على أنْ يأتيكم به .

والحق سبحانه مقتدر على كل شيء ، فقد اقتدر سبحانه على الإيجاد واقتدر على الإعدام ، فلا تنفكّ عنه صفة القدرة أبداً ، أحيا وأمات، وأعزّ وأذلّ ، وقبض وبسط ، وضرّ ونفع .

فالحق سبحانه يُذكّرنا بقدرته على سلب هذه النعمة ﴿وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨)﴾ [المؤمنون] فسيروا فى هذه النعمة سيراً لا يُعرِّضها للزوال .

والجئوا إلى مسبِّب الأسباب ، وارفعوا أيديكم لربكم ، ونحن إذا استنفدنا الأسباب نطلب من المسبِّب ، ولذلك أتحدى أنْ يستنفد واحد أسبابَ الله الممدودة إليه ويلجأ إلى الله فيرده .

والله قد أرسل محمداً ﷺ بالهدى والعلم ، فمن الناس من يقبل الهدى والعلم فيثمر خيراً لنفسه ولغيره وينتفع بهدايته وعلمه للناس ، فذلك مثل المطر الذى أصاب أرضاً فأنبتت الكلأ والعشب الكثير فانتفع به الحيوان وتغذّى الإنسان على الحيوان .

ومن الناس مَنْ يحتفظ بالهدى والعلم ويُعلّمه لغيره فيستمر النفع ويستمر أثر الهدى ، كتلك الأرض التى أمسكت ماء المطر فنفع الله عز وجل بها ناساً فشربوا فرعَوْا وسقوا وزرعوا وأسقوا .

ولكن من الناس مَنْ لا يقبل الهدى والعلم ولم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل

هدى الله عز وجل الذى أُرسل به ﷺ ، فذلك مثل الأرض التى هى مجرد قيعان لا تُمسك مـاء ولا تُنبت كَلأً ، فلمْ تنتفع بماء المطر النازل عليها بل ذهبت فى جوف الأرض فى مسالك ومسارب ، فلم ينتفع به نبات أو حيوان أو إنسان

والإنسان على إطلاقه لفى خُسْر ، ولكن مَنْ الذى ينجو من الخسران ؟ وتأتى الإجابة من الحق سبحانه : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر]

فالإيمان والعمل الصالح هو منهج الله وهو الحبل الممدود إلينا ، فمَنْ يعتصم به ينجو من الهاوية ، أما مَنْ كفر فإنه لن ينجو من عذاب الله كافر ، ورحمة الله وفضله هو وسيلةٌ للنجاة ، وبهما ندخل الجنة ، وبدونهما لن ينجو أحد .

والحق سبحانه يهيء لنا طريق النجاة ، ولكن للنجاة شروط من الهلاك ومن الدرك الأسفل من النار ، وهى التوبة وإصلاح ما أفسد والاعتصام بالله وإخلاص دينه لله .

سُورَةُ القَلَمِ

سورة القلم [1]



﴿ نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١ ﴾

الإسلام يُعلى من قدر القلم والدواة والكتابة والقراءة ، فخصَّص الحق سبحانه سورة سُمِّيت سورة القلم ، وتُسمى أيضاً سورة (ن) أى الدواة والمحبرة التى كان يستخدمها الكُتَّاب فى الكتابة .

فأولُ شيء خلقه الله القلم ثم الدواة ، وأمر القلم أنْ يكتب بما هو كائنٌ فى خَلْقه ومن خلقه وفى كوْنه إلى يوم القيامة ، فذلك اللوح المحفوظ من عمل أو أثر أو رزق أو أجل ، فكتب ما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « أولُ شيء

---

(١) سورة القلم هى السورة رقم (٦٨) فى ترتيب المصحف الشريف ، نزلت بمكة ، كل آياتها محكمة ليس فيها ناسخ ولا منسوخ ، وتسمى أيضاً سورة (ن) باعتبار بدايتها . وكانت ثانية السور نزولاً بمكة ، وهى اثنتان وخمسون آية ، نزلت بعد سورة اقرأ ، فيكون نزولها فيما بين ابتداء الوحى والهجرة إلى الحبشة .

الله بى الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا العاقب » .

خلقـه الله عـز وجل القلـم ، ثم خلق النـون وهى الدواة ، ثـم قـال له : اكـتب. قـال : ومـا أكتـب ؟ قال : اكتب ما يكون ومـا هو كائن من عمـل أو أثر أو رزق أو أجَل ، فكتـب ما يكون وما هو كـائن إلى يـوم القيامة[1] . فذلك قوله عـز وجـل : ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) ﴾ [القلم]

فـالله تعـالى كتب أزلاً ، لأنه تعـالى علم أنك تفعل آجـلاً ، وعلم الله مطلق لا حـدودَ لـه ، فالله كتب ما هو كائن مُسبقاً ، لأنه يعلم ما يكـون فى كوْنه قبل أنْ يكون .

ويقـول تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ قَرْيَـةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَـوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابـًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُـورًا (٥٨) ﴾ [الإسراء] ، فكلُّ ذلك مُسجَّل ومُسطر فى اللوح المحفوظ .

والحق سبحانه يقول : ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) ﴾ [القلم]

الحـروف المقطَّعـة ثمانية وعشرون حرفاً ، ونجد نصفهـا أربعة عشر حرفاً فى فواتح السور ، وقد يوجد منها فى أول السورة حرف واحد مثل ﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) ﴾ [ق] ، وكذلك قوله الحق ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) ﴾ [ص] ، وكذلك قوله هنا : ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) ﴾ [القلم]

ومرة يأتى من الحروف المقطعة اثنان مثل قوله الحق ﴿ حم (١) ﴾ [الأحقاف] ، ومرة يأتـى ثلاثـة حروف مقطعة مثل ﴿ الم (١) ﴾ [البقـرة] ، ومرة يأتـى الحق بأربعة

(١) أخرجه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه الفريابى فى كتاب (القدر) (٢٩/١) ومن طريقه أخرجه الآجرى فى كتاب الشريعة (١٧٩) بهذا اللفظ . ولكن أخرجه الطيالسى فى مسنده (٥٧٨) عن عبادة ابن الصامت بلفظ أنه قال لابنه الوليد : يا بنى اتق الله واعلم أنك لن تتقى الله حتى تؤمن بالله وتؤمن بالقدر كله خيره وشره إن مت على غير هذا دخلت النار إنى سمعت رسول الله يقول : إن أول ما خلق الله القلم فقال : اكتب . فقال : يا رب ما أكتب ؟ قال : اكتب القدر ما كان وما هو كائن إلى الأبد .

حروف مقطعة مثل قوله ﴿ المص (١) ﴾ [الأعراف] ، ومرة يأتى بخمسة حروف مثل قوله تعالى : ﴿ كهيعص (١) ﴾ [مريم]

ونلاحظ أن الحرف فى السور البادئة بحرف واحد ليس آية ، ولكنك تقرأ قول الحق سبحانه ﴿ حم (١) ﴾ [الشورى] وهى آية ، وكذلك تقرأ قول الحق سبحانه ﴿ عسق (٢) ﴾ [الشورى] كآية مع أنها حروف مقطعة .

وتقرأ قوْل الحق سبحانه : ﴿ كهيعص (١) ﴾ [مريم] كآية بمفردها . وتقرأ قوْل الحق سبحانه : ﴿ طه (١) ﴾ [طه] كآية بمفردها ، وكذلك تقرأ قول الحق ﴿ يس (١) ﴾ [يس] كآية بأكملها . وتجد أيضاً ﴿ المص (١) ﴾ [الأعراف]

وتجد أيضاً ﴿ المر (١) ﴾ [الرعد] ملتحمة بما بعدها فى آية واحدة ، وتقرأ فى أول سورة النمل ﴿ طس (١) ﴾ [النمل] ملتحمة بما بعدها فى آية واحدة .

وإذا رأيتَ هذه الحروف المقطعة فاعلم أن الحق سبحانه وتعالى نطق بها بأسماء الحروف ، ونحن نتكلم بمُسمّيات الحروف لا بأسمائها .

وقد تدل هذه الحروف المقطعة على اسم من الأسماء ، مثل (طه) ، فـ طه اسم من أسماء رسول الله ﷺ[1] ، ومثل (ن) حرف وهو اسم للحوت ، قال تعالى: ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا (٨٧) ﴾ [الأنبياء] و (ق) حرف ، وهو اسم لجبل اسمه جبل قاف .

وسرُّ الإعجاز فى القرآن الكريم أن تكون مادته ومادة غيره من الكلام واحدة ، حروفاً وكلمات ، لذلك كثيراً ما يقول الحق تبارك وتعالى بعد الحروف

---

(١) ليس فى صحيح السنة ما يدل على أن (طه) اسم من أسماء رسول الله ، إلا من بعض الإشارة إلى مرويات فى بعض كتب التفسير مثل : (أنا عند الله وفى كتابه اسمى محمد وأحمد وطه ويس) ومثل: « أنا عند ربى قد سميت بعشرة أسماء فذكر منها طه وياسين » . لكن الذى فى صحيح البخارى (٣٥٣٢) عن جبير بن مطعم أن رسول الله قال : « لى خمسة أسماء : أنا محمد وأحمد وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا العاقب » .

المقطعـة : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) ﴾ [الشعراء] أى أن الكتاب المبين مكوَّن مـن مثـل هذه الحروف ، وفى آية أخرى يقول تعـالى : ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (١) ﴾ [النمل]

ولكل حرف من الحروف المقطعة مفتـاح وأسرار لم يفتح علينا بعد لمعرفته، وما قلنا فى معنى هذه الحروف مجرد محاولات على الطريق ، والحق سبحانه يكرر الحديث عن الحروف المقطعة لتظلَّ دائماً على البال .

وهذه الحروف مبنية على الوقف ألفْ لام ميم هكذا بالسكون، ولم يقل : ألفٌ لامٌ ميمٌ على الوصل لأنها حروفٌ مقطعة قد يظنها البعض كلمة واحدة ففصل بينها بالوقف .

لذلـك يقـول ﷺ : « لا أقـول الم حـرف ، ولكـن ألف حـرف ولام حرف وميم حرف»[1] وليؤكد هذا المعنى جعلها على الوقف ، كلّ حرف على حِدَة .

وهذه الحروف خامات القرآن ، فمن مثل هذه الحروف يُنسج كلام الله ، وأنت إنْ أردتَ أنْ تميـز مهـارة النسج عند بعض العمال مثـلاً لا تعطى أحدهم قطناً والآخر صوفاً والآخر حريراً مثلاً ، لأنك لا تستطيع التمييز بينهم لأن الخامات مختلفة ، فالحرير بطبيعته سيكون أنعم وأرقّ ، فإنْ أردت معرفة المهارة فوحّد المادة الخام عند الجميع .

فـكأنَّ الحق تبارك وتعالى يقول لنـا : القرآن معجز بدليل أنكم تملكون نفس حروفـه ، ومع ذلك عجـزتم عن معارضته ، فقد استخدم القـرآنُ نفسَ حروفكم ونفسَ كلماتكـم وألفاظكـم ، وجـاء بهـا فـى صورة بليغـة عزَّ عليكـم الإتيـان بمثلهـا.

فالقـرآن نـزل بـأسلوب عربى وتحـدَّى العرب وهم أهـل الفصاحة والبلاغة

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٩١٠) وابن المبارك فى الزهد والرقائق (٨٠٨) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

والبيـان وأصحـاب التعبير الجميل والأداء الرائع ، ونزل فى قريش التى جمعتْ فـى لغتهـا كل لغات القبائـل العربية ، وقد خـرج منها صناديـد كذَّبوا محمداً وكفروا بدعوته ، فهل سمعنا منهم مَنْ يقول مثلاً : ما معنى (الم) أو (حم) .

والله لـو كان فيهـا مطعنٌ مـا تركوه . إذن : فهذا دليل علـى أنهم فهموا هذه الحـروف ، وعرفـوا أن لها معنى أبسطها أنْ نقول : هى من حروف التنبيه التى كان يستخدمها العرب فى كلامهم ، فهى مثل (ألا) فى قول الشاعر :[1]

أَلاَ هُبِّى بصَحْنِكِ فَاصْبِحِينَا   وَلاَ تُبْقِ خُمُورَ الأَنْدرِينَا[2]

﴿ ن (١) ﴾ [القلم] والبعض أخذهـا أنهـا الحوت ، فالنون مـن أسماء الحوت وجمعـه (نينـان) كحوت وحيتـان ، لذلك سُمِّى به يونس عليـه السلام ، فقال تعالى : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا (٨٧) ﴾ [الأنبيـاء]

وقول الحق سبحانه ﴿ وَالْقَلَمِ (١) ﴾ [القلم] قَسَم بـالقلم ، والواو هنا واو القسم، وللحق سبحانه أنْ يُقسم بما يشاء على ما يشاء .

والقَسَـم يأتـى لتأكيد المقسَم عليـه بالمقسم به ، وتـأكيـد المقسم عليه إنما يأتـى لأن هنـاك مَـنْ يشك فيه ، وقد أقسـم سبحانه بالتين والزيتـون ، وأقسم بـالقرآن الحكيم ، وأقسم بغير ذلك .

ونجـده فـى مواقع أخرى يقـول : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِهَـذَا الْبَلَـدِ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَـذَا الْبَلَـدِ (٢) وَوَالِـدٍ وَمَا وَلَـدَ (٣) ﴾ [البلـد] . والعجيب أنه يـأتى بجـواب القسم ، فيقـول: ﴿ لَقَـدْ خَلَقْنَـا الْإِنْسَـانَ فِـي كَبَـدٍ (٤) ﴾ [البلـد]

(١) هو : عمرو بن كلثوم بن مالك من بنى تغلب أبو الأسود شاعر جاهلى من الطبقة الأولى أصحاب المعلقات ، ولد فى شمال جزيرة العرب فى بلاد ربيعة ، ساد قومه تغلب وهو فتى وعمر طويلاً ، توفى عام ٤٠ قبل الهجرة . (الأعلام ٥/٨٤).

(٢) البيت من معلقة عمرو بن كلثوم من بحر الوافر . والصحن هو القدح الكبير . وأصبحينا أى اسقينا الصبوح وهو شرب أول النهار . ولا تبقى خمور الأندرينا أى لا تبعثيها لغيرنا . والأندرين قرية من قرى الشام كانوا يأتون منها بهذا النوع من الخمور .

وقد يقول قائل: كيف يقول ﴿ لَا أُقْسِمُ (١)﴾ [البلد] ثم يأتى بجواب القسم؟ وأقول: لقد جاء هنا بقوله ﴿ لَا أُقْسِمُ (١)﴾ [البلد] وكأنه يوضح ألاَّ حقَّ لكم فى الإنكار، ولذلك ما كان يصح أنْ أقسم لكم، ولو كنت مُقسماً، لأقسمتُ بكذا وكذا وكذا.

والحق سبحانه يقسم بما شاء على ما شاء، أقسم بالشمس وبمواقع النجوم، وبالنجم إذا هوى، فهو الخالق العليم بكل ما خلق، ولا يعرف عظمة المخلوق إلا خالقه، وهو العالم بمهمة كل كائن خلقه، لكنه أمرنا ألاَّ نقسم إلا به، لأننا نجعل حقائق الأشياء مكتملة.

وقد جاء القسَم لتأكيد المعنى، ولذلك يقول أحد الصالحين[1]: مَنْ أغضب الكريم حتى ألجأه أنْ يقسم؟

والحق سبحانه لا يقسم إلا على الشيء العظيم، ونحن البشر نقسم لنؤكد كلامنا، كما تقول: والله إنْ ما حدث من فلان كذا وكذا سأفعل كذا وكذا، أما الحق سبحانه فكلامه صادق ونافذ دون قسم، فما بالك إنْ أقسم؟

فالحق سبحانه هنا يُقسم بالقلم، والقلم يُطلق على القلم الذى نكتب به، لذلك قال هنا ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) ﴾ [القلم] ويُطلق القلم أيضاً على القداح التى كانوا يقترعون بها إذا اختلفوا على شيء ﴿ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ (٤٤) ﴾ [آل عمران]

وقد ذكر الحق سبحانه القلم مجموعاً فى آية أخرى ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) ﴾ [لقمان]

والأقلام إنما كانت تُؤخذ من الأشجار ذات الغصون والفروع، ولا تُؤخذ من النبات الذى ليس له ساق مثل العُشب؛ أو النجم الذى ينتشر على سطح الأرض.

---

(١) هذا من قول الشيخ الشعراوى نفسه رحمه الله.

ثـم يقـول الحقِ سبحـانـه : ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ (١)﴾ [القلم] أى : يكتبون . والبعض من العلماء قال : ﴿مَا يَسْطُرُونَ (١) ﴾ [القلم] أى ما تكتبه الحفظة من أعمال بنى آدم . وغيرهم قالوا : أى ما تولَّى الله لعباده من الكتابة التى فيها منافعُ الخلق ومصالح العباد والبلاد .

ومـا تكتبـه الحفظة من أعمال البشر ، ذكره الحـق سبحانه فى قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢)﴾ [الانفطار] ويقول تعالى : ﴿ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١) ﴾ [يونس]

ويقـول الحق سبحانـه : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠) ﴾ [الزخرف]

فهـم يكتبون كل ما يفعله البشر ويُسطرونه فى كتب تكون عند مليك مقتدر بكيفية لا نعلمها ، ويوم القيامة يُقال للإنسان ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) ﴾ [الإسراء]

فكلّ إنسان يقرأ كتابه بنفسه ، والكتابة ليست كما نظن فقط ، ولكنها تسجيل للصوت والأنفاس ويأتى يوم القيامة ليجد كلُّ إنسان ما فعله مسطوراً ، فاقرأ كتابك بنفسك حتى تُقام عليك الحجة ولا يكون عندك اعتراض .

ويقـول تعـالى : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) ﴾ [الكهف]

هـذا الكتاب سيلقاه يوم القيامة منشوراً أى مفتوحاً مُعداً للقراءة ، لا يترك كبيرة أو صغيرة إلا عدَّها وحسبها ، فكلُّ ما فعلوه مُسجَّل مُسطَّر فى كتبهم .

فالملائكة يكتبون الحسنات ويكتبون السيئات ، و(واو الجماعة) فى

﴿ يَسْطُرُونَ (١) ﴾ [القلم] المقصود بها الملائكة . وقد قال رسول الله ﷺ : « إذا كان يوم الجمعة وقفت الملائكة على باب المسجد يكتبون الأول فالأولَ ، ومثل المهجِّر[1] كمثل الذى يهدى بدنة ، ثم كالذى يهدى بقرة ، ثم كبشاً ثم دجاجة ثم بيضة ، فإذا خرج الإمام طووا صحفهم ويستمعون الذكر»[2].

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢ ﴾

المجنون أى المستور عقله ، الذى يفعل الأفعال بدون أى غاية ، أما العاقل فيفعل الفعل لغاية ولهدف يرجوه ، وكلام المجنون لا ينسجم مع بعضه .

إن أفعال المجنون وأعماله تكون متقطعة غير مستقيمة ، فالمجنون لا ضابط له فى حركاته ولا فى سكناته ولا فيما يدع ، فالمجنون هو مَنْ فقد التوازن الفكرى فى الاختيار بين البدائل ، وحين تُؤخذ منه هذه القدرة على التوازن الفكرى يصبح غير أهْل للتكليف .

فالتكليف فيه اختيارُ أنْ تفعل كذا ولا تفعل كذا ، والمجنون لا يملك القدرة على هذا الترجيح ، فالمجنونُ لا عقلَ له ، حتى إنَّ الله عز وجل قد أعفاه من التكليف .

ونقول : انظروا إلى المجنون بالنسبة لأصحاب العقول ، صاحب العقل قصارى ما يصل إليه أنْ تكون كلمته نافذة لا يعترض عليه أحد ، وأنْ يقول ما يريد ولا يحاسبه أحد .

---

(١) قال الأزهرى : الصواب فى معنى التهجير هنا ما قاله النضر بن شميل : التهجير إلى الجمعة وغيرها التبكير والمبادرة إلى كل شيء . وقد قال ﷺ : « لو يعلم الناس ما فى التهجير لاستبقوا إليه » . أراد التبكير إلى جميع الصلوات وهو المضى إليها فى أول أوقاتها . [لسان العرب - مادة : هجر] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١٠٥٦٨) والبخارى فى صحيحه (٩٢٩) والبيهقى فى السنن الكبرى (٥٨٦٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

أما المجنون فهو يصل إلى هذا لأنه إنْ قال قولاً فلا أحد يعترض عليه ، وإنْ فعل فعلاً غير لائق فلا أحد يحاسبه ، بل إنه سبحانه وتعالى لا يحاسبه يوم القيامة .

ولكن هذا لا يمنع أن حركة المجنون غير مرتَّبة ولا منسّقة ، ولا تمر على عقله لأن عقله مختلُ الإدراك وفاقد للقدرة على الاختيار بين البدائل .

والمجنون يعمل ما يخطر له دون أنْ يعرض الأعمال على العقل أو التفكير لذلك من عدالة الله في خَلْقه أننا لا نؤاخذ المجنون على تصرُّفاته حين يعتدى على أحد منا بالسبِّ أو الضرب مثلاً ، ولا نملك إلا أنْ نبتسم له وندعو الله أنْ يعافينا مما ابتلاه به .

وأنتَ يا محمد بنعمة ربك لستَ بمجنون ، والنعمة هنا هى ما أنزله الله على رسول الله من الكتاب والحكمة ، فهى المنهج الحق ، وقد هداك الله إلى هذا المنهج القويم ، فلقد كنت ضالاً تبحث عن الهداية ، فجاءتك النعمة الكاملة من الله .

ومَنْ هداه الله إلى النعمة الكبرى لا يكون مجنوناً أبداً ، فالمجنون يتصرف بلا منطق ، يضحك بلا سبب ويبكى بلا سبب ، ويضرب الناس بلا سبب ، فهل رأيتم محمداً ﷺ يفعل شيئاً من هذا ؟

والنعمة التى أنزلها الله على رسوله ليست بسحر كما قال بعضكم لأنه يملك من البيان ما يملكون وفوق ما يملكون ويُحسنون ، ولا يفعل رسول الله معهم ما يجعلهم يؤمنون على الرغم منهم .

وليس القرآن كذلك بكلام كهنة ، لأن رسول الله نشأ بينهم ويعلمون أنه الصادق الأمين الذى لم يتلقَّ علماً من أحد ، فضلاً عن أن كلام الكهان له سَمْت خاص وسجع معروف ، والقرآن ليس كذلك .

ويعلمـون أنـه كلامٌ نطق به رجل عـاقل ، فكلام المجنون لا ينسجم مع بعضه ، فهـل أحـد من المشركين أخـذ على رسول الله أيَّ سلوك يمكـن أن يشير إلى عدم ترتيب الأفعال ؟ لا .

وإذا كان المجنـون فـاقـد الميزان العقلى الذى يختـار بين البديلات ، فكيف يقولـون ذلك عن سيدنـا محمد عليه الصـلاة والسلام وهو قد عاش بينهم ، ولم يكُـنْ قـط فـاقداً لميـزان الاختيار بين البديـلات ، بل كـانـوا يعتبرونه الصادق الأمين ، وكـانوا يحفظون عنده كل غـال ونفيس لهم حتى وهم كـافرون به[١].

لقـد قـالوا ذلك على محمد ظلماً له وبغوغائية ، وكل واحد يُلقى اتهاماً ليس له مِن الواقِع نصِيب ، لذلك قال الحق تبارك وتعالى لأصحاب هذه الاتهامات: ﴿ قُـلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَـى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ (٤٦) ﴾ [سبأ]

أى أنْ يجلس كلُّ اثنين ويتدارسان : هل محمد عـاقل أم مجنون ؟ وسيجد كلٌّ منهما من واقع تجربته أن محمداً هو أكثر النـاس أمـانة ، وكـان الجميع يسمونه الأمين حتى قبل أنْ يتصل به الوحى ، وليس من المعقول أنْ تضره نعمة ربه ، أو أنْ يفقد بـالوحى توازنه الخلقى .

فلـم يكُـنْ فى سلوكـه ﷺ أدنى أثر من جنون ، فـالمجنـون لا يدرى مـا يفعل ولا يعقـل تصرفـاتـه ولا يُسأل عنهـا ولا نستطيع أنْ نتهمـه بشيء فنقول عنه مثـلاً كـذاب أو قبيح ، لأن آلة الاختيـار عنده معطلة ، وليس لديه انسجام فى التصرفـات ، فيمكـن أنْ يضحك فى وجهك ثم يضربـك فى نفس الوقت ، يمكن أنْ يعطيك شيئاً ثم يتفُل فى وجهك .

---

(١) قال ابن إسحاق فيما ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (١/ ٤٨٥) : أما على فإن رسول الله ﷺ أخبره بخروجه وأمره أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدى عن رسول الله الودائع التى كانت عنده للناس ، وكان رسول الله ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده ، لما يُعلم من صدقه وأمانته ﷺ .
وقال السهيلى فى الروض الأنف (٤/ ١٥٣) : أقام على بن أبى طالب بمكة ثلاث ليال وأيامها حتى أدى عن رسول الله الودائع التى كانت عنده للناس حتى إذا فرغ منها لحق برسول الله فنزل معه على كلثوم بن هدْم .

وقد نصح الحق سبحانه هؤلاء الذين اتهموا رسول الله أن به والعياذ بالله مسًّا من الجنون ، فالجنون هو أنْ تحدث الأفعال بلا مقدمات وبدون تدبُّر أو نظر فى آثارها ، وتكون خالية من حكمة فاعلها .

أما العاقل فهو الذى يرتّب الأفعال بحكمة ويوازن ويدرس وينتهى به عقله وحكمته إلى حسن ما يفعل ويعامل الناس بانسجام وسوية خلقية عالية ، فهل أحد من المشركين أخذ على رسول الله ﷺ أىّ سلوك يمكن أن يشير إلى عدم ترتيب الأفعال ؟ لا .

فاجلسوا مثنى أو فرادى وادرسوا تصرفاته ستجدون أنها تصرفات منطقية مبنية على خُلُق كامل مكتملْ ، وهو سلوك يختلف بالتأكيد عن سلوك المجنون ، لأن المجنون لا ضابطَ له فى حركاته ولا فى سكناته ، فـ (الجِنَّة) هى اختلال العقل ، فمَنْ به جِنَّة إنما يتصرف ويسلك بأعمال لا يرتضيها العقل .

ولم يكن رسول الله وحده الذى اتُّهم بالجنون ، بل اتُّهم من قبله كل الأنبياء والرسل ، قال تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢)﴾ [الذاريات]

فلستَ أول رسول يكذّبه قومه ويتهمونه بالسحر والجنون ، والنبى لا يكون أبداً ساحراً أو مجنوناً ، فهاتان الصفتان أبعد ما تكونان عن وصف النبى ، لأنه قدوة فى السلوك ، وما شاهدتم عليه أبداً علامة من علامات السحر أو الجنون .

ثم إن الاتهام بالسحر ينافى الاتهام بالجنون ، فكيف جمعتم عليه هاتين الصفتين ، وأيضاً فإنهم اتهموه بالكهانة وجمعوا بين الجنون والكهانة ، فقال تعالى : ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩)﴾ [الطور]

وفى سورة الصافات قالوا : ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ (٣٦)﴾ [الصافات] ، فكيف يستقيم نظم الشعر وترتيب أفكاره وأبياته مع

الجنــون الذى تحدث الأفعال معــه بلا مقدمات وبدون تدبُّر أو نظر فى آثارها ، وتكون خالية من حكمة فاعلها .

إذن فالخلـل فى تفكيركم أنتم ، والحـق سبحانه يُسلِّى رسوله فيقول : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) ﴾ [الأنعـام]

فـالحـق سبحانه هنا يخاطـب رسوله للتسلية ، ويعطيـه الأسوة التى تجعله غـير حزيـن لما يقولونـه ، وكان رسول الله يحـزن لأن هنـاك أناسـاً لم يؤمنوا فيُسليه الحق سبحانه بأنه يعلم أنه يُحزنه الذى يقولون من الكفر ومن اتهامات لرسول الله .

ألم يقولوا إنه شاعر ؟ ألم يقولوا إنه ساحر ؟ ألم يقولوا إنه مجنون ؟ ألم يقولوا إنه كذاب ؟ ألم يقولوا إنه كاهن ؟

فـلا تحزن أنهم يُكذِّبونك ، فأنت يا محمد منزه عن كل ما اتهموك به ، وأنت فـى نظرهـم الصادق الأمين ، ولكنهم يحسدونك على مـا أنعم الله به عليك من نعمته سبحانه ، هم يُكذِّبون آيات الله والقرآن لأنها تأمرهم بالتخلى عن عبادة ما يعبدون ، وأنْ يعبدوا إلهاً واحداً هو الله .

والحق سبحانه يزيح عن رسوله محمد ﷺ هموم اتهاماتهم له بأنه مجنون، فيقول تعالى :

﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ ﴾

فـالحـق سبحانـه أعدَّ رسولـه ليستقبل النبوة بقـوة الفعل ، لا بسفـه الرأى ،

ولــه فى إبلاغ رسالة ربه ثواب لا مقطـوع ولا ممنوع ، فجزاؤه ﷺ موصول لا منقوص .

ويُقــال فى اللغة : مننتُ الحبل إذا قطعته ، فأجرك وثوابك غير مقطوع وغير محسوب عليك ولا يُمنّ به عليك .

فلك يا محمد على صبرك على أذاهم ثوابٌ عظيم ، وأجرك وثوابك غير مُقدَّر ، وهو تفضّل من الله لأن الجزاء مقدَّر ، أما التفضل فغير مقدَّر ، ولذلك قال رسول الله ﷺ :

« لـن يُدخـل أحداً عملُه الجنةَ . قالـوا : ولا أنت يارسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أنْ يتغمدنى الله بفضل ورحمة »[1].

ويقـول الحـق سبحانه : ﴿ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٦٤) ﴾ [البقرة] ، والفضـل هو الزيادة عما تستحق ، وعمل الدنيا كله لا يساوى نعمـة من نعم الله على خَلْقــه ، فأنت تذكرت العمل ولم تتذكر الفضل ، وكل من يدخل الجنة فبفضل الله سبحانه .

حتى الشهداء الذين أعطوا حياتهم وهى كل ما يملكون فى هذه الدنيا ، يقول الحق سبحانه عنهم : ﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) ﴾ [آل عمران]

فـإذا كان هـؤلاء الشهداء وهم فى أعلى مراتب الجنة قـد دخلوا بفضل الله ، فما بالك بمَنْ هم أقلّ منهم أجراً ، والله سبحانه له فضل على عباده جميعاً .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٢٤٣) ﴾ [البقرة]

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٦٧٣ ، ٦٤٦٣) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨١٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

ولذلك أحب أنْ أقول دائماً مع إخوانى هذا الدعاء : « اللهم بالفضل لا بالعدل ، وبالإحسان لا بالميزان ، وبالجبر لا بالحساب وبالجود لا بالمجهود » أى : عاملنا بالفضل لا بالعدل ، وبإحسانك لا بالميزان ، لأن الميزان يتعبنا .

فدخول الجنة لا يكون بالأعمال وحدها ، ولكن بفضل الله ورحمته ومغفرته ، فالفضل هو الذى يعطينا المنازل المتميزة وقد يُضيِّعنا العدل .

فالمسألة كلها بالفضل من الله ، ولكن فضل الله سبحانه شرطه العمل الصالح فأنت تعمل العمل الصالح ويعطينا ربنا أضعافه ، فالنجاة لا تكون إلا برحمة الله وفضل منه سبحانه .

فالمؤمن الحق لا يفرح بعمل إنما يفرح : إنْ نال فضل الله ورحمته كأنه يقول لربه : لن أتكل يارب على عملى بل فضلك ورحمتك هما المتكل ، لأننى لو قارنتُ العبادة التى كلَّفتنى بها بما أسديت إلىَّ من نِعَم وآلاء لقصُرَتْ عبادتى عن أداء حقك علىَّ ، فإنْ أكرمتنى بالجنة فبفضلك .

فالجزاء فى الآخرة عند التحقيق والتعقل محضُ فضلٍ من الله ، فالفرح لا يكون إلا حين يشملك فضلُ الله وتعمُّك رحمته .

وأجرك على صبرك عليهم مؤكد ثابت واقع ، لذلك قال تعالى : ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣)﴾ [القلم] فاستخدم الحق سبحانه (إن) وهى للتوكيد ثم استخدم لام التوكيد (لأجراً) زيادة فى تأكيد الأمر .

فـ (إنَّ) هنا مؤكدة ، واللام التى فى أول قوله (لأجراً) لزيادة التأكيد ، ومن أجره ﷺ الذى لاينقطع ليلاً ولا نهاراً صلاة الله تعالى عليه وصلوات الملائكة وصلوات المؤمنين عليه .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِى يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا

عَلَيْـهِ وَسَلِّمُـوا تَسْلِيمًا (٥٦) ﴾ [الأحـزاب] ، وصلاة الله تعـالى عليه رحمة ، ومن المؤمنين والملائكة دعاء .

والصلاة من الله تعالى على نبيه وصلاة الملائكة والمؤمنين عليه من الأجر غـير الممنون ، وهـى تعنى الرحمة والعطف والحنـان ، والصلاة من الله رحمة شاملة وعامة ، ويكفى من رحمته سبحانه لنبيه ﷺ أنْ جعله خاتمَ الرسل .

والحق سبحانه يقول واصفاً نبيه محمداً :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾

فإذا كنتم تتهمون رسول الله بالجنون ، فهل يكون المجنون على خُلُق عظيم؟ وقد خلق الله محمداً على خلق عظيم .

وقد أعدَّ الله رسوله ليستقبل النبوة بقوة الفعل لا بسفه الرأى ، وله فى إبلا غ رسالة ربه ثواب لا مقطوع ولا ممنوع ، وهو على الخُلق العظيم ، والخُلق العظيم هـو استقبـال الأحـداث بملَكات مستوية وليسـت متعارضـة ، ولا يملك ذلك إلا عاقل .

وقـد شهـدوا بخُلُق محمد ﷺ، فكيـف يأتى هذا الخلق العظيـم من مجنون ؟ وكيف يصدر السلوك المتصف بالسلامة والصلاح والخير من مجنون ؟

كانـت كل اتهاماتهـم إذن لرسول الله تنبع مـن إصرارهم على الكفر ، لا من واقـع لمسوه ، فـكلُّ ما قالوه فى رسول الله هم أول النـاس الذين شهدوا عكسه ولمسوا نقيضه .

فالخلـق العظيم يتنافى مع الجنون ، وكذلك فعل كل قوم مع رسولهم ، إنهم رموه بالسفه والجنـون ، فكلما جاء رسـول لقومه بمنهج حـقٍّ ليطمس معالم

الباطل قابله قومه بمثل تلك المقابلة .

فالخلق العظيم معناه الخلق المضبوط بالقيم ، وخلق رسول الله ﷺ مضبوط بالقيم حتى صار ملكةً وليس أمراً افتعالياً ، وحين يقول الناس عن إنسان إنَّ خلقه الكرم أى تأصلتْ فيه صفة الكرم تأصُّلاً بحيث أصبحت تصدر عنه أفعال البذل بيُسْر وسهولة ، وفى أعمال المعانى نسميها خُلقاً ، وفى أعمال المادة نُسميها آلية .

فأنتم تقولون عن الرسول : إنه مجنون فاجلسوا مثنى أو فرادى وادرسوا تصرفاته ستجدون أنها تصرفات منطقية مبنية على خلق كامل مكتمل ، وهو سلوك يختلف بالتأكيد عن سلوك المجنون ، لأن المجنون لا ضابط له فى حركاته ولا فى سكناته ولا فيما يدع .

لقد كان خلق رسول الله خلقاً عظيماً ، لأن الخلق هى الصفات التى تؤهل الإنسان لأنْ يعيش فى مجتمع سليم وهو مسالم ، وما دام خُلقه سليماً فمعيار الحكم عنده سليم .

والحق سبحانه يقرن بين العقل والخلق ، فيقول : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) ﴾ [القلم]

ويُقال : فلان على خُلق أى يملك من الصفات ما يجعله على الجادّة من الفضائل مثل الصدق والأمانة ، وهذه صفات ينظمها فى مواقفها الفكر العقلى، وهو الذى يميز لنا أى المواقف تحتاج إلى شدة أو لين أو حكمة ، وكلّ هذه أمور يرتبها العقل .

والخلق الرفيع لا يصدر عن مجنون لأنه لا يعرف كيف يختار بين البدائل ، لذلك لا نحاسبه نحن ولا يحاسبه الله أيضاً ، والخلق العظيم لا يكون فى مجنون لأن الخُلق الفاضل لا يُوضع إلا فى مكانه ، بدليل قوله تعالى : ﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) ﴾ [القلم]

فالحق سبحانه نفى عن رسول الله صفة الجنون ، وأثبت له صفة الخلق العظيم ، والمجنون لا خلق له ، ولا يُحاسب على تصرفاته فهو يشتم هذا ويضرب هذا ويبصق فى وجه هذا ، ولا نملك إلا أنْ نبتسم فى وجهه ونشفق عليه .

ولقائل أنْ يقول : كيف يسلب اللهُ إنساناً نعمة العقل ، وهو الإنسان الذى كرّمه الله ؟ وكيف يعيش هكذا مجرد نسخة لإنسان ؟

ولنعلم الحكمة من هذه القضية علينا أنْ نقارن بين حال العقلاء وحال المجنون ، لنعرف عدالة السماء وحكمة الخالق سبحانه ، فالعاقل نحاسبه على كل كبيرة وصغيرة ومقتضى ما تطلبه من عظمة فى الكون ، ومن جاه وسلطان ألاَّ يعقِّب على كلامك أحد وأنْ تفعل ما تريد .

ألا ترى أن المجنون كذلك يقول ويفعل ما يريد ، ثم يمتاز عنك أنه لا يُسأل فى الدنيا ولا فى الآخرة ؟ أليستْ هذه كافية لتعوِّضه عن فَقْد العقل ؟ فلا تنظر إلى ما سُلب منه ، ولكن إلى ما أعطاه من ميزات فى الدنيا والآخرة .

والمخبول تتأتى منه حركات وأقوال دون أن تمر على العقل الواعى الذى يختار بين البديلات ، فلا يكون له سيطرة على إرادته ولا على خلقه ، فهل عهدكم بمحمد أنْ كان مخبولاً ؟ هل رأيتم عليه مثل هذه الصفات ؟

لذلك ردَّ الله سبحانه عليهم هذا الافتراء بقوله تعالى : ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (٥) ﴾ [القلم]

والمجنون لا يكون على خلق أبداً ، فالمجنون ليس له خلق ، فالخلق هو الملَكة المستقرة للخير ، فكيف يكون محمد مجنوناً وهو على خلق عظيم ؟ ثم هل جرَّبتم عليه شيئاً مما يفعله المجانين ؟

فكيف يكون ذو الخلق مجنوناً ؟ ولو كان ﷺ مجنوناً فلماذا استأمنوه على ودائعهم ونفائسهم واطمأنوا إليه وسمَّوه الصادق الأمين ؟ إنهم ما فعلوا ذلك إلا لأنهم يعلمون خلقه ، وأنه محكوم بقيم من الحق والخير لا تتزحزح .

والأخلاق مقاييسها واحدة ، فقيسوا محمداً بأخلاقه ، لا بالدين والرسالة التى جاء بها ، انظروا إلى خُلُقه فيكم ، ولن يستطيع واحد منكم أنْ يتهمه فى خُلقه بشيء ، وما دام لا يُتهم فى خُلقه فلا يُتّهم كذلك فى عقله ، لأن العقل هو ميزان الخلق وأساسه .

لذلك يخاطب الحق سبحانه نبيه محمداً ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) ﴾ [القلم]، فخُلقك العظيم أكبر دليل على أنك لست مجنوناً ، فأنت يا محمدُ بريء من هذه التهمة .

ففاقد العقل لا يمكن أنْ يكون منطقياً فى تصرفاته ولا فى كلامه ، ومحمد ﷺ ليس كذلك ، فأنتم تعرفون خلقه وأمانته ، وتسمونه « الصادق الأمين » ، وتعترفون بسلامة تصرفاته وحكمته ، فكيف تقولون عنه مجنون ؟

والخلق يسوى تصرفات الإنسان فيجعلها مُسْعدة غير مفسدة ، فكيف إذن يكون ذو الخلق مجنوناً ؟ إذن ليس محمد مجنوناً ، وما كان محمد ليكون صاحبَ خلق عظيم مع الناس ، ثم يكون غير سويّ التصرفات ؟

وقد قال سعد بن هاشم بن عامر : أتيت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، فقلت : أخبرينى بخلق رسول الله . قالت : كان خلقه القرآن ، أما تقرأ القرآن قول الله عز وجل : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) ﴾ [القلم][1]

ولقد كان خلق رسول الله خلقاً عظيماً ، لأن الخلق هو الصفات التى تؤهل الإنسان لأنْ يعيش فى مجتمع سليم وهو مسالم ، وما دام خُلقه سليماً فمعيار

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٤٦٠١) والبخارى فى كتاب (الأدب المفرد) (٣٠٨) وكذا فى كتاب (خلق أفعال العباد) (٨٧/١) من حديث عائشة رضى الله عنها .

الحكم عنده سليم .

فعندما يُقال : فلان على خلق . أى : يملك من الصفات ما يجعله على الجادَّة من الفضائل مثل الصدق والأمانة ، وهذه صفات ينظمها فى مواقفها الفكر العقلى ، وهو الذى يميز لنا أىَّ الموقف تحتاج إلى شدة أو لين أو حكمة ، وكل هذه أمور يرتبها العقل .

وإذا كانت أم المؤمنين عائشة قد قالت عن رسول الله : « كان خلقه القرآن » فإن زوجه السيدة خديجة قالت عنه ﷺ فى بداية الإسلام وعند بدء الوحى تصف رسول الله وتصف أخلاقه ، فقالت تشجعه وتؤازره : « والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم، وتقرى الضيف ، وتحمل الكلَّ ، وتعين على نوائب الدهر »[1] .

فأنت تصل رحمك وعشيرتك وأهلك وتطعم الضيف وتعين الضعيف واليتيم على نوائب الدهر ومصائبه ، فكيف يخزيك الله ويتخلَّى عنك ؟

فها هى خديجة صدَّقت به ولم تكُنْ سمعت القرآن ، وما أنْ أخبرها رسول الله ﷺ بمخاوفه من أنَّ ما يأتيه قد يكون جناً ، فقد بادرت رضى الله عنها وأرضاها إلى الإيمان به دون أنْ تسمع منه آية واحدة ، وكذلك الصِّديق أبو بكر وغيرهما من المؤمنين الأوائل .

لماذا ؟ لأنهم بنوْا على تاريخه السابق واعتمدوا على سيرته فيهم قبل الرسالة ، فعلموا أن الذى لا يكذب على الناس مستحيل أنْ يكذب على رب الناس .

وها هو أبو بكر الصديق رضى الله عنه يصدق أن محمداً رسول من الله فوْر أن يخبره بذلك ، وعندما علم بحادثة الإسراء والمعراج بادر بالتصديق ولم

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦٠) كتاب الإيمان ، والبخارى فى صحيحه (٣) من حديث عائشة رضى الله عنها . والكلّ هو العاجز الثقيل لا خير فيه . وتقرى الضيف : أى تكرم الضيف ، والنوائب جمع نائبة وهى ما بالإنسان من الملمات والمصائب والحوادث . [لسان العرب - مادة : ندب] .

يتردد ، ولما سُئل عن ذلك قال : إننا نصدِّقه فى الأمر يأتى من السماء ، فكيف لا نصدقه فى هذه ، فإن كان قال فقد صدق(١).

وهكذا نجده ﷺ قد امتلك سماتاً وقد صاغ الله لرسوله أخلاقاً ، تجعل مَنْ حوله يصدقون كلَّ ما يقول فور أنْ ينطق ، وكما قال رسول الله : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى »(٢) ، فرسول الله هو الذى بلغ المرتبة العليا فى التربية والأدب ، وهى تربية حقَّة لأن الله تعالى هو الذى ربَّاه وأدَّبه أحسنَ تأديب .

وقد كان من صفاته وأخلاقه ﷺ أنه إذا جلس فى مجلس توزعتْ نظراتُ عينه على كل الجالسين حتى يُسوِّى بينهم ولا ينظر لأحد أكثر من الآخر ، ولا يميز أحداً منهم على أحد ، حتى لا يظن أحدهم أن النبى فضَّله على غيره .

وكان رسول الله لا يقرِّب إلا أهل الفضل والتقوى الذين يعرف منهم أنهم لا يستغلون هذه المكانة لنيل سلطة بين الناس .

وكان رسول الله إذا وضع يده فى يد أحد الصحابة يسلم عليه لا ينزع يده منه حتى يكون هو الذى ينزع يده من يد رسول الله(٣) ، وهذا أدب عالٍ من أدب الحق تبارك وتعالى له .

---

(١) قالت عائشة : لما أسرى بالنبى إلى المسجد الأقصى أصبح الناس يتحدثون بذلك فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه وسعوا بذلك إلى أبى بكر فقالوا : هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس . قال : أو قال ذلك ؟ قالوا : نعم قال : لئن كان قال ذلك لقد صدق . قالوا : أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ؟ قال : نعم إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك وأصدقه بخبر السماء فى غدوة وروحة ، أخرجه الحاكم فى مستدركه (٦٢/٣) وصححه وأقره الذهبى.

(٢) حديث : أدبنى ربى فأحسن تأديبى . قال ابن حجر العسقلانى فى الإمتاع بالأربعين المتباينة السماع (٩٧/١) : أخرجه العسكرى ضعيف فى الأمثال فى أول حديث وسنده غريب وقد سئل عنه بعض الأئمة فأنكر وجوده ، وذكره السيوطى فى ضعيف الجامع الصغير (٢٤٩) وعزاه لابن السمعانى فى أدب الإملاء عن ابن مسعود وضعفه الألبانى .

(٣) أخرج ابن ماجه فى سننه (٣٧١٦) وابن المبارك فى الزهد (٣٩٢) عن أنس بن مالك قال : كان رسول الله إذا لقى الرجل فكلَّمه ، لم يصرف وجهه عنه حتى يكون هو الذى ينصرف ، وإذا صافحه لم ينزع يده من يده حتى يكون هو الذى ينزعها ، ولم يُر متقدماً بركبتيه جليساً له قط » .

ولقد كان رسول الله يجلس حيث انتهى به المجلس ، وكذلك كان صحابته فلا أحدَ يجلس دائماً بجانبه حتى لا يأخذ أحد من مكانته عند الرسول فرصة يتخيل معها الآخرون أنه صاحب حظوة فكلُّهم سواسية .

ويضيف علىّ كرم الله وجهه فى وصف مجلس رسول الله وخلقه فيه ، فيقول: « وكان إذا ذهب إلى قوم جلس حيث انتهى به المجلس ، وكان يجلس على الأرض ويأكل على الأرض : يعتقل الشاة أى يحلبها ويجيب دعوة المملوك»[1].

أهناك أدبٌ أكثر من هذا ؟ إنه الرسول الكريم ، يجلس حيث ينتهى به المجلس، لقد أراد أنْ يضرب لنا المثل حتى تتنوع اللقاءات ، فاليوم قد يجلس مؤمن بجانب اثنين جاء كل منهما من مكان آخر ، وهكذا تتحقق اندماجية الإيمان بتنوع اللقاءات .

وانظر إلى عظيم خلق رسول الله وأدبه رغم كونه نبيَّ الله ورسوله ، فقد كان يحمل حاجته بنفسه ، فإنْ عرض عليه أحدُ صحابته أنْ يحملها عنه قال : صاحبُ الشيء أولَى بحمله[2]. وهذا دليل تواضعه ﷺ وعدم تكبُّره .

ومما قاله أنس بن مالك مولى رسول الله الذى كان يخدمه وعشق خدمته ﷺ : « لقد خدمتُ رسول الله عشْر سنين ، فما قال لشيء فعلته : لم فعلته ؟ ولا

---

(١) عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يجلس على الأرض ويأكل على الأرض ويعتقل الشاة ويجيب دعوة المملوك على خبز الشعير ، أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٢٤٩٤) والبيهقى فى شعب الإيمان (٧٨٤٣) .

(٢) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٥/١٢٢) من حديث أبى هريرة وقال : « رواه أبو يعلى والطبرانى فى الأوسط وفيه يوسف بن زياد البصرى وهو ضعيف » . قال العجلونى فى كشف الخفاء (٢/٢٥) : ذكره القاضى عياض فى الشفاء بدون عزو وهو ضعيف : بل بالغ ابن الجوزى فعدَّه فى الموضوعات. وخطّأه الملا على القارى فى « الأسرار المرفوعة » (حديث ٥٥٣) ..

لشيء تركته : لم تركته ؟ »[(١)].

وهــذه المعاملــة أثَّرت في زيد بن حـارثــة كثيراً ، حتى أنــه عندما جاء أهله ليأخذوه لم يقبل أنْ يترك رسول الله ، فقد كان زيد من بنى كلب ولكن اللصوص سرقـوه من أهله وادعـوا أنه عبد فباعوه في سوق الرقيـق ، فـاشتراه حكيم بن حـزام لحسـاب السيدة خديجـة ، وعندما تزوجهـا رسول الله أهـدتْ له زيد بن حارثة خادماً له .

وفي يـوم مـن الأيـام رآه أحدُ بنـي كلب فِي طرقـات مكة ، فأخـبر أهله به فأسـرع أبـو زيد إلى مكة يبحث عن ولده ، فدلُّوه عليه ، وأنه عند محمد ، فذهب إلى سيدنـا رسول الله ، وأخبره خبر ولده ، وطلب منه أنْ يعود معه إلى بني كلب .

ولكن ، مـا كـان رسول الله ليتخلَّى عن خـادمه الذى يحبه كل هذا الحب فقال لأبيـه : خـيِّره ، فإن اختـاركـم فخذوه ، وإن اختـارنى فأنـا لـه أبٌ ، فلما خيَّروه قـال سيدنـا زيد : والله مـا كنتُ لأختـار على رسول الله أحداً[(٢)].

ومــا كـان هذا من زيد إلا لأدب رسول الله معه وخلقه العظيم الكريم ، وهو ممـا أدَّبه ربه عز وجل الـذى قـال له : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ منَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِـنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ (١٥٩) ﴾ [آل عمـران]

كأنَّ الحق سبحـانه يقول : إن طبيعتك يـا محمد طبيعة تتنـاسب مع مـا يُطلب منك فيِ هذه المسألة ، هم خالفوك وهم لم يستجيبوا لك حينمـا قلت : إليَّ عبـاد الله ، إلى عبـاد الله إنى رسول الله .

وهذا شيء يُحفظ ويُغضب ، ولكنه لا يُحفظ طبيعتك ولا يُغضب سجيتك لأنك مفطور مع أمتك على الرحمة .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده من حديث أنس بن مـالك (١٣٠٢١ ، ١٣٠٣٤) وكذا البزار فى مسـنده (٦٣٨٦ ، ٧١٢٢) وابن حبان فى صحيحه (٢٨٩٣ ، ٢٨٩٤) والبيهقي فى شُعب الإيمان (٨٣٨٣) ولفظه: « خدمت رسول الله فما قـال لشيء فعلته : لم فعلته ؟ ولا قال لشيء كسرته : لم كسرته ؟ » .

(٢) أورده ابن حجر العسقلانى فى كتاب « الإصابة فى تمييز الصحابة » (ترجمة رقم ٢٨٨٤) فى ترجمة زيد بن حارثة الكلبى .

فكأنه يريد أنْ يُحنِّن رسول الله على أمته التى أصابته بالغم ، فقال له : إياك أنْ تُجازيها على هذا ، لأن طبيعتك أنك رحيم وطبيعتك أنك لستَ فظاً ، طبيعتك أنك لستَ غليظ القلب ، فلا تخرج عن طبيعتك فى هذه المسألة .

فبالرحمة المودعة مِمّن خلقك فيك والتى تناسب مهمتك فى الأمة لِنْتَ لهم ، وما دامت تلك طبيعتك فلِنْ لهم فى هذا الأمر واعْفُ عنهم واستغفر لهم .

فأنا أطلب منك الرحمة التى أودعتها فى قلبك فاستعملها فى كلِّ مجال ، وبهذه الرحمة لنْتَ لهم ، وبهذه الرحمة التفوا حولك لأدبك الجمِّ ولتواضعك الوافر ، لجمال خُلقك ، لبسمتك الحانية ، ونظرتك المواساة ، ولتقديرك لظرف كل واحد حتى إنك إذا وضع أىّ واحد منهم يده فى يدك لم تسحب يدك أنت حتى يسحبها هو ، خُلق عالٍ .

كل ذلك أنا أجعله حيثية لتتنازل عن كل تلك الهفوات ، وليسعها خلقك وليسعها حلمك ، لأنك فى دور التربية والتأديب ، وهما يقتضيان ألاَّ تغضب لأىِّ بادرة تبدر منهم ، وإلا ما كنت مُربياً ولا مؤدباً .

إنها رحمةٌ طبعتَ عليها يا رسول الله من الحق الذى أرسلك وبالرحمة لنتَ لهم ، وظهر أثر ذلك فى إقبالهم عليك وحُبهم لك ، لأنك لو كنت على نقيض ذلك لما وجدت أحداً حولك . إذن : فالسوابق تثبت أن هذه هى طباعك ، وخُلقك هو الرحمة واللين .

ومن هذه الرحمة والسماحة التى كانت خُلقاً فطرياً فى رسول الله موقفه من أهله أهل مكة يوم فتح مكة ، فحين تمكَّن من الذين أساءوا إليه قال عندما دخل مكة : « يا معشر قريش ما ترون أنِّى فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء »[1].

فرغم أنهم عاندوه وتكبّروا على الحق وأخرجوا رسول الله من أحب البلاد

---

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٤١٢) والسهيلى فى الروض الأنف (٧/٢٣٢) ، وابن سيد الناس فى عيون الأثر (٢/٢٢٦) وذلك أن رسول الله وقف على باب الكعبة فقال : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يُدعى فهو تحت قدمىَّ هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ (١٣) ﴾ [الحجرات] » .

إليه ، وها هو اليوم يدخلها منتصراً ، ولكن الحق لم يأت لاستعباد الناس ولكن لراحتهم ورفع رءوسهم ، لقد كان فى استطاعة رسول الله بعد أنْ تمكّن من كفار مكة أنْ يقضى عليهم جميعاً .

ولكنه لخلقه العظيم قال لهم : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » فأىّ رحمة هذه؟ وأىّ لين هذا الذى جعله الله فى قلبه ﷺ ؟ وهل مثل هذا النبى يُعارَض ويُنصَرف عنه ؟

فعلى الرغم من عداوة وشراسة مَنْ صادموا دعوته ﷺ ومحاولتهم إيذاءه بكل طريق ، فكان ﷺ لا يكفّ عن الدعاء لهم فيقول : « اللهم اهْد قومى فإنهم لا يعلمون »[١] ، وكان لا يكف عن قول : « لعل الله يُخرج من أصلابهم من يعبد الله »[٢] وقد تم ذلك بالفعل .

وقد كانوا على علم كامل بتاريخه وأخلاقه ، وسلوكه يعرفون حركاته وسكناته ، لقد حاربوه حرباً شعواء وحاربوا وعذَّبوا الضعفاء من المؤمنين به، ورغم هذا كان يُوصى أتباعه أنْ يصلوا أرحامهم ومعاملتهم بالخُلق الحسن رغم كفرهم .

وها هى ذى أسماء بنت أبى بكر الصديق وأمها « قُتيْلة »[٣] كانت ما زالت

---

(١) لما كسرت رباعية رسول الله وشج وجهه يوم أحد شق ذلك على أصحابه وقال : « لو دعوت عليهم فقال : إنى لم أبعث لعاناً ولكنى بعثت داعياً ورحمة ، اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون » . أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان بهذا اللفظ عن عبد الله بن عبيد وقال : مرسل ، ثم أخرجه مختصراً « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون» فحُسب موصولاً عن سهل بن سعد . [مناهل الصفا فى تخريج أحاديث الشفاء ١/ ٦٠] .

(٢) لما خرج رسول الله إلى الطائف دعاهم إلى الله تعالى فردوا عليه رداً عنيفاً وكذَّبوه ورموه بالحجارة حتى أدموا رجليه ، فرجع رسول الله مهموماً فلم يستفق من همومه إلا عند قرن الثعالب ، فناداه ملك الجبال فقال : يا محمد إن الله يقرئك السلام وقد سمع قولة قومك وما ردوا عليك فإن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فعلت ، فقال ﷺ « بل أستأنى بهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله » (أورده السهيلى فى الهدى والرشاد ٥/ ٤٠٩) » .

(٣) هى : قُتيلة بنت عبد العزى بن عامر بن لؤى ، قرشية زوجة أبى بكر الصديق وأم أسماء بنت أبى بكر وعبد الله بن أبى بكر طلقها أبو بكر فى الجاهلية فقدمت إلى ابنتها بهدايا فلم تقبلها وأبت أن تدخلها لأنها كانت مشركة ثم أسلمت وهاجرت إلى المدينة .

كافرة ، وتسأل أسماء رسول الله ﷺ أن تعطى من مالها شيئاً لأمها حتى تعيش وتقتات ، فسألت أسماء رسول الله : أفأصل أمى ؟ قال : نعم صلى أمك[1] .

ذلك هو سمو الخلق الإسلامى ، فهو ﷺ يُعدّى هذه المعاملة الحسنة حتى إلى الكفار ، بل وأكثر من ذلك إنْ كان الوالدان كافرين ليس ذلك فحسب بل ويدعوان الابن إلى الكفر ويجاهدانه عليه .

وما قالت عائشة رضى الله عنها أن رسول الله كان خلقه القرآن إلا بعد أنْ خبرتْ خُلقه وأدبه ، فقد كانت أم المؤمنين عائشة تغار حتى من ذكر خديجة أم المؤمنين ، فقد دخلتْ فاطمة بنت محمد على أبيها مغضبة ، فقال ﷺ :

« ما أغضبك يا أم أبيها ؟ » فقالت : والله إن عائشة قالت لى : إن رسول الله تزوج أمك ثيباً . ولم يتزوج بكراً غيرى . فقال لها رسول الله : إذا أعادت عليك هذا القول ، وانظر هنا إلى أدب النبوة فى الرد وسرعة الخاطر فقولى لها : ولكن أمى تزوجت رسول الله وهو بكر ، وتزوجتيه أنت وهو ثيب »[2] .

هذا كلام النبوة ، ومن بعدها لم تُعدها عائشة مرة أخرى .

ومن عظيم خُلقه ﷺ أنه أوصى أصحابه فقال : « لا يبلغنى أحد عن أحد

---

(١) أخرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده (١٧٤٨) ، وأحمد فى مسنده (٢٦٩١٥ ، ٢٦٩٣٩) والسنن المأثورة للشافعى (٥٢٩) والطبرانى فى معجمه الكبير (٢٠٣ ، ٣٤٢) . والبخارى فى صحيحه (٢٦٢٠) وكذا مسلم فى صحيحه (١٠٠٣/٥٠) .

(٢) لقد كانت عائشة تغار من خديجة رضى الله عنها رغم أن رسول الله ﷺ ما تزوج عائشة إلا بعد وفاة خديجة ومن هذا ما أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٤٣٧) باب فضائل خديجة أن عائشة قالت لرسول الله : ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين ، هلكت فى الدهر ، أبدلك الله خيراً منها فتغيَّر وجهه ﷺ وزجر عائشة غاضباً ، والله ما أبدلنى الله خيراً منها : آمنت بى حين كفر الناس ، وصدَّقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى منها الله الولد دون غيرها من النساء .

من أصحابى شيئاً ، فإنى أحب أنْ أخرج إليكم وأنا سليم الصدر »[1] أى : بدون انقباض عن أحد حتى يتجلى نوره على الجميع ، لعلَّ شعاعاً من النور يمسّ عاصياً أو منافقاً فيتوب إلى الله ويعود إلى الإيمان الصحيح .

بل إن رسول الله كان ذا حسٍّ عالٍ ، وانظر إليه ﷺ وهو يوصى بالجار ، فيقول : الجيران ثلاثة : فجار له حَقٌّ واحد وهو أدنى الجيران حقاً ، وجار له حقّان ، وجار له ثلاثة حقوق ، فأما الذى له حق واحد فجار مشرك لا رحم له، له حَقُّ الجوار .

وأما الذى له حقّان فجارٌ مسلم له حَقُّ الإسلام وحقُّ الجوار ، وأما الذى له ثلاثة حقوق فجارٌ مسلم ذو رحم ، له حق الإسلام وحق الجوار وحق الرحم [2].

وهذا امتثالٌ للخلق الذى أمر به القرآن ، فقد قال تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ (٣٦) ﴾ [النساء]

حتى أنه ﷺ قال : « ما زال جبريل يُوصينى بالجار حتى ظننتُ أنه سيورثه»[3] وقد كان هَمّ رسول الله أنْ يتواصل المسلمون مع بعضهم البعض بإحساس عالٍ وخلق عظيم ، فقال لأبى ذر : «يا أباذر إذا طبخت مرقة فأكثر

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣٧٥٩) والبزار فى مسنده (٢٠٣٨) والبيهقى فى شعب الإيمان (١٠٥٩٧، ١٠٥٩٨) وأبو داود فى سننه (٤٨٦٠) والترمذى فى سننه (٣٨٩٦) والبيهقى فى سننه الكبرى (١٦٦٧٥) من حديث ابن مسعود وتمامه : فأتى رسول الله مال فقسمه ، فسمعت رجلين يقولان : هذه القسمة التى قسمها لا يريد الله بها ولا الدار الآخرة ثم أتيت النبى فقلت : يا رسول الله إنك كنت قلت (وذكر الحديث) وإنى سمعت فلاناً وفلاناً يقولان كذا وكذا فاحمر وجه رسول الله وقال : دعنا منك فقد أوذى موسى بأكثر من هذا فصبر . .

(٢) أخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق (٢٤٧) والطبرانى فى مسند الشاميين (٢٤٣٠) والبيهقى فى شعب الإيمان (٩١١٣) عن عبد الله بن عمرو بن العاص .

(٣) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠١٤ ، ٦٠١٥) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٦٢٥/١٤١) من حديث عائشة رضى الله عنها . وكذا أحمد فى مسلم (٢٤٢٦٠ ، ٢٦٠١٣) .

ماءها وتعاهد جيرانك »[1].

هذا هو رسول الله ، وهذا هو خلقه العظيم ، فقد كان خلقه القرآن ، وهو ﷺ يجسد لنا مثلاً حياً للمؤمن الذى قال عنه : «إن مثل المؤمن كمثل النحلة أكلتْ طيباً ووضعتْ طيباً »[2].

لقد كان رسول الله قرآناً يمشى على الأرض ، وقد كان تطبيقاً كاملاً للمنهج الذى جاء به من الحق تبارك وتعالى ، وهو أسوة سلوك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (٥) بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ (٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ (٧) فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ (٨) وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩) ﴾

فسترى يا محمد وسيرى أهل مكة إذا نزل بهم العذاب ببدر ، هؤلاء الذين ادعوا أنك مجنون ، فستبصر فى الدنيا عاقبتهم وسيبصرون جزاءهم ، وأنهم سيصيرون ذليلين ملعونين ، وسيبصرون أنك ستصير معظماً فى القلوب .

والبعض من العلماء جعل هذا إبصاراً لأحوالهم يوم القيامة وعاقبتهم فى الآخرة ، وقد قال تعالى فى آية سورة القمر : ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ[3] الْأَشِرُ (٢٦) ﴾ [القمر]

(١) عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يا أبا ذر إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٢٥/١٤٢) باب الوصية بالجار . وقد أخرجه ابن ماجه فى سننه (٣٣٦٢) ولفظه « إذا عملت مرقة فأكثر ماءها واغترف لجيرانك منها » . وقد أخرجه أحمد فى مسنده (٢١٤٢٨) بلفظ : « إذا صنعت مرقة فأكثر ماءها ثم انظر أهل بيت من جيرانك فأصبهم منه بمعروف » .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٦٨٧٢) والبيهقى فى سننه (٥٣٨٢) والحاكم فى مستدركه (٢٥٣) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص .

(٣) الكذاب الأشر : الذى لا يبالى ما قال . وقال البيضاوى فى تفسيره (١٦٦/٥) : الكذاب الأشر الذى حمله أشره على الاستكبار عن الحق وطلب الباطل .

والحق سبحانه سبق الكلام عن حدث إبصار العاقبة والمآل أى المستقبل بحرف (السين) ، كأنْ نقول (سيعلمون) وهذا عن المستقبل القريب ، أما عن المستقبل البعيد فتأتى كلمة (سوف) . فـ (سوف) تأتى لتدلّ على أوسع مدىً زمنيٍّ .

ولذلك فالآية تحتمل الأمرين ، أنهم سيروْن عاقبة أمرهم فى الدنيا ثم فى الآخرة ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (٢٢٧) ﴾ [الشعراء]

أى سيعلمون مرجعهم ونهايتهم كيف تكون ؟ والمنقلب هو المرجع والمآب والمصير الذى ينتظرهم .

وستبصرون يوم القيامة وتعلمون أن المجنون كان فيكم ، لا فى رسول الله وأصحابه ، وستعلمون فى أىِّ الفريقين المجنون ، فى فريقك أم فى فريقهم ؟

وقول الحق سبحانه ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (٥) ﴾ [القلم] معلّق بالاستفهام بعده لأنه فعلٌ بمعنى الرؤية . وقد تأتى أبصر بمعنى علم وأدرك فالبصر يُقال للجارحه الناظرة . ويُقال أيضاً لقوة القلب المدركة .

فالمعنى على هذا : ستعلم ويعلمون يوم القيامة حين يتبين الحق من الباطل .

﴿ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ (٦) ﴾

فستعلم يا محمد وسيعلم مخالفوك ومكذّبوك مَن المفتون الضال منك ومنهم . ومعنى المَفتون الذى قد افتُتن عن الحق وضلَّ عنه . والمفتون مفعول بمعنى المصدر أى الجنون والضلال ، أى بأيّكم الجنون والضلال؟ .

ولنا هنا وقفة لفظية مع قولِه تعالى : (بأييكم) لأن السياق كان من الممكن أنْ يكون : أيّكم المفتون . أى أيُّكم المجنون .

فالفهم السطحى للأسلوب قد يتساءل : لماذا جاءت الباء هنا ؟ والبعض

قال : إن الباء هنا زائدة . ونقول :إياك أن تقول إن فى كلام الله حرفاً زائداً ، لأن معنى ذلك أن المعنى يتم بغير وجوده ويكون فضولاً وزائداً على الحاجة ولافائدة فيه .

ولكن عليك أنْ تقول : أنا لا أفهم لماذا جاء هذا الحرف . والعربى قديماً سمع القرآن ساعة نزوله ، وسمعوا قول الحق سبحانه :﴿ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ (٦) ﴾ [القلم]، ولم يعترض واحد منهم ولم يقل واحد منهم أن وجودَ الباء هنا خروجٌ عن الأسلوب الصحيح للغة .

فلو كان هناك حرفٌ واحد خارج عن مألوف وصحيح اللغة لصرخوا بها وأعلنوها ، والحق سبحانه قد تحداهم أنْ يأتوا باختلاف واحد فى القرآن أو بمطعن واحد فيه ، ولم يقُل واحد منهم إن فى القرآن لحناً ، وهذا دليل على أن الأسلوب القرآنى يتفق مع الملكة العربية .

وقوله الحق ﴿ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ (٦) ﴾[القلم] هى فى الأصل : فتبصر ويبصرون أيّكم المفتون . أى أيُيكم الضال المجنون ، ولكن الباء جاءت هنا لتؤدى معنى آخر ، فـ (مفتون) أى مفعول بمعنى المصدر أى : بأيّكم الجنون أو الضلال .

والبعض قال : أى بأيّكم الشيطان ؟ فالشيطان هو المفتون الذى إن اتبعه شخصٌ وأصبح كالساكن فى روحه فيكون متلبساً به ، لذلك قال : بأييكم المفتون ، أى فالشيطان هو الذى يسبب الضلال والجنون للإنسان .

ويقول الحق سبحانه عن الذى يمسه الشيطان فيقوم يتخبط كأنه مجنون: ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ (٢٧٥) ﴾ [البقرة]

فالتخبُّط هو الضرب على غير استواء وهدى ، فتقول : فلان يتخبط أى أن حركته غير رتيبة وغير منطقية ، فهى حركة ليس لها ضابط ، ذلك هو التخبط وذلك هو الجنون .

فقوله تعالى : ﴿ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ..(٢٧٥) ﴾

[البقرة] فكأنَّ الشيطان قد مسَّ التكوين الإنسانى مساً أفسد استقامة ملكاته ، فالتكوين الإنسانى له استقامة ملكات مع بعضها البعض .

فكلُّ حركة لها استقامة ، فإذا ما مسَّه الشيطانُ فسد تآزر الملَكات ، فملَكاته النفسية تكون غير مستقيمة وغير منسجمة مع بعضها البعض ، فتكون حركتُه غير رتيبة وغير منطقية .

والباء فى قوله تعالى : ﴿ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ (٦)﴾ [القلم] ليست هى زائدة ، فالزيادة تكون عند البشر لا عند الله ولا يمكن أنْ يكون بالقرآن شئٌ زائد ، فكلُّ كلمة فى القرآن جاءت لمقتضى حال يتحتم أنْ يكون فى هذا الموضع .

فالذى يتكلم هو الله ، وليس فى كلام الله حرف زائد بحيث لو حذفته يصح الكلام ، لا إنك إذا حذفتَ شيئاً فالكلام يفسد ولا يؤدى المراد منه ، لأن لله مراداتٍ فى كلامه ، وهذه المرادات لا بد أنْ يحقِّقها أسلوبه .

ومن العلماء مَنْ قال إن الباء فى قوله ﴿ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ (٦) ﴾ [القلم] بمعنى (فى) أى فى أيكم فى أى طائفة منكم الجنون .

ونلحظ أنَّ الحق سبحانه أشبع ياء (أى) بياء أخرى فكانا ياءين (بأييكم) ، وهذا إشارة أن جنون المشركين بلغ الغاية وتجاوز الحد ، وأنهم المجانين لا أنت ، لأن مثلك يا محمد لا يصح أنْ يُرْمى بالجنون ، فالذى على خلق عظيم لا يكون مجنوناً أبداً ، ومَنْ رماك بالجنون فقد رجع على نفسه بالجنون .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧ ﴾

فالحقُّ سبحانه أعلم بحال هؤلاء الكافرين وأعلم بحالك وحال المؤمنين معك ، فهم مشركون ضالون قد استحوذ عليهم الشيطان ، أما محمد ﷺ وأصحابه فمؤمنون مهتدون .

فربُّك يا محمد هو أعلم بمَنْ ضلَّ عن سبيله كضلال كفار قريش عن دين الله وطريق الهدى ، وهو سبحانه أعلم بمن اهتدى فاتبع الحق كما اهتديتَ أنت فاتبعتَ الحق .

إنَّ ربك يا محمد هو أعلم بمن أخطأ الطريق عن دينه ، وهو أعلم بالمهتدين لدينه ، فالله يعلم المهتدى والضال ، والمؤمن والكافر ، ولا يخفى عليه شيءٌ من أمرهم .

ولكن مَنْ هو (من ضلَّ عن سبيله) ، مَنْ ضل عن سبيله هو الذى ضلَّ الطريق فاتخذ منهجاً غير منهج الله ، ومشى فى الضلالة بعيداً عن الهدى وعن دين الله .

أى أنه تاه فى الدنيا فأصبح ولياً للشيطان وابتعد عن طريق الله المستقيم ، هذا هو الضال .

وهو إنما ضلَّ عن سبيله ، فغاية الإسلام أنْ تتبعوا السبيل الذى حدده الله لنا ، لأن سبيل الله هو الموصِّل حقيقةً للغاية التى نبتغيها ، فسُبلكم أنتم لا تُوصلكم إلىَّ لأنكم حددتموها بغاياتكم أنتم .

أما أنا فقد حدَّدتُ السبيل بغايتى ، فمَنْ أراد أنْ يصل إلىَّ فليتبع سبيلى ومنهجى لتهتدوا .

وكلمة (السبيل) أمر حسىّ ، والحق سبحانه يستعمله ليدلنا على المعنى العقدى والمعنوى ، فيوضحه لنا بأمر حسى أمامنا ، وعندما توجد فى مفترق طرق وتريد أنْ تصل إلى المنطقة الفلانية فانحرافك بمقدار ملليمتر واحد فى بداية الطريق يُبعدك عن الهدف ، وكلما امتدَّ بك السير اتسع المشوار وتبعد المسافة فأنت تتوه .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ (١٥٣) ﴾ [الأنعام]

والحق سبحانه إنما يهدى لطريق الحق والهدى بالقرآن ، يقول

تعالى :﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٦) ﴾ [المائدة]

فالرسول نور والكتابُ مبين للحق والهدى ، والحق سبحانه يهدى من اتبع منهجه وهداه ، يهديهم سبل السلام ، فهناك رضوانٌ مُتبع ، وكأنَّ اتباع الرسول النورَ الذى جاء بالكتاب المبين هو فى حَدِّ ذاته رضوانٌ من الله ، فالرضا كلّ الرضا لمن اهتدى فاتبع .

ثم تأتى المكافأة ، الهداية إلى سبل السلام ، وسبل السلامُ متعددة ، فهناك سلام نفس مع نفسها ، وهناك سلام نفس مع أسرتها، وهناك سلامٌ مع جماعتها، وهناك سلامُ نفس مع أمتها ، وهناك سلامُ نفس مع العالم ، وسلامُ نفس مع الكون كله ، وهناك سلامُ نفس مع الله .

لذلك فالحق سبحانه يحذر رسول الله ﷺ من إطاعة هؤلاء الضالِّين المكذِّبين، فيقول سبحانه :

﴿ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ⑧ ﴾

فلا تُطع يا محمد المكذبين بآيات الله ورسوله ، فهم كانوا يدعونه إلى دين آبائه ، فأمره الله تعالى أنْ يثبت على دينه ، فلا تطع المكذبين بوحدانية الله تعالى .

والذين كذَّبوا بآيات الله هم الكافرون ، وهم المشركون ، وهم الذين يرفضون الإسلام ويحاربون الدين ، فالتكذيب هو تأبٍّ من المكذِّب ، وهو الوقوف إيجابياً فى موقف الضد والصَّد عن سبيل الله والعمل على إبطال الدعوة إلى الله والقضاء عليها وإيقافها .

وهم لا يصلون إلى مرحلة التكذيب إلا بعد أن تكون قلوبهم قد امتلأت بالضلال ، لذلك يعلنون التكذيب للرسول ويتهمونه بالكذب فى بلاغه عن الله، وأنه أتى بالقرآن من عند الله .

فهم مكذبون فلا تطعهم ولا تتبع أهواءهم ، يقول تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧) ﴾ [الرعد]

لذلك قال الحق سبحانه مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦) ﴾ [الأنعام] ، فما عليك إلا أنْ تبلغ هؤلاء المشركين ما أرسلناك به إليهم ، ولا تتبع أهواءهم التى تقود إلى الضلالة ، فمَنْ يتبع مثل تلك الأهواء ينحرف عن الحق ، ولا يكون من المهتدين .

ولتعلن ذلك عليهم صريحة واضحة ، لذلك قال تعالى : (قل) ، لئلاَّ يظنوا أنَّ هناك مجالاً عندك لمداهنتهم ، أو أن عندك أمراً وسطاً بين الحق والباطل .

لذلك نبَّه الحق سبحانه رسوله فقال :

﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ ﴾

فإياك أنْ يخدعوك أو يُخادعوك يا رسول الله فى شىء ، أو يساوموك على شىء ، مثلما قالوا : نعبد إلهك سنة وتعبد آلهتنا سنة[1] .

وقد قطع الحق سبحانه هذا الأمر بأنْ أنزل : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) ﴾ [الكافرون]

وهذا هو قطع العلاقات التام فى تلك المسألة التى لا تقبل المساومة ، وهى العبادة ، ونحن نعلم أن العبادة أمرٌ قلبى لا يمكن المساومة فيه ، وقطع العلاقات فى مثل هذا الأمر أمرٌ واجب ، لأنه لا يمكن التفاوض حوله فهى ليست علاقات ظرف سياسى ، ولكنه أمر ربانى يحكمه الحق سبحانه وحده .

---

(١) أخرج الطبرى فى تفسيره (٢٤/٦٦٢) عن ابن عباس أن قريشاً قالت لرسول الله : إنا نعرض عليك خصلة واحدة فهى لك ولنا فيها صلاح . قال : ما هى ؟ قالوا : تعبد آلهتنا سنة اللات والعزى ، ونعبد إلهك سنة قال : حتى أنظر ما يأتى من عند ربى فجاء الوحى من اللوح المحفوظ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) ﴾ [الكافرون] .

وقد قال تعالى : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (٧٣) ﴾ [الإسراء]

وهذه خبيثة من خبائثهم مع رسول الله ﷺ ، فقد كانوا يحاولون جادِّين أنْ يصرفوا رسول الله عمَّا بعثه الله به ، فمرَّة يقولون له : دَعْ آلهتنا نتمتع بها سنة ونأخذ الغنائم من ورائها وتحرم لنا بلدنا أى ثقيف كما حرَّمت مكة. ومرَّة يقولون له : لا تستلم الحجر ويمنعونه من استلامه حتى يستلم آلهتهم أولاً .

وهم يريدون أنْ يتعايش الإيمان والكفر ، لكن الحق تبارك وتعالى يريد قطع العلاقات معهم بصورة نهائية قطعية ، لا تعرف هذه الحلول الوسط .

وقطع العلاقات هنا ليس كالذى نراه مثلاً بين دولتين ، تقطع كلٌّ منهما علاقتها سياسياً بالأخرى ، وقد تحكم الأوضاع بعد ذلك بالتصالح بينهما والعودة إلى ما كانا عليه .

إنما قطع العلاقات مع الكفار قطعاً حتمياً ودون رجعة ، وكأنه يقول لهم : إياكم أنْ تظنُّوا أننا قد نعيد العلاقات معكم مرة أخرى ، لذلك تكرر النفى فى هذه السورة حتى ظنَّ البعض أنه تكرار ، ذلك لأنهم يستقبلون القرآنَ بدون تدبُّر .

فالمراد الآن : لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ، وكذلك فى المستقبل : ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، فلن يرغمنا أحدٌ على تعديل هذا القرار أو العودة إلى المصالحة .

والحق سبحانه يقول :﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩) ﴾ [القلم] والودادة عمل القلب ، وعمل القلب تخضع له جميع الجوارح إن استطاعت فما داموا يودّون منك أنْ تداهنهم فى سبيل أنْ تستمر عبادتهم لأصنامهم وأوثانهم ، فاعلم أنهم لن يؤمنوا .

واعلم أنهم سيقفون فى وجه الدعوة ، وهذا يحقق ما توده قلوبهم وتطلبه إنْ لم تداهنهم فاحذروهم ، سأفضح لكم أمرهم لتكونوا على بينة من كل

تصرفاتهم وخائنات أعينهم وخائنات ألسنتهم .

فإياكم أنْ تأمنوهم على شيء يتعلق بمصالحكم وإيمانكم ، فإنما ودّ المكذّبون بآيات الله لو تكفر بالله يا محمد فيكفرون .

والإدهان إنما هو الملاينة والمصانعة والمقاربة فى الكلام ، فهم يودون يا محمد لو تلين لهم فى دينك بأنْ تُجيبهم إلى ما يريدونه من الركون إلى آلهتهم ، فيلينون لك فى عبادتك إلهك . وقد كان المشركون يحاولون بشتى الطرق صرف رسول الله عن دينه وعن دعوته ، فحاولوا أنْ يشتروه بالسيادة والمُلْك فلم ينجحوا وقال قولته المشهورة : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أنْ أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله أو أهلك فيه ما تركته »(١).

وقد أرسلوا إليه وفداً قالوا : يا محمد إنّا بعثنا إليك لنُعذر فيك ، لقد أدخلتَ على قومك ما لم يُدخله أحد قبلك ، شتمت آلهتنا وسفَّهت أحلامنا ، وسبَبْت ديننا ، فإنْ كنت تريد مالاً جمعنا لك المال حتى تصير أغنانا ، وإنْ كنتَ تريد جاهاً سوَّدناك علينا وجعلناك رئيسنا ، وإنْ كنت تريد مُلْكاً ملّكناك .

فقال ﷺ : « والله ما بى ما تقولون ولكن ربى أرسلنى بالحقِّ إليكم ، فإنْ أنتم أطعتم فبها ، وإلاَّ فإنَّ الله ناصرى عليكم ».

وكانت هذه المحاولة بينهم وبينه ﷺ لعلَّ الأمر حين يكون سراً يتساهل فيه رسول الله ، فلما لم يجدوا بُغيتهم قالوا : نتوسل إليك بمَنْ تحب ، فربما خجل أنْ يقبل منا ونحن خصومه ، فلنرسل إليه مَنْ يحبه .

فذهبوا إلى عمه أبى طالب ، فلما كلَّمه عمه قال قولته المشهورة : والله ياعمِّ لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أنْ أترك هذا الأمر ما

---

(١) بعث أبو طالب إلى رسول الله ﷺ فقال له : يا بن أخى إن قومك قد جاءونى فقالوا لى كذا وكذا للذى قالوا له فأبق عليَّ وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق . فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه وأنه خاذله ومُسلمه ، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه فقال رسول الله : يا عم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته . ثم استعبر رسول الله فبكى ثم قام ، فلما ولَّى ناداه أبو طالب فقال : أقبل يا ابن أخى، فأقبل عليه رسول الله فقال : اذهب ابن أخى فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبداً . [دلائل النبوة ١٨٧/٢] .

تركته حتى يُظهره الله أو أهلك دونه » ولم تنته محاولاتهم ولم تقف جهودهم عن صرف رسول الله عن دينه ، فإذا كان ما سبق يتعلق أيام كان رسول الله فى مكة فى بداية الدعوة ، ولكن حتى لما استتبَّ الأمر للمسلمين لم تقف محاولاتهم ، لذلك قال الحق سبحانه : ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ .. (٤٩) ﴾ [المائدة]

فهم دخلوا عليه بصورة خادعة ، فقد قالوا : نحن جئناك لتحكم لنا ، فإنْ حكمتَ لصالحنا فلسوف نتبعك ، وهذا أمر يبدو فى صورة شىء نافع .

وجاء القول الحق ليحسم هذه المسألة : ﴿ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ .. (٤٩) ﴾ [المائدة] ، وهنا يحذِّر الله رسوله من الفتنة عن بعض ما أنزله إليه سبحانه .

والحذر من هذا هو احتياط الإنسان واحترازه ممن يريد أنْ يُوقع به ضرراً فى أمر ذى نفع ، والذى يرغب الضر قد يزيّن لنفسه ولغيره الشر كأنه الخير ، على الرغم من أن ما فى باطنه هو كل الشر .

فالحذر هو ضرورة الانتباه لمن يريد بالإنسان شراً حتى لا يدخل عليه ضراً فى صورة نفع ، كأنْ يأتى خصمٌ ويقول لك : سأصنع لك كذا . وافعل من أجلى كذا وكذا . يجب عليك هنا أنْ تقول له : لا .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾

كلمة (حلف) هى القسم أو اليمين ، وحين نتمعن فى القرآن نجد أنَّ الحلف لا يُطلق إلا على اليمين الكاذبة ، أما القسَم فإنه يُطلق على اليمين الصادقة واليمين الكاذبة .

فمثلاً عندما نقرأ فى سورة المائدة : ﴿ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ (٨٩) ﴾ [المائدة] ، وما دامتْ هناك كفارة يمين يكون الحلف كاذباً ، لأنَ الذى يستوجب الكفارة هو الكذب .

وإذا استعرضنا بعد ذلك كل (حلف) فى القرآن نجد أنه يقصد بها اليمين الكاذبة ، ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ(١٠)﴾ [القلم]

فالحلف هنا مقصود به القسَم الكاذب ، ولكن إذا قال الحق سبحانه وتعالى (أقسموا) فقد يكون اليمين صادقاً وقد يكون كاذباً .

والحق سبحانه يقول : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ (٦٢)﴾ [التوبة] أى أن هدف الحلف كذباً هو إرضاء المؤمنين حتى يطمئنوا للمنافقين ولا يتوقعوا منهم الشر .

ثم يأتى الحق سبحانه وتعالى بالحقيقة ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ (٦٢)﴾ [التوبة] إذن فهم يحلفون لترضوا أنتم عنهم ، أما المؤمن الحق فهو لا يُقسم إلا ليرضى الله ، لأن الإنسان قد يخدع البشر ، وقد يفلت من عدالة الأرض ، ولكنك لا تخدع الله ولا تفلت من عدالته أبداً .

ومن العجيب أنَّ سورة التوبة فيها أكبرُ عدد من لفظ (يحلفون) ولم ترد مادة (يحلف) فى سورة المائدة إلا مرة واحدة ، وفى سورة النساء مرة ، وفى سورة المجادلة ثلاث مرات .

أما فى سورة التوبة فقد جاءت سبع مرات ، وفى سورة القلم التى معنا جاءت (حلاّف) ، حتى أن سورة التوبة سميت (سورة يحلف) لأن فيها أكبر عدد من (يحلفون) فى القرآن الكريم[١] .

فلا تُطع يا محمد كل ذى إكثار للحلف الباطل ، وقد نزلت فى الأخنس بن

---

(١) وردت كلمة (يحلفون) في سورة التوبة :
- ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢) ﴾ [التوبة] .
- ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا .. (٧٤) ﴾ [التوبة] .
- ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦) ﴾ [التوبة] .

شريق[1] ، والبعض قال إنها نزلت فى حق الوليد بن المغيرة أو الأسود بن عبد يغوث ، والآية لا تخصّ واحداً بعينه بل هى على العموم .

والحلاَّف الكثير الحلف ، وهو مهين أى حقير ، ومعناه هاهنا قلة الرأى والتمييز ، والواجب أنْ يحفظ الإنسان يمينه ، يقول تعالى : ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ (٨٩)﴾ [المائدة] وقد كان العرب يمدحون الإنسان بالإقلال من الحلف .

والحكمة فى الأمر بتقليل الأيمان أن مَنْ حلف فى كل قليل وكثير بالله انطلق لسانه بذلك ، ولا يبقى لليمين فى قلبه وقع ، فلا يُؤمَن إقدامه على اليمين الكاذبة .

والقرآن يفضح أمر هؤلاء الذين يقسمون عن غير صدق فى القسم ، كمَنْ تعوَّد كثرة الحلف والحنث فيه ، لذلك ينهاهم عن هذا الحلف : ﴿قُلْ لَا تُقْسِمُوا (٥٣)﴾ [النور]

ولا يمكن أنْ ينهى المتكلم المخاطب عن القسم خصوصاً إذا أقسم على خير ، لكن هؤلاء حانثون فى قسمهم فهو كعدمه ، فهم يقسمون باللسان ، ويخالفون بالوجدان .

والحق سبحانه أمر رسوله ﷺ بعدم إطاعة كلِّ كثير الحلف ، وأمره بعدم إطاعة أصناف أخرى ، فقال تعالى : ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ (٤٨)﴾ [الأحزاب]

ويقول تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١)﴾ [الأحزاب]

ويقول تعالى : ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨)﴾ [الكهف]

---

(١) الأخنس بن شريق ثقفى ، أسلم يوم فتح مكة وشهد حنيناً وأعطاه رسول الله مع المؤلفة قلوبهم ، توفى فى أول خلافة عمر بن الخطاب [الطبقات الكبرى ١/٢٩٣] قال ابن حجر فى الإصابة (١/١٩٢) : اسمه أبيّ وإنما لقب الأخنس لأنه رجع ببنى زهرة من بدر لما جاءهم الخبر أن أبا سفيان نجا بالعير فقيل خنس الأخنس ببنى زهرة فسمى بذلك .

والطاعة استجابة للأمر فى (افعل) والنهى فى (لا تفعل) ، وهم قد طلبوا منه أنْ يجمعهم مع المستضعفين فى مجلس واحد ، ولكن الله أراده أنْ يكرم هؤلاء القوم المستضعفين بعد أنْ نهاه عن طردهم .

وفى هذا قمة التكرم للدائمين على ذكر الله من المستضعفين لأنهم أهلُ محبة الإيمان وهم الذين سبقوا إليه .

وسبب عدم طاعة مَنْ أغفلنا قلبه عن ذكرنا أن هذا يُضلنا عن سبيل الله ومنهجه ، يقول تعالى : ﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ (١١٦)﴾ [الأنعام]

فمَنْ أغفلنا قلبه عن ذكرنا يتبع هواه ويسير خلف أهوائه وشهواته فيأخذه هواه ويُلهيه عن ذكر الله ، وما دام قد انشغل بشىء يوافق هواه فلن يهتم بمطلوب الله ، إنه مشغولٌ بمطلوب نفسه .

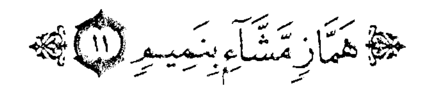
فالمؤمن الحق سليم الإيمان مَنْ كان هواه ورغبته موافقة لمنهج الله لا يحيد عنه ،﴿ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢)﴾ [الفرقان]

فلا تُطعهم إنْ لوَّحوا لك بالملك أو بالمال أو بالجاه والشرف ، واعلم أنَّ ما أعدَّه الله لك وما ادخره لك فوق هذا كله ، ونهى الرسول عن طاعة الكافرين لايعنى أنه ﷺ كان يطيعهم ، فهذه كقوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا (١٣٦)﴾ [النساء]

فلا تطع مَنْ يعرض عليك المال على أنْ ترجع عن دينه كالوليد بن المغيرة الذى كان تاجراً ضعيفَ القلب مهيناً ، وذلك كقوله تعالى أيضاً ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (٢٤)﴾ [الإنسان]

والمهين الكذاب الضعيف المكثار فى الشر ، الضعيف الرأى والتمييز .

ثم يذكر الحق سبحانه صفتين أخريين لهذا الحلاَّف المهين ، فيقول :


﴿ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) ﴾

ويقول تعالى فى آية أخرى : ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (١)﴾ [الهمزة] والهُمزة هو الذى يسخر من الناس ولو بالإشارة ، يرى إنساناً مصاباً بعاهة فى قدمه يمشى وهو يعرج فيحاول أنْ يقلده بطريقة تثير السخرية إما بالإشارة وإما بالكلام ، وهناك همز وهمزة .

الهمز الاستهزاء والسخرية من الناس علامة عدم الإيمان ، والهماز مغتابُ الناس يأكل لحومهم ، فالهمز الاغتياب وذكر الناس بما يكرهون يأكل لحوم المسلمين ويطعن فى أعراض الناس بما يكرهون ويعيبهم .

فهو فتَّان طعَّان يلوى شدقيه من وراء الناس ، والمراد كسْر أعراض الناس والغضّ منهم والطعن فيهم .

وهناك فرق بينَ الهمزة واللمزة ، فالهمزة جهراً بالمواجهة ، أما اللمزة فيظهر الغيب سراً بالحاجب والعين ، وقد كان الوليد بن المغيرة يفعل ذلك وهو من عادة السقاط ويدخل فيه مَنْ يحاكى الناس بأقوالهم وأفعالهم وأصواتهم ليضحك الناس .

فالهمزة هو مَنْ يعيب فى الآخرين عيباً خفياً ويسخر منهم خفية ، ويكون ذلك بإشارة من عينه ، أو بأىّ حركة من جوارحه .

ومثال هذا حين تكون هناك مجموعة من الناس جالسين ويحاول أحدهم النّيْل من أحد الحضور خُفية فيغمز بطرف عينه لإنسان آخر أو يكون باللسان همساً فى أذن إنسان أو بأىّ طريقة أخرى ، المهم أنْ يُشار إلى العيب بطريقة خفية لا يلحظها معظم الحاضرين .

أما اللمزة العيابون فى غيرهم فى حضورهم ، فهناك القوى الذى يكشف العيوب بشجاعة وصراحة وهو اللماز ، أما الضعيف فهو يعيب خُفْية وهو الهماز ، واللمزة تُطلق على مَنْ يعيب كثيراً فى الناس .

وهمزة لمزة من صيغ المبالغة (فُعلة) وتدل على كثرة فعل الشىء ، فاللمزة هى كثرة العيب فى الغير ، وهى تدل على ضعف مَنْ يقول بها ولو لم يكُنْ

ضعيفاً لقال ما يريد صراحة .

ومن اللمز قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨)﴾ [التوبة]

وكان بعض المنافقين يغتابون ويلمزون تشريع الصدقة ، وكانوا يعيبون أنْ يتعب الغنى ويشقى فى الحصول على المال ثم يأخذ الفقير المال بلا تعب، فهل يعيبون التشريع نفسه ؟ أم يعيبون كمية الصدقات المفروضة عليهم ويرونها كثيرة ؟ أم يعيبون حث الله الناس على الصدقة ؟ أم يعيبون الطريقة التى يتم بها صرف الصدقة للفقراء وأنَّ بعضهم يعطى كثيراً ، وبعضهم يعطى قليلاً ؟ لقد كانوا يعيبون فى كل الأمور أو بعضها .

فالهُمزة هو الذى يعيب بالقول ، واللمزة هو الذى يعيب بالفعل .

وهو لا يهمز ولا يسخر ويلمز فحسب ، بل إنه أيضاً ﴿ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١)﴾ [القلم]

فهو يمشى بالنميمة أى يسعى بين الناس بالنميمة . والسعاية عادة تأخذ جانب الشر وتعنى الوشاية والسعى بين الناس بالنميمة تقول : فلان سعَّاء بين الخلق يعنى بالشر ينقله بين الناس بقصد الأذى ، وهؤلاء إنْ علموا الخير أخفوه ، وإنْ علموا الشر أذاعوه وإنْ لم يعلموا كذبوا .

و (مشّاء) صيغة مبالغة (فعَّال) فالمشى بالنميمة طبيعة فيه ويعملها بقصد وبكثرة ومبالغة ، فهو يمشى بحديث الناس بعضهم فى بعض ، ينقل حديث بعضهم إلى بعض ويمشى بالكذب .

فالمشّاء بنميم يفسد ذات البين فيسعى بالنمائم بين الناس ، ورسول الله ﷺ يقول : « لا يدخل الجنة قتات »[1] أى نمام فهو يقتّ الحديث قتاً فيسمع

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٣٢٤٧ ، ٢٣٣٠٥) والبخارى فى صحيحه (٦٠٥٦) وكذا مسلم فى صحيحه (١٧٠) باب بيان غلظ تحريم النميمة أن همام بن الحارث قال : كنا جلوساً مع حذيفة فى المسجد فجاء رجل حتى جلس إلينا فقيل لحذيفة : إن هذا يرفع إلى السلطان أشياء فقال حذيفة إرادة أن يُسمعه : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يدخل الجنة قتات ».

الحديث من الناس على بعضهم وينقله فيفسد الأواصر الاجتماعية والعلاقات الإنسانية بين الناس .

وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما : مرَّ رسول الله ﷺ بقبرين فقال : «إنهما يُعذَّبان وما يُعذَّبان فى كبير ، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول ، وأما الآخر فكان يمشى بين الناس بالنميمة »[١] .

وقد روتْ أسماء بنت يزيد بن السكن أن النبى ﷺ قال : « ألا أخبركم بشراركم؟ المشَّاءون بالنميمة ، المفسدون بين الأحبة والباغون للبرآء العنت»[٢].

وإفساد ذات البين من أخطر الأمور ، لذلك قال رسول الله لأصحابه : «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصدقة والصلاة ؟ قلنا : بلى . قال : إصلاح ذات البين ، وفساد ذات البين هى الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين »[٣].

ويصف الحق سبحانه هذا الفعل بأنه فعلٌ شيطانى ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ (٩١)﴾ [المائدة]

فكلمة (يُوقع) معناها أن هناك شيئين الأصل فيهما الالتحام ، وهناك مَنْ يريد أنْ يجعل بينهما ما يفصل هذا الالتحام ، ولذلك يقال : فلان مشى بالوقيعة. أى أنه أراد أنْ يصنع فجوة وشرخاً بين اثنين الأصل فيهما الالتحام، وكلمة (بينكم) تفيد الانفصال ، وهذا الانفصال هو الذى توضع فيه الوقيعة .

(١) أخرجه أبو عوانة فى مستخرجه (٤٩٥) وتمامه : ثم أخذ جريدة رطبة فشقها بنصفين وغرز فى كل قبر واحدة فقيل : يا رسول الله لم صنعت هذا ؟ قال : لعله أن يخفف عنهما ما لم ييبسا . وكذا أخرجه البخارى فى صحيحه (٢١٨ ، ١٣٦١) والبيهقى فى السنن الكبرى (٤١٤٠) وابن أبى شيبة فى مصنفه (١٢٠٤٥) وعبد الرزاق فى مصنفه (٦٧٥٣) من حديث ابن عباس .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٧٥٩٩ ، ٢٧٦٠١) والبخارى فى كتاب (الأدب المفرد) (٣٢٣) والطبرانى فى المعجم الكبير (٤٢٣) والبيهقى فى شعب الإيمان (١٠٥٩٦) من حديث أسماء بنت يزيد بن السكن. رضى الله عنها .

(٣) أخرجه ابن حبان فى صحيحه (٥٠٩٢) والترمذى فى سننه (٢٥٠٩) من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه وقال : حديث حسن صحيح .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ ﴾

فقد كان صناديد قريش يمنعون الخير عن الناس ، فقد كانوا يمنعونهم عن الإيمان وعن كل خير .

وبعض العلماء خصُّوا الخير هنا بالزكاة المفروضة ، فقالوا : المقصود هنا منع الزكاة ، ولكن منع الخير هنا عام لكلِّ خير ، زكاة أو مالاً أو غيره .

ويقول الحق سبحانه في سورة الماعون : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ[1] الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)﴾ [الماعون]

فمن الماعون الذى يمتنع منعه هو ماجور العجين أو المنخل أو الغربال أو الهون .. الخ ، ومثل هذه الأشياء قد لا تتوفر للفقير ، فيذهب إلى جاره فيستعيرها منه .

فالمنَّاع للخير بخيلٌ بالمال ضنين به عن الحقوق ، والوليد بن المغيرة كان رجلاً مُوسِراً كثير المال ، وكان له عشرة من البنين فكان يقول لهم : من أسلم منكم منعته رفدى[2] ، أى حرمتُه من عطائى لذلك قال تعالى : ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤)﴾ [القلم]

فهو كثير المنع للخير ، يمنعه حتى عن نفسه بعد أنْ منعه عن الآخرين حين وقف فى وجه الدعوة للإيمان ، وحين منع ماله ولم يُعط المحتاجين .

---

(١) يدع اليتيم : يدفع اليتيم عن حقه ويظلمه . قاله مجاهد . وقال مقاتل بن سليمان : يدفعه عن حقه فلا يعطيه . وقال قتادة : يقهره ويظلمه . قال ابن زيد : يدفعه ويُغلظ عليه . وقال الزمخشرى فى تفسير الكشاف : يدفعه دفعاً عنيفاً بجفوة وأذى ويرده رداً قبيحاً بزجر وخشونة .

(٢) أورده الزمخشرى فى تفسير الكشاف (٤/٥٨٧) وأنه من قول الوليد بن المغيرة المخزومى أنه كان له عشرة من البنين فكان يقول لهم وللحمته : من أسلم منكم منعته رفدى .

وهو لم يكتفِ بمنْع الخير بل تعدى على الخير عند غيره ، فأخذه دون وجه حق ، أخذه مرة بالسرقة ، ومرة بالرشوة ، ومرة بالخطف والغصب ، ومرة بالتدليس ، ومرة بالغشِّ .

فهو إذن مُعتد بأىّ وجه من وجوه التعدى ، ولذلك فهو ﴿ أَثِيمٍ (١٢)﴾ [القلم]، وأثيم فعيل من صيغ المبالغة .

وهو أثيم لا مجرد آثم ، بل هو أثيم بربه لغشمه وظلمه ، وهو مُتمادٍ فى الإثم لا ينزجر عنه ولا يرعوى ، ولا يتعظ بموعظة ربه .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (٢٥)﴾ [ق] فهو مريب أى شاكّ مرتاب فى هذا اليوم ، فلو كان مؤمناً به وبالحساب والجزاء ما منع الخير عن أهله ونفسه ، وما كان منعهم من الإيمان ، وما كان منع حقَّ الله .

والمريب أثيم يخشى أنْ يراه الناسُ فيكشفوا أمره ، وفى أمثال الناس : يكاد المريب يقول خذونى ، لأنه فاعلٌ للإثم مقيم عليه فهو أثيم .

﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ (١٣) ﴾

والعُتل هو الرجل الفاحش اللئيم ، الجافى الشديد فى كفره ، وكل شديد قوى فالعرب تسميه عُتلاً ، وهو الشديد الخصومة ، وأصله من العتل ، وهو الدفع بقوة وعنف .

ومنه قوله تعالى :﴿ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ (٤٧)﴾ [الدخان] أى : ادفعوه على وجهه إلى سواء الجحيم ، فالعتل السَّوْق والدفع والجذب ، فالعتل أنْ يؤخذ فيُمضى به بعسف وشدة .

فالعتل الزنيم هو الرجل يُعرف بالشر كما تُعرف الشاة بزنمتها[1] التى تعلَّق

---

(١) معنى زنيم أنه كان فى أصل أذنه مثل زنمة الشاة مثل الزنمة التى تكون معلقة فى لحى الشاة زيادة فى خلقه . وهى جلدة تقطع من أذنه فتترك معلقة .

فى لحى الشاة ، وقد قال رسول الله ﷺ : « تبكى السماء من رجل أصحَّ الله له جسمه ، وأرحب جوفه ، وأعطاه من الدنيا مقضماً ، فكان للناس ظلوماً ، فذلك العتل الزنيم »[(١)].

والزنيم فى كلام العرب الملصق بالقوم وليس منهم ، فليس يعرف من أبوه بغىّ الأم فهو منتسب لغير أبيه دخيل فى قومه .

وليس معنى هذا أن كل نمام هو زنيم لا يُعرف له أب ، إنما أن الشخص المقصود هنا كانت تجتمع فيه كل هذه الصفات ، لذلك قال تعالى : ﴿ **بَعْدَ ذَٰلِكَ** (١٣)﴾ [القلم] أى إضافة إلى ما سبق وهو هنا يشير إلى ما سبق من صفات .

فهى صفات متوالية متتابعة ، كلُّ خصلة أشد من الأخرى ، فهو حلَّاف كثير الحلف يعلم من نفسه عدم صدقه وشكّ الناس فيه ، مهين حقير ، والمهانة صفة نفسية تلصق بالمرء ، ولو كان ذا جاه أو مال أو جمال .

وهو همَّاز غمَّاز لماز بالنظرة واللفظ والإشارة فى الحضور والغيبة ، منَّاع للخير عن نفسه وعن غيره ، مُعتدٍ متجاوز للحق والعدل والإنصاف أثيم واقع فى الآثام والذنوب والمحرمات ، عُتل فظ قاسٍ مكروه معروف بشرِّه وصَلَفه يستمتع بزرع الأحقاد بين الناس .

نمام يقابل هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه ، مُتلوِّن وَاشٍ يشتغل بعيوب غيره، إنْ علم خيراً أخفاه ، وإنْ علم شراً أفشاه ، وإنْ لم يكُنْ تجده يكذب ويختلق الشائعات .

وهو فوق ذلك كله ﴿ **زَنِيمٍ** (١٣)﴾ [القلم] من أراذل القوم لو فتشت فى حقيقته ستجده لا أبَ له معروف ، مُلصق بالقوم وليس منهم ، وكأنه صدر فى كل هذه الصفات عن أصله الوضيع .

---

(١) أخرجه الطبرى فى تفسيره مرسلاً (٢٣/٥٣٦) عن زيد بن أسلم قال ابن كثير فى تفسيره (٨/٢١١): رواه ابن أبى حاتم من طريقين مرسلين ونص عليه غير واحد من السلف منهم مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة .

ثم يقول سبحانه :

﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

وأصله هذا ليس له علاقة بـ ﴿ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) ﴾[القلم] فالله جمع له بين المال والبنين ، والحق سبحانه يقول : ﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ[١] حَتَّى حِينٍ (٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَا يَشْعُرُونَ (٥٦) ﴾ [المؤمنون]

أيظنون أنّ هذا خير لهم ؟ لا ، بل هو إمهال واستدراج ليزدادوا طغياناً ، فلا تُطعه ليساره وعدده ، فلا تُطعه وإنْ كان ذا مال وبنين .

وقد قيل : إن المقصود هنا هو الوليد بن المغيرة وقد كانت له حديقة بالطائف ، وكان له اثنا عشر ابناً .

ولكن لا ماله ولا أبناؤه جعله ينفك عن أصله الزنيم فجاءت صفاته مناسبة لأصله الوضيع ، وقد قال رسول الله ﷺ : «لا تزال أمتى بخير ما لم يفْشُ فيهم ولد الزنى ، فإذا فشَا فيهم ولد الزنى أوشك أنْ يعمّهم الله بعقاب »[٢] .

حتى أن عكرمة قال : إذا كثر ولد الزنى قحط المطر[٣] ، وقد قال تعالى فى سورة المدثر ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ[٤]

(١) غمرتهم : غفلتهم . وقال قتادة : ضلالتهم . قال ابن عباس : كفرهم وضلالتهم . قال الزمخشرى فى الكشاف (٣/١٩١) : الغمرة الماء الذى يغمر القامة فضربت مثلاً لما هم مغمورون فيه من جهلهم وعمايتهم .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢٦٨٣٠) من حديث ميمونة رضى الله عنها وأخرجه البخارى فى التاريخ الكبير (١/١٣٨) وأبو يعلى (٧٠٩١) والطبرانى فى الكبير (٢٤/٥٥) .

(٣) أورده القرطبى فى تفسيره (١٨/٢٣٥) وعزاه لعكرمة من قوله .

(٤) شهوداً يعنى حضوراً لا يغيبون أبداً عنه فى تجارة ولا غيرها لكثرة أموالهم بمكة ، وكلهم رجال منهم الوليد بن الوليد وخالد بن الوليد وعمارة بن الوليد وهشام بن الوليد والعاص بن الوليد وقيس بن الوليد وعبد شمس بن الوليد . كان بنوه عشرة وقال مقاتل : بسبع بنين . أسلم منهم ثلاثة : خالد ، هشام ، عمارة .

شُـهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦)﴾ [المدثر]

بسطت له فى المال والولد والخير بسطاً ثم يرجو أنْ أزيده فى ماله وولده ، كلا لا أزيده بل أقطع ذلك عنه وأهلكه ثم منعه الله المال فلم يُعطه شيئاً حتى افتقر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٥)﴾

الآية هى الشيء العجيب اللافت ، فهناك فى الكون آيات كونية مثل الشمس والقمر والنجوم والأرض والجبال والبحار وغير ذلك ، هذه تسمى آيات ، شيء فوق قدرة البشر خلقها الله سبحانه وتعالى لتكون آيةً فى كونه وتخدم الإنسان.

وهناك الآيات وهى المعجزات عندما يرسل الله رسولاً أو نبياً إلى قومه ، فإنه سبحانه يخرق له قوانين الكون ليثبت لقومه أنه نبىٌّ مُرسَل من عند الله سبحانه وتعالى .

وهذه الآيات مقصودٌ بها مَنْ شهدها ، لأنها تأتى لتثبيت المؤمنين بالرسل، وهم يمرّون بأزمة يحتاجون فيها إلى التثبيت ودلالة على صدق رسالة النبى لقومه .

وتُطلق الآيات على آيات القرآن الكريم كلام الله المعجز الذى وضع فيه سبحانه وتعالى ما يثبت صدق الرسالة إلى يوم الدين ، يُحدثنا الله سبحانه فى آياته عن كيفية خَلْق الإنسان وعن منهج السماء للأرض وغير ذلك .

فالآية هى الأمر العجيب ، وهو عجيب لأنه معجز ، والآيات معجزات للرسول تدل على صدق بلاغه عن الله ، وهى كذلك الآيات فى القرآن الكريم .

والآيات التى أيّد الله بها سبحانه وتعالى محمداً ﷺ ظاهرةٌ أمام الكفار وليستْ محتاجةً إلى دليل ، فرسول الله الذى لم يقرأ كلمة فى حياته يأتى بهذا القرآن المعجز لفظاً ومعنى ، وهذه معجزة ظاهرةٌ لا تحتاج إلى دليل .

ورسول الله الذى يخبر بقرآن مُوحى من السماء عن نتيجة حرب ستقع بعد تسع سنواتٍ ، ويخبر الكفار والمنافقين بما فى قلوبهم ويفضحهم ويتنبأ بأحداث قادمة وبقوانين الكون وغير ذلك مما احتواه القرآن المعجز من كلٍّ أنواع الإعجاز علمياً وفلكياً وكونياً .

كلُّ هذه آيات بينات يتحدى القرآن بها الكفار ، كلها آيات واضحة لا يمكن أنْ يكفر بها إلا الذى يريد أن يخرج عن منهج الله ويفعل ما تهواه نفسه .

إن الإعجاز فى الكون وفى القرآن وفى رسول الله ﷺ كل هذا لا يحتاج إلا لمجرد فكر محايد لنعرف أن هذا القرآنَ هو من عند الله مليء بالمعجزات علماً ولغة ، وإنه سيظلّ معجزة لكلِّ جيل له عطاء جديد .

والكافرون لا يؤمنون بآيات الله حتى لو كانت ظاهرةَ واضحةَ الدلالة، حتى ولو كانوا هم الذين طلبوها ، والحق سبحانه يقول : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨) ﴾ [البقرة]

لقد جاءهم القرآن ليتحدى فى أحداث المستقبل وفى أسرار النفس البشرية ، وكان ذلك يكفيهم لو أنهم استخدموا عقولهم ولكنهم أرادوا العناد كلما جاءتهم آيةٌ كذَّبوا بها وطلبوا آية أخرى .

والآيات التى يطلبها الكفار ويأتى بها الله سبحانه ويحققها لهم لا يؤمنون بها ، بل يزدادون كفراً وعناداً ، فالآيات التى يطلبونها لا تجعلهم يؤمنون ، ولكن يزدادون كفراً حتى ولو علموا يقيناً أنَّ هذه الآيات من عند الله سبحانه.

ومهمة رسول الله التى أرسله الله بها ذكرها الحق سبحانه فى قوله :﴿ كَمَا

أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) ﴾ [البقرة]

فالآيات قسمان : منظور ومقروء ، أما المنظور فهو كل الكون ، وآيات الكون تفسر آيات القرآن ، والرسول جاء يتلو آيات القرآن وكانت عجيبة عليهم ، لكن الآيات الأخرى التى فى الكون يشاهدونها ويروْنَها .

لقد جاء الرسول بآيات مقروءة ليلفت الناس إلى الآيات المنظورة وبتلك الآيات المنظورة يكون العجب من دقة خلق الكون ، فينتهى الإنسان إلى الإيمان بمن خلق هذا الكون .

ورسول الله لا يتلو عليهم آيات القرآن ليعجبوا منها فحسب ، لا فالرسول له مهمة إيمانية تلفت كلَّ سامع للقرآن إلى مَنْ خلق ذلك الكون الجميل البديع الذى فيه الآيات العجيبة ، ثم يعطى الرسول من بعد ذلك المنهج الذى يناسب جمال الكون .

فرسول الله جاء يتلو عليهم آيات الله ، وجاء يزكيهم طهارة ونقاء ، ونماء ، وجاء ليعلمهم الكتاب والحكمة ، ورسول الله كان ينزل عليه الوحى بعدة آيات، وقد يطول إلى ربعين أو ثلاثة أرباع .

فلما أَنْ يُسْرى عنه يتلو ما نزل عليه على صحابته ليكتبوه ، يتلوه كما أُنزل عليه فيكتبه الكتبة ويحفظه من يحفظه منهم ، وكانوا أمة رواية وأمة حفظ .

والحق سبحانه هنا بنى الفعل (تلا) للمجهول ، فقال تعالى : (إذا تُتلى) لأنه معلوم من آيات أخرى ، ولأن العبرة بحدوث ذلك إذا تُليت آيات الله على مَنْ لا يؤمن .

فكلُّ كافر لا يؤمن بالقرآن إذا تُليتْ عليه آيات الله قال عنه ووصف القرآن بأنه ﴿ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٥) ﴾ [القلم]

وممَّنْ قالوا أن القرآن ما هو إلا أساطير الأولين ، كان هو النضر بن الحارث أخو بنى عبد الدار يختلف إلى الحيرة فيسمع سجع أهلها وكلامهم ، فلما قدم

مكة سمع كلام النبى ﷺ والقرآن فقال : قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا[1] إنْ هذا إلا أساطير الأولين ، يقول : أساجيع أهل الحيرة .

ومنهم أيضاً الوليد بن المغيرة ، وقد كانوا من قبل يستهزئون برسول الله ﷺ، ومثال على ذلك الوليد بن المغيرة وهو السيد فى قومه يأتى فيه قول الحق: ﴿ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٥) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦) ﴾ [القلم]

وكان الوليد صاحب ثراء من المال ومنعة وقوة من البنين وأعرض عن القرآن وسخر منه ، فجعل الحق منه أمثولة للناس .

والأساطير جمع أسطورة ، والأسطورة شيء يُسطَّر ليُتحدث به من العجائب والأحداث الوهمية ووصفهم له بهذا دليل إفلاسهم فهم حاولوا وصف القرآن بالسحر ، وتارة بالشعر ، وتارة بالكهانة وأخيراً قالوا (أساطير الأولين) .

وهم يعلمون عظمة القرآن فكيف يقولون إنه أساطير الأولين ؟ لقد كانوا من المعجبين بعظمة أسلوب القرآن الكريم ، فهم أمة بلاغة ولكنهم يعلمون أن مطلوبات القرآن صعبة على أنفسهم .

فالأساطير هى الحوادث والأحاديث الخرافية مثل ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة والإلياذة وغيرها من كتب الأساطير ، وأساطير مثل أعاجيب وأعجوبة.

وهناك من يقول : إن أساطير جمع سطر أسطار أساطير مثل شكل وأشكال فهى جمع للجمع ، وسواء أكانت جمع أسطورة أو جمع سطر فالمعنى لا يختلف لأن الشيء المسطور قد يعتبره الناسُ خرافة وكلاماً لا معنى له .

والأساطير هى الكلام المكذوب الذى لا أصل له ، فلا يُسمَّى الكلام أسطورة إلا إذا جاء وقته ولم يحدث ، فلك أنْ تقول أساطير .

والحق سبحانه يقول: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤) ﴾ [الفرقان]

ثم يقول تعالى ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً

---

(١) أورده الثعلبى فى تفسير الكشف والبيان (٤/ ٣٥٠) .

وَأَصِيلًا (٥) ﴾ [الفرقان] ، فهم قالوا إن القرآن حكايات وأساطير السابقين (اكتتبها) يعنى أمر بكتابتها .

وهذا من ترددهم واضطراب أقوالهم ، فالنبى ﷺ أمىّ لا يقرأ ولا يكتب ، وقولهم ﴿ فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٥) ﴾ [الفرقان] أى باستمرار ليكررها ويحفظها .

وهم اتهموا رسول الله وهم فى قمة غفلتهم أنه يتعلم من رجل كان بمكة فيلفتهم القرآن إلى أن الرجل الذى قالوا إنه معلم للرسول ﷺ كان أعجمياً غير عربى .

يقول الحق سبحانه : ﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ(١) إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (١٠٣) ﴾ [النحل]

وهم لا يؤمنون بالآخرة ، فقلوبهم منكرة وهم مستكبرون ، ووصفهم الله عز وجل بقوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٤) ﴾ [النحل]

والعجيب أنهم لم ينكروا الله وأقروا بربوبيته ، فلما سُئلوا : ماذا أنزل ربكم ؟ قالوا : أساطير الأولين ، فوصفوا ما أنزل ولم يعترضوا على مَنْ أنزل .

فلو كانوا صادقين مع أنفسهم لمَا أقرُّوا بالألوهية ورفضوا أيضاً القول المُنزل إليهم .

أما الذين آمنوا واتقوا فعندما سُئلوا هذا السؤال ﴿ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ (٣٠) ﴾ [النحل] ﴿ قَالُوا خَيْرًا (٣٠) ﴾ [النحل] ، ووراء ذلك قصة توضح جوانب الخلاف بين فريق مؤمن وفريق كافر .

فحين دعا رسول الله قومه وعشيرته إلى الإيمان بالله الواحد الذى أنزل عليه منهجاً فى كتاب معجز ، بدأت أخبار رسول الله تنتشر بين قبائل الجزيرة العربية كلها ، وأرسلت كل قبيلة وفداً منها لتتعرف وتستطلع مسألة هذا الرسول .

---

(١) يلحدون إليه : يميلون إليه ويزعمون أنه يعلمه أعجمى ، أصل الإلحاد : الميل . يقال : لحد وألحد إذا مال عن القصد . وقال ابن قتيبة : يشيرون إليه ويومئون .

ولكن كفار قريش أرادوا أنْ يصدوا عن رسول الله ، فقسَّموا أنفسهم على مداخل مكة الأربعة ، فإذا سألهم سائل من وفود القبائل : ماذا قال ربكم الذى أرسل لكم رسولاً ؟

هنا يرد عليهم قسم الكفار الذى يستقبلهم : إنه رسول كاذب يُحرِّف ويجدِّف، والهدف طبعاً أنْ يصد الكفار وفود القبائل .

ويخبر الحق سبحانه رسوله ﷺ بما حدث ، وإذا قيل للواقفين على أبواب مكة من الوفود التى جاءت تستطلع أخبار الرسول : ماذا أنزل ربكم ؟ يردون : إنه يردد أساطير الأولين .

وهذا الجواب الواحد من الواقفين على أبواب مكة الأربعة يدل على أنها إجابة متفق عليها وسبق الإعداد لها ، وقد أرادوا بذلك أنْ يصرفوا وفود القبائل عن الاستماع لرسول الله ﷺ .

فشبَّهوا الذكر المنزّل من الله بمثل ما كان يرويه لهم على سبيل المثال النضر بن الحارث من قصص القدماء التى تتشابه مع قصص عنترة وأبى زيد الهلالى التى تُرْوَى فى قرانا .

ثم يقول الحق سبحانه متوعداً مَنْ يقول هذا القول :

﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾

أى : سنضربه بالسيف ضربة تجعل على أنفه علامة فى أعلى منطقة فيه ، ويأتى يوم بدر فيجدون الضربة على أنف الوليد .

لقد قالها الحق سبحانه على لسان رسوله فى زمن ماض ويأتى بها الزمن المستقبل ، وعندما تحدث هذه المسألة فالذين آمنوا بمحمد وبالقرآن الذى نزل على محمد يتأكدون من صدق رسول الله فى كل شىء ، ويأخذون الجزئية البسيطة ويُرقُّونها فيصدقون ما يخبرهم به من أمر الدنيا والآخرة .

وها هو : ذا سيدنا عمر كان يسمع قول الله عز وجل : ﴿ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ

الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] فيقول : أيُّ جمعٍ هذا [١] ؟ ونحن لا نقدر أنْ نحمى أنفسنا؟

ويقول الحق : ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦) ﴾ [القلم] فيقول عمر : كيف ونحن لا نقدر أنْ ندافع عن أنفسنا ؟

وبعد ذلك تأتى موقعة بدر فتثبت له صدق هذا ، والعجيب أن الآية تنزل وهم لا يستطيعون أنْ يدافعوا عن أنفسهم ، فلا يمكن أنْ يُقال : إن هناك مقدمات لذلك بحيث تستنتج النتيجة .

فالمقدمات لا توحى بأىّ نصر ، لكن ربنا هو الذى قال ، ورأوا صحيحاً أن الوليد بن المغيرة ضُرب على أنفه وتركت الضربة علامة على أنفه ، لأن الذى قال ذلك من قبل قادر على إنفاذ ما يقولٍ بدون قوة تحول دون ذلك أبداً .

وحين نزلت الآية ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦) ﴾ [القلم] فى حق الوليد بن المغيرة تساءل بعض المسلمين : هل نحن قادرون أن نصل إليه ؟ وبعد ذلك تأتى غزوة بدر ، فينظرون أنفه فيجدون السيف قد خرطه وترك سمة وعلامة عليه ، فمن الذى خرق حجاب الزمن المستقبل ؟ إنه الله وليس محمداً .

فإذا تدبرتم المسائل حقَّ التدبّر لعلمتم أن محمداً ما هو إلا مُبلِّغ للقرآن ، وأن الذى قال القرآن هو الإله الذى ليس عنده ماضٍ ولا حاضر ولا مستقبل ، بل كل الزمن له .

وقد نزل هذا القول فى القرآن ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦) ﴾ [القلم] فى وقت ضعف المسلمين ، ثم يأتى خبر ضَرْبه على أنفه الذى هو محل الأنفة والكبرياء والعنجهية .

ثم تأتى بدر ليرى المسلمون تحقيق ذلك ، إنه كلام إلهى متحدًّى به ومُتعبَّد بتلاوته ، وهكذا تصدق كل قضية يأتى بها الله .

والحق سبحانه إنما قال ذلك عن واحد من أكابر قريش وهم لا يقدرون

---

(١) أخرج عبد الرزاق فى تفسيره (٣٠٦٩) أن عمر قال : لما نزلت ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ .. (٤٥) ﴾ [القمر] جعلت أقول : أى جمع هذا ؟ فلما كان يوم بدر ورأيت النبى ﷺ يثب فى الدرع وهو يقول ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] وفى بعض التفاسير أن عمر رضى الله عنه قال : نزل قوله تعالى: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ .. (٤٥) ﴾ [القمر] ولم أعرف تأويله حتى كان يوم بدر فرأيت النبى .

حينئذ أنْ يدافعوا أو يذودوا عن أنفسهم ، وذهبوا وهاجروا إلى الحبشة حماية لأنفسهم من بطش هؤلاء الأكابر ، وكل مؤمن يبحث له عمّن يحميه .

ويأتى يوم بدر فيوجد أنفه وقد ضُرب وخُطم ويتحقق قول الله ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦) ﴾ [القلم] ، فمن يحدد إذن ضربة قتال بسيف فى يد مقاتل قبل أنْ يبدأ القتال ؟ لقد حددها الأعلم بما يكون عليه الأمر .

ومن العجيب أنه ﷺ خطط على الأرض مواقع مصرع بعض كبار الكافرين وأماكن إصاباتهم ، وهكذا شاء الحق سبحانه أن يأتى الواقع بما يؤيد صدق الرسول ﷺ ، حين كان يشير إلى مواقع مصرع القوم فى بدر قبل أنْ تقع المعركة ويقول : «هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان»[1] .

حتى أنهم أتوا برأس الوليد بن المغيرة فيجدون الضربة قد جاءت على أنفه، فمَنْ ذا الذى يتحكم فى مواقع الموت ؟ إن ذلك لا يتأتى إلا من إله هو الله ، وهو الذى أخبر محمداً ﷺ بهذا الخبر .

وهم لم يعرفوا الوليد يوم بدر بين القتلى إلا بضربة على خرطومه .

ونلاحظ أنَّ الحق سبحانه استخدم (السين) فى التعبير عن المستقبل ولم يستخدم (سوف) ، فـ (سوف) فيها تسويف وإمهال وامتداد فترة ما يعد الله بتحقيقه فى المستقبل .

يقول تعالى :﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣) ﴾ [الحجر] ، ويقول : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ[2] أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) ﴾ [مريم] ، وهذا تحققه فى الآخرة .

---

(١) أخرج أبو داود الطيالسى فى مسنده (٤٠) عن أنس قال : أخبرنا رسول الله ﷺ بمصارع القوم بالأمس : هذا مصرع فلان إن شاء الله غداً ، هذا مصرع فلان إن شاء الله غداً ، فو الذى بعثه بالحق ما أخطئوا تلك الحدود وجعلوا يُصرعون عليها ثم ألقوا فى القليب . وأخرجه أحمد فى مسنده (١٨٢ ، ١٣٢٩٦ ، ١٣٧٠٣) والبزار فى مسنده (٢٢٢) وابن حبان فى صحيحه (٦٤٩٨) عن أنس بن مالك .

(٢) فخلف من بعدهم : أى من بعد النبيين خَلْف أى خلف السوء يعنى اليهود . وقال الواحدى فى تفسير الوسيط (١٨٧/٣) : قال السدى : هم اليهود والنصارى .

وفي آية أخرى يقول تعالى لموسى عليه السلام : ﴿ لَن تَرَانِي وَلَـٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي (١٤٣) ﴾ [الأعراف] وهذا الشيء لم يتحقق .

أما استخدام السين فيدل على اقتراف حدوث مابعده ، ولو أعطينا مثالاً على ذلك نقول : احضر لى أكرمك ، فبمجرد الحضور يحدث الإكرام ، ولكن إنْ قلت لك : إن حضرت إليَّ فسأكرمك .

فهذا يعنى أن الزمن يمتد قليلاً ، فلن تكرم من فور أنْ تأتى ، بل أن تحضر عندى بعد ذلك تأخذ تحيتك ، ويأتيك الإكرام بعد قليل .

وإنْ أردت أنْ أطيل الزمن أكثر فإنى أقول : إن حضرت إليَّ فسوف أكرمك .

إذن فنحن أمام ثلاث مراحل لترتيب الجزاء على الفعل : جزاء يأتى بعد فور حصول الشرط ، وجزاء يأتى بعد زمن يسير تؤديه (السين) ، وجزاء يأتى بعد زمن أطول تؤديه (سوف) .

فإذا رأيت السين تسبق قولاً فإن هذا يعنى أن الزمن الذى يفصل بين الحدث والحدث قريب وقليل مثل قوله الحق : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ (١٤٢) ﴾ [البقرة]

أما عندما تقرأ (سوف) فاعلم أن الزمن الذى يفصل بين الحدث والحدث متسع وبعيد ، وهنا يقول تعالى : ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦) ﴾ [القلم] فاستخدام السين دلالة على أن العقاب واقع به سريعاً .

﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦) ﴾ [القلم] أى سنخطمه بالسيف ، فنجعل ذلك علامة باقية وسمة ثابتة فيه ما عاش ، وكأنَّ العلامة هذه ليكون أمره واضحاً للجميع ، فسنبين أمره بياناً واضحاً حتى يعرفوه ، فلا يخفى عليهم كما لا تخفى السِّمة على الخرطوم .

والخرطوم الأنف تعبيراً عن الوجه ، والوجه أشرف ما فى الإنسان ، وعندما يرى الإنسانُ جباراً يشمخ بأنفه ويتكبَّر يقول : أريد أنْ أكسر أنف فلان .

والخرطوم يُستعار فى أنف الإنسان ، وبعض العلماء قال إنه فى هذه الدنيا وقد حلَّ به هذا فى يوم بدر ، ولكن البعض قال إن ذلك فى عذاب الآخرة فى جهنم ، وهو تعذيب بنار على أنفه ، ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟
لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

هذه قصة الإخوة الذين كانوا يملكون جنة من جنان الأرض ، فمنعوا حق الفقير والمسكين واليتيم ، فذهب الله بثمر الجنة كلها وأحرق أشجارها .

لقد جزاهم الله بظلمهم ، ولكن ألا نرى رجلاً لم يظلم نفسه وتصيب زراعته كارثة ؟ إننا نرى ذلك فى الحياة والرجل الذى لم يظلم نفسه وتصيب زراعته كارثة ويصبر على كارثته يأخذ الجزاء والثواب من الله ، ولعلَّ الله قد أهلك بها مالاً كانت الغفلة قد أدخلته فى ماله من طريق غير مشروع .

هكذا تكون الكارثة بالنسبة للمؤمن لها ثواب وجزاء أو تكون تطهيراً للمال ، أما الذى ينفق على غير نية الله وهو كافر فلا ثواب له ، وليس هناك مَنْ يضمن لك بقاء ما أنت فيه من نعمة .

ولو حلَّلتَ أى نعمة من النِّعم التى لك فيها عمل لوجدتَ أن نصيبك فيها راجعٌ إلى الله وموهوب منه سبحانه ، وحتى بعد أنْ ينمو الزرع ويزهر أو يثمر لاتأمن أنْ تأتيه آفة أو تحلّ به جائحة فتهلكه .

والحق سبحانه يقول : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) ﴾ [الواقعة]

و﴿ بَلَوْنَاهُمْ (١٧) ﴾ [القلم] أى اختبرناهم ، وهناك ابتلاء بالخير وابتلاء بالشر ، والبلاء كلمة لاتخيف أما الذى يخيف فهو نتيجة هذا البلاء ، فالبلاء هو امتحان أو اختبار ، إن أديته ونجحت فيه كان خيراً لك ، وإنْ لم تُؤدِّه كان وبالاً عليك .

فالابتلاء مقياس لاختيار الخير والشر ، والابتلاء من الله نعمة فمجرد الابتلاء ليس شراً ، ولكن الشر هو أنْ تسقط فى الابتلاء ، فكل ابتلاء هو اختبار

وامتحـان ، ولم يقـل أحد إن الامتحـانات شر ، إنهـا تصـير شراً من وجهة نظر الذى لم يتحمل مشاق العمل للوصول إلى النجـاح .

ولذلـك قـال تعالى فى سـورة الفجر : ﴿ فَأَمَّا الْإِنسَـانُ إِذَا مَا ابْتَـلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَـهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَـنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْـهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) ﴾ [الفجر]

فلا المـال دليل الكرامة ، ولا الفقر دليل الإهـانة ، ولكن متى يكون المـال دليل الكرامـة ؟ يكـون المـال دليل كرامة إنْ جاءك وكنت موفقاً فى أنْ تؤدى مطلوب المـال عندك للمحتـاج إليه ، وإنْ لم تُؤد حق الله فـالمـال مذلّة لك وإهانة ، فقد أكون غنياً لا أعطى الحق ، فـالفقر فى هذه الحـالة أفضل .

ولذلـك قـال الله للاثنـين (كلا) ، وذلك يعنى : لا إعطاء المـال دليل الكرامة ولا الفقـر دليـل الإهـانة ، وأراد سـبحـانه أنْ يدلل على ذلك فقـال : ﴿ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلَا تَحَاضُّـونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْـكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا (١٩) ﴾ [الفجر]

فمـا دمتـم لا تكرمون اليتيم فكيف يكون المـال دليل الكرامة ؟ إن المـال هنـا وزر ، وكيف إن سـلبه منك يا مَنْ لا تكرم اليتيم يكون إهـانة ؟ إنه سـبحـانه قد نزَّهك أنْ تكون مُهاناً فلا تتحمل مسئولية المـال .

إذن : فلا المـال دليل الكرامة ، ولا الفقر دليل الإهـانة .

وحتى إنْ كنتَ لا تمتلك ولا تعطى أفلا تحث مَنْ عنده أنْ يعطى ؟ أنت ضنينٌ حتـى بالكلمـة ، فمعنى تحض على طعام المسـكين أى تحث غـيرك ، فـإذا كنتَ تضنّ حتى بـالنصح فكيف تقول : إن المـال كرامة والفقر إهـانة ؟

والابتـلاء غـير مذموم فى ذاته ، إنمـا المذموم فيـه الغـاية منه ، لأن الابتلاء اختبـار ، وقد ينجح إنسـان وقد يفشل إنسان آخر ، فهنـاك الابتلاء بـالنِّعم ، وهنـاك

الابتلاء بالنِّقم ، والابتلاء بالنقم ليرى الحق هل يصبر العبد أو لا يصبر.

والحق سبحانه يقول ﴿ بَلَوْنَاهُمْ (١٧) ﴾ [القلم] فـ (هم) هنا تعنى أهل مكة فبلوناهم بالجوع فامتحنّا واختبرنا مشركى قريش حين دعا عليهم رسول الله ﷺ فقال : «اللهم اشددْ وطأتك على مُضر ، واجعلها عليهم سنين كسِنىّ يوسف»[1] .

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ (١٧) ﴾ [القلم] وابتلاؤهم هنا كان عقوبة لهم ، وإلاّ فقد يسألك سائل : وماذا عن قول الحق سبحانه : ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَـٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ[2] أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَـٰكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧) ﴾ [آل عمران]

والحق سبحانه يقول هنا : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ (١٧) ﴾ [القلم]

والجنة المقصودة هنا هى بستان كان لهؤلاء ، وكلمة (الجنة) مأخوذة من (الجَن) والستر ، و (الجنة) هى البستان الذى به شجر إذا سار فيه الإنسان يستره ، وهو غير البساتين الزهرية التى تخرج زهراً قريباً من الأرض تمثل ترفاً للعيون فقط .

أما الجنة ففيها أشجار عالية كثيفة بحيث لو سار فيها أحد يُستر ، ففيها الاقتيات وفيها كل شىء فهى تسترك عن أنْ تلتفت إلى غيرها لأن فيها ما يكفيك ، فالذى عنده حاجة لا تكفيه يتطلع إلى ما يكفيه ، لكن مَنْ عنده حاجة تكفيه فقد انستر عن بقية الوجود .

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٨٠٤ ، ١٠٠٦ ، ٢٩٣٢) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٩٤ ، ٢٩٥) أن أبا هريرة قال : كان رسول الله يقول حين يفرغ من صلاة الفجر من القراءة ويكبر ويرفع رأسه : سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد . ثم يقول وهو قائم : اللهم أنج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام ... اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم كسنى يوسف .

(٢) الصر : شدة البرد . قال ابن الأنبارى : فى قوله تعالى ﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ (١١٧) ﴾ [آل عمران] ثلاثة أقوال : أحدها فيها برد . والثانى : فيها تصويت وحركة . والثالث : فيها نار .

فـ (جنَّ) تفيد السَّتر والتغطية ، ومنها الجنون أى ستر العقل ، و (جن الليل) أى أظلم وستر عنك ، فلا ترى غيرك ولا غيرك يراك ، و (الجنة) كذلك لأن فيها الأشجار والأشياء التى تستر من يمشى فيها ، إذن المادة كلها تفيد الستر .

فالجنة هى المكان الممتلىء بالزروع والثمار وتعلو الأشجار فيه وتكثف وتلتفّ أغصانها وفروعها بحيث تستر مَنْ يكون بداخلها وتستره أيضاً عن بقية الأمكنة ، لأنه لا حاجة له إلى الأمكنة الأخرى .

ففى الجنة كل مقومات الحياة من غذاء وفاكهة ومرعى وماء وخضرة ومتعة ، وفيها كل شىء .

وأصحاب الجنة هؤلاء ورثوها عن أبيهم ، وكان أبوهم يجعل مما فيها من كل شىء حظاً للمساكين عند الحصاد والصرام ، فقال بنوه : المال قليل والعيال كثير ، ولا يسعنا أنْ نفعل كما كان يفعل أبونا ، وعزموا على حرمان المساكين فصارت عاقبتهم إلى ما قصَّ الله فى كتابه .

قال تعالى : ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) ﴾ [القلم] فحلفوا ليقطعن ثمر نخيلهم من غير أنْ يشعر المساكين ، فقد اتفقوا على قطف ثمار بستانهم فى الصباح ولم يقولوا : إن شاء الله ، فدمرها الله وأهلكها وهم نائمون ، وفى الصباح انطلقوا إلى جنتهم وهم يقولون فيما بينهم : ﴿ أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (٢٤) ﴾ [القلم]

وهكذا قطعوا الطريق على أنفسهم حينما حرموا المسكين : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) ﴾ [القلم] ثم تنبهوا إلى ما وقعوا فيه من خطأ وعادوا إلى صوابهم ، فقالوا : ﴿ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) ﴾ [القلم]

والصَّرم : القطع . أى ليقطعنها قبل أنْ يخرج المساكين فى الصباح .

﴿ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ١٨ ﴾

أى لم يقولوا إن شاء الله ، فإياك أنْ تقول إنى سأفعل شيئاً إلا أنْ تشتمله وتربطه بمشيئة الله ، لأنك إنْ دعوتَ فأنت لا تضمن عمرك ولا إنفاذ وعدك، وإنك لن تفعل شيئاً إلا بإرادة الله لذلك فلا تعد إلا بالمشيئة .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) ﴾ [الكهف] فالإنسان لا يملك الزمن ولا يملك المكان ، بل لا يملك الإنسان أنْ يظل السبب قائماً ليفعل ما كان يريد أنْ يفعله ، فكل هذه العناصر الفاعل والمفعول والزمان والمكان والسبب لا يملكها إلا الله .

لذلك فليحم الإنسان نفسه من أنْ يكون كاذباً ومجازفاً ، وليكن فى ظل قوله تعالى :﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ (٢٤) ﴾ [الكهف] ، فكلمة (إلا أن يشاء الله) تعصم الإنسان من أنْ يكون كاذباً .

وأنت لا تملك وجود نفسك ولا تملك وجود المفعول ولا السبب ولا تملك القدرة، ولا تملك شيئاً ، فأدباً منك عليك أنْ تقول : إنْ شاء الله . فإنْ لم يحدث تقول : أنا قلت إنْ شاء الله وهو لم يشأ فتكون قد خرجت من التبعة ولم تكن كذاباً .

ولكن بعض العلماء ذهبوا إلى تأويل ﴿ وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) ﴾ [القلم] أن معناه لا يتركون شيئاً من ثمر أشجار جنتهم ، فلن يتركوا شيئاً يوزعونه على الفقراء والمساكين كما كان يفعل أبوهم .

والحق سبحانه قرر حقاً للسائل والمحروم ، فقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) ﴾ [المعارج] ، فالحق المعلوم هو الزكاة ، أما المحسن فللسائل والمحروم فى ماله حق غير معلوم .

فلا يصح أنْ ينسب الإنسان المال كله لنفسه ، لأن له شركاء فيه هما السائل

والمحروم ، فالمال إذن ملكية صاحبه باستثناء حق السائل والمحروم .

ولم يحدد الحق سبحانه هنا هذا الحق بأنه حقٌّ معلوم ، بل جعله حقاً غير معلوم أو محدد ، والله سبحانه لم يفرض على المسلم إلا الزكاة ، ولكن مَنْ يرغب فى مقام الإحسان فهو يبذل من ماله للسائل والمحروم .

والشارع حين كفل هذا الحق للفقراء فإنما يحمى به الفقراء والأغنياء على حدٍّ سواء ، وقد حدد الشارع هذا الحق حتى لا تزهد فى العطاء خاصة فى الزكاة .

وقد رأينا بعض الفقهاء قد اعتبروا الزكاة ما دامت حقاً للفقير عند الغنى ، فإنْ منع الغنى ما قدره نصاب سرقة تُقطع يد الغنى ، لأنه أخذ حق الفقير .

وحق الفقير محفوظ فى ذمة صاحب المال ، وهذا أفضل للفقير ، فإن الغنى لو لم يُؤدِّ الزكاة فى ساعتها ، وبعد ذلك حدث أن هلك المال ، فالغنى ضامن لحقِّ الفقير .

فالغنى راعٍ لحقِّ الفقير وضرورى أنْ تجعله كنفسك ، فلا يكُنْ هيِّناً عليك فتمنعه حقه أو تعطيه أردأ ما عندك .

والله إنما أفاض عليك بالمال والغنى لترعى حقَّ الفقير ، فلا تبخس حقَّ الفقير .

وهؤلاء مكروا سيئاً فحاق بهم ما مكروه ، يقول تعالى : ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ (٤٣) ﴾ [فاطر] ، والذى يمكر يدارى نواياه فقد يظهر لك الحب بينما هو مبغض ، فمن أسس المكر التبييت ، وهو يحتاج إلى حنكة وخبرة ، فالذى يحاول التبييت قد يجد قبالته مَنْ يلتقط خبايا التبييت بالحدس والتخمين ، والله يُنزل العقاب على أصحاب المكر السيء .

فكان عقابهم :

﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

أى أرسل الله سبحانه مَنْ طاف بها ، أى مشى فى كل جزء منها فأحرق أشجارها ، فالطائف هو الذى يطوف .

ولا يكون الطائف إلا ليلاً ولا يكون نهاراً ، وهو أمر من أمر الله . فأرسل الله عليها عذاباً من السماء فاحترقت كلها ، وصارت سوداء كالليل المظلم .

﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ ﴾

والصريم هو الرماد الأسود فأصبحت سوداء محترقة كالليل ، وقد ذهب ما فيها من الثمر ، فكأنه قد صُرم وقُطع وجُذّ .

وهم أقسموا أنهم سيصرمونها ويجذُّون ثمرها قبل أنْ يصبح الصباح وقبل مجىء الفقراء لأخْذ صدقاتهم .

واستخدام الحق سبحانه لنفس مادة (صرم) دليلٌ كأنَّ الحق يقول لهم : أنتم أردتم صرمها وقطع ثمرها لأنفسكم فقط ، وها نحن صرمناها لكم فلم تستفيدوا بها عقاباً لكم على مكركم السيء .

﴿ فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

وعندما جاء الصباح تنادوا ونادى كلّ واحد على الآخر ﴿ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) ﴾ [القلم] ، فهم لم يصلهم أن بستانهم قد احترق ، وأن زرعهم قد ضاع وذهب .

وهـم ينسبون الثمر إلى أنفسـهم ، فيقولون ﴿ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ (٢٢) ﴾ [القلم] ، والحـرث محـلّ الإنبات والزرع ومحل الاستنبات ، والحرث أيضـاً هو الزرع المستنبت من الأرض .

والحـق سبحانه يُذكِّرهـم : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) ﴾ [الواقعة]

ويقول تعالى : ﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧) ﴾ [آل عمران]

فحتـى بعد أنْ ينمو الزرع ويُزهـر أو يثمر لا تأمن أنْ تأتيـه آفة أو تحلّ به جائحة فتهلكه ، فلا يراودك الغرور بعملك ، فإنْ كانت هذه صنعتكم فحافظوا عليها ، ولا تظنوا أنَّ لكم قدرة عليه .

لقد تنادوا مصبحين ﴿ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) ﴾ [القلم] أى إنْ كنتم جادّين فى تنفيذ ما تواعدنا عليه من قطع الثمر وجذّه والاحتفاظ به لأنفسنا ، أى إنْ كنتم حاصِدى زرعكم قبل أنْ يحضرها المساكين .

و ﴿ صَارِمِينَ (٢٢) ﴾ [القلم] من معانيها عازمين ، أى إنْ كنتم عازمين على صرم حرثكم فى هذا اليوم ، أى إنْ كنتم من أهل العزم والإقدام على آرائكم من قولك: سيف صارم .

﴿ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣) ﴾

والانطلاق فيه اندفاعٌ وتصميم وإرادة على فعل شىء ما ، وإرادتهم هنا متجهة إلى منع الخير عن الناس ، وهذا يتوافق ومثال لما ذكره الحق سبحانه قبل آيات ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ (١٢) ﴾ [القلم]

ولأنهم عزموا على فعل شىء سىء ولا يريدون أنْ يطلع عليه أحدٌ خرجوا

بعد أنْ تنادوا ، خرجوا وهم يتخافتون ، وهذه جملة حالية تصف حالهم حين الانطلاق ، فهم يتحركون فى الظلام كالأشباح يُحدِّثون بعضهم بأصوات خفيضة حتى لا يسمعهم أحد ولا ينتبه إليهم أحد .

والحق سبحانه يستخدم واو الجماعة هنا دليلاً على اجتماع رأيهم على هذا الفعل ، فليس فيهم أحد به نزعة خير أو دليل تراجع ، فتجد (أقسموا) (ولا يستثنون) (فتنادوا) (أن اغدوا) (فانطلقوا) (وهم يتخافتون) (وغدوا) .

فهناك اجتماع على نية القطع ، واجتماع على المسارعة فيه ، واجتماع على أمر خبيث فلم يعلنوه ولكن تخافتوا وأسرُّوا القول فيه ، فتخافتوا على ألاَّ يعطوا المساكين شيئاً .

وهم لا يمنعون المساكين حقهم من الحصاد والثمر ، بل إنهم سيمنعونهم حتى من مجرد الدخول فقالوا :

﴿ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ ﴾

فسيمنعون المساكين والفقراء من الدخول أصلاً ، ولو بالقوة فضلاً عن الطرد والزجر وإغلاق الأبواب واتخاذ كل وسائل المنع .

وهم يؤكدون كلامهم باستخدام النون المشددة ﴿ أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا (٢٤) ﴾ [القلم]

وقد كان المساكين يدخلون هذه الحديقة لأخذ نصيبهم منها ، هذا ما اعتادوا عليه من الأب ، أما الأبناء فكانوا مانعين للخير بخلاء قد أشربوا حبَّ الدنيا فى قلوبهم ، ولا يجدون لأحد عندهم حقاً .

وهم يعلمون مدى حاجة هؤلاء الناس وهم أنفسهم يقولون ﴿ أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (٢٤) ﴾ [القلم] إذن فهم يعترفون أن هؤلاء الناس مساكين محتاجون فقراء معدمون .

﴿ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

والغُدو الإبكار والإصباح . والحرد القصد . وهم كان قصدهم المنع ، والمحاردة المنع . يُقال : حاردتْ السَّنة إذا لم يكن فيها مطر ، وحاردت الناقة إذا لم يكُنْ لها لبن .

فما اتفقوا عليه وقصدوه بَنوْهُ على قصد وتأسيس ومؤامرة بينهم قادرين عليه في ظنهم ، وهو ما نقول عنه : سبْق الإصرار والترصد .

وهذا يعني أن الله قد غاب عن بالهم مدة التحضير لهذا التآمر ، اتفقوا وافترقوا وناموا وأصبحوا في الصباح مصممين على إنفاذ ما اتفقوا عليه وخرجوا معاً عامدين إلى منع المساكين من دخول حديقتهم بكل الوسائل .

ولغياب الله عن بالهم لم يدركوا أنهم إذا كانوا قد مكروا فإن الله قد مكر لهم سبحانه ، ويقول تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤) ﴾ [آل عمران]

فإذا كنتم قد مكرتم ودبرتم فإن لله تدبيراً آخر يعطيكم به درساً ، ولا تظنوا أنكم قادرون على شيء .

والحق سبحانه يقول : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ[1] بِالْأَمْسِ (٢٤) ﴾ [يونس]

فخيبة بعض الخلْق الذين يتوهمون أنهم قادرون على أنْ يخططوا ويمكروا متناسين أو ناسين أن فوقهم قيوماً لا تأخذه سِنَة ولا نوم .

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

---

(١) كأن لم تغن بالأمس : أي لم تنعم بالأمس . قال الطبري في تفسيره (١٥/٥٦) : كأن لم تكن تلك الزروع والنبات على ظهر الأرض نابتة قائمة على الأرض قبل ذلك بالأمس .

فهؤلاء اتفقوا على قطف ثمار بستانهم في الصباح ، ولم يقولوا : إنْ شاء الله، فدمّرها الله وأهلكها وهم نائمون ، وفي الصباح انطلقوا إلى جنتهم وهم يقولون فيما بينهم : ﴿ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (٢٤)﴾ [القلم]

وهكذا قطعوا الطريق على أنفسهم حينما حرموا المسكين ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) ﴾ [القلم] ثم تنبهوا إلى ما وقعوا فيه من خطأ ، وعادوا إلى صوابهم فقالوا : ﴿ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢)﴾ [القلم]

فهؤلاء لما وقفوا أمام جنتهم في الصباح وقد رأوها قد احترق ثمرها وحرثها وشجرها ، ظنوا أنهم قد ضلوا الطريق إلى جنتهم ، فالضلال المقصود هنا هو التيه ، أي أنهم تاهوا عن جنتهم ، لذلك قال البعض منهم : أخطأنا الطريق ما هذه بجنتنا .

لقد تركوها بالأمس عامرة بالثمار ، واليوم يجدون حطاماً وشجراً محترقاً يعلوه السواد قد احترقت الثمار التي كانوا يريدون قطعها وصَرْمها في الصباح دون أنْ يعطوا الفقراء حقهم من الحصاد الذي كانوا يأخذونه أيام أبي هؤلاء الأبناء .

فقد رأوها محترقةً لا شيءَ فيها قد صارت كالليل الأسود ينظرون إليها كالرماد ، لذلك شكُّوا أنْ تكون هذه جنتهم التي رأوها بالأمس ناضرة مزهرة عامرة بالثمار .

لذلك ظنوا أنهم تاهوا في الطريق إليها ، وأن هذه جنة غير جنتهم ، ولكن بعضهم قالوا : ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧)﴾ [القلم] ، مؤكدين أنها جنتهم فعلاً ، وأنهم لم يضلوا الطريق إليها ، بل إنها الحقيقة ماثلة أمامهم ، أنها جنتهم وأنهم إنما حُرموا خيرها وحُرموا من ثمرها بسبب نيتهم السيئة في عدم إعطاء الفقراء حقَّهم ، فكان عقابهم حرمانهم من ثمار جنتهم أصلاً .

فلا يجب أنْ نغتر بحركتنا فى الحياة ، لذلك يقول تعالى فى سورة الواقعة: ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) ﴾ [الواقعة]

فهذه الحبة التى تبذرها فى حقلك ، هل تجلس بجوارها تُنميها وتشدّها من الأرض فتنمو معك يوماً بعد يوم ؟ إن كل عملك فيها أنْ تحرث الأرض وتبذر البذور .

وحتى بعد أنْ ينمو الزرع ويزهر أو يثمر لا تأمن أنْ تأتيه آفة أو تحل به جائحة فتهلكه ، لذلك يقول تعالى : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) ﴾ [الواقعة]

والمحروم الذى يُصاب زرعه أو ثمره أو نسل ماشيته ، فيكون له حق على مَنْ لم يصبه ذلك من المسلمين ، وهنا لفتة عجيبة فهم قد أصبحوا محرومين أى مستحقين للزكاة ، وكأنهم بعد أنْ كانوا أصحابَ مال يتمثل فى جنتهم وكانوا أغنياء عن أنْ يمدوا أيديهم للناس ، بل هم الذين يعطون الناس .

لقد تحولوا إلى فقراء يستحقون عطف الآخرين عليهم ، لقد أنكروا على الفقراء حقهم فى زرعهم وزكاتهم وحصادهم ، فما بالهم اليوم ؟

لقد غفلوا عن حكمة الزكاة والصدقة وأنْ يعطوا الفقير مما رزقهم الله ، فالضعيف حين يجد نفسه فى مجتمع متكافل ويجد صاحب القوة قد عدّى من أثر قوته وحركته إليه ، أيحقد على ذى القوة ؟ لا ، لأن خيره يأتيه .

ونحن فى الريف نجد البهيمة التى تُدر لبناً ساعة تسير فى الحارة ، كان الكل يدعو الله لها ويقول : يحميك . لماذا ؟ لأن صاحبها يعطى كل مَنْ حوله من لبنها ومن جبنتها ومن سمنها .

لذلك يدعو لها الجميع ولا يربطها صاحبها ولا يعلفها ولا ينشغل عليها ،

والخير القادم منها يذهب إلى كل الأهل ، وحين نجد مجتمعاً بهذا الشكل ويجد العاجز من القوى معيناً له ، هنا يقول العاجز : إننى فى عالم متكامل .

وإذا ما وُجد فى إنسان قوة وفى آخر ضعف ، فالضعيف لا يحقد وإنما يقول: إنَّ خير غيرى يصلنى . وكذلك يطمئن الواهب أنه إنْ عجز فى يوم ما سيجد مَنْ يكفله والقدرة أغيار ما دام الإنسان من الأغيار ، فقد يكون قوياً اليوم ضعيفاً غداً .

لذلك نقول للذين يصلون إلى المرتبة العالية فى الغنى أو الجاه أو أى مجال. لهؤلاء نقول : احذروا حين تتم لكم النعمة ، لماذا ؟ لأن النعمة إنْ تمَّتْ لك عُلواً وغِنىً وعافية وأولاداً ، أنت من الأغيار ، وما دامت النعمة قد تمت وصارت إلى النهاية وأنت لا شكَّ من الأغيار ، فإن النعمة لا بد تتغير إلى الأقل .

فإذا ما صعد إنسان إلى القمة وهو متغير فلا بد له أنْ ينزل عن هذه القمة، ولذا يقول الشاعر :

إِذَا تَمَّ شَىءٌ بَدَا نَقْصُهُ ترَقَّبْ زَوَالاً إِذَا قِيلَ تَم

وخيرات الحياة من مال وثروة إنما تأتى نتيجة الحركة فى الحياة ، وحركة المتحرك فى الحياة تقتضى قدرة ، فإذا كان الإنسانُ عاجزاً ولا يجد القدرة على الحركة ، فمن أين يعيش ، إن الله لابد أنْ يضمن له فى حركة القادر ما يعوله .

لقد جعل اللهُ القدرةَ عرضاً من أعراض الحياة ، فالقادر اليوم قد يصير عاجزاً غداً ، وما دامت القدرة عرضاً من أعراض الحياة، فالقادر الآن عندما يسمع الأمر من الله بأنْ ينفق على غير القادر ، فلابد أنْ يُقدر فى نفسه أن قدرته هى عَرَض من أعراض الحياة ، والقادر الآن عُرْضة لأنْ يصير غداً من العاجزين ، ويقول القادر لنفسه : عندما أصبح عاجزاً سوف أجد مَنْ يعطينى.

أليس ذلك هو التأمين الحق ؟ إنه تأمين المؤمن ، فالمؤمن يعطى عند قدرته، وذلك حتى يُجنِّبه الله مشقة السؤال إنْ اصبح عاجزاً غير قادر ، فالأغيار إنْ جاءت سوف يجد مَنْ يعطيه .

وهنا أصحاب الجنة تحولوا بين ليلة وضحاها إلى محتاجين معوزين محرومين ، والمحروم محتاج للصدقة والزكاة والمساعدة ، قال تعالى : ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩)﴾ [الذاريات]

ويقول الحق سبحانه :﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥)﴾ [المعارج]

والحق سبحانه غنيٌّ عن الأغنياء من عباده ، لذلك يقول تعالى :﴿ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣)﴾ [البقرة] ، ففى ذلك تنبيه للقادر الذى حرم الفقير ، وكأنما يقول له: إنما حرمتَ نفسك أيها القادر من أجر الله .

إنك أيها القادر حين تحرم فقيراً فأنت المحروم ، لأن الله غنيٌّ عنك ، وهو سبحانه يقول : ﴿ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم (٣٨)﴾ [محمد]

إن الله غنى بقدرته المطلقة ، غنى وقادر أنْ يستبدل بالقوم البخلاء قوماً يسخون بما أفاء الله عليهم من رزق فى سبيل الله ، فالذى يمسك عن العطاء إنما منع عن نفسه باب رحمة .

وقد قال رسول الله ﷺ لأنس : يا أنس ويل للأغنياء من الفقراء يوم القيامة، يقولون : يا رب ظلمونا حقوقنا التى فرضتها عليهم . قال : وعزتى وجلالى لأقربنكم ولأبعدنهم .

فتلا رسول الله ﷺ هذه الآية (وفى أموالهم حق للسائل والمحروم)[1].

وقد كان رجل من أهل اليمامة له مال ، فجاء سيل فذهب بماله فقال رجل من أصحاب النبى ﷺ : هذا المحروم فاقسموا له[2] .

فالمحروم ضد المرزوق ، فهم ممنوعون من الانتفاع بثمرة كدِّهم وتعبهم لأنهم أرادوا قطع الثمر وأنْ لا يعطوا للفقراء حقهم .

فهؤلاء انقلب حالهم من الغنى إلى الفقر ، وأصبحوا محرومين مُستحقين للصدقة والزكاة بسبب نيتهم وإرادتهم السيئة .

وهنا بدأ الإخوة يتلاومون ويحاول كل منهم التملص من مسئولية ما حدث، فيقول الحق سبحانه عنهم :

﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

الوسط يعنى أن هناك طرفين حتى يتحدد الوسط ،هذا طرف ثم الوسط ثم طرف آخر ، ووسط الشيء منتصفه أو ما بين الطرفين . ولا بد أنْ تعرف الطرفين أولاً ثم تحدد ، لأن الوسط لا يُعرف إلا بتحديد الطرفين .

فالوسط فى موقع بين طرفين متناقضين ، وما دام الشىء فى الوسط فالطرفان متساويان ، وعندما نقول وسط فهذا يقتضى أنْ نجعل المسافة بينه وبين كل طرف متساوية ، وخير الأمور الوسط .

(١) أخرجه الطبرانى فى المعجم الصغير (٦٩٣) والمعجم الأوسط (٤٨١٣) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه . وأورده المتقى الهندى فى كنز العمال (١٥٨٢٢) وعزاه للعسكرى فى المواعظ وابن مردويه عن أنس .

(٢) أخرجه الثعلبى فى الكشف والبيان (٩/ ١١٢) عن أبى قلابة قال : كان رجل من أهل اليمامة له مال فجاء سيل فذهب بماله فقال رجل من أصحاب النبى ﷺ : هذا المحروم فاقسموا له . وقاله القرطبى فى التفسير (١٧/ ٣٩) وقال : قيل : إنه الذى يطلب الدنيا وتدبر عنه . وقال عبد الرحمن بن حميد : المحروم المملوك .

وتتحدد نهاية الطرفين من منطقة وسط الشى ، فالوسط هو الفاصل بين الطرفين ، فما على يمين الوسط يُعد طرفاً ، وما على يسار الوسط يُعد طرفاً آخر، وكل جزء بعد الوسط طرف ، وكذلك ما قبله .

وعادة ما يُعد الوسط هو نقطة المنتصف تماماً ، وما على يمينها يقسم إلى عشرة أجزاء ، وما على يسارها يقسم إلى عشرة أجزاء أخرى ، وكل قسم من تلك الأجزاء التى على اليمين والتى على اليسار يُعد طرفاً .

ومعنى أن الحق سبحانه يقول : ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ (٢٨)﴾ [القلم] هذا معناه أن الإخوة بعد أنْ عاينوا ما حدث لجنتهم وبستانهم وثمارهم لم يصبحوا على رأى واحد .

فهم حين الاتفاق على قطع الثمار والحصاد فى الصباح الباكر قبل أنْ يأتى الفقراء حتى لا يعطوهم منها شيئاً ، كانوا حينها على رأى واحد ، لذلك قال تعالى :

﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) ﴾ [القلم] ثم قال : ﴿ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣) أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥)﴾ [القلم]

وكانت لحظة الاختلاف فى الرأى بينهم هى ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦)﴾ [القلم] فقال بعضهم (إنَّا لضالون) أى نحن ضللنا الطريق إلى جنتنا وليست هذه جنتنا .

وبعضهم أيقن أن هذه هى الجنة التى تخصُّهم ، وأيقن أيضاً أن الله قد حرمهم أنْ ينتفعوا بثمرة جنتهم ، فقال : ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) ﴾ [القلم]

فالرأى الأول فى أنهم لم يسلكوا الطريق الصحيح إلى جنتهم وأنها ليست جنتهم لم يكن صحيحاً ، والرأى الآخر أنهم محرومون ممنوعون ، فجاء

أوسطهم وكأنه لا يغلق باب رحمة الله ، ووَصْف الحق سبحانه لهذا القول بأنه (أوسطهم) هو دليل على أن الله لم يغلق باب الرحمة فى وجوههم .

﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨) ﴾ [القلم] فرأيه أن المشكلة كانت أنهم لم يُسبِّحوا الله . أى : لم يستثنوا ويقولوا إنْ شاء الله .

وهذا فى الحقيقة ليس اختلافاً مع إخوته فى منع الفقراء من ثمرة جنتهم، إنما هو على سبيل تعليق الأمر على مشيئة الله ، كما يقول أحدنا للآخر : يا عم قول إن شاء الله .

وقد يكون سارقاً ، وقد تجده يخرج للسرقة ويقول : ربنا يسهل أو يقول : اتكالنا عليك يا رب ، ربنا يستر .

فقوله هذا ليس دليل خيرية مطلقة له ، بل هو دليل استهتار بعظمة الله وقدره وقد يعتبر دليلَ خير فى قلبه أنه لم ينس الله بالكلية ، فلا هو شديد العداوة للفقراء ، ولا هو يخدع نفسه ويقول : لقد ضللنا الطريق إلى جنتنا . فهذه ليست جنتنا .

ولم يقطع الأمل فى الله وأنهم كانوا الأجدر بهم أنْ يقولوا إنْ شاء الله .. وأنَّ الله لم يمنعهم الخير بالكلية وأن هناك فرصة أخرى لهم العام القادم ، لذلك فبعد مداولات كثيرة قالوا معاً : ﴿ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) ﴾ [القلم]

وقد يسأل أحدهم سؤالاً : هؤلاء أصابتهم جائحة لنيتهم السيئة لأنهم ظلموا أنفسهم ،فهل لا تصيب الجوائح والمصائب أصحاب النية الحسنة والذين لم يظلموا أنفسهم ؟

نقول : نعم تصيب الجوائح الجميع ، فالحق سبحانه يقول فى حق الذين ظلموا أنفسهم : ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ

يَظْلِمُونَ (١١٧) ﴾ [آل عمران]

فالذين ظلموا أنفسهم تنزل بهم هذه الكارثة كعقوبة ، مثلهم في ذلك مثل أصحاب الجنة الذين يقول فيهم الحق سبحانه :﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠)﴾ [القلم]

لقد جزاهم الله بظلمهم ، ولكن ألا نرى رجلاً لم يظلم نفسه وتصيب زراعته كارثة ؟ إننا نرى ذلك في الحياة ، والرجل الذي لم يظلم نفسه وتصيب زراعته كارثة ويصبر على كارثته يأخذ الجزاء والثواب من الله .

ولعل الله قد أهلك بهذه الكارثة مالاً قد أدخلته غفلته في ماله من طريق غير مشروع ، هكذا تكون الكارثة بالنسبة للمؤمن لها ثواب وجزاء أو تكون تطهيراً للمال .

ومن الظلم للنفس أنْ يظن الإنسان بقاء ما هو فيه من نعمة ، فلا أحد يضمن لنفسه أو لغيره هذا ، لذلك فإن صاحب الجنتين في سورة الكهف قال : ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِ أَبَدًا (٣٥)﴾ [الكهف]

فالظلم بنفسه هنا ليس أنه دخل جنته ، لا ؛ لأنها جنته يدخلها كما يشاء ، إنما المراد بالظلم هنا ما دار في خاطره ، وما حدَّث به نفسه حال دخوله ، فخطر بباله الاستعلاء بالغنى والغرور بالنعمة ، فقال : ما أظن أن تبيد هذه النعمة أو تزول هذه الجنة الوارفة أو تهلك ، لقد غرَّه واقع ملموس أمام عينيه استبعد معه أن يزول عنه كل هذا النعيم .

وكلمة (لولا) هنا تحضيضية ، أي ألم أقل لكم هلاَّ تُسبِّحون ، وهذا معناه أنه حثّهم على تسبيح الله وقول إنْ شاء الله إنْ أرادوا فعل شيء كهذا ، ولكنهم لم يستمعوا له ، فكان قوله غير مؤثر فيهم، فتبعهم هو فيما هم فاعلون .

ومجىء لولا هنا معناه أنهم لم يسبّحوا ولم يستثنوا وبالتالى فهم لم يصلوا إلى ما يريدون ولم يتحقق مبتغاهم .

وساعة تسمع كلمة (لولا) فهذا يعنى أن هناك حكماً بامتناع شيئين ، شىء امتنع لامتناع شىء ، مثل قولك : لو كان عندك زيد لجئتك . وهنا يمتنع مجيئك لامتناع مجىء زيد ، فكلمة (لولا) حرف امتناع لامتناع .

و (لولا) التى معنا فى الآية ﴿ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨)﴾ [القلم] جاء بعدها فعل مثل قولك : لولا فعلت كذا .

هنا يكون فى القول حضٌ على الفعل ، مثل قوله الحق : ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا (١٢)﴾ [النور]

ومثل قوله : ﴿ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ ..(١٣)﴾ [النور]

فـ (لولا) إنْ دخلت على جملة اسمية ، فالمقصود بها عدم شىء لوجود شىء ، كقولك لإنسان آخر : لولا زيد عندك لأتيتك ، وبذلك ينعدم ذهابه إلى فلان لوجود زيد عنده .وقد تكون لولا نقصد بها عدم شىء لامتناع وجود شىء . أما إنْ دخلتْ على جملة فعلية فاعلم أنها حثٌ وتحضيض .

فأوسطهم قال :﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨)﴾ [القلم] أى هلاَّ تستثنون فى قسمكم الذى أقسمتموه ويمينكم الذى حلفتموه ، فلولا قلتم سبحان الله فندموا على فعلهم .

﴿ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) ﴾

لقد رأوا أن ما قاله أوسطهم هو الصواب الآن ، فجنتهم قد احترقت وفقدوا حصاد هذا العام ، والظن أن هذه ليست جنتهم وأنهم ضلُّوا الطريق لم يعُدْ يفيدهم فى شىء ، ولم يعُد الهروب من الحقيقة مُجدياً .

لذلك قالوا مع أخيهم : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّنَا (٢٩) ﴾ [القلم]، فنزهوا الله عن أن يكون قد ظلمهم فى شىء مما حدث ، لذلك اعترفوا أنهم الذين كانوا ظالمين ، ولذلك استحقوا ما حدث لهم .

فـ (سبحان الله) تنزيه لذاته سبحانه عن كل صفة نقص من الممكن أنْ تلحق به سبحانه ، فكل صفاته وكل أفعاله هى صفات الكمال وهى أفعال الكمال .

والله لا يظلم أحداً ، والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ (٤٠) ﴾ [النساء]، ويقول : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٤٦) ﴾ [فصلت]، فما يحدث للناس إنما هو بما كسبته أيديهم من الذنوب والآثام .

﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٨٢) ﴾ [آل عمران]

والحق لا يريد الظلم على إطلاقه من نفسه أو منكم أنتم أيها العباد ، ولذلك يقول تعالى فى الحديث القدسى : « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلتُه بينكم محرماً ، فلا تظالموا »(١).

وأنت حينما تصنع سوءاً يضر بغيرك . فهذا اسمه (سوء) وهو ظلم لغيرك ، أما حين تصنع فعلاً تضرُّ به نفسك فهذا ظلم النفس .

فظلم النفس هو الفعل الذي يسىء إلى النفس وحدها ، أو أن الإنسان يصنع سيئة ويمتع بها نفسه لحظة من اللحظات ولا يستحضر عقوبتها الشديدة فى الدنيا وفى الآخرة .

فهم الذين ظلموا أنفسهم بما اقترفت أيديهم ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٧٧/٥٥) باب تحريم الظلم عن أبى إدريس الخولانى عن أبى ذر عن النبى ﷺ فيما روى عن الله أنه قال : يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ، يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم ، يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته . الحديث بطوله .

وَلَـكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ﴾ [النحل]

وهـم قد أقـروا بخطئهم فقالوا : ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) ﴾ [القلم]أي كنا ظالمين لأنفسنا بظلمنا لربنا فى أننا لم نُسبِّحه كما أمر ولم نُنزهه عن النقص ، ولم نستحضر مشيئته تعالى فيما نحن مُقدمون عليه ، ولأننا منعنا الفقراء حقهم.

وهو اعترافٌ باقترافهم الظلم ، والعجيب أنهم يقولون ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا (٢٩) ﴾ [القلم] ولم يقولوا : سبحان الله ، أو سبحان إلهنا . فهم لم يذكروه سبحانه بموجب ألوهيته ولكن بربوبيته طمعاً فى عطائه .

يقول أحد العابدين : أنا لا أواجه الله بعبوديتى ولكن أواجهه بربوبيته فأرتاح لأنه ربى ورب العالمين ، فالذى له أبٌ يعينه لا يحمل هماً ، فما بالك بالذى له رب يعينه وينصره ؟

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾
قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

فأقبل بعضهم على بعض يلوم بعضهم بعضاً على تفريطهم فيما فرّطوا فيه من الاستثناء وعزمهم على ما كانوا عليه من ترك إطعام المساكين من جنتهم .

فيقول كل واحد منهم للآخر : أنت السبب فيما حدث والذنب عليك ، وهكذا كل واحد يحاول أنْ يلقى المسئولية على غيره .

وسبب تلاوم الجميع أنهم جميعاً متورطون بشكل أو بآخر ، فمنهم مَنْ زيَّن الأمر ، ومنهم مَنْ قبل ووافق ، ومنهم مَنْ نصح وحذر واعتزل الأمر ، ومنهم مَنْ سكت وهو راضٍ ، لذلك أقبل الجميع ، يلوم بعضهم بعضاً .

لقد دار نقاش وحوار وتبادل اتهامات ، فواحد يقول للآخر : أنت خوَّفتنا بالفقر ، وثالث يقول : أنت الذى رغَّبتنى فى جمع المال ، ورابع يقول أنت الذى زيَّنت لى منع الصدقة عمن يستحقها من الفقراء والمساكين .

وكل إخوة أو مجتمع من الناس تكون فيهم الآراء المختلفة المتخالفة ، آراء تجنح نحو اليمين وآراء تجنح نحو اليسار ، وآراء فى الوسط بين الأمرين .

حدث هذا مع إخوة يوسف عندما عزموا على التخلص من يوسف عليه السلام لمحبة أبيه له أكثر منهم ، فكان اتفاقهم الذى تعددت فيه آراؤهم عند التنفيذ .

يقول الحق سبحانه عنهم أنهم قالوا : ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ[1] أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩) ﴾ [يوسف] قتْل ثم انخفض شرهم إلى الضرب والطرح أرضاً دون قتل ، وقد يموت عن غير قصد للقتل ، ثم ينخفض الشر مرة أخرى فيقول : ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (١٠) ﴾ [يوسف]

وهكذا نرى اختلاف الآراء عند التنفيذ رغم انعقاد العزم من الجميع على الفعل ، فتجد أحدهم يرفض مبدأ القتل ويستبدله بالإخفاء بإلقائه فى الجب .

ونلاحظ أن صاحب رأى الإخفاء فى الجب لم يقف بالعنف والمواجهة ضد اقتراح إخوته بقتل يوسف أو طرحه فى الأرض ، بل أخذ يستدرجهم ليستلّ منهم ثورة الغضب ، فلم يقل لهم :لا تقتلوه ، ولكنه قال ﴿ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ (١٠) ﴾ [يوسف] وفى نطقه لاسم أخيهم يوسف تحنينٌ لهم عليه أملاً فى أن يتراجعوا عن مخططهم .

---

(١) يخل لكم وجه أبيكم : يقبل بكليته عليكم ويخلص لكم عن شغله بيوسف . [التفسير الوسيط للواحدى ٢/٦٠١] وقال الزمخشرى فى الكشاف (٢/٤٤٧) : أى يقبل عليكم إقبالة واحدة لا يلتفت عنكم إلى غيركم . فكان ذكر الوجه لتصوير معنى إقباله عليهم لأن الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل بوجهه .

ولكنهم فى النهاية اعترفوا بخطئهم وأقروا بما فعلوه فى حقِّ أنفسهم ، بل وصل بهم الأمر أنهم دعوا على أنفسهم بالويل ، ﴿ قَالُوا يَٰوَيْلَنَا (٣١) ﴾ [القلم]

وهذا مثلما يجلس المجرم يُعزِّى نفسه نادماً يقول أنا مخطىء أنا أستحق السجن ، أنا كذا كذا . هى حالة من تأنيب الضمير وجَلْد الذات .

وكلمة الويل تُستعمل للتحسُّر على غفلة الإنسان عن العذاب ، وتعنى التحسُّر وقت رؤية هلاك جنتهم وبستانهم ، فهم فى موقف صعب فلا عودة لثمرهم الذى احترق وأصبح حطاماً ورماداً .

فلما وجدوا أنفسهم فى هذا الموقف لم يجدوا شيئاً إلا الحسرة فتوجهوا إلى أنفسهم ليقرعوها ويحكموا عليها بأنها تستحق ما نزل بهم .

فقولهم : ﴿ يَٰوَيْلَنَا (٣١) ﴾[القلم] هو نداء على العذاب ، كما تقول : يا بؤسى أو يا شقائى ، وهل أحد ينادى على العذاب أو البؤس أو الشقاء ؟ الإنسان لا ينادى إلا على ما يُفرح .

فهم يتحسَّرون ويندمون على ما كان منهم ، الآن يعلمون أنهم يستحقون ما نزل بهم ويلومون أنفسهم .

والويل هو الهلاك السريع ينادونه ، فهل يطلب الإنسان الهلاك ويدعو به لنفسه ؟ نقول : نعم حين يفعل الإنسان الفعل ويجد عواقبه السيئة ، وتواجهه الحقيقة المرَّة يميل إلى تعذيب نفسه ، ألاَ تسمع مثل هؤلاء يقولون : أنا أستحق .. أنا أستاهل الضرب . إنه لوم النفس وتأنيبها على ما كان منها فهى التى أوقعتْه فى هذه الورطة .

هم ينسبون الويل إلى أنفسهم فيقولون (يا ويلنا) مع أنه شىء خارج عن أنفسهم سيُعذَّبون به ، ولكن هذا دليل على أنهم سببُ ما وقع بهم ، وأنهم يستحقون هذا الويل ، وأنْ يكون مصاحباً وملازماً لهم .

﴿ قَالُوا يَـٰوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١) ﴾ [القلم] أى إنَّا كنا متجاوزين حدود الله تعالى ، فمنعنا حق الفقراء وتركنا تقديم مشيئة الله وتركنا تسبيحه وهو صاحب النعمة .

آباؤنا من قبل لم يطغوا بنعمة الله بل شكروها وأدوا ما عليهم فيها للفقراء، فأدام الله عليهم نعمته وزادها لهم ، أما نحن فقد كفرنا نعمة الله ولم نُقر بها ولم نُقر بحق الفقراء فيها ، فكان جزاؤنا أنْ أكلتْ النار ما كنا نملك .

وقد أشار الحق سبحانه إلى طغيان الإنسان بنعمة الله ، فقال الحق سبحانه :
﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (٧) ﴾ [العلق]

ذلك أن الإنسان يحرث الأرض فتعطيه الثمر ، فيعتقد أنه هو الذى أخضع الأرض ، ووضع لها قوانينها لتعطيه ما يريد .

الإنسان يظن أنه أخضع كلّ شيء بذاته ، بينما كل هذا مُسخّر من الله سبحانه لخدمة الإنسان ، وهو الذى خلق ووضع القوانين .

وأنت فى حياتك كلها ليس لك ذاتية ، فكلّ شيء حولك متغير بدون إرادتك، وأنت طفل محتاج إلى أبيك فى بدء حياتك ، فإذا كبرتَ وأصبح لك قوة واستجابت الأحداث لك فإنك لا تستطيع أنْ تجعل فترة الشباب والفتوة هذه تبقى .

فإذا وصلتَ إلى مرحلة الشيخوخة فستحتاج إلى مَنْ يأخذ بيدك ويعينك ، ربما على أدق حاجاتك وهى الطعام والشراب ، فأنت تبدأ بالطفولة محتاجاً إلى غيرك ، وتنتهى بالشيخوخة محتاجاً إلى غيرك ، وحتى عندما تكون فى شبابك قد يصيبك مرض يقعدك عن الحركة ، فإذا كانت لك ذاتٌ حقيقية فادفع هذا المرض عنك وقُلْ لن أمرض ، إنك لا تستطيع .

والله سبحانه أوجد هذه المتغيرات حتى ينتهى الغرور من الإنسان نفسه ويعرف أنه قوى قادر بما أخضع الله له من قوانين الكون ، لنعلم جميعاً أننا

محتاجون إلى القادر، وهو الله سبحانه.

فالله غنى بذاته عن كل خَلْقه، يغير ولا يتغير، يميت وهو دائم الوجود، يجعل من بعد قوة ضعفاً وهو القوى دائماً، ما عند الناس ينفد وما عنده تبارك وتعالى لا ينفد أبداً، هو الله فى السماوات والأرض.

إذن فليست لك ذاتية حتى تدَّعى أنك أخضعتَ الكون بقدراتك، لأنه لا قدرة لك أنْ تبقى على حال واحد، وتجعله لا يتبدل ولا يتغير.

والإنسان بطبيعته عندما يجد حياته مُكتفيةً بما يملكه قد يقع فيما قاله الحق سبحانه: ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (٧) ﴾ [العلق]

والإنسان قد يتجاوز حدوده ويتكبَّر على مَنْ حوله، بل وعلى ربه إنْ رأى نفسه صاحب ثراء، ولا يعصم الإنسان من مثل هذا الموقف إلا الإيمان بالله.

فالإنسان بدون منهج الله يسبح فى بحر الغرور والتكبر، ولكن مَنْ يحيا فى ضوء منهج الله فهو يعرف كيف يرعى الله فى كلِّ إمكانات أو ثراء يمنحه له الله، وينشر معونته ليستظل بها المحتاج غير الواجد.

وربما اغترَّ الإنسان بالأسباب وهى تستجيب له، فهو يحرث ويبذر ويروى وإذا بالأرض تعطيه أكلها، وهو يصنع الشىء فيستجيب له، كل ذلك قد يُغريه بأنَّ الأشياء استجابت لذاتيته فيذكره الله: ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (٧) ﴾ [العلق]

فالواجب أنْ نشكر نعمة الله ونؤديها فى مظانِّ الخير لها، فإنْ كان العبد سيؤديها بالشكر فقد نجح، وإنْ أدَّاها على عكس ذلك فهو يرسب فى الاختبار.

الحق سبحانه يبين دائماً أن كل الأسباب بيده، فنرى مَنْ يحرث ويبذر ويروى ويرعى ثم يقترب الزرع من النضج، ثم تأتى موجة حارة تميته أو ينزل سيل يجرفه.

والإنسان لا يذل إلا حين يعاني من آفة ما ، ولا يأتى طغيانه إلا عند استكمال النعمة فى الخارج والنعمة فى الداخل ، وإنْ بدأت النعمة فى الانقباض عن الإنسان فكبرياؤه يتطاير .

ومَنْ كان يستعرض قوته على الناس قد يرجو القيام من الرقود ليخطو بضع خطوات فلا يستطيع ، والإنسان لا يستغنى إلا بما هو ذاتى فيه ، لا بما هو موهوب له ، لذلك فعليه ألاَّ يغتر .

فالواهب الأعلى قد يقبض هبته ، فقد يأخذ منك العافية ، وكثيراً ما رأينا أصحاء قد مرضوا ، ورأينا أغنياء قد افتقروا ، وأصحاب جاه قد خرجوا من جاههم .

إذن فلا داعى للغرور ، لأن الله قد وهبك كل شىء ، وليس لك شىء ذاتى فيك أبداً ، لذلك يجب أنْ ينعدم الغرور ، فما دام كل ما فيك موهوباً من الواهب الأعلى سبحانه ، فالواهب قد يسلب ما وهب ، وما إنْ تُسلبُ من الإنسان نعمة فهو ينتبه ، فلا داعى إذن لأنْ يغتر أحدٌ حتى لا يسلم نفسه رخيصة للضياع .

ثم يقول الحق سبحانه عنهم أنهم قالوا :

﴿ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

الرغبة فى الشيء تعنى حبه وعشقه ، والرغبة فى الطريق الموصِّل إليه ، إلا أنك لم تسلك هذا الطريق بالفعل ، ولم تأخذ بالأسباب التى توصِّلك إلى ما ترغب فيه .

وهذا المعنى واضح فى قصة أصحاب الجنة التى نحن بصدد خواطرنا عنها، حيث يقول تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩)

فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠)﴾ [القلم]

فقد اتفقوا على قطف ثمار بستانهم فى الصباح، ولم يقولوا إنْ شاء الله، فدمّرها الله وأهلكها وهم نائمون، وفى الصباح انطلقوا إلى جنتهم وهم يقولون فيما بينهم:

﴿ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (٢٤)﴾ [القلم]، وهكذا قطعوا الطريق على أنفسهم حينما حرموا المسكين ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧)﴾ [القلم]

ثم تنبَّهوا إلى ما وقعوا فيه من خطأ وعادوا إلى صوابهم، فقالوا: ﴿ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢)﴾ [القلم]

أى: راغبون فى الطريق الموصّل إليه تعالى، فقبل أنْ تقول: أنا راغب فى الله. قل أنا راغب إلى الله. فالمسألة ليست حباً فقط بل حباً بثمن وسعى وعمل يوصلك إلى ما تحب.

إذن: قبل أنْ تكونوا راغبين فى ربكم ارغبوا إليه أولاً.

و (عسى) معناها فى اللغة الرجاء، كقول واحد: عسى أنْ يجيء فلان. أى أرجو أنْ يجيء فلان، أو قول واحد مخاطباً صاحباً له: عسى أنْ يأتيك فلان بخير، وقد يأتى فلان بالخير وقد لا يأتى، لكن الرجاء قد حدث.

وقد يقول واحد لصاحبه: عسى أنْ آتيك أنا بخير. هنا يكون الرجاء أكثر قوة لأن الرجاء فى الأولى فى يد واحد آخر غير المتحدث، أما الخير هنا فهو فى يد المتحدث، لكن أيضمن المتحدث أنْ توجد له القوة والوجود حتى يأتى بالخير لمَنْ يتحدث إليه ؟

وإذا قال قائل: عسى الله أنْ يأتيك بالفرج، وهذه هى الأوغل فى الرجاء، لكن هل منْ يقول ذلك واثق من أن الله يجيب هذا الرجاء ؟

قـد يجيـب الله وقد لا يجيـب وفقاً لإرادة الله ، لا لإرادة مَـنْ يرجو أو المرجو له .

وأصـحاب الجنة هنا فـى المرحلة الثانية من مراحـل الرجاء ، فهم يرجون أنْ يبدلهم الله جنة أخرى خيراً مما كانت لهم واحترقت بسـبب نيتهم السـيئة ، فيقولون : ﴿ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا (٣٢)﴾ [القلم]

وقد يجيب الله رجاءهم وقد لا يستجيب لرجائهم ، فـ (عسى) تُستخدم حين يأتى بعدها أمر محجوب نحب أن يقع .

﴿ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا (٣٢)﴾ [القلم]

وقد أبدلهم الله جنة خيراً من جنتهم لعلمه سـبحانه بصـدق توبتهم وصدق إقرارهـم بـالخطأ . حتى أن عبدالله بن مسـعود رضـى الله عنه قـال : بلغنى أن القوم أخلصـوا وعرف الله منهم الصـدق فأبدلهم بها جنة يُقال لها : الحيوان ، فيها عنب يحمل البغل منه عنقوداً واحداً[1] .

وقد فرَّق بعض العلماء بين التبديل والإبدال ، فهل الحق سـبحانه غيَّر حال جنتهم وصفتها من الحطام والحريق إلى النضارة والإزهار مرة أخرى ؟ وعين الجنة هى نفسها .

أم أنه سـبحانه أبدلهم بها جنة أخرى تماماً فى مكان آخر غير هذه العين ؟ على اختلاف بين العلماء .

ويذكـر العلمـاء أنَّ هـؤلاء كانـوا من أهل اليمـن ، وقد كانـت اليمن مملوءة بالجناتِ والبسـاتين ، قال تعالى عن قومِ سبأ وهم من اليمن : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥)﴾ [سبأ]

---

(١) أورده البغوى فى تفسيره (٥/ ١٣٩) (٨/ ١٩٧) والزمخشرى فى الكشاف (٤/ ٥٩٢) والنسفى فى تفسيره (٣/ ٥٢٣) ، وأبو الطيب محمد صديق خان فى (فتح البيان فى مقاصد القرآن) (١٤/ ٢٦٩).

جنان عن أيمانهم وجنان عن شمائلهم ، ورغم هذا لم يشكروا الله على ما وهبهم الله من بلد طيب ورب غفور لهم ، ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ(١) وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ(٢) وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ﴾ [سبأ]

فأهل سبأ رزقهم الله فأعرضوا عن شكره سبحانه ، كانوا يتيهون بالسد الذى يحفظ لهم مياه الأمطار ويمدّهم بما يحتاجون إليه منها طوال العام ، فكان هذا السد هو النكبة أو الكارثة التى أهلكت زرعهم .

وقد كان مسكن مملكة سبأ آية دالةً على قدرة الله ، حديقتان وارفتان عن يمين وشمال ، ليأكل أهل سبأ من رزق الله ويشكروا نعمة الله ، ولكنهم أعرضوا عن الرزق الوفير الذى منحهم الله إياه فكانت عاقبة إعراضهم أنْ أرسل الله عليهم سيل العرم ، فسلَّط الله عليهم حيواناً من أضعف الحيوانات وأحقرها وهو الجرذان فنقب السد فأغرق أموالهم ودفن بيوتهم .

أما أصحاب الجنة فكانوا أهل خير لخيرية أبيهم ، لذلك اعترفوا بذنبهم وتابوا إلى الله ، وقد كانوا راغبين فى قبول توبتهم ، ﴿ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) ﴾ [القلم]

ولابدّ أنْ نعى هنا تكرارهم وتأكيدهم على ربوبية الله لهم ﴿ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا .. (٢٩) ﴾ [القلم] ، ﴿ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا (٣٢) ﴾ [القلم] ، ﴿ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) ﴾ [القلم]

فتكررت كلمة (ربنا) ثلاث مرات ، لذلك فهم راغبون طامعون فى فضل الله بموجب ربوبيته سبحانه لهم .

---

(١) العرم : السد والمسناة التى تحبس الماء واحدتها عرمة وأصلها من العرامة وهى الشدة والقوة [الثعلبى فى الكشف والبيان ٨/٨٣] وقيل : العرم هو المطر الشديد من العرامة وهى التمرد والعصيان . وقال ابن الأعرابى : العرم السيل الذى لا يُطاق . [التفسير الوسيط للواحدى ٣/٤٩١] .

(٢) الخمط : شجر الأراك وقيل كل شجر ذى شوك ، والأثل : شجر يشبه الطرفاء أعظم منه وأجود عوداً .

ويُقـال رغب فـى كـذا أى أراده . ويُقال : رغب عـن كذا أى ترك هـذا الأمر . ويُقال : رغب إلى كذا أى سار فى الطريق نحوه .

وهنا قال الحق ﴿ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) ﴾ [القلم] ، وما دمنا إلى الله راغبين، فكان يجب ألاَّ نعـزل عطاء الدنيا عن عطاء الآخرة . فالدنيا ليست كل شىء عندك ، ما دمتَ راغباً إلى الله الذى سيعطيك نعيماً لا حدود له فى الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٣٣ ﴾

(كذلـك) إشـارة إلى عذاب الدنيا الذى عاينـوه فى احتراق جنتهم وفقدانهم لثمرهم ، فكما فعلنا بجنة أصحاب الجنة فعلنا بمن خالف أمرنا وكفر برسلنا فى عاجل الدنيا .

فبمثل هذا العذاب الدنيوى سنعذب هذا الذى قال أن القرآن ما هو إلا أساطير الأولـين ، وذلـك فى قوله تعالى : ﴿ أَنْ كَانَ ذَا مَـالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (١٥) ﴾ [القلم]

فـكأنَّ الحـق سـبحانه أورد قصـة أصـحاب الجنـة لـيرد بها على مَـنْ كفر بالقـرآن وبأنــه وحـى من عنـد الله ، فالله أعطـاه المال والبنين ومـع هذا كفر بالله ، وأصـحاب الجنة أعطاهم الله الثمر النضر والجنة الوارفة ولكنهم بسـبب معصيتهِم وإرادتهم منع حق الله زالتْ جنتهم .

فكذلك سيكون العذاب ، فمثل هذا العذاب الذى ينزل بأصـحاب الجنة ينزل العذاب بقريش ، وقد أصاب قريشاً جدب أصابهم سبع سنين حتى رأوا الدخان وأكلوا الجلود .

والحق سبحانه صدَّر قصة أصحاب الجنة بقوله : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ .. (١٧) ﴾ [القلم]

فإنَّا لم نُعطهم وننعم عليهم بالمال والبنيِن إلا لنختبرهم ونبتليهم ونمتحنهم، ولكنه استعمل هذا فى مخاصمة الحق سبحانه ومخاصمة دعوة الله والصَّد عن دين الله .

لذلك كان عذابهم مشابهاً لعذاب أصحاب الجنة ، وليعلم الجميع أن عذاب الآخرة أكبر ، فقال تعالى ، ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ (٣٣) ﴾ [القلم]

ولا تعتقدوا أن تعذيبى إياكم فى الدنيا سيعفيكم من عذاب الآخرة ، فالعذاب فى الدنيا قد يصيب مَنْ آمن بى ومَنْ كفر بى ، أما مَنْ كفر فإننى أضيف إلى عذابه فى الدنيا عذاباً آخر أكبر فى الآخرة .

وهناك ألوان متعددة من عذاب الآخرة ، فهناك العذاب العظيم والأليم والمهين والمقيم ، والعذاب العظيم يأتى إما بأسباب وإما بمسبب ، وعذاب الدنيا كله بأسباب ، فقد يكون العذاب بالعصا أو بالكرباج أو بالإهانة ، والأسباب تختلف قوة وضعفاً .

أما عذاب الآخرة فهو بمسبِّب ، والمعذِّب فى الآخرة واحد وقوته لا نهايةَ لها، وإنْ قِسْتَ عذاب الآخرة بالعذاب فى الدنيا فمن المؤكد أن عذاب الآخرة عذاب عظيم ، وهو أكبر من كل عذاب .

والحق سبحانه يسمي عذاب الآخرة بأنه عذاب الخلد ، فيقول : ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ .. (٥٢) ﴾ [يونس]

فـ ﴿ عَذَابَ الْخُلْدِ (٥٢) ﴾ [يونس] هو عذاب لا ينتهى ، أما عذاب الدنيا فموقوت فيه خزىٌ وهوان ، لكن محدوديته فى الحياة تجعله عذاباً قليلاً بالقياس إلى عذاب الآخرة المؤبد .

فعذاب الآخرة هو أشدّ شراً من عذاب الدنيا ، وعذاب الدنيا مهما بلغ فلن يصل إلى مرتبة عذاب الآخرة .

وقد أسماه الحق سبحانه بالمشهد العظيم ، وقد قال الحق سبحانه : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) ﴾ [مريم] ، فهو يوم مشهود يشهده الجميع ، لأن العذاب في الدنيا مثلاً لا يشهده إلا الحاضرون المعاصرون ، ولا يشهده السابقون ولا اللاحقون ، أما عذاب الآخرة فهو المشهد العظيم الذي يراه كل الخلق .

ومَنْ أفلت من عذاب الدنيا فلن يفلت من عذاب الآخرة .

﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣) ﴾ [القلم] ، فالله ينفي عنهم العلم ويُشكك في علمهم ، فالعلم الذي لا يخضع حركة الإنسان له فكأنه لم يعلم شيئاً ، فالعلم لم يثبت لهم لأنهم لم ينتفعوا به .

والحق سبحانه يقول ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) ﴾ [الروم]، فنفى عنهم العلم الحقيقي ، وأثبت لهم العلم الدنيوي الظاهري ، فقال تعالى : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٧) ﴾ [الروم]

فقوله : ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣) ﴾ [القلم] يحتمل أنْ تكون الجملة هنا امتناعية يعني امتنع علمهم بها ، أو تكون تمنياً يعني : ياليتهم يعلمون هذه الحقيقة ، حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة .

فهم لو علموها لأقبلوا على منهج ربهم لينالوا كل هذا العطاء الممتد ، ولسلكوا طريق الإيمان بدل طريق الكفر فكأنَّ المعنى أنهم لم يعرفوا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (٣٤) ﴾

المتقون جمع مُتقٍ ، والاتقاء من الوقاية والوقاية هي الاحتراس والبُعد عن

الشر ، لذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ (٦)﴾ [التحريم]

أى اعملوا بينكم وبين النار وقاية ، احترسوا من أنْ تقعوا فيها ، فلا تفعلوا ما يغضب الله حتى لا تُعذَّبوا فى النار ، فلتجعل بينك وبين النار وقاية بأنْ تترك المعاصى وتفعل الخير.

والتقوى من عجائب التأويل القرآنى ، فالقرآن يقول : (اتقوا الله) ويقول: (اتقوا النار) ، والمعنى عند تحقيق الأمر واحد ، لأن اتق النار يعنى : اجعل بينك وبين النار وقاية وحاجزاً يمنعك منها ، كذلك اتق الله ، لا أن تجعل بينك وبين ربك حاجزاً لأن المؤمن دائماً يكون فى معية الله.

إنما اجعل بينك وبين صفات الجلال ومتعلقاتها من الله وقاية ، اتقِّ صفات المنتقم الجبار القهار . والتقوى أنْ تبعد شيئاً ضاراً عنك ، فعندما تُبعد عنك الكفر الذى يُوردك النار ، أو تُبعد عنك الشح والبخل ، أو تُبعد عنك مخالفةَ أوامر الله ، فهذا هو عينُ التقوى .

والمتقون هم الذين يُحبُّون أنْ يتقوا الله بألاَّ يكونوا كافرين به ، وما دام الإنسانُ اتقى الكفر فهو محسن ومؤمن ، فالتقوى وقاية واحتراس وبُعد عن الشر . فساعة تسمع كلمة (المتقون) أو اتقوا ، فذلك يعنى أنهم جعلوا وقايةً بينهم وبين شيء ، ولا يُطلب منك أنْ تجعل وقاية بينك وبين شيء إنْ كنت لا تتحمل هذا الشيء .

فأنتم لا تتحملون غضب الله ولا قهر الله ولا بطش الله ، فاجعلوا بينكم وبين صفات جلاله وقاية، ومن آثار صفات جلاله تعالى النار .

والمتقون هم الذين يخافون الله وتثمر فيهم الموعظة والعبرة والحق ، وأساس التقوى والخوف من الله هو يوم الدين ، والمتقى يهذِّب ويشذِّب سلوكه فيبتعد عن المعاصى ويبتعد عن شَرَه مادية نفسه .

والتقوى هى أنْ تتقى معضلات الحياة ومشكلاتها بأنْ تلتزم منهج الله،

وساعةَ ترى منهج الله وتطبقه فأنت اتقيت المشكلات ، أما مَنْ يُعرض عن تقوى الله فإن الله يقول عن مصيره ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا (١٢٤) ﴾ [طه]

وكلام الحق سبحانه هنا عن المتقين وما أعدَّه لهم يأتى بعد كلامه سبحانه عن أصحاب الجنة وما حدث لجنَّتهم من احتراقها بسبب عزمهم على حرمان أصحاب الحقوق من حقهم ، فقال تعالى :﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا[1] مُصْبِحِينَ (١٧) وَلا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ[2] وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) ﴾ [القلم]

وذلك بسبب عدم تقواهم وخوفهم من الله المطلع عليهم ، وهذا ضعف فى الإيمان ، لذلك تجدهم خافوا من رؤية أصحاب الحقوق لهم أو شعورهم بما ينتوون فعله .

قال تعالى عنهم : ﴿ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) ﴾ [القلم] ثم قال : ﴿فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣)﴾ [القلم] أى يتشاورون فيما بينهم بكلام خفى لا يسمعه أحد ، فهم يتسارُّون ويتحدثون سراً ، أنْ لايدخلنها اليوم عليهم مسكين .

إنهم يخشون الناس ويخشون اطلاع الناس عليهم ولا يخشون الله .

وقد أكد الحق سبحانه على ثواب المتقين باستخدام (إنَّ) وهى لتوكيد الأمر، ثم يقول سبحانه ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ (٣٤)﴾ [القلم] فهذا الأجر وهذا الثواب هو عند ربهم عند مالك أمرهم .

وكلمة ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ (٣٤)﴾ [القلم] لها ملحظ ، فعندما يكون لك الأجر عند المساوى لك قد يأكلك ، أما أجرك عند رب تولّى هو تربيتك فلن يضيع أبداً .

والمؤمن هو مَنْ ينظر بثقة إلى كلمة ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ (٣٤)﴾ [القلم] أى الرب

---

(١) يصرمنها : يقطعنها . صرمه قطعه أى يقطعون ثمارها . والصرم : القطع مادياً كقطع الثمار . والصريم : الأرض التى قُطعت أشجارها ولا نبات فيها . (القاموس القويم ١/ ٣٧٥)

(٢) الطائف هنا العذاب المحيط . ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ (١٩) ﴾ [القلم] أى أحاط بها دمار وهلاك سلطه الله عليها .

المتولِّى التربية والذى يتعهد المربَّى حتى يبلغه درجة الكمال المطلوب منه .
والعندية هنا هى عند الرب الأعلى .

وقد ذكر الحق سبحانه لفظة ﴿ عِنْدَ رَبِّهِمْ (٣٤)﴾ [القلم] فى آيات كثيرة منها:
﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ[1] عِنْدَ رَبِّهِمْ (٢)﴾ [يونس]

وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ (٦٢)﴾ [البقرة]

ويقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢)﴾ [البقرة]

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ (٢٧٤)﴾
[البقرة]

فالذين آمنوا والذين ينفقون أموالهم لهم عند ربهم أجرهم فهؤلاء يتقون الله يؤمنون بالله وينفقون من مال الله الذى وهبهم إياه ، وهذا لعظيم إيمانهم باطلاع الله عليهم .

فالذين منعوا حقَّ المساكين والفقراء وتآمروا على أنْ يقطعوا ثمر الحديقة فى الخفاء دون حضور أصحاب الحقوق إيمانهم به ضعف لأنهم ظنوا أنّ الله غيرُ مطلع عليهم .

وكلمة ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ (٣٤)﴾ [القلم] فى القرآن ليست خاصة بمن آمن بالله لأنَّ الله ربٌّ لجميع خَلْقه مؤمنهم وكافرهم ، لذلك قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ (١٢)﴾ [السجدة] فالله ربٌّ لمن أجرم أيضاً وليس لمن آمن فقط ، إذ كيف يخلقهم ويتركهم دون رعاية ورزق ، وهم فى النهاية سيقفون أمامه سبحانه فهو ربهم شاءوا أم أبوا .

والعندية هنا هى عند الربِّ الأعلى ، فماذا أعدّ المربِّى الأعلى للمتقين ؟ لقد

---

(١) قدم صدق : منزلة عالية ومثوبة عظيمة على مآثر ومكارم وأفعال خيِّرة قدَّموها أولهم سابقة خير وسعى مشكور . [القاموس القويم للقرآن الكريم ٢/١٠٧] .

أعدَّ لهم ﴿ جَنَّاتِ النَّعيم (٣٤)﴾ [القلم]، وجنات النعيم جناتٌ دائمة فلا أنت تموت ولا هى تذهب ، ولا هى كجنتكم التى احترقت والتى طاف بها طائفٌ من النار فأصبحتْ حطيماً كالصريم .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩)﴾ [يونس]

ويقول الحق سبحانه : ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦)﴾ [الحج]

فالحق سبحانه يذكر جزاء الإيمان والعمل الصالح ﴿ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٣٤)﴾ [القلم] فهى جنات لا جنة واحدة ، ثم هى جنات النعيم أى المقيم الذى لا تفوته ولا يفوتك .

فالجنات نفسها متنوعة ، فهناك جنات الفردوس وجنات عدن ، وجنات النعيم ، وهناك دار الخلد ودار السلام وجنة المأوى ، وهناك عليُّون الذى هو أعلى وأفضل الجنات ، وأعلى ما فيها التمتع برؤية الحق تبارك وتعالى .

هذه الجنات فضلٌ من الله عز وجل ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦)﴾ [الذاريات]

﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ[1] وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥)﴾ [آل عمران]

وجنات الآخرة هى جنات النعيم ، فالمؤمن يجد فى جنة الآخرة كلَّ ما تشتهيه الأنفسُ وكلّ ما يخطر ببال مَنْ يرزقه الله الجنة سوف يجده ، بل وما لا يخطر بباله!! والحق سبحانه قد أعدَّ هذه الجنات لـ ﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (١٧)﴾ [آل عمران]

وهذه كلها صفات الذين اتقوا الله ، وأعدَّ الله لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار والأزواج المطهرة ورضوان من الله أكبر . والله جعل الإنفاق وصْفاً من

---

(١) أزواج مطهرة : عفيفة مؤمنة صالحة . طهرهن الله من كل بول وغائط وقذر ومن كل مأثم .

أوصاف الذين اتقوا ، والذين أعدَّ اللهُ لهم جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار ، وذلك حتى يحمى الله الضعيفَ الذى خلقه اللهُ لحكمة فى الوجود .

والإنفاق ليس أخْذاً من العبد إنما هو مناولة ، هذه المناولة تتضح فى أنه ما كان لك ما يزيد عن حاجتك إلا بحركتك فى الحياة .

هذه الحركة فى الحياة تتطلب عقلاً يخطط للحركة ، وجوارح تنفذ المخطط الفكرى ، ومادة يتم الفعل فيها سواء كانت أرضاً تتم زراعتها أو آلة يتم الصُّنْع بها ، ولا شيءَ للإنسان من هذا فى الكون .

إن المخ الذى يدبر هو عطاءٌ من الله ، والطاْقة التى تنفذ هى عطاء من الله، ونحن نرى فى الحياة إنساناً قد نزع الله عنه المخ الذى يفكر ويدبر ، ونجد إنساناً آخر قد نزع الله منه الطاقة التى تنفذ ، فقد يمنع الله عن عبد المادة التى يتفاعل معها .

إذن فلا شيءَ من هذه الأشياء ذاتىٌّ للإنسان ، إنها كلها عطاء من الله ، فليعمل المؤمن مُضارباً عند الله ، وليُعْط المؤمن للعاجز حقَّ الله ، إنَّ الله لا يأخذ هذا الحق لنفسه إنما يريده الله لأخيك العاجز ، وسوف يطلب الله هذا الحقَّ لك إذا ألمَّت بك حاجةٌ من فقر أو عجز بسبب الأغيار .

هكذا يكون الإنفاق الذى منعه أصحاب الجنة عن الفقراء هو صفة من صفات الذين اتقوا ربهم ، ففى النفقة حمايةُ العاجز الذى لا يقدر .

والجنة ستكون نعيماً ليس على قدر تصوُّرك ، ولكن على قدر كمال وجمال قدرة الحق ، فالنعيم الذى يتنعم فيه الإنسان يكون على قدر التصور فى معطيات النعيم .

وقد يقول عمدة إحدى القرى : أريد أنْ أبنى مَضْيَفة وحجرة للتليفون ومصطبة نفرشها ، هذا هو النعيم فى تصوُّر العمدة ، لكن كيف يكون النعيم عند صانع كلِّ التصورات وهو الحق سبحانه ، لذلك تكون جناتُ النعيم دائمة ، فلا أنت تموت ولا هى تذهب .

فهم خالدون فى نعيم الجنة ، والحق سبحانه يخاطب قوماً شهدوا بعض النعيم فى دنياهم من آثار نعمه عليهم ، لكنهم شهدوا أيضاً أن النعمة تزول عن الناس ، أو شهدوا أناساً يزولون عن النعمة .

فقال سبحانه عن جنة الآخرة : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا(٥٧)﴾ [النساء] فلا هى تزول عنهم ، ولا هم يُزحزحون عنها .

والجنة على إطلاقها تنصرف إلى جنة الآخرة فهى الجنة بحقٍّ ، أما جنة الدنيا فمن الممكن أنْ يتصوّح نباتُها وشجرها وييبس ويتناثر أو يحترق كما حدث لأصحاب الجنة ، أو يصيبها الجدب ، أما جنة الآخرة فهى ذات الأُكل الدائم .

فالدنيا بكل ما فيها من نعيم هو نعيم على قدر إمكانات الإنسان وتصوُّره، وهو نعيم مهدد بشيئين : أن يزول النعيم عن الإنسان وكثيراً ما رأينا منعَّمين زال عنهم النعيم ، أو أنْ يترك الإنسان هذا النعيم بالموت ونرى ذلك كثيراً .

أما النعيم الذى هو الفوز العظيم فهو النعيم الموصول الذى لا يمنعه أحد ولا يقطعه شىء .

وقد قال الحق سبحانه : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (٢٩)﴾ [الدخان]

فهؤلاء كانوا فى نعمة وفى جنات وعيون وزروع وقد كانوا يتنعمون فيها ولكنها نعمة موقوتة ولذلك تركوها وذهبوا وورثها قومٌ آخرون ، فهذا ليس نعيماً على الحقيقة ، إنما النعيم على الحقيقة هو نعيم الآخرة النعيم الذى لا يزول .

وكلمة (جنات) تؤدى ما نعرفه من المكان المحدد الذى يجمع صنوف الزروع والثمار مما نقتات ومما نتفكَّه به ، وتسمى جنة وتسمى جنات ، لأن المادة كلَّها تدل على الستر والتغطية .

فالجنة هى المكان الممتلىء بالزروع والثمار وتعلو الأشجار فيه وتكثف وتلتف أغصانها وفروعها بحيث تستر مَنْ يكون بداخلها وتستره أيضاً عن بقية الأمكنة، لأنه لا حاجة له إلى الأمكنة الأخرى.

ففى الجنة كلُّ مقومات الحياة من غذاء وفاكهة ومرعى، وماء وخضرة ومتعة، وفيها كل شىء، كما تسمى البيت العظيم المكتمل الذى يضم ويشتمل على كل المرافق «قصراً» لأنه قصرك عن أيِّ مكان سواه لأن فيه الأشياءَ التى تحتاج إليها كلها فلا تحتاج إلى شىء بعده.

وقد يسأل سائل: لماذا أتى الحقُّ سبحانه بلفظ الجنة هنا جمعاً فقال: (جنات) مع أنه سبحانه ذكر فى آيات أخرى الجنة مفردة، وفى آيات ذكرها مثنى (جنتان).

وليس معنى أن الحق سبحانه قال (جنات) أن كلَّ مؤمن يدخل كل الجنات، ولكن المعنى والمقصود أنْ يدخل كلّ منهم جنته على حسب الأعمال التى اكتسبها، والمنزلة التى وصل إليها.

ومن المهم أنْ نعلم أنَّ صاحب الجنة عالية المنزلة لن يتلقى حسداً من صاحب الجنة متوسطة المنزلة، وصاحب الجنة الدنيا لن يحسد مَنْ هو أعلى منه، وكذلك لن يزهو صاحب الجنة عالية المنزلة على غيره.

وكل واحد منهم يفرح بمكانة الآخر، مثلما يحدث أحياناً فى الدنيا حين يتفوَّق إنسانٌ فى دراسته فقد نجد مَنْ هو أقل منه درجة يفرح له بصفاء نفسى، وكذلك لا يزهو متفوق بمكانته على الأدنى منه. وإذا كان ذلك هو ما يحدث فى الدنيا فما بالنا بالآخرة؟

حيث يقول الحق سبحانه: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٧) ﴾ [الحجر] أى أنَّ كلاً من أهل الجنة يفرح بمنزلته ويفرح بمنزلة الأعلى منه لأنه سينال من فيوضات الخير التى عند الأعلى منزلة عندما يأتى لزيارته.

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) ﴾ [الرحمن] فكلُّ مَنْ علَتْ منزلته فى الجنة له جنة خاصة به ، وجنة أخرى ليتكرم بها على مَنْ هم دونه وكأنها مَضْيَفة لمن يحبهم .

إذن ففى الآخرة يفرح أهلُ الجنة بمَنْ هم أعلى منهم ، لأنهم سينالون منهم خيراً .

وأهل الجنة لا يعرفون الحقد والحسد ولا الغلَّ ، وقد قال رسول الله ﷺ لأصحابه وهم جالسون معه ذات يوم : « يطلع عليكم الآن رجلٌ من أهل الجنة » . ودخل رجل وعرفه الصحابة فأرادوا أنْ يعرفوا ماذا يعمله هذا الصحابى حتى يستحقّ بشارة رسول الله ﷺ بالجنة .

قالوا له : ونحن نريد أن نعرف ماذا تفعل لنكون معك . فقال الرجل : إنى لأصلِّى كما تُصلُّون ، وأصوم كما تصومون ، وأزكِّى كما تُزكون ، ولكنى أبيت وليس فى قلبى غِلٌّ لأحد .

فذهبوا إلى رسول الله ﷺ وقالوا له : لقد قال الرجل كذا وكذا . فقال ﷺ : « وهل فُضلتْ الجنة على الدنيا إلا بهذا »[1] .

يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٧) ﴾ [الحجر]

ولنعلم أنَّ الحق سبحانه لم يخلق للمتقين جناتٍ تكفيهم وحدهم ، أو يخلق للكفار ناراً تكفيهم وحدهم ، بل خلق لكلِّ واحد من خَلْقه إلى أنْ تقوم الساعة جنة ، ولكلٍّ واحد من خَلْقه إلى أنْ تقوم الساعة ناراً .

(١) عن أنس بن مالك قال : كنا يوماً جلوساً عند رسول الله ﷺ فقال : يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة . فطلع رجل من أهل الأنصار تنطف لحيته من وضوئه قد علق نعليه فى يده الشمال فسلَّم . قال أنس : كان عبد الله يحدث أنه بات معه ثلاث ليال فلم ير يقوم من الليل شيئاً غير أنه إذا تعار انقلب على فراشه وذكر الله وكبَّر حتى يقوم لصلاة الفجر غير أنى لم أسمعه يقول إلا خيراً فلما مضت الثلاث وكدت أحتقر عمله ... فكان رده : ما هو إلا ما رأيت غير أنى لا أجد فى نفسى على أحد من المسلمين غشاً ولا أحسده على ما أعطاه الله إياه إليه . (الزهد لابن المبارك ٦٩٤) .

فإذا دخل أهلُ الجنةِ الجنةَ بقيتْ الجناتُ التى خلقت ولم يدخلها أحد ، لأن أصحابها من أهل النار ، فيورثها الحق سبحانه للمؤمنين من أصحاب الجنة، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) ﴾ [الزخرف]

أما نعيم هذه الجنات فالاستجابة لمنهج الله تعطيك الحياة العالية فى الآخرة وتمتعك بنعيم الله ، ليس بقدرات البشر كما يحدث فى الدنيا ، ولكن بقدرة الله تبارك وتعالى .

وإذا كانت نِعَم الدنيا لا تُعدُّ ولا تُحصَى فكيف بنعم الآخرة ؟

لقد قال الله سبحانه وتعالى عنها : ﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥) ﴾ [ق] أى أنه ليس كلّ ما تطلب فقط ستجده أمامك بمجرد وروده على خاطرك ، ولكن مهما طلبتَ من النعم ، ومهما تمنيتَ فالله جلَّ جلالُه عنده مزيد .

ولذلك فإنه يعطيك كلَّ ما تشاء ويزيد عليه بما لم تطلب ولا تعرف من النعيم ، فالنعيم فى الدنيا على قدر قدرات البشر ، أما النعيم فى الآخرة فهو على قدر قدرات الله سبحانه .

والذى يُقرِّبك ويجعلك مُسْتحقاً لنعيم الله فى الآخرة هو فعل الخير والالتزام بمنهج الله ، وقد يكون فعلُ الخير مُتعباً للجسد والنفس ولكنه موقوت ، ولكن النهاية متاعٌ أبديّ فى جنة الخلد .

فالخير هو ما ليس بعده بعد ، فأنت تولد ثم تكبر ثم تتخرج فى الجامعة ثم تصبح فى أعلى المناصب ثم تموت ثم تُبعث ثم تدخل الجنة وبعدها لا شيء إلا الخلود فى النعيم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) ﴾

يعطينا الحق سبحانه هنا استفهاماً استنكارياً فيقول تعالى : وإجابته

معروفة أنهم لا يستوون ، فليس المسلمون كالمجرمين .

كيف يستوى مَنْ أسلم نفسه لله واتبع منهجه وآمن بربه وبشرعه ، مع مَنْ خرج على منهج الله ورفض اتباعه وعصى وأبَى ؟ لا يستوون طبعاً !.

والحق سبحانه يعطينا أمثلة كثيرة على عدم التساوى ، فالتساوى أحياناً يكون ظلماً ، والله سبحانه مُنزَّه عن الظلم .

فيقول تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥) ﴾ [النحل]

فالحق سبحانه يعطينا طرفين فى المثل المضروب ويترك لنا السياق القرآنى الحكم بينهما ، وكأنَّ الحق سبحانه يقول : أنا أرتضى حكمكم أنتم : هل يستوون ؟

والحق سبحانه لا يترك لنا الجواب إلا إذا كان الجواب سيأتى على وفق ما يريد ، ولا جوابَ يُعقل لهذا السؤال إلا أنْ نقول : لا يستوون . وكأنَّ الحق سبحانه جعلنا ننطق نحن بهذا الحكم .

وقد يسأل سائل هنا : الحق سبحانه يضرب المثل هنا بطرفين أى بمثنى، فلماذا قال ﴿ هَلْ يَسْتَوُونَ (٧٥) ﴾ [النحل] بصيغة الجمع ولم يقل : هل يستويان؟

نقول : المثل وإنْ ضُرب بمفرد مقابل مفرد إلا أنه ينطبق على عديدين مفرد شائع فى عديد من المملوكين ، وشائع أيضاً فى العديد من السادة أصحاب الرزق الحسن ، ذلك ليُعمِّم ضرب المثل .

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه : ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ (١٨) ﴾ [السجدة]

فـ (مؤمناً) و (فاسقاً) جاءت بصيغة المفرد ومع ذلك لم يقل الحق سبحانه:

لا يستويان . بالمثنى . بل قال (لا يستوون) بالجمع فالحق سبحانه لا يتكلم عن المفرد إنما عن الجمع ، أو أنها قيلت رداً لحالة مخصوصة بين مؤمن وكافر، وأراد الحق سبحانه أنْ يعطيها العموم لا خصوصَ السبب .

فراعى السياق خصوص السبب فى مؤمن وكافر ، وراعى عموم الموضوع فقال : ﴿ لَا يَسْتَوُونَ (١٨) ﴾ [السجدة]

وكما لا يستوى المؤمن والفاسق ، ولا يستوى العبد المملوك الذى لا يقدر على شىء مع مَنْ يملك أمر نفسه ورزقناه رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً.

وهكذا لا يستوى المسلم والمجرم ، ونلحظ أنَّ الحق سبحانه جعل المجرم فى مقابلة المسلم ، وجعل المؤمن فى مقابلة الفاسق ، فالمؤمن مَنْ آمن قلبُه واستقر الإيمان فى قلبه ، ولذلك تجد أن الفاسق الذى فسقتْ جوارحه عن منهج الله عنده خللٌ فى معتقده القلبى ، لذلك فهو نقيض للمؤمن .

أما المسلم فقد قال عنه رسول الله ﷺ : «المسلم مَنْ سلم المسلمون من لسانه ويده ».(١) فالإسلام يتعلق بجوارح الإنسان ومنها لسانه ويده ، فلا يؤذى أحداً بلسانه بنميمة أو غيبة أو سبٍّ أو قذف أو بظلم أو إعانة لظالم .

وكذا لا يؤذى أحداً بيده بضرْب أو قتْل أو رشوة أو إعانة لظالم ، فإيذاء الآخرين باليد أو اللسان هى فى الحقيقة جرائم يعاقب على البعض منها بحدود حدَّها الله أو بتعزيرات يفرضها الحاكم أو القاضى .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) ﴾ [الكهف]

فهؤلاء أجرموا جرائم سطّرتها عليهم الملائكة فى صحف وكتب خاصة بهم، كلّ له كتابه الذى سيقرأه بنفسه ، وقد ظنُّوا أنْ لا شىءَ سيُحصى عليهم أو

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٦٥١٥ ، ٦٨٠٦) والبخارى فى الأدب المفرد (١١٤٤) والنسائى فى سننه (٤٩٩٦) والبخارى فى صحيحه (١٠) وابن حبان فى صحيحه (٢٣٠) من حديث عبد الله بن عمرو ابن العاص .

أنهم لن يُعاقبوا ، وذلك لأن هناك خللاً فى معتقدهم الإيمانى فى وجود الآخرة واليوم الآخر يوم الحساب .

فهؤلاء المجرمون يتحكَّمون فى مصائر الناس ويفسدون فى الأرض ولا يقدر أحدٌ أنْ يقف فى مواجهتهم ، ولكن يجب أنْ يتأكدوا من وعيد الله لهم ، فهو سبحانه القائل : ﴿ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ (١) عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (١٢٤) ﴾ [الأنعام]

والمقابلون للمجرمين هم المؤمنون ، فإذا استبنتَ سبيل المجرمين، أو إذا استبان لك سبيل المجرمين ألا تعرف المقابل وهو سبيل المؤمنين ؟

فإذا كان الحق سبحانه بيَّن سبيل المجرمين لعناً وطرداً فسبيل المؤمنين يختلف عن ذلك ، إنه الرحمة والتكريم ، أما المجرمون فقد قال الحق سبحانه عنهم : ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٤٧) ﴾ [الأنعام] فلن يُرد ويُمنع بأسه وعذابه عن القوم المجرمين منكم .

والمجرمون أيضاً هم المكذِّبون بآيات الله ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ (٢) الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) ﴾ [الأعراف] وهم يستحقون هذا الجزاء بما أجرموا .

فهم لن يدخلوا الجنة ، وعلى ذلك فقد سلب منهم نفعاً ولا يتوقف الأمر على ذلك ولكنهم يدخلون النار . إذن فهنا أمران : سلْبُ النافع وهو دخولهم الجنة، وإيجاب الضار وهو دخولهم النار ؛ إنه سبحانه حرمهم ومنعهم ذلك النعيم وذلك جزاء إجرامهم ، وبعد ذلك كان إدخالهم النار وهذا جزاء آخر .

---

(١) صغار : مذلة وعذاب شديد . والصَّغار : أشد الذل . فيصيبهم ذل وحقارة يوم القيامة بعد تكبُّرهم وارتفاعهم فى الدنيا .

(٢) سم الخياط : ثقب الإبرة الضيق . والخياط : الإبرة نفسها يُخاط بها . أما الجمل ففيه قولان أنه الجمل الحيوان المعروف ، أو هو الحبل الغليظ وكلاهما إدخاله فى سَمِّ الخياط مستحيل .

فقال تعالى : ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ(١) وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ (٢) وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١) ﴾[الأعراف]. فى الأولى قال سبحانه : ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠)﴾ [الأعراف] وفى الثانية قال ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١) ﴾ [الأعراف]

فكأنَّ الإجرام كان سبباً فى ألاَّ يدخلوا الجنة ، والظلم كان سبباً فى أنْ يكون فوقهم غواش ، لهم من جهنم مهاد وهم فى النار يحيطهم سرادقها .

فالظلم مرتبط بالإجرام ، وقد يكون الظلم إجراماً ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ﴾ [يونس]

والمجرم مَنْ ارتكب ذنباً ، وقد يكون هذا الذنبُ ذنبَ القمة وهو الكفر بالله ، وهذا ما عناه الحقُّ سبحانه بقوله : ﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩) ﴾ [إبراهيم]

فترى المجرمين جميعاً مجموعين بعضهم مع بعض فى قرن ، وهو الحبل أو اليد الذى يقيدون به ، والأصفاد جمع صفد وهو القيد الذى يُوضع فى الرِّجْل وهو مثل الخلخال .

وهناك مَنْ يُقيَّدون فى الأصفاد أى من أرجلهم ، وهناك مَنْ يُقيَّد بالأغلال أى تُوضع أيديهم فى سلاسل وتُعلَّق تلك السلاسل فى رقابهم أيضاً .

وكل أصحاب جريمة معينة يجمعهم رباط واحد ، ذلك أن أهل كلّ جريمة تجمعهم أثناء الحياة الدنيا مودة وتعاطف .

والمجرم هو المنقطع عن الحق ، والجريمة هى الانقطاع عن الحق لانتصار الباطل ، والمجرمون يكونون مميَّزين عند الحشر بزُرْقة وجوههم ، قال تعالى :

---

(١) المهاد : المهد وهو الفراش . وهو هنا فراش من نار والعياذ بالله . قال الطبرى فى تفسيره (١٢/ ٤٣٥): «هو ما امتهدوه مما يُقعد عليه ويضطجع كالفراش الذى يُفرش ، والبساط الذى يُبسط . وقال الواحدى فى الوجيز (١/ ٣٩٤) : لهم منها غطاء ووطاء وفراش ولحاف ».

(٢) غواش : يغشاهم . وغواش : جمع غاشية وذلك ما غشاهم فغطاهم من فوقهم . قال السمرقندى : يغشاهم النار من فوق رؤوسهم ومعناه : أن من تحتهم ناراً ومن فوقهم ناراً (تفسير السمرقندى ١/ ٥١٥).

﴿ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢) ﴾ [طه]

أى نجمعهم ونسوقهم زُرْقاً ، والزُّرْقة هى لونهم ، كما ترى شخصاً احتقن وجهه وازرقَّ لونه بسبب شىء تعرَّض له والبعض يفسر ﴿ زُرْقًا (١٠٢) ﴾ [طه] أى عُمياً ومن الزرقة ما ينشأ عنها العمى ، ومنها المياه الزرقاء التى تصيب العين وقد تُسبِّب العمى .

ومعلوم أن زرقة الجسم لا تأتى إلا نتيجة ضربات شديدة وكدمات تُحدث تفاعلات ضارة تحت الجلد فتُسبب زُرْقته ، وكذلك زرقة العين .

ويُستخدم اللون الأزرق للتبشيع والتخويف ، وقد كانوا فى العصور الوسطى يطلُون وجوه الجنود باللون الأزرق لإخافة الأعداء وإرهابهم ، وتعارف الناس أنه لونُ الشيطان .

ومن علاماتهم يوم القيامة أيضاً أنكم ترونهم ناكسى رؤوسهم ، يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) ﴾ [السجدة]

وتنكيس رءوس المجرمين فيه إشارةٌ إلى أن هذه هى العاقبة فاحذر المخالفة، فمن تكبّر وتغطرس رافعاً رأسه فى الدنيا ؛ نُكِّست رأسه فى الآخرة ذلاًّ .

وفى تنكيس رءوس المجرمين يوم القيامة معنى آخر ، فالحق سبحانه سيفعل في كل مخالف فى الآخرة من جنس ما فعل فى الدنيا ، وهؤلاء الذين نكَّس الله رءوسهم فى الآخرة حياء وندماً فعلوا ذلك فى الدنيا بلا حياء أو خجل.

وكثيرٌ من المجرمين يرتكبون جرائمهم فى غفلة من القانون أو يعمُّون على العدالة ويهربون من العقاب ويفلتون من القوانين الوضعية فى الدنيا ، ولو تركنا هؤلاء بلا عقاب أيضاً فى الآخرة ، فهم إذن الفائزون وسوف نشجع بذلك كلّ منحرف خارج عن القانون .

أما إنْ علم أنَّ له رباً قيُوماً عليه ، وإنْ عمَّى على قضاء الأرض فلن يُعمَّى على قضاء السماء ، وإنْ أفلتَ من عقاب الدنيا فلن يفلت أبداً من عقاب الآخرة إنْ علم ذلك استقام .

فالمجرم الذى يعيش بيننا أليس معلوماً لأهل المنزل الذى يعيش فيه بل لأهل الحى والشارع ؟ فهل ذهب واحدٌ منهم إلى تاجر فقال له : أعطنى كذا فقال : لا ليس عندى وقاطعه ، هل سلَّم واحد منهم على شخص فلم يرد عليه السلام ؟

إذن : المجتمع كله يتحمل هذه المسئولية فالمجتمع نفسه مجرم أكثر من المجرمين .

وما استشرى الإجرام إلا حين خاف الناسُ من المجرمين وتملَّقوهم وتوددوا إليهم ربما اتقاءً لشرِّهم ، ولم لا يزداد المجرم فى إجرامه والأمر كذلك ؟

لذلك جعل الشارعُ الحكيم الدية فى القتل الخطأ ليست على القاتل وحده، إنما على العاقلة ، أى على جميع العائلة لأنها المنوط بها تقويم أبنائها والأخْذ على أيدى المنحرف منهم لأنها هى التى ستتحمل العاقبة ، وبذلك يحدث التوازن فى المجتمع .

والحق سبحانه يستنكر عليهم أنْ يُساووا المسلمين بالمجرمين ، قال تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) ﴾ [القلم] ، استفهام استنكارى ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) ﴾ [القلم]

وفى موضع آخر يقول تعالى : ﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) ﴾ [الصافات]

ولكن فى آية أخرى يقول : ﴿ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) ﴾ [يونس] والمعنى فى الجميع : ماذا أصاب عقولكم لتحكموا هذا الحكم ، وساعة تسمع (كيف) فهى للاستفسار عن عملية عجيبة ما كان فى عُرْف العاقل أنْ تحدث .

وقوله سبحانه : ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) ﴾ [القلم] كأنه أمر عجيب ما كان يصح أنْ يحدث ، إذ كيف تُسوُّون بين المسلمين والمجرمين ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ۝٣٧ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ۝٣٨ ﴾

كيف تحكمون بمساواة المسلمين والمجرمين ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦)﴾ [القلم]، والحق سبحانه يناقشهم ليكشف لهم أنهم إنما يحكمون بمجرد الأهواء، وليس بناءً على مقدمات صحيحة .

لذلك يسألهم الحق سبحانه : ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧)﴾ [القلم] هل حكمتم بهذا لأن عندكم كتاباً قرأتم فيه هذا ، في أي كتاب هذا ؟ أنْ يتساوى المجرم مع المسلم ، ويتساوى الصالح مع الطالح ، والمفسد مع المصلح ؟

فهل لكم كتابٌ نزل من عند الله أتاكم به رسولٌ من رسله قرأتم فيه أو درستم فيه أن المسلمين والمجرمين يستوون ؟ ألكم كتاب تقرأون فيه هذا الجور ؟

وقد كان صناديد قريش يرون أنَّ حظهم من الدنيا وافرٌ ، وأن المسلمين حظّهم من الدنيا قليل ، حتى إذا سمعوا بحديث الآخرة وما وعد اللهُ المسلمين قالوا : إن صحَّ أننا نُبعث كما يزعم محمد ومَنْ معه لم تكُنْ حالهم وحالنا إلا مثل ما هي في الدنيا ، وإلا لم يزيدوا علينا ولم يفضلونا ، وأقصى أمرهم أنْ يساوونا .

فكان قوْل الحق سبحانه : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) ﴾ [القلم]

كيف نسوِّي بين الكافرين والمؤمنين ، كيف تظنون أن الله ظالم فالله أعدلُ من أنْ يجعل المسلمين كالمجرمين .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ (٢٠) وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ[1] (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ

---

(١) الحرور : الحر الشديد أو الريح الحارة . فالحرور : حر الشمس الشديد . [القاموس القويم ١/١٤٨] وهذا عكس الظل .

وَلَا الْأَمْوَاتُ (٢٢) ﴾ [فاطر]

والحق سبحانه يخاطب رسوله محمداً ﷺ قائلاً : ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠٠) ﴾ [المائدة]

فالخبيث لا يستوى أبداً مع الطيب ، وهذه قضية كونية ، مثلها تماماً مثل عدم تساوى الأعمى والبصير ، وعدم استواء الظلمات والنور .

وساعة يأتى الحقُّ سبحانه بقضية يستخدمها كمثل ، فلا بدَّ أنْ يأتى بقضية متفق عليها حتى من الخصوم المواجهين له ، فهم يعرفون أن الأعمى لا يستوى مع البصير ، تماماً مثلما لا يستوى الظل والحرور ، أو الظلمات والنور .

وعدم التسوية هذه موجودة فى آيات كثيرة منها : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِى بِهِ فِى النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِى الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢) ﴾ [الأنعام]

وهذا تساؤل جوابه : لا أى ليس كل منهما مساوياً للآخر ، والفطرة تقول هنا : لا .

والإسلام قائم على العدل وإنزال كلٍّ منزلته التى يستحقها ، ومن ذلك عدم المساواة بين القاعدين عن الجهاد من المؤمنين غير أولى الضرر وبين المجاهدين فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم .

كيف نُسوِّى بينهم ، لذلك قال الحق سبحانه : ﴿ لَّا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ (٩٥) ﴾ [النساء]

وقد أمر رسول الله ﷺ زيد بن ثابت كاتب الوحى بعد أنْ نزل عليه الوحى وسُرِّىَ عنه : اكتب ﴿ لَّا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ

فِى سَبِيلِ اللهِ (٩٥) ﴾ [النساء]

فقال سيدنا ابن أم مُكتوم[١] وكان كما نعلم ضريراً مكفوفَ البصر قال : فكيف بمَنْ لا يستطيع الجهاد من المؤمنين يا رسول الله ؟

إنها اليقظة الإيمانية من ابن أم مكتوم لأنه فهم موقفه من هذا القول ، ومن أنه لا يستطيع الجهاد ، وعلم أنه إنْ كانت الآية ستظل على هذا فلن يكون مستوياً مع مَنْ جاهد .

ولهذا قال قولته اليقظة : فكيف بمَنْ لا يستطيع ذلك يا رسول الله ؟ فأخذتْ رسولَ الله السكينةُ ثانية ثم سُرِّى عنه ، فقال لزيد بن ثابت : اكتب ﴿ لَا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ (٩٥) ﴾ [النساء]

فكأنها نزلت جواباً مطمئناً لمن لا يستطيع القتال مثل ابن أم مكتوم ، ولقائل أنْ يقول : وهل كانت الآية تنتظر أن يستدرك ابن أم مكتوم ليقول هذا ؟

ونقول : إنَّ الحق سبحانه وتعالى أراد أنْ ينبه كلَّ مؤمنٌ أنه حين يتلقّى كلمة من الله أنْ يتدبر ويتبيّن موقعه من هذه الكلمة ، فإذا كان ذلك حال سيدنا ابن أم مكتوم فيما سمع رسول الله عن ربه فهو يُعلِّمنا كيف نستحضر دورنا من أية قضية نسمعها .

وحينما سمع ابن أم مكتوم الآية رأى موقفه من هذه الآية ، وهذا ما يريده الحق من خَلْقه . وقال زيد بن ثابت : فكتبتُها[٢] .

---

(١) ابن أم مكتوم اسمه عبد الله والبعض يسميه عمرو أمه عاتكة وهى أم مكتوم. أسلم بمكة قديماً وكان ضرير البصر وقدم المدينة مهاجراً بعد بدر استخلفه رسول الله على المدينة مرتين ، كان صاحب راية المسلمين يوم القادسية ثم رجع إلى المدينة فمات بها فى خلافة عمر بن الخطاب

(٢) قال زيد بن ثابت : كنت عند النبى ﷺ حين نزلت عليه (لايستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله) ولم يذكر ﴿ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ . .(٩٥) ﴾ [النساء] فقال ابن أم مكتوم : فكيف وأنا أعمى لا أبصر ؟ فتغشى النبى ﷺ الوحى ثم سُرِّى عنه فقال : اكتب ﴿ لَا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ . .(٩٥) ﴾ [النساء] فكتبتُها أورده الواحدى فى التفسير الوسيط (٢/١٠٣)

وعندما يقول الحق ﴿لَا يَسْتَوِى (٩٥)﴾ [النساء] فهذا يدل على أنَّ هناك شيئين لا يتساويان ، فأيهما غير المساوى للآخر ؟ كلاهما لا يتساوى مع الآخر، ولذلك يكون الاثنان فى الإعراب فاعلاً ، فلا يساوى المجاهدون القاعدين ، ولا يساوى القاعدون المجاهدين ، لأن كلاً منهما فاعل ومفعول .

وعندما يقول الحق : ﴿لَا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ (٩٥)﴾ [النساء] هل معنى ذلك أن عقلاً واحداً فى زمن رسول الله كان يظن المساواة بين القاعد والمجاهد ؟

لا ولكن الحق يريدها قضيةً إيمانية فى بلاغ إيمانى من الله ، والحق سبحانه ينكر عليهم أنْ يكونوا قد قرأوا هذه التسوية فى أىِّ كتاب نزل من عند الحق سبحانه .

وقد قال الحق سبحانه فى آية أخرى : ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١)﴾ [الزخرف]

فلماذا يقولون هذا ؟ هل جاءهم بذلك رسولٌ يقول لهم هذا الكلام ، فتحكمون منه لأنفسكم ما حكمتم ، فهل بأيديكم كتابٌ مُنزَّل من السماء تدرسونه وتحفظونه وتتداولونه بنقل الخلف عن السلف ، ألكم كتاب تجدون فيه المطيع كالعاصى ؟

والمدارسةُ إعمالُ الفكر فى الفهم عن النص ، فالفهم عن النص يحتاج إلى مدارسة ، ومعنى المدارسة هو أخْذٌ وعطاء ، ويُقال : دارسه أى أن واحداً قد قام بتبادل التدريس مع آخر ، ويقال أيضاً : تدارسنا . أى أننى قلتُ ما عندى وأنت قد قلتَ ما عندك حتى يمكن أن نستخلص ونستنبط الحكم الذى يوجد فى النص .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨)﴾ [القلم]

فهل عندكم كتابٌ فيه تدرسون وتقرأون وتستنبطون ، تختارون منه ما تشتهونه ، وتخيّر الشيء واختاره أخذ خيره ، كمن ينخل شيئاً وأخذ منخوله .

وكلمة ﴿ تَخَيَّرُونَ (٣٨) ﴾ [القلم] أصلها تتخيرون حُذف أحد التاءين من تخيرون، فتبالغون في انتقائه وأخْذ خياره .

وخلاصة تأويل الآية : أفسدتْ عقولكم حتى حكمتم بهذا ، أم جاءكم كتاب فيه تخييركم وتفويض الأمر إليكم ؟

﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

الأيمان جمع يمين . واليمين هو الحلف أو القَسم ، وسُمِّى يميناً لأنهم كانوا قديماً إذا تحالفوا ضرب كلٌّ امرىء منهم يمينه على يمين صاحبه ، وذلك لأن اليمين هو الجارحة الفاعلة .

والمقصود بالأيمان الحلف ، والحلف من معانيه التقوية ، وهى مأخوذة من الحلْف وهو أنْ يتحالف الناس على عمل ما .

والأيمان أيضاً العهود ، قال تعالى : ﴿وَإِنْ نَكَثُوا[1] أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ (١٢) ﴾ [التوبة] وفائدة الأيمان أو العهد أنْ يحافظ عليه ومَنْ لا يحافظ على يمينه أو عهده يكون لا أيمانَ له ، لأن أيمانه أى عهده لا قيمةَ له لأنه مجردٌ من الوفاء .

فالأيمان العهود ؛ لذلك يقول الحق سبحانه هنا : ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا(٣٩) ﴾ [القلم] أى : أم لكم عهودٌ علينا بالغة إلى يوم القيامة فلا تنقطع إلى يوم القيامة.

فهى أيمانٌ مؤكَّدة بالغةُ النهاية ، فهل لكم أيمانٌ مؤكدة ألاَّ نعذبكم إلى يوم القيامة ؟ وهل أقسمنا لكم قسَماً فهو عهد لكم بأنَّا نُنعمكم فى يوم القيامة وما بعده ؟

---

(١) نكثوا : نقضوا عهودهم ولم يفوا بشروطها . والأنكاث : هو الغَزْل يُحلُّ بعد فتله وإحكامه (القاموس القويم ٢ / ٢٨٤)

فهل لكم عهودٌ منا ومواثيقُ مؤكدة أنه سيحصل لكم ما تريدون وتشتهون ، وألاَّ تُحاسبوا على ما أجرمتموه فى حياتكم الدنيا ، فترِدُون علينا يوم القيامة فتنالوا ما لا يناله مَنْ أسلم لله وحده .

﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ (٤٠) ﴾

الزعيم الضامن والمتكلم عن القوم الكفيل ، فسلْهم يا رسول الله وانظر أيّهم كفيل وضامن أن المسلمين كالمجرمين ؟ ومَنْ يكفل لكم أنكم ستنجون من عذاب الله يوم القيامة .

مَنْ منهم كفيل لكم بأنَّ لكم فى الآخرة ما للمسلمين ، فاسأل قريشاً أيهم زعيمٌ وضامن لهذا الأمر ؟

والحق سبحانه يقول عن كفالة زكريا عليه السلام لمريم عليها السلام: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ (٣٧) ﴾ [آل عمران] ، وكلمة (كفّلها) أى تولى كلَّ مهمة تربيتها ، هذه هى الكفالة ، والكفيل فى عُرفنا هو الضامن ، وقد كان زكريا عليه السلام هو الذى قام برعاية شئون مريم ، وكان ضامناً لأمورها من طعام وشراب .

فأيُّهم الكفيل بهذه الدعوى الفاسدة فإنه لا يمكن التصدر بها ولا الزعامة فيها ، مَنْ منكم يتعهد لكم أن لكم على الله ما تشاءون ، وأن لكم على الله ميثاقاً وعهداً ، ما لكم كيف تحكمون ؟

وقوله سبحانه (أيهم) قول مُعجز ، فهو يُحملهم الأمر ، ما دمتم تقولون بهذا وتحكمون به ، فمَنْ فيكم زعيم وضامن لهذا الذى تريدونه ؟وهو زيادة فى التهكم فطلب زعيماً منهم ، وهو سبحانه يعلم أن لا زعيم لهم بهذا .

وما دمتم عجزتم عن أنْ يتقدَّم أحدُكم يعلن أنه كافلٌ وضامن لزعمكم ،

فلماذا تتكبّرون على الله وتتألون على الله وتقولون على الله ما لا تعلمون وتفترون الكذب ؟

ولا تكونوا مثل اليهود الذين : ﴿ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠) ﴾

[البقرة]

فإذا كان ذلك وعداً من الله فالله لا يخلف وعده ، والله يأمر رسوله ﷺ أنْ يقول لهم لستم أنتم الذين تحكمون وتقررون ماذا سيفعل الله سبحانه وتعالى بكم ، بل هو جلَّ جلاله الذى يحكم فإنْ كان قد أعطاكم عهداً فالله لا يخلف وعده .

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ (٤١) ﴾

الحق سبحانه ينقلهم من سؤال إلى سؤال ، ومن مقام إلى مقام ، من مقام عقلى منطقى : ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) ﴾

[القلم]

ثم مقام النص الذى قد يكونون قد اعتمدوا عليه من كتاب أُنزل إليهم أو غيره : ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) ﴾ [القلم]

ثم مقام الحلف والأيمان والعهود ، ﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) ﴾ [القلم] ، فهل أخذتم على الله عهوداً وأيماناً تبلغ بكم يوم القيامة تضمن لكم أنْ تتساووا مع مَنْ آمن فى ثوابه ودخوله الجنة .

ثم يأتى مقام الشركاء والشهداء ، فيقول سبحانه : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ (٤١) ﴾ [القلم] ، هل لهؤلاء القوم شركاء فيما يقولون ويصفون من

الأمور التى يزعمون أنها لهم ، فليأتوا بشركائهم فى ذلك إنْ كانوا فيما يدعون من الشركاء صادقين .

والشركاء هم بطبيعة الحال شهودٌ على فحوى القضية ، فهل لكم شهداء يشهدون أنَّ الذى قالوا لهم حقّ ، فليأتوا بشهداء يشهدون أنّ لهم فى الآخرة ما للمسلمين ، والمراد زجرهم ويأسهم ، فليس لهم ادعاءُ هذا .

لذلك يتحداهم الحق سبحانه ويؤكد عدم صدقهم ، فيقول تعالى: ﴿إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٤١)﴾ [القلم]

صادقين فيماذا ؟ وما هو الصدق ؟

نقول : الصدق يقابل الكذب ، والصدق والكذب كلٌّ منهما نسبىّ، فالصدق أنْ تتطابق النسبة الكلامية والنسبة الواقعية ، والكذب ألاَّ تتطابق النسبة الكلامية مع النسبة الواقعية .

فقوله تعالى : ﴿صَادِقِينَ (٤١)﴾ [القلم] أى أنْ تتطابق النسبةُ الكلامية التى ستقولونها مع نسبة واقعية تستطيعون أنْ تدللوا عليها ، فإنْ لم يحدث ذلك فأنتم كاذبون ، فالله سبحانه وتعالى يريد منكم الدليل على صدقكم .

والحق سبحانه يقول : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١١)﴾ [البقرة] أى إنْ كنتم واثقين من أنْ ما تقولونه صحيح ، لأن الله يعرف يقيناً أنكم تكذبون .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) ﴾

فإذا كنتم تسوون بين المسلمين والمجرمين وتظنون أنكم ستُفلتون بكفركم يوم القيامة فظنكم خاطىء وحكمهم باطل ، وليس عندكم دليل على هذا من كتاب أو عهد من الله لكم ، ولستم صادقين فيما تقولون .

لكن الحقيقة التى ستواجهونها يوم القيامة هى: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) ﴾ [القلم]

والكشف عن الساق كنايةٌ عن شدة كرْب يوم القيامة ، فيشتد الكرب والضيق، ويُدعى هؤلاء المتكبرون الذين رفضوا السجود لله فى الدنيا وطاعة الله وعبادته سيُدعون إلى السجود فلا يستطيعونه ولا يملكونه .

وقد كان ترجمان القرآن عبد الله بن عباس يقول : يُكشف عن أمر عظيم ، تقول العرب : وقامت الحرب بنا على ساق . أى اشتدتْ وحمى وطيسها .

فالكشف عن الساق علامةٌ على شدة الأمر وهوله ، وهى أشدّ ساعة فى يوم القيامة ، عندما يقف الجميع على ساق ينتظرون الحساب وينتظرون تحديد مصيرهم .

فهو يوم كرْب وشدة شديدة ، أى يوم يُكشف عن شدة أمر القيامة وحشر الناس والساعة والميزان .

وقد كان العرب إذا اشتدَّ القتال فيهم واحتدمتْ الحرب واستعرت وعَظُم الأمر فيهم واشتد قالوا : قد كشفت الحربُ عن ساق ، فذكر اللهُ شدةَ يوم القيامة وهوْله بما يعرفون .

وساق الشىء أيضاً أصله الذى به قوامه كساق الشجر وساق الإنسان أى يوم يُكشف عن أصل الأمر فتظهر حقائقُ الأمور وأصولها بحيث تصير عياناً وتنكيره للتهويل والتعظيم .

والحق سبحانه حدَّثنا عن هول ذلك اليوم ، فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ[1] كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) ﴾ [الحج]

---

(١) تذهل : تغفل عن رضيعها كناية عن شدة الهول والفزع [القاموس القويم ١/ ٢٤٦] قال ابن منظور فى لسان العرب : الذهل تركك الشىء تناساه عن عمد أو يشغلك عنه شغل [مادة : ذهل]

ويقول جلَّ جلاله : ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) ﴾ [المزمل]

والحق سبحانه وصف هذا الزلزال بأنه شيء عظيم ، فحين تقول أنت أيها الإنسان: هذا شيءٌ عظيم فهو عظيم بمقياسك أنت ، أما العظيم هنا فعظيم بمقاييس الحق سبحانه ، فلكَ أنْ تتصور فظاعة زلزال وصفه الله سبحانه بأنه عظيم .

ومن هول هذا اليوم : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا (٢) ﴾ [الحج] والذهول هو انصرافٌ عن المهمة الحقيقية لهوْل رأْته ، كما يذهل الخادم حين يرى شخصاً مهيباً أو عظيماً فيسقط ما بيده مثلاً .

فالذهول سلوكٌ لا إرادى قد يكون ذهولاً عن شيء تفرضه العاطفة ، أو عن شيء تفرضه الغريزة .

فانظر إلى المرضعة وكيف تذهل عن رضيعها وتنصرف عنه ، وأىّ هول هذا الذى يشغلها ويعطِّل عندها عاطفةَ الأمومة والحنان ، ويعطل حتى الغريزة.

وقد أعطانا القرآنُ صورةَ أخرى فى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) ﴾ [عبس]

فلكلِّ امرىءٍ منهم شيء يُغنيه عن معرفة مصير أخيه أو حتى أمه أو أبيه أو زوجته أو بنيه ، فالهولُ أعظُم من هذا ، ما له والآخرين ، إنه يريد أنْ ينجو هو .

هذا اليوم يجعل الناسَ ﴿ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) ﴾ [الحج] ، فهم سكارى يتمايلون مضطربين مثل السكارى حين تلعب بهم الخمر وتطوِّحهم يميناً ويساراً ، وتلقى بهم على الأرض ، وكلما زاد سكرهم وخروجهم عن طبيعتهم كان النوع شديداً .

وهكذا سيكون الحال فى موقف القيامة لا من سُكْر ولكن من خوف وهوْل وفزع ﴿وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢)﴾ [الحج] إنهم لم يروا العذاب بعد ، إنها مجرد قيام الساعة وأهوالها أفقدتهم توازنهم .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢)﴾ [القلم]

والحق سبحانه قد ميَّز أهلَ الإيمان وأهل النفاق بالسجود ، فقال تعالى :

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢)﴾ [القلم]

وقد كانوا فى الدنيا كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (٤٨)﴾ [المرسلات]

وفى آية أخرى : ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ (٢١)﴾ [الانشقاق]

فهم لم يستجيبوا فى الدنيا لداعى الإيمان ، فلم يركعوا إلا رياء وسمعةً ، ولم يسجدوا إلا مضطرين مكرهين ، ولم ينفعلوا بآيات الله تتلى عليهم ، بل صموا وعموا .

لذلك إذا دُعوا إلى السجود فى هذا اليوم العظيم لم يستطيعوا السجود ، والحديث النبوى الشريف يعطينا صورة هذا الموقف العظيم[1] :

«إذا كان يوم القيامة مُثِّل لكلِّ قوم ما كانوا يعبدون فى الدنيا ، فيذهب كلُّ قوم إلى ما كانوا يعبدون فى الدنيا ، فيذهب كلُّ قوم إلى ما كانوا يعبدون فى الدنيا ويبقى أهل التوحيد ، فيُقال لهم : ما تنتظرون وقد ذهب الناس» ؟

فيقولون : إن لنا رباً كنا نعبده فى الدنيا لم نره قال : وتعرفونه إذا رأيتموه؟ فيقولون : نعم . فيقال : وكيف تعرفونه ولم تروه ؟ قالوا : إنه لا شبه له فيُكشف لهم الحجاب ، فينظرون إلى الله عز وجل فيخرُّون له سجداً .

---

(١) أخرجه ابن أبى عاصم فى كتاب (السنة) (٦٣٠) عن أبى بردة وأخرجه بنحوه محمد بن نصر المروزى فى كتاب (تعظيم قدر الصلاة) (٢٨٠) عن عبد الله بن مسعود.

ويبقى قومٌ فى ظهورهم مثل صياصى البقر[1] فيريدون السجود فلا يستطيعون، فذلك قول الله عز وجل : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) ﴾ [القلم]

والسجود هو علامة الخضوع وعلامة العبودية لأنك تضع أشرفَ شىء فيك وهو وجهك على الأرض خضوعاً لله وخشوعاً له .

فالسجود هو منتهى الخضوع للرب ، نخضع بها لله خمس مرات فى اليوم والليلة ، فالخشوع والخضوع بوضع الجبهة التى هى أشرفُ شىء فى الإنسان على الأرض ، لأن السجود هو أعلى مرتبة من الخضوع .

وسجود الإنسان يكون بالوجه ليعرف أنه مستخلفٌ ، وكلّ الكائنات مُسخَّرة لخدمته وطائعة وكلُّها تسبح ربَّنا ، فإذا كان السيد الذى تخدمه كل هذه الأجناس حيواناً ونباتاً وجماداً قد وضع وجهه على الأرض فهو خاضعٌ من أول الأمر حين نقول عنه إنه ساجد .

فالسجود هو الحركة التى تبرز كاملَ الخضوع لله ، فالسجود وضع لأعلى ما فى الإنسان فى مستوى الأدنى وهو قدم الإنسان ، ونجد العامة وهم يقولون: لا ترفع رأسك علىَّ .

أى : لا تتعالَ علىَّ لأن رفْعَ الرأس معناه التعالى ، وتخفيضها بالركوع أو السجود هو إظهار للخضوع .

والعزة فى العبودية لله ، والعزة فى السجود له تعالى ، فعبوديتك لله تعصمك من العبودية لغيره ، وسجودك له تعالى يعصمك من السجود لغيره .

ولكن لأنَّ هؤلاء لم يخضعوا لله عز وجل فى الدنيا ولم يسجدوا له ولم يركعوا ولم ينزلوا من علياء كبريائهم ، لذلك عندما دُعوا إلى السجود يوم

---

(١) صياصى البقر : قرونها مفردها (صيصة) [لسان العرب - مادة : صيص] ومن هذا ما ذكره أبو هريرة فى حديثه : أصحاب الدجال شواربهم كالصياصى ، يعنى أنهم أطالوها وفتلوها حتى صارت كأنها قرون بقر .

القيامة لم يستطيعوا ، فكلما أرادوا أنْ يسجدوا صارت ظهورهم كطبقة واحدة لا تنثنى .

وقد أعطانا رسولنا ﷺ مثالاً لهذا ، فقد رأى رسول الله رجلاً يأكل بشماله فقال : كُلْ بيمينك . فقال : لا أستطيع . فقال ﷺ : «لا استطعتَ . فما رجعتْ إليه وما وصلت يمينه إلى فمه بعد» (١) .

فعدم الاستطاعة كانت بسبب رفضه الانصياع لأمر رسول الله والخضوع والتنازل عن كبريائه .

ثم يواصل الحق سبحانه وصْف حال هؤلاء ، فيقول :

﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ (٢) ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

تضطرب أبصارهم من هوْل ما رأوا فتتقلب هنا وهناك ، لأنها حيث ترى الفزع الذى يخيفها تتقلب ، تنظر هنا وهناك علَّها ترى ما يُطمئنها أو يخفِّف عنها ما تجد ، لكن هيهات فلن ترى إلا فزعاً آخر أشدّ وأنكى .

لذلك ينتهى الموقف إلى: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ (٤٣)﴾ [القلم] ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩) ﴾ [النازعات] يعنى ذليلةً منكسرة حيث لا مفرَّ ولا منجى، ولن يجد فى هذا اليوم راحةً إلا من قدم له العمل الصالح كالتلميذ المجتهد الواثق من نفسه ومعلوماته ، يتلهف إلى ورقة الأسئلة ، أما الآخر فيقف حائراً لا يدرى .

---

(١) عن سلمة بن الأكوع أن النبى ﷺ رأى رجلاً يأكل بشماله فقال : كل بيمينك فقال : لا أستطيع فقال : لا استطعت قال : فما رجعت إليه أخرجه أحمد فى مسنده (١٦٤٩٣) وفى رواية أخرى (١٦٤٩٩) أسمى الرجل بُسْر ابن راعى العير وفيه : فما وصلت يمينه إلى فمه بعد .

(٢) ترهقهم ذلة : تغشاهم مذلة من عذاب الله فتغشاهم كآبة وسواد . قال قتادة : سود الوجوه يغشاهم هوان . وقال الواحدى فى التفسير الوسيط : يغشاهم ذل الندامة والحسرة .

فخشوع أبصارهم إطراقها فى ذُلٍّ ومهانة ، لذلك قال تعالى ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ (٤٣)﴾ [القلم] ، فتغشاهم ذلَّة فأطرقوا بأبصارهم إلىٰ الأرض من شدة الخوف المحيط بهم .

والخشوع وصفٌ قلبى وحسيٌّ ، يكون فى الصلاة وغيرها ، ويُوصف به الإنسان وغيره ، قال تعالى : ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (١٠٨)﴾ [طه] ، فوصف الأصوات بالخشوع .

وقال تعالى : ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ (٤٣)﴾ [القلم] فوصف الأبصار بالخشوع .

وقال الحق سبحانه : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢)﴾ [الغاشية] فوصف الوجوه بالخشوع .

ففى يوم القيامة يأتى أصحاب العوج فى العقيدة ، ويصوِّرهم الحق سبحانه فى قوله : ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (١٠٨)﴾ [طه]

فهم يصطفُّون بلا اعوجاج ، كما يصطفّ المجرمون تبعاً لأوامر مَنْ يقودهم إلى السجن فى ذلَّة وصَغَار ، ولا ينطقون إلا همساً .

هذا الهمس الذى قال عنه : ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ (١٠٣)﴾ [طه] ونعرف أنَّ كلّ تجمع كبير لا تستطيع أنْ تضبط فيه جلبة الصوت ، فما بالك بجمع القيامة من لدن آدم عليه السلام حتى قيام الساعة .

ومع ذلك: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (١٠٨)﴾ [طه] فلماذا كتمت هذه الأصوات التى طالما قالت ما تحب ، وطالما كان لها جلبة وضجيج ؟

الموقف الآن مختلف والهول عظيم ، لا يجرؤ أحدٌ من الهول على رفْع صوته،

والجميع كلٌّ منشغلٌ بحاله ، مفكر فيما هو قادم عليه ، فإنْ تحدَّثوا تحدَّثوا سراً ومُخافتة : ماذا حدث ؟ وماذا جرى ؟

ذلك خشوع الأصوات ، وكذلك تخشع أبصارهم فتنكسر .

ويصف الحق سبحانه خشوعَ الأبصار بصورة أخرى فيقول سبحانه :
﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ (٤٥) ﴾ [الشورى]

فهم خاشعون خاضعون من الذل أذلاء من شدة الخوف ، لذلك ﴿ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ (٤٥) ﴾ [الشورى] يعنى : يختلسون النظرة ولا يستطيعون المواجهة بأعينهم ، فما هم فيه من خزى يكسر أعينهم .

لذلك تقول لخصمك الذى يفترى عليك كذباً (هات عينى فى عينك) لماذا ؟ لأن المواجهة بالأعين تُظهر الحق ، فصاحب الحق عينه قوية جريئة ، تستمد قوتها من قوة الحق الذى يدافع عنه ، أما عين المبطل فمنكسرةٌ ذليلة تتوارى من شعاع الحق الذى يكشف زيفها .

فتغشاهم مذلَّة من عذاب الله ، فتعلوهم كآبة وسواد ، فالمؤمنون إذا رفعوا رؤوسهم من السجود صارت وجوههم بيضاء كالثلج ، أما الكافرون فقد عجزوا عن السجود فاغتمُّوا واسودتْ وجوههم .

فيغشاهم هوانٌ وذلٌّ ، ندامةً وحسرةً أنهم لم يكونوا يسجدون لله فى الدنيا وكانوا يتكبَّرون على الله .

﴿ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (٤٣) ﴾ [القلم]

والحق سبحانه عندما دعاهم إلى السجود يوم القيامة لم يدعهم تعبُّداً وتكليفاً ، إنما توبيخاً وتعنيفاً لهم على تركهم السجود فى الدنيا ، وهم لم يستطيعوا السجود لأنهم تكبَّروا على الله فلم يسجدوا لله فى الدنيا .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) ﴾ [القلم] هذا فى الآخرة ، أما فى الدنيا فقد ﴿ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (٤٣) ﴾ [القلم]

وقد قال قتادة : بلغنى أنه يُؤذَن للمؤمنين يوم القيامة فىالسجود ، وبين كل مؤمنيْن منافق فيسجد المؤمنون ولا يستطيع المنافقون أنْ يسجدوا ، تقسو ظهورهم ويكون سجود المؤمنين توبيخاً لهم[1].

ومعنى ﴿ سَالِمُونَ (٤٣) ﴾ [القلم] أنه لم يكُنْ يمنعهم مانعٌ من السجود ولا يحول بينهم وبين السجود حائل ، وقد كانوا آمنين ، أما اليوم فى الآخرة فيُدعون إلى السجود وهم خائفون من مصيرهم المحتوم .

وقد كانوا يسمعون حىّ على الفلاح فى الدنيا فلا يجيبون النداء وهم سالمون أصحاء ، حتى أن كعب الأحبار[2] قال : والله مانزلت هذه الآية إلا فى الذين يتخلفون عن الجماعات[3] .

فعُوقبوا فى الآخرة بعدم قدرتهم على السجود ، فإذا تجلَّى الحق سبحانه سجد له المؤمنون ولم يستطع أحد من الكافرين والمنافقين أنْ يسجد ، بل يصبح ظهرُ الواحد منهم طبقاً واحداً ، فكلما همَّ بالسجود خرّ لقفاه بعكس السجود فى الدنيا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) ﴾

يخاطب الحق سبحانه رسوله محمداً ﷺ وأمته متضمنة فى خطاب الله

(١) أخرجه عبد الرزاق فى تفسيره (٣٢٩٤) من قول قتادة . وكذا الطبرى فى تفسيره (٢٣/٥٦١)

(٢) كعب الأحبار هو كعب بن ماتع الحميرى ثقة مخضرم أدرك النبى ﷺ وأسلم بعد موته ، يمنى سكن الشام . مات فى خلافة عثمان وقد زاد على المائة يكنى أبا إسحاق وهو من حمير من آل ذى رعين توفى عام ٣٢ هـ فى خلافة عثمان . الطبقات الكبرى لابن سعد

(٣) أورده من قول كعب الأحبار البغوى فى تفسيره (٨/ ٢٠٠) ، وابن الأثير فى تفسيره (زاد المسير ٤/٣٢٦) وقال الرازى فى مفاتيح الغيب (٣٠ / ٦١٥) : « فى هذا وعيد لمن قعد عن الجماعة ولم يُجب المؤذن إلى إقامة الصلاة فى الجماعة » .

لرسوله: ﴿فَذَرْنِى (٤٤)﴾ [القلم] يعنى دعنى والعرب لم تستعمل الماضى من هذين الفعلين، فورد فيهما يدع ويذر ، وقد ورد هذا الفعل أيضاً فى قوله تعالى : ﴿ وَذَرْنِى وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِى النَّعْمَة (١١)﴾ [المزمل]

فمعنى قوله تعالى : ﴿فَذَرْنِى وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَـٰذَا الْحَدِيث (٤٤)﴾ [القلم]

والمعنى : ذرهم لى أنا أتولى عقابهم وأفعل بهم ما أشاء ، أو : ذرهم يفعلون ما يشاءون ليستحقّوا العقاب وينزل بهم العذاب .

فـ (ذرنى) أى دَعْنى واتركنى ، ومثله قوله : ﴿وَذَرْنِى وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِى النَّعْمَة (١١)﴾ [المزمل] . أى اتركهم لى فأنا الذى أعاقبهم ، وأنا الذى أعلم أجل الإمهال وأجل العقوبة .

ويستعمل من (ذرنى) فعل مضارع هو (يذر) ، وقد قال الحق سبحانه: ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ (١٢٧)﴾ [الأعراف]

ولم يُستعمل منها فى اللغة فعلٌ ماضٍ إلا فيما رُوى من حديث رسول الله ﷺ : «ذروا اليمن ماذروكم» أى : اتركوهم ما تركوكم .

ويشارك فى هذا الفعل فعلٌ آخر هو (دَعْ) بمعنى (اترك) ، وقيل : أهملت العرب ماضى (يدع) و(يذر) إلا فى قراءةٍ فى قوْل الحق سبحانه : ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣)﴾ [الضحى]

فدعنى يا محمد والمكذبين بهذا القرآن ، فلا تنشغل بهم ، فكله إلىّ فإنى أكفيك أمره ، فما عليك يا محمد إلا البلاغ واتركهم لى ، وإياك أنْ يؤثر فيك عنادهم ، أو يُحزنك أنْ يأتمروا بك أو يكيدوا لك .

وقد وصف الحق سبحانه القرآن بأنه حديثٌ فى قوله سبحانه أيضاً : ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيث كِتَابًا مُتَشَابِهًا (٢٣)﴾ [الزمر]

فهو أحسن الحديث لأنه كلامُ الله ، وكلامُ الله صفته ، وهو كامل الكمالَ

المطلق ، وهو أحسن القصص ، قال تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـٰذَا الْقُرْآنَ (٣) ﴾ [يوسف]

والتكذيب بهذا الحديث هو تكذيبٌ بآيات الله ، والتكذيب بآيات الله يعنى إخراجَ الصدق إلى الكذب ، وإخراج الواقع إلى غير الواقع ، والذين كذَّبوا بآيات الله إما أنهم لا يؤمنون بإله ، أو يؤمنون بإله ولا يؤمنون برسول ، أو يؤمنون بإله ويؤمنونِ برسول ولا يؤمنون بما أُنزل على الرسول ﷺ .

والتكذيب مسألة منكرة ، وأول التمرد التكذيب ، وهو تأبٍّ من المكذِّب ، وقد قال الحق سبحانه عن المكذبين : ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٥) ﴾ [الأنعام]

والتكذيب ظاهرة عانى منها كلُّ الرسل ، لذلك قال الحق سبحانه : ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) ﴾ [الحج]

فإنْ يكذّبوك فى دعوتك فيواجهوك ويقفون فى سبيل دعوتك ليبطلوها فاعلم أنك لستَ فى ذلك بدعاً من الرسل فقد كذّب كثير من الرسل قبلك .

كذّب القوم لكن كيف كانت العاقبة ؟ أتركناهم أم أخذناهم أخْذ عزيز مقتدر؟ فلا تحزن فسوف يحلّ بهم ما حلَّ بسابقيهم من المكذِّبين والمعاندين .

فهؤلاء الذين سبقوكم من الأمم جُبلوا على التكذيب ، وكانوا ثابتين عليه لم يزحزحهم عن التكذيب شيءٌ ، فاحذروا أنْ تكونوا مثلهم فينزل بكم ما نزل بهم .

﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٨) ﴾ [العنكبوت]

فلستم بدعاً فى التكذيب ، لكن يجب عليكم أنْ تتنبهوا إلى ما صنع بالأمم

المكذِّبة ، وكيف كانت عاقبتهم ، فاحذروا أنْ يصيبكم ما أصابهم .

وأحياناً يكون التكذيبُ متعمداً مثلما حدث لآل فرعون عندما أصابهم **الله** بآفات وأمراض وبالعذاب الأصغر حتى يؤمنوا ، ولكنهم رغم يقينهم بأن هذه الآيات من **الله** سبحانه وتعالى لم يعترفوا بها ، لذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ **وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا** (١٤) ﴾ [النمل]

والحق سبحانه يوضح لنا كيف سيعاقب هؤلاء المكذبين ، فيقول سبحانه:

﴿ **سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ** (١٨٢) ﴾ [الأعراف]

حين تقول : أنا استدرجتُ فلاناً فأنت تعنى أنك أخذتَ تحتال عليه حتى يقرّ بما فعل ، مثل وكيل النيابة حين يحقق مع المجرم ويحاصره بالأسئلة من هنا ومن هناك إلى أنْ يُقرّ ويعترف ، وهذا هو الاستدراج .

والاستدراج من الدرج ونسميه فى لغتنا اليومية «السُّلم» ، وهو وسيلة للانتقال من أسفل إلى أعلى ومن أعلى إلى أسفل ، فمن المستحيل على الإنسان أنْ يقفز بخطوة واحدة إلى الدور الخامس مثلاً فى عمارة ما .

ولذلك صمموا الصعود على درجات إلى مستويات متعددة على وفق الحركة العادية للنفس ، فمعنى الاستدراج أى نأخذهم درجةً درجةً ، ونعطى لهم نعمة ثم نرهقهم بما وصلوا إليه .

والحق سبحانه يقول : ﴿ **حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً** (٤٤) ﴾ [الأنعام]

فالله حين يريد أنْ يعاقب واحداً على قدر جُرْمه فى حَقِّ أخيه الإنسان فى الدنيا لا يأخذه من أول جُرْم ، لأن الأَخْذة فى هذه الحالة ستكون ليِّنة ، لكنه يملى له ويُعليه ثم يلقيه من عَلٍ .

وهكذا يكون الأخذ أَخْذَ عزيزٍ مقتدر ، وحين يستدرج البشر فإنَّ الطرف المستدرج له أيضاً ذكاء ، ويعرف أن هذا نوعٌ من الكيد وفخ منصوب له ، لكن

حين يكون ربُّنا القوى العزيز هو الذي يستدرج فلن يعرف أحدٌ كيف يفلت .

والعلَّة في قوله تعالى : ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢)﴾ [الأعراف] لأن البشر يعلمون طرق استدراج بعضهم لبعض .

وهذا الاستدراج يُسمَّى أيضاً الإملاء ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢)﴾ [الرعد]

والإملاء بمعنى الإمهال ليس معناه ترك العقوبة على الذنب ، وإنما تأخير العقوبة لذنب قادم ، والمثل هو أنْ تترك مخطئاً ارتكب هفوة إلى أنْ يرتكب هفوة ثانية ثم ثالثة ، ثم تُنزل به العقاب من حيث لا يتوقع .

وإذا كان هذا ما يحدث في عالم البشر ، فما بالنا بقوة الحق سبحانه اللامتناهية ، وهو القائل : ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤)﴾ [القلم]

ويقول تعالى : ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٧٨)﴾ [آل عمران] ، تماماً مثلما نجد مَنْ يصنع فخاً لعدوه .

وبداية الاستدراج الفتح على المستدرج ، قال تعالى : ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ[١] (٤٤)﴾ [الأنعام] أي لم نعجل بعقابهم بل تركناهم فتمادوا في المعصية ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا من النعمة والثروة وكثرة العدد جاءهم العقاب .

وأهل السياسة عندما يريدون أنْ يُنزلوا بخصومهم العقاب ، يرفعون خصومهم ويمدُّون لهم في حبال الصبر والإمهال حتى يعلو الخصم كثيراً ثم ينكشف ويظهر سوء سلوكه فيقع أمام الناس .

---

(١) أبلس : حزن ويئس وتحير وسكت هماً أو سكت لانقطاع حجته . واسم الفاعل (مبلس) وجمعه (مبلسون) .
[القاموس القويم لألفاظ القرآن الكريم ١/ ٨٢]

والحق سبحانه يمدّ ويُملي لهم ليأخذوا وليبنُوا وليترفوا وليفرحوا بما أخذوا ، ومن بعد ذلك يفتح الله عليهم أبوابَ كلِّ شيء .

ففتح عليهم أىَّ سلَّط عليهم ، وهذا غير قوله سبحانه : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١)﴾ [الفتح] ، فالفتح لك غير الفتح عليك ، لأن الفتح على أحد يعنى الاستدراج إلى إذلال قسرىٍّ سوف يحدث له .

فالفتح لك لصالح المتلقِّى وليس عليه فإنه يُحسُّ بالانشراح والسرور .

وحين يستدرج البشرُ البشرَ فإن الطرفَ المستدرج له أيضاً ذكاء ويعرف أن هذا نوعٌ من الكيد وفخٌّ منصوب له ، لكن حين يكون ربُّنا القوى العزيز هو الذى يستدرج فلن يعرف أحدٌ كيف يفلت .

والعلَّة فى قوله ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ (٤٤)﴾ [القلم] هى قوله ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤)﴾ [القلم] لأن البشر يعلمون طرق استدراج بعضهم لبعض .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥)﴾

الإملاء هو الإمهال وهو التأخير . أى أنه لا يأخذهم مرةً واحدة ، والإملاء للظالم الكافر ليس إهمالاً له من المولى تعالى، بل هو إمهالٌ فقط ثم يأخذه الله أخْذَ عزيز مقتدر .

فمَنْ يمسك عدوه ليرفعه فلا يظنّ أنه يُدلله ولكنه يرفعه ليلقيه من عَلٍ فيزداد ويعظم ألمه ، فالفتح على الكافرين والمنافقين ليس فى صالحهم ، بل هو وبالٌ عليهم فلا تغترُّوا بها ، فقد أعطاها الله لهم وهم سيبطرون بها فتكون سبب عذابهم .

وساعة يقوم الفاسدُ بالكثير من الشرِّ فى المجتمع ، نجد أهل الخير وهم يزيدون من فعل الخيرات ونسمع دائماً مَنْ يقول : لو لم يكُنْ هناك إيمانٌ لأكل

الناسُ بعضهم بعضاً .

فالإيمان يعطى الأُسْوة واليقين ، والإملاء للظالم الكافر ليس إهمالاً له من المولى تعالى ، بل هو إمهالٌ فقط ، ثم يأخذه الله أَخْذ عزيز مقتدر .

وهنا يوضح الحق سبحانه : إذا كنتُ سأستدرج وسأملى فاعلم أن كيدى متين ، والكيد هو المكر والمكر أَخْذُهم من حيث لا يشعرون ، وهو عملية خفيّة تسوء الممكورَ به .

وهو تدبيرٌ خفيٌّ حتى لا يملك الممكورُ به ملكات الدفع ، وإذا كان البشرُ يمكرون ويدبرون تدبيراً يخفى على بعضهم ، فماذا حين يدبر اللهُ للكافرين مكيدةً أو مكراً ، أيستطيع واحدٌ أنْ يكشف من ذلك شيئاً ؟

طبعاً لن يستطيع أحدٌ ذلك ، هذا هو معنى : ﴿ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥) ﴾ [القلم]

ومتين أى قوى ، والمتانة مأخوذة من المتن وهو الظهر ، ونعرف أن الظهر مُكوَّنٌ من عمود فقرى وفقرات عظمية ، تحيط بها عضلات .

فلو كان العمود الفقرى من عظم فقط لكان أى حمل عليه يكسره ، فشاءتْ تجلياتُ ربنا عز وجل واقتضتْ رحمتُه وقدرتُه أنْ تُحاط هذه العظام بعضلتين كبيرتين .

وإذا نظرنا إلى كلمة (متين) نجد المتن هو الشيء العمودى فى الأشياء .

والحق سبحانه ليس غافلاً عما يعمل الظالمون : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ [1] فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢) ﴾ [إبراهيم]

فالذى يفعل ظلماً سيتلقَّى عقاباً عليه ، وحين يتأخر العقاب يتساءل الذين رأوا فعل الظلم فهم يتهامسون : تُرى هل تم نسيان الظلم الذى ارتكبه فلان ؟ هل هناك غفلةٌ فى الأمر ؟

---

(١) شخوص الأبصار : ارتفاع الجفون إلى فوق وتحديد النظر وانزعاجه [لسان العرب - مادة : شخص]

ولمَنْ يتساءلون عليهم أنْ يتذكروا قول الحق سبحانه : ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣)﴾ [الأعراف]

فليستْ هناك غفلةٌ ، ولكن هناك تأجيلٌ للعقوبة لهؤلاء الظالمين ، وفى سورة الحج يقول تعالى : ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤)﴾ [الحج]

أمليتُ : أمهلتُ حتى ظنُّوه إهمالاً ، وهو إمهالٌ بأنْ يمدّ الله لهم ، ويطيل فى مدتهم ، لا إكراماً لهم ولكن ليأخذهم بعد هذا أَخْذَ عزيز مقتدر .

والكافرون يكيدون للمؤمنين وهم لن يتركوهم على إيمانهم أبداً ، بل لا بدَّ أنْ يكيدوا لهم ، وهذا الكيد يتجلَّى فى أنهم يدسُّون لهم أشياء وينفذون إليكم .

فهم لن يتورعوا أنْ يدخلوا عليكم من باب الكيد لكم ولدينكم بكلِّ لون من الألوان ، وهم لا يقصِّرون فى هذا أبداً .

والكيد هو أنْ تبيِّت وتحتال على إيقاع الضرر بالغير بحيث يبدو أنه كيدٌ من غيرك ، أى تدبر لغيرك لتضره .

فالكيد هو محاولة إفساد الحال بالاحتيال ، فهناك مَنْ يفسد الحال لكن ليس بحيلة ، وهناك مَنْ يريد أنْ يفسدها بحيث إذا أمسكتَ به يقول لك : لم أفعل شيئاً لأنه يفعل الخطأ فى الخفاء .

والكيد لا يُقبل عليه إلا الضعيف ، فالقويُّ يواجه مَنْ يكيد له ، فالذى يدسُّ السُّم لإنسان آخر فى القهوة مثلاً هو مَنْ يرتكب عملاً لإفساد الحال باحتيال لأنه لا يقدر على المواجهة .

وتجد أن كيد الشيطان جاء ضعيفاً ، فقال تعالى : ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦)﴾ [النساء]

فكيد الشيطان ضعيفٌ لأنه لا يملك قوةً يقهر بها قالباً ،ولا يملك حجة يقهر بها قلباً ليقنعك ، فهو يشير لك باحتيال وتزيين وأنت تأتيه ولا يحتال إلا الضعيف .

والكيد من لوازمه المكر ، والمكر هو الكيد الخفى ، والمكر مأخوذ من التفاف أغصان الشجرة كالضفيرة ، فلا تتعرف على منبت ورقة الشجر ومن أىِّ غصن خرجت ، فقد اختلطت منابت الأوراق حتى صارتْ خفية عليك وأخذ من ذلك الكيد الخفى .

وأنت قد تكيد لمساويك ، لكنك لن تقدر على أنْ تكيد لمن هو أعلى منك فإنْ كنتم تمكرون فإنَّ الله أسرعُ مكراً ، والحق سبحانه يقول : ﴿ قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا (٢١) ﴾ [يونس]

ومكْرُ الله سبحانه أقوى من أىِّ مكر بشرىٍّ ، لأن مكر البشر قد يُهدم من بعض الماكرين أو من التجسُّس عليهم ، لكن إذا كاد الله لهم أيعلمون من كيده شيئاً ؟ طبعاً لا يعلمون .

ومكركم البشرى هو أمر حادث لكنِ الله سبحانه أزلىُّ الوجود ، يعلم كلَّ شىء قبل أنْ يقع ويرتب كلَّ أمر قبل أنْ يحدث ، لذلك فهو سبحانه الأسرعُ فى الردِّ على مكركم إنْ مكرتم .

وقد وصف الحق سبحانه كيده بأنه (متين) فقال : ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥) ﴾ [القلم]

وهو متين ، لأن لا أحد بقادر على كيده ، وهو القائل سبحانه : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (١٧) ﴾ [الطارق]

فكيدُ الله لا غالبَ له ، وهو كيدٌ غير مفضوح لأحد ، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) ﴾ [الأنفال]

والحق سبحانه إذا أراد أنْ يكيد لهم فلن يشعروا به .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٦) ﴾

فالرسول لا يسأل قومه أجراً على هدايته لهم ، فأجره على الله وحده ، والحقُّ سبحانه يخاطب رسوله ﷺ : ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (١٠٤)﴾ [يوسف]

ويقول على لسان رسوله في موقع آخر : ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ (٤٧)﴾ [سبأ]

وهو هنا يُعلي الأجر ، فبدلاً من أنْ يأخذ الأجرَ من محدود القدرة على الدفع فهو يطلبها من الذى لا تُحدّ قدرته في إعطاء الأجر ، فكأَنَّ العمل الذى يقوم به لا يمكن أنْ يُجازى عليه إلا من الله ، لأن العمل الذى يؤديه بمنهج الله ومن الله، فلا يمكن إلا أنْ يكون الأجرُ عليه من أحدٍ غير الله .

والأمر أصبح واضحاً أن الرسول ﷺ لا يريد أجراً ، وإنما أجره على الله وهذا حكم به الله سبحانه ، ورسول الله قال لهم هذا .

لذلك هنا يأتي الأمرُ في صورة استفهام من الحق سبحانه لرسوله:
﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٦)﴾ [القلم]

فهل هم غير قادرين على دَفْع الثمن لأنهم بخلاء ؟ أو لا يريدون أنْ يُخرجوا من جيوبهم شيئاً تنتفع أنت به ؟ مع أنك لم تسألهم أجراً ، فهل يعنى ذلك أنَّ النبى كان من المفروض أن يسألهم أجراً ؟

فالإنسان إذا قدّم لإنسان شيئاً نافعاً فعليه أنْ يدفع له أجراً بمقتضى التبادل والمعاوضة ، وكأنه ﷺ يقول لهم : لقد قدّمت إليكم جميلاً يفترض أنَّ لى عليه أجراً لكنى لا أريد منكم أجراً ، والمسألة من عندى تفضُّل .

والأجر جُعْل يقابل عملاً ، وقيمة هذا الجُعل تختلف باختلاف مشقة العمل وطول زمنه ومهارة العامل فيما يقتضيه العمل ومخاطر ما يقتضيه العمل.

وكلُّ أجر يُقدَّر بما يقابله من عمل ويتناسب مع ما يقتضيه العمل من وقت ومجهود ومشقة ومخاطر ومهارة .

وإذا كان الأمرُ كذلك فانظروا إلى عمل الرسول وإلى مدى إفادتكم من رسالته، انظروا إلى المنهج الذى جاءكم به وكيف أنه يُريحكم مع أنفسكم، ويريحكم مع المجتمع ، ويُريحكم مع ربكم عز وجل ، ويريحكم من شرور أنفسكم ومن شرور الناسِ جميعاً .

إذن للرسول عمل كبير ومجهود عظيم لو قدَّرت له أجراً لكان كذلك عظيماً، إنّ الإنسان إذا أجَّر مثلاً حارساً يحرسه بالليل ، كم يدفع له ؟

. فالنبى يأتيك بمنهج يحرسك ويحميك فى نفسك وفى مالك وفى عِرْضك وفى كلِّ ما تملك ، ولا يحميك من فئة معينة ، إنمَا يحميك من الناس أجمعين ، بل إن حماية منهج الله لك لا تقتصر على الدنيا إنما تتعدّى إلى الآخرة فتحميك فيها حمايةً ممتدة لا نهايةَ لها ، فإن قدَّرتَ لهذه الحماية أجراً ، فكم يكون ؟

إنما أنا أقولُ لك : لا أريد أجراً ، لا كراهيةً فى الأجر ، بل لأنك أنت أيها الإنسانُ لا تستطيع تقدير هذا العمل أو تقييم الأجر عليه ، أما الذى يقدِّر ذلك فهو ربى الذى بعثنى ، وأنت أيها العبد مهما قدَّمْتَ لى من أجر على ذلك فهو قليل .

والرسول ﷺ لا يريد أجراً من أحد ، فاطمئنوا ولا تخافوا من أنْ نثقلكم بشىء ، إنما أجرى على الله : ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) ﴾ [يونس]

وقال تعالى : ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ (١٠٩) ﴾ [الشعراء]

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (٥٧) ﴾ [الفرقان]

أى سبيلاً للمثوبة وسبيلاً للأجر من جهاد فى سبيل الله ، أو صدقة على الفقراء . فأجْرُ الرسول العمل للغير لتأخذ أنت الأجر من الله ، فالرسول لا يأخذ شيئاً لنفسه .

ثم يقول تعالى :

﴿ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

هل عندهم علم الغيب فهم يكتبون ذلك للناس ، فينبئونهم بما شاءوا ويخبرونهم بما أرادوا ، فهل عندهم اللوح المحفوظ الذى فيه نبأ ما هو كائنٌ فهم يكتبون منه ما فيه ويجادلونك به .

فهل عندهم شيءٌ من الغيب انفردوا به وأوجب لهم أنْ لا يستجيبوا ، وقد سمَّى الله اللوح المحفوظَ غيباً لأنه كتب فيه ما غاب عن العباد ، فهم يكتبون منه ما يحكمون لأنفسهم ويقع بشهواتهم .

وهذا استفهام استنكاريٌّ فليس عندهم علم الغيب كما يظنون ، فلا يعلم أحدٌ من أهل السماوات والأرض الغيبَ إلا الله .

أيدَّعون أن عندهم علمَ الغيب فهم يكتبون للناس ما أرادوا من علم الغيب ، وهم يعلمون أن ليس عندهم الغيب وأن ليس لهم به علم ، وأنْ ليس لهم عليه قدرةٌ وهم لا يكتبون فى سجل الغيب شيئاً .

وجواب السؤالين : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٦) أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤٧) ﴾ [القلم] جواب كلا السؤالين : لا .

فأنت يا محمد لم تسألهم أجراً ، وليس عندهم علمٌ بالغيب ، حتى رسول الله لا يعلم شيئاً من الغيب ؛ فمَنْ هو أقل منه لا يعلم الغيب ، وقد أمره الله تعالى أنْ يعلن أنه لا يعلم الغيب فقال تعالى : ﴿ قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ (٥٠) ﴾ [الأنعام]

وهنا يقول تعالى لهؤلاء المكذبين : ﴿ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤٧) ﴾ [القلم] والجواب : لا .

ثم يوجِّه الحق سبحانه نبيَّه ورسوله محمداً ﷺ :

﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ ﴾

قوله سبحانه هنا جاء لتسلية رسول الله ﷺ موضحاً له : إنهم يكذِّبونك ويكفرون بالله وبك وبالنور الذى أنزلناه معك ، وقد ترغب فى أنْ نأخذهم أخْذ عزيز مقتدر .

لكن الحق سبحانه جعل لكلِّ مسألة كتاباً ، فهو قد خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ، ونحن فى حياتنا نقول لمن يتعجل أمراً : يا سيدى إنَّ ربنا خلق السماء والأرض فى ستة أيام ، فلا تتعجل الأمور .

فربُّنا سبحانه هو القادر على أنْ ينجز خَلْق السماء والأرض فى لحظة ، لكنه أمر بـ (كُنْ) وترك المواد تتفاعل لستة أيام . ولماذا لا نقول : جاء بكلٍّ ذلك ليعلِّمنا التأنِّى وألاَّ نتعجل الأشياء .

﴿ فَاصْبِرْ (٤٨) ﴾ [القلم] ولا ترهق نفسك ، فسيأتى لهؤلاء الجاحدين يومهم الذى يُؤاخذون فيه بسوء أعمالهم وسوف يأتى حتماً .

والصبر قد يكون ميسوراً سهلاً فى بعض المواقف ، وقد يكون شديداً وصعباً ويحتاج إلى مجاهدة ، فمرَّة يقول الحق لرسوله : اصبر ، ومرَّة يقول : اصطبر .

فما الأقوال التى يصبر عليها رسول الله ؟ قولهم له : ساحر . وقولهم : شاعر . وقولهم : مجنون وكاهن . كما قالوا عن القرآن : أضغاث أحلام . وقالوا : أساطير الأولين . فاصبر يا محمد على هذا كله . لأن كل قوْلَة من أقوالهم تحمل معها دليلَ كذبهم .

فدعْك يا محمد من هؤلاء المكذبين ، واثبت على ما أنت عليه ، اصبر على كُرْههم ، واصبر على لَددهم وعنادهم ، واصبر على إيذائهم لك ولمَنْ يؤمن بك اصبر على هذا كله لأن العاقبةَ فى صالحك .

وفى آية أخرى يقول : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (٦٠) ﴾ [الروم]

يعنى لن تُخرجونى عن ثباتى وحِلْمى ولن تستفزونى .

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ (٤٨) ﴾ [القلم] فاصبر يا محمد لقضاء ربك وحكمه فيك وفى هؤلاء المشركين بما أتيتهم به من هذا القرآن وهذا الدين وامْض لما أمرك به ربُّك ، ولا يُثنيك عن تبليغ ما أمرت بتبليغه تكذيبهم إيّاك وأذاهم لك .

اصبر على أذاهم لقضاء ربك الذى هو آتٍ ولا تكُنْ فى الضجر والغضب والعجلة وترْك الصبر ، راصبر لحكم ربك فى إمهالهم وتأخير نصرتك عليهم .

فعليك بتبليغ الرسالة واحتمال الأذى ، واحتمال تأخير نصرتك على أعدائك.

والحق سبحانه لا يكتفى بأمر رسوله ﷺ بالصبر على حكم ربه وقضائه وما كلَّفه الله به من الصبر والاحتمال ، بل إنه سبحانه يذكر لرسوله مثلاً من قصص أنبيائه ، ليأخذ رسول الله وأمته معه العبرة من قصص الأمم السابقة.

فيقول تعالى : ﴿ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) ﴾ [القلم]

فلا تكُنْ يا محمد كصاحب الحوت فى العجلة وعدم الصبر على قومه ، وصاحب الحوت هو النبى يونس بن متى عليه السلام ، وهو ذو النون ، والنون من أسماء الحوت وجمعه (نينان) كحوت وحيتان .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) ﴾ [الأنبياء]

فاسم النبى يونس ارتبط واقترن بالحوت الذى ابتلعه ، بعدما دعا قومه إلى الإيمان بالله ، ولكنهم كفروا به فأغضبوه وغضب منهم .

وكان المفروض أنْ يتحملَ الأذى الصادر منهم تجاهه ، وكانت معارضة دعوته شديدة تُحفظ وتملأ القلب بالألم والتعب ، وكان عليه أنْ يُوطِّن نفسه على مواجهة مشقات الدعوة .

ونحن نعلم أنّ العبد الصالح يونس عليه السلام قد تأثر وحزن وغضب من عدم استجابة قومه لرسالته الإيمانية إلى أنْ رأوا غيماً يملأ السماء وعواصف.

وألقى الله تعالى فى خواطرهم أن هذه العواصف هى بداية عذاب الله لهم، فهُرعوا إلى ذوى الرأى فيهم ، فأشاروا عليهم بأن هذه هى بوادر العذاب ، وقالوا لهم : عليكم بإرضاء يونس لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى أرسله فآمنوا به ليكشف عنكم الغمة .

وهرع الناس إلى الإيمان بالحىِّ الذى لا يموت ، وذهب قوم يونس عليه السلام لا سترضائه بعد عودته من محنة التقام الحوت له ، وحين رضى عنهم بدأوا ينظرون فى المظالم التى ارتكبوها ، حتى إن الرجل منهم كان ينقُض ويهدم جدار بيته ، لأن فيه حجراً قد اختلسه من جار له .

ويونس عليه السلام فى أثناء مغاضبته ركب سفينة ، ولكن السفينة تعرضت للعب الأمواج بها فاضطربت اضطراباً شديداً ، وأشرفتْ على الغرق بركابها فألقوا الأمتعة فى البحر لتخفّ بهم السفينة فاستمر اضطرابها ، فاقترعوا على أن يلقوا إلى البحر مَنْ تقع عليه القرعة ، فوقعت القرعة على نبى الله يونس.

يقول الحق سبحانه : ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ[(١)] إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ[(٢)] (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤)﴾ [الصافات]

فكان يونس عليه السلام ممن خسروا القرعة فى عرف الناس ، ووقعت

---

(١) أبق : هرب من مالكه وقد جعل الله ترك يونس عليه السلام قومه إباقاً لأنه مملوك لله وللرسالة التى كلفه الله أن يقوم بها [القاموس القويم ١/ ٤]

(٢) المدحضين أى أنه قارعهم فكان من المقروعين المغلوبين (تفسير مقاتل بن سليمان ٣/ ٦٢٠) وقال يحيى بن سلام فى تفسيره (١/ ٣٣٧) : من المسهومين يعنى أنه وقع السهم عليه .

القرعة عليه ليتم إلقاؤه في البحر ، فابتلعه الحوت : ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢)﴾ [الصافات]

أي ابتلعه الحوت وقد فعل ما يُلام عليه ، وكأنَّ الله يقول له : لقد تسرعت حين تركتَ قومك وضِقت بهم لأول إيذاء تتعرَّض له ، وكان عليك أنْ تصبر وأنْ تتحمل الأذى في سبيل دعوتك ، ومعلوم أنك لا تعاتب إلا مَنْ تحرص عليه ليظلَّ في صحبتك .

فالله عاتبه ولامه مجرد لَوْم على أمر لا يصح من نبي ، والعتاب دليل المحبة.

فما كان من يونس عليه إلا أنْ دعا ربه وهو في بطن الحوت ، قال تعالى هنا : ﴿إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨)﴾ [القلم]

والنداء هنا الدعاء ، وأحسن الدعاء الدعاء الخفي ، وذلك كدعاء زكريا عليه السلام: ﴿كهيعص (١) ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣)﴾ [مريم]

أما هنا فيونس عليه السلام نادى ربه ودعاه : ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨)﴾ [القلم]

والكظم كتم الشيء ، وهو مأخوذ من كَظْم القربة حين تمتلىء بالماء ثم يكظمها أي يربطها فتراها ممتلئة كأنها ستنفجر ، هكذا الغضبان تنتفخ عروقه ، ويتوارد الدم في وجهه ويحدث له احتقان ، فهو مكظوم ممنوع أنْ ينفجر .

وذلك مثل الذي يكره أنْ تكون له البنات فإذا بشَّره أحدٌ بالأنثى تجد وجهه مُسوداً يكاد ينفجر من السُّخْط والغضب ، يقول تعالى : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ (٥٩)﴾ [النحل]

ورسول الله ﷺ تعرَّض لمصاعب جمة في طريق الدعوة ، فقد آذاه قومه وكذَّبوه وألجئوه إلى الطائف ، وكان أهلها أشدَّ قسوة من إخوانهم في مكة ، فعاد مُنكراً دامياً ، وكان من دعائه : «اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي ، وقلة

حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى مَنْ تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملّكته أمرى ؟ إنْ لم يكن بك علىَّ غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنورْ وجهك الذى أشرقتْ له الظلمات ، وصَلُحَ عليه أمر الدنيا والآخرة من أنْ تُنزل بى غضبك ، أو يحل علىَّ سخطك لك العتبى حتى ترضى ، ولا حوْلَ ولا قوة إلا بك»[١] .

لقد كان رسول الله فى محنة فلجأ إلى ربه ونادى ربه مستجيراً به ، ألم يُرْمَ رسول الله بالحجارة حتى دميت قدماه فى الطائف ؟ ألم يضعوا على ظهره الشريف سلا[٢] البعير فى مكة - أى سَقَط البعير - ألم تكسر رباعيته[٣] يوم أُحُد ويُشجّ ويسيل دمه ﷺ ؟ .

فرسول الله ناله مع ربه عز وجل إيذاءٌ بالقول ، ثم ناله إيذاءٌ آخر بالفعل ، إيذاءٌ بشريّ فيه إيلام ، وقمةُ الإيذاء بالفعل ما يتعرَّض لأمر محارمه وأزواجه ﷺ .

فلا تكُنْ يا محمد كيونس عليه السلام صاحب الحوت إذ ذهب مغاضباً ولم يصبر على عدم إيمان قومه به وبدعوته ، فنادى ودعا ربه وهو مستشيطٌ غضباً من تكذيب قومه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ ﴾

لولا أن الحق سبحانه تداركه عبده يونس عليه السلام برحمة منه لأُلْقى ونُبذ بالعراء وهى الأرض التى لا زرعَ فيها ولا نبات .

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (١/ ٤٢٠) والبيهقى فى دلائل النبوة (٢ / ٤١٦) والسهيلى فى الروض الأنف (٤ / ٢٦) وابن كثير فى السيرة النبوية (٢/ ١٥٠)

(٢) سلا البعير : السَّلَى الجلد الرقيق الذى يخرج فيه الولد من بطن أمه ملفوفاً فيه، وهو فى الناس المشيمة. وفى الماشية السلا [لسان العرب - مادة سلا]

(٣) الرباعية : إحدى الأسنان الأربع التى تلى الثنايا ، بين الثنية والناب تكون للإنسان وغيره والجمع رباعيات قال الأصمعى : للإنسان من فوق ثنيتان ورباعيتان بعدهما ونابان وضاحكان وستة أرحاء من كل جانب وناجذان ، وكذلك من أسفل [لسان العرب - مادة ربع]

فيونس عليه السلام كان مكظوماً مكروباً مغموماً من الغم الذى أصابه بسبب إلقائه فى البحر وابتلاع الحوت له ولُبْثه فى بطن الحوت .

وابتلاع الحوت له هو فى حد ذاته نعمة من ربه ، فلولا التقامُ الحوت له لضاع فى البحر الواسع وقد لا يخرُج منه ولا يصل إليه أحد ، ولكن الله تداركه برحمته ، فحدد الظرف الذى يكون فيه وهو بطن الحوت .

ورحمة الله تداركتْه بأنه لم يُنبذ بالعراء وهو مذموم بل نُبذ بالعراء وهو سقيم ، والسقيم المريض ، فنُبذ مريضاً ولم ينبذ مجرماً مطروداً من رحمة الله.

قال تعالى : ﴿ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (١٤٦) ﴾ [الصافات]

فنبْذُ النبى يونس عليه السلام بالعراء كان قدراً مقدوراً ، ومع هذا فلا خروجَ له عما قُدر عليه ، فلو رضى العبد باختيار الله أصابه القدر وهو محمود مشكور ملطوف به فيه ، وإلا لجرى عليه القدر وهو مذموم عنده غير ملطوف به فيه مع اختياره لنفسه .

ومتى صح تفويضه ورضاه اكتنفه فى المقدور العطف عليه واللطف به . فيصير بين عطف الله ولطفه ، فعطفه يقيه ما يحذره ، ولطفه يهوّن عليه ما قدَّره.

ويونس نُبذ بالعراء ولكن الله أنبتَ عليه شجرةً من يقطين ، وكلُّ شيء ينبسط مثل القرع والكرم والقثاء يُسمَّى يقطيناً .

وقد قال أبو هريرة عن يونس : طُرح بالعراء فأنبت الله عليه يقطينة فقلنا: يا أبا هريرة وما اليقطينة ؟ قال : الشجرة الدباء ، هيّأ الله له أروية وحشية تأكل من خشاش الأرض فتفشح عليه فترويه من لبنها كلَّ عشية وبكرة حتى نبتَ[1].

ونلحظ فى هذه الآية أن الحق سبحانه قال : ﴿ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ (٤٩) ﴾

(١) أخرجه الطبرى فى تفسيره (٢١ / ١١٣) (١٩ / ٦٣٥) ، وابن كثير فى تفسيره (٧ / ٣٥) ، وذكره السيوطى فى الدر المنثور (٧ / ١٣٠) وعزاه لابن جرير من طريق ابن قسيط .

[القلم] بتذكير(تداركه) مع أن (نعمة) مؤنث ، ولكنه مؤنث غير حقيقى .

وكان نتيجة أن الحق سبحانه تداركه برحمته أن الله اجتباه واصطفاه وجعله نبياً ، قال الحق سبحانه :

﴿ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٥٠) ﴾

والاجتباء الاصطفاء ، فالله اصطفاه واختاره بعد تلك المحن المتتابعة التى تعرَّض لها ، والاجتباء نعمة أخرى ، وتاج نعمة الدنيا أن الله اجتباه نبياً .

الاجتباء الاصطفاء والاختيار للنبوة ، وقد كان اجتباء يونس عليه السلام عن اختبار ، وقد كان هذا مع كلٍّ من اختاره الله للنبوة ، قال تعالى عن آدم عليه السلام : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (١٢٢) ﴾ [طه]

فالاجتباء والعصمة كان بعد التجريب ، والتحقق من أن آدم ويونس أهلٌ لهذا الاجتباء والاختيار وعلى مستوى مسئوليته ، وأنْ يحقق ما أراده الله منه.

وإذا كان كلامنا هنا هو عن يونس عليه السلام ، فإن آدم مرَّ بتجربة إيمانية مثلما مرَّ بها يونس ، وآدم مرَّ بهذه التجربة قبل أنْ يجتبيه الله للنبوة .

وكثيرون يظنون أن عصيان آدم جاء بعد أنْ كُلِّف بالنبوة فيقولون : كيف يعصى آدم ربّه وهو نبيّ والنبى معصوم ؟

ونقول : نعم عصى آدم ربه لكن قبل النبوة ، وكان ما يزال بشراً عادياً ، لذلك قال سبحانه فى حقه : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (١٢٢) ﴾ [طه]

فالاجتباء جاء بعد المعصية ، وهكذا كان يونس عليه السلام جاء اجتباؤه من الله بعد ما مرَّ به من محنة مغاضبته لقومه وهروبه منهم ، ومحنة الفُلْك وما حدث فيه ، ومحنة الإلقاء فى البحر ، ومحنة ابتلاع الحوت له ، ومحنة إلقاء الحوت له على الشط بأرض عراء كالفَرْخ الذى اهترى جلده وسقط ريشه عرياناً .

والذى اجتباه هو ﴿رَبُّهُ (٥٠)﴾ [القلم] فالحق سبحانه يذكِّرنا بربوبيته ، فالربوبية ليس فيها من القسوة بقدر ما فيها من رحمة ، فبربوبيته يمهل الله العصاةَ والظالمين لأنفسهم ويفتح أبواب التوبة لكلِّ مَنْ يلجأ إليه .

فربوبيته تعالى ليست ربوبية جبروت ، بل ربوبية (الرحمن الرحيم) .

والحق سبحانه اجتبى واصطفى يونس صاحب الحوت : ﴿فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٥٠)﴾ [القلم]

وهنا يبرز سؤالٌ هو : لأيِّ عمل هم صالحون ؟ ونحن نقول فى حياتنا: « فلان رجل صالح » ومقابله (رجل طالح) ، والإنسان صالح للخلافة ، والرجل الصالح يرى الشيء الصالح فى ذاته فيترك هذا الشيء على ما هو عليه أو يزيده صلاحاً .

أما الرجل الطالح أو المفسد فهو يأتى إلى الشىء الصالح فيفسده ولا يفعل صلاحاً.

وقد ذكر الحق سبحانه يونس عليه السلام ضمن كوكبة من أنبياء الله الصالحين ، فقال تعالى : ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦)﴾ [الأنعام]

والصلاح والنبوة رحمة من الله لأنبيائه ، لذلك قال تعالى فى حق نبى من الأنبياء هو لوط عليه السلام : ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِى رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥)﴾ [الأنبياء]

أى أدخلناه فى ركب النبوة : ﴿إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥)﴾ [الأنبياء] أى من الصالحين للنبوة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ (١) لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) ﴾

لم يسلم رسول الله ﷺ من سخرية الذين كفروا واستهزائهم وقد كانوا شديدى العداوة له ، فيرمونه بأنظارهم غيظاً عليه وحقداً .

فإذا قرأتَ القرآن تجدهم ينظرون إليك نظراً شديداً بالعداوة يكاد يُزلقك أى يسقطك من شدة النظر .

و (يزلقونك) من أزلقه عن موضعه إذا نحَّاه . والزلق هو السقوط ، والإزلاق: الإسقاط ، فتجد مَنْ يبغض إنساناً تجده ينظر إليه نظراً يتمنى لو صرعه به ، أو كما نقول : يأكله بنظره أكلاً .

والبعض من العلماء قال : إن الإزلاق بالأبصار أى ما تفعله العين فى المعيون أى المحسود ، وقد كان العربُ إذا أرادوا إيذاءَ أحد فى نفسه أو ماله يأتون برجل يمكث اليومين والثلاثة لا يأكل شيئاً ، ثم يرفع جانب خبائه أو خيمته ، فتمرّ به النَّعَم والإبل فيقول : لم أر كاليوم إبلاً ولا غنماً أحسن من هذه، فما تذهب إلا قليلاً حتى يسقط منها ما يسقط صريعاً .

فكان الذين كفروا يأتون بهذا الرجل لينظر إلى رسول الله نظرَ العائن لعله يصرعه بنظره .

ولكن المتأمل لهذا يجد أن القول الأول هو الصحيح فهماً ، لأن الحاسد إنما ينظر إلى الشيء نظر استحسان وإعجاب ، ولكن الذى معنا هنا نظر بغض وكراهية وبغضاء وعداوة .

وهم كانوا يكرهون سماع القرآن ، ويكرهون مَنْ نزل عليه القرآن ، ويكرهون من أنزل القرآن على محمد ﷺ على وجه الخصوص .

---

(١) أزلقه : جعله يزلق كأن أبصارهم أدوات إزلاق لشدة حسدهم وحقدهم [القاموس القويم ٢٨٩/١]
قال أبو إسحاق : مذهب أهل اللغة فى مثل هذا أن الكفار من شدة إبغاضهم لك وعداوتهم يكادون بنظرهم إليك نظر البُغضاء أن يصرعوك [لسان العرب – مادة : زلق]

لهذا كان إزلاقهم لرسول الله بأبصارهم إنما كان حين يُقرأ عليهم القرآن ، لذلك قال الحق سبحانه : ﴿ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ (٥١) ﴾ [القلم]

والذكر المقصود هنا القرآن ، وقد قال تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر] ، وقال الحق فى آية أخرى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) ﴾ [النحل]

فالذكر حين يُطلق يُراد به القرآن : ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨) ﴾ [آل عمران]

وقد قال الحق لرسوله عن القرآن : ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ (٤٤) ﴾ [الزخرف] أى أن القرآنَ شرفٌ كبير لك ولأُمتك ، وسيجعل لكم به صيتاً إلى يوم القيامة ، فالقرآن شرفٌ لكم .

ويقول سبحانه : ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠) ﴾ [الأنبياء] أى : فيه شرفكم ، وفيه صيتكم ، وفيه تاريخكم .

فشرفُ القوم يجيء من شرف القرآن ومن صيت القرآن ، والحق سبحانه يقول : ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) ﴾ [ص] ، فشرفه دائم أبداً .

وهم سمعوا الذكرَ ، ولكنهم لم يتعرَّضوا هنا للطعن فى الذكر الذى هو القرآن، بل تعرَّضوا بالطعن للذى سمعوا منه القرآن فقالوا : ﴿إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) ﴾ [القلم]

وهذا من عمى بصيرتهم وضلالهم ، وهم فى آية أخرى يقول تعالى : ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) ﴾ [الحجر]

وهذا قول يؤكد غباء تفكيرهم ، فما داموا قد قالوا : ﴿ نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ (٦) ﴾ [الحجر]

فمَنْ الذى نزَّل هذا الذكر ؟ والذكر هو القرآن والذى نزَّله هو الله سبحانه ، فكيف يعترفون بالقرآن كذكر ثم يتهمون الرسول بأنه مجنون ؟

لأنهم ما داموا قد قالوا عن القرآن إنه ذكر وإنه قد نزل عليه ولم يأت به من عنده، فكيف يكون مجنوناً ؟ إنهم هم الكاذبون وقولهم يؤكد أن فكرهم نازل هابط .

وكيف يقولون عن رسول الله إنه مجنون ، والمجنون يتصرف بلا منطق ، يضحك بلا سبب ، ويبكى بلا سبب ، ويضرب الناس بلا سبب .

ونلاحظ أن الحق سبحانه بدأ هذه السورة سورة القلم بالرد على الكافرين الذين رموا رسول الله بالجنون، فقال تعالى: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ[1] (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)﴾ [القلم]

وأنهى سبحانه السورة بالرد أيضاً عليهم فى نفس الفرية ، فقال تعالى : ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١)﴾ [القلم]

ثم يردف الحق سبحانه فيقول :

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٥٢)﴾

الحق استخدم أسلوب القصر لتأكيد أن القرآن ما هو إلا ذكر ، فاستخدم سبحانه (ما) التى للنفى ثم الضمير المنفصل (هو) العائد إلى القرآن حَصْراً، ثم أداة الاستثناء (إلا) .

ومثلها قوله تعالى : ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (١٠٤)﴾ [يوسف] وكلمة (ذكر) تدل على أن الفطرة فى الإنسان كان يجب أنْ تظل واعيةً ذاكرةً لله ، وقد قدَّر الله غفلة الأحداث فجعل لهم الذكر كله فى القرآن الكريم .

وكلمة (العالمين) جمع عالَم ، والعالَم هو ما سوى الله تعالى : عالم الملائكة وعالم الجن وعالم الإنس وعالم الجماد وعالم الحيوان وعالم النبات . إلا أن بعض هذه العوالم لم يأتها بشير ولا نذير ، لأنها ليست مُخيَّرة ، والبشارة والنذارة لا تكون إلا للمخيّر .

---

(١) غير ممنون : غير مقطوع أى دائم . غير ممنون : غير منقوص. قاله مجاهد ومقاتل بن سليمان . وقال التسترى فى تفسيره (١ / ١٩٩) : « أى لا ينقطع عنهم أجور أعمالهم وإن ضعفوا عنها».

سُورَةُ الحَاقَّةِ

سورة الحاقة[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) ﴾

الحاقة يوم القيامة الثابتة حقيقتها التى لا تتزحزح ، فالحاقة اسم من أسماء القيامة ، فهو يوم الواقعة التى لا واقعة بعدها ، ويوم الصّاخة التى تصخ الآذان التى انصرفت عنها فى الدنيا ، ويوم الطامة التى تطمّ ، ويوم الدين أى الذى يقع فيه الدين أي الحساب .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ (٣٦) ﴾ [النحل]

فـ (حقت) أى أصبحت حقاً له ووجبت له بما قدَّم من أعمال لا يستحق معها إلا الضلالة ، فما حقَّتْ عليهم وما وجبت لهم إلا بما عملوا .

---

(١) سورة الحاقة سورة مكية ، عدد آياتها ٥٢ آية ، نزلت بعد سورة الملك وقبل سورة المعارج ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) ﴾ [المعارج] فهى السورة رقم (٧٧) فى ترتيب النزول بمكة ، أما فى ترتيب المصحف الشريف فهى السورة رقم (٦٩) . قال أبو القاسم هبة الله بن سلامة فى كتابه (علوم القرآن) (١ / ١٨٤) : « جميعها محكم وليس فيها ناسخ ولا منسوخ» .

ونجد قوْل الحق : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ (١٦) ﴾ [الإسراء]

أى أوجب لها العذاب ، فمن ارتكب جناية أو ما يستوجب العقوبة حقَّت عليه العقوبة وأصبح ثابتاً فى حقه ، وكذلك حقَّت كلمة ربك على هؤلاء الذين فسقوا ولا ينتهون عن فسقهم وكفرهم .

فالحاقة الساعة التى تحقُّ فيها حقائق الأعمال فيحق للكافرين عملهم ويحق للمؤمنين عملهم ، ويحق فيه جزاء الأعمال لكل طائفة .

فالحاقة هى الصادقة الواجبة الصدق ، وجميع أحكام القيامة صادقة واجبة الوقوع والوجود .

وقوْل الحق سبحانه ﴿ مَا الْحَاقَّةُ (٢) ﴾ [الحاقة] استفهام معناه التفخيم والتعظيم لشأنها . وسُميت القيامة حاقة لأن فيها تحقّ حقائق الأمور .

والاستفهام هنا يحقق أن يُعمل السامعُ أقصى جهده للوصول إلى ماهية الحاقة ، فرغم أن الله سبحانه ذكر كلمة (الحاقة) مُعرَّفة بـ (ال) إلا أنها كالنكرة لأن شدةَ هولها غير معروفة .

وأنت لا علمَ لك بمدى عظمتها وشدة هولها ، فهى فى العِظَم والشدة بحيث لا يبلغه درايةُ أحد ولا وهمه ، ومهما تخيلتَ حالها فهى أعظم من ذلك .

والإدراك معناه الإحاطة ، فأنت قد ترى الشمس ولكن أتدَّعى أنك أدركتها؟ لا . فوجود الشيء مختلف تماماً عن إدراك كيفية وجوده ، وهناك أشياء كثيرة فى الكون موجودة وتزاول مهمتها ونحن لا ندرك كيفية هذا الوجود ، وليس معنى عدم إدراكنا لها أنها غير موجودة .

ثم يذكر الحق سبحانه أمر الأقوام المكذِّبة لرسلها :

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ ﴾

فقوم ثمود طلبوا ناقة للدلالة على صدق رسالة صالح عليه السلام ، وعندما حدثت المعجزة كفروا بها فعاقبهم الله شر العقاب .

وقد بيَّن لهم الحق طريق الهداية لكنهم اختاروا الضلال واستحبوا لأنفسهم الكفر على الإيمان ، وكذّبوا نبيَّ الله صالحاً وعقروا الناقة .

والحق سبحانه يقول: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى (١٧) ﴾ [فصلت]

فالحق سبحانه قصَّ علينا قصص الأنبياء حين أرسلهم إلى أقوامهم ، فمن كذّب بالرسل أخذه الله أخْذ عزيز مقتدر بواقع يشهده الجميع ، فذكر نوحاً مع قومه ، وذكر عاداً وأخاهم هوداً ، وذكر ثمود وأخاهم صالحاً ، ومدين وأخاهم شعيباً ، وقوم لوط وأخاهم لوطاً .

ومدائن صالح وآثارهم فى السعودية وقد حفروا بيوتهم فى صخور الجبال، ويقول الحق سبحانه عن حضارة ثمود: ﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) ﴾ [الفجر]

وقد كان دأب الأمم السابقة التكذيب، وقد قال تعالى: ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١١) ﴾ [آل عمران]

فدأبهم التكذيب وجزاءُ الله لهم على ذلك هو العذاب والعقاب ، وإنْ كانوا قد كذَّبوا من قبلك رسلاً كثيرين فلا تحزن ، وأنت يا محمد لستَ بدعاً من الرسل .

﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ (١) وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤) ﴾ [آل عمران]

---

(١) الزُبُر: جمع زبُور بمعنى مكتوب . وزبر الكتاب : كتبه فهو مزبور أى مكتوب [القاموس القويم ١ / ٢٨٣]

والحق سبحانه جمع بين قوم ثمود وقوم عاد : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) ﴾ [فصلت]

وقوم عاد كذَّبوا رسولهم : ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) ﴾ [هود]

فعاد وثمود كذَّبوا الرسل ، وكذَّبوا بالبينات التى جاءتهم بها رسلهم ، وهم أيضاً كذَّبوا بالقارعة المذكورة هنا فى الآية التى معنا : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) ﴾ [الحاقة]

فما هى القارعة ؟ القارعة هى الشيء الذى يطرق بعنف على هادئ ساكن، ومنها نأخذ قَرْع الباب ، وهناك فَرْق بين (نقر الباب) و (قرع الباب) .

والقارعة تقرع القلوب والأسماع والجوارح بما يهز القلوب بالأهوال ، فالقارعة تقرع القلوب بشدة الخوف ، والقرع الضرب بشدة ، سُميت قارعة لأنها تقرعهم .

فالقارعة تفزع القلوب بالقرع ، وتفزع أعداء الله بالعذاب ، إنها تقرع القلوب وتغشاها وتفزعها .

فعاد وثمود كذَّبوا باليوم الآخر ، وأن هناك بعثاً وحشراً وجمعاً ليوم الجمع يوم التغابن .

والمتأمل هنا يجد فى القرآن عجباً ، فالسورة سورة الحاقة ، وهى تبدأ بـ ﴿ الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) ﴾ [الحاقة] ولكن الحق سبحانه عندما ذكر تكذيب قوم هود وقوم عاد لم يقُلْ سبحانه أنهم كذَّبوا بالحاقة .

بل قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) ﴾ [الحاقة] فذكر اسماً آخر من

أسماء القيامة وهو القارعة ، فهى فوق أنها حاقة تحقُّ فيها الحقائق ويفصل الله فيها بين الخلائق ، فيحق للمؤمنين ثوابهم ويحق للكافرين عقابهم .

فوق أنها حاقة فهى أيضاً قارعة ، والقرع ضرب الشيء الصلب والنقر عليه بشيء مثله ، والقارعة تقرع القلوب بالهول والرعب ، وتقرع الكون .

فهى تقرع قلوب الناس بهجومها عليهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ ﴾

الحق سبحانه ذكر ما فعله قوْمَا ثمود وعاد مُجملاً ، فقال ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) ﴾ [الحاقة] ، هذه جريمة كل من القومين ، فالجريمة واحدة مشتركة بينهما .

أما العقوبة فمختلفتان ، وجاء الحق أولاً بالعقوبة الواقعة بقوم ثمود أنهم أُهلكوا (بالطاغية) ، وفى آية أخرى أنهم عُوقبوا وعُذِّبوا بالصيحة ، فقال تعالى :

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

وفى آية أخرى أن قوم ثمود عُذبوا بالرجفة[1] ، فقال تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) ﴾ [الأعراف]

الحق سبحانه استخدم ثلاثة أوصاف للعذاب الذى نزل بقوم هود الذين كذَّبوا أخاهم صالحاً وعقروا الناقة التى أرسلها إليهم الله : الطاغية ، الصيحة، الرجفة .

---

(١) قال الليث : الرجفة فى القرآن كل عذاب أخذ قوماً فهى رجفة وصيحة وصاعقة. وقال ابن الأنبارى : الرجفة معها تحريك الأرض . وقال ابن الأعرابى : رجف البلد إذا تزلزل [لسان العرب - مادة رجف]

هذا العذاب وهذه العقوبة جعل الواحد منهم إنْ كان واقفاً ظلَّ على وقوفه، وإنْ كان قاعداً ظلَّ على قعوده ، وإنْ كان نائماً ظلَّ على نومه . أو كما نقول: انسخطوا على هيئاتهم . فالجاثم هو مَنْ لزم مكانه فلم يبرح أو لصق بالأرض.

وفي آية أخرى سمَّى الله هذا العذاب (الصاعقة) ، قال تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣)﴾ [فصلت]

والمتأمل لهذه الألفاظ الأربعة : الطاغية ، الصيحة ، الرجفة ، الصاعقة ، كلها تؤدي معنى الحدث الذي يَدْهَم ولا يمكن الفكاك منه ، حتى أنهم أُلقوا على رُكبهم وعلى جباههم بلا حركة .

وقد وصف الحق سبحانه هيئتهم بعد إرسال الصيحة التي رجفتهم ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٣١)﴾ [القمر]

فأصبحوا كرماد يحترق ، فالهشيم حطام الشجر ، فكانوا كالهشيم الذي يجمعه صاحب الحظيرة ليمنع ما يدخل إلى غنمه أو غيره ، فما يبس وسقط وتفتت وداسته الأغنام أصبح هشيماً .

والطاغية التي تجاوزت الحد ، ويُقال لمن تجاوز الحدَّ طاغية بتاء التأنيث الدالة على المبالغة ، فالصيحة التي كانت هي عذاب قوم ثمود تجاوزتْ الحدود التي قد يتحملها الإنسان .

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ ﴾

فمادة الصاد والراء تدل على الشدة والضجة والصخب ، فالريح الصرصر هي التي تحمل الصقيع ولها صوتٌ مسموع .

ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ (١١٧) ﴾ [آل عمران] أى أن الريح جعلت البرد شائعاً وشديداً ، فالبرد قد يكون فى منطقة لا ريحَ فيها ويظلُّ باقياً فى منطقته تلك .

وعندما تأتى الريح فإنها تنقل هذا البرد من مكان إلى مكان آخر ، فتتسع دائرة الضرر به ، وهذه الريح تفعل الكوارث .

فالريح الصَّرْصر هى ريحٌ فيها صوتٌ شديد مصحوب ببرد ، فالصّر فيه الشدة والبرودة والعنف ، ونعرف فى قرانا أن الصقيع ينزل على بعض المزروعات فيتلفها .

فالريح الصرصر ريح عقيم ضارة .

لقد تكبَّر قومُ عاد على سيدنا هود عليه السلام والذين آمنوا معه وظنوا أنهم أقوى الأقوياء وأنكروا آيات الله ، فماذا كان مصيرهم ؟

فاجأهم الحق سبحانه بإرسال ريح ذات صوت شديد فى أيام كلها شؤمٌ ليذيقهم عذابَ الهون والخزى والذل .

وها هو الحق سبحانه يقول عن قوم عاد : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ (١٦) ﴾ [فصلت]

فهى أيام نحسات ، والنحس الشؤم ، وحينما يأتى اليوم بشىء من الشر يتشاءمون منه ، فهى ريح صرصر باردة شداد ، ليس فيها من الخير شىء .

لذلك قال تعالى عنها :

(١)

﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ ﴾

هذه الريح المدمرة قال عنها الحق سبحانه : ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا (٢٥) ﴾ [الأحقاف]

فكلمة (ريح) تعبر عن القوة المدمرة للهواء ، فالريح إذا اتحدت قوتها واتجاهها أصبحت مدمرة ، ولكن إنْ قابلتها ريحٌ ثانية فالتوازن يحدث بين القوتين .

ولذلك حين يستخدم الحق سبحانه كلمة الريح لا يتكلم عنها إلا للتخريب والتدمير ، أما إنْ تكلم عنها للخير فسبحانه يأتى بكلمة (رياح) ، فتعدُّد اتجاهات الرياح هو الذى يوجد التوازن فى الحياة .

فإذا أراد الله أنْ يهلك بالريح جاء بها من جهة واحدة فتصير قوة الريح من ناحية لا تعادلها قوة أخرى للريح من الجهة المقابلة لتتعادل القوتان .

فإذا كانت هذه الريحُ ريحاً صرصراً عاتية ، ريحاً مدمرة لا تُبقى ولا تذر ، فما بالكم أنَّ الله : ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ (٧) ﴾ [الحاقة] ، أى أن الله سلَّطها عليهم ، فهى مُسلَّطة عليهم ومُذلَّلة لتدميرهم .

﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا (٧) ﴾ [الحاقة] متتالية متتابعة لا تفتر ولا تضعف ولا تتوقف ، ثمانية أيام بلياليها السبعة أيام نحسات دائمات .

---

(١) الأيام الحسوم الدائمة فى الشر خاصة. وقال الفراء : الحسوم التِّباع إذا تتابع الشىء فلم ينقطع أوله عن آخره. وقال الجوهرى : الليالى الحسوم لأنها تحسم الخير عن أهلها (أى تمنعه وتقطعه) [لسان العرب – مادة حسم] .

والحق سبحانه استخدم لفظة ﴿ حُسُومًا (٧) ﴾ [الحاقة] أى أنها لم تُبْقِ منهم أحداً ، مثلما نقول : حسمتُ الأمر ، أى أنهيتُه على التمام .

وقد قال رسول الله ﷺ : «ما فتح الله على عاد من الريح التى أُهلكوا فيها إلا مثل موضع الخاتم ، فمرت بأهل البادية فحملتهم ومواشيهم وأموالهم فجعلتهم بين السماء والأرض ، فلما رأى ذلك أهلُ الحاضرة الريح وما فيها . قالوا : هذا عارض ممطرنا . فألقت أهل البادية ومواشيهم على أهل الحاضرة»(١).

فسمَّى الحق سبحانه الريح التى سلَّطها على قوم عاد حسوماً لأنها قتلتهم وأفنتهم ، فالحسم هو القطع ، حتى أنه يُروى أن عجوزاً من قوم عاد دخلتْ سرباً لتفلت من الريح فتبعتها الريح فقتلتها فى اليوم الثامن من نزول العذاب وانقطع العذاب(٢) .

ولتتابع الأيام الثمانية واتصال العذاب دون انقطاع عبَّر عنه الحق سبحانه فى سورة أخرى بقوله : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (١٩) ﴾ [القمر]

فكأن الأيام الثمانية بلياليها السبع كانت يوماً واحداً وذلك لاتصال العذاب لذلك قال تعالى : ﴿ فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (١٩) ﴾ [القمر] فهو يوم شؤم ودمار استمرَّ عليهم مدةً قدَّرها الله حتى أهلكهم عن آخرهم .

وقد كان فِعْل هذه الريح فيهم شديداً كل الشدة ، وقد كان من شدتها

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم فى تفسيره (١٨٩٦٠) عن ابن عمر وكذا ابن كثير فى تفسيره (٨/ ٢٠٩)

(٢) قال البغوى فى تفسيره (٥/ ١٤٤) : الأيام الحسوم التى تسميها العرب أيام العجوز ذات برد ورياح شديدة. قيل : سميت عجوزاً لأنها فى عجز الشتاء. وقيل : سميت بذلك لأن عجوزاً من قوم عاد دخلت سرباً فتبعتها الريح فقتلتها اليوم الثامن من نزول العذاب وانقطع العذاب .

﴿ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (٢٠) ﴾ [القمر] فكانت هذه الريح الشديدة تنزعهم من أماكنهم وتقتلعهم وترمى بهم وتطيح بمتاعهم .

فكانت الريح تقتلعهم من أصولهم وتأخذهم من بيوتهم وترمى بهم كما تُقتلع النخلة من جذرها .

﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) ﴾ [الحاقة]

لفظة ﴿ فَتَرَى (٧) ﴾ [الحاقة] فيها من إعجاز القرآن ما فيها ، وكأنها تضع السامع لها أو القارىء لها فى موقف المشاهد لما نزل بهؤلاء القوم من العذاب وكأنه يطلع عليهم اطلاعَ المراقب المشاهد .

والحق سبحانه يخاطب نبيه ﷺ (فترى) ولكنه يخاطب كل مَنْ يقرأ القرآن، ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا (٤٩) ﴾ [الكهف]

فترى القوم موتى قتلى مطروحين ، كأنهم أعجاز نخل ساقطة فكأنهم أصول نخل منقطعة عن أماكنها ومطروحة بالأرض، لذلك قال تعالى : ﴿ صَرْعَى (٧) ﴾ [الحاقة]

فترى قوم عاد فى تلك السبع الليالى والثمانية الأيام المتتابعة صرعى هالكين ، كأنهم أصول نخل متآكلة الأجواف لم يبق منهم ولا من نسلهم أحد.

﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨ ﴾

مازال خطاب الله سبحانه موجهاً لرسول الله ﷺ ، أطلع الحق سبحانه

رسوله على مشهد هذه العاصفة المدمرة وما فعلته بقوم عاد فجعلتهم قتلى صَرْعى كأعجاز النخل المقطوعة من أصولها الملقاة كيفما كانت .

وها أنت مطلع يا محمد على هذا المنظر الكئيب ﴿ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ (٨) ﴾ [الحاقة]، فهل شاهدتَ أحداً منهم على قيد الحياة ، لقد استأصلتهم ريح الدَّبُور [١] وأتت عليهم أجمعين .

ويقول الحق سبحانه عن عقاب وعذاب الأمم السابقة : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨) ﴾ [مريم]

والركز : الصوت الخفى الذى لا تكاد تسمعه . وحين تسمع هذا السؤال : ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨) ﴾ [مريم] لا يسعك إلا أنْ تجيب : لا أحسّ منهم من أحد ولا أسمع لهم ركزاً .

فهل ترى يا محمد لعاد قوم هود من بقاء ، فهل ترى لهم من نفس باقية ؟ فلم يبق منهم أحدٌ ولم يبق منهم أثرٌ . ولم يبق من نسل أولئك أحدٌ .

﴿ فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ (٢٥) ﴾ [الأحقاف] ، ولم يفلت من العذاب إلا من آمن مصداقاً لقوله الحق : ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ [٢] الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢) ﴾ [الأعراف]

وقد قال رسول الله : « نُصرت بالصَّبا [٣] وأُهلكت عاد بالدبور» [٤] .

---

(١) الدبور : ريح تهب من جهة المغرب متجهة نحو المشرق . أى أنها ريح غربية شرقية تأتى من خلفك وأنت متجه نحو القبلة لذلك سميت دبوراً .

(٢) دابر الشىء : آخره . وقال الأصمعى : الدابر الأصل أى أذهب الله أصله . ودابر القوم : جميعهم حتى لايبقى منهم أحد [لسان العرب – مادة دبر]

(٣) الصبا : ريح لطيفة تهب من المشرق

(٤) أخرجه أحمد فى مسنده (١٩٥٥) (٢٠١٣) من حديث ابن عباس ، وكذا عبد بن حميد فى مسنده (٦٣٧) والبزار فى مسنده (٤٨٩٤)

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ ﴾

فالحق سبحانه بدأ ذكر الأقوام الهالكة بذكر قوم ثمود وقوم عاد ، وكلهم هلكوا فى الأزمان البعيدة المتباعدة ولم يبق من نسل ثمود وعاد أحد رغم أنهم كانوا أشدَّ قوة ومنعة .

ففرعون جاء بالخاطئة وكذلك من قبله من الأمم جاءوا أيضاً بالخاطئة ، وجاءت المؤتفكات بالخاطئة .

والمؤتفكات أى قرى قوم لوط ، ومعنى المؤتفك أى المنقلب . وقد جعل الله عاليها سافلها ، ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى (٥٤) ﴾ [النجم]

أى كانت عالية فأنزلها للهاوية ، والإفك هو الصرف عن الحقيقة ، كما قالوا لإبراهيم عليه السلام : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) ﴾ [الأحقاف] أى لتصرفنا عنهم .

والمؤتفكة هى القرى التى كُفئت أعلاها إلى أسفلها ، والمؤتفكة من الإفك وهو الكذب المتعمَّد ، فالمؤتفكة أى القرى التى جُعِل عاليها سافلها فانقلبتْ فيها الأوضاع .

يقول الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ[1] مَنْضُودٍ (٨٢) ﴾ [هود]

---

(١) السجيل : الطين المتحجر والمنضود : المتتابع المنتظم السقوط عليهم . وكلمة سجيل كلمة فارسية تم تعريبها ودخولها فى لغة العرب تتكون من مقطعين (سنك) وهو الحجر و (جل) وهو الطين. أى الطين المتحجر.

فقرى قوم لوط خمس : سدوم ، دادوما ، ضعوه ، عامورا ، قتم . فانقلبتْ انقلاباً تاماً .

فقوم فرعون مصر ومَنْ جاء قبله ، وقرى قوم لوط المؤتفكات جاءوا بالخاطئة ، فما هى الخاطئة التى جاءوا بها ؟

أى جاءت هذه الأقوام بالخطأ العظيم أى بالذنب العظيم . وهو الشرك والأفعال الخاطئة ، كفعل ثمود بعقر ناقة صالح ، وككفر عاد بهود وككفر فرعون وقومه وادعائه الألوهية ، أو ما فعله قوم لوط من الأفعال الخبيثة التى لم يأتِ بها أحدٌ من العالمين من قبل .

﴿ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ ﴾

فعصى هؤلاء الأقوام رسل الله وأنبياءه الذين أرسلهم إليهم ، فعصى كلُّ قوم رسولهم الذى أُرسل إليهم ، فعصى قوم فرعون رسولهم موسى عليه السلام ، وعصت ثمود رسولها صالحاً عليه السلام ، وعصى قوم لوط لوطاً .

وقد يسأل سائل : ولماذا لم يقل الله فعصوا رسل ربهم . بجمع (رسول) ؟

أفرد الحق سبحانه كلمة رسول للأقوام كلها ، فالرسل جميعاً مرسلون من إله واحد هو الله ، وهم جميعاً مرسلون برسالة واحدة هى الإيمان بالله وحده إيمان ربوبية وإيمان ألوهية وأنْ لا يعبدوا إلا الله .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦) ﴾ [النحل]

فكلمة (رسول) هنا اسم جنس يعبر عن كل الرسل الذين أرسلهم الله .

ويحتمل تأويل الآية أنهم عصوا رسالة ربهم .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً (١٠) ﴾ [الحاقة] فكانت أخذتُهم أخذة شديدة زادت على معاصيهم التى عملوها ، وزادت على كل العذابات التى نزلتْ بالأمم السابقة ، لذلك كانت هذه الأَخْذةُ رابيةً من كلِّ الأوجه .

فالحق سبحانه أخذهم أخذة رابية متزايدة متنامية متصاعدة ، وسُميت الأخذة رابية كأنها ربت وزادت بنفسها ، فاستخدم سبحانه اسم الفاعل من ربا.

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ ﴾

الطغيان مجاوزة الحد ، فالله تعالى جعل لكلِّ شيء فى الوجود حداً مرسوماً لا ينقص ولا يزيد ، فإنِ اتبعتَ هذا الحد الذى رسمه الله لك استقمتْ واستقامتْ حركة حياتك بلا منازع .

ولو طغا الشيءُ أفسد حركةَ الحياة حتى لو كان الماء الذى جعل الله منه كل شيء حى ، لو طغى الماء يُغرق ويُدمر بعد أنْ كان سرَّ الحياة حال اعتداله .

لذلك قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) ﴾ [الحاقة]

فطغيانُ الماء تمرُّده على تسخيره للإنسان ، فالماء لا يخدمنا إلا بأمر الله له ، فالمخلوقات لا تخدمك بذاتك ، وإلا فاقدر عليها حينما تتمرد على خدمتك.

فإذا تمرد الماءُ بالطوفان ، وتمردت الرياح بالعاصفة ، وتمردت الأرضُ بالزلازل والبراكين ، فما ذلك إلا ليعرف الإنسان أنه ليس بقدرته أنْ يسيطر

على الكون الذى يعيش فيه .

وطغيان الماء يُعبَّر عنه فى القرآن بكلمة (الطوفان) ، فالطوفان يُراد به طغيان الماء ، والماء هو سبب الحياة ، وقد يجعله الله سبباً للدمار ، فالمسائل ليست بذاتيتها بل بتوجيهات القادر عليها .

فالحق سبحانه يعذِّب بالماء كما يعذب بالنار ، مع أنهما ضدان لا يلتقيان، فلا يقدر على هذه المسألة إلا خالقهما سبحانه وتعالى .

وقصة غرق قوم نوح وأهل سبأ بعد انهيار سد مأرب أحدثا عقدة عند أهل الجزيرة العربية ، فصاروا حين يرون الماء يخافون منه ويبتعدون عنه ، حتى إذا احتاجوا لماء يذهبون إلى مكان بعيد يملأون قِرَبهم ، ذلك لعلمهم بخطر الطوفان وأنه لا يُصد ولا يرده عنهم شىء .

والطوفان أنْ يزيد الماءُ عن الحاجة الرتيبة للناس ، فبعد أنْ كان وسيلة حياة ومنه كل شىء حتى يصبح وسيلة موت وهلاك .

لذلك يمتنُّ الله على الناس جميعاً بقوله : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) ﴾ [الحاقة]

فالماء تجاوز الحد الذى يزيل الشَّرَق والعطش إلى حدٍّ أنه يغرق فتجاوز الحدَّ الذى ينتفع به إلى العطب والهلاك .

والحق سبحانه يقول فى قصة نوح عليه السلام وطغيان الماء وطوفانه : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ[1] قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠) ﴾ [هود]

---

(١) التنور : نوع من الكوانين قال الجوهرى : التنور الذى يخبز فيه . والتنور أيضاً وجه الأرض . وهو فارسى معرّب [لسان العرب – مادة تنر] والتنور مكان تفجُّر الماء والمقصود أن الأرض تتفجر بماء كثير يشبه فوران النار فى التنور ، وكل ذلك يدل على كثرة الماء وقوة اندفاعه

ومعنى ﴿ احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ (٤٠) ﴾ [هود] أى أن يحمل من كل الكائنات، فاحمل فى السفينة من كل شيء تطلبه حياة الناجين من جميع أصناف النباتات والحيوانات .

فالحق سبحانه شاء أنْ يستبقى الحياة بنجاة كل ما تحتاجه الحياة بالسفينة .

و (الجارية) هنا المقصود بها السفينة جمعها جَوارٍ ، قال تعالى : ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٢٣) ﴾ [الرحمن] فالجوارى أى التى تجرى فى البحر وتمخر عُباب البحر وأمواجه .

وهى بوارج وسفن كبيرة متعددة الأدوار ، وكذلك كانت سفينة نوح التى حمل فيها من كل الكائنات ذكراً وأنثى ، لتستمر الحياة .

وقد جعل الله الفُلْك والسفن آية من آيات الله ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ (١٦٤) ﴾ [البقرة] فالفُلْك هى السفن ، وهى تجرى فى البحر ، ولكن كيف يكون جريانُ الفلك فى الماء آية ؟

الإنسان يدرك أن الماء لو لم يكن على هذه السيولة لما استطاعتْ المراكب أو الفُلْك الإبحار فوقه ، بل لا بد أنْ يكون الماء سائلاً حتى تستطيع أنْ تجرى فوقها الفلك ، وقبل اختراع آلات البخار كانت هذه الفُلْك تجرى فى البحر بقوة الرياح ؟ لماذا ؟

لذلك قال تعالى : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ (٣٣) ﴾ [الشورى] أى تبقى السفن راكدة واقفة لا تستطيع الحركة ، وهذا قبل اختراع آلة البخار وتسيير السفن بها .

فالله حين يشاء يعطل القوة المحركة لأى شىء فهو سبحانه يفعل ، فالسفن تحتاج للريح لتتحرك وتجرى هذا إذا لم تكن تجرى فى النهر ، ففى النهر الماء يجرى من أعلى إلى أسفل نحو المصبّ ، أما إذا أردنا سير السفن من أسفل إلى أعلى فنحن نحتاج إلى الريح .

فالفُلْك سخَّره الله ليقضى بها الناسُ مصالحهم ومنافعهم ولينتقلوا ، قال تعالى :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) ﴾ [إبراهيم]

ولقائل أنْ يقول : لم نعُد فى حاجة إلى الريح تُسيِّر السفن أو تُوجهها ، لأنها أصبحت تسير الآن بآلات ومحركات ، نعم السفن الآن تسير بالمحركات لكن للريح معنى أوسع من ذلك ، فالريح ليست هذه القوة الذاتية التى تدفع السفن على صفحة الماء ، إنما الريح تعنى القوة فى ذاتها ، أياً كانت ريحاً أم بخاراً أم كهرباء أم ذرَّة .. الخ .

والضمير فى قوله : ﴿ حَمَلْنَاكُمْ (١١) ﴾ [الحاقة] يعود فى بعض تأويلات الآية إلى الآباء الذين حملهم نوح عليه السلام فى السفينة ، فحملنا الآباء وأنتم فى أصلابهم فى السفينة .

والحق سبحانه يخاطب الذين نزل فيهم القرآن ، وإنما حمل أجدادهم نوحاً وولده ، فالذين خُوطبوا بذلك ولد الذين حُملوا فى الجارية ، فكان حمْلُ الذين حُملوا فيها من الأجداد حملاً لذريتهم .

وكان حمل آبائهم منَّةً عليهم وكأنهم هم المحمولون ، لأن نجاتهم سبب ولادتهم .

فمعنى ﴿ حَمَلْنَاكُمْ (١١) ﴾ [الحاقة] حملنا آباءكم لأن كلّ مَنْ على الأرض من ذرية نوح وأولاده الثلاثة الذين كانوا معه فى السفينة ، وإنْ أراد جنس

السفن فالخطاب على حقيقته .

والمتأمل فى معنى كلمة (الجارية) يجد أن سفينة نوح كانت تسمى الفلك أثناء صناعتها ، قال تعالى : ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا (٣٧) ﴾ [هود] ثم بعد ما عملها سمَّاها سفينة ، فقال : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ (١٥) ﴾ [العنكبوت]

أما بعدما أصبحت جاهزة للجريان فى البحر أسماها (الجارية) ، ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) ﴾ [الحاقة]

﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (١٢) ﴾

فأبقينا سفينة نوح لنجعلها تذكرةً وعبرة وآية وموعظة لكم تتعظون بها :
﴿ إِنَّ هَـٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (٢٩) ﴾ [الإنسان]

و ﴿ تَذْكِرَةً (١٢) ﴾ [الحاقة] أى تذكيراً لكم أى لنجعل هلاكَ قوم نوح لكم عبرة لتعتبروا بها . فتذكروا هذه القصة فتكون لكم ولمن سمعها عبرة وعظة .

ولا يكفى أنْ تكون تذكرة فقط وموعظة وعبرة ، بل أيضاً : ﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (١٢) ﴾ [الحاقة]

فالأذن الواعية حافظة لما سمعت فانتفعت بما سمعت من الموعظة ، حتى أن قتادة بن النعمان قال فى تأويل الآية : «أذنٌ سمعت وعقلتْ وأوعتْ»(١) .

فصاحب الأذن الواعية يحذر معاصى الله أنْ يعذّبه الله عليها كما عذّب مَنْ كان قبله فتسمع أذنه وتعى ما تسمعه ويعى قلبه ما سمعتْه أذنه فيعمل بمقتضاه ، فيكون هذا هو سفينة نجاته .

---

(١) أخرجه عبد الرزاق فى تفسيره (٣٣٠٦) من قول قتادة بن النعمان وكذا الطبرى فى تفسيره جامع البيان (٢٣ / ٥٧٩)

فتحفظها كل أذن لتكون عظة لمن يأتى بعد ، والهاء فى ﴿ وَتَعِيَهَا (١٢) ﴾ [الحاقة] راجعة على التذكرة وجعل للأذن وعياً ، والمعروف أن الوعى للقلب وللأذن السمع ، ولكنه استعار الوعى للأذن إما لشدة استماع الأذن ، وإما لأداء الأذن ما تسمع إلى القلب فيعيه القلب .

والوعى أنْ تحفظ الشيء فى نفسك ، كأنْ تحفظ الشيء فى عقلك أو فى قلبك ، فلا تضيع ما سمعته أذنك بترك العمل به ، فا لأذن الواعية هى التى عقلت عن الله تعالى ، وانتفعتْ بما سمعت من كتاب الله .

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ ﴾

تعود بنا الآيات إلى بدايات السورة فى حديثها عن القيامة وأهوالها : ﴿ الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) ﴾ [الحاقة]

ثم حدثتنا الآيات عن جزاء وعقوبة الأقوام التى كذبت بالقارعة وقد نزل بهم العذاب الدنيوى ، ولكن لا مفر لهم من العذاب فى الآخرة ، وقد كانوا يكذبون به، ولكن سيفاجأون به قد واجههم ويجدون أنفسهم أمام الحقيقة واضحةً جلية، ولأنها مفاجأة لهم ، رغم أن الله أنذرهم وأرسل الله إليهم الرسل تنذرهم هذا اليوم قال :

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ (١٣) ﴾ [الحاقة]

﴿ فَإِذَا (١٣) ﴾ [الحاقة] تعبر عن الفجائية . والنفخ فى الصُّور يفيد الإيذان بمقدم أمر ما ، فبعد النفخة الأولى يموت مَنْ كان حياً ، وبعد النفخة الثانية يصحو الموتى ويقومون .

والنفخ فى الصُّور النفخة الثانية دعوةٌ للكائنات جميعاً للخروج من

قبورهم، يقول تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٥٢) ﴾ [الإسراء]

فقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ(٥٢) ﴾ [الإسراء] أى يقول لكم اخرجوا من القبور للبعث بالنفخة الثانية فى الصُّور .

﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ (٥٢) ﴾ [الإسراء] أى تقومون فى طاعة واستكانة ، لا قوْمَةَ مستنكفٍ أو متقاعس أو متغطرس ، فكلٌّ هذا انتهى وقته فى الدنيا ونحن الآن فى الآخرة.

وهذه هى النفخة الثانية ، لأن الأولى نفخة الصعق ، ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (٦٨) ﴾ [الزمر]

فالنفخة الأولى نفخة الصَّعْق ، والثانية نفخة البعث والقيامة ، والصُّور هو البوق الذى يُنفخ فيه النفخة الأولى والثانية ، والنافخ فيه هو إسرافيل .

وقد حدَّث رسول الله ﷺ أصحابه قال : « إن الله لما خلق السماوات والأرض خلق الصُّور فأعطاه إسرافيل فهو واضعه على فيه ، شاخص بصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر . قال أبو هريرة : فقلت : يا رسول الله وما الصُّور ؟ قال : القرن. قلت : وكيف هو ؟ قال : عظيم والذى نفسى بيده إن عظم دارة فيه كعرض السماوات والأرض ، يأمر الله إسرافيلَ أنْ ينفخ ثلاث نفخات . الأولى نفخة الفزع ، والثانية نفخة الصعق . والثالثة نفخة القيام لرب العالمين »[1] .

---

(١) أخرجه إسحاق بن راهويه فى مسنده (١٠) ، وأخرجه محمد بن نصر فى كتاب (قدر الصلاة) (٢٧٣) ، وأبو الشيخ الأصبهانى فى كتاب (العظمة) (٣٨٦) والبيهقى فى البعث والنشور (٦٠٩) عن أبى هريرة.

فحين فُوجئوا بالنفخ فى الصور وداهمتهم القيامة التى كانوا يكذبون بها بُهتوا ودُهشوا وخرستْ ألسنتهم عن الكلام من شدة دهشتهم ، وكيف وما كانوا ينكرونه ماثل أمامهم فجأة .

﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ ﴾

فتُحمل الأرض وما عليها ومَنْ عليها ، فتُحمل الأرض بمائها وشجرها وكل ما عليها ، وتُحمل الجبال من أماكنها فتضرب على الأرض ، فدُكتا معاً دكة واحدة .

فكُسِّرت الأرض والجبال كسْرةً واحدة فاستوتْ بما عليها . وفى آية أخرى قال : ﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) ﴾ [الفجر]

وقد أعطانا الله مثالاً فى الدنيا لهذا الدكِّ ، وذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا (١٤٣) ﴾ [الأعراف]

فالحق سبحانه يُذكِّرنا بدكِّ الجبل عندما طلب موسى عليه السلام رؤية الله عز وجل ، فتجلى اللهُ للجبل فجعله دكاً ، فهبط الجبل وانهار من خشية الله .

فعندما تجلَّى الله للجبل المتماسك الصلب صار الجبل دكاً أى مفتتاً ، فصار تراباً وظهر وجه الأرض ، فالأرض والجبال قُلعا قلْعاً وضُربا فانهارت الجبال وتفتت على الأرض ، وصارت هباء مُنبثاً .

والجبل المفروض فيه الصلابة والقوة والثبات والتماسك، ولكنه اندكّ وانهار، والدكُّ هو الضغط على شىء من أعلى ليسوَّى بشىء أسفل منه .

وقد بنى ذو القرنين سداً من الحديد والنحاس : ﴿ آتُونِي زُبَرَ(١) الْحَدِيدِ

---

(١) زبر الحديد : قطع الحديد . فالزبرة : القطعة من الحديد الضخمة [المعجم الوسيط ١ / ٣٨٨]

حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ(١) قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِى أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) ﴾ [الكهف]

فهو سدٌّ صَلْب عالٍ أملس من حديد مسبوك ملتهب مع نحاس مذاب، هذا السد الذى وصفه ذو القرنين فقال: ﴿ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّى (٩٨) ﴾ [الكهف]

هذا السد قال عنه الحق سبحانه: ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا (٩٨) ﴾ [الكهف]

فإياكم أنْ تظنوا أن صلابة هذا السد ومتانته باقية خالدة، إنما هذا عملٌ للدنيا فحسب، فإذا أتى وعد الله بالآخرة والقيامة جعله الله دكاً وسوَّاه بالأرض، ذلك لكى لا يغتروا به ولا يتمردوا على غيرهم بعد أنْ كانوا مُستذلين مستضعفين ليأجوج ومأجوج.

فليست الجبال التى من الصخور والحجارة هى فقط التى ستندك بل أيضاً السدود المصنوعة من الفولاذ والصلب ستندك دكاً كأنها مصنوعةٌ من الورق.

ومعنى ﴿ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) ﴾ [الحاقة] أى صارتا شيئاً واحداً.

ولا يهم فى هذا كيف تدك الأرض وكيف تدك الجبال، فالدكُّ سيحدث وإنْ كذبتم به، فسواءٌ كان سبب الدك زلزال يوم القيامة العظيم، أو ريح تبلغ من قوة عَصْفها أنها تحمل الأرض والجبال، أو أن هذا يحدث بواسطة ملك من الملائكة فلا فرق، فكلها أسبابٌ تحدث بأمر الله وكلها جندٌ من جند الله.

وقد يسأل سائلٌ: هل الجبال ستندك أم ستُنسف، أم ستصير كالصوف

(١) الصدفين: رؤوس الجبلين قاله مجاهد بن جبر فى تفسيره (١ / ٤٥١) والصدفان الجبلان وبينهما وادٍ عظيم، قاله مقاتل بن سليمان فى تفسيره (٢ / ٦٠١)

وذكر الطبرى فى تفسيره (١٨ / ١٠٨) أن ذا القرنين قاس ما بينهما وهو فى منقطع أرض الترك مما يلى مشرق الشمس، فوجد بُعد ما بينهما مائة فرسخ، فلما أنشأ فى عمله حفر له أساساً حتى بلغ الماء ثم جعل عرضه خمسين فرسخاً وجعل حشوه الصخور وطينه النحاس يذاب ثم يصب عليه فصار كأنه عرق من جبل تحت الأرض ثم علاه وشرفه بزبر الحديد والنحاس المذاب.

المنفوش ؟ أم ستصير كالهباء ؟ أم ستصير سراباً ؟

وكل هذه حالات للجبال أولها أنْ تندك ، ثم تصير كالعهن المنفوش أى الصوف المنفوش : ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥) ﴾ [القارعة]

فبعد اندكاكها صارت على الأرض كالصوف المنفوش فى كل جهة ، ثم تصير كالهباء وذلك أن تنقطع وتتبدد بفعل الرياح وهو قوله : ﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ[1] الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا (٦) ﴾ [الواقعة]

ثم تُنسف الجبال أى تأخذها الريح فى كل اتجاه بعد أنْ أصبحت مبسوسة منبثة فتؤخذ عن وجه الأرض .

إذن فالدكّ أولاً من أعلى إلى أسفل ثم صيرورته كالصوف المنفوش أو المندوف ، ثم يصير هباء منثوراً على الأرض ، ثم تنسفه الريح .

﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) ﴾

يوم يحدث هذا تكون قد وقعتْ الواقعة ، وكلمة (وقعت) تدل على أن شيئاً سقط من أعلى لا يستطيع أحد منعه .

ومادة كلمة (وقعت) تأتى فى المسائل الهامة العظيمة الحاسمة ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ (٨٢) ﴾ [النمل]

والوقوع هنا هو سقوط ولكنه ليس كالسقوط الذى نعرفه بل هو الذهاب إلى الله ، والواقع هنا يدلّ على أنهم سيتعرضون لشدائد ومتاعب .

---

(١) بُسَّت الجبال : فُتِّتت وقيل : سُيِّرت [البحرالمحيط فى التفسير ١٠ / ٧٤]

وبتتبع مادة (وقع) فى القرآن نجد أنها جاءت كلها فى الشدائد إلاّ فى موضع واحد هو قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ (١٠٠) ﴾ [النساء]

أى أن أجره وثوابه قد ألزم الحق سبحانه ذاته العلية به لذلك قال : ﴿ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ (١٠٠) ﴾ [النساء]

فكلمة (وقعت) تعنى أمراً واقعاً لا مردَّ له ، والواقعة اسم من أسماء القيامة، ولها أسماء عدة لكل منها معنى وكل اسم يعطينا لقطة من هذا اليوم الخطير الفزع ، تأمل فهى : الطامة والحاقة والقارعة والصاخّة والواقعة ، لكل منها ملحظ ، وهى جامعة لكلِّ هذه المعانى من زوايا مختلفة فى الوقت الواحد .

هذه الواقعة واقعة لا محالة : ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) ﴾ [الواقعة] أى ساعة أنْ تقع ليس لأحد أنْ يُكذب بها .

وإذا كان الحق سبحانه قد ذكر ما سيحدث فى هذا اليوم العظيم على الأرض: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) ﴾ [الحاقة] فالحق سبحانه يذكر هنا ما سيحدث للسماء فى هذا اليوم .

﴿وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) ﴾ [الحاقة]

ومَنْ يتأمل يجد أنَّ آية : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) ﴾ [الحاقة] بين ما سيحدث فى الأرض والجبال وبين ما سيحدث للسماء ، وكأنَّ الحق سبحانه يضع الإنسان بين هذا وذاك .

فها هى الأرض التى تعرفها وتعيش عليها تندك ، وها هى الجبال تنسحق.

ولا تظن أن هناك ملجئاً لك ، فحتى السماء التى تعلوك ستنشق وستصبح

كسفاً، هل هناك هوْلٌ أكثر من هذا ؟

﴿ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ (١٦) ﴾ [الحاقة] وانشقاق السماء ليس من ذاتها ، إنما هو امتثالٌ لأمر الله لها ، قال تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) ﴾ [الانشقاق]

فالسماء فوْر سماعها من الله أمره بأنْ تنشق تستجيب على الفور وتطيع أمره بالانشقاق وذلك يوم القيامة ، فهي بمجرد السمع نفذت أمر الحق سبحانه وتأتى لحظة الحساب .

فإذا انشقتْ السماء كُوِّرت الشمس وانكدرتْ النجوم ، فالسماء لم تسمع الأمر فقط بل نفذته فور صدوره دون أدنى ذرة من تخلُّف ، فأمر الله يُنفذ فور صدوره من الحق سبحانه .

﴿ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) ﴾ [الحاقة]

فيومئذ تكون السماءُ منشقةً مُتصدِّعة متمزقة ضعيفة ، فكلُّ ما ضعف جداً فقد وَهَى فهو واهٍ ، ووهْيُها تشقُّقها ، فأصبحتْ غير متماسكة بعد أنْ كانت محكمة شديدة قد أحكم الله بناءها .

حتى أن الحق سبحانه قال عن السماء : ﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا[1] فَسَوَّاهَا (٢٨) ﴾ [النازعات]

وكذلك قال فى خَلْق السماء : ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ (٤٧) ﴾ [الذاريات] أى بقوة. وفى آية أخرى قال سبحانه : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) ﴾ [الذاريات] يعنى محبوكة ومحكمة .

---

(١) رفع سمكها أى رفع بنيانها. قال الفراء : كل شيء حمل شيئاً من البناء وغيره فهو سمك وبناء وسموك. [تفسير الثعلبى ١٠ / ١٢٧] وقال الواحدى فى تفسيره (٤ / ٤٢٠) : رفع سقفها وما ارتفع منها .

والحبكة معناها أنَّ ذراتها التى لا تُدرك ملتحمة مع بعضها ، ليس التحاماً كلياً إنما التحام ذرات ، لذلك ترى السماء ملساء . قوية محكمة .

ولكن هذا البناء المحكم سيصبح يوم القيامة واهياً ضعيفاً متشققاً .

لقد تشققت السماء وتصدَّعت صدوعاً ، وأصبحت أنحاء وجوانب وأرجاء ، لذلك قال تعالى :

﴿ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَاۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ ﴾

فالملائكة على نواحى السماء وأطرافها وحافاتها ، فالأرجاء حافات السماء ونواحيها ، فإذا كان يوم القيامة أمر الله السماء الدنيا فتشققتْ ، وتكون الملائكة على حافاتها حتى يأمرهم الرب فينزلون إلى الأرض فيحيطون بالأرض ومَنْ عليها .

ولكن البعض من العلماء أعاد الضمير فى : ﴿ أَرْجَائِهَا (١٧) ﴾ [الحاقة] إلى الأرض أى أرجاء الأرض ، حتى أنهم رووا أن الله تعالى يأمر ملائكة سماء الدنيا فيقفون صفاً على حافات الأرض ، ثم يأمر ملائكة السماء الثانية فيُصفون خلفهم ، ثم كذلك ملائكة كل سماء ، فكلما مرَّ أحدٌ من الجن والإنس وجد الأرضَ قد أُحيط بها .

فالملَك على ما لم يَهِ من أرجاء السماوات ، وأرجاؤها هى نواحيها وأطرافها وهى السماء الدنيا .

﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذ ثَمَانِيَةٌ (١٧) ﴾ [الحاقة]

كلمة العرش نجدها فى القرآن بالنسبة لله ، إما مضافاً لاسم ظاهر ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ (١٧) ﴾ [الحاقة] ، وإما مضافاً للضمير المخاطب أو الغائب ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ (٧) ﴾ [هود]

وإما مضافاً للتنسيب : ﴿ فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) ﴾ [الأنبياء]
وعرش الله عرش كريم ، قال تعالى : ﴿ فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) ﴾ [المؤمنون]

وإياك أنْ تفهم أن عرش ربك للسيطرة والعلو والجبروت لأنه عرش كريم .

وقد وردت كلمة (العرش) في عروش الدنيا ، وفي عرش الله سبحانه ، فعروش الدنيا ترمز إلى استتباب الأمر لمنْ يجلس عليها ، والعرش بالنسبة لله رمز لاستتباب أمر الكون كله له سبحانه لا ينغِّص عليه شيء ولا يخرج من ملكه شيء .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩) ﴾ [التوبة] ولا يُوصف العرش بأنه عظيم إلا وفي أذهان الناس عروش الملوك التي نراها في حياتنا ، مثلما قال الهدهد عن ملكة سبأ : ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) ﴾ [النمل] أي بمقاييس البشر .

أما قوله تعالى هنا : ﴿ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩) ﴾ [التوبة] فهو بمقاييس رب البشر إنه عرش الخالق العظيم سبحانه وهو فوق التصور البشري ، لذلك نفهمه في إطار : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (١١) ﴾ [الشورى]

عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه : « سألت النبي ﷺ عن الكرسي فقال : يا أبا ذر ما السماوات السبع والأرضون السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة »[1] .

ومادة العرش تدلُّ على العلو ، ومنه قيل للسقف (عرش) ويطلق العرش أيضاً على السرير مثل قوله الحق : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ (١٠٠) ﴾ [يوسف]

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣٦١) من حديث طويل لأبي ذر الغفاري .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى لا تخفى عليه خافية ، والحق سبحانه يقول : ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) ﴾ [النساء]

حين نسمع كلمة (محيط) فلنعلم أن الإحاطة هى تطويق المحيط للمحاط، بحيث لا يستطيع أنْ يفلت منه علماً بحاله التى هو عليها ، ولاقدرة على أن يفلت منه مآلاً وعاقبة ، فهو سبحانه محيط علماً لأنه هو الذى لا تخفى عليه خافية .

وسبحانه لايشغله سمعٌ عن سمع ، ولا بصر عن بصر ، فبصره سبحانه محيط واطلاعه دقيق ، لذلك يأتى جزاؤه حقاً يناسب دقة اطلاعه ، فإياك إذن أنْ تغفل هذه الحقيقة ، فربك قائم عليك ناظر إليك لا تخفى عليه منك خافية .

وقد حدثنا الحق سبحانه عن العرض على الله : ﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا (٤٨) ﴾ [الكهف]

والعرض أنْ يستقبل العارض المعروض استقبالاً منظماً يدل على كل هيئاته ، كما يستعرض القائد الجنود فى العرض العسكرى مثلاً ، فيرى كل واحد من جنوده (صفاً) أى صفوفاً منتظمة .

فالعرض على الله عملية منظمة لا يستطيع فيها أحد التخفى ، ولن يكون لأحد منها مفرّ ، وهى صفوف متداخلة بطريقة لا يُخفى فيها صفٌّ الصف الذى يليه ، فالجميع واضح بكلِّ أحواله .

﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ (٤٨) ﴾ [الكهف]

أى على الحالة التى نزلتَ عليها من بطن أمك عرياناً لا تملك شيئاً حتى ما

يستر عورتك .

والحق سبحانه يُظهر ما كان مخفياً منهم حين يعرض الكل على الله تعالى، والحق سبحانه لا تخفى عليه خافية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾
إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾
فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا
بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾

فالحق سبحانه هو القادر الأعلى ، القادر على كل شيء ويأتي لكل منا بكتاب حسابه يوم الحساب ، وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا[1] بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠) ﴾ [آل عمران]

والحق سبحانه لا يحاسبنا على مقتضى ما علم فحسب ، بل يحاسبنا على ما تم تسجيله علينا ، فكلُّ إنسان يقرأ كتابه بنفسه ، فسبحانه يقول : ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) ﴾ [الإسراء]

فالحق سبحانه لا يؤاخذ الناس بما يقول هو إنهم فعلوه ، ولكن بما كتب عليهم وليقرأوه بأنفسهم ، وليكون حجة عليهم ، كأنَّ الكتابة ليستْ كما نظن

---

(١) الأمد : الزمن والغاية . قال تعالى ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ (١٦) ﴾ [الحديد] أي امتدت بهم مدة حياتهم فاغتروا فقست قلوبهم . (القاموس القويم ١/ ٣٠).

فقط ، ولكنها تسجيل للأصوات والأنفاس .

ويأتي يوم القيامة ليجد كل إنسان ما فعله مسطوراً .

﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤)﴾ [الإسراء]

وهذا القول يدل على أنه ساعة يرى الإنسان ما كُتب فى الكتاب سيعرف أنه منه ، وإذا كنا نحن الآن نسجل على خصومنا أنفاسهم وكلماتهم أتستبعد على مَنْ علّمنا ذلك أنْ يسجل الأنفاس والأصوات والحركات ، بحيث إذا قرأها الإنسان ورآها لا يستطيع أنْ يكابر فيها أنْ ينكرها ؟

ويُقال عن يوم القيامة (يوم الفاضحة) لأن كلَّ إنسان سيجد كتابه فى عنقه ويُقال له : ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤)﴾ [الإسراء]

فإذا كنا فى الدنيا نسجل الأحداث بالصوت والصورة فما بالنا بتسجيل الحق لنا ؟ ويرى الإنسانُ مكره يوم القيامة بالصوت والصورة ، وكل فعل فعله سيراه بطريقة لا يمكن معها أنْ ينكره .

وكأنَّ الحق سبحانه يوضح لكل عبد : أنا لن أحاسبك بل سأترك لك أنْ تحاسب نفسك .

فكلُّ ما يصدر منك مُسجَّل عليك ، ولذلك يأتيك كتابك يوم القيامة لتقرأه وتكون على نفسك حسيباً ، فكل شىء فى الكون محفوظ ولا يضيع ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١٠) ﴾ [الانفطار]

ويحلو للبعض أنْ ينكر إمكانية تسجيل الأعمال وكتابتها ، ونقول لهؤلاء: تعالوا إلى ما توصّل إليه العقل البشرى الآن من تسجيل الصور والأصوات والبصمات وغيرها ، وهذا كله يُسهِّل علينا هذه المسألة عندما ترقى إمكانات العقل البشرى إلى الإمكانات الإلهية التى لا حدود لها .

فالكتاب المسجَّلة فيه أعمالك هو كتابك ، لذلك يقول تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ

كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (١٩) ﴾ [الحاقة]

وكلمة ﴿ بِيَمِينِهِ (١٩) ﴾ [الحاقة] هى علامة على البشرى بتيسير الحساب والنجاة من عقاب النار، فالإنسان يبيض وجهه حين يأخذ الإنسان من هؤلاء كتابه بيمينه، وهذه بشرى فى الدنيا وفى الآخرة.

ويقول تعالى: ﴿ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَـٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا[1] (٧١) ﴾ [الإسراء]

فكونه أخذ كتابه بيمينه فهذه بشارة الخير وبداية السلامة، فإذا به يسارع إلى قراءته بل ويتباهى به بين الناس قائلاً:

﴿ هَـٰؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) ﴾ [الحاقة] إنه مسرورٌ بعمله الصالح الذى يحب أنْ يطلع عليه الناس.

فمَنْ أُوتى كتابه بيمينه وقرأه وتباهى به لم يكُنْ أعمى فى دنياه، بل كان بصيراً واعياً فاهتدى إلى منهج الله وسار عليه، فكانت هذه نهايته وهذا جزاءه.

والحق سبحانه يقول: ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ (٤٩) ﴾ [الكهف] أى: وضعتْه الملائكة بأمر من الله تعالى فيعطون كلَّ واحد كتابه، فمَنْ أخذ كتابه بيمينه فرح وقال:

﴿ هَـٰؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) ﴾ [الحاقة]

يعرضه على الناس وهو فخور بما فيه، لأنه كتاب مشرِّف ليس فيه ما يُخجل لذلك يتباهى به ويدعو الناس إلى قراءته، فهو كالتلميذ الذى حصل على درجات عالية، فطار بها ليعرضها ويذيعها.

وهذا بخلاف مَنْ أُوتى كتابه بشماله فإنه يقول: ﴿ يَـٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨)

(١) الفتيل: ما كان فى شق النواة وبه سميت فتيلة. وقيل: الفتيل: ما يخرج من بين الإصبعين إذا فتلتهما. (لسان العرب مادة فتل).

هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) ﴾ [الحاقة]

فاحذروا أنْ تقفوا موقفاً حرجاً يوم القيامة ، ثم تُفاجأوا بكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة ، وها أنا أذكركم من الآن فى وقت السعة والتدارك ، فحاولوا التوبة إلى الله وأنْ تصلحوا ما بينكم وبين ربكم .

﴿ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) ﴾ [الحاقة] الهاء لتنبيه السامعين أى تعالوا اقرءوا كتابيه ، فهو فرِحٌ بكتابه وبحسناته ، لذلك لا يُخفى كتابه بل يحب أنْ يُطلع الناس عليه .

والعرب تقول للواحد : هاء . وللاثنين: هاؤما . وللجماعة: هاؤموا . وهى أيضاً بمعنى خذوا اقرءوا كتابيه .

فالحق سبحانه يخبرنا عن سعادة مَنْ يُؤتَى كتابه يوم القيامة بيمينه وفرحه بذلك ، وهو من شدة فرحه يقول لكل مَنْ لقيه هاؤم اقرءوا كتابيه . أى: خذوا اقرءوا كتابيه لأنه يعلم أن الذى فيه خير وحسنات محضة .

ونلحظ الهاء فى آخر كلمات (كتابيه) (حسابيه) هذه هاء السكت . كأنها إشارةٌ إلى شدة الكرب فى ذلك اليوم للدلالة على أنه إذا كان هذا السعيد يسكت فى كل جملة للاستراحة لا يقدر على المضى فى الكلام ، فما الظن بغيره ؟

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) ﴾ [الحاقة] ليس الظن هنا بمعنى الشك وإلا لو شكَّ فى أنه مُلاقٍ حسابه فى يوم القيامة لما كان مؤمناً ، ولما أخذ كتابه بيمينه .

إنما الظن هنا بمعنى اليقين فهو من ألفاظ الأضداد أى أيقنت ، وعلمت أن هناك حساباً فى الآخرة وأننى سألاقيه .

يقول الحق سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦) ﴾ [البقرة]

لم يقل الذين يتيقنون أنهم ملاقو ربهم ، لماذا لم يستخدم الحق تعالى لفظ

اليقين وأبدله بالظن ؟ فمجرد الظن أنك ملاق الله سبحانه كافٍ أنْ يجعلك تلتزم بالمنهج ، فما بالك إذا كنتَ متيقناً ، فمجرد الظن يكفى .

فقوله تعالى : ﴿ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ (٤٦) ﴾ [البقرة] فمجرد أنَّ القضية راجحة هذا يكفى لاتباع منهج الله فتقى نفسك من عذاب عظيم .

فمجرد الظن بلقاء الله جعلهم يعملون الأعمال الصالحة ، فما بالك إذا كان العبد متيقناً ؟ إنَّ المتيقن يقوم بالأعمال الصالحة من باب أوْلَى .

وقد قال قوم نوح : ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) ﴾ [الأعراف]

والظن رُجحان الأمر بدون يقين ، فهناك راجح ومرجوح ، أو أن الظن هنا هو التيقن ، على حد قوله سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ (٤٦) ﴾ [البقرة] أى : يتيقنون .

ويقول تعالى عن المجرمين : ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (٥٣) ﴾ [الكهف] الظن هنا يُراد منه اليقين . أى : أيقنوا أنهم واقعون فيها .

﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٢١) ﴾ [الحاقة] وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧) ﴾ [القارعة]

أى فى حالة من العيش مرضية فى الجنة يرضاها صاحبها ، فلا يسخط بعد دخولها أبداً ، فهو يعيش فى الجنة لا موت فيها ولا فقر ولا مرض ولا خوف ولا جنون ، فهو آمن من كل خوف ومن كل فقر .

وكلمة (راضية) اسم فاعل بمعنى اسم المفعول : مرضية ، فهى عيشة مرضية تنال رضا مَنْ يعيشها ، ولكنها أيضاً (راضية) عن أن هذا المؤمن

يتمتع بها فهى أيضاً راضية ، فالجنة تشتاق للمؤمنين بها الداخلين إليها .

إنه النعيم الذى يجعل الوجوه ناضرة ، فيقول تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾ [القيامة]

ويقول الحق سبحانه : ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) ﴾ [المطففين]

فالنضرة تفيض على وجوههم وملامحهم ، حتى إن كلَّ راءٍ يراها .

والحق سبحانه يحدد مكان هذه العيشة الراضية ، فيقول : ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) ﴾ [الحاقة]

وكلمة (الجنة) مأخوذة من (الجن) والستر ، والجنة هى البستان الذى به شجرة إذا سار فيه الإنسان يستره ، وهو غير البساتين الزهرية التى تخرج زهراً قريباً من الأرض تمثل ترفاً للعيون فقط .

أما الجنة ففيها أشجار عالية كثيفة ، بحيث لو سار فيها أحد يُستر ، ففيها الاقتيات وفيها كل شيء .

فهى تسترك عن أنْ تلتفت إلى غيرها لأن فيها ما يكفيك ، فالذى عنده حاجة لا تكفيه يتطلع إلى ما يكفيه ، لكن مَنْ عنده حاجة تكفيه فقد انستر عن بقية الوجود .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (٨) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) ﴾ [الغاشية]

والجنة عالية فى ذاتها رفيعة مجيدة ، ثم هى عالية الدرجات عالية المقامات، والجنات جمع جنة وهى جمع لأنها كثيرة ومتنوعة وهناك درجات فى كل جنة أكثر من الدنيا .

والجنات متنوعة فهناك جنات الفردوس وجنات عدن وجنات النعيم، وهناك دار الخلد ودار السلام وجنة المأوى ، وهناك عليون الذى هو أعلى وأفضل الجنات .

ثم يصف الحق سبحانه هذه الجنة العالية ، فيقول تعالى : ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) ﴾ [الحاقة] فالحق سبحانه يدنى لعبده المؤمن فاكهة الجنة حتى لا يتعبه.

وفى آية أخرى يقول سبحانه :﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (١٤) ﴾ [الإنسان] أى دُليت عناقيدها . فالفاكهة تنزل إلى المكان الذى يوجد فيه المؤمن ، وإن وقف المؤمن لطال بيده أن يقطف الثمار ، وإن اضطجع لاستطاع أن ينال أيضاً من الثمار ، لأنها تتدانى له .

وإن نام المؤمن لتدانى قطاف الثمار إلى مكانه، وبذلك يستطيع أن يأكل منها فى أى وقت وعلى أى وضع .

ومعنى الإدناء تقريب شىء من شىء ، ومن ذلك قوله تعالى هنا ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) ﴾ [الحاقة] أى قريبة التناول سهلة الجنى .

وقد قال رسول الله ﷺ عن الجنة فقال «عُرضت علىَّ الجنة لو مددتُ يدى لتناولت من قطوفها» .

فقطوفها دانية أى ثمارها قريبة لمن يتناولها ينالها قائماً وقاعداً ومضطجعاً يقطفونها كيف شاؤوا ، إن شاءوا جالسين وإن شاءوا متكئين .

وقد قال البراء بن عازب : يتناول الرجل من فواكهها وهو نائم . وقال قتادة : لا يرد أيديهم عنها بُعد ولا شوك .

فإذا هَمَّ أنْ يتناول من ثمارها نزلت إليه حتى يتناول منها ما يريد . فقطوفها قريب منهم مذلل كيف شاءوا .

فثمارها قريبة التناول يأخذها الرجل كما يريد إنْ أحب أن يأخذها بيده انقادت له ، قائماً كان أو جالساً أو مضطجعاً ، وإن أحب أن تدنو إلى فيه دنت .

﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) ﴾ [الحاقة]

ذكر الحق سبحانه صدر هذه الآية فى عدة آيات، منها قوله تعالى: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠) ﴾ [البقرة]

وفى آية الصيام: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ (١٨٧) ﴾ [البقرة]

وهاتان فى الدنيا، فى الآية الأولى لكم أن تأكلوا وتشربوا ولكن لا تفسدوا فى الأرض ولا تنشروا فى الأرض الفساد، فالأكل والشرب مشروط بعدم الإفساد.

وفى الآية الثانية الأكل والشرب مشروط بموعد يبدأ فيه صيامكم ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ (١٨٧) ﴾ [البقرة]

أما الآية التى معنا فهى فى الآخرة، يقول تعالى: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) ﴾ [الحاقة] بدون شروط فأنت حين تفعل الطاعة تكون صعبة عليك ولكن يجب أن تذكر رد الفعل فيها وهو الراحة وحسن الثواب، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) ﴾ [الحاقة]

وفى هذا القول فعل ورد فعل، الفعل هو العمل الصالح فى الأيام التى مضت، ورد الفعل هو الطعام والشراب الهنىء فى الآخرة.

فهذا وقت الجزاء وهو جزاء أطول وأدوم، وهو جزاء لما قدَّموا، فقوله تعالى ﴿ بِمَا أَسْلَفْتُمْ (٢٤) ﴾ [الحاقة] فهذا تعليل ما هم فيه من النعيم أنهم كثيراً ما تعبوا واضطهدوا وعُذِّبوا، وجزاء من عُذّب فى ديننا أن نسعده الآن فى الآخرة.

وقوله ﴿ هَنِيئًا (٢٤) ﴾ [الحاقة] الهنىء هو الشىء المأكول وتستسيغه حين يدخل فمك ، لكنك قد تأكل شيئاً هنيئاً فى اللذة وفى المضغ والأكل ولكنه يورث متاعب صحية ، وفى هذه الحالة يكون هنيئاً غير مرىء .

ولا تخشوا شيئاً فطعامكم وشرابكم مأمون العاقبة من التخمة والسقم ، فكلوا واشربوا معشر من رضيت عنهم ، هنيئاً لكم لا تتأذون بما تأكلون ولا بما تشربون ولا تحتاجون من أكل ذلك إلى غائط أو بول .

فكلوا من ثمار الجنة وفواكهها ، واشربوا من أنهارها وعيونها ، اشربوا من ماء غير آسن ومن عسل مصفًّى ، ومن لبن لم يتغير طعمه .

بل إن الله يصف شراب أهل الجنة ويصف حتى الآنية التى يُوضع فيها الشراب فهو يُقدّم لأهل الجنة فى أفضل صورة ، يقول تعالى :

﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) ﴾ [الزخرف]

ويقول تعالى : ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (١٨) لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ (١٩) ﴾ [الواقعة]

وإذا كان أكل الإنسان وشربه فى الدنيا بسعى منه وتعب ونصب فإنه فى الجنة بدون سعى ولا عمل ، بل ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ (٧١) ﴾ [الزخرف] وفى آية ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ (١٧) ﴾ [الواقعة]

ويقدَّم لهم الشراب فى الأكواب يُصبُّ فيها من أباريق ، والطعام يقدَّم لهم فى صحاف من ذهب ، إنه قمة النعيم ، فالمسألة ليست (حشو بطن) فحسب ، لذلك قال ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ (٧١) ﴾ [الزخرف]

فمجرد النظر إليه فيه لذة، فما بالك بطعمه ومذاقه، لذلك حينما تستضيف مثلاً عزيزاً لديك تقول له: ماذا تحب أن تأكل، لماذا؟ لتصنع له ما يشتهيه وما تميل إليه نفسه.

والمؤمنون ينالون هذا الجزاء وهذا النعيم بما أسلفوا فى الأيام الخالية أى الأيام السالفة الماضية، والحق سبحانه يقول: ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ (٣٠) ﴾ [يونس] أى عرفت كل نفس ما فعلت فى الماضى.

وقد عبَّر الحق سبحانه فى آية أخرى فقال: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) ﴾ [الطور] أى بما كنتم تعملون فى الدنيا من أعمال الخير.

وقد قال قتادة: إن أيامكم هذه أيام خالية فهى أيام فانية تؤدى إلى أيام باقية فاعملوا فى هذه الأيام وقدّموا فيها خيراً إن استطعتم.

ثم يذكر الحق سبحانه الفريق الآخر فيقول تعالى:

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾
وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ
عَنِّي مَالِيَهْۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ ﴾

ففى مقابل مَنْ أوتى كتابه بيمينه أتى بمن أُوتى كتابه بشماله فقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِه (٢٥) ﴾ [الحاقة]، وفى آية أخرى قال: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِه (١٠) ﴾ [الانشقاق]

فمن أُوتى كتابه بشماله أو وراء ظهره مثله مثل من قال الله فيهم: ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ

رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) ﴾ [الكهف]

فمن أخذ كتابه بيمينه فرح وقال : ﴿ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) ﴾ [الحاقة] يعرضه على الناس وهو فخور بما فيه لأنه كتاب مشرف لا يُخجل ، وهذا بخلاف من أوتى كتابه بشماله ، فهو الخزى والانكسار والندم على صحيفة مخجلة .

فكل ما فعلوه مُسجَّل مُسطَّر فى كتبهم .

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا (٣٠) ﴾ [آل عمران]

فما عملته النفس من السوء تود أن يكون بينه وبينها أمد بعيد .

فهم خائفون يرتعدون والحق سبحانه وتعالى يصور لنا حالة الخوف هذه ليفزع عباده ويحذرهم ويُضخم لهم العقوبة ، وهم ما يزالون فى وقت التدارك والتعديل من السلوك .

فحالتهم الأولى الإشفاق وهو عملية هبوط القلب ولجلجته ، ثم يأتى نزوع القول ﴿ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا (٤٩) ﴾ [الكهف] كأنهم يقولون : يا حسرتنا يا هلاكنا، هذا أوانُك فاحضرى .

﴿ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) ﴾ [الحاقة] فيتمنى الموت ، ليستريح من هذا البلاء فيتمنى أن لم يكن قد بُعث فيواجه أعماله السيئة أمام عينيه ، فياليت الموتة التى مُتَّها فى الدنيا كانت هى الفراغ من كل ما بعدها ولم يكن بعدها حياة ولا بعث .

إنه يتمنى أكثر شىء كان يكرهه فى الدنيا وهو الموت ، لأن الموت حينها سيخلصه من مواجهة ما اقترف فى الدنيا ، فلم يكن فى الدنيا شىء أكره عنده من الموت .

فالقضية هنا هى الموتة التى تقضى عليه فتكون قضاءاً وفراغاً مما سبق من أعماله .

وفي سورة الزخرف يقول الحق سبحانه : ﴿ وَنَادَوْا يَـٰمَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ (٧٧) ﴾ [الزخرف]

فأهل النار ينادون مالكاً خازن النار أن يقضى عليهم ربه بالموت ليستريحوا مما هم فيه من العذاب الدائم الذى لا ينتهى .

فهم طلبوا الموت عند تطاير كتب أعمالهم حتى لا يروا أعمالهم القبيحة، ولكن هذا لم يُجْد وحُوسبوا ، وها هم يطلبون الموت مرة أخرى بعد أن عاينوا العذاب وأصبحوا وسط النار .

فقوله (ليقض) هنا معناها يميتنا . ولكن كيف يميتهم الله والموت قد أُتى به على هيئة كبش وذُبِح أمام الجميع ، وقيل لأهل الجنة : خلود بلا موت . وقيل لأهل النار : خلود بلا موت .

وهكذا قضى الله الأمر ليقطع الأمل على الكفار الذين قد يظنون أن الموت سيأتى ليُخرجهم مما هم فيه من العذاب ويريحهم فقطع الله عليهم هذا الأمل وآيسهم منه حيث جاء بالموت مُشخصاً وذبحه أمامهم ، فلا موت بعد الآن فقد مات الموت .

﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) ﴾ [الحاقة] فمالى لم يدفع عنى شيئاً ، ولم يغننى عن العذاب ومقابلة ما أسلفت فى الدنيا من أعمال السوء والقبح .

فمالى ما أغنى عنى من النار ، فكثرة مالى تخلت عنى فأنا حتى لم أؤد منه حق الله ولم أصل به قرابتى . فماله الذى كان يملكه فى الدنيا من عذاب الله لم ينفعه رغم أنه أراد افتداء نفسه به .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ.. (٩١) ﴾ [آل عمران]

فلن يقبل الله منه ملء الأرض ذهباً لو افتدى به نفسه فى الآخرة إنْ كان سيجد ملء الأرض ذهباً ، وعلى فرض أنه قد وجد ملء الأرض ذهباً فهل يجد مَنْ يقبل ذلك منه ؟

لا ، إنه فى الحقيقة لن يجد الذهب ، لأنه لم يعُدْ يملك شيئاً فى الآخرة .

ويقول سبحانه فى آية أخرى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) ﴾ [الزمر]

ويقولون : خذوا ما نملك كله واعتقونى لكن لا يُستجاب لهم .

﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) ﴾ [الحاقة] السلطان القوة التى تقنع الإنسان بعمل فعل ما ، وهو إما أنْ يكون سلطانَ الحجة فيقنعك بفعل ما تفعله . وإما أنْ يكون سلطان القوة فيرغمك أنْ تفعل .

السلطان إذن نوعان : سلطان حجة وسلطان قوة . والفرق بين سلطان الحجة وسلطان القوة القاهرة على الفعل ، هو أن سلطان الحجة يقنعك أنْ تفعل وأنت مقتنع .

أما سلطان القوة القاهرة فهو لا يقنع الإنسان ، ولكنه يُرغم الإنسان على فعل ما .

فالسلطان هو القوة العالية التى تجبر مَنْ دونها ، فالإنسان تُجبر مادته وبنيته بسلطان القهر المادى ، ويُقهر فى اعتقاداته بالدليل والحجة .

والإكراه فى المادة إنما يتحكم فى القالب ، لكنه لا يتحكم فى القلب ، فالفارق بين سلطان القوة وسلطان الحجة أن سلطان القوة قد يقهر الإنسانَ على السجود ، لكن سلطان الحجة يجعل الإنسان يسجد بالاقتناع .

لذلك فتأويل الآية يحتمل الأمرين معاً :

﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) ﴾ [الحاقة] أى ضلَّتْ عنِّى حجتى التى كنتُ أحتج بها فى الدنيا . أو زال عنى مُلْكى وقوتى وتسلطى على الناس وبقيتُ ذليلاً حقيراً .

قد ذهبتْ عنى حجتى وضلَّتْ فلا حجةَ لى أحتجُّ بها ولا بينةَ لي، وذهب عنى سلطانى الذى كان فى الدنيا .

ومَنْ يتأمل قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ (٢٥)﴾ [الحاقة] ويضع معه قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠)﴾ [الانشقاق] يجد عجباً .فكيف يُؤتى كتابه بشماله ، وفى آية يُؤتى كتابه وراء ظهره ، وقد اجتهد العلماءُ فى تأويل هذا ، حتى أن البعض من العلماء قال : تُلْوَى يده اليسرى من صدره خلف ظهره ثم يُعطى كتابه[1] .

فأيمانهم تُغلّ إلى أعناقهم ، وشمائلهم تكون وراء ظهورهم .

والبعض من العلماء أخذ آية الحاقة وإتيان الكتاب بالشمال لعصاة المؤمنين ومرتكبى الكبائر ، أما الذين أوتوا الكتاب وراء ظهورهم ، فأخذوها على أنهم الكافرون أصحاب النار ، وتمام الآيات ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَى سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ (١٤) ﴾ [الانشقاق]

والثبور الهلاك ، فهو يدعو بالويل والهلاك عند إعطائه كتابه بشماله من وراء ظهره ، فكان هذا جمعاً بين الآيتين فهم يأخذون كتبهم بشمائلهم من وراء ظهورهم لبشاعة ما فيها لا يريدون رؤيتها .

وفى الآيات رنَّة حزينة تعبر عن الحسرة الممتدة فى قوله ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩)﴾ [الحاقة]

فى أواخر الخمس الآيات نجد هاء السكت فى طرف الفاصلة الساكنة ، وفى

(١) قاله ابن السائب . ذكره الإمام البغوى فى تفسيره (١٤٨/٥) طبعة إحياء التراث العربى بيروت (١٤٢٠هـ).

ياء العلة قبلها بعد المدِّ بالألف فى تحزُّن وتحسُّر .

(كتابيه) (حسابيه) (القاضيه) (ماليه) (سلطانيه)

ولا يقطع هذه الرنَّة الحزينة المديدة إلا الأمر العلوى الحاسم بجلاله وهَوْله وروعته ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا(١) سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢)﴾ [الحاقة]

إنه هول ورعب قاتل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) ﴾

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠)﴾ [الحاقة] أى اجمعوا يديه إلى عنقه . فالغَلّ من غَلِّ اليد إلى العنق أو يُشد قدمه برقبته ثم يُجرُّ على وجهه، فإذا سمع الملائكةُ الأمرَ من الله ابتدره سبعون ألف مَلَكٍ أيُّهم يجعل الغل فى عنقه ، فيُغلّ بالأغلال الضيقة الثقيلة .

إنه الجزاء الرهيب والقضاء الخطير من الله سبحانه ، فبعد طول انتظار لانتهاء الحساب وتطاير الكتب ليقرأ كلٌّ منهم ذنوبه ومعاصيه أو كفره بالله ورسوله ، فإذا الحكم يصدر رهيباً مجلجلاً .

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠)﴾ [الحاقة] تجهيز للمذنب الذى صدر ضده الحكم ، إنه مشهد رهيب يسمع بأذنيه الحكم عليه ، ويرى بعينيه كيف يتسابق المأمورون إلى تنفيذ الأمر الرهيب الجلل فى ذلك الظالم لنفسه .

والغُلّ هو الحديدة التى تجمع اليدين إلى العنق لتقييد الحركة ، فالغُلُّ هو

(١) ذرعها أى مقدارها وقياسها وهو كناية عن الإذلال والإرهاق للمذنبين يوم القيامة . والذراع من الإنسان من المرفق إلى أطراف الأصابع ومقياس للأطوال بمقدار ٥٧ سنتيمتراً أو ٥٨ سنتيمتراً .

طوْقُ الحديد الذى له طرف فى كل يد ليقيدها ، وطرف معلّق فى الرقبة ليقلل من مساحة حركة اليدين لمزيد من الإذلال والإهانة .

يقول تعالى : ﴿ وَأُولَـٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٥) ﴾ [الرعد]

أما الأصفاد فهى القيود التى تُوضع فى القدمين فيُقيَّدون من أرجلهم .

﴿ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١)﴾ [الحاقة] الجحيم : جهنم . أى أدخلوه النار ليَصْلَى عذاب جهنم ويحترق فيها ، ومنها قوله تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣)﴾ [الصافات] وقوله ﴿ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥)﴾ [الليل] أى لا يدخلها إلا الأشقى .

والجحيم النار العظمى فهو كان يتعظَّم على الناس ، لذلك قال من قبل ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩)﴾ [الحاقة]

فلا تُدخلوه إلا الجحيم ولا تحرقوه إلا فيها ، وهى النار العظمى ليكون الجزاءُ على وفق المعصية حيث كان يتعاظم على الناس .

﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢)﴾[الحاقة] والسلسلة حِلَقٌ منتظمة كل حلقة منها فى حلقة ذرْعها أى مقدارها سبعون ذراعاً، كلُّ ذراع سبعون باعاً ، كلُّ باع أبعد مما بين الكوفة ومكة.

﴿ فَاسْلُكُوهُ (٣٢)﴾[الحاقة] تُسلك فى دُبره حتى تخرج من منخريه حتى لا يقوم على رجليه ، والسلسلة حِلَق منتظمة وكل شيء مستمر بعد شيء على الولاء والنظام فهو مسلسل .

والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا (٤)﴾ [الإنسان] ، ويقول تعالى :﴿ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١)﴾ [غافر]

فمعنى ﴿ فَاسْلُكُوهُ (٣٢)﴾ [الحاقة] أى فادخلوه ، وإدخاله فيها بأن تُلفَّ على جسده وتُلْوى عليه من جميع جهاته فيبقى مُرهقاً فيما بينها لا يستطيع حراكاً ما.

وهذا تأويلٌ فى الآية أيضاً ، فالسلسلة تُلفُّ على جسده مرات حتى تستغرقه فيكون قد أدخل فيها لأن معنى السِّلْك الإدخال .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ ﴾

قوله ﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ (٣٣)﴾ [الحاقة] فلا يُصدِّق بوحدانية الله وعظمته ، فالحق سبحانه لم يعاقبه ظلماً فالله قد حرم الظلم على نفسه ، وكأنه يقول لخزنة جهنم : افعلوا ذلك به جزاءً له على كفره بالله فى الدنيا .

فهذه حيثيات حكمه سبحانه عليه ، ودائماً تأتى الحيثيات بعد إصدار الحكم، فأنت عندما ترى حكماً من القاضى تجد أن هناك حيثيات الحكم أى التبرير القانونى للعقوبة أو البراءة .

فيقول القاضى : بما أنه حدث كذا فقانونه كذا حسب المادة كذا ، وهذه هى الحيثيات ، و(الحيثيات) مأخوذة من : حيث إنه حدث كذا فحكمنا كذا ، أو حيث إنه لم يحدث كذا فحكمنا بكذا .

إذن فحيثيات الحكم معناها التبريرات التى تدلُّ على سند الحكم لمن حكم .

فحيثية تعذيبه أنه لا يصدِّق بوحدانية الله وعظمته ، افعلوا ذلك به جزاءً له على كفره بالله فى الدنيا .

ولكن لماذا استخدم الحق سبحانه هنا اسم الله (العظيم) فالحق سبحانه عظيم ، ومن عظمة الله أنه تجلَّى على الخلق بصفات من صفاته .

فالقويّ يعين الضعيف ، والحق سبحانه له مطلق القوة ويهَبُ الخَلْق من حكمته حكمةً ، ومن قبْضه قبضاً ، ومن البسْط بَسْطاً ، ومن غِنَاه غنىً ، ولكن الصفات الحسنى كلها ذاتية فيه وموهوبة منه لنا .

ومن عظمة الحق سبحانه أنْ يكون له الكبرياءُ ، فساعة يعلم الجميع أن

الكبرياء لله وحده لا يتكبّر أحدٌ على أحد ، فالذى يتعالى لا يتعالى إلا فى غفلة منه عن ملاحظة كبرياء ربه .

وإلا فالذى يستحضر عظمة ربه وكبريائه لا بد له أن يتواضع وأن يتضاءل أمام كبريائه تعالى ، وأنْ يستحى أنْ يتكبَّر على خَلْقه .

فلو كان يستحضر عظمة ربه لآمن وصدَّق بوحدانية الله واستحقاقه وحده للعبودية واتباع منهجه .

ومشكلة هذا الذى لا يؤمن بالله العظيم ولا تشعر من حياته أنه يُقرّ بوجود الله وإنْ أسلم فتجده دائماً حيث لا يرضى الله ، وهو كما لا يشعر ولا يستحضر عظمة الله .

فهو أيضاً لا يُحس ولا يشعر بالمساكين والفقراء من حوله ، فهو كما أنه لا يستحضر الخالق العظيم لا يستحضر وجود فقراء محتاجين ومعوزين .

فتجده ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤)﴾ [الحاقة] وفى آيات أخرى يقول تعالى : ﴿ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨)﴾ [الفجر]

فالمال الذى يوجد عند إنسان ولا يرعى حقَّ الضعفاء فيه هو وبال وشرٌّ . وعندما سمع الأغنياءُ هذا القول عرفوا سلوكهم ، فكأنهم قالوا : نحن لا نملك ما نطعم به المسكين ، فكأن فى قوله تعالى :﴿ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨)﴾ [الفجر] ما يوضح لهم الطريق إلى العطاء : أى حُضُّوا غيركم على العطاء.

فالذى لا يملك يمكنه أنْ يكلم الغنى ليعطى المسكين ، والحضُّ هو كلام ، والكلام من العمل .

فقلب هذا الذى لا يؤمن بالله العظيم قد خلا من الإيمان بالله فهو قلبٌ موات خرب بور وهو خُلو من النور ، وهو قلب قد خلا أيضاً من الرحمة بالعباد ، والمسكين هو أحوج العباد إلى الرحمة .

فهذا لم يستشعر قلبه ما يدعو إلى الاحتفال بأمر المسكين ، ولم يحض على طعامه ، وهذا واجب اجتماعى يتحاضّ عليه المؤمنون .

لذلك اعتبر عدم التحاضّ والتواصى على إطعام المسكين قبيحاً مستنكراً ، فلو كان يؤمن بالله العظيم ويستحضر عظمته سبحانه ، ولو صدَّق بالدين حقاً ولو استقرت حقيقة التصديق فى قلبه ما كان ليدُعّ اليتيم ، وما كان ليقعد عن الحضّ على طعام المسكين .

إن حقيقة التصديق بالله وبالدين ليست كلمة تُقال باللسان ، إنما هى تحول فى القلب يدفعه إلى الخير والبر بإخوانه فى البشرية المحتاجين إلى الرعاية والحماية .

وهذا يجعلنا نقطع بأنه لا يطعم المسكين ولا يحضّ على إطعامه، ولا يحسّ بالفقير إلا مَنْ آمن بالله العظيم وصدَّق بوحدانية الله.

إنهم ينسون أن المال الذى لديهم لكى يكون نعمة لا نقمة ، لا بد أنْ يُطعموا المسكين أو حتى يحضوا عليه ، فأيُّ نعمة فى مال يكون وبالاً على صاحبه.

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾
لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

إنه لم يؤمن بالله العظيم فى الدنيا ولم يحض على طعام المسكين، لقد تخلّى عن الناس فى حياته وعن مساعدتهم والوقوف بجانبهم فى محنتهم الدنيوية ، ولم يؤمن بالله ، فأين يجد النصير له .

فلن يجد الله بجانبه ، ولن يجد الناس يقفون بجانبه ، حتى جوارحه ستتخلى عنه وستشهد عليه .

والحميم القريب المشفق الذى يرقّ ويحترق قلبه له أو يحميه مما نزل به، فليس له فى الآخرة قريبٌ يدفع عنه ، ويحزن عليه ، فليس له من صديق يستطيع أنْ يُخلِّصه وينقذه من عذاب الله ، أو يتطوع بالنيابة عنه فى تحمل العقاب .

فليس له صديقٌ ملاطف وادٌّ ، لطيف المودة ، فلا قريبَ ينفعه أو يشفع له لأنه يوم يفرّ فيه القريب من قريبه ، ويهرب عنده الحبيبُ من حبيبه .

بل إنه حتى لو كان له خليلٌ يناصره فى الدنيا ويقف بجانبه فيما هو فيه، فإنه يوم القيامة يتخلَّى عنه ويكون له عدواً ، يقول تعالى :﴿ الْأَخِلَّاءُ[١] يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧)﴾ [الزخرف]

فالمتقون يعين بعضهم بعضاً على الطاعة ، فالواحد منهم يقول لصاحبه: كنتَ تعيننى على الطاعة ، كنت توجهنى وتذكّرنى إنْ غفلت فيزداد الحب بينهما ، لكن الإنسان يلعن مَنْ أغواه .

فإذا التقى الأخلاء فى الله تعالى فرحوا ببعضهم ، لأن كلاًّ منهم حمى أخاه من معصيته ، أما مَنْ كانوا يجتمعون فى الدنيا على المعصية فكلٌّ منهم يلعن الآخر .

فهؤلاء ليس لهم يوم القيامة من ينقذهم من عذاب الله تعالى ، لأنه يوم يفرّ فيه القريبُ من قريبه ، ويهرب الحبيبُ من حبيبه .

وإذا كان قُطِع من الرفاق والأصدقاء والأنصار فإنهم محرومون من الطعام إلا من الغسلين ، فيقول تعالى :﴿ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦)﴾ [الحاقة]

والغسلين هو غُسالة أهل جهنم من قيح وصديد ، وما يسيل من أبدانهم من القيح والصديد والدم ، أى ليس لهؤلاء الأشقياء التعساء طعام يطعمونه إلا هذا الصنف البشع المنتن .

وهكذا تصير النكبة نكبتينْ ، نكبة عدم وجود نصير ، ثم نكبة أكل الصديد المتخلِّف عن لحوم أهل النار وعُصارتهم وصديدهم ، وهو شرُّ الطعام وأخبثه وأبشعه .

---

(١) الأخلاء جمع خِلّ وهو الصديق المخلص . [القاموس القويم ١/ ٢٠٨]

وقد قال ابن عباس: الغسلين ما يسقط عن عروقهم وذاب من أجسادهم [١].

ولكي نعرف مدى بشاعة هذا الطعام ننصت لابن عباس وهو يقول: لو أن قطرة من الغسلين وقعت في الأرض أفسدت على الناس معايشهم [٢].

وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ (٦) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ (٧) ﴾ [الغاشية] والضريع شجر في النار يشبه الشوك أمرّ من الصبر، وأنتن من الجيفة وهو شرُّ الطعام وأبشعه وأخبثه.

وهو طعامٌ يجدون غُصَّة في حلوقهم عند الرضا به وتناوله، يقول تعالى: ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (١٣) ﴾ [المزمل] فهو طعام لا يُستساغ ويعترض وينشب في الحلوق.

فسواء كان الطعام غِسْليناً أو ضريعاً أو زقُّوماً فهو ذو غُصَّة يقف في الحلق، لأنه طعام بشع مستقذر لا تستسيغه الدوابّ، فكيف يستسيغه البشر؟

﴿ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (٣٧) ﴾ [الحاقة] فهذا الطعام مُخصَّص ومقتصر ومقصور على الخاطئين، فالخاطئون جمع خاطيء وهو الذي يتعمد فعل الذنب.

هؤلاء الذين يتعمدون ويقصدون فعل الآثام والذنوب، ولذا لا يدخلون تحت عفو الله وغفرانه، لأنهم جاهروا الله بالمعاصي، وقد قال رسول الله ﷺ: «كلُّ أمتي معافى إلا المجاهرون» [٣]

والخاطئون أيضاً هم المذنبون الذين ذنوبهم كفر بالله، الكافرون المشركون.

والخاطيء اسم فاعل من خطيء يخطأ إذا فعل غير الصواب متعمداً،

---

(١) أورده السمرقندي في تفسيره بحر العلوم (٣/ ٤٩١) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أبو الحسن الواحدي النيسابوري (ت ٤٦٨ هـ) في كتابه (الوسيط في تفسير القرآن المجيد) دار الكتب العلمية بيروت (٤/ ٣٤٨) من رواية مجاهد بن جبر عن ابن عباس.

(٣) أخرجه أبو بكر البزار (ت ٢٩٢ هـ) في مسنده البحر الزخار (٨٠٩٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه وتمامه «وإن من الجهار أن يعمل الرجل سراً ثم يخبر به». وأخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق (٤٥٣) عن ابن عمر ولفظه «يعمل الرجل سوءاً».

والمخطيء مَنْ يفعله غير متعمد ، فالخاطئون المتعمِّدون للخطايا لا غيرهم، أما المخطيء فهو مَنْ قصد الخير فلم يُصبه بغير تعمد .

وقد قال تعالى :﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ (٥)﴾ [الأحزاب] أى أردتم الصواب فلم تصيبوه .

أما الخاطئون فهم الذين تمردوا على الله تعالى وعلى منهجه ورفضوا منهجه، ويقفون حجر عثرة فى تطبيق شرعه ، فهم منصرفون عن طريق الحق.

وقد وصف الحق سبحانه الأقوام المتمردة على الله ، فقال :﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ(١) بِالْخَاطِئَةِ (٩)﴾ [الحاقة] أى ارتكبوا الفعلة الخاطئة والفعال الخاطئة أو الخاطيء أصحابها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩) ﴾

فأقسم بالمشاهدات المرئيات والمغيبات المستورات ، فأقسم وأحلف بما تبصرونه وتشاهدونه مما خلق الله وأبدعه ، وجعله دليلاً على كمال قدرته وعظيم إتقانه وإبداعه .

وكلمة (لا) فى قوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ (٣٨) ﴾ [الحاقة] لتأكيد القسم وليست للنفى .

ومعنى (فلا أقسم) أن هذا الأمر واضح جليّ وضوحاً لا يحتاج إلى القسم ، ولو كنت مقسماً لأقسمتُ به .

والقسم هنا بعموم ما نبصره وما لا نبصره ، سواء كانت هى الدنيا التى نراها أو الآخرة التى لا نراها ، وسواء كان ما نبصره هو ما فى ظاهر السماء والأرض أو ما فى باطنها .

---

(١) المؤتفكات جمع مؤتفكة وهى القرى المنقلبة عند خسفها ، فالمؤتفكات : المخسوفات وهى قرى قوم لوط التى جعل الله عاليها سافلها . [القاموس القويم ١/٢٢].

وسواءٌ كان ما نبصره هو الأجسام ، وما لا نبصره ما غاب عنا من رؤية الأرواح ، وقد يكون ما نبصره هو الإنس وما لا نبصره هو الجن والملائكة .

﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) ﴾

قوله تعالى (إنه لقول رسول كريم) جاء في القرآن مرتين، التي هنا في سورة الحاقة ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠)﴾ [الحاقة] ويقصد بها رسول الله محمد ﷺ.

أما الثانية فهي قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١)﴾ [التكوير] فالرسول هنا جبريل.

فتارة يكون الرسولُ من البشر تارة ، ومن الملائكة تارة ، وفي الحالتين هو رسولٌ ليس عليه إلا البلاغ ، كما قال تعالى :﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤)﴾ [النور]

فجبريل لم يأت بهذا القرآن من عنده هو، بل من عند الله بالحق ، وكذا محمد ﷺ لم يأتِ بالقرآن من عنده ، وكذلك جبريل، فالقرآن من عند الله ليس افتراءً على الله لا من محمد ، ولا من جبريل .

وهو رسولٌ كريم ، والكريم لا يكتم شيئاً مما أُوحى إليه .

فالقرآن الكريم يقوله ويتكلم به رسولٌ من عند الله أي يبلغه عن الله ، وليس لهذا الرسول بعد ذلك ولا قبله شأنٌ فيه .

فهذا القرآن قولُ رسول كريم على الله تعالى يعني جبريل . ويُقال : قول رسول كريم يعني قول رسول الله ﷺ يعني محمداً ﷺ.

والرسول الكريم هو الوجيه عند الله المكرَّم .

وقوله ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠)﴾ [الحاقة] هو جواب القسم ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨)﴾ [الحاقة]

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ (٤١) ﴾ [الحاقة]

لقد قالوا : إن الرسول ﷺ شاعر ، ولو أن أحداً غيرهم قال مثل هذا الكلام لكان مقبولاً لأنه يجهل رسول الله، ولأنه ليس من قوم هم أهل فصاحة وأهل بلاغة وأهل بيان ، إنهم يعرفون الشعر والنثر والخطابة والكتابة .

فلو كان هذا القول من غيرهم لكان مقبولاً ، ولذلك نجد منهم مَنْ تصفو نفسه فيقول : والله ما هو بقول شاعر.

وقد اتهم الكفارُ رسول الله بأنه شاعر ، وعجيب من كفار مكة وهم العرب أهل اللسان والبلاغة والبيان وأهل الخبرة فى الكلام الموزون المقفَّى بحيث كانوا يجعلون للشعر أسواقاً فى ذى مجاز وذى المجنَّة وعكاظ ، ويعلِّقون أجود أشعارهم على أستار الكعبة ، ومع ذلك لا يستطيعون التمييز بين الشعر وأسلوب القرآن .

إذن : هم يعرفون الفرق ، لكن يقصدون بقولهم كما حكاه القرآن ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠) ﴾ [الطور] يقصدون بالشعر الكلام العذب الذى يستميل النفس ويؤثر فى الوجدان .

وقد حسم الحقُّ سبحانه هذا الأمر ، فقال : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (٦٩) ﴾ [يس]

فالحق سبحانه لم يعلمه الشعر لأنه لا ينبغى له أنْ يتعلمه ، لماذا ؟ لأن العرب يعلمون أن أعذب الشعر أكذبه ، وما دام أعذبه أكذبه فالحق سبحانه لا يريد أنْ يعلم الناس أن محمداً ﷺ مرتاض على صناعة البيان وأساليب الأدب ، وبعد ذلك يفاجيء الدنيا بالبيان الأعلى فى القرآن ، ويعلن ﷺ أن هذا البيان ليس من عنده .

وقد عاش الرسول ﷺ بينهم مدة طويلة ، ولم يسمعوا منه شعراً، فكلُّ ما جاء به بلاغاً عن الله لا يُنسب لمحمد ، ولكنه منسوب إلى ربِّ محمد .

وقوله الحق : ﴿ وَمَا يَنبَغِي لَهُ (٦٩) ﴾ [يس] أى : لا يصح أنْ يكون الأمر رغم

استعداد محمد ﷺ لذلك ، وكان من الممكن أنْ يعلّمه ربه الشعر وفنون القول.

ولذلك حينما قال أناسٌ : إن القرآن من عند محمد جاء القول الحق مبلّغاً محمداً ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦) ﴾ [يونس]، فقد عاش بينهم رسول الله ﷺ أربعين عاماً ولم يقُلْ قصيدة .

فالحق سبحانه لم يشأ له أنْ يكون شاعراً ، فهناك فرق بين « نفي الوجود » وبين « نفى انبغاء الوجود » .

فقد نفى الحق سبحانه عنه قول الشعر ونفى عنه انبغاء ذلك له ، فقد يظن ظانّ أن النبى لا يستطيع أن يقول شعراً ، أو أن أدوات الشعر من اللغة ورقّة الإحساس غير متوافرة لديه ﷺ، لكن رسول الله قادر على قول الشعر إنْ أراد، فهو قادر على الحدث إلا أنه لا ينبغى له .

فالشعر مبنيٌّ على التخيُّل . لذلك أبعده الله عن الشعر حتى لا يظن القوم أنَّ ما يأتى به محمد من القرآن تخيلات شاعر ، فلم تكُنْ طبيعة رسول الله جامدة لا تصلح للشعر ، إنما كان ﷺ ذا إحساس مرهف .

﴿ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (٤١) ﴾ [الحاقة] فهم لا يؤمنون أصلاً ، فالعرب تقول : قلما يأتينا وهم يريدون أنه لا يأتينا ، أو أنهم يؤمنون ولكنهم سرعان ما يرجعون عن إيمانهم .

فقليلاً ما تؤمنون بالقرآن ولا تصدقون أنه من عند الله ، فـ (ما) هنا إنْ كانت نافية فهو نفى للإيمان بالجملة ، وإنْ كانت (ما) مصدرية فهو وصْفٌ لإيمانهم بالقلة .. وقليلاً هنا منصوبة بـ (تؤمنون) .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٤٢) ﴾ [الحاقة]

فليس القرآنُ بقول شاعر ، ولا هو أيضاً بقول كاهن ، فالكهان تلهمهم وتمدّهم الشياطين بالغى والضلال ، فالله طهّر القرآن من الكهانة وعصمه منها .

فهو ليس بقول رجل كاهن ، ولا هو من جنس الكهانة ، فمحمد ليس بكاهن

والقرآن ليس من سجع الكهان ، والكاهن هو الذى يتكهَّن ويخبر عن الغيب كذباً .

فالكاهن هو المنجِّم الذى يخبر عن أشياء أغلبها ليس صحيحاً ، والكاهن ينصِّب نفسه للدلالة على الضوائع ما يضيع من الناس ويخبرهم بمغيبات يتوهمها ويأخذ أجراً على هذا .

وهو يدَّعى أنّ الجن تخبره ، وقد يكون يستعين بالتنجيم واستطلاع النجوم أو الحسابات الفلكية .

والقرآن ليس بسجع الكهان الذى تعهدون ، حتى أن رسول الله نهى عن سجع الكهان [1].

وقد قال عتبة بن ربيعة : والله لقد سمعت سجع الكهان ، وشعر الشعراء وخطب البلغاء فما سمعتُ شيئاً كهذا القرآن .

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩) ﴾ [الطور]

فما فيك شيءٌ من الكهانة أبداً ، والكهانة هى العرافة وادعاء علم الغيب ، وكانوا يغرُّون الناس بأشياء فيها قليل من الحقيقة وكثير من الباطل يزيدونه من عندهم فيضلونهم .

وهؤلاء الكهان كانت لهم كلمة مسموعة ، وكان الناس يستشيرونهم ويأخذون برأيهم فى كلِّ أمور دينهم ودنياهم .

﴿ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٤٢) ﴾ [الحاقة] أى قليلاً ما تتذكرون . وأمثال هذه الآية وردت فى آيات كثيرة ، فقد قال تعالى : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٣) ﴾ [الأعراف]

وقال : ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ

---

(١) سجع الكهان : الكلام المزوق المتكلّف . [القاموس الفقهى ١/٣٢٦] مادة كهن . وفى معجم مجمع اللغة العربية (الوسيط) سجع الكهان : كلامهم الموزون المتكلف . ومقصود به استمالة السامعين.

﴿ أَءِلَـٰهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) ﴾ [النمل]

فلو تفكرتم وتذكرتم لعرفتم أن محمداً ﷺ ليس بشاعر ولا بكاهن ، وأن ما جاء به من عند الله ليس شعراً ولا هو سجعاً كسجع الكهان .

بل هو :

﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (٤٣) ﴾

فهو تنزيل من لدن عزيز حكيم ، والتنزيل معناه موالاة النزول لأبعاض القرآن ، فالقرآن قد أُنزِل كله ثم بعد ذلك نزَّله الحق ونزل به جبريل عليه السلام على سيدنا محمد ﷺ.

فالحق تبارك وتعالى يوالى تنزيل القرآن عليهم آيةً بعد آية ، فلعلّ نجماً من نجومه يصادف فراغاً وقلباً صافياً من الموجدة على رسول الله فيؤمن .

وليس القرآن وحده تنزيلاً من رب العالمين ، فكلُّ الكتب السابقة السماوية كانت تنزيلَ رب العالمين ، لكن الفرق بين القرآن والكتب السابقة أنها كانت تأتى بمنهج الرسول فقط ، ثم تكون له معجزة فى أمر آخر تثبت صدقه فى البلاغ عن الله .

أما رسول الله فمعجزته عيْن المنهج ، القرآن المنزَّل من عند الله . ومادة نزل وما يُشتق منها من إنزال وتنزيل تفيد كلها أنه جاء من جهة العلو إلى جهة أسفل منه ، كأنك تتلقى من جهة أعلى منك وأرفع وما دُمْتَ تتلقى من جهة أعلى منك ، فإياك أنْ يضلّ بك الفكر لناحية أخرى .

وهو : ﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) ﴾ [الحاقة] ولأنه رب العالمين فالكون كله لا يخرج عن حكمه ، فليطمئن الناس فى الدنيا أن ربهم لن يخلقهم هملاً ولا سُدىً ولم يتركهم ، بل لأنه ربٌّ أنزل لهم منهجاً ليهديهم سبيل الحق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ (٤٧) ﴾

هذا مجال تهديد ووعيد لرسول الله ، ولو كان القرآنُ من عند محمد ﷺ لما ضمَّن القرآنَ هذا ، ولكن لأنه وحى من عند الله فإن رسول الله لم يكتم حرفاً واحداً من الوحى المنزَّل إليه من رب العالمين .

إنها الأمانة المطلقة والصدق الذى لا يُخفى شيئاً ، ألم يكن جديراً بالقوم أنْ يفقهوا هذه الناحية من رسول الله ، ويتفكروا فى صدقه ﷺ حين يخبرهم عن نفسه أشياء لم يعرفوها ، وكان من المنتظر أنْ يُخفيها عنهم ؟ أليس فى ذلك دليلٌ قاطع على صدقه فيما يقول.

فاطمئنوا إلى أن القرآنَ كتابُ الله الذى بين أيديكم هو كلام الله الذى جاء من علمه تعالى فى اللوح المحفوظ الذى قال عنه .

﴿ فِى كِتَابٍ مَكْنُونٍ [1](٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩)﴾ [الواقعة]

ثم نزل به الروح الأمين وهو مؤتمن عليه لم يتصرف فيه ، ثم نزل على قلب سيد المرسلين الذى قال الله عنه : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥)﴾ [الحاقة]

إذن : حُفظ القرآن علماً فى اللوح المحفوظ ، وحُفظ فى أمانة مَنْ نزل به من السماء ، وحُفظ فى مَنْ استقبله وهو النبى ﷺ، فلا حجةَ لنا بعد أنْ جمع الحق سبحانه وتعالى للقرآن كلّ ألوان الحفظ .

وكان بوسع رسول الله أنْ يكتم الآيات التى عاتبه الله فيها نحو قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ ..(١)﴾ [التحريم] ويقول سبحانه : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ..(٤٣)﴾ [التوبة]

لكنه ﷺ كان أميناً يقول ما له وما عليه ، فالقرآن كما نزل من عند الله لم يُغيَّر فيه حرفٌ واحد ، وسيظل كذلك محفوظاً بحفظ الله له إلى أنْ تقوم الساعة .

وكلمة (تقوَّل) أى افترى وادَّعى واختلق ، أى أتى بشيء من عند نفسه لم

---

(١) المكنون : المحفوظ ﴿ فِى كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) ﴾ [الواقعة] قيل : هو اللوح المحفوظ . وقيل : هو القرآن يصونه المؤمن مكتوباً أو يصونه فى قلبه محفوظاً .

نقُلْه نحن ، قاله من تلقاء نفسه ، ولم نأذن له فيه .

فلو فُرض أن محمداً افترى علينا كلمة واحدة أو قولاً من الأقوال ونحن لم نقُلْه له ﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥)﴾ [الحاقة] أى بقوة شديدة، فاليمين عند العرب أقوى من اليسار ، وإنْ كانت كلتا يدى ربى يميناً مباركة ، لكن لتقريب المعنى للناس .

و (الأقاويل) الأكاذيب المفتراة التى لا تعدو وأنْ تكون أقاويل لا حقيقة لها .

والحق سبحانه يقول فى سورة الطور ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ (٣٣)﴾ [الطور]

فـ (تقوَّله) أى اختلقه وأتى به من عند نفسه ، وإذا كان محمد قد اختلقه وافتراه فلتأتوا بمثله ، فإذا كان شعراً فأنتم الأعلم والأقدر على قول الشعر ، وإنْ كان سجعاً كسجع الكهان فأنتم تعرفونه .

لذلك قال تعالى : ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ(٣٤)﴾ [الطور]

ولكن لتعلموا أن محمداً لا يستطيع أنْ يختلق فى القرآن شيئاً لم نقُلْه نحن وإلا أخذناه بالقوة والقدرة وانتقمنا منه باليمين أى بالحق .

﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦)﴾ [الحاقة] والوتين : عرق فى القلب إذا قُطع مات صاحبه . وقال ابن عباس : يعنى نياط القلب ، وقد قال بعض العلماء : ليس المقصود أننا نقطعه بعينه ، بل المراد أنه لو كذب علينا لأمتناه فكان كمن قطع وتينه [1] . فالوتين هو ما نعرفه بالشريان الأورطى ويسمونه الأبهر .

﴿ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧)﴾ [الحاقة] فلا يقدر أحدٌ من الناس أنْ يحجزنا ويمنعنا ويحول بيننا وبينه فى أخذه بيميننا أو فى قطعنا وتينه ، إذ ليس ذلك فى قدرة أحد أو فى إمكانه .

---

(١) قاله ابن قتيبة الدينورى . ذكره الخازن فى تفسيره (لباب التأويل فى معانى التنزيل) (٤/٣٢٨) دار الكتب العلمية ببيروت . وكذا ذكره الرازى فى مفاتيح الغيب (٣٠/٦٣٥) . وابن عادل الدمشقى (ت ٧٧٩ هـ) فى (اللباب فى علوم الكتاب) (١٩/٣٤٥) .

وقد يسأل سائل : الحق سبحانه قال (من أحد) بالمفرد . ثم عبَّر سبحانه بالجمع (حاجزين) . نقول : قد قال (حاجزين) بلفظ الجمع وهو وصف أحد ردًا على معناه .

يعنى لو اجتمع آحادٌ كثيرون ، والعرب تجعل أحداً للواحد والاثنين والجمع .

وليس هناك من أحد أياً كان هذا الأحد ، مهما كانت قوته ومكانته يستطيع أنْ يحجزنا عنه ويمنعنا من معاقبته إذا تقوَّل علينا فى القرآن ما لم نقله .

لذلك قال (من أحد) . يعنى أى أحد .من بداية ما يُقال له أحد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾
وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ ﴾

فالقرآن ليس شعراً ولا هو بسجع الكهان ، إنما هو ﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) ﴾ [الحاقة] ، وهذا القرآن لم يُنزله الله بلا هدف ولا هو لمجرد القصِّ والتلاوة ، إنما للتذكرة .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) ﴾ [الحاقة] ويقول تعالى: ﴿ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (٥٥) ﴾ [المدثر]

فهذا يعطينا حكمة التنزيل وغايته ، ويقول تعالى : ﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢) إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى (٣) ﴾ [طه]

أى ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، وإنما أنزلناه (تذكرة) أى تذكيراً لمن يخشى ويخاف بمهابة .

فالقرآن تذكرة للمتقين ، والحق سبحانه يؤكد هذا باستخدام (إنَّ) فيقول (وإنه) ثم اللام (لتذكرة) .

وهو تذكرة للمتقين ، فالمتقون هم الذين يخشون ربهم ويخافون عذابه

وتصلح معهم التذكرة ويستجيبون لها تبشيراً وإنذاراً، يقول تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) ﴾ [الذاريات]

فالتذكرة والذكرى عظة وتذكير للمتقين الذين يتقون عقابَ الله بأداء فرائضه واجتناب معاصيه ، فهم يتقون عقاب الله بطاعته .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (٤٩) ﴾ [الحاقة]، ما زال الحق سبحانه يؤكد بـ (إنّ) ثم (اللام) فيقول ﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ (٤٩) ﴾ [الحاقة] وعلمنا ليس لمن يصرح ويجاهر بالتكذيب فقط ، إنما نحن نعلم حتى مَنْ يُخفى التكذيب فى قلبه ولم يصرح به .

فهم مكذِّبون بالله وبالآخرة ، ولو لم يكونوا مكذِّبين بالآخرة لآمنوا واتبعوا منهج الله ، وهم أيضاً مكذّبون أنه رسولٌ من الله.

وهذا وعيدٌ وتهديد للمكذبين ، فنحن نعلم أن منكم مَنْ يكذِّب بالقرآن رغم وضوح إعجازه،فيقولون إنه شاعر وكهانة وأساطير الأولين،فهم كذبوا على الله.

ولكن هل (منكم) هنا تعني من المسلمين ، أى منافقون . البعض من العلماء قال هذا ﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (٤٩) ﴾ [الحاقة] يعنى : إنَّا لنعلم أن منكم أيها المؤمنون مكذبين بالقرآن يعنى منافقين .

ولكن هذه السورة سورة الحاقة وهى سورة مكية ولم يكن قد ظهر فيها النفاق بعد، فـ(منكم) هنا لا تعنى المؤمنين ولا المتقين إنما تعنى أهل مكة .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) ﴾ [الحاقة]

الهاء فى ﴿وَإِنَّهُ (٥٠)﴾ [الحاقة] عائدة على التكذيب المفهوم من فحوى الآية قبلها ، بينما الهاء فى (وإنه) فى قوله ﴿ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) ﴾[الحاقة] عائدة على القرآن الذى جاء به محمد ﷺ من عند الله . الذى هو ﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) ﴾ [الحاقة]

والحق سبحانه يستخدم نفس أدوات التوكيد (وإنه) ثم اللام فى (لحسرة) .

والحسرة ألمٌ فى القلب ، ولا تكون الحسرةُ إلا إذا أُصيب الإنسان بمصيبة لا منأى من النجاة منها ، وقد قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ (١٦٧)﴾ [البقرة]

فالخاسر الذى خسر دنياه وآخرته بتكذيبه لله وللرسول والقرآن تجده يعيش فى الحسرة والألم على ما فقد ، وتجده فى فقر دائم فى الدنيا ، وتجده يتحسَّر أكثر عندما يعاين العذاب يوم القيامة ، ويكون قد فات أوانُ الرجوع والعودة.

والحق سبحانة يقول : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٣١)﴾ [الأنعام]

فهم لا يستطيعون كتمان حسرتهم فيقولون ﴿ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا (٣١)﴾ [الأنعام] أى على تفريطنا وإسرافنا فى أمرنا .

فالتكذيب بالله وبالقرآن الذى أنزله الله على محمد ﷺ سيكون حسرةً على الكافرين لأنهم سيجدون ما كذَّبوا به ماثلاً أمام أعينهم، ويحاسبهم الله على تكذيبهم وكفرهم .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (٥١)﴾ [الحاقة]

فحقُّ اليقين وهو يوم يدخل المكذب الكافر النار ويباشر حرَّها ، يقول تعالى: ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦)﴾ [الواقعة]

فعندنا علم اليقين وهو الصورة العلمية للنار ، وعين اليقين فى الآخرة عندما نمر على الصراط ونرى النار رؤيا العين ، ثم حقُّ اليقين وهذه للكفار حين يُلقون فيها ويباشرونها فعلاً ، ويذوقون حرَّها ولظاها .

فحقّ اليقين محضه وخالصه ، وهو من إضافة الشيء إلى نعته أو صفته ، فاليقين هنا صفة للحق ، و هو حق لا شكَّ فيه ولا شبهة بأنه مُنزَّل من لدُنا .

فهو حقٌّ لا بطلانَ فيه ، ويقينٌ لا ريْبَ فيه ، ثم أضيف أحد الوصفين إلى الآخر للتأكيد .

ثم يُنهى الحق سبحانه سورة الحاقة فيقول :

﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ ﴾

فنزِّه الحق سبحانه عن أنْ يكون له شريكٌ فى أمور الخَلْق والكون ، بل هو سبحانه العظيم فى قدرته ، العظيم فى رحمته ، العظيم فى حكمته ، العظيم فى قيوميته على كَوْنه وخَلْقه ، العظيم فى علمه ، العظيم فى ثوابه ، العظيم فى جزائه .


سورة المعارج

سورة المعارج[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) ﴾

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ (١) ﴾[المعارج] طلب ودعا داع، وطلب كافر من كفار مكة لنفسه ولقومه نزولَ عذاب، والسائل هو النضر بن الحارث، فإن رسول الله ﷺ لما خوَّفهم نزول العذاب قال استهزاء وإنكاراً: ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال]

وقد بلغ بهم العجز إلى أنْ قالوا: إنْ كان هذا القرآن هو الحق القادم من عندك فأمطر علينا حجارة أو ائتنا بعذاب أليم.

أليس هذا الكلام دليلاً على غباء قائليه؟ لو كان عندهم عقل ومنطق وتفكير ما كانوا يقولون ذلك، ولكنهم بغبائهم طلبوا الموت بدلاً من الهداية.

---

(١) سورة المعارج هي السورة رقم (٧٠) في ترتيب المصحف الشريف، عدد آياتها ٤٤ آية، نزلت بعد سورة الحاقة. نزلت بمكة فهي سورة مكية باتفاق. قاله القرطبي في تفسيره (١٨/٢٧٨).

وهذا دعاء مَنْ لا عقل له ، ولو كانوا يعقلون لقالوا : إن كان هذا الحق من عندك فاهْدنا يارب إليه أو اجعلنا نؤمن به ، ولكنهم من فرط حقدهم وضلالهم تمنَّوا العذاب على الإيمان بالحق ؛ وهذا يكشف لنا تفاهة عقول الكفار.

ولو استجاب الحق لمثل هذا الدعاء لكان وبالاً على مَنْ دعوا ذلك الدعاء . ومَنْ قالوا هذا القول هم : العاص بن وائل السهمى ، والوليد بن المغيرة ، والأسود بن عبد المطلب ، والأسود بن عبد يهود . وكانوا قد وصلوا إلى قمة الاضطراب .

فهم قد اضطربوا أولاً حين اتهموه بأنه ساحر ، واضطربوا ثانياً وحاولوا أن يقولوا : إن القرآن شعر ، والقرآن ليس كذلك .

حاولوا أن يتهموا رسول الله بالجنون ليطعنوا فيما جاء به من القرآن حتى لا يؤمنوا به .

وقالوا (كاهن) ولكن وجدوا أنَّ كلَّ هذا لا يستقيم .

فاضطربت عقولهم فدعوا بأنْ ينزل عليهم العذاب ، وقد قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا [1] قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦)﴾ [ص]

والقِطُّ هو جزاء العمل وهو مأخوذ من القط أى القطع ، والقسط : والقط والنصيب ، فقالوا بطريق الاستهزاء والسخرية : يا ربنا عجّل لنا قِطّنا ونصيبنا من العذاب الذى تتوعدنا به ولا تُؤخِّره إلى يوم الحساب .

﴿ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١)﴾ [المعارج] أى : بعذاب نازل بهم وحاصل لا محالة .

﴿ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) ﴾ [المعارج] فهو عذاب للكافرين خاصَّة دون المؤمنين . واللام هنا فى ﴿ لِّلْكَافِرِينَ (٢)﴾ [المعارج] بمعنى على : أى واقع على الكافرين . ويحتمل أنْ تكون بمعنى (الباء) بمعنى : أى بالكافرين واقع .

والدافع : المانع الذى يدفع ويمنع العذاب عنه ، فليس له دافع يردُّ عنه العذاب .

---

(١) قطنا : نصيبنا ، والقط : الحساب . وذكر الأزهرى فى تهذيب اللغة (باب القاف والطاء) : أى نصيبنا من العذاب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤ ﴾

هذا العذاب واقعٌ على الكافرين من الله ذى المعارج ، والمعارج هى المصاعد والدرجات التى تصعد فيها الملائكةُ من سماء إلى سماء ، فهى مراقٍ فى السماء يُرتقى فيها .

وذلك كقوله تعالى : ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ(٣٣)﴾ [الزخرف] ويظهرون يعنى: يصعدون ويرتقون .

وقولُ الله سبحانه ﴿مِنَ اللهِ ذِى الْمَعَارِجِ (٣) تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ(٤)﴾ [المعارج] يُدخِلُ الخوف والرهبة فى قلوب الكافرين ، إذ إن كل المخلوقات تحت قهر سلطانه سبحانه ، والملائكة هى من هذه المخلوقات تصعد إليه فى معارج السماوات .

﴿ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ (٤)﴾ [المعارج] الروح هو جبريل عليه السلام ،ذكره الحق سبحانه بعد ذكر الملائكة ، فذكْر الخاص بعد العام يعطى أهمية وعظمة للخاص لتميُّزه وفضله .

والملائكة إنما تعرج إلى الله كما تصعد أرواحُ بنى آدم إليه عند قبضها حين الموت ، فالهاء فى ﴿ إِلَيْهِ (٤)﴾ [المعارج] عائدة على اسم الله سبحانه .

وقد قال بعض أهل التأويل أن الضمير في(إليه) يعود إلى الموضع الذى لا يجرى لأحد سواه فيه حكمٌ ، فجعل عروجهم إلى ذلك الموضوع عُروجاً إليه ، كقوْل إبراهيم عليه السلام : ﴿ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى (٩٩)﴾ [الصافات] أى : إلى حيث أمرنى ربى بالذهاب إليه .

﴿ تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَة (٤)﴾ [المعارج]

ولكى نعرف معنى كلمة (يوم) عند الله كان لا بد أنْ نضم إلى هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٤٧)﴾ [الحج]

فالله عزَّ وجل هو خالق الزمن ، فلذلك فإنه يستطيع أنْ يخلق يوماً مقداره ساعة ، ويوماً كأيام الدنيا مقداره أربع وعشرون ساعة ، ويوماً مقداره ألف سنة ، ويوماً مقداره خمسون ألف سنة، ويوماً مقداره مليون سنة ، فذلك خاضعٌ لمشيئة الله .

فالأزمنة متعددة ومنوَّعة وتختلف من قياس إلى آخر ، ومن كوكب إلى آخر ، وما أظهره الله فى القرآن من الأزمنة إنما يدلُّ على اختلافها لا على التعارض والتناقض .

فإذا كان الحق سبحانه يتحدث عن العروج إليه هنا ، فيقول: ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤)﴾ [المعارج] فإنه سبحانه ينقص هذه المدة فيقول تعالى فى آية أخرى : ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٥)﴾ [السجدة]

لماذا ؟ لأن الزمن عندكم فى هذه الحالة معطّل ، فأنتم من هوْلِ ما ترَوْنَ تستطيلون القصير ، ويمرّ عليكم الوقتُ ثقيلاً ، لذلك تتمنون الانصراف ولو إلى النار .

كما أن صاحب النعيم يستقصر الطويل ، ويمرُّ عليه الوقت كأنه لمح البصر .

وقد سُئِل رسول الله ﷺ عن ﴿ يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤)﴾ [المعارج] ما أطولَ هذ اليوم ! فقال : والذى نفسى بيده ، إنه ليُخفَّف على المؤمن حتى يكونَ أهونَ عليه من صلاة مكتوبة يصليها فى الدنيا (١).

---

(١) أخرجه الثعلبى فى تفسيره (الكشف والبيان عن تفسير القرآن) (٣٦/١٠) عن أبى سعيد الخدرى. وذكره ابن كثير فى تفسيره (١٠٧/٦) من رواية الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى أيضاً . وكذا السيوطى فى الدر المنثور (٢٨٠/٨) وعزاه لأحمد وأبى يعلى وابن جرير وابن حبان والبيهقى فى البعث والنشور ، كلهم من حديث الخدرى .

فيوم القيامة هو فى حَقِّ المؤمن أهون عليه من صلاة مكتوبة يصليها فى الدنيا ، وكأنه ربع الساعة ، أما الكافر فهو فى شدة استطالته وشدته وكأنه خمسون ألف سنة .

وقد يسأل سائل : هل تحتاج الملائكة إلى خمسين ألف سنة لتعرج إلى ربها؟ لذلك قيل إنه يوم فى حساب الملائكة ، ولكن حساب هذا اليوم بحسابكم أنتم هو خمسون ألف سنة .

فالملائكة يقطعون فى يوم ما يقطعه الإنسان فى خمسين ألف سنة .

﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ۝٧ ﴾

فاصبر يا محمد صبراً جميلاً ، أى صبراً حسناً لا جزعَ فيه ، اصبر على أذى هؤلاء المشركين لك ، ولا يُثنيك ولا يصرفك ما تلقى منهم من المكروه عن تبليغ ما أمرك ربك أن تبلغهم الرسالة .

فاصبر صبراً جميلاً لا يشوبه استعجال واضطراب قلب ، فاصبر على سؤالهم ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١)﴾ [المعارج] لأن السؤال كان عن استهزاء أو تعنُّت .

فهو سؤال يستبعد وقوع يوم القيامة ووقوع العذاب بهم ، لذلك كان قول الحق سبحانه : ﴿ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) ﴾ [المعارج]

وهذا العذاب واقع بكم من الله صاحب العظمة فى يوم شديد طويل على الكافرين .

وقد ذكر الحق سبحانه الصبر الجميل فى حقِّ نبى الله يعقوب وعلى لسانه فقال لأبنائه : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ(١) لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ (١٨)﴾ [يوسف]

والصبر عادة يكون مؤلماً ، فكيف يكون جميلاً ؟ يكون جميلاً حينما لا

---

(١) سوَّلت : زينت . والتسويل من سُول الإنسان وهو أمنيته التى يتمناها فتزين لطالبها الباطل والغرور . [تهذيب اللغة للأزهرى س و ل] .

تكون فيه شكوى أو جزع . وهناك الهجر الجميل فى قوله تعالى :﴿ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠)﴾ [المزمل] الذى لا يقترن بغيبة أو نميمة أو جدال .

وقد أمر الحق سبحانه رسوله محمداً بالصبر على قومه فى آيات كثيرة من قرآنه ، ﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا (١٣٠)﴾ [طه]، وفى آية أخرى قال تعالى: ﴿ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ (١٧)﴾ [ص]

تأمره بالصبر ثم تسبيح الله عز وجل ، وكأن التسبيح يجعل صبره صبراً جميلاً ، لأنه حين التسبيح لا يرى تكذيبهم واتهامه له بما لا يجوز ، إنما هو يرى الحق سبحانه فيسبِّحه وينزِّهه .

ثم يحدِّثنا الحق سبحانه عن يوم القيامة وعن العذاب الواقع بهم والذى سألوا عنه واستعجلوه : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (٦)﴾ [المعارج] أى يرونه غير متحقق، فهم يستبعدون حدوث هذا اليوم ، لا أنهم مؤمنون به ، ولكنهم يرونه سيحدث فى زمن بعيد ، إنما هم يستبعدون حدوثه من الأساس .

لذلك كان قوله تعالى بعده :﴿ وَنَرَاهُ قَرِيبًا (٧)﴾ [المعارج] أى : نراه متحققاً كائناً لا ريبَ فى حدوثه .

فهم يرونه غير واقع ونحن نراه قريباً لأنه كائن ، وكل ما هو آت قريب ، وما استبعده مَنْ استبعده إلا لأنه مرتابٌ شاكّ ، فأما المؤمن بالشيء الواثق به فلا يستبعده .

ثم يذكر لنا الحق سبحانه أهوال هذا اليوم ومشاهده ، فيقول تعالى :

﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾
وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨)﴾ [المعارج]

فالسماء يوم القيامة تتشقق وتتداعى ، فيتغير لونها من الزُّرْقة إلى الحمرة،

والمهل هو عكر الزيت فى أسفل إنائه ، أو هو ما يُذاب من المعادن كالنحاس والرصاص والحديد .

فالقرآن يقرر أنَّ أحداثاً كونية كبرى ستقع فى هذا اليوم الذى مقداره خمسون ألف سنة ، تتغير بسببها أوضاع الكواكب والنجوم والمجرَّات وتتغيَّر صفاتها .

﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ(٩)﴾ [المعارج] أى حينها تكون الجبال كالصوف المندوف ، كما قال تعالى فى آية أخرى :﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥)﴾ [القارعة]

فالجبال ستتفتت وتتناثر ، وتصبح كالصوف المندوف ، هذه حال الجبال يوم القيامة ، وأحداثها المروِّعة بعد صلابتها وقوتها التى كانت عليها ، فتصبح كأنها لم تكُنْ .

﴿ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا(١٠)﴾ [المعارج] فليس لأحد قريب أو صديق يدفع عنه ويحزن عليه ، فهم يتحامونه ويفرُّون منه ، وهم أنفسهم لا يجدون مدافعين عنهم ، فكل واحد ينشغل بنفسه ، فلا يسأل صديقٌ عن صديق ، ولا قريب عن قريب ، وإنْ كان يراه فى أسوأ الأحوال إذ هو مشغول بنفسه قبل كل شيء .

إنه لا يستطيع حتى أنْ يسأله عن حاله ، ولا أنْ يقول له : كيف حالك ولا يكلمه لهول ذلك اليوم وشدته .

ثم يقول تعالى :

﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ(١) الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٤﴾ ﴾

(١) وضعت القبائل على خلقة الجسد : الشعب ثم القبيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ ثم الفصيلة وهى القطعة من أعضاء الجسد (الزاهر فى غريب ألفاظ الشافعى ١/ ١٨٥) . ولكن الكلبي وضع الفصيلة بعد القبيلة فجعلها أكبر . وقال ابن الأثير فى النهاية في غريب الحديث (٣/ ٤٥١) : الفصيلة من أقرب عشيرة الإنسان .

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ (١١)﴾ [المعارج] أى يرونهم ويعرفونهم ولكنهم لتشاغلهم بأنفسهم لم يتمكنوا من تساؤلهم ، أو لأنهم لا يرون جدوى لذلك ، فهذا المجرم الآثم الظالم الذى تناهى إجرامه بكفره بربِّه واستكباره عن عبادة مولاه .

﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١)﴾ [المعارج]

وهو لإجرامه يريد أنْ ينجو من عذاب الله له على آثامه وذنوبه ، فيودُّ لو يقدم بنيه الذين كان يترجاهم من الله وهو فى الدنيا ، ولو يقدم صاحبته التى هى زوجته التى شاركته دنياه ، بل ويقدم أخاه بل ويقدم فصيلته وعشيرته وأهله وناسه ، بل يقدم مَنْ فى الأرض جميعاً .

هو على استعداد أنْ يقدِّم الجميع فداءً لنفسه فى سبيل أنْ يُنجيه الله من العذاب .

إنه يتمنى لو ملك هؤلاء وكانوا تحت يده ، إذن لافتدى بهم نفسه ظناً منه أن هذا سيُنجيه من العذاب .

وقد قطع الله أمل الكافرين والظالمين والمجرمين فى الافتداء من العذاب ، قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٩١)﴾ [آل عمران]

وإذا كان الحق سبحانه قد قطع أملهم ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا (٩١)﴾ [آل عمران] فإنه سبحانه يقطع أملهم فى النجاة ، فيقول هنا فى المعارج :

﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ (١٥) نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ(١) (١٦)
تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ (١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ (١٨)﴾

فهذه هى الحقيقة تقولها كلمة ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَظَى (١٥)﴾ [المعارج]، فهذا الظن

---

(١) نزاعة للشوى : هى النار التى تنزع الأيدى والأرجل وتبقى الأنفس فى الأغلال لا حية ولا ميتة. [كتاب العين للخليل بن أحمد ٦/٢٩٨]

وهو إمكانية الافتداء غير صادق، وأيضاً إمكانية النجاة غير متحققة لكم.

فالعذاب واقع بكم لا محالة﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) ﴾[المعارج] فيقول تعالى: ﴿ كَلَّا إِنَّهَا لَظَى (١٥) ﴾ [المعارج]

فـ (كلا) ردع وزجرٌ للمجرم عن أنْ يود ذلك، فلن ينفعه الافتداء ولن ينجيه من العذاب.

إنها نار شديدة السعير عظيمة التلظى وهي﴿ نَزَّاعَةً لِلشَّوَى (١٦) ﴾[المعارج] فلا تأخذها رحمة ولا شفقة ولا هوادة فى أخذ المجرمين وتعذيبهم.

فهى تشويهم بنارها ولظاها فيحترقون فيها ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ (٥٦) ﴾ [النساء]

و (لظى) اسم من أسماء النار، وهى تتلظى أى تتلهَّب بلهب خالص، وقد وصف الحق سبحانه ذلك اللهب فى آية أخرى: ﴿ انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِى ثَلَاثِ شُعَبٍ (٣٠) لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ اللَّهَبِ (٣١) ﴾ [المرسلات] شُعَب النار لهبها الذى إذا سطع وارتفع تشعَّب وتفرَّق ثلاث شُعَب.

والنار ﴿ نَزَّاعَةً لِلشَّوَى (١٦) ﴾ [المعارج] فالنار تنزع الأطراف كاليدين والرِّجلَيْن فلا تترك عليها لحماً ولا جلداً، فالشوى جمع شواة وهو الطرف كاليد والرِّجل وأطراف الأصابع وجلدة الرأس.

إنه عذابٌ ما بعده عذاب، نار تنزع أم الرأس وتنزع لحم ساقيه، ولكن قلبه نضيج حيٌّ، وهذا عذاب ما بعده عذاب، أن تأكل النار أطرافه وفروة رأسه وهو حَيٌّ يشعر بلظى النار وسعيرها.

والنار ﴿ تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعَى (١٨) ﴾ [المعارج]

وهذا خبر ثانٍ عنْ النار، فالنار لظى، وهى تدعو مَنْ أدبر وتولى، ودعاء النار ونداؤها ليس على الحقيقة بل هو لون من ألوان المجاز، وذلك كقوله تعالى: ﴿ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا (٤) ﴾ [محمد] فليست الحرب هى التى تضع أوزارها حقيقةً، إنما مَنْ أوقدوها والمنغمسون فيها والواقعون فيها.

فالنار تدعو إليها الكافرين والمجرمين الذين يحاولون الفرار منها ، كما تدعو الأغنياء والمترفين الذين كانوا يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله ، ويمنعون الفقراء من حَقِّ الله .

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن النار تناديهم بأسمائهم واحداً واحداً ، فهى تدعو مَنْ أدبر عن الإيمان وتولى عن الحق ، فتقول : إليَّ يا مشرك .. إليَّ يا منافق .

حتى أن ابن عباس قال : تدعو الكافرين والمنافقين بأسمائهم بلسان فصيح ، ثم تلتقطهم كما يلتقط الطير الحَبَّ(١) .

هذا عن دعاء النار وندائها ، ولكن مَنْ تدعو النار وتناديهم ؟ إنها تدعو ﴿ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (١٧) ﴾ [المعارج] فهى تدعو مَنْ أعرض عن الإيمان ونأى بجانبه وكفر بدعوة الرسل إلى توحيد الله وعبادة الله وحده .

﴿ أَدْبَرَ (١٧) ﴾ [المعارج] أى أعطى ظهره ودبره للحق وأعرض عن الطاعة للدخول فيها ﴿ وَتَوَلَّى (١٧) ﴾ [المعارج] أعرض عن الحق وعن الإيمان بكتابه ورسله .

وإذا كان قد أدبر وتولى عن الحق ، ففى أيِّ شيء قضى حياته ، وأنفق عمره، فإدباره وتوليه كان لأنه اختار الدنيا على الآخرة ، فهو ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَى (١٨) ﴾ [المعارج]

فهو مع كفره وفسقه ونفاقه يجمع المالَ من كلِّ طريق ويكنز ماله ، فهو جمع المال من حلِّه ومن غير حلِّه ، ولم يؤدِّ حقَّ الله فيه .

وقد قال عنه الحق سبحانه فى موضع آخر : ﴿ الَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (٣) ﴾ [الهمزة]

---

(١) أورده الخازن فى لباب التأويل (٤/٣٤١) وقد أخرج ابن أبى حاتم فى تفسيره (١٧٧٧٤) عن قتادة مرسلاً أن كعباً كان يقول : يخرج يوم القيامة عنق من النار فيقول : يأيها الناس إنى وكلت منكم بثلاث ، بكل عزيز كريم ، وبكل جبار عنيد ، وبمن دعا مع الله إلهاً آخر فيلتقطهم كما يلتقط الطير الحب من الأرض .

فهذا قد أطغاه الغِنَى والمال حتى أنه نظر إلى مَنْ هو دونه من الفقراء نظرةَ التحقير والازدراء ، وهو يظن أنَّ ماله سيمنحه الخلود فلا يموت حتى يفنى ماله .

فلم ينفعه ماله ولم يُنجه كنزه للمال ﴿ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِى الْحُطَمَةِ(١) (٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥) نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ (٦) الَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ (٨) فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ (٩) ﴾ [الهمزة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ ﴾

هلوع صيغة مبالغة تدل على شدة الهلع ، فهى فعول ، والهلع شدة الحرص وقلَّة الصبر فهو ضَجِر ملول متقلب يسعى وراء شهواته ونزواته وهواه .

فالهلع شدة الجزع إذا أصابه شرٌّ أو خاف من شيء ما ، وهو مع جزعه شديد الحرص والضجر بخيلاً شحيحاً إذا رزقه الله رزقاً تجده منوعاً .

فهو إذا قلّ ماله وناله الفقر والعدم تجده لا صبر له ، حتى إذا كثر ماله ونال الغنى تجده منوعاً لما فى يده، بخيلاً به لا ينفقه فى طاعة الله ولا يؤدى حقَّ الله منه .

وكلمة إنسان هنا تفيد عموم جنس الإنسان ، ويحدثنا الحق سبحانه فى آية أخرى عن صفات الإنسان ، فيقول : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) ﴾ [هود]

فالنعمة حين يشاء الحق سبحانه أنْ تصيب الإنسان ثم تُنزع منه هنا يُصاب الإنسانُ بالقلق أو الحزن أو الهلع أو اليأس والنعمة مهما قلَّت فالإنسان

---

(١) الحطمة : النار تحطم ما ألقى فيها . وهى من أسماء النار مثل جهنم وسقر ولظى [غريب الحديث لإبراهيم الحربى ٢/٣٨٩] .

يستطيبها وإنْ نُزعتْ منه فهو يئوسٌ كفور. فاليئوس الكفور هو أيضاً الهلوع الجزوع المنوع ولاحظ أنها كلها صيغ مبالغة ، فالمقصود به الإنسان الشديد الجزع المنَّاع للخير الشديد الكفر بالله ، اليئوسٌ من رحمة الله ونعمته .

والمتأمل هنا نجد أن الحق سبحانه استخدم لفظة (مسَّه) بينما هو فى سورة هود (أذقنا) . فهما أمران المسّ والإذاقة . والذَّوْق هو للإدراك لا للأكل، فأنت حين تشترى فاكهة يقول لك البائع : تفضَّل ذُقْ ، فتأخذ واحدة منها لتستطيب طعمها .

والذوق قد يكون بأنْ تدع لسانك يلمس مطعوماً ما لذوقه فقط ، فيقرِّب الشيء من لسانه ويمسّه ، وهذا معنى المسِّ ، أى اللمس الخفيف ، أو اقتراب شيء من شيء ، فالمسّ لمسٌ خفيف، وقد يكون المسُّ للحظة .

فهذا الإنسان الهلوع لعدم إيمانه الذى كان من الممكن أنْ يُكسبه طمأنينة وسكينة وتقبُّلاً لتقلبات الحياة تجده مع أول مسٍّ من فقر أو احتياج ، أو مصيبة، أو شر تجده جزوعاً شديد الجزع ، والهلع والخوف .

وإذا أصابتْه نعمة صغرت أو كبرت تجده لا يعترف بفضل الله عليه أنه رزقه، فتجده يمنع الخير الذى وصله عن الناس ، فلا يؤدى حقَّ الله عليه ، لأنه لا يؤمن بالله .

لذلك قال تعالى بعدها :

﴿ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾
وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ ﴾

إذا كان الحق سبحانه فى الآيات الثلاث السابقة ذكر الإنسان وقال :﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) ﴾ [المعارج] فإنه سبحانه هنا استثنى فقال : ﴿ إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) ﴾ [المعارج]

وعندما نستقرئ القرآن الكريم نجد أن كلَّ خبر عن الإنسان وهو معزول عن منهج الله هو خبر كله شرٌّ ، فسبحانه يقول : ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) ﴾ [العصر]

إن الإنسان على إطلاقه لفى خُسْر ، ولكن مَن الذى ينجو من الخسران ؟ وتأتى الإجابة من الحق فيقول: ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر]

فكلُّ كلام فى القرآن عن الإنسان على إطلاقه يأتى من ناحية الشر ، وما الذى يُنجيه من ذلك ؟ إنه منهج الله .

والحق سبحانه يضع لنا منهجه بدايةً من هذه الآية (إلا المصلين) حتى قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) ﴾ [المعارج]

أول عناصر هذا المنهج الإلهى قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) ﴾ [المعارج]

فأوله الصلاة وطاعة الله بأداء ما افترض عليه منها ، ولا تكون الصلاة إلا عن إيمان بالله وبرسوله وبكتابه ، فاستغنى الأمر عن ذكر الإيمان ، ثم إن الحقَّ سبحانه هنا يرسم عناصر منهج تطبيقى ، والإيمان أمرٌ عقديٌ قلبيّ .

﴿ إِلاَّ الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) ﴾ [المعارج] يقيمونها فى أوقاتها لا يدَعُونها بالليل والنهار ، فلا يتركون صلاةً مكتوبة إلا أتوْهَا حيث يُنادَى بها .

ولكنه يصليها بحقها ، فلا يلتفت عن يمينه ولا عن شماله ، ولا يزيلون وجوههم عن سمْت القبلة .

وهم دائمون على صلاتهم مستمرون على أدائها لا يشغلهم عنها شاغل ، ولا يضيعون منها شيئاً ، هذه الديمومة تعطى صورة الاستقرار والاستطراد ، فهى صلاة لا يقطعها الترك والإهمال .

وقد كان أحبُّ الأعمال إلى رسول الله ما دام وإنْ قلَّ ، فالديمومة تعطى صفة

ثبات الصلة بالله تعالى .

ثم يعطى لنا الحق سبحانه صفة أخرى وركناً آخر من أركان منهج الله ، فيقول تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤) ﴾ [المعارج]

الحق سبحانه هنا يتحدث عن المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسوله وكتابه لذلك قال: ﴿حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤)﴾ [المعارج] . والحق المعلوم فى أموال المؤمنين المكلَّفين هو الزكاة .

أما فى مقام الإحسان الذى يعلو مقام الإيمان فإن الله يجعل فى أمواله حقاً ولكن ليس معلوماً ، فيطلقها الحق سبحانه : ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات]

ففى مقام الإحسان يكون فى مالهم حق للإحسان إلى الفقير وإنْ لم يكُنْ معلوماً أى لم يحدد ، وهذا فى صالح الفقير ، فالإنسان فى مقام الإيمان قد يقيد الإخراج من ماله بحدود الزكاة أو فوقها قليلاً ، أما فى مقام الإحسان فلا حدود لما يخرج من المال .

فالحق سبحانه يريد أنْ يفسح المجال للطموحات الإيمانية . فمَنْ يزد فى العطاء فله رصيدٌ عند الله .

ومَنْ يتأمل قوله تعالى : ﴿ فِي أَمْوَالِهِمْ (٢٤) ﴾ [المعارج] يجد عجباً ، فالحق سبحانه ينسب أموالهم إليهم ، وهو سبحانه صاحبُ المال يعطيه لمَنْ يشاء ، ولأنه سبحانه صاحب المال فهو يفرض فيه حقاً معلوماً .

قال تعالى :﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ..(١٠٣) ﴾ [التوبة]

وكلمة (أموالهم) وردت فى القرآن إحدى وثلاثين مرة ، بضمير الغائب المتصل (هم) ، ووردت كلمة (أموالكم) بضمير المخاطب أربع عشرة مرة .

فالمالُ مالكم بنسبة الله إياه لكم ، لا أنه مالكم على الحقيقة ، وإلا فلو أراد الله أنْ يسلبكم إياه ماستطعتم حيلةً ، وما استطعتم لهذا دفعاً .

وما دام المالُ مالَ الله على الحقيقة ، فمن حقِّ الله سبحانه أنْ يفرض فى مالك حقاً معلوماً ، ولكن الحقّ المعلوم هنا فى هذه الآية هو الزكاة المفروضة ذات المقادير والأنصبة المحددة ؟

نقول : لا ، لأن هذه الآية فى سورة المعارج وهى سورة مكية لم تكُنْ قد فُرضت الزكاة بعد إنما فُرضتْ الزكاة فى المدينة ، إذن فالمقصود هنا هو قدرٌ معين يستوجبونه على أنفسهم تقرباً إلى الله .

فهو شيء يُوظِّفه الرجل على نفسه يُخرجه على سبيل الندب فى أوقات معلومة ، لذلك لم يذكر الحق سبحانه مصارف الزكاة الشرعية التى ذكرها الله فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ [1] وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠) ﴾ [التوبة]

فهذه الفريضة إنما فُرضت فى المدينة بعد أنْ أقيمت دولة الإسلام وقويتْ شوكتها ، فأصبحت هناك مصارف للزكاة غير الفقراء والمساكين مثل العاملين على جمع الزكاة والمؤلفة قلوبهم ، والغارمين المديونين ، وفى سبيل الله .

أما الذى فى سورة المعارج فهو حقٌّ أوجبه المخرج له على نفسه إشفاقاً منه على الفقراء فيخصص من ماله ما يحقق نفعاً للآخرين ويسدُّ فقرهم وعوزهم .

عندما سُئل ابن عمر عن قوله: ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) ﴾ [المعارج] أهى الزكاة ؟ فقال : إنَّ عليك حقوقاً سوى ذلك .

وابن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن قال : هو حَقٌّ سوى الصدقة يصل بها رحمه ، أى يقرى بها ضيفاً ، أو يحمل بها كَلاًّ [2] ، أو يعين بها محروماً .

---

(١) الغارم : المدين والغُرم الدَّيْن . وقال محمد بن قاسم الأنصارى فى شرح حدود ابن عرفة (١/٧٧): الغارم مدين آدمى لا فى فساد . وقال فى تاج العروس للزبيدى : الغارم هو الذى لزمه الدَّين فى الحمالة .

(٢) الكلّ : اليتيم ، والكل الذى هو عيال وثقل على صاحبه ، قال عز وجل : ﴿ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ (٧٦) ﴾ [النمل] أى عيال . وكلّ الرجال : إذا أتعب .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) ﴾ [المعارج]

فهو حقٌّ لصنفين : السائل ، والمحروم ، فالسائل هو الذى يسأل الناس ، أما المحروم فيعنى الفقير المتعفف عن السؤال ويحسبه الناسُ غنياً ، فيُحرم من عطاء الناس له ، وهو أحوج إليه .

فالسائل أوصى به الحق سبحانه : ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ (١٠) ﴾ [الضحي]

والبعض لمح فى قوله (المحروم) معانى أخرى غير الفقير المتعفف ، فالمحروم عند البعض الذى لا يُنمِى له مال ، فتجارته كاسدة بائرة أو أنه لا يكسب ما يُعينه على الحياة وعلى ازدياد احتياجاته ، فتجد معيشته ضيقة ، وليست عنده القدرة على الكسب الذى يجعل حياته أفضل .

والبعض قال : المحروم من اجتيح ماله والمصابُ زرعه وثمره بآفة أو جائحة[١] أو ماشية وطيوره بمرض أو سيارته التى يرتزق منها ، فهذا كانت عنده النعمة ولكن عَرَضَ له عارض حرمه منها .

وقد قال أصحاب الجنة عندما احترقت جنتهم : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) ﴾ [القلم]

وقد يسأل سائل : هل قوله تعالى : ﴿ أَمْوَالِهِمْ (٢٤) ﴾ [المعارج] يقصد بها المال بمعنى النقود أو الذهب والفضة فقط ؟

نقول : لا ، بل إن المالَ قد يكون زرعاً أو ماشية أو طعاماً ، فالمال هو كل ما يُتموَّل إلا أننا نصرفه إلى شيء يمكن أنْ يأتى بكلِّ متموِّل وأسميناه بالنقد، وأصبحت له الغلبة لأننا نشترى بالنقد كلَّ شيء ، لكن المعنى الأصلى للمال هو كلّ ما يُتموَّل .

---

(١) قال الليث : الجوح من الاجتياح . وهى سنة جائحة جدبة ونزلت بفلان جائحة من الجوائح . وقال الشافعى : جماع الجوائح كل ما أذهب الثمرة أو بعضها من أمر سماوى بغير جناية آدمى . (تهذيب اللغة ٥/٨٨) .

ثم يذكر الحق سبحانه صفةً أخرى ، فيقول تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ ﴾

الإيمان بيوم الدين هو أساس الدين ، لأن الذى لا يؤمن بالآخرة يفعل ما يشاء ، فما دام يعتقد أنه ليس هناك آخرةٌ ، وليس هناك حساب فممَّ يخاف ؟ ومن أجل مَنْ يقيد حركته فى الحياة ؟

إن الدين بكلِّ طاعاته وكل منهجه قائم على أن هناك حساباً فى الآخرة ، وأن هناك يوماً نقف فيه جميعاً أمام الله سبحانه وتعالى ، ليحاسب المخطيء ويثيب الطائع ، وهذا هو الحكم فى كلِّ تصرفاتنا الإيمانية .

فلو لم يكُنْ هناك يوم يُحاسب فيه ، فلماذا نصلى ؟ ولماذا نصوم ؟ ولماذا نتصدَّق ؟

ومن عدل الله سبحانه أن هناك يوماً للحساب ، لأن بعض الناس الذين ظلموا وبغوا فى الأرض ربما يفلتون من عقاب الدنيا ، هل هؤلاء الذين أفلتوا فى الدنيا من العقاب ، هل يفلتون من عدل الله ؟

فـ (يوم الدين) هو يوم الجزاء على الطاعة وعلى المعصية .

والحق سبحانه هنا لا يقول : والذين يؤمنون بيوم الدين ، بل يقول سبحانه:

﴿ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) ﴾ [المعارج]

فالتصديق شيء فوق الإيمان .

والرسول ﷺ يقول : « الايمانهم ما وقر فى القلب وصدَّقه العمل »[1] .

فهم يصدِّقون لإيمانهم بأعمالهم وهو أنْ يُتعب نفسه ويبذل ماله للسائل

(١) قاله الحسن البصرى : ليس الإيمان بالتحلى ولا بالتمنى ، ولكن ما وقر فى القلب وصدقته الأعمال . ذكره ابن تيمية فى كتاب الإيمان (١/ ٢٣٠) مسنداً .

والمحروم ، طمعاً فى المثوبة الأخروية .

فمعنى ﴿ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) ﴾ [المعارج] أى يوقنون بالميعاد والحساب والجزاء ، فهم يعملون عملَ مَنْ يرجو الثواب ويخاف العقاب .

فمجرد الإيمان بالقلب والنطق باللسان وإنْ كان يُنجى من الخلود فى النار إلا أنه لا بدَّ من تصديق هذا بالعمل بمقتضى إيمانه .

والمصدِّق يستمر فى تصديقه إلى أنْ يصبح صِدِّيقاً من الصِّديقين ، ومثالنا فى هذا أبو بكر الصديق ، صدِّيق لماذا ؟ لأنه هو المبالغ فى تصديق كلِّ ما يقوله سيدنا رسول الله .

فعندما قالوا لسيدنا أبى بكر : إن صاحبك يدَّعى أنه أتى بيت المقدس وعاد فى ليلة ونحن نضرب إليها أكباد الإبل ، ماذا قال أبو بكر ؟ قال : إنْ كان قال ذلك لقد صدق [1].

لم يُعلِّل صدقه إلا بـ « إنْ كان قد قال ذلك » فهذا هو الصِّدِّيق الحق ، فكلما قال محمد شيئاً صدّقه أبو بكر ، وأبو بكر لم ينتظر حتى ينزل القرآنُ مصدِّقاً للرسول ﷺ ، بل بمجرد أنْ قال ﷺ : إنِّى رسول . قال أبو بكر : نعم إذن فهو صدِّيق .

هؤلاء ﴿ الَّذينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) ﴾ [المعارج] تصديقهم بهذا اليوم سببٌ لصفتهم التالية : ﴿ وَالَّذينَ هُمْ منْ عَذَاب رَبِّهِمْ مُشْفقُونَ (٢٧) ﴾ [المعارج]

فهم رغم أنهم من ﴿ الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذينَ هُمْ عَلَى صَلاتهِمْ دَائمُونَ (٢٣) ﴾ [المعارج] ورغم أن فى أموالهم حقاً معلوماً للسائلين والمحرومين ، وأنهم

---

(١) أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٣٦١) عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : لما أسرى بالنبى ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك ، فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه ، وسعوا بذلك إلى أبى بكر فقالوا : هل لك فى صاحبك يزعم أنه أسرى به فى الليل إلى بيت المقدس . قال : أو قال ذلك ؟ قالوا : نعم . قال : لئن كان قال ذلك لقد صدق . قالوا : وتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح قال : نعم إنى لأصدقه بما هو أبعد من ذلك ، أصدقه بخبر السماء فى غدوة أو روحة . فلذلك سُمى أبو بكر الصديق . الحاكم فى مستدركه (٣/٦٢) وصححه .

يؤمنون ويُصدِّقون بيوم الدين إلا أنهم مشفقون من عذاب الله .

فهم خائفون وجِلون خشيةً من الله ، والإشفاق الخوف لكنه خوف يصاحبه الحذر مما تخاف ، فالخوف من الله مصحوبٌ بالمهابة ، والخوف من الساعة مصحوبٌ بالحذر منها ، مخافة أنْ تقوم عليهم قبل أنْ يُعِدُّوا أنفسهم لها إعداداً كاملاً يُفرحهم بجزاء الله ساعةَ يلقونه .

هم مُشفقون من عذاب ربهم ، والحق سبحانه يعطينا حيثية ذلك في قوله :

﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) ﴾ [المعارج]

فلا يستطيع إنسانٌ أنْ يقطع بأنه أدى الواجبات كما ينبغي ، ولا اجتنبَ المحظورات كما ينبغي ، بل قد يكون قد وقع منه تقصيرٌ في أحد الجانبين .

فعذاب الله غير مأمون ، فلا يأمن من عذاب الله تعالى إلا مَنْ غرَّته نفسه ، وظنَّ أنه ناجٍ لمجرد عمله ، ورسول الله يقول : « لا يدخل أحدكم الجنة بعمله ، إلا أنْ يتغمَّده الله برحمته ، قالوا : حتى أنت يا رسول الله . قال : حتى أنا »[(١)].

فذنوبُ الإنسان في الدنيا كثيرة ، إذا حكم فقد يظلم ، وإذا ظنَّ فقد يسيء ، وإذا تحدث فقد يكذب ، وإذا شهد فقد يبتعد عن الحق ، وإذا تكلم فقد يغتاب .

ولا يمكن لأحد منَّا أنْ ينسب الكمالَ لنفسه حتى الذين يبذلون أقصى جهدهم في الطاعة لا يصلون إلى الكمال ، فالكمال لله وحده ورسول الله ﷺ يقول : « كلُّ بني آدم خطَّاء ، وخير الخطائين التوابون »[(٢)].

والحق سبحانه يقول : ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩) ﴾ [الأعراف]

والأمن هو الاطمئنان إلى قضية لا تثير مخاوف ولا متاعب ، والذي يأمن مكر الله هو الخاسر .

---

(١) عن أبي هريرة قال قال رسول الله : « قاربوا وسددوا فإنه ليس أحد منكم ينجيه عمله . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل» . أخرجه البخاري (٤٣) و (١١٥١) ومسلم (٧٨٥) وابن ماجه (٤٢٣٨) والترمذي (٣٠٧٣) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (٤٢٥١) وأبو محمد الكشي في المنتخب من مسند عبد بن حميد (١١٩٧) والبزار في مسنده (٧٢٣٦) والروياني في مسنده (١٣٦٦) من حديث أنس بن مالك .

فعذابُ النار أيضاً غير مأمون ، فلا تستهنْ بالأمر ، فلا أحد يضمن شيئاً .

ثم يذكر الله عز وجل صفة أخرى فيقول :

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

الفروج جمع فرج والمقصود سَوْءَتا كل من الرجل والمرأة ، وقد أمر اللهُ بحفظها على المهمة التى خُلقت لها ، وعلى الإنسان أنْ يحفظ فرجه على ما أحلّه له .

والله يريد أنْ لا يلتقى رجلٌ وامرأة إلا على نور من الله وهدى من شريعته الحكيمة ، لأنه عز وجلَّ هو خالق الإنسان ، وهو أعلم بما يُصلحه وهو خالقُ ذراته .

فلا بدَّ أنْ يلتقى الزوجان على ما شرع الله فى وضح النهار ، لا أنْ يندس كلٌّ منهما على الآخر فى ظلمة الإثم ، فيحدث المحظور الذى تختلط به الأنساب ، ويتفكك رباط المجتمع .

و ﴿ حَافِظُونَ (٢٩) ﴾ [المعارج] فيها الحفظ والصيانة ، وجاءت بصيغة فاعل كاسم ، والاسم دائماً يعبر عن الثبات والديمومة ، ولكى نعرف الفرق علينا أنْ ننظر إلى قوله تعالى بالنسبة للصلاة :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) ﴾ [المعارج] عبر هنا بالفعل ، وهو أقلُّ درجةً فى الديمومة والثبات ، فقد تحافظ أياماً ولكنك لا تحافظ على الصلاة على وقتها ، وفى المسجد أياماً أخرى لظروف قد تعرض لك .

أما حفظ الفروج والعورات عن ملابسة الفاحشة فهذا لا بدَّ أنْ يكون صفة

ثابتة لا تنفكّ عنك مهما كانت المغريات والظروف ، فهى أمر يمسُّ الأعراض والشرف فلا يصلح معه إلا ﴿ حَافِظُونَ (٢٩) ﴾ [المعارج]

ولكن هذا الحفظ وهذه الصيانة لا يُستثنى منها إلا صنفان من النساء :

﴿ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) ﴾ [المعارج]

أى إلا من أزواجهم اللاتى أحلَّ الله لهم من الأربع ، وهذا يقتضى تحريم ما يُسمَّى بزواج المتعة المؤقت بوقت ، فهى ليست بزوجة ولا هى ملك يمين .

وقد يسأل سائل : الحق سبحانه استخدم هنا لفظة (على) ولم يستخدم (عن) مع أنه مطلوب من الرجل حفظ فرجه إلا عن أزواجه لا على . نقول : على هنا بمعنى (عن) وقد يكون متعلقاً بمحذوف تقديره : فلا يرسلون فروجهم إلا على أزواجهم .

والحق سبحانه استثنى هنا صنفين هما الأزواج وملْك اليمين . وقد قال رسول الله : « احفظْ عورتك إلا من زوجتك »[(١)] .

فكلُّ فرْج سوى الزوجة ومِلْك اليمين هو حرام ، مع عدم الجمع بين الأختين، أو بين المرأة وعمتها أو خالتها.

وهذه الآية ومثيلتها فى سورة المؤمنون خاصة بالرجال ، فالنساء لا يسوغ لهن الاستمتاع بمِلْك أيمانهن من العبيد .

وقد حدث على أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنْ تسرَّت[(٢)] امرأة غلاماً فذكرتْ لعمر رضى الله عنه فسألها : ما حملك على هذا ؟ فقالت : كنتُ أرى أنه يحلّ لى ما يحلّ للرجال من مِلْك اليمين .

فاستشار عمر رضى الله عنه أصحاب النبى ﷺ فقالوا : تأولتْ كتاب الله

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٤٠١٧) وابن ماجه فى سننه (١٩٢٠) ، وأحمد فى مسنده (٢٠٠٣٤) (٢٠٠٤٠) من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه قال لرسول الله : يا رسول الله عوراتنا ما نأتى منها وما نذر ؟ قال : احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك » الحديث .

(٢) التسرِّى هو أن يعاشر الرجل ملك يمينه معاشرة الأزواج ، وهذا إن كان يجوز للرجل نحو أمته فإنه لا يجوز من المرأة نحو عبدها لأنه فى وضع أقل منها ، هذا عند وجود نظام ملك اليمين .

على غير تأويله[1] . أى لا حدَّ عليها لأن التأويل يدرأ الحد .

فعاقبها بأنْ لا يحلها لحُرٌ بعده أبداً ، وأمر العبد أنْ لا يقربها .

فعلى الإنسان أنْ يحفظ فرجه إلا على الزوجة أو الزوجات أو مِلْك اليمين .

﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ (٣٠) ﴾ [المعارج] ومِلْك اليمين حلال ولكن لم يعُدْ له موضع ولم يعُدْ له وجودٌ الآن ، فلم يَعُدْ هناك إماء كما كان قبل الإسلام ، فهذا حكم معطل لم يعُدْ له مدلول .

وفرق بين أنْ يُعطل الحكم لعدم وجود موضوعه وبين أنْ يُلغى الحكم ، فمِلْك اليمين حكم لم يُلْغ ، الحكم قائم إنما لا يوجد له موضوع ، يتم تفعيل حكمه عندما يوجد مرة أخرى فى أرض الواقع .

والبعض يحاول أنْ يُشكك المسلمين فى دينهم وقرآنهم ، فيقول : لو أن الإسلام فعلاً يريد تحرير الإنسان من العبودية والرقّ ، فلماذا ذكر مِلْك اليمين؟ ولماذا لم ينسخ هذه الآيات كما نسخ غيرها ؟

نقول : الإسلام كافح الرقَّ والعبودية وجاء ليحرر العبيد ورتَّب أحكاماً على مَن ارتكب ذنباً بوجوب فكِّ رقبة أى إعتاق عبد .

فمَنْ قتل مؤمناً على سبيل الخطأ عليه أنْ يحرر رقبة ، قال تعالى : ﴿ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ (٩٢) ﴾ [النساء]

حتى اليمين المنعقدة المغلَّظة إذا أراد المؤمنُ الرجوعَ فيها كان أحد إمكانات تحليله من هذا القسم هو تحرير رقبة .

قال تعالى : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ[2] فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ..(٨٩) ﴾ [المائدة]

---

(١) أخرجه الطبرى فى تفسيره (١١٢٧٧) عن قتادة أن امرأة اتخذت مملوكها (أى أمكنته من نفسها وتسرت به كأنه زوج لها) وقالت : تأولت كتاب الله (أوما ملكت أيمانهم) قال : فأتى بها عمر بن الخطاب فقال له ناس من أصحاب النبى : تأولت آية من كتاب الله على غير وجهها . قال : فغرَّب العبد وجز رأسه (أى قص شعره) وقال : أنت بعده حرام على كل مسلم .

(٢) عقد الأيمان وتعقيدها : توكيدها بالقصد والتصميم . قال الخازن فى تفسيره (٢/ ٧٢) لكن يؤاخذكم بما تعمدتم وقصدتم به اليمين .

حتى مَنْ يقول لامرأته أنتِ حرام عليَّ كظهر أمي ، يقول تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) ﴾ [المجادلة]

فتحرير الرقِّ والعبودية عالجه الإسلام ، حتى تشريعه لمِلْك اليمين هو فى حدٍّ ذاته علاجٌ لظاهرة الرقِّ ، وقد يستغرب البعض هذا ، ثم إن تشريع مِلْك اليمين هو إعزازٌ وإكرامٌ للمرأة التى كانت تُسبى فى الحروب .

فالمرأة المسبيّة فى الحروب كانت قبل الإسلام لا ضمانات لها ، يأخذها المقاتلون المنتصرون يفعلون بها ما يشاؤون من اغتصاب وغيره ، وقد يكون اغتصاباً جماعياً ، وقد يقتلونها فى النهاية .

أما فى الإسلام فى أثناء تلك الحروب فكان يضع المرأة المسبيَّة فى عُهْدة رجل معين يطعمها ويسقيها ويُلبسها ويعتنى بها فى مقابل خدمتها له .

فإذا حدث وتسرَّى بها وحملتْ منه أصبحت أم ولد ، فتُعتق من أجل ولدها، لذلك لا بد من التأكد أنها غير حامل أولاً .

وإذا كان السَّبى شريعة المتحاربين حينها ، ووُضِع هذا التشريع لمواجهة أمرٍ موجود ومتجذِّر فى الواقع ، وقد يعود فى أزمان أخرى لا نعلمها فلا بدَّ من أنْ يكون التشريع موجوداً لعلاجه حينما يعود السَّبى ، وهذا من عظمة القرآن ودليل على أبديته إلى أنْ تقوم الساعة .

فهذا أمر يُحسَب للقرآن وللإسلام ولا يُحسب عليه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) ﴾ [المعارج] فإنهم لا يُلامون. إذا لم يحفظوا فروجهم لأزواجهم أو ما ملكتْ أيمانهم ، إنما يلامون فى غير ذلك.

وذِكْر الفروج فى أول الآية يجعل اللوم منعقداً لمن أتى امرأته فى دبرها فى غير الموضع الذى جعله الله وهيَّأه للنكاح ولإتيان الولد .

فإنهم لا يُلامون على الحلال ، فلا لوْمَ عليهم فى ذلك ولا إثم ، إنما اللوم

على مَنْ تجاوز هذا وتعدَّى .

لذلك يقول الحق سبحانه بعدها : ﴿ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١) ﴾ [المعارج]

﴿ فَمَنِ ابْتَغَى (٣١) ﴾ [المعارج] أى فمَنْ طلب وأراد ، ولكن ابتغى فيها معنى السعى إلى الشيء بإلحاح ، وقد يكون هذا لأنه خارج عن حدود الشيء الطبيعى، فهو يسعى وراء أمر قد حرَّمه الله ، يسعى وراء أنْ يعصى الله خارج إطار الزواج، وخارج إطار ملْك اليمين .

﴿ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَٰلِكَ (٣١) ﴾ [المعارج]

كلمة وراء تأتى فى القرآن بمعانٍ كثيرة ، وهى هنا بمعنى (غير) أى : فمَن ابتغى غير ذلك ، ولكن هنا فى الآية كلمة (وراء) تؤدى معنى أعمق من كلمة (غير) .

فقد يكون أحد الرجال عنده الزوجة حليلته وزوجات ، وعنده ملك يمين ، ولكن قد يبتغى وراء ذلك كله ، أى أكثر من ذلك كله فتجده يبتغى الحرام مع وجود الحلال عنده فى جانب ، وتجده يأتى امرأته فى دُبرها رغم أنَّ حلاله عنده .

فكلمة (وراء) تحتمل المعنيين معاً ، معنى (غير) ، ومعنى (فوق) .

لذلك قال تعالى عن هؤلاء المبتغين وراء ذلك ﴿ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١) ﴾ [المعارج] أى أولئك الزُّناة هم العادون المتخطون حدود ما أمر الله به أو نهى عنه ، فهم المتجاوزون من الحلال إلى الحرام .

ثم ينقلنا الحق سبحانه إلى أمر آخر فيقول :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

الأمانة كل ما استُؤمنت عليه ، وأول شيء استؤمنت عليه هو عهدُ إيمانك بالله الذى أُخذ عليك وأنت فى ظهر آدم عليه السلام .

فهناك أمانةٌ للحق سبحانه يجب أنْ تُؤدِّيها ، وهناك أمانات للخَلْق ، وكلٌّ من هذه الأمانات تستوجب منك أنْ تؤديها إلى أصحابها على الوجه الأكمل وأنْ تراعيها .

أما العهد فكلُّ ما يتعهد به الإنسان في غير معصية ويلزمه الوفاء بما عاهد به ، لأنك حين تعاهد إنساناً على شيء فقد ربطت حركته وقيَّدتها في دائرة إنفاذ هذا العهد .

فإذا أخلفتَ عهدك ووعدك له فقد أطلقت نفسك في زمنك ، وتصرفت حسب راحتك، وقيَّدت حركتي أنا في زمني وضيَّعت مصالحي وأربكت حركة يومي ، لذلك شدد الإسلام على مسألة خُلْف الوعد .

ومعنى الأمانة هو ما يكون لغيرك عندك من حقوق وأنت أمينٌ عليها إنْ شئتَ رددتها وإنْ شئتَ لم تردها ، فأنت تقول : أنا أودعتُ عند فلان أمانة ، هذه الأمانة لو كانت بإيصال لما كانت أمانة ، لأن هناك دليلاً ، ولو كان ما أودعته عند ذلك الإنسان عليه شهود لا تكون أمانة .

فالأمانة أنْ تُودع عنده شيئاً وضميره هو الحكم إنْ شاء أقرَّ بما عنده لك حين تطلبه ، وإنْ شاء لم يُقر به ، قال الحق : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ[1] أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا (٥٨) ﴾ [النساء]

ورسول الله ﷺ يقول : « أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخُنْ مَنْ خانك »[2].

فأداء الأمانة إلى أهلها من أعظم القربات إلى الله ، فكونوا لها راعين ،

---

(١) فأبين : رفضْن . الإباء : الرفض وعدم الانصياع والامتناع عن فعل شيء .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٣٥٣٥) ، والبزار في مسنده (٩٠٠٢) والطبراني في المعجم الأوسط (٣٥٩٥)، والحاكم في مستدركه (٢٢٩٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

والرعاية هنا أنْ تبقى قائماً على الأمانة حتى تؤديها ولا تحاول أنْ تدخل فى باب من أبواب الحيل للاستيلاء عليها ، ولأكل أموال الناس بالباطل .

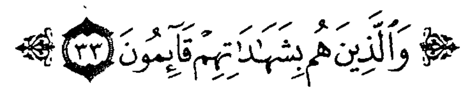
فإنَّ الحيل تؤدى إلى اضطراب العهود والأمانات ، ولا تكون هناك ثقة لا فى عهد ولا فى وعد ولا فى متحمل لأمانة ، وبهذا يضطرب المجتمع ، ويفقد أفراده الثقةَ فى أنفسهم .

ونلحظ أن الحق سبحانه هنا نسب الأمانات والعهود إلى من تحمَّل هذه الأمانات والعهود فقال : ﴿ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ (٣٢)﴾ [المعارج] فما دُمتم قد تحملتموها فقد أصبحتْ ملازمةً لكم تلزمكم وأصبحتم مسئولين عنها تؤدونها كاملة غير منقوصة عند طلبها أو مجيء موعدها .

وكأنَّ الحق سبحانه يقول لهم : هى تلزمكم وإنْ لم يكُنْ عليها دليل أو وثيقة تلزمكم بها ، والحق سبحانه وصفهم بأنهم يرعوْنَ أمانة الله عندهم ، ويرعوْنَ أمانات الناس لديهم ، ويرعوْن عهودهم قِبَلهم ، فلا يُخلُّون بشيء من حقوقها.

والمتأمل فى هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢)﴾ [المعارج] والآيات قبلها ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ(٣٠) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١) ﴾ [المعارج]

المتأمل فى هذه الآيات يجد رابطاً يربط بينها ، فكلٌّ من الفروج والأمانات والعهود ينبغى أنْ تُحفظ وتُراعى حقَّ رعايتها ، ومَنْ لم يحفظ الأمانات والعهود فهو ملوم كما هو شأن مَنْ لم يحفظ فرجه ، ومَن ابتغى ما لا يحلّ له من الفروج عادٍ معتدٍ ، كذلك الباغى على الأمانة غير الملتزم بعهده ووعده وعقده فهو عادٍ ظالم .


﴿ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ (٣٣) ﴾

بدأت الآيات المفصّلة لمنهج الله بالمصلين الذين هم على صلاتهم دائمون، أناس أتقياء عبادٌ لله ، لا يتركون صلاة بل يتطوعون من الصلوات النوافل وقيام الليل وأنواع العبادات التى يظهر فيها مقام الإحسان .

ثم إنهم يعطفون ويشفقون على الفقراء والمساكين من السائلين والمحرومين فيتصدَّقون عليهم ويجعلون لهم حقاً فى أموالهم ، وما هذا إلا لأنهم يخافون رباً ويخشون عذابه ويتقون ناره ، فهم من عذاب ربهم مُشفقون .

ثم إنهم محافظون على فروجهم عفيفون لا يقتربون من حرام ، فيحفظون فروجهم إلا على أزواجهم أو ماملكتْ أيمانهم ، ثم إنهم يراعون الأمانات التى ائتمنوا عليها ، ويحافظون على عهودهم التى قطعوها على أنفسهم .

كل هذا يجعل من الإنسان عبداً ربّانياً لله سبحانه ، سَمْتُه سَمْتُ المؤمنين الصادقين ، ولكن هناك ما هو الأهم ، التنفيذ العملى لمنهج الله فيه ، وهو قوْلُ الحق وشهادة الحق .

يقول تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (٣٣) ﴾ [المعارج] فالشهادة احتكاكٌ بمجتمع لتشهد فيه وتعرف ما يحدث ، والشهادة هى الإخبار بمشاهد، والقاضى يسأل الشهود لأنهم رأوا الحادث فيروون ما شاهدوا ، وأنت حين تروى ما شاهدت فكأن الذين سمعوا أصبح ما وقع مشهوداً وواقعاً لديهم .. وشاهد الزور يُغيِّر الواقع .

والحق سبحانه يقول : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰٓ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥) ﴾ [النساء]

وحين تكون شاهداً بالقسط والعدل لا يتمادى ظالمٌ فى ظلمه ، فالذى يجعل الظالم يشتدّ ويستشرى ظلمه ويتفاقم شرُّه هو أنه يجد مَنْ يدلسون على العدالة ويسترون ويخفون العيوب ويخادعون الناس .

لكن لو وُجد الإنسان الذى يُنير طريق العدالة لما وُجد ظلم ، لكنَّ الظالم يحب

مَنْ يدلس عليه ، فيقول لنفسه : إنَّ فلاناً ارتكب جريمة مثل جريمتى ونال البراءة .

وتدليس الشهادة يقود إلى خراب المجتمعات ، ولو أن المجتمع حينما يرى أنَّ شهادة أفراده هى شهادةٌ بالقسط وشهادة بالعدل ، فإنَّ كلَّ فرد فى المجتمع إذا همَّ بظلم يرتدع قبل أنْ يفعل الظلم ، ولكان الظالمُ ينال عقابه ويصير مثالاً لارتداع غيره .

والمؤمن مُطالبٌ بالقيام لله بإصلاح ذاته ، ومطالبٌ ثانياً أن يشهد بالقسط والعدل لإصلاح غيره .

وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد طلب منا أنْ يكون قيامنا بالشهادة مبالغاً فيه ، أى ألاَّ نترك فرصة لشهادة الحق والقسط إلاَّ وانتهزناها ، ليأخذ كلّ إنسان حقَّه فلا يقدر قويٌّ أنْ يظلم ضعيفاً ، لأن الضعيف سيجد أناساً يشهدون معه بالحق .

وإقامة الشهادة هى شهادة الحق لا اعتداء ولا جَوْرَ فيها ، وأنْ تأتى الشهادةُ على الوجه الصحيح لها .

والشهادة الحق تتطلب أمرين : الأول هو حضور الشاهد لحظة وقوع المشهود به ، والثانى هو أمانة النقل .

فلا تشهد على شيء لم تشهده ولم تحضره ، وإذا رأيتَ شيئاً فلا تحرفه وانقله بأمانة بالعدل والصدق ، فأنت إذا شهدت الزور ضيعتَ صاحب الحق ، وضيعتَ حقه ومصلحته .

فإذا دُعيتَ للشهادة فلا تتقاعس ، لأن مَنْ يكتم الشهادة فهو آثم قلبه ، ولا تشهد إلا بالحق الذى شهدته فى الواقع ، فإذا دعيت فقُم بها على وجه الحق الذى يرضاه الله .

فشهادة الزور ركنٌ من أركان فساد المجتمعات كلها ، لأنها لا تجعل المؤمن مطمئناً على حقِّه ، فشهادة الزور جماع لكلِّ حيثيات الظلم ، وتهدم كل قضايا

الحق فى المجتمع .

فقوْل الزور شهادةٌ بغير الحق وتقلب الحقائق وتضر بالمجتمع ، لأنك حين تشهد بالزور تأخذ الحق من صاحبه وتعطيه لغيره ، وهذا يؤدى إلى تعطُّل حركة الحياة ، وتجعل الإنسان لا يأمن على ثمار تعبه وعرقه ، فيحجم الناس عن السعى والعمل ما دامت المسألة زوراً فى النهاية .

لذلك قال النبى ﷺ : « ألاَ أُنبئكم بأكبر الكبائر ؟ الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور ، وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس ، فما زال يكرِّرها حتى قلنا : ليته سكت »[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

بدأت آيات الحديث عن منهج الله بالصلاة ﴿ إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) ﴾ [المعارج]، وانتهت بالكلام عن الصلاة أيضاً ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) ﴾ [المعارج]

وذلك لعِظَم الوصية بالصلاة ، فالصلاةُ إعلانٌ إيمانيّ لله كل يوم خمس مرات، نترك كل ما فى الدنيا ونتجه إلى الله بالصلاة ، إنها عماد الدين وأساسه.

فالصلاة عمدة أركان الإسلام وقد اشتملتْ على كلِّ الأركان ، وهى إدامةُ ولاء العبودية للحق سبحانه ، وتهب المؤمنين الاطمئنان ، وهى علامة الخضوع لله عز وجل .

الصلاة تجعلك منضبطاً مع منهج الله ، وتنهاك عن مخالفته والتمرد عليه ، أما ترك الصلاة فمعناه أنك تمردت على إعلان العبودية والولاء للحق .

والمحافظة على الصلاة فعلها لوقتها ، ويحافظون على وضوئها ومواقيتها وركوعها وسجودها ويراعون شرائطها ويُكملون فرائضها وسننها

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢٠٣٨٥) ، والبخارى فى الأدب المفرد (١٥) ، والبزار فى مسنده (٣٦٢٩) من حديث أبى بكرة رضى الله عنه .

ومستحباتها .

وهذا شيءٌ غير الدوام على الصلاة ، فالدوام عليها عدم تركها حتى يمرّ وقتها ، فهو مثل قول رسول الله : « إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان »[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ٣٥ ﴾

﴿ أُولَـئِكَ (٣٥) ﴾ [المعارج] إشارة إلى ما سبق من المؤمنين المصلين المتصدقين المصدِّقين بيوم الدين المشفقين من عذاب ربهم الحافظين لفروجهم إلا على أزواجهم أو ما ملكتْ أيمانهم ، المراعين لأماناتهم وعهودهم القائمين بشهاداتهم المحافظين على صلاتهم .

كل أولئك ﴿ فِي جَنَّات (٣٥) ﴾ [المعارج] إخبار عن أولئك أنهم فى جنات ، وتكون (مكرمون) خبراً ثانياً ، ويحتمل أنْ تكون (فى جنات) ظرف مكان لـ (مكرمون) أى أن محل الإكرام ومكانه هو (فى جنات) ، فتكون (مكرمون) خبراً . فيكون تقدير الآية : أولئك مكرمون فى جنات .

لفظة (مكرمون) وردت فى القرآن ثلاث مرات ؛ أحدها قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) ﴾ [الأنبياء] وهؤلاء هنا هم الملائكة ، لصفاء عبادتهم لربهم وإخلاصهم لربهم وطاعتهم المطلقة .

ثم مرتان فى حقِّ مَنْ أكرمهم الله لأنهم استحقوا هذا ، فقال تعالى : ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُولَـئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (٤١) فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) ﴾ [الصافات]

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه (٨٠٢) ، والهيثمى فى موارد الظمآن (٣١٠) ، والبيهقى فى شعب الإيمان (٢٦٨٠) ، والسنن الكبرى (٤٩٨٨) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

وهنا فى المعارج قال : ﴿ أُولَـٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ (٣٥) ﴾ [المعارج]

أهناك إكرام أكثر من أنهم يشابهون الملائكة فى أنهم (مكرمون) تتألق وجوههم بنضرة النعيم ، فلا يلحقها قتر ، ولا تلحقها ذلة وانكسار .

وقد ذكر لنا الحق سبحانه مظاهر إكرامهم وتكريمهم ، فقال تعالى فى سورة الصافات : ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (٤٥) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ[١] وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ (٤٧) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (٤٩) ﴾ [الصافات]

والإكرام لا يقتصر على هذا بل يشمله ويشمل غيره « ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »[٢].

وإذا ما التزم العبد بمنهج ربه فى حال الاختيار ، فهو لا يتساوى مع الملائكة فقط ، بل قد يسمو عنهم لأنهم مقهورون بالتسخير ، بينما تتمتع أنت بالاختيار وآثرت منهج ربك .

فهم يدخلون الجنة مُدْخلاً كريماً ، وأعدَّ لهم أجراً كريماً .

والمدخل الكريم يتناسب مع مَنْ يُدخلك فى مدخله ، فانظر إلى المدخل الكريم من الله وما شكله ؟ حتى ثوابه وأجره سبحانه كريم ، والذى يُوصف بالكرم الذى أعدَّ الأجر ، فوصف الأجر بأنه كريم يعنى أن الكرم تعدَّى من الرب سبحانه الذى أعده إلى الأجر نفسه ، حتى صار الأجرُ نفسه كريماً.

هذا عمَّنْ اتبع منهج الله وثوابهم وأجرهم وعظيم مقامهم فى الجنة ، فماذا

---

(١) غوْل : لا تغتال عقولهم وصحتهم فتذهب بعقولهم وقيل لا إثم فيها ولا وجع البطن ولا صداع

(٢) أخرج أحمد فى مسنده (٨٨٢٧) وابن حبان فى صحيحه (٣٦٩) والطبرانى فى المعجم الأوسط (٢٠٠) عن أبى هريرة أنه قال قال رسول الله ﷺ « من يدخل الجنة ينعم لا يبؤس ولا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه، فى الجنة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

عمَّنْ كفر بالله ورسوله وكتابه ؟

قال تعالى :

﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ ٣٦

عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ٣٧ ﴾

﴿ مُهْطِعِينَ (٣٦)﴾ [المعارج] جمع مُهطِع . والمهطع هو مَنْ يظهر من فَرْط تسرُّعه وكَأَنَّ رقبته قد طالت ، فالمهطع هو مَنْ فيه طول .

فهم مسرعون فى الابتعاد عنك وعن دعوتك نافرين معرضين ، مثل قوله تعالى عنهم : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) ﴾ [المدثر]

والحق سبحانه هنا يعطينا صورة لما كان عليه حال الكافرين برسول الله، وقد نزلتْ الآية فى جماعة منهم كانوا يجتمعون حول رسول الله يسمعون كلامه ويستهزئون به ويكذِّبونه .

فوصف الحق سبحانه صنيعهم وموقفهم من رسول الله ودعوته بهاتين الآيتين ، أناس معرضون عن رسول الله ولكنهم يجتمعون حوله فى حِلْق ومجموعات متفرقة غير مقبلين عليه ﷺ، بل يجلسون البعض عن اليمين والبعض عن اليسار .

كل ما يفعلونه أنهم مادُّون أعناقهم إلى رسول الله لا يستمعون إليه بل هم يسخرون منه ويستهزئون ، وكأنهم يقولون : ماذا يقول هذا الرجل ؟

فهم لا يسرعون (قِبَلك) أى تجاهك ليسمعوا ما تقول ويهتدوا إنما فقط ليستطلعوا فى دهشة ثم ينصرفوا عنك متحلِّقين فى حِلَق متفرقة ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ (٣٧)﴾ [المعارج]

﴿ أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٍٕ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ٣٨

كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ ٣٩ ﴾

عند كل واحد منهم أمل كاذب بأنهم سينالون جنة النعيم فى النهاية ، كيف وهم لم يكونوا من المؤمنين بالله ورسوله وكتابه القرآن فلم يلتزموا بمنهج الله، لأنهم كفروا به وردُّوا الأمر على الآمر .

ففى أيِّ شيء يطمعون ؟ ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣) ﴾ [النساء]

والأمانيّ جمع أمنية وهو أنْ يطمح الإنسان إلى أمر ممتع مسعد بدون رصيد من عمل ، فماذا قدمتم من إيمان أو عمل ؟

والطمع شيء فوق الأمنية والأمانى ، وقد ذكر الحق سبحانه أحد هؤلاء الطامعين ، فقال تعالى : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) ﴾ [المدثر]

أعطاه الله كلَّ شيء ، خلقه وحيداً لا أحد معه ولا شيء له ، وجعلتُ له مالاً لا نهاية له من كل ما يُطلق عليه مال ، وجعلت له أولاداً بنين كما كان يريد وهم بنين شهود ، أى يشهدون معه أندية القوم ويخرجون فى التجارة أناساً بالغين، أعطاه من كل شيء ، ثم هو يطمع أنْ يزيد نعمة وقوةً وثراء أكثر .

وأنت إذا أردتَ أنْ تطمع فى شيء من الضرورى أنْ تكون عندك مؤهلات ما تطمع فيه ، إذ كيف تتمنى شيئاً أو تطمع فى شيء لا تعمل من أجله ، ولا تملك ما يجعلك مستحقاً له ؟

وقد ذكر الحق سبحانه أناساً مؤمنين يطمعون ، قال تعالى عنهم أنهم يقولون : ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا (٥١) ﴾ [الشعراء] ولكنهم ذكروا حيثية طمعهم هذا وسببه ﴿ أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١) ﴾ [الشعراء]

أما هؤلاء الذين عاندوا الحق وأصروا على الكفر فإنهم يطمعون أنْ يُدخلوا جنة نعيم ، ولاحظ أنَّ الفعل مبنيٌّ للمجهول (يُدخَل) ، فكلّ منهم يعرف جيداً أنه لم يعمل شيئاً يستحق أنْ يدخل به الجنة فذكر الفعل للمجهول ، إنه يريد أنْ

يدخله أحدٌ الجنة .

﴿ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ (٣٩) ﴾ [المعارج]

إنْ كانوا يسخرون من نبيي ورسولى محمد ، ويستهزئون بكتابى القرآن ويقولون لو كان هناك جنة لأدخلنا الجنة مع مَنْ آمن بها يقولون هذا استهزاء وسخرية .

كلا ، ليس لهم أنْ يطمعوا في جنة نعيم ، فليس لهم فيها نصيب يقول تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ(١) الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) ﴾ [الأعراف]

من أيِّ شيء يسخرون ويستهزئون وقد خلقناهم مما يعلمون ، من ماء مهين من نطفة ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى (٣٧) ﴾ [القيامة]

وقد تفل رسول الله ﷺ على يده وقال : يقول الله تعالى : « ابن آدم أنَّى تُعجزني لقد خلقتُك من مثلِ هذه»(٢) .

وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٢٠) ﴾ [المرسلات]

إنهم يعرفون من أيِّ شيء خلقناهم ، فلا مفر لهم من الاعتراف بالخالق الذى خلقهم ، وقد قال قتادة فى هذه الآية : خُلقت من قذر يا بن آدم فاتق الله(٣) .

لقد خلقتكم من الماء المهين الذى يعلمونه فلم يتكبرون ؟ ولم يعرضوا ؟

---

(١) سم الخياط : ثقب الإبرة . وهو من أضيق المنافذ ، فكان ولوج الجمل مع عظم جسمه فى ثقب الإبرة الضيق محالاً .

(٢) روى البغوى بإسناد الثعلبى عن بُسْر بن جحاش قال قال رسول الله ﷺ وبصق يوماً فى كفه ووضع عليه إصبعه فقال : يقول الله عز وجل : يا ابن آدم أنَّى تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك وعدلتك ومشيت بين بردين والأرض منك وئيد فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقى قلت أتصدق وأنَّى أوان الصدقة » ذكره الخازن فى تفسيره (٤/٣٤٢) . وهو فى سنن ابن ماجه (٢٧٠٧) وأحمد فى مسنده (١٧٨٤٢).

(٣) أخرجه عبدالرزاق فى تفسيره (٣٣٣٢) والطبرى فى تفسيره (٢٣/ ٦٢١) عن قتادة من طريق بشر عن يزيد عن سعيد ، وأورده الكرمانى فى تفسيره (غرائب التفسير وعجائب التأويل) (٢/ ١٢٥٤)

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) ﴾ [الطور] ولن يستطيعوا أنْ يقولوا أنهم خُلِقوا من غير شيء ، ولن يستطيعوا أنْ يقولوا أنهم هم الخالقون .

لذلك يسألهم الحق سؤالاً ثالثاً ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) ﴾ [الواقعة] وهذا أيضاً لن يستطيعوا أنْ يقولوا أنهم صانعوه أو خالقوه .

فكيف تدَّعون أنكم ستدخلون جنة نعيم وتتألوْن على الله وتدعون التقدم على المؤمنين الصادقين وأنكم ستجتمعون معهم في الجنة ، إنَّ هذا في حقيقة الأمر إساءة أدب منكم نحو الله ، لأنكم بهذا تصفون الله بالظلم ، إذ كيف يجمع بينكم وبين مَنْ آمن به سبحانه في الجنة .. لا تستوون .

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَٰرِقِ وَالْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ (٤٠) عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١) ﴾

كل مكان على الأرض له مشرق وله مغرب ، فالشمس حين تشرق عندي تغرب عند قوم آخرين ، وحين تغرب عندي تشرق عند قوم آخرين ، إذن فمع كلِّ مشرق مغربٌ ومع كل مغرب مشرق ، فيكون هناك مشرقان ومغربان .

لذلك قال تعالى : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) ﴾ [الرحمن]

ثم إن الشمس لها مشرقٌ كل يوم ومغرب كل يوم يختلف عن الآخر ؛ وفي كل ثانية هناك شروق وغروب ، إذن فالقسم هنا ﴿ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ (٤٠) ﴾ [المعارج] لأن المشارق والمغارب تختلف على مدار السنة .

فقوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) ﴾ [المعارج] إشارة إلى اختلاف مطالع الشمس وتنقلها في كل يوم ، بالإضافة إلى ما

يتضمنه الشروق والغروب فى حَدِّ ذاتهما من المنافع والفوائد للإنسان وبقية الأحياء .

وقد وسَّع بعض العلماء الكلام فى هذا مثل البغوي[1] فقال : أراد الله تعالى أنه خلق للشمس ثلاثمائة وستين كوّة فى المشرق ، وثلاثمائة وستين كوة فى المغرب على عدد أيام السنة ، تطلع الشمس منها من ذلك اليوم إلى العام المقبل، فهى تغرب فى كوَّة منها لا ترجع إلى الكوّة التى تطلع الشمس منها من ذلك اليوم إلى العام المقبل فهى المشارق والمغارب [2].

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠)﴾ [المعارج]

قوله تعالى (إنَّا) عبارة عن (إنَّ) التى للتوكيد والنصب . و (نا) التى تعبر عن العظمة أصلها (إننا) .

﴿ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠)﴾ [المعارج] فنحن قادرون على إهلاكهم وعلى أنْ نخلق أمثلَ منهم وأطوعَ لله وأرضى منهم .

﴿ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ (٤١)﴾ [المعارج] فهل أبدلهم الله بخير منهم ، البعض قال بدَّل الله بهم الأنصار والمهاجرين . وقال آخرون : بل بدَّل الله كفر بعضهم بالإيمان .

والبعض قال : إنه لم يحدث التبديل أصلاً ، لأن الإبدال يكون بطريق الإهلاك، وإنما هدَّد تعالى القوم بذلك ليؤمنوا .

وقد قال تعالى فى حقِّ الذين يُعرضون عن الإنفاق فى سبيل الله : ﴿ وَإِنْ

---

(١) البغوى : هو الحسين بن مسعود الفراء أو ابن الفراء أبو محمد ويلقب بمحى السنة ، فقيه محدث مفسر، نسبته إلى (بغا) من قرى خراسان بين هراة ومرو . ولد عام ٤٣٦ هـ وتوفى ٥١٠هـ عن ٧٤ عاماً . له (التهذيب) فى فقه الشافعية . و (شرح السنة) فى الحديث . و (لباب التأويل فى معالم التنزيل) فى التفسير . [الأعلام لخير الدين الزركلى ٢/٢٥٩]

(٢) أخرجه الطبرى فى تفسيره (٢٣/٢٨٣) والثعلبى فى تفسيره (الكشف والبيان) (٨/١٣٩) والبغوى فى تفسيره (٤/٢٦) .

تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨) ﴾ [محمد]

فالله غنى وقادر بقدرته المطلقة أن يستبدل بالقوم البخلاء قوماً يسخون بما أفاء الله عليهم من رزق فى سبيل الله ، فالذى يمسك عن العطاء إنما منع عن نفسه باب رحمة .

ومَنْ يرتد يستبدله الله ، قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ..(٥٤) ﴾ [المائدة]

فمَنْ يتراجع منكم عن الإسلام فسيأتى الله بعوض عنه ، وسيأتى بقوم لن يكونوا مثل هؤلاء المرتدين .

وهذا ليس معناه إهلاك غير المنفق ، أو إهلاك المرتد ، بالعكس قد يزداد غير المنفق مالاً ويصبح أكثر سلطاناً وجاهاً وأتباعاً ، وكذا المرتد قد يزداد شهرةً ومالاً .

فالتبديل هنا معناه الطرد من رحمة الله ، وأنهم قد تُودِّع منهم ، كما أنك تنفض يديك من شخص لم يقبل نصيحتك عدة مرات وأصرَّ على السير فى طريق الخطأ تجد مَنْ يقول لك : دعْكَ منه .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « إذا رأيتم أمتى تهاب الظالم أنْ تقول له : إنك أنت ظالم . فقد تُودِّع منهم »[1] .

﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١) ﴾ [المعارج] فما نحن بعاجزين ولا مغلوبين ، فلا يفوتنا شيءٌ نريده ، ولا يمتنع منا أحد ، فلسنا عاجزين عن إبدالهم بآخرين ثم لا يكونوا أمثالهم .

فلا أحدَ يسبق إرادة الله أو مشيئته أو يعجزها عن أنْ تصل لمرادها ، فهو

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٦٥٢١، ٦٧٨٤٢) وكذا البزار فى مسنده (٢٣٧٤ ، ٢٣٧٥) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٤٣١٤ ، ١٤٣٥١) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص .

سبحانه ربُّ المشارق والمغارب ، وهذا ليس محدوداً بالأرض التى نعيش عليها فقط ، فالأرض هى كوكب من تسعة كواكب ضمن مجموعة شمسنا ولكن هناك مجموعات شمسية تُعد بالملايين ضمن مجرات فى الفضاء الواسع.

كل مجموعة شمسية لها شمسٌ تشرق وتغرب ، فالله إنما هو للكون كله، وليس رباً لأرضنا وحدنا وشمسنا وحدنا ، من هنا فهو ﴿ رَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ (٤٠)﴾ [المعارج] القادر القدير الذى لا يُعجزه شيء .

﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٤٢) ﴾

﴿ فَذَرْهُمْ (٤٢) ﴾ [المعارج] أمر بأنْ يدعهم ويتركهم ، ويستعمل من (ذرهم) فعل مضارع هو (يذر) ، ولم يستعمل منها فى اللغة فعل ماض إلا فيما رُوى من حديث رسول الله ﷺ : « ذروا اليمن ما ذروكم » أى : اتركوهم ما تركوكم.

ويشارك فى هذا الفعل فعل آخر هو (دع) بمعنى : اترك . وقيل : أهملت العرب ماض (يدع) و (يذر) إلا فى قراءة فى قول الحق سبحانه : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) ﴾ [الضحى]

والمعنى : ذرهم لى أنا أتولى عقابهم وأفعل بهم ما أشاء ، أو ذرهم يفعلون ما يشاءون ليستحقوا العقاب وينزل بهم العذاب .

﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا(٤٢)﴾ [المعارج] كلمة (يخوضوا) تعطى معنى واضحاً مجسَّماً ، لأن الأصل فى الخوض أنْ تدخل فى مائع أى سائل مثل الخوض فى المياه أو الطين .

فكلمة (الخوض) تُشعرنا بالدخول فى الماء الكثير ، والماء الكثير ساتر لما تحت قدمى الذى يخوض فيه ، وما دام قد ستر ما تحت قدميه فهو لا يدرى إلى أيِّ موقع تقع قدماه ، وربما وقعتا فى حفرة ، أما الذى يسير فى غير ماء فالطريق واضح أمامه يضع قدميه حيث يرى فيها ثباتاً واستقراراً وعدم

إيذاء.

﴿ وَيَلْعَبُوا (٤٢) ﴾ [المعارج] اللعب هو شغل النفس بشيء غير مطلوب ، فما يفعلونه لعب لن يستطيع الصمود أمام الدعوة ، فالدعوة سائرة فى طريقها ولن يتمكنوا منها أبداً ، فكلّ الذى يصنعونه هو خوض فى باطل ، ولعب لا جدوى منه ، ولا صلة له بالجد ، بل هو هزل .

وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) ﴾ [الأعراف]

فنهارهم هو حركة غير مُجدية وغير نافعة بل هى لعب فى الحياة الدنيا ، وليلهم نوم وفَقْد للحركة أو عبث ومجون وانحراف ، وكل مَنْ يسير على غير منهج الله يقضى ليله نائماً أو لاهياً عاصياً ، ونهاره لاعباً .

ويقول تعالى : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) ﴾ [الأنبياء] فهم لايعطونه اهتماماً ، ولا يلقون له بالاً ، وهم يتعمدون هذا ويُوصى بعضهم بعضاً به ويُحرِّضون عليه .

﴿ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ (٤٢) ﴾ [المعارج]

ذرهم فى خوضهم ولعبهم وعمايتهم حتى يلاقوا يوم القيامة الذى وُعدوه، ولاحظ أن الحق سبحانه يقول (يلاقوا) أى أنهم هم الساعون للقاء هذا اليوم رغم أنهم يفرُّون منه ويكرهون لقاءه وينكرونه .

ثم إنه ﴿ يَوْمَهُمُ (٤٢) ﴾ [المعارج] فينسب اليوم إليهم ، فلن تستطيعوا منه فكاكاً ولا مفراً ، وهو يومهم الذى ينتظرهم لإيقاع الجزاء بهم على كفرهم وعدم إيمانهم ، وسوف يُلاقون فيه مصيرهم .

﴿ الَّذِى يُوعَدُونَ (٤٢) ﴾ [المعارج] أوعدهم الله به على لسان جميع رسله ، أنَّ

هناك يوماً للحساب والجزاء .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ (١) سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

ماذا سيحدث فى ذلك اليوم الموعود الذى يُوعدون به ؟ ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا (٤٣) ﴾ [المعارج] ففى هذا اليوم العظيم الهول يُنفخ فى الصور النفخة الثانية ، فيخرج الناس جميعاً من أجداثهم ، أى يخرجون من قبورهم.

يقول تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ (٥١) ﴾ [يس] أى يُسرعون ، وهى نفسها كلمة (سراعاً) التى ذُكرتْ هنا فى سورة المعارج .

وانظر إلى عظمة تصوير الحق سبحانه لهذا المشهد ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ (٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣) ﴾ [يس]

إنها الحقيقة التى طالما كذَّبوا بها ، وماتوا وقُبروا وفى يقينهم أنهم لن يُبعثوا ، وأنه لا وجود ليوم يقومون فيه من قبورهم ويعودون للحياة مرة أخرى ، فإذا بهم تنشقّ قبورهم عن أجسادهم ويجدون أنفسهم أحياء رغماً عنهم ، وإذا بهم يصرخون داعين على أنفسهم بالويل ، فقد ظهر أنهم كانوا على الباطل .

﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) ﴾ [يس] فيقول لهم الله ، أو تقول لهم الملائكة ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ

---

(١) الأجداث : القبور . واحدها جدث . [كتاب العين للخليل بن أحمد ٦/٧٣] .

﴿ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) ﴾ [يس]

وانظر إلى القوة فى إحضار هؤلاء رغماً عنهم ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣) ﴾ [يس] ومُحضر اسم مفعول من أحضر . يعنى أُجبر على الحضور والمثول بين يدى الله للحساب .

ولن يفلت منهم أحد ﴿ وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢) ﴾ [يس]

ويصف الحق سبحانه خروجهم بتنسيل القماش . فيقول ﴿ يَنْسِلُونَ (٥١) ﴾ [يس] فهم فى سرعتهم فى الخروج كتنسيل القماش .

ويضيف الحق سبحانه هنا الوصف إيضاحاً ، فيقول تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) ﴾ [المعارج]

والنُّصُب الشيء المنصوب ، وهى من الكلمات التى وردت مفرداً ووردتْ جمعاً ، وهى فى الأصل حجارة كانت منصوبة حول الكعبة يذبح عليها المشركون الذبائح تقرّباً للآلهة .

فالنُّصب عَلَم يُنصب ويُوقف يستبق العابدون له إليه ، كذلك إسراع هؤلاء واستباقهم وانطلاقهم ، وفى هذه الحركة خروج من القبور وإسراع فيه قلق واضطراب على مصيرهم .

ولكن هل هم يسرعون مبتهجين فرحين ، تعلو وجوههم الفرحةُ لأنهم سيقابلون خالقهم الذى آمنوا به ؟

إنهم ليسوا من هؤلاء ؛ إنهم ممَّنْ كفر بالله وجحد أمر الله ورفضوا منهج الله وتمرّدوا عليه وعلى مَنْ يحمله ، فقتلوا الأنبياء وقتلوا ورثة الأنبياء من العلماء والدعاة .

وقد قال رسول الله : « العلماء ورثة الأنبياء »[1] .

هم فى البداية يخرجون فزعين مضطربين أعينهم زائغة تذهب فى كلٍّ مكان

---

(١) جاء من حديث طويل أخرجه أبو داود فى سننه (٣٦٤١) وابن حبان (٨٠) وابن ماجه فى سننه [illegible]

تستطلع ما يحدث غير مصدِّقة أنهم قاموا من قبورهم ، إنهم فى مشهد مهيب ، مليارات الجثث الآدمية تقوم من أجداثها ، لا يعرف أحدٌ منهم مصيره .

وهذه هى اللحظات التى قال الله فيها : ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) ﴾ [النور]

يعنى رجفة القلب واضطراب حركته ، وما ينتابه من خفقان شديد ، وكذلك تضطرب الأبصار وتتقلب هنا وهناك ، لأنها حين ترى الفزع الذى يخيفها تتقلب ، تنظر هنا وهناك علَّها ترى ما يُطمئنها أو يخفِّف عنها ما تجد .

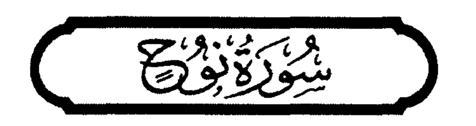
لكن هيهات فلن ترى إلا فزعاً آخر شديداً أشدّ وأنكى ، عندما يتأكد من مصيره المحتوم تجده ذليلاً منكسراً ، هنا يأتى وصف الحق سبحانه الذى معنا فى هذه الآية : ﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ (٤٤) ﴾ [المعارج]

فأبصارهم ذليلة منكسرة حيث لا مفرَّ ولا منجى ، ووجوههم ترهقهم ذلة ، أى تغشاهم ذلَّة ويكسو وجوههم هوان عند تحقُّق عذابهم .

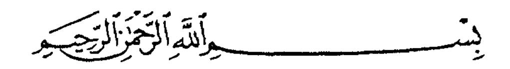
﴿ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) ﴾ [هود]

ثم يُنهى الحق سبحانه سورة المعارج بقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ (٤٤) ﴾ [المعارج]

يكرر الحق سبحانه أن ذلك اليوم هو الذى أوعدناهم إياه على لسان جميع الرسل من لدن آدم حتى خاتم المرسلين محمد ، فليس لكم حجة ، حذرناكم يومكم هذا وحذرناكم هذا الموقف ، فما استجبتم لوعيدنا ، وما اهتممتم بالإيمان بما نقول فظلمتم أنفسكم ، وها أنتم واجهتم ما كنتم تكذِّبون .


سُورَةُ نُوحٍ

سورة نوح (١)



﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ ﴾

قصة سيدنا نوح من القصص التى وردت كثيراً فى القرآن الكريم مثل قصة موسى عليه السلام ، ومن العجيب أنَّ لقطات القصة تنتشر فى بعض السور، لكن السورة التى سُمِّيت بسورة نوح ليس فيها من المواقف التى تعتبر من عيون القصة ، تعالج لقطات أخرى .

تعالج سورة نوح إلحاحه فى دعوة قومه ، وأنه ما قصَّر فى دعوتهم ليلاً ونهاراً وسِراً وعلانية ، كلما دعاهم ابتعدوا ، ولم تأتِ قصة السفينة فى سورة نوح ، ولا قصة الطوفان ، وهذه لقطات من عيون القصة ، وكذلك لم تأتِ فيها

(١) سورة نوح هى السورة رقم (٧١) فى ترتيب المصحف الشريف ، نزلت بمكة وهى مُحكمة ليس فيها ناسخ ولا منسوخ . وهى ٢٨ آية نزلت بعد سورة النحل وقبل سورة إبراهيم . ونوح هو نوح بن لامك ابن متوشلخ بن إدريس بن يرد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم (بينه وبين آدم ٨ آباء) .

قصته مع ابنه ، بل جاء بها فى سورة هود .

إذن كل لقطة جاءت لوضع مقصود ، ولهذا رأينا قصة نوح فى سورة نوح وقد خلتْ من عناصر مهمة فى القصة ، وجاءت هذه العناصر فى سورة هود أو فى سورة الأعراف .

إذا كان الحق سبحانه قد أنهى سورة المعارج السابقة على سورة نوح التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، إذا كان قد أنهاها بتأكيد أنه سبحانه قد أوعد وأنذر الناس جميع الناس بيوم الحساب ، وأنهم لا بد أنه آتٍ ولا ريب .

إذا كان هذا فإن الحق سبحانه يبدأ سورة نوح بإعطائنا مثالاً لهذا الإنذار وهذا الإيعاد على لسان نبى ورسول من رسله ، فخصَّص سورة لرسوله نوح عليه السلام .

وبدأ السورة بتأكيده على أنه أرسل نوحاً إلى قومه أنْ ينذرهم وينبههم قبل أن يأتيهم عذاب أليم ، قد يكون هو الطوفان الذى حدث فى الدنيا ، وقد يكون الإنذار بيوم القيامة الذى يُجمع له الناس .

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ (١)﴾ [نوح] فرسالة نوح عليه السلام كانت لقومه، وكذلك إبراهيم ولوط وشعيب وصالح عليهم السلام ، كلُّ هذه رسالات كان لها وقتٌ محدود تمارس مهمتها فى الحياة ، حتى يأتى الكتاب ، وهو القرآن الكريم الجامع لمنهج الله سبحانه .

ونوح رسول ككلِّ الرسل أُوحى إليه بتوحيد الله عز وجل ، وقال تعالى : ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ[1] وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣)﴾ [النساء]

---

(١) الأسباط جمع مفرده سبط وهم أولاد بنى إسرائيل اثنا عشر سبطاً كل سبط قبيلة ، وهم بنو يعقوب عليه السلام إخوة يوسف . والأسباط من بنى إسرائيل كالقبائل من العرب . [جمهرة اللغة للأزدى]، [معجم ديوان الأدب للفارابى ١/١٨٧] .

﴿ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) ﴾ [نوح] أى حذِّر قومك ونبِّههم وأنذرهم قبل أَنْ يحلّ بهم عذاب أليم ، عذاب عاجل وهو الطوفان فى حقِّ قوم نوح ، وعذاب آجل وهو عذاب الآخرة لمن مات دون أنْ يتوب من كفره بأنْ يؤمن بالله العظيم .

وكلمة ﴿ أَنْ أَنْذِرْ (١) ﴾ [نوح] أصلها : بأنْ أنذر . لأن تقدير الكلام : أرسلنا نوحاً بأنْ أنذر . ولكن حُذف الجار وأوصل الفعل. والمعنى : أرسلنا نوحاً بأن قلنا له : أنذر .

ولكن لماذا أنذر فى هذه الآية ؟ نقول : نوح عاش فى قومه داعياً إلى الله تسعمائة وخمسين عاماً ، ووصل معهم كما نقول إلى طريق مسدود ، وما آمن معه بعد كل هذه المدة الطويلة إلا ثلاث عشر رجلاً وامرأة .

فالحالة التى كان قوم نوح قد انتهوا إليها من إعراض واستكبار وعناد وضلال تجعل الإنذار هو أنسب ما تلخص به رسالته .

لقد وصل الأمرُ بنوح عليه السلام أنْ دعا على قومه دعاءً مؤلماً ، سيأتى فى هذه السورة : ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) ﴾ [نوح] أى : لا تُبقى على أحد منهم ، ولا تذر منهم نسمة إلا أهلكتها .

والعذاب الأليم هنا هو الطوفان والغرق فى مياهه ، وهذا هو الأرجح لأنه استخدم هنا لفظة (يأتيهم) ، الطوفان هو الذى سيأتى إليهم ، أما عند الحديث عن اليوم الآخر قال فى سورة المعارج قبل بضعة آيات : ﴿ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ (٤٢) ﴾ [المعارج]

هم الذاهبون لملاقاة عذاب الآخرة فى يوم القيامة ، لا أنه سيأتى إليهم ، أما الطوفان فإنه سيأتى إليهم ويدخل عليهم بيوتهم ويغرقها ويُغرق أرضهم ويأخذ فى طريقه كل شيء من مواشيهم وأموالهم إلا ما أخذه نوح معه فى السفينة .

وهو عذابٌ أليم مؤلم لهم سيفقدون فيه كل شيء ، أرواحهم وبيوتهم وأولادهم وأموالهم وماشيتهم وأرضهم .

ثم يقول تعالى :

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ ﴾

كلَّف الحق سبحانه نوحاً بالرسالة وبإنذار قومه ، وقد دعا نوح قومه كما دعا أيّ رسول قومه (قال ياقوم) ، والقوم مجتمع أناس ، وكلمة (قوم) إذا سمعتها ففيها معنى القيام ، والقيام هو أنشط حالات الإنسان .

والقوم هم الجماعة وعادة يُطلق على الرجال لأنهم أهل القيام بالمهمات، وحين تجد القرآن تجد كلمة (قوم) وتفهم أن المقصود منها الجماعة التى تربطهم رابطة .

والقوم هم الرجال خاصة من المعشر ، لأن القوم عادة هم المواجهون للرسالة ، والمرأة محتجبة ، تسمع من أبيها أو أخيها أو زوجها .

والقرآن يقول : ﴿ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ (١١) ﴾ [الحجرات] فالنساء لا يدخلن فى القوم، فالقوم هم المواجهون للرسول ومنهم تأتى المتاعب والتصلُّب فى الرأى ، ويكون الإنكار والجحود والحرب منهم في الأغلب .

وقد خاطب نوح قومه فقال: ﴿ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) ﴾ [نوح] فبدأ هنا بالنذارة ، أما فى سورة الأعراف فقد بدأ بمطلوب رسالته ثم النذارة ، فقال : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) ﴾ [الأعراف]

فنوح أراد هنا أنْ ينبههم إلى عظيم ما سيدعوهم إليه فقال : ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢) ﴾ [نوح] أي نذير واضح . وهو نفس ما قاله نوح لقومه في سورة هود، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٥) ﴾ [هود]

ونحن نلحظ أن همزة (إن) في إحدى قراءتي الآية تكون مكسورة ، وفي قراءة أخرى تكون مفتوحة ، أما في القراءة بالكسر فتعني أن نوحاً عليه السلام قد جاء بالرسالة فبلَّغ قومه وقال : ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٥) ﴾ [هود]

وأما القراءة الأخرى فتعني أن الرسالة هي : أني لكم نذير مبين فكأنَّ القراءة الأولى تعني الرواية عن قصة البلاغ ، والقراءة الثانية تحدد مضمون الرسالة: ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٥) ﴾ [هود]

وكما قلنا فإن النذير هو مَنْ يخبر بشرٍّ لم يأت وقته بعد ، حتى يستعدّ السامع لملاقاته ، والإنذار إنما يكون للعاصي أو الكافر ، أما المؤمن فله بشير يخبره بخير قادمٍ ليستعد السامع أيضاً لاستقباله بنفس مطمئنة .

﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) ﴾ [نوح] فرسالة نوح عليه السلام لقومه ثلاثة أمور : عبادة الله ، تقواه ، طاعة نوح فيما أمره الله به .

فاعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، وقد جاء الأمر بها بعد (أنْ) التفسيرية، كما في قوله تعالى : (وأوحينا إلى أم موسى) ماذا ؟ ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ (٧) ﴾ [القصص]

والعبادة أنْ نطيع الله بفعل ما أمر وبترك ما نهى عنه وزجر ، فالعبادة معناها التزام بأمر فيُفعل ، ويُنهى عن أمر فلا يُفعل ، لذلك إذا جاء مَنْ يدعي الألوهية وليس معه منهج نقول له : كيف نعبدك ؟ وما المنهج الذي جئتَ به ؟ بماذا تأمرنا ؟ عن أيِّ شيء تنهانا ؟

وقد كان قوم نوح من عُبَّاد الأصنام من دون الله ، فقد كانوا يعبدون وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً ، وهؤلاء كانوا رجالاً صالحين فلما ماتوا صنعوا

لهم تماثيل ليتذكروا صلاحهم برؤيتهم لتماثيلهم ، فلما تقادم الزمن عبدوهم من دون **الله** .

لذلك كانت رسالة نوح لهم ﴿ **أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ** (٣)﴾ [نوح] **أى اعبدوا الله** وحده لا شريك له وخافوا من **الله** واخشوا عقابه وهذه هى تقوى **الله** ، لذلك قال لهم نوح ﴿ **وَاتَّقُوهُ** (٣)﴾ [نوح] **أى اتقوا الله** واتقوا عقابه وجزاءه ، فاتخذوا من الإيمان به سبحانه ردءاً ووقاية لكم من عقابه لكم .

﴿ **وَأَطِيعُونِ** (٣) ﴾ [نوح] **لم يقل** : وأطيعوه . أى أطيعوا **الله** ، فطاعتهم لنوح هى طاعة **لله** ، فقال (وأطيعون) لأنِّى أنذركم عقاب **الله** وأريد لكم الخير ، فأطيعونى حتى لا يقع بكم عذاب **الله** .

وكل الرسل خاطبوا أقوامهم نفس الخطاب ، فهود عليه السلام خاطب قومه عاداً فقال :﴿ **إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ** (١٠٧) **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ** (١٠٨) ﴾ [الشعراء]

وقالها صالح لقومه ثمود ، وقالها لوط لقومه ، وقالها شعيب لقومه أصحاب الأيكة .

ثم يقول :

﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) ﴾

هذه الآية الكريمة يوردها الحق سبحانه كنتيجة وثمرة لعبادة **الله** وحده وتقواه وطاعته ، فثمرة ذلك ﴿ **يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ** (٤) ﴾ [نوح]

وهذه الآية بهذا النظم جاءت في آيات أخرى منها ﴿ **قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى** (١٠) ﴾ [إبراهيم]

فلم يقل تعالى : يغفر لكم ذنوبكم ، لأنه إنما يخاطب كافرين ، بينما يخاطب

الحق سبحانه المؤمنين فيقول: ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ (١٢) ﴾ [الصف]

فالله لا يساوى فى خطابه بين المؤمنين والكافرين .

﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى (٤) ﴾ [نوح] الأجل هو الزمن المضروب ، والمقرر للحدث ، وهو مقصود به هنا يوم القيامة ، فهذا الأجل هو انقضاء الدنيا وقيام الآخرة .

﴿ إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) ﴾ [نوح]

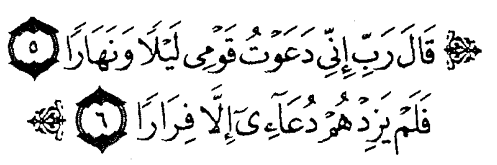
فأكده بـ (إِنَّ) ، ولفظة الأجل جاءت فى القرآن فى مواضع كثيرة منها ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) ﴾ [الأعراف] ، وهنا ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ (٤) ﴾ [نوح]

والأجلان مختلفان بالنسبة للحضور الحياتى للإنسان ، فالأجل الأول يُنهى الحياة الدنيا ، والأجل الآخر يعيد الحياة فى الآخرة للقاء الله عز وجل . فالأجلان مرتبطان .

وأجل الله سواء كان الذى يُنهى الحياة الدنيا ، أو الذى يعيد الحياة يوم القيامة لا يُؤخَر ، فأجل الله الذى قد كتبه على خَلْقه فى أم الكتاب إذا جاء عنده لا يُؤخَّر عن ميقاته ، ولا يستطيع أنْ يؤخره أحد .

﴿ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) ﴾ [نوح] أى لو كنتم تعلمون ما يحلّ بكم من الندامة عند انقضاء أجلكم لآمنتم ، لبادرتم إلى عبادته وتقواه وطاعتى فيما جئتكم به منه تعالى .

ولأن قومه لم يستجيبوا توجَّه بخطابه إلى الله عز وجل :


﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦ ﴾

دعوة نوح لقومه كانت مستمرة على مدار اليوم ليلاً ونهاراً ، لم يقصر فى دعوتهم ، ولم يكتم عنهم نصحه وإرشاده ، ولكنهم لم يستجيبوا ، فها أنا ذا ياربى قد بلَّغت رسالتى ، وأتوجه إليك ربى ، وأبرأ إليك من صنيعهم .

فدعوتُ قومى ليلاً ونهاراً إلى توحيدك وعبادتك وحذّرتهم بأسك وسطوتك.

﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) ﴾ [نوح] فاستخدم الحق سبحانه (الفاء) التى تقتضى التعقيب وتفيد الإلحاح عليهم ، وقد ظل سيدنا نوح قرابة ألف سنه يدعو قومه ليلاً ونهاراً ، سراً وعلانية ، لكنهم كانوا يفرون من الإيمان .

لذلك يأتى الحق سبحانه فى أمر دعوة نوح بالفاء التى تدل على المتابعة ، وهم لم تزدهم متابعة نوح على مدى تسعمائة وخمسين سنة إلا كفراً وعناداً وتباعداً من الإيمان .

فدعائى لم يزدهم إلا فراراً مما دعوتُهم إليه .

﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ⑦ ﴾

يستمر نوح عليه السلام فى شكايته لربه التى تمثلت فى أنه كلما دعا قومه لعبادة الله وحده وتقواه فعلوا فعلة تدلُّ على شدة إعراضهم عن دعوة نوح وإصرارهم على كفرهم .

﴿ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ (٧)﴾ [نوح] ومن البداهة أنْ نعرف أن الإصبع لا تدخل كلها إلى الأذن ، إنما الأنملة تسُد فقط فتحة السمع .

وعدَّل القرآنُ ذلك بمبالغة تكشف موقف نوح عليه السلام ، فكلٌّ منهم أراد أنْ يُدخل إصبعه فى أذنه حتى لا يسمع أيَّ دعوة ، وهذا دليل كراهية ، وهذه

شهادة ضدهم لأنهم يفهمون أنهم لو سمعوا فقد تميل قلوبهم لما يُقال .

وأهل الباطل دائماً لا يحبون أنْ يسمعوا صوت الحق ، وأول شيء يفعلونه هو سدّ آذانهم عن سماع الحق ، إمَّا بأن يصمُّوا آذانهم أو بمنع أهل الحق من الكلام أو بقتلهم .

وقد حدث أن مشركى مكة تواصوا فيما بينهم ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِـهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ (٢٦)﴾ [فصلت] فتواصوا بالتشويش على القرآن ثقةً منهم فى أن القرآن لو تناهى إلى الأذن فقد يؤثر فى نفسية السامع ، ولو كان هذا القرآنُ باطلاً فلماذا خافوا من سماعه ؟

وهم لم يكتفوا بوضع أصابعهم فى آذانهم ، أى أطراف أصابعهم حتى لا يسمعوا ، وقد كان هذا يكفى ليتحققِ غرضهم في عدم سماع نوح ودعوته .

لكنهم أيضاً ﴿ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧)﴾ [نوح] أى غطوا رؤوسهم بثيابهم ، فهم لا يريدون سماعه فقط ، بل إنهم أيضاً لا يريدون رؤيته .

فهم ﴿ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ (٧)﴾ [نوح] لئلا يسمعوا كلامه ﴿ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ (٧)﴾ [نوح] لئلا يروه.

فالحق سبحانه يرسم لنا صورة مرتبطة بالسياق الواردة فيه ، لتصوير إعراض قوم نوح عن الدعوة ورفضهم لها ، فاستخدم كلمة ﴿ أَصَابِعَهُمْ (٧)﴾ [نوح] للإيحاء بشدة إعراضهم ومبالغتهم فى ذلك إلى الحدِّ غير المعقول ، وهو محاولتهم إدخال الأصابع كلها فى الآذان .

وتكملة لهذه الصورة المعرضة عن السماع أضاف إليها الحق سبحانه إعراضهم عن رؤية مَنْ يكلمهم أيضاً فقال : ﴿وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ (٧)﴾ [نوح]

وقد كانوا مُصرِّين على الإعراض عن دعوة نوح لهم ، فقال تعالى :

﴿ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧)﴾ [نوح]

وقد كان نوح يأتى أصنامهم ليلاً وينادى بأعلى صوته : يا قوم قولوا : لا إله إلا الله وإنى نوح رسول الله . فتنكَّس الأصنام ، وكانوا يضربون نوحاً ضرباً شديداً ، ويدوسون بطنه حتى يخرج الدم من أنفه وأذنيه[1] .

وكان الرجل منهم عند وفاته يُوصى أولاده ويأخذ عليهم العهد ألاَّ يؤمنوا به ، ويأتى الرجل بابنه إلى نوح ويقول : يابنيّ انظر إلى هذا ، فإن أبى حملنى إليه وحذرنى منه فاحذره أنْ يزيلك عما أنت عليه فإنه ساحر كذاب .

وقد كان هذا على تتابع القرون كل عقد وكل قرن يوصى الذى بعده أنْ لا يؤمن بنوح وأن يحذره الأجداد يوصون الآباء ، والآباء يوصون الأبناء وهكذا.

فهم أصروا على كفرهم إصراراً رغم كل ما بذله نوح عليه السلام من محاولات مضنية أنْ يؤمنوا أو يعطوا لأنفسهم الفرصة لأنْ يسمعوا .

ولكنهم ﴿ وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ﴾ [نوح] فحقَّ عليهم عذاب الله لأنهم تأبوا وعاندوا وأخذتهم العزة بالإثم ، وأرادوا بالاستكبار الهرب من الالتزام بالمنهج الذى جاءهم به الرسول ﷺ .

واستكبر وتكبَّر وكل ما جاء على وزن (تفعَّل) يدل على أن كبرهم هذا غير ذاتى ، لأن تكبُّرهم واستكبارهم سرعان ما يزول وينمحى ، وقوم نوح لم يستكبروا فقط بل استكبروا استكباراً .

فاستكبارهم فاق الحد والتصور ، لذلك استحقوا عذاباً لم يُعذَّبه أحدٌ من قبلهم ولا من بعدهم فكان الطوفان ، رسول يبقى فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ومع ذلك لا يؤمنون ، فاستحقوا دعاء نوح عليهم بالإبادة والاستئصال واستجاب الله له .

ونوح إنما دعاهم لعبودية الله وحده ليغفر لهم الله ، فقال : ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ (٧) ﴾ [نوح] ، فهو لم يدعهم لمصلحة ذاتية له ، بل ليغفر لهم

---

(١) أورده شهاب الدين النويرى (ت ٧٢٣ هـ) فى كتابه (نهاية الإرب فى فنون الأدب) (١٣/ ٤٤ ، ٤٥)

الله كفرهم وإعراضهم ، أى أن إيمانهم سيعود عليهم هم بالمنفعة ، أنْ يغفر الله لهم ويرحمهم فلا يقع بهم عذابه ، بل يفيض الله عليهم من وافر نعمه على عباده المؤمنين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ ﴾

يُبرِّيء نوح عليه السلام ساحته من أنْ يكون قد قصَّر في دعوته لقومه ، أو أنه فرَّط فيما أمره الله به ، فرغم إعراضهم عن نوح وجَعْلهم أصابعهم في آذانهم حتى لايسمعوه واستغشائهم ثيابهم حتى لا يروه. وليس هذا فقط ، بل ﴿وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧)﴾ [نوح]

رغم هذا لم ييأس نوحٌ واستمر في دعوتهم ، فيقول :﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ﴾[نوح] أي أنني ثم بعد ذلك دعوتُهم جهراً في أسواقهم وطرقهم، ولم أخْشَ سخريتهم بي ولا اعتداءهم عليَّ .

جهاراً : مجاهراً بدعوتي بأعلى صوتي لا أُخفضه ولا أخافت به، بل ظاهراً في غير خفاء ، فالجهار الكلام المعلن به ؛ فصرختُ بهم داعياً لهم وصِحْتُ بالذي أمرتني به من الإنذار .

فنوحٌ عليه السلام إنما أرسله الله بإنذار قومه ، قال :

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ (١) ﴾ [نوح]

فقد دعوتُهم يارب إلى الإيمان علانيةً من غير خُفْية، بل أظهرتُ لهم الدعوة .

﴿ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) ﴾ [نوح] جرَّبتُ معهم كلَّ أنواع وأساليب دعوتهم إلي الإيمان ، إعلاناً وإسراراً، دعوةً علنية على الملأ

ودعوةً سرية في إسرار بيني وبين أفراد قومي .

وكلمة (إسْراراً) مصدر فيه معنى التوكيد ، وتُعرب مفعولاً مطلقاً ، واستخدام كلمة (لهم) تعطينا لفتةً في أن نوحاً كان يودُّ إيمانَ قومه وكان حريصاً عليهم ، فالنَّظْم القرآني أتى بـ (لهم) وكررها ليعطي معنى إلحاح نوح عليهم ورغبته في إيمان قومه ، فهم في باله طوال الوقت .

بل إنه تعدَّى هذا إلى أنه كان يرغب في مغفرة الله لهم ، فكان يوصي قومه باستغفار الله ، ولكن كيف وهم لايؤمنون بالله إلهاً مستحقاً وحده بالعبودية ، فكانوا يشركون معه أوثاناً لا تضر ولا تنفع ، ولا تسمع ولا تبصر .

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) ﴾ [نوح] لقدأراد نوح أنْ يرحم قومه بأنْ يجعلهم يستغفرون ربهم ، فالاستغفار توبة وإقرار واعتراف بالذنب .

فهَبَ أنَّ الله لم يشرع التوبة والاستغفار وأذنب واحدٌ ذنباً ، وبمجرد أنْ أذنب ذنباً خرج من رحمة الله ، فماذا يصيب المجتمع منه ؟ إنَّ كل الشرور تصيب المجتمع من هذا الإنسان لأنه فقد الأمل في نفسه فيصبح أكثر شراً وعدوانية وأكثر ذنوباً .

فالاستغفار إقرارٌ بالتقصير وارتكاب الذنوب ، وساعة تطلب المغفرة من الله تعالى فهذا إعلانٌ منك بالإيمان ، وبأن تكليفه سبحانه تكليف حق .

ومادام استغفر الله فعليه أنْ لا يعود إلى ذنب أبداً ، وأنْ يحرص على تجنُّب المعاصي والذنوب .

واعلموا أنكم عندما تستغفرون إنما تستغفرون (ربكم) الذي خلقكم وأوجدكم في الدنيا ، وهو يتولاكم برزقه وعنايته ورعايته ، فإذا وقفتم ببابه مستغفرين لم يردكم خائبين .

﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) ﴾ [نوح] كلمة (غفار) أعلى صيغ المبالغة مبالغةً، فهناك غافر بصيغة اسم الفاعل ، يقول تعالى :

﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ (٣) ﴾ [غافر]

فهناك في صفات الله سبحانه : غافر ، غفور ، غفار ، وهناك تائب وتواب . وقد تكون صيغة المبالغة لتكرار حدوث الفعل ، فتتعدد المغفرة بتكرار ذنوب العبد ، فهو سبحانه غافرٌ للذنب الواحد ، وهو غفور دائم، أما غفَّار فهو الغفور في كل وقت ومهما تعددتْ الذنوب .

وليس معنى قوله سبحانه : ﴿ كَانَ غَفَّارًا (١٠) ﴾ [نوح] أنه كان ولم يَعُدْ الآن غفاراً ، فليس في حَقِّ الله زمن ، وهو سبحانه غفور وغفَّار قبل أن يكون هناك محتاجٌ للمغفرة .

﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾

فاستغفاركم وتوبتكم إلى الله تفتح لكم أبواب السماء بالمطر، ﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) ﴾ [نوح] فالحق سبحانه الذي لم تكونوا تؤمنون به متى استغفرتموه وتبتم إليه لا يحرمكم من عطاء ربوبيته.

وإرسال السماء يعني تواصل نزول المطر عليهم ، والفارق بين (الإنزال) وبين (الإرسال) أن الإنزال يكون مرة واحدة ، أما الإرسال فهو مسترسل ومتواصل .

لذلك يقول الحق سبحانه في المطر : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) ﴾ [الفرقان] لأن المطر لا ينزل طوال الوقت من السماء ، ولكن في الإرسال استمرار .

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ (٢٢) ﴾ [الحجر] ، فالذي

يحتاج إلى استمرارية فى الفعل يقول فيه (أرسل) بدليل أن الله حينما أراد أنْ يجيء بالطوفان قال : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ (١٣٣) ﴾ [الأعراف]

وعندما أراد أنْ يُرغِّب عاداً قوم سيدنا هود فى الاستغفار والتوبة والرجوع عما كانوا عليه من الكفر والآثام قال لهم : ﴿ وَيَـٰقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (٥٢) ﴾ [هود]

والحق سبحانه هنا يعلِّق إرسال المطر باستغفارهم ، وفى نوح أيضاً يعلقه باستغفارهم ، يقول تعالى : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) ﴾ [نوح]

ولقائل أنْ يقول : ما صلة الاستغفار بمسألة كونية مثل نزول المطر ؟ فنقول : للكون مالك لكلٍّ ما فيه جماده ونباته وحيوانه ، وهو سبحانه قادر ، وهو القادر أنْ يُخرج الأشياء عن طبيعتها ، فإذا جاءت غَيْمة وتحسب أنها ممطرة قد يأمرها الحق سبحانه فلا تمطر .

مثلما قال الحق سبحانه فى موضع آخر من كتابه :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَـٰذَا عَارِضٌ[1] مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) ﴾ [الأحقاف]

فلاتأخذوا الأسباب على أنها تأتيكم برتابة ، ولتعلموا أن للأسباب رباً يملكها بأمره سبحانه يستطيع أنْ لا تجعلها تفعل فعلها ، فيجعل السماء لا تمطر لكم ماءً فتصبح أرضكم جرداء لا نباتَ فيها ، وبالتالى لا حيوانَ ، فلن تجدوا نباتاً ولا لحماً تأكلونه .

وقوله تعالى : ﴿ مِّدْرَارًا (١١) ﴾ [نوح] فالمدرار هو الذى يُدر بتتابع لا ضرر فيه ، فالمطر قد يهطل بطغيان ضارٍّ ، فالمدرار هو المطر الذى يتوالى توالياً مُصلحاً لا مُفسداً .

---

(١) العارض : السحاب . والعارض من كل شيء : ما يستقبلك . وقال أبو عبيدة : العارض من السحاب الذى يعرض فى قطر من أقطار السماء من العشى ثم يصبح قد حبا واستوى . (مقاييس اللغة – مادة: عرض) .

ومتى أُرسل المطر مدراراً متتابعاً مصلحاً ، فالأرض تخضرّ وتعمر الدنيا ونزداد قوة إلى قوتنا .

فالماء هو مادة حياة البشر وقوتهم ، لذلك حدثنا الحق سبحانه بعدها فقال : ﴿ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا (١٢) ﴾ [نوح]

أربعة أشياء تأتى بعد الاستغفار والتوبة ونزول ماء السماء يُعتبرون مصدر قوة لكم : الأموال ، البنون ، الجنات ، الأنهار .

والإمداد نعمة من نعم الله سبحانه ، فنعم الله هى : نعم الإيجاد ، ونعم الإمداد ، ونعم التكليف ، فإنْ أحببتَ الله للإيجاد والإمداد ، فهذا يقتضى أنْ تحبه أيضاً للتكليف .

وهو سبحانه القادر على الإيجاد وعلى الإمداد ، فالحق سبحانه أوجدكم فى هذه الدنيا وأعطاكم أموالاً وبنين يُكثِّرها عندكم ويزيد فيما عندكم منها .

﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا (١٢) ﴾ [نوح] هذه الآية فيها من المعانى مالايحدُّه حَدٌّ ، فالنظم القرآنى الذى هو من لدن حكيم خبير عندما تتأمله فى هذه الآية تجد جمالاً لايستطيع أحدٌ من البشر مضاهاته أو الإتيان بمثله .

فقد يسأل سائلٌ : لماذا قدَّم الحقُّ سبحانه ذكر الجنات عن الأنهار، مع أن الأنهار سببٌ فى حصول الجنات ؟

نقول : فى الإجابة على هذا السؤال تتجلى عظمة هذا النظم القرآني، فالحق سبحانه تحدَّث فى الآية قبلها عن نزول مطر السماء عليهم ، فقال تعالى : ﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) ﴾ [نوح] لذلك ناسب أنْ يذكر بعدها الجنات التى هى البساتين ذات الأشجار الملتفة الكثيفة، وهذه إنما تكون بماء المطر.

فماءُ المطر جعله الله سبباً فى وجود البساتين المغدقة مما قد لا يكون للإنسان دخْلٌ فيه ، وجعله أيضاً سبباً فى وجود الأنهار مما يستعمله الإنسانُ فى شرابه وسقى زرعه ورى حيواناته .

فكلُّ الأنهار إنما تنشأ من سقوط الأمطار على المرتفعات الجبلية كنهر النيل مثلاً الذى يسقط مطره على جبال إثيوبيا مثلاً وينساب حتى يصل إلينا .

ثم إنه قد ينقطع المطر سنين فلا تقلقوا ، فالله جعل هذه الأنهار مخازنَ للماء مُمتدَّة لتسقوا بساتينكم وترووها .

وقومُ نوح كانوا قوماً حريصين على الدنيا فمنَّاهم الحقُّ سبحانه بما يريدونه من أموال وبنين وبساتين وحدائق وأنهار ، فهل آمنوا بالله ؟ هل وقَّروا الله وعظّموه ؟ لا .

لذلك قال تعالى :

﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) ﴾

فما لكم لا ترَوْنَ لله عظمة ووقاراً ولا تبالون ولا تخافون الله هيبةً وخشيةً وتعظيماً ، وقد كان الأليق بكم والأجدر بكم بعد نعم الإيجاد والإمداد أنْ توقروه سبحانه .

فما لكم لا تخافون له عظمة ولا تُبجِّلوه سبحانه ، ولا تُعظِّمون الله حَقَّ عظمته ، وقد قال تعالى فى آية أخرى : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ (٩١)﴾ [الأنعام] وفى سورة الحج قال تعالى : ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ (٧٤)﴾ [الحج]

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ[1] بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧)﴾ [الزمر]

(١) مطويات : فى قدرته ويمينه وقوته . ذكرت اليمين للمبالغة فى الاقتدار . وللطى معان منها الإدراج كطى القرطاس والثوب ، ومنه الإخفاء . ومنه الإعراض . ومنه الإفناء . قال الواحدى فى تفسيره (٣/٥٩٣) : يطويها بقدرته كما يطوى الوحد منا الشيء المقدور له طيه بيمينه .

فهم لم يعطوا الله حَقَّ قدره ، ومعنى القدر معرفة المقدار ، فلو عرفوا قدر الله وعظمته ما عبدوا غيره وما أشركوا معه سبحانه غيره .

وإذا كان الحق سبحانه قد لفت أنظارنا إلى قدره العظيم بأنه قوى عزيز وبخلق الأرض والسموات وأنهما تحت قدرته سبحانه يوم القيامة ، فإنَّ الحق سبحانه لفتنا هنا إلى خَلْق الإنسان ، فقال :

﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) ﴾ [نوح]

والأطوار جمع طَوْر وهى الأحوال ، أي خلقكم الله أحوالاً ، حالاً بعد حال ، وقد قال سبحانه وتعالى : ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ (٦) ﴾ [الزمر]

بعد أنْ كنتم نُطفاً تصيرون علقاً ثم مضغاً ثم عظاماً ، قال الحق سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون]

ثم يلفتنا سبحانه إلى خلق السماوات فيقول :

﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾
وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ ﴾

خلقناكم أطواراً فى بطون أمهاتكم وخلقنا فوقكم ﴿ سَبْعَ سَمَـوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) ﴾ [نوح] فالحق سبحانه لا يعجز عن شيء ، وهو الخالق لسبع سماوات بإتقانٍ بعضها فوق بعض ، فلا يرى الناظرُ أى خَلَل فى هذا الخَلْق ، وليُعِدْ الإنسانُ النظر إلى السماء فلن يجد أى خَلَلٍ من شقوق أو فروق .

﴿ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـوَاتٍ طِبَاقًا[1] مَا تَرَى فِى خَلْقِ الرَّحْمَـنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ﴾ [الملك]

والسماء هى كلّ ما علاك فأظلك ، ولكن هل السماء هى الشمس أو القمر أو النجوم ، فإنَّ كلَّ هذا يعلونا وهو فوقنا ؟ وهل السماء هى الكواكب ؟

وكلُّ هذا غير صحيح ، فالكواكب إنما جُعلَتْ لتزيين السماء ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) ﴾ [الصافات] والشمس لإنارة الأرض فى النهار ، والقمر لإنارة الأرض فى الليل حين يكون فى التمام ، أما النجوم فهى أيضاً لتزيين السماء وعلامات للاهتداء بها فى الصحراء والفَلَوات والبحار .

قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ .. (٩٧) ﴾ [الأنعام]

إذن فالسماء شيءٌ أعظم من هذا ، والحق سبحانه لا يحدِّثنا عن سماء بل عن سماوات ، يحدِّثنا سبحانه عن سبع سماوات طبقات فوق بعضها .

وفى خَلْق السماء عظمة خَلْق ، وعظمة تكوين ، وعظمة صيانة تناسب قدرته تعالى ، فكونها (طباقاً) وفى آية أخرى ﴿ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ (١٩) ﴾ [الانشقاق] أى طبقاً فوق طبق ، وطبقاً بعد طبق . أو هى طبقات متطابقة تطابق بعضها .

ثم يلفت نوحٌ نظر قومه إلى تأمُّل ما فى هذا السماوات فيقول عن ربه: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) ﴾ [نوح] فيلفت نظرهم إلى القمر والشمس .

---

(١) طباقاً : يعنى طبقاً على طبق بعضها فوق بعض كل سماء مقببة على الأخرى ، وسماء الدنيا كالقبة على الأرض . [الخازن فى لباب التأويل ٤/٣١٩] .

وهنا الحق سبحانه بدأ بذكر القمر ثم الشمس ، بينما فى آية سورة يونس قال : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا (٥) ﴾ [يونس]

فالشمس سراجٌ وضياء ، أما القمر فهو فى الآيتين نور . والفرق بين الضياء أو السراج وبين النور أن السراج تصحبه الحرارة والدفء، لذلك قد تحتاج إلى الظل لتستظل من حرارته ، أما النور فلا تحتاج إلى الظل ، فالنور ضوءٌ ليس فيه حرارة ، والحرارة لاتنشأ إلا حين يكون الضوءُ ذاتياً من المضىء مثل الشمس .

أما القمر فضووُه غير ذاتى ويكتسب ضوءه من أشعة الشمس حين تنعكس عليه ، فالقمر مثل المرآة حين تسلط عليها بعضاً من الضوء فهى تعكسه .

والحق سبحانه وصف الشمس بأنها سراج ، والسراج هو ما يعطى الضوء والحرارة ، وهو المصباح الذى نشعله ليعطى حرارة وضوءاً ذاتياً .

﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَنبَتَكُم (١٧) ﴾ [نوح] تُعبِّر عن عملية الإنبات ، والأرض تُخرج نباتاً لا إنباتاً ، فمرة يأتى الله بالفعل ويأتى من بعد ذلك بالمصدر من الفعل لأنه يريد به الاسم . و(أنبت) يدل على معنى: وينشيء الله لكم منها نباتاً .

والإنبات إنشاء ، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ (٩٨) ﴾ [الأنعام] والإنشاء هو الإيجاد ابتداءً من غير واسطة شيء ويقال :أنشأ أى أوجد وجوداً ابتداءً من غير الاستعانة بشيء آخر : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ

الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ(١) فِيهَا (٦١) ﴾ [هود]

والله ينشيء البشر من التقاء الزوج والزوجة ، ولكن إنْ أرجعتَ هذا الإنشاء وهذا الإنبات إلى البداية الأولى فى آدم عليه السلام فستجد أن الحق سبحانه قد خلق الإنسان من نفس مادة الأرض والأرض مخلوقٌ من مخلوقات الله .

فمنيُّ الزوج وبويضة الزوجة يتكونان من خلاصة الدم الذى هو خلاصة الأغذية وهى تأتى من الأرض، فسواء رمزتَ لآدم بإنشائه من الأرض ، أو أبقيتها فى الذرية ، فكلُّ شيء مردُّه إلى الأرض .

فإنباتُ الله للإنسان من الأرض وتأكيد هذا بقوله (نباتاً) يوحى بالوحدة بين أصول الحياة على وجه الأرض ، وأن نشأة الإنسان من الأرض كنشأة النبات ، بذرة تُوضع فى الأرض وتُسقى وتُرْوى بماء مع عوامل من الضوء والحرارة والغذاء الصاعد من الأرض إلى الأوراق من خلال الجذور والسيقان .

فالإنسان من عناصر الأرض الأولية يتكوّن ، ومن عناصرها الأولية يتغذى وينمو فهو نبات من نباتها .

﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا (١٨) ﴾ [نوح] فما دُمتم قد نبتُّم من الأرض فعند انتهاء آجالكم المكتوبة ستعودون إلى ما جئتم منها وهى الأرض، فستعودون إلى جوفها فيختلط رفاتكم بتربتها وتندمج ذراتكم فى ذراتها .

فإذا شاء أنْ يعيدكم فلا تتساءلوا كيف ؟ فذراتكم موجودة ، والحق سبحانه يقول : ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ(١٥)﴾ [ق]

هكذا يستدل الحق سبحانه بالخلق الأول على إمكان الخلق الثاني،

---

(١) استعمركم : خلقكم لعمارتها . والسين والتاء فى كلمة (استعمركم) معناها التكليف لعباده أن يعمروها فهو سبحانه مظهرهم على ما جعلهم يسخِّرون السماوات والأرض بما قدره تعالى لهم . [زهرة التفاسير – محمد أبو زهرة ٧/٣٧٢٣].

فإنْ كنتم تتعجبون من أنكم تعودون بعد أنْ أوجد الحق أجزاءكم وذراتكم ومواصفاتكم ، فانظروا إلى الخلق الأول ، فقد خلقكم من لاشيء ، أفيعجز أنْ يعيدكم من شيء ؟

وهو سبحانه ﴿ يُعِيدُكُمْ فِيهَا (١٨) ﴾ [نوح] فإنه سبحانه يعيدهم فى الأرض التى خُلقوا منها ، فيعودون إلى أمهم الأرض وهى أصل خِلْقتهم ، فيعيدكم فى الأرض فتصيرون تراباً .

﴿ وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) ﴾ [نوح] أى يُخرجكم من الأرض إلى البعث . فيُخرجكم إخراجاً ، فيؤكد سبحانه أمر إخراجهم بالمصدر (إخراجاً) كأنه قال يُخرجكم حقاً لا محالة ، لا شكَّ فى هذا .

﴿ والله جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) ﴾[نوح] الحق سبحانه وصف الأرض هنا بأنها بساطٌ ، وفى آية أخرى : ﴿ الذى جَعَلَ لكمُ الأَرضَ فِرَاشًا (٢٢) ﴾[البقرة] يعنى بساطاً ، وفى آية أخرى قال : ﴿ الَّذى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا (٥٣) ﴾ [طه] أي: بساطاً .

فالحق سبحانه يذكِّر قوم نوح بنعمه على الخَلْق ﴿ وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) ﴾ [نوح] تستقرون عليها وتمتهدونها .

فجعلها الحق سبحانه كالشيء المبسوط الذى ينتفع ببسْطه ، ولو لم يجعلها كذلك لم يتوصلوا إلى حوائجهم ولا الانتفاع بها ، وهذا يسهِّل عليكم التصرف فيها من بلد إلى بلد .

فإن الأرض إنْ لم تُبسط وتُمدّ لم تكُنْ صالحةً للإنسان لأنْ يعيش عليها براحة وسهولة ، وإلا كانت الحياة عليها بشقِّ الأنفس كهؤلاء الذين يعيشون فى الجبال ، أما الكثرة الكاثرة من الناس فيعيشون فيما مدَّ الله وبسط من الأرض فى الوديان وحول الأنهار .

لذلك يمتنُّ اللهُ على قوم نوح بأنه جعل لهم الأرض بساطاً أرضاً ممهدة يعيشون عليها ويتنقَّلون فيها بسهولة .

لذلك قال تعالى بعدها ﴿ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠) ﴾ [نوح] فمن حكمة الله أنْ جعل فى الأرض سُبلاً نسير فيها ، فلو أن الجبال كانت كتلة تملأ وجه الأرض ما صَلُحتْ لحياة البشر وحركتهم فيها .

فقال تعالى ﴿سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠) ﴾ [نوح] . وفى آية أخرى ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١)﴾ [الأنبياء]

أى طرقاً واسعة فى الوديان والأماكن السهلة ، ومعنى (وجعلنا فيها) يصح فى الجبال أو فى الأرض ، ففى كل منهما طرق يسلكها الناس ، وهى فى الجبال على شكل شِعاب ووديان .

ونَظْم القرآن دقيقٌ وعجيب ، فالقرآن لم يقُلْ : لتسلكوا فيها . بل قال: لتسلكوا منها . لأن (فيها) معناها الدخول فى باطن الأرض ، أما منها فمعناها اتخاذ سُبل وطرق على الأرض كمدقات قد تكون متعرِّجة مُلتوية ولكنها على الأرض .

ولكن الحق سبحانه استخدم (فيها) فى آية أخرى ، يقول تعالى: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا (٥٣) ﴾ [طه] أى طرقاً مُمهَّدة توصّلكم إلى مُهماتكم بسهولة .

وسلك بمعنى دخل وتأتى متعدية تقول : سلك فلانٌ الطريق . ومنها ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) ﴾ [المدثر] يعنى : ما أدخلكم فى سقر . وقال لموسى عليه السلام : ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ (٣٢) ﴾ [القصص] أى أدخلها.

وهى سُبل فجاج ، والعربى القديم قال يصف الكون : « سماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج » . والفِجاج جمع فَجّ ، قال تعالى : ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا(١) وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ(٢) يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) ﴾ [الحج]

---

(١) رجالاً : مُشاة على أرجلهم . قال الفقيه أبو الليث : هذا إذا كان بيته قريباً من مكة فإذا حج ماشياً فهو أحسن ، وأما إذا كان بيته بعيداً فالركوب أفضل . [تفسير السمرقندى ٢/٤٥٦] .

(٢) ضامر : أى ضامر الخصر من الدواب كالإبل .

والفج هو الطريق الواسع كما نقول نحن الآن الأوتوستراد ، فهم يأتون من كل طريق ومكان ومسلك بعيد . والجمع فجاج طرق بين الجبال والرمال ومسالك مختلفة .

ثم يقول الحق سبحانه عن رسوله نوح عليه السلام :

﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ ﴾

يخاطب نوحٌ عليه السلام ربَّه ويخبره سبحانه أن قومه قد عصوه، ونوح يعلم أن الله يعلم ما كان منه ومن قومه ، حتى قبل أنْ يرسل نوحاً إلى قومه .

ولكن نوحاً مُرْسلٌ من ربه إلى قوم أشركوا بالله آلهة أخرى مع الله أصناماً وأوثاناً ، ودّاً وسُواعاً ويغوث ويعوق ونَسْراً ، وما دام نوحٌ مرسلاً من ربه فلا بد أنْ يخبر مَنْ أرسله بنتيجة رسالته إعذاراً أنه بلَّغ قومه ما أمره الله به أنْ يبلِّغه .

فيا رب قد بلَّغتُ رسالتك ، قال تعالى عن رسالة نوح التى أُمر أن يبلّغها لقومه : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) ﴾ [المؤمنون]

وهم لم يقبلوا دعوته وعصوه واعتبروه مجرد بشر يريد أنْ يتفضل عليهم ويتكبَّر ويصبح رئيساً عليهم أو زعيمَ قومه من دونهم ، قال تعالى : ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَـٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ..(٢٤) ﴾ [المؤمنون]

﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي (٢١) ﴾ [نوح] خالفوا أمرى ورفضوا دعوتى لهم إلى الهدى والرشاد ، فعصونى فيما أمرتُهم به ، أو فيما دعوتهم إليه من توحيد الله تعالى .

﴿ وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١) ﴾ [نوح]

فاتبع سِفْلَةُ القوم وضعفاؤهم رؤساءهم وقادتهم الذين كانوا يحوزون المال والثروة ويحوزون من الولد ما جعل لهم منعةً وقوة وعزوة استخدموها فى رفض دعوة الله .

لقد رزقهم اللهُ المال والولد فلم يزدهم كفرهم وأموالهم وأولادهم إلا خُسْراناً وضلالاً فى الدنيا وهلاكاً فى الآخرة ، أما الضعفاء والغوغاء فقد اتبعوا رؤساءهم البطرين بأموالهم ، المغترين بكثرة أولادهم ، بحيث صار ذلك سبباً لزيادة خسارهم فى الآخرة .

وهم إنما اتبعوهم لقِصَر نظرهم الذى جعلهم ينظرون إلى مظاهر القوة والثراء فى الدنيا ، فقاسوا الأمر بانبهارهم بقوة هؤلاء وثرائهم.

وذلك يحدث دائماً ، قال تعالى فى قصة قارون : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) ﴾ [القصص]

ولكنه لم يمتثل واغتر بماله وبنعمة الله عليه ، لذلك : ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) ﴾ [القصص]

هؤلاءِ الذين يريدون الحياة الدنيا هم أنفسهم الذين اتبعوا : ﴿ مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١) ﴾ [نوح]

وقد خسر من اتَّبعَ ومن اتُّبع من قوم نوح فغرقوا بالطوفان وخسر قارون بأن خسف الله به وبداره الأرض فلم ينصره أحد ، أو يمنع عنه عذاب الله : ﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ

فمصيرهم الخسار ، فالذى يشرك بالله لا يأخذ إلا الخسار ، وذلك هو كل الخيبة ، فكفرهم وتكذيبهم موصِّل إلى الخسران ، وخسرانهم يبدأ لحظة مفاجأة الساعة لهم .

وقوم نوح الذين لم يؤمنوا به خسروا فى الدنيا بأنْ غرقوا بالطوفان، وخسروا فى الآخرة بأن سيُحشروا إلى جهنم ، وذلك هو الخسار ، لأنه ليس خسراناً مؤقتاً أو عابراً قد يأتى بعده مكسب بالتوبة مثلاً ، إنما هو خسار لا مكسب بعده .

والحق سبحانه يوضح لنا ما فعله الذين اتبعهم الناس فضلُّوا باتباعهم هذا ، يقول تعالى :

﴿ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ٢٢ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ
وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ٢٣ ﴾

المكر مأخوذ من قولهم : شجرة ممكورة . وهذا فى الشجر رفيع الساق المتسلق حين تلتف سيقانه وأغصانه بعضها على بعض فلاتستطيع أنْ تميزها من بعضها ، فكل منها ممكور فى الآخر مستتر فيه ، وكذلك المكر أنْ تصنع شيئاً تداريه عن الخصم .

فالرجل الذى يلف ويدور هو الذى يمكر ، فإنْ كان المكر بغير قصد الضرر نسميه حيلة ، وإنْ كان بقصد الضرر فهذا هو المكر السيء .

ومن أسس المكر التبييت ، والتبييت يحتاج إلى حنكة وخبرة ، وما دام المكر يحتاج إلى التبييت فإن ذلك علامةٌ على الضعف فى البشر ، لأن القوى لا يمكر ولا يكيد ولكن يواجه .

ويقول تعالى : ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦)﴾ [إبراهيم]

فمكرهم رغم عنفه وشدته والذى قد يؤدى إلى زوال الجبال ، هذا المكر

يبور عند مواجهته لمكر الله الذى يحمى رسله وعباده الصالحين.

والحق سبحانه يكشف ذلك المكر والخداع للذين حاولوا أنْ يكتموا خداعهم ولعبتهم الماكرة ، والتى أرادوا بها التشكيك والخداع .

وقد وصف الحق سبحانه هذا المكر بأنه ﴿ مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) ﴾ [نوح]

أى مكر عظيم عجيب . والعرب تقول : أمر عجيب وعجاب بالتخفيف وعُجَّاب بالتشديد .. فهو مكر مُتناهٍ فى الكِبَر ، مكروا لإبطال دعوة الله وإغلاق الطريق فى وجه الدعوة ، زيَّنوا الكفر والضلال وأعانوا عليه.

والمكر أنواع منه ما يكون باللسان للصد عن سبيل الله، وهذا قد يكون فردياً أو جماعياً، وفى حياتنا المعاصرة تجد من الإعلام ما يقوم بهذا المكر العظيم ليصرف الناس عن دعوة الله بشتى الوسائل الممكنة فيلبِّس على الناس دينهم .

ومن المكر أنهم كانوا يأتون بأولادهم الصغار إلى نوح عليه السلام ويقولون لهم : إياكم واتباع هذا فإنه ضالٌّ مُضلّ فكان هذا مكرهم بصغارهم ، لذلك مكث نوح فى قومه تسعة قرون ونصف قرن ، كل قرن يوصى القرن الذى بعده بعدم الإيمان بنوح وبرسالته .

والحق سبحانه ذكر بعدها قولهم وهو تواصيهم فيما بينهم أنْ لا يتركوا آلهتهم وأنْ يثبتوا عليها ولا يتنازلوا عن عبادتها .

﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ (٢٣) ﴾ [نوح] فلا تتركوا آلهتكم ولا تدعوا عبادتها والتقرب إليها ، وفعل (ذروا) أى : اتركوا ودعوا وتناسوا .

والفعل هنا منفى (لاتذرن) و (آلهتكم) معبوداتكم من أصنام وأوثان . ثم يذكرون آلهتهم بالاسم : ﴿ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) ﴾ [نوح]

وقد كان هؤلاء قوماً صالحين من بنى آدم وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم : لو صوّرناهم كان أشوقَ لنا إلى

العبادة إذا ذكرناهم فصوروهم أى عملوا لهم تماثيل ، فلما ماتوا وجاء آخرون دبَّ إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم وبهم كانوا يُسقون المطر فعبدوهم .

وقد ذكر قتادة بن النعمان أن هذه كانت آلهة يعبدها قوم نوح ثم عبدتها العرب بعد ذلك ، فكان وَدٌّ لكلب بدومة الجندل ، وكان سواعٌ لهذيل ، وكان يغوثُ لبنى غُطيف ، وكان يعوق لهمدان، وكان نسْر لذى الكلاع من حِمْيَر .

ودعوة الكافرين أتباعهم إلى عدم ترك عبادة الآلهة المزعومة سواء كانت أصناماً أو بشراً أو كواكب كانت فى كل الأقوام، يقول تعالى: ﴿ وَانْطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) ﴾ [ص]

وهو صبر مذموم لأنه إصرار وإقامة على الشرك والكفر ، لذلك توعدهم الله سبحانه فقال : ﴿ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (٢٤)﴾ [فصلت] فإنْ يتمسكوا بآلهتهم المزعومة فالنار مقامهم الأبدى .

ثم يقول تعالى :

﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (٢٤) ﴾

هذه الأصنام والأوثان والآلهة المزعومة قد أضلَّتْ كثيراً من الناس، وهى لا تزيد الظالمين إلا ضلالاً ، وهم ظالمون لأنهم ظلموا أنفسهم بعبادة ما لا يسمع ولا يبصر .

ولكن الأمر يحتمل تأويلاً آخر أنَّ هذا كلامُ نوح عليه السلام ، لذلك قال ﴿ وَلَا تَزِدِ (٢٤)﴾ [نوح] بالفعل المضارع المجزوم بلا الناهية ، فهو دعاء يدعو به نوح على قومه أنْ لا يزيدهم الله إلا ضلالاً وخساراً فهم ظالمون معتدون .

وما أضلتهم أصنام وأوثان من الحجر أو الخشب إلا لفساد عقولهم

فسحرتهم ، وهذا حدث أيضاً مع إبراهيم عليه السلام وقومه ، قال تعالى عن إبراهيم أنه قال : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ (٣٦) ﴾[إبراهيم]

ونلاحظ أن الحق سبحانه في سورة نوح قال : ﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا (٢٤) ﴾ [نوح] أما في سورة إبراهيم فقد قال : ﴿ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا (٣٦) ﴾ [إبراهيم]

فـ (أضلوا) جائز أنْ يُراد به الكبراء أنهم أضلوا كثيراً ، وجائز أنْ يكون أُريد به الأصنام ، ولكن هذا كان يقتضي أن يقول (أضللن) لكي تعود على الأصنام .

ولكن الأصنام ليست لها أفعال على الحقيقة فخرج الكلام مخرجاً ينسب الفعل إلى مَنْ فعله وهم الكبراء فقال (أضلوا) كقوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا (٨) ﴾ [الطلاق] فأضاف إلى القرية فعل أهلها .

﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا (٢٤) ﴾ [نوح] أي أضلوا كثيراً من الناس حتى أنه لم يؤمن بنوح طوال ٩ تسعة قرون إلا نفر قليلون ، قال تعالى : ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠) ﴾ [هود]

حتى أنه كان مع نوح يوم أُغرق قومه ثمانون[1] من أهل الإيمان ، ثمانون مؤمناً فقط الذين ركبوا معه السفينة بعد تسعة قرون دعوة إلى الإيمان ، مؤكد أنه مات خلالها مؤمنون آخرون قبل السفينة وقبل الطوفان .

ثم يحدِّثنا الحق سبحانه عن سبب إيقاع العذاب بقوم نوح ، فيقول تعالى :

﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ ﴾

---

(١) أخرج ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠٨٧٩) عن زيد بن أسلم أنه كان مع نوح يوم أغرق قومه ثمانون من أهل الإيمان ، وفي رواية أخرى عن كعب الأحبار (١٠٨٧٨) أنهم اثنان وسبعون . قال : والمؤمنون يومئذ اثنان وسبعون فأرسل الله الماء من السماء وفتح الأرض .

أُغرقوا لأجل خطيئاتهم فبخطيئاتهم وكفرهم أُغرقوا ، والنظم القرآنى لم يقل : من خطيئاتهم . بل أضاف (ما) التى للصلة ، فالعرب تجعل (ما) صلة فيما يكون فيه عاقبة ، كما يقال : أينما تكن أكن ، وحيثما تجلس أجلس .

﴿فَأُدْخِلُوا نَارًا (٢٥)﴾ [نوح] فأُدخلوا ناراً فى الآخرة إذ أغرقت أبدانهم وأجسادهم ورُدَّت أرواحهم إلى النار .

﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْصَارًا (٢٥)﴾ [نوح] فلم يجدوا لهم مانعاً يمنعهم من الغرق ودخول النار فى الآخرة ، فلم يجدوا لأنفسهم بعبادتهم من عبدوا من دون الله تعالى أنصاراً معينين لهم ومنجين لهم من عذاب الله .

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧)﴾

وصل نوح عليه السلام إلى أقصى درجة من دعوته لقومه ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩)﴾ [نوح]

لقد بذل نوحٌ الجهدَ كلَّ الجهدِ فى دعوة قومه لعلّهم يهتدون أو يؤمنون ، ولكنهم رفضوا وأبوا إباءً شديداً الايمان بالله ، ورفضوا ما جاء به نوح عليه السلام ، وما أرسله الله به إليهم .

لذلك دعا نوح ربه داعياً على قومه بعد أنْ بذل وُسْع جهده وآذوه إيذاءً لايُطيقه إنسانٌ وأشبعوه سخرية واستهزاء ، وأوصى الأجدادُ الآباءَ وأوصى الآباءُ الأبناءَ بأنْ لا يؤمنوا بنوح .

وليس نوح فقط الذى دعا على قومه ، بل إن موسى دعا على فرعون وآل فرعون فقال : ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ[1] عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ[2] عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٨٨)﴾ [يونس]

ومعنى الطمس إخفاء المعالم مثل قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا (٤٧)﴾ [النساء] ومعنى الطمس هنا إخفاء معالم الوجه فتكون قطعة واحدة بلا جبهة أو حواجب أو عينين أو أنف أو شفاه أو ذقن .

فطمس الأموال مسخها ، فمَنْ كان يملك بعضاً من سبائك الذهب وجدها حجارةً ، ومَنْ كان يملك أحجاراً كريمة كالماس وجدها زجاجاً، فالأموال كانت وسيلة إضلال .

ثم دعا عليهم بشدِّ الأربطة على قلوبهم فلا يخرج ما فيها من كفر، ولا يدخل ما هو خارجها من الإيمان ، وأنْ تظل الأربطة على قلوبهم حتى يروا العذاب الأليم .

نوح عليه السلام دعا على قومه فقال :﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦)﴾ [نوح] فلا تترك يارب أحداً من الكافرين يمشى على الأرض .

وديَّار إنما هو دوّار فعَّال من دار يدور ، ويُقال للرجل الكثير الدوران: الديَّار ، والديَّار أيضاً ساكن الدار ، فلاتذر على الأرض من الكافرين ساكنَ دارٍ ، وإذا لم يبْقَ منهم ساكنُ دارٍ فقد بادوا جميعاً وهلكوا ، فكأنه يقول : لا تذر منهم أحداً .

---

(١) اطمس على أموالهم : الطمس إزالة أثر الشيء بالمحو ، ومعنى اطمس على أموالهم أزل صورها وهيئاتها . وأهلك أموالهم . وقال السدى : اجعل دنانيرهم ودراهمهم حجارة . [تفسير ابن أبى حاتم ١٠٥٤٤].

(٢) اشدد على قلوبهم : أى اطبع عليها حتى لا تلين ولا تنشرح بالإيمان [تفسير الطبرى ١٧٨٣٤] .

﴿ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا(٢٧)﴾ [نوح] فلو تركتهم يارِبِّ على ما هم عليه من الضلال والكفر والإعراض عن دعوة الحق يُضلوا عبادك الذين هديتهم للإيمان ، ولا يلدوا من ذرية إلا فاجراً فاسقاً خارجاً عما تريده يارب ، وهو كفَّار شديد الكفر لا يهتدى إلى هدى ، ولا ينفتح قلبُه للحق والصلاح .

وقد كان الرجلُ ينطلق بولده إلى نوح عليه السلام ، فيقول لولده: احذر هذا فإنه كذاب يقصد نوحاً ، وإنَّ والدى قد حذرنيه فيموت الكبيرُ على الكفر، وينشأ الصغيرُ على وصية أبيه .

ثم يُنهى الحق سبحانه سورة نوح بدعاء نوح عليه السلام :

﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾

هنا خاصٌ وعام ، فكم مرة دخل الأب والأمر هنا ؟ لقد دخلوا فى قوله تعالى ﴿اغْفِرْ لِى وَلِوَالِدَى (٢٨)﴾ [نوح] وفى قوله ﴿وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِى مُؤْمِنًا (٢٨)﴾ [نوح] وفى قوله﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ (٢٨)﴾ [نوح] أى دخلوا ثلاث مرات .

إذن فإيجاد عام بعد خاص يعنى أن يدخل الخاص فى العام فيتكرر الأمر بالنسبة للخاص تكراراً يناسب خصوصيته .

وقد كان لإبراهيم عليه السلام دعاء مثل هذا ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِى وَلِوَالِدَى وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١)﴾ [إبراهيم]

ونلحظ أن طلب المغفرة هنا قد شمل الوالدين والمؤمنين ، والإنسان كما نعلم له وجودٌ أصلىٌّ من آدم عليه السلام وله وجود مباشر من أبويه ، وما دام الإنسان قد جاء إلى الدنيا بسبب من والديه ، وصار مؤمناً فهو يدعو لهما بالمغفرة ، أو أن الأسوة كانت منهما لذلك يدعو

لهما بالمغفرة .

والإنسان يدعو للمؤمنين بالمغفرة لأنهم كانوا صحبة له وقدوة ، وتواصى معهم وتواصوا معه بالحق والصبر . فكأن نوحاً يدعو يقول: ربِّ اعْفُ عني واستر عليَّ ذنوبى وعلى والديَّ .

﴿وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا (٢٨)﴾ [نوح] أي : لمن دخل مسجدى ومصلاى مصلياً مؤمناً ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ (٢٨)﴾ [نوح]

﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (٢٨)﴾ [نوح] إذا كان نوح يدعو بالمغفرة له ولوالديه ولمن دخل بيته مؤمناً ولعامة المؤمنين والمؤمنات ، فإنه يدعو على الظالمين أنْ لا يزيدهم إلا تباراً .

والتتبير الإهلاك والتدمير لكلِّ من كذّب الرسل بأنواع مختلفة ومتعددة من ألوان العذاب ، فعُوقبوا بالطوفان .


سُورَةُ الجِنِّ

سورة الجن [1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢)﴾

جعل الحق سبحانه سورة للجن أسماها سورة الجن كما جعل سورة للإنسان أسماها الإنسان، وهناك سورة فاطر أسماها بعض العلماء سورة الملائكة، لمناسبة قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١)﴾ [فاطر]

فخلق الله الذى قدَّر أنْ يسكن الأرض والسماء هم الإنس والجن والملائكة، ولكل خَلْق من خَلْقه سبحانه صفات تميزه عن الخَلْق الآخرين، فالإنس إنس لأنهم مرئيون بالنسبة للجن والملائكة، أما

(١) سورة الجن هى السورة رقم ٧٢ فى ترتيب المصحف الشريف، عدد آياتها ٢٨ آية. قال أبو القاسم هبة الله في (الناسخ والمنسوخ) ١/١٨٥: نزلت بمكة وهى محكمة ليس فيها ناسخ ولا منسوخ. وقد سميت بسورة الجن لاشتمالها على الكلام على الجن. نزلت بعد سورة الأعراف مع رجوع النبي ﷺ من الطائف في السنة العاشرة من بعثته وقبل حادثة الإسراء ثم الهجرة.

الجن والملائكة فهم غير مرئيين للإنس .

يقول تعالى عن الجن : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ (٢٧)﴾ [الأعراف]

والجن مستور عنَّا ، ومثله من نفس المادة اللغوية الجنين الذى لانراه ، فهو مجنون أى مستور ومنه الجنة لأنها ما يجن الشخص فيها ويستره عن أعين الناس ، فيتمتع بنعيم الجنة فى حرية .

والجن يمتاز بخفَّة الحركة وسرعتها ، والجن فيهم المؤمن والكافر والمؤمنون من الجن فيهم الطائع والعاصى ، والشياطين هم مردة الجن المتمردون على منهج الله ، وكلُّ متمرد على منهج الله نسميه شيطاناً ، سواء كان من الجن أو من الإنس .

والجن أمة من الأمم مطالبون برسالات الله إلى البشر ، وليس منهم أنبياء ولا رسل ، إنما فيهم المسلمون وفيهم الكافرون .

يقول تعالى هنا: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ (١)﴾ [الجن] أى قُلْ يا محمد أنه قد أُوحى إليك ، والوحى لرسول الله يأتى عن طريق جبريل عليه السلام فهو أمينُ الوحى .

والوحى يأتى لرسول الله فى معاناة شديدة حتى إنه كان يتفصد عرقاً فى الليلة الشاتية من ثقل الوحى عليه .

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ (١)﴾ [الجن] مادة سمع منها : سمع واستمع وتسمَّع . قولنا : سمع أى مصادفة وأنت تسير فى الطريق تسمع كلاماً كثيراً . منه ما يُهمك ومالا يهمك . فليس على الأذن حجاب يمنع السمع كالجفن للعين .

إذن أنت تسمع كلَّ ما يصل إلى أذنك فليس لك فيه خيار . إنما استمع أنْ تتكلف السماع والمتكلم حرٌّ فى أنْ يتكلم أو لايتكلم . وتسمَّع أى تكلّف أشدَّ التكلُّف لكى يسمع .

ومعنى استمع أى جنَّد كلَّ جوارحه وهيَّأ كل حواسه لأنْ يسمع فإنْ كانت الأذنُ للسمع فهناك حواسّ أخرى يمكنْ أن تشغلها عن الانتباه ،

فالعين تبصر والأنف يشم واللسان يتكلم ، فعليك أنْ تجند كلَّ الحواس لكى تسمع وتستحضر قلبك لتعى ما تسمعه وتنفذ ما طُلب منك ، لذلك حين تخاطب صاحبك فتجده منشغلاً عنك تقول : كأنك لستَ معنا . لماذا ؟ لأن جارحة من جوارحه شردت فشغلتْه عن السماع .

فهؤلاء النفر من الجن عندما سمعوا القرآن من فم رسول الله أعطوه آذانهم وحواسهم فأصبح سماعهم استماعاً ،واتجهوا بكليتهم لسماع القرآن من رسول الله .

وقد حدث أن رسول الله ﷺ انطلق فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حِيلَ بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأُرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا : مالكم ؟ قالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب . قالوا : ما حَالَ بينكم وبين خبر السماء إلا شيءٌ حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء ، فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبي ﷺ وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن استمعوا له ، فقالوا : هذا والله الذى حال بينكم وبين خبر السماء ، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم وقالوا : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢)﴾ [الجن]

فأنزل الله على نبيه ﷺ : ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ (١)﴾ [الجن] وإنما أوحى إليه قول الجن (١).

وحديث رسول الله يبين بوضوح الفرق بين سمع واستمع ، قال : فلما سمعوا القرآن استمعوا له . وفى آية أخرى يقول الله لرسوله: ﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣)﴾ [طه] استقبل وحيى بكلِّ حواسك ومُدْركاتك وكيانك .

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٢٧١) والبخارى فى صحيحه (٧٧٣ ، ٤٩٢١) وأبو عوانة فى مستخرجه (٣٧٩٤) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٢٤٤٩) والبيهقى فى السنن الكبرى (٣٠٦٨) عن ابن عباس رضى الله عنهما .

والنفر اسم يقع على الثلاثة إلى العشرة ، فهى طائفة وفرقة من الجن وكانوا تسعة من جنٍّ نصيبين ، وأياً كان عددهم فقد استمعوا إلى القرآن من فم رسول الله .

وانقلبوا إلى أهلهم من الجن فقالوا لهم : ﴿ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١)﴾ [الجن] قد تقول لماذا لم يقولوا : استمعنا . إن سمع هنا مع ما بعدها: ﴿قُرْآنًا عَجَبًا (١)﴾ [الجن] تؤدى معنى الاستماع لأنهم أدركوا أنَّ ما سمعوه قرآن، وأنه كُتاب أنزل على رسول من بعد موسى .

والأكثر من هذا أنه ﴿قُرْآنًا عَجَبًا (١)﴾ [الجن] ومعنى عجباً فريداً ،وهذه الكلمة العجيبة جاءت فى عدة آيات من القرآن .

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ (٢)﴾ [يونس] ، وقال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ(١) كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩)﴾[الكهف]، وقال عن حوت غداء موسى ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣)﴾ [الكهف]

العجب والتعجب حالة تعرض للإنسان عند الجهل بسبب الشيء وقد قال البعض : العجب ما لا يُعرف سببه ، ويقال : عجبت عجباً ، ويُقال للشيء الذى يُتعجب منه : عجب ، ولما لم يُعهد مثله عجيب .

فالعجب هو الذى ظاهره أنيق وباطنه عميق ، وهو الذى يعجز عنه كل فهم لقول الله تعالى : ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ(٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠)﴾ [الأحقاف]

والعجب العزيز الشريف الكريم الذى لا يوجد مثله فى فصاحته وبيانه وصدق إخباره ، عجباً فى نظمه وتأليفه وصحة معناه .

﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢)﴾ [الجن] الرشد هو طريق النجاة ، فالقرآن يهدى إلى سبيل النجاة ، أما الغى فهو طريق النجاة.

---

(١) الرقيم : اسم الوادى الذى فيه أصحاب الكهف ، وقال كعب الأحبار : هو اسم للقرية التى خرج منها أصحاب الكهف ، وقيل : اسم للجبل . [تفسير الخازن ١٥٣/٣].

ويقول الحق سبحانه إيضاحاً للرشد والغى فى آية أخرى :

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦)﴾ [الأعراف]

فالذين يتكبرون فى الأرض حين يرون سبيل الرشد لا يتخذونه سبيلاً ، لأن سبيل الرشد يضغط على شهوات النفس وهواها فينهى عن السيئات وهم لا يقدرون على كبح جماح شهواتهم لأنها تمكنت منهم ، ولكن سبيل الغى يطلق العنان لشهوات النفس .

فالقرآن يهدى إلى الرشد أى يدل عليه ، فمَنْ آمن به رشد ، ومَنْ كفر به غوى . فمَنْ حكم به عدل ومَنْ تركه من جبار قصمه **الله** ، ومَن ابتغى الهدى فى غيره أضلَّه **الله** ، وهو حبل **الله** المتين ، ونوره المبين والذكر الحكيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تتشعب معه الآراء، ولا يملُّه العلماء ، ولا يخْلَق[1] على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، مَنْ علم علمه سبق ، ومَنْ قال به صدق ، ومَنْ عمل بما فيه أجر ، ومَنْ دعا إليه هُدى إلى صراط مستقيم[2] .

هذا الرشد آمنا به ﴿وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا(٢)﴾ [الجن] فقد فهموا باستماعهم للقرآن أن مقتضى إيمانهم أنْ لا يشركوا **بالله** أحداً ، لأن هذا مقصود رسالات الأنبياء جميعاً .

وكلمة (أحداً) تقطع الطريق على الإشراك بأى أحد ، وكلمة (أحد) تعطينا لفتة إلى أنهم يقصدون بـ (أحداً) المسيح عيسى بن مريم .

---

(١) لا يخْلَق : لا يبلى . وهو لا يخلق كالشَّن البالى . والشَّن هو الجلد الرقيق . [غريب الحديث لابن الجوزى ١/٥٦٥].

(٢) أخرجه البزار فى مسنده (٨٣٦) من حديث على بن أبى طالب قال : سمعت رسول الله ﷺ : « إنها ستكون فتنة قال : قلت فما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل من يرده من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله » الحديث .

فهم قالوا ﴿يَـٰقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى (٣٠)﴾ [الأحقاف] لأن موسى جاء بشريعة ، ثم جاء عيسى عليه السلام بدون شريعة يُكلِّفون بها ، وقد اتخذه النصارى إلهاً من دون الله ، والبعض منهم أشركه مع الله ، وبعضهم قال إنه ثالث ثلاثة .

لذلك أعلن الجن براءتهم من أنْ يشركوا مع الله أحداً من خَلْقه، ثم يُعظِّمون قدْر الله عز وجل فيقولون :

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ③﴾

﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى (٣)﴾ [الجن]معطوفة على قوله ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ (١)﴾ [الجن] فيكون هذا من قول الوحى ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ (١)﴾ [الجن] كذا وكذا فـ (أنه) بالفتح .

وقد وردت قراءة بالكسر (إنه) على أنه من قول الجن يعظمون جَدَّ ربنا أى عظمته وجلاله وأمره وقدرته ، فهو سبحانه صاحب النصيب الأوفر الذى لا يُضاهى من العظمة والجلال والقدرة والأمر والحكم .

فكيف يدَّعى أحدٌ أنه سبحانه اتخذ صاحبة وولداً ، وليس له سبحانك من خلقه صاحبة ولا ولداً ، لذلك يطمئننا سبحانه بقوله :

﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣)﴾ [الجن]

وكأن الله تعالى يقول : اطمئنوا فربكم ليس له صاحبة تؤثر عليه ولا ولد يحابيه ، فالصاحبة والولد نقطة الضعف وسبب الميل فى مسألة التشريع ، فالخَلْق جميعاً سواء عند الله ، وكلهم عباده لا يحابى منهم أحداً ولا يميز أحداً على أحد .

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ④﴾

﴿سَفِيهُنَا (٤)﴾ [الجن] وسفيه الجن هو إبليس الذى رَدَّ الأمر على الآمر ، وعصى ربه في السجود لآدم الذى خلقه الله بيديه ، فقولة إبليس:

﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١)﴾ [الإسراء]

فهو اعتبر رأيه أفضل من رأى الله سبحانه ، لذلك اعتُبر سفيهاً ، وليس معنى هذا أنه سفيه واحد هو إبليس ، فإنَّ إبليس هو رمز لكل سفيه يرد الأمر على الله ويرفض ما يأمر الله به ، وهو جاهل بالله لا يعرف قدر الله سبحانه .

فهو راجع إلى كل مَنْ يوجد منه فعل السَّفه ، وليس بمقتصر على الواحد بل هو راجع إلى كل مَنْ يوجد منه ذلك ،لذلك قال البعض : هم كفرة الجن .

﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللهِ شَطَطًا (٤)﴾ [الجن] الشطط : البعد عن الصواب فى القول ، وأصل الشطط الزيادة فى الحد . فالشطط هو القول الذى ينافى الحقيقة ويخرج عن حدود الصواب .

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ٥ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا ٦﴾

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا (٥)﴾ [الجن] الظن هنا بمعنى الشك أى شككنا أن لن تقول بنو آدم وهم الإنس والجن على الله قولاً كاذباً مفترى ، فلما تحقق عندهم الكذب خافوا علىأنفسهم أن يُبتلوا به ، وأنْ يشتبه عليهم الصراط السوى ، فتفرقوا فى الأرض على رجاء أنْ يجدوا مَنْ يدلُّهم على الطريقة المثلى حتى وجدوا رسول الله ﷺ، فسمعوا القرآن منه .

فهم كانوا قد اعتقدوا أن لله تعالى صاحبةً وولداً ، بما سمعوا الجن والإنس يقولون ذلك ، وكان عندهم أنهم فى ذلك صادقون ، فلما ظهر عندهم كذب مَنْ يدعى اتخاذ الولد والصاحبة تبرَّءوا ممن يقول ذلك فثبت بهذا أنهم كانوا أهلَ شرك إلى ذلك الوقت .

لقد ظننا أنَّ الإنس والجن لا يصدر عنهم الكذب على الله .

ثم يقول تعالى : ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦)﴾ [الجن]

فالذى يستعين بالجن ينقلب عليه ويذيقه ألواناً من العذاب ، وقد حكى ربنا سبحانه كثيراً أن الشياطين لهم التصاقٌ واتصالٌ بكثير من الإنس .

فرجالُ الإنس هم السحرة ، كانوا يعوذون برجال من الجن ، والذى يتبع هؤلاء السحرة ويذهب لهم ليفكّوا له السحر ويذهب لهم ليسحروا له الخصوم ، يعيش طوال عمره مرهقاً .

صحيحٌ أنهم يقدرون أنْ يسحروا ، لكن ذلك السحر يزيد المتسبِّب فيه رهقاً وتعباً .

لذلك تجد كل العاملين بالسحر والشعوذة يموتون فقراء ، بَشِعى الهيئة ، مصابين فى الذرية ، لأن الواحد منهم استغل فرصة لا توجد لكلٍّ واحد من جنسه البشرى ، وذلك للإضرار بالناس .

فتجد كل الذين يشتغلون بهذه العملية على سَمْتهم الغضب وعلى سحنتهم آثار الذنوب وشؤمها ينفر منهم مَنْ رآهم ، يعيشون فى أضيق صور العيش ، فترى الساحر يجنى أموالاً كثيرة ، ومع ذلك تراه شحاذاً يعيش فى ضنك ، ويموت كافراً مُبعداً من رحمة الله حتى أولاده من بعده لا يَسْلمون من شؤمه .

والرَّهق الغى والخطيئة والإثم ، فإن رجال الجن زادوا رجال الإنس إثماً وخطيئة ، وازدادوا عليهم جراءة وطغياناً .

والملاحظ هنا أن الحقَّ سبحانه سمَّى الجنَّ رجالاً كما أسمانا رجالاً، فخاطبهم فى الكتاب كما خاطبنا ، ففى الجن رجال كما فى الإنس وأنهم يتناسلون ، فكلمة رجل تُطلق على هذا الجنس من الثقلين .

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا
ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا
نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا
رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾



لم يكونوا يعتقدون أن هناك رسولاً بعد عيسى بن مريم، فرجال الجن كانوا مثل رجال الإنس فى هذا ، فقد اعتقد هؤلاء وأولئك أن الله لن يبعث أحداً رسولاً إلى خلقه يدعوهم إلى توحيد الله .

وقد أوضح الحق سبحانه هذا فى سورة ص : ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَـٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَـٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَـٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (٧) أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (٨)﴾ [ص]

فكفار قريش وجدوا أن اليهود قالوا : عزير ابن الله ، والنصارى قالوا : المسيح ابن الله . وقالوا : إن الله ثالث ثلاثة . لذلك قال كفار مكة : ما سمعنا بتوحيد الله فى الملة الآخرة .

الجن كذلك منهم من اعتقد اعتقاد النصارى ، ومنهم من اعتقد اعتقاد اليهود ، ومنهم من عبد الأوثان ككفار مكة ، وظنوا أنه لن يبعث الله أحداً ينقض هذا فقالوا مع مَنْ قال : ﴿لَن يَبْعَثَ اللهُ أَحَدًا(٧)﴾ [الجن]

ثم يقول الجن : ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا(٨)﴾ [الجن]

قبل نزول القرآن كان الشياطين يسترقون السمع ولكن عند بعث رسول الله ﷺ امتنع ذلك كله ، فعرفوا أن نبياً ورسولاً آخر سيُبعث ، وقد امتنع عليهم ذلك لأن الله أراد أنَّ لا تضع الشياطين خرافاتهم فى منهج الله .

وانظر إلى دقة الأداء القرآنى فى قوله تعالى : ﴿أَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ (٨)﴾[الجن] كأنهم صعدوا إلى السماء حتى بلغوها لدرجة أنها أصبحت قريبة لهم حتىكادوا يلمسونها .

واللمس إدراك بظاهر البشرة كالمسِّ ويُعبَّر به عن الطلب ، فهم طلبوا السماء ليتسمعوا أخبارها والأوامر والوحى النازل فلم يستطيعوا ، لمسوا والتمسوا غيب السماء وطلبوا سماعه .

فقد طلبنا بلوغها لاستماع كلام أهلها وطلبنا خبرها .

﴿أَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا(٨)﴾ [الجن]

لقد أراد الجن أن يستمعوا خبر السماء فوجدوها﴿ مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا (٨)﴾ [الجن] من الملائكة يحرسون السماء من كل جانب ، فهم حراس من الملائكة تمنعهم من الوصول إلى أرجاء السماء أو حتى الدنو والقرب منها .

لقد تمت حراسة السماء من أنْ يقترب منها الجن والشياطين ، لنزول آيات القرآن على محمد ﷺ .

وليست الحراسة فقط بل مُلئت السماء ﴿وَشُهُبًا(٨)﴾ [الجن] والشُّهب جمع شهاب ، فالجن وجدوا السماء مُلئت حرساً شديداً من الملائكة وشُهباً مُحرقة تترصَّد مَنْ يقترب من السماء .

فالشهب هى النجوم المحترقة ، فكانت الشياطين عندما تحاول الاستماع إلى ما ينزل من السماء ينزل عليهم شهاب يحرقهم .

فالشهب جمع شهاب ، وهى النجوم التى كانت تُرجم بها الشياطين، والحق سبحانه يقول عن السماء : ﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ (١٨)﴾ [الحجر]

فقد كان العاصون من الجن قبل رسول الله ﷺ يسترقون السمع للمنهج المنزّل على الرسل السابقين لرسول الله ، واختلف الأمر بعد رسالته الكريمة حيث شاء الحق أنْ يحرس السماء وما أنْ يقترب منها شيطان حتى يتبعه شهاب ثاقب .

والشهاب هو النار المرتفعة ، وهو عبارة عن جذوة تشبه قطعة الفحم المشتعلة ويخرج منها اللهب ، وهو ما يُسمَّى بالشهاب .

﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا(٩)﴾ [الجن]

فالشياطين كان لها مقاعد فى السماء تقعد فيها لتستمع لما ينزل من السماء إلى الأرض ليتم تنفيذه ، فكانوا يأخذون بضعاً من كلمات

المنهج ويزيدون عليها فتبدو بها حقيقة واحدة وألف كذبة ، فلما بعث الله رسولَ الله مُنعوا من تلك المقاعد .

يقول الحق سبحانه عن الجن والشياطين الذين كانوا يقعدون هذه المقاعد للسمع ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (٢١٢)﴾ [الشعراء] فعُزلوا عن السمع برجمهم بالكواكب والنجوم والنيازك وهى الشهب .

فكانوا معزولين عن استماع الوحى والأمر من السماء وممنوعين من استماع كلام الملائكة فيما يكون فى الأرض من موت أو غيث أو أمر.

﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا(٩)﴾ [الجن] بعض الجن كانوا يحاولون الاستماع فكانوا يُقابلون بالشهب ، شهاب نار قد رصد لكل مَنْ يحاول أنْ يتسمَّع .

لذلك كان استماعهم استراقاً وخطفاً ، قال تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠)﴾ [الصافات]

فبعض هؤلاء المردة سيستطيعون خطف بعض الأخبار ، لكن لن يتمكنوا من الفرار بها وتوصيلها إلى أوليائهم ، ولكن هيهات لهم ذلك لأنه ﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠) ﴾[الصافات] يعنى كوكب ينقضُّ عليه، ومعنى (ثاقب) يعنى : نافذ يخترق الأجواء حتى يصل إلى هدفه فى أسرع وقت .

فإنْ سأل سائل : فلماذا لا يُمنع بداية من استراق السمع ؟ قالوا : فَرْق بين أنْ يُمنع من الشيء أصلاً ، وبين أنْ يناله ثم لا ينفذ به ولا يستفيد منه ، فالله يمكّنه من بعض الأخبار فيسمعها ، لكن تعاجله الزاجرات والشهب من كل ناحية فتكون حسرته أعظم ، حسرة أنه تعب وتحمَّل المشاقّ فى استراق السمع والخطف ، وحسرة أنه لم ينتفع بما سمع .

ثم يقول تعالى :

﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾
وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾﴾

هذا استمرار لكلام الجن ، فهم لايدرون سبب حراسة السماء الشديدة بالملائكة ، ورمى الجن بالشهب النارية لمنعهم من الاستماع ، هل هذا لشر أُريد بمَنْ فى الأرض حتىلا يفطنوا لما قد يحدث لأرضهم . أم أن الله قد أراد بهم رشداً وهدى .

فالأمر قد اختلط على الشياطين لأنهم لم يعودوا يستطيعون استراق السمع ، ولذلك لم يعرفوا هل الذى ينزل من السماء خير أم شر ؟

فالجن لا يعلمون السر فى حراسة السماء ، وهل فى ذلك شر بالبشر، أو أراد الله بهم خيراً وهُدى ، والشر قد يكون عذاباً ينزل بأهل الأرض.

أما الرشد فهو الهدى بأنْ يبعث منهم رسولاً مرشداً يرشدهم إلى الحق ، وهل الشر أو الرشد باعتبار المقصود من الأمر النازل أم بنتيجته ، فهم كانوا علموا أن مَنْ آمن بالرسول المبعوث ونظر إليه بعين الاستهداء والإرشاد فقد رشد ، ومَنْ نظر إليه بعين الاستخفاف والاستهزاء استؤصل ، فلم يدر الجن أيكذبون الرسل فيحلّ بهم الهلاك فى العاقبة أو يُصدِّقونه فيرشدوا به ؟

ويوصِّف الجن أنفسهم بقولهم ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (١١)﴾ [الجن]

فلأنهم لم يدروا أيُصدِّقون الرسل أم يكذِّبونه ، انقسموا ، فمنهم مَنْ آمن ، ومنهم مَنْ كان دون ذلك .

فالجن منهم العاصون والطائعون والمؤمنون ، فهم مثلنا فمنهم الصالحون المصلحون الذين يُعينون على الخير ، ومنهم مَنْ هو أقلّ من

ذلك صالح غير مصلح ، مُهتدٍ غير هادٍ ، فمنهم الطائع ومنهم العاصى. ومنهم المتمرد ، وقد يكون مَنْ هو دون الصالحين هم الشياطين .

﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (١١)﴾ [الجن] أى كنا أهل ملل شتى ، مؤمنين وكافرين ويهود ونصارى . أى أنهم كانوا ذوى أهواء مختلفة .

والطرائق جمع طريقة وهى طريقة الرجل ومذهبه ، والقدد : جمع قدَّة وهى الضروب والأجناس المختلفة . فكانوا فِرقاً شتى وقد قال السُّدى : الجن مثلكم فيهم قدرية ومرجئة ورافضة وشيعة[1]. وهذا يدلُّ على أن فيهم مجتهدين ومتأولين للآيات ، ومنهم مَنْ تقف أمامه آيات مشتبهة ، لذلك فهم أصناف مختلفون .

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبٗا ١٢﴾

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا (١٢)﴾ [الجن] الظن هنا بمعنى أيقنا وآمنا أننا ﴿ لَنْ نُعجزَ اللهَ فِي الأَرْضِ (١٢)﴾ [الجن]

والشيء المعجز هو الذى يثبت العجز للمقابل ، نقول : عملنا شيئاً معجزاً لفلان يعنى لايستطيع الإتيان بمثله ، فهم آمنوا أنهم لن يستطيعوا الإفلات من عقاب الله ، ولن يُعجزوه ولن يعجز عنهم أبداً ، وهو سبحانه مدركهم لا محالة .

ومثله قوله تعالى : ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ (٥٧)﴾ [النور] فلن نسبق الله فى الأرض فنفوته ، ولن نُعجزه هرباً فلن نسبقه ونفلت منه سبحانه ، إنْ إراد الله بنا سوءاً ، فالله قادر علينا حيث كنا .

لذلك قال : ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعجزَ اللهَ فِي الأَرْضِ (١٢)﴾ [الجن] أى وإنْ دخلنا تحت تخوم الأرضين ، ولن نعجزه بالهرب على وجه الأرض،

---

(١) ذكره الثعلبى فى تفسيره (الكشف والبيان ١٠/٥١) من قول السدى . وقد ذكره الواحدى فى تفسيره (الوسيط فى تفسير القرآن المجيد) (٣٦٦/٤) أن الحسن البصرى قال : الجن أمثالكم فمنهم قدرية ومنهم مرجئة ورافضة وشيعة .

وهذا إقرار منهم بأنهم لايستطيعون بحيلهم وأسبابهم أنْ يحترزوا من عذاب الله تعالى .

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾﴾

الهدى : القرآن الذى سمعوه من فم رسول الله ، وهو هدى لأنه يهدى إلى الطريق المستقيم ، وقد قال تعالى : ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَسُولًا (٩٤)﴾ [الإسراء]

فالهدى هو الدلالة على طريق يوصلك إلى ما تطلبه ، فالإشارات التى تدل المسافر على الطريق هى هدى له لأنها تبين له الطريق الذى توصله إلى المكان الذى يقصده .

وقد وصف الحق سبحانه القرآن فقال ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢)﴾ [البقرة] ، وقال : ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى (١٢٠)﴾ [البقرة]

فالقرآن الكريم هو هدى الله يحمل هداية الدلالة للذين يريدون أنْ يجعلوا بينهم وبين غضب الله وعذابه وقاية .

والجن يقولون ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ (١٣)﴾ [الجن] فبدلاً من أنْ يقولوا : وأنَّا لما سمعنا القرآن . انتقلوا إلى وصفه مباشرة على اعتبار أن القرآن هو الهدى بأل التى للعهد تمييزاً له عن الكتب الأخرى .

﴿ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (١٣)﴾ [الجن] إيمانك بالقرآن هو إيمانٌ بالهدى ، وإيمانك بالهدى هو إيمانٌ بمَنْ أنزل القرآن على رسوله محمد .

ولهذا الإيمان بربك عاقبة وهى ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (١٣)﴾ [الجن]، فالإنسان إنما يخاف من البَخْس والرَّهَق ، فإنْ كنتَ لا تريد الوقوع فيهما فآمن بربك يكفك الأمرين .

فما هو البَخْس ؟ وما هو الرَّهَق ؟

البَخْس هو إنقاصُ الحق ، ويقول تعالى عن يوسف عليه السلام : ﴿ وَشَرَوْهُ[1] بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢١)﴾ [يوسف]، ويقول تعالى : ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ (١٨٣)﴾ [الشعراء] ومعنى (أشياءهم) حقوقهم .

فالبَخْس والنقص من حقِّ الغير ذنب ، وقد يكون بأخْذ الشيء كله غصباً أو بالتصرف فيه دون أمر صاحبه ، أو على وجه لا يرضاه .

والحق سبحانه لا يبخس الناسَ شيئاً ، يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (١١٢)﴾ [طه]

والهضم هو البَخْس وهو النقصان فلا ننقصه أجره وثوابه . ومنه نقول : فلانٌ مهضوم الحق . يعنى كان له حَقٌّ فلم يأخذه .

والله لا يظلم أحداً مثقال ذرة ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠)﴾ [النساء]

أما الرَّهَق فهو ألوان من العذاب ، لا يخاف بَخْساً فيُبخس حقه كله ولا رهقاً يبخس بعض حقه ، فمَنْ يصدّق بربه لا يخاف أنْ ينقص من حسناته فلا يجازى عليها ، ولا رَهَقاً إنما يحمل عليه من سيئات غيره .

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى : ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ (١٤)﴾ [الجن] فالجن فيهم المؤمن والكفار . والقاسطون الجائرون الظالمون ، والحق سبحانه

---

(١) شروه : باعوه . يطلق لفظ الشراء على البيع . يقال : شريت الشيء بمعنى بعته وإنما حمل هذا الشراء على البيع ، لأن الضمير فى (شروه) وفى (كانوا فيه من الزاهدين) يرجع إلى شيء واحد . [السراج المنير لشمس الدين الخطيب ٢/٩٨] .

يقول : ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا(١٥)﴾ [الجن] فالقاسط يذهب إلى النار ، وهى مأخوذة من (قسط يقسُط) . فالقاسطون الجائرون على حقوق غيرهم .

ولكن القاسطين هنا مقابلون للمسلمين ، فيكون القاسطون هم الظالمون الذين ظلموا أنفسهم بأنهم عدلوا بالله غيره سبحانه، فالمسلمون هم الذين خضعوا لله بالطاعة ، أما القاسطون فهم الجائرون عن الإسلام وقصد السبيل .

﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤)﴾ [الجن] فمَنْ أسلم وخضع لله بالطاعة فأولئك تعمدوا وترجوا رشداً فى دينهم ، والتحرى والتوخِّى هو القصد ، فهم قصدوا نوراً وثواباً ، وقصدوا طريق الحق .

أما الظالمون الجائرون فيقول تعالى : ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا(١٥)﴾ [الجن] وقد جعلناهم حطباً للنار ليقوى التذاذ المؤمن بالنعيم كما لا تتبين لذة الصحيح إلا عند رؤية المريض . فحطباً أى وقوداً للنار.

﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ١٦ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا ١٧﴾

ثم يُعرِّج الحق سبحانه على كفار مكة فيقول : ﴿ وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ (١٦)﴾[الجن] أى طريقة الهدى﴿ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا (١٦)﴾ [الجن] أى ماء كثيراً من السماء .

فلو آمنوا لوسَّع الله عليهم فى الرزق ، فلو استقاموا على طريقة الحق والاستقامة لوسَّعنا عليهم فى الرزق وبَسْطنا لهم فى الدنيا .

والحنيفية السَّمحة هي الاستقامة ، وقد قال تعالى : ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَـكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧)﴾ [آل عمران] والذى يسير فى طريق مستقيم ما الذى يدعوه إلى أنْ ينحرف عن

الطريق المستقيم ليطيل على نفسه السبيل ؟ إنْ كان يريد الغاية مباشرة فإنه يفضِّل الطريق المستقيم ، أما الذى ينحرف عن الطريق المستقيم فهو لا يصل للغاية المنشودة ، بل يطيل على نفسه المسافة وقد لايصل إلى الغاية .

أما إذا استقام على الطريقة وهى الملَّة الحنيفية والسنة والشريعة، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨)﴾ [الجاثية]

والماء الغدق قد يكون المطر ، وقد يكون المال الكثير الوفير لأنه يقول بعدها ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ (١٧)﴾ [الجن] أى : لنبتليهم به ونختبرهم .

وقد قال عمر رضى الله عنه : أينما كان الماء كان المال ، وأينما كان المال كانت الفتنة(١) .

فرزق الدنيا فتنة وابتلاء ، ومَنْ فتن برزق الدنيا مالاً أو جاهاً أو نساء فقد خسر وخاب ويكون الابتلاء والفتنة شراً له .

ثم يقول الحق سبحانه :﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧)﴾ [الجن]، ففى الآية السابقة قال (وألو استقاموا على الطريقة) ماذا يحدث لهم ؟﴿ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا (١٦)﴾ [الجن]

هذا لمَنْ آمن واستقام على منهج الله وشرعه ، أما مَنْ لم يؤمن بل أعرض ونأى بجانبه وصَدَّ عن سبيل الله ﴿ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧)﴾ [الجن]

كان مطلوباً منه أنْ يسلك سبيل الرشاد والهدى والاستقامة على الطريقة ولكنه أعرض ، لذلك ﴿يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧)﴾ [الجن] أى يُدخله الله عذاباً شديداً شاقاً متصاعداً لا راحةَ فيه .

وقد أعطانا الحق سبحانه مثالاً لهذا العذاب الشديد الشاق المتصاعد، فقال : ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧)﴾ [المدثر]

أى سأكلفه أنْ يصعد على صخرة من النار ملساء فى تلك الصخرة،

---

(١) أخرجه الطبرى فى تفسيره (٢٣/ ٦٦٣) والثعلبى فى تفسيره (٥٣/١٠) وكذا القرطبى (١٨/١٩)

كُوىً تخرج منها ريح حارة ملتهبة ، وهو عذاب السَّموم فإذا أصابته تلك الريح تناثر لحمه .

ثم يذكر لنا الحق سبحانه قضية لابدَّ أنْ نضعها فى أذهاننا وهي:

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾

المساجد جمع مسجد ، وهو المكان الذى يُسجد فيه لله وحده ، فهو مكانٌ للعبادة ، فإذا دخلتَ المسجد للعبادة فإنَّ لحظة دخولك المسجد هى لحظة جئت فيها لتقترب من ربك وتناجيه وتعيش فى حضن عنايته فلا تأت بالدنيا معك .

وقد كان أحدُ الصحابة يقول : كنا نخلع أمر الدنيا مع نعالنا .

والمسجد لن يأخذ منك إلا الوقت القليل فضَعْ قدرك مع نعلك خارج المسجد ، وادخل بلا قدر إلا قدر إيمانك بالله ، ادخل بعبوديتك لله ، ولا تلحظ لك قدْراً إلا قدرك عند الله .

واجلس حيث ينتهى بك المجلس ولا تتخط الرقاب وانْوِ الاعتكاف ولا تتكلم فى أى أمر من أمور الدنيا .

فالمساجد هى فيوضات الحق النورانية على خَلْقه ، فالذى يريد فيْضَ الحق بنوره ، فليذهب إلى المسجد ، فالمسجد هو مكان لا يزاول فيه إلا لقاء الله .

فليخصِّص الإنسانُ المؤمنُ ساعةً لله وحده فى اليوم ، وليخلع كل أغراض الحياة الدنيا كما يخلع النعال على باب المسجد ، فليس من حُسْن الأدب واللياقة أنْ ينشغل الإنسان بأى شيء غير لقاء الله فى الوقت المخصص للقاء الله ، وفى المكان المخصص لهذا اللقاء .

فعلينا ألاَّ نناقش أمورنا الدنيوية من بيع وشراء فى المسجد ، فكأننا لا يكفينا حبُّ الدنيا خارج المسجد ونطمع فى الدقائق التى

نخصِّصها للصلاة فنجرجر الدنيا معنا إلى المسجد .

ومع أن الأرض كلها تصلح للصلاة لكنك حين تأتى إلى المسجد اصحب معك أخلاقَ التعبُّد ، ويجب أنْ يكون الانفعال والتفاعل والحركة والنشاط كله فى الله .

فالمساجد لله ﴿ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (١٨)﴾ [الجن] والدعاء هو العبادة(١)، فلا تعبدوا مع الله أحداً ، بل قوموا بما يجب لله من توحيد .

ولكن البعض تأوَّل هذه المساجد أنها الأعضاء التى يسجد عليها الإنسان ، وهى سبعة : الجبهة واليدان والركبتان والقدمان ، فهذه الأعضاء مخلوقةٌ لله عز وجل فلا تسجدوا عليها لغير الله .

وقد قال رسول الله ﷺ : « أُمرتُ أنْ أسجد على سبعة ، على الجبهة وأشار بيده إلى أنفه واليدين والركبتين »(٢).

وكلا المعنيين محتمل ، فالمساجد قد تكون مواضع الصلاة ، وقد تكون أعضاء السجود .

والحق سبحانه يقول عن المساجد : ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨)﴾ [التوبة]

فقوله ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ (١٨)﴾ [التوبة] يدل على أن التحدث فى المساجد بما يهمّ أمور المسلمين وانتقاد أمور يروْنَها خارجةً عن منهج الله لا يطعن فى كوْن المساجد لا يُعبد فيها إلا الله ، فلا يُدعَى فيها لأشخاص ولا غيره .

فـ﴿ لَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ (١٨)﴾ [التوبة] أى لم يخْشَ فى دينه إلا الله فجاهر

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (١٨٣٥٢، ١٨٣٨٦) وعبد الله بن المبارك فى كتابه (الزهد والرقائق) (١٢٩٨) وأبو داود الطيالسى فى مسنده (٨٣٨) من حديث النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ قال : «إن الدعاء هو العبادة ، قال ربكم ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ (٦٠) ﴾ [غافر]

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٧٧٧) وأبو عوانة فى مستخرجه (١٨٦٧) ، والبخارى فى صحيحه (٨١٢) ومسلم فى صحيحه (٢٣٠) من حديث ابن عباس .

بالحق وعمل بمقتضى إيمانه بالله واليوم الآخر ، وأنه لا يدعو ولا يعبد إلا الله .

فالإيمان بالله يقتضى خشيته فهو أحقُّ أنْ يُخشى .

ثم يقول تعالى :

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ١٩﴾

لما قام رسولُ الله يدعو ربه ويقرأ القرآن تجمَّع هؤلاء الجن التسعة ليستمعوا منه القرآن ، فعبد الله هو رسول الله محمد قام يعبد ربه فى بطن نخلة بين مكة والطائف .

فكان الجن من حبهم لما استمعوه من رسول الله من آى الذكر الحكيم ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (١٩)﴾ [الجن] أى كادوا أنْ يقعوا عليه من تراكبهم عليه من شدة حرصهم على استماعه .

فكادوا يركب بعضهم بعضاً من الازدحام عليه حرصاً على استماع القرآن ، فكادوا يكونون على محمد جماعات بعضها فوق بعض ، واحدها لبدة ، والعرب تُسمِّى الجراد الكثير الذى قد ركب بعضه بعضاً لُبْدة .

وفى كلامنا العامى نقول : شعر مُلبَّد . أى متشابك متراكب داخل فى بعضه ، بعضه فوق بعض .

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ٢٠ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ٢١ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ٢٢﴾

(قُلْ) يا محمد ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّى وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٠)﴾ [الجن] فإذا كان الجن كانوا يبحثون عن الحق بين رسالات سابقة ووجدوا السماء قد حُرِسَتْ بحراسة شديدة من الملائكة ، وأصبح الاقتراب من السماء

لتسمع الأخبار أمراً خطيراً .

فرسول الله يعلن لهم إعلاناً واضحاً عن رسالته وما جاء به : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّى وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٠)﴾ [الجن]

فأنا إنما أعبد ربى ، وما جئت إلا بتوحيده وعدم الإشراك به شيئاً أو أحداً ، فلا أصنام ولا أوثان ، ولا بشر ولا حجر ، ولا كواكب ولا نجوم ولا قطط ولا حيوانات ولا شمس ولا قمر .

إنما هو الله الواحد الأحد لا ربَّ سواه ، ولا إله غيره .

والبعض من العلماء تأوَّل هذه الآيات أن المقصود بها كفار مكة قالوا للنبى ﷺ: لقد جئتَ بأمر عظيم فارجع عنه فنحن نجيرك، فقال لهم النبى ﷺ: إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحداً [1].

﴿قُلْ إِنِّى لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (٢١)﴾ [الجن] نلحظ أن الحق سبحانه كرر فى هذه السورة مادة (ر ش د) عدة مرات ، ﴿يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ (٢)﴾ [الجن] ، ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠)﴾ [الجن] ، ﴿فَأُولَـٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤)﴾ [الجن] ، ﴿قُلْ إِنِّى لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (٢١)﴾ [الجن]

أربعة مواضع : الرُّشْد ، ثم رَشَداً ثلاث مرات .

ولماذا لم يقُلْ الحق سبحانه : قل إنى لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً فإنَّ الضر يقابله النفع ؟ نقول : لم يكن الجن الذين استمعوا لرسول الله يبحثون عن نفع وإنما كانوا يبحثون عن الحق ، لذلك لما سمعوا القرآن قالوا : ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ (٢)﴾ [الجن]

كانوا يبحثون عن الهدى وعن الرُّشْد والرَّشَد . ولا يبحثون عن نَفْع دنيوى . والرُّشْد والرَّشَد والرشاد كلها واحد نقيض الغَى .

ولو قلنا : إن المقصود بهذه الآيات هم كفار مكة فإن الله عزَّ وجلَّ يقول لمحمد : يا محمد قُلْ لمشركى العرب إنِّى لا أملك لكم ضراً فى

(١) أورده الخازن فى تفسيره (لباب التأويل فى معانى التنزيل) (٣٥٢/٤) ، وكذا البغوى فى تفسيره (١٦٣/٥) ، والشوكانى فى (فتح القدير) (٣٧١/٥) .

دينكم ولا دنياكم ولا رشداً أرشدكم ، لأن الذى يملك ذلك هو الله الذى يملك كلَّ شيء .

ثم يقول القرآن : ﴿ قُلْ إِنِّى لَنْ يُجِيرَنِى مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢)﴾ [الجن]

لا أحدَ يجير إلا الله ، واعلم أنه لا سلطانَ لأحد أبداً ، ولا أحد يجير على أحد ، فهو سبحانه الذى يجير ولا يُجار عليه ، ولن يجير شيء على الله تعالى .

وقد قال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِى اللهُ وَمَنْ مَعِى أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٨)﴾ [الملك]

﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨)﴾ [المؤمنون] يجير تقول استجار بفلان فأجاره يعنى استغاث به فأغاثه، ومنه قوله تعالى : ﴿وَإِنِّى جَارٌ لَكُمْ (٤٨)﴾ [الأنفال] والإنسان لا يستجير بغيره إلا إذا ضعفتْ قوته عن حمايته ، فيلجأ إلى قوى يحميه ويدافع عنه .

إنْ خرجت عما أرسلنى الله به فلن يستطيع أحدٌ حمايتى من الله إنْ أراد بى إنزالَ عقوبة إن عصيته .

﴿وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢)﴾ [الجن] كلمة (ملتحداً) وردت فى القرآن مرتين ، هذه التى معنا فى سورة الجن ، والأخرى فى قوله تعالى: ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٧)﴾ [الكهف]

أى ملجأ تلجأ إليه ، فلن تجد من دون الله ملجئاً تلوذ به ، فإنْ لم أتبع ما جئت به فلن أجد من دونه حرزاً أعدل إليه وألجأ ، وقيل مدخلاً فى الأرض مثل السرب أدخل فيه .

وكلمة ﴿مُلْتَحَدًا (٢٧)﴾ [الكهف] من اللحد يكون فى شقٍّ من الأرض يُوضع فيه الميت كأنَّ الأرض تحتضنه وتخفيه فى داخلها .

﴿ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ ﴾

فالذى يجيرنى من عذاب الله هو البلاغ عن الله سبحانه ، ففيه الجوار والأمن والنجاة ، وذلك الذى أملكه ، فأنا لا أملك لكم ضراً ولا رشداً .

فالرشد والخذلان بيد الله وحده هو مالكه دون سائر خَلْقه يهدى مَنْ يشاء ويخذل مَنْ أراد .

وبعض العلماء نظر إلى كلمة (إلا) فى أول الآية أنها مكونة من حرفين (إنْ) و (لا) . فتكون (لا) منقطعة من (إن) فيكون معنى الكلام : قُلْ إنى لن يجيرنى من الله أحدٌ إنْ لم أبلغ رسالاته ..

إن الأمر جدىٌّ فلن يجيرنى من الله أحدٌ ، ولن أجد من دونه ملجأً أو حماية إلا أنْ أبلغ هذا الأمر وأؤدى هذه الأمانة ، فهذا هو الملجأ الوحيد ، وهذه هى الإجارة المأمونة .

فهى أمانة لا بدَّ أنْ يُبلّغها رسول الله ، لذلك عندما ساوم كفارُ مكة رسولَ الله قال لعمه أبى طالب : « والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أنْ أترك هذا الأمر ما تركتُه حتى يُظهره الله أو أهلك دونه »[1] .

وقد جمع الحق سبحانه كلمة (رسالة) فقال ﴿ وَرِسَالَاته ﴿٢٣﴾ ﴾ [الجن]

وقد مدح الحق سبحانه الذين يبلّغون رسالاته فقال : ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [الأحزاب]

ويقول سبحانه على لسان رسوله ﷺ: ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الأعراف]

---

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢٦٦/١) ، والبيهقى فى (دلائل النبوة) (المقدمة – ص ٦٦) ، وكذا السهيلى فى (الروض الأنف) (١٠/٣) ، وابن سيد الناس فى عيون الأثر (١١٨/١) .

والمقصود برسالات الله ما أرسله الله به من أوامر ونواهٍ وشرائع وتكاليف ، فكأنَّ كلاً منها رسالة .

﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ..(٢٣)﴾ [الجن]

المعصية هنا ليست هي ارتكاب الذنوب والآثام ، إنما هي المعصية في الإيمان نفسه وإباء ورَفْض الإيمان بالله وكتبه ورسالاته ورسله.

وقد قال رسول الله ﷺ: « كلُّ أمتي يدخلون الجنة إلا مَنْ أبى . قالوا: ومَنْ يأبى يارسول الله ؟ قال : مَنْ أطاعني دخل الجنة ، ومَنْ عصاني فقد أبى[(١)] فَمَنْ يَعْصِ الله ورسوله في التوحيد فلا يؤمن به فإن له ﴿ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣)﴾ [الجن] فمَنْ يعصِ الله فيما أمره ونهاه ويكذّب به وبرسوله فجحد رسالاته ، فإن له نار جهنم يصلاها ماكثين فيها أبداً إلى غير نهاية .

والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ (١٦٢)﴾ [البقرة]

الحق سبحانه يحدثنا عن عذاب النار الذي يلحق بالكافرين وهو عذاب يخلدون فيه ، ثم يصعِّد الحق سبحانه الخلود بالأبدية ، فهناك عذاب في النار ، وهناك خلود فيها ، وهناك أبدية خلود .

ولكن أبدية الخلود في النار لم تُذكر إلا في هذه الآية في سورة الجن ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣) ﴾[الجن]

ولفظ (أبداً) يدل على ملحظ يزيد على معنى الخلود دون تأبيد . فالقرآن كلام الله ، وكلام الله مُنزَّه عن العبث أو التكرار ، فكلّ لفظ من القرآن محكم وله معنى .

فكلمة (خالدين فيها) لا تفيد التأبيد الذي لا نهاية له ، فكلمة ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣)﴾ [الجن] تعني أن المكْث في الجنة ينتقل من المكث

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٢٨٠) والمهلب بن أحمد الأندلسي في المختصر النصيح في تهذيب الكتاب الجامع (٧٢٨٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

طويلاً إلى المكث الدائم الذى لا ينتهى.

ثم يقول تعالى:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا وَأَقَلُّ عَدَدٗا ﴿٢٤﴾ ﴾

الحق سبحانه يثبت لهم هنا الرؤية ومثلها قوله تعالى : ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا (٥٣)﴾ [الكهف] بينما فى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا (٩٧)﴾ [الإسراء]

والمتأمل فى حال هؤلاء يجد أن العمى كان ساعة البعث ، حيث قاموا من قبورهم عُمياً ليتحقق لهم الإذلال والحيرة والارتباك ، ثم بعد ذلك يعودون إلى توازنهم ، ويعود إليهم بصرهم ليشاهدوا به ألوان العذاب الخاصة بهم ، وهكذا جمع الله عليهم الذل فى الحالين : حال العمى وحال البصر .

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا (٧٥)﴾ [مريم]

و ﴿ يُوعَدُونَ (٢٤)﴾ [الجن] من أوعد . من الوعيد والتهديد والله حين يُوعد قادر على إنفاذ ما أوعد به ، ولن يفلت أحد منه أبداً ، فإذا أوعد فلا بد أن يأتى وعيده .

﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (١٣٤)﴾ [الأنعام]

فلا أحد بقادر على أنْ يمنع الله عن تحقيق ما وعد أو أوعد ، ولن تفروا من وعده أو وعيده ، ولن تغلبوا الله أو تفوتوه وتُعجزوه ، فالله غالب على أمره .

﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا (٢٤)﴾ [الجن] فمَنْ أضعف ناصراً

كفار مكة أو المؤمنون، ومَنْ أقل عدداً أى جنداً . فلا ناصرَ لهم فى الآخرة .

وقد كان المشركون يعيِّرون النبى والمؤمنين بقلَّة الناصر وقلَّة العدد ، فقال ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا (٢٤)﴾ [الجن] أى فى القيامة.

وهذا تهديد ظاهر لمن يبلغه هذا الأمر ثم يعصى ، وإذا كان المشركون يقيسون قوتهم إلى قوة محمد ، ويركنون إلى القوة العدد ، فعندما يرون إنفاذ وعيدنا فيهم حينها سيعلمون مَنْ أضعف ناصراً حين يغيب المناصرون لهم ،وسيعلمون مَنْ أقلّ عدداً حينما يتخلى عنهم أخلاؤهم الذين كانوا لهم أعواناً فى الدنيا .

يقول تعالى : ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧) ﴾ [الزخرف] فسيكونون أعداء لبعضهم يتبرأون من بعضهم البعض

ويقول تعالى : ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً[1] فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧)﴾ [البقرة]

ثم يقول تعالى :

﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا (٢٥) ﴾

(إنْ) هنا للنفى معناها (ما) أى ما أدرى أقريب ما أوعدكم الله به وهددكم به من عذاب خُلْد أبدى ، لا أدرى أقريب هو أم بعيد ، وهو قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا (٢٥)﴾ [الجن]

مادة الأمد (أ م د) وردت فى القرآن أربع مرات .

---

(١) كرَّة : أى رجعة فى الدنيا . أى أنهم تمنوا الرجعة حين لا رجعة لهم . (تفسير الخازن ٣/٣٢٨) .

قال تعالى : ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ (١٦) ﴾ [الحديد]
الأمد : الوقت والزمن والدهر . وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا (٣٠) ﴾
[آل عمران]

فقوله ﴿ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا (٢٥) ﴾[الجن] فقوله أى أجلاً وغاية تطول مدتها فيكون أجلاً بعيداً .

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) ﴾

فالغيب هو ما لا يعلمه إلا الله سبحانه ، وهذا ما استأثر الله بعلمه، فالله هو عالم الغيب ، فلا يُطلع أحداً من خَلْقه على غيبه إلا مَنْ ارتضاه واصطفاه من البشر .

فالحق سبحانه يقول : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩) ﴾ [الأنعام]

وهو سبحانه لا يعطى المفتاح لأحد من خَلْقه ، والغيب هو ما غاب عن الكل ، وهو الغيب المطلق ، أما الأمر المخفى فى الكون وكان غيباً على بعض من الخَلْق ، ثم يصبح مشهداً لخَلْق آخرين فلا يُقال إنه غيب .

﴿ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) ﴾ [الجن] أى لا يُطلع أحداً على غيبه ، ومثل هذا قوله تعالى فى سورة التحريم : ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ (٣) ﴾ [التحريم]

أى أن الله أطلعه على ما غاب عن رسول الله من شأن حفصة رضى الله عنها أنها أخبرت عائشة بما أسرّه رسول الله لها .

والحق سبحانه استثنى من هؤلاء الذين لا يطلعهم على الغيب ، استثنى فقال :

﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾

فالحق سبحانه استثنى مَنْ ارتضاه سبحانه من الرسل فأطلعهم على بعض الغيب مما أراده الله ، فالرسل لا يعلمون الغيب ولكن الله سبحانه يعلمهم بما يشاء من الغيب، ويكون هذا معجزة لهم ولمن اتبعوهم .

والله لا يُطلع على غيبه أحداً إلا لرسول يختاره الحق ليعلم بعضاً من الغيب ويحميه الله ويعصمه ويحفظه بالملائكة لتحول بينه وبين وساوس الشياطين وتخليطهم حتى يبلِّغ ما أوحى به إليه .

فيحمى الحق سبحانه وحيه من تعرُّض الجن لما يريد إطلاعه عليه لئلا يسترقوه ويهمسوا به إلى الكهنة قبل أن يُبلِّغه الرسول ،وحتى يصل الوحى إلى الناس خالصاً من تخليط الجن وعبثهم .

فالرسول مُعلَّم غيب وليس عالم غيب ﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ..(٥٠)﴾ [الأنعام]

فرسول الله ينفى عن نفسه علم الغيب ، ولقائل أنْ يقول : ولكن ماذا عن الأشياء والأحداث التى أخبرنا بها رسول الله ، وهى أحداث مستقبلية ؟

أقول : إن ذلك ليس علماً للغيب ولكن الرسول مُعلَّم غيب ، أى أن ربهم سبحانه قد علَّمه ، ومثال ذلك قول الله : ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤)﴾ [آل عمران]

الحق سبحانه هو الذى علَّم رسوله تلك الأخبار التى كانت من أنباء الغيب ، وهذا اختراق لحجاب الزمن الماضى .

أما الشيء الذى سوف يحدث فى المستقبل فهو محجوب عنك بحجاب الزمن المستقبل .

فالحق سبحانه يفيض من غيبه الذاتى على بعض خَلْقه ، والقرآن الكريم فيه الكثير من الغيب ، وأفاضه الله تعالى على رسوله ﷺ وتحققتْ الأحداث كما جاءت فى القرآن .

والحق سبحانه يهب بعضاً من خَلْقه بعضاً من فيوضاته ، وقد أعطى الله سبحانه رسوله ﷺ بعضاً من الهبات وحدَّد مَنْ يعطيه بعضاً من الغيب ﴿ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ (٢٧)﴾ [الجن]

وهى ليست للحصر لأن الرسول أسوة ، ومَنْ يعمل بعمل الرسول ويقتدى به ، يهبه الله تعالى هبة يراها الناس ، فيعرفون أن مَنْ يتبع الرسول كقدوة يعطيه الله سبحانه الهبات النورانية، ولكن هذه الهبة ليست وظيفة وليست دكاناً للغيب ، بل هى من عطاءات الله تعالى .

والحق سبحانه يقول : ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ (٥٩)﴾[الأنعام] فالحق سبحانه لم يُعطِ مفتاح الغيب لأحد ، والولى من أولياء الله إنما يأخذ الهبة منه سبحانه ، لكن مفتاح الغيب هو عند الله وحده.

فإذا ما أعلمنا رسول الله غيباً من الغيبيات فلا نقول : إنه يعلم الغيب لأنه لا يعلم إلا ما أعلمه الله من الغيب .

إذن : هذا غيب لا يدركه أحد بذاته أبداً.

ومن هذا الغيب المطلق غيب استأثر الله به ولا يُطلع أحداً عليه حتى الرسل ، فقد « سُئل رسولُ الله عن الساعة ، فقال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل » (١).

فعلم الساعة من الغيب الذى استأثر الله به، فلم يُعطِ علمه فيها لأحد من الخَلْق .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧)﴾ [الجن]

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠، ٤٧٧٧) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٨ ، ٩، ١٠) من حديث أبى هريرة ، وهو حديث جبريل الطويل وفيه سؤاله عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة .

لقد حفظ الله رسوله من محاولات استراق الجن لأخبار السماء والوحى ، فالضمير فى (يديه) ، (خلفه) يعود على الرسول ، أى من بين يدى الرسول ومن خلفه .

وقد يسأل سائل : لماذا خصص الحق سبحانه الجهات بالأمام والخلف ولم يذكر باقىْ الجهات ، نقول : ذِكْر بعض الجهات دالٌّ على جميعها .

وقيل : إن الله تعالى كان إذا بعث رسولاً أتاه إبليس فى صورة مَلَكٍ يخبره ، فيبعث الله من بين يديه ومن خلفه رصداً أى طائفة من الملائكة تكون مهمتها رصد الجن والشياطين فيحرسونه منهم ويطردون الشيطان عنه .

وقد تولَّى الله سبحانه حفظ الذكر الحكيم بحراسة السماوات وغيرها ، والرصد من الملائكة يدفعون الشياطين عن أنْ تستمع ما ينزل من الوحى ، فهم رصدٌ لمن يأتى للرسول ليخطف الخَطْفة من أوامر السماء.

ثم يُنهى الحق سبحانه سورة الجن بقوله :

﴿ لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾

ليعلم رسول الله محمدﷺ أن الرسل قبله قد أبلغوا رسالات ربهم، وأن جبريل عليه السلام قد أبلغه رسالات ربه أوامره ونواهيه وأحكامه.

فلو لم يكُنْ هناك رصد من الملائكة للجن والشياطين لأفشوا أوامر السماء إلى الكهنة ، فلم يبق بينهم وبين الأنبياء فَرْق ولا يكون للأنبياء آيةٌ ولا معجزة ولا دلالة ثم لا يُقبل قولهم .

فرسالات ربهم تُبلَّغ كما هى محروسة من الزيادة والنقصان ، وقد

قيل فى تأويل هذه الآية أقوال وتأويلات كثيرة .

منها أى ليعلم إبليس أن الرسل قد بلَّغوا رسالات ربهم سليمةً من تخليطه وإسراف أصحابه ، ومحاولات استراق السمع قد فشلت .

﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ (٢٨)﴾ [الجن] فلا يجدون معه منفذاً للفكاك ، والإحاطة تقتضى العلم بهم والقدرة عليهم ، فلن يفلتوا من علم الله ولا من قدرته .

فالله علم ما عند الرسل فلا يخفى شيء من أمورهم ، فالله أحاط بما عند الرسل ، أو بما عند الملائكة ، أو بما عند الخلق .

فأحاط بما عند الرسل من الحكم والشرائع لا يفوته منها شيء ولا ينسى مِنها حرفاً ، فهو مهيمن عليها .

﴿ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (٢٨)﴾ [الجن] أحصى سبحانه ما خلق وعرف ما خلق لم يَفُتْه شيء حتى مثاقيل الذر والخردل . فكلٌّ شيء عنده معدود ومُحصى لا يغفل جل جلاله عن معرفة عدده .

و ﴿ عَدَدًا (٢٨)﴾ [الجن] قد تُنصب على أنها حال ، وقد تُنصب على أنها مفعول مطلق بتقدير فعل (عَدَّ) أى عدَّ عدداً .

فلا شيءَ يخفى على الله كثيراً كان أو قليلاً ، جليلاً أو دقيقاً ، فالله أحصى كلَّ شيء من القَطْر والرمل وورق الأشجار وزَبَد البحر ، فكيف لا يحيط بما عند الرسل من وحيه وكلامه .

وهو سبحانه المحصى العالم الحافظ لكل شيء .

وهنا تنتهى سورة الجن التى تهز الوجدان والقلوب ، فهى تتحدث عن عالم غير مرئى لنا يرانا ولا نراه ، قد لا نهتم كثيراً لعالم الملائكة لأنهم مأمونو الجانب ، هم جانب الخير ، إنما دائماً نحن نتوجس من عالم الجن .

جِنٌّ يبحثون عن الدين والعقيدة الحق ، فيجدونها فى قرآنٍ سمعوه من فم خاتم الرسل والأنبياء ، فإذا بهم قد أصبحوا دعاة لقومهم من الجن ، فالجن منهم مؤمنون وكافرون ، ومنهم عصاة وطائعون .


سُورَةُ المُزَّمِّلِ

سورة المزمل(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) ﴾

يخاطب الحق سبحانه نبيه وحبيبه محمداً ليقرِّبه إليه أكثر ، فالعابد لله يجب أنْ يقف بين يدى الله يناجيه ويدعوه ويتودد إليه ، فما بالُ الله هو الذى يطلب من حبيبه محمد أنْ يقوم من الليل متهجداً عابداً متقرِّباً إليه سبحانه .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا(٢) مَّحْمُودًا (٧٩) ﴾ [الإسراء]

فالهجود هو النوم ، وتهجَّد أى أزاح النوم والهجودَ عن نفسه ، وهو

---

(١) سورة المزمل : هى السورة رقم ٧٣ فى ترتيب المصحف ، وهى سورة مكية ، قال ابن عباس وعطاء : إلا آية من آخرها وهى قوله تعالى (إن ربك يعلم أنك تقوم) إلى آخر السورة فإنها نزلت بالمدينة . عدد آياتها ٢٠ آية . نزلت بمكة بعد سورة القلم ، عدا الآيات ١٠ ، ١١، ٢٠ فإنها نزلت بالمدينة .

(٢) المقام المحمود : هو مقام الشفاعة العظمى الذى يقومه رسول الله ﷺ بين يدى الله يوم القيامة ، وهى الشفاعة التى ستتدافعها الرسل ، كل منهم يقول نفسى نفسى ولكن رسول الله يقول : أنا لها أنا لها . ويخر ساجداً عند العرش ويفتح الله عليه بمحامد لم يكن يعلمها من قبل ، حتى يقول الجبار جل وعلا: يا محمد ارفع رأسك وسل تُعط واشفع تشفع فيرفع النبى ﷺ رأسه فيشفع ويقول : يارب أمتى أمتى

خصوصية لرسول الله وزيادة على ما فرض على أمته أنْ يتهجد لله فى الليل .

وهذه الخصوصية لرسول الله وإنْ كانت فرضاً عليه إلا أنها ليست فى قالب من حديد ، بل له ﷺ مساحة من الحرية فى هذه العبادة ، المهم أنْ يقوم لله تعالى جزءاً من الليل .

ويقول تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) ﴾ [الفرقان]

فحين يأوى الإنسانُ إلى بيته بعد عناء اليوم وسعيه يتذكر نعم الله التى تجلَّتْ عليه فى ذلك اليوم، وهى نِعَم ليست ذاتية فيه ، وإنما موهوبة له من الله ، لذلك يتوجَّه إليه سبحانه بالشكر عليها فيبيت لله ساجداً وقائماً .

وليس المراد قيام الليل كله ، إنما جزءٌ منه حين تجد عندك النشاط للعبادة ، وقد قال ابن عباس : مَنْ صلى بعد العشاء ركعتين فأكثر كان كمَنْ بات لله ساجداً وقائماً . فربك يريد منك أن تذكره قبل أن تنام وأن تتأمل نعمه عليك فتشكره عليها .

(المزمِّل) أصله المتزمِّل ، وهو الذى تزمَّل فى ثيابه أى تلفَّف . وقد كان النبي ﷺ يتزمل فى ثيابه أول ما جاءه جبريل فَرَقاً منه، فكان يقول : زمِّلونى زملونى حتى أنس به[1] .

والمزمِّل أيضاً حامل النبوة ، والمعنى زملتَ هذا الأمر فقُمْ به واحمله فإنه أمر عظيم ، ولم يُخاطب بالنبى والرسول لأنه كان فى أول الأمر ومبدئه ، ثم خُوطب بالنبى والرسول بعد ذلك .

---

(١) قاله الخازن فى تفسيره (لباب التأويل) (٤/٣٥٥) ، وابن الجوزى فى (زاد المسير) (٤/٣٥٢) .
وأخرج الطبرانى فى تفسيره (٢٣/٤٠٠) عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحى : بينما أنا أمشى سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض ، قال رسول الله : فجثيت منه فرقاً وجئت أهلى فقلت : زمّلونى زمّلونى فدثرونى .

ويُروى فى سبب نزول هذه السورة أن قريشاً اجتمعت فى دار الندوة تكيد لرسول الله ، فبلغ ذلك رسول الله فاغتمَّ له والتفَّ بثيابه وتزمَّل ونام مهموماً ، فجاءه جبريل عليه السلام بقوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلا(٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلا (٤)﴾ [المزمل]

كأنَّ الحق سبحانه يقول لنبيه لا تغتم ولا تحزن ، فراحتك فى قُرْبك منى ، قُمْ بين يدىَّ يذهب عنك ما تشعر من ألم من قومك . لذلك كان رسول الله يقول دائماً لبلال : « أرحْنَا بها يا بلال »(١) .

فالصلاة راحةٌ لقلبه ونفسه وروحه من تعب وشقاء الحياة التى تكاد تذهب بروح الإنسان، فمن حبه لله أصبحت طاعة الله وعبادته مرغوبة مُحبَّبة إلى النفس .

فهؤلاء يؤدونها بالمحبة والعشق ، ألفوا الراحة بالصلاة حينما يحزبهم ويشتد عليهم أمرٌ خارج عن نطاق أسبابهم ، فعشق التكليف شيء يدل على أنك ذقتَ حلاوة الطاعة .

﴿ يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢)﴾ [المزمل] ، وقد كان رسول الله ﷺ يقوم الليل حتى انتفخت قدماه ، فقيل له فى ذلك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبداً شكوراً (٢).

فقُم الليل للصلاة والعبادة واهجُرْ فراشك وما تتزمل به وتتغطى وانهض لتقوم بين يدىَّ ، فصلِّ الليل إلا قليلاً تنام فيه وهو الثلث ،

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٤٩٨٥) وأحمد فى مسنده (٢٣٠٨٨) عن سالم بن أبى الجعد قال قال رجل: ليتنى صليت فاسترحت ، فكأنهم عابوا ذلك عليه، فقال : سمعت رسول الله يقول : يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها .

(٢) عن المغيرة بن شعبة قال قام رسول الله ﷺ حتى تفطرت قدماه دماً ، قالوا : يا رسول الله قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر . قال: أفلا أكون عبداً شكوراً . أخرجه ابن المبارك فى الزهد والرقائق (١٠٧) وأبو داود الطيالسى فى مسنده (٧٢٨) ، والحميدى فى مسنده (٧٧٧) ، وأحمد فى مسنده (١٨١٩٨).

تقوم مُصلياً ثلثى الليل وتنام الثلث الباقى .

وقد يسأل سائل : هل هذا الخطاب لرسول الله وحده ، أم أن أمته مخاطبة أيضاً ، وقد ورد ما يثبت أن الخطاب كان لرسول الله ومعه أمته .

فعن عائشة قالت : كنتُ أجعل لرسول الله ﷺ حصيراً يصلى عليه من الليل ، فتسامع الناسُ به فاجتمعوا فخرج كالمغضب ، وكان بهم رحيماً ، فخشى أنْ يُكتب عليهم قيام الليل فقال : « يا يأيها الناس اكلفوا من الأعمال ما تطيقون ، فإنَّ الله لا يملُّ من الثواب حتى تملُّوا من العمل ، وخير الأعمال ما ديمَ عليه ونزل القرآن ﴿يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤)﴾ [المزمل] حتى كان الرجل يربط الحبل ويتعلق فمكثوا بذلك ثمانية أشهر فرأى الله ما يبتغون من رضوانه فرحمهم فردَّهم إلى الفريضة وترك قيام الليل »(١) .

﴿نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤)﴾ [المزمل] قُمْ نصف الليل أو انقص من النصف قليلاً إلى الثلث ، أو زِدْ على النصف قليلاً إلى الثلثين .

فخيَّره ربُّه بين ثلاثة مقامات : النصف ، الثلث ، الثلثين . يقوم بأيتهن شاء ، فكان رسول الله وطائفة من المؤمنين معه يقومون على هذه المقادير ، وشقَّ ذلك عليهم ، فكان الرجل لا يدرى كم صلى ؟ وكم بقى من الليل ؟ فكان يقوم الليل كله مخافة أنْ لا يحفظ القدر الواجب، حتى خفَّف الله عنهم بآخر هذه السورة .

وقد سئلتْ عائشة رضى الله عنها : أنبئينى عن قيام رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم فى تفسيره (١٩٠١٠) والطبرى فى تفسيره (٢٣/٣٥٩) من حديث عائشة رضى الله عنها ، والقاسمى فى تفسيره (محاسن التأويل) (٩/٣٤٥) وعزاه لابن جرير الطبرى .

بالليل ، فقالت : ألستَ تقرأ ﴿يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١)﴾ [المزمل] قلت : بلى . قالت: فإن الله عز وجل افترض قيام الليل فى أول هذه السورة ، فقام نبى الله وأصحابه حولاً ، وأمسك الله خاتمتها اثنى عشر شهراً فى السماء حتى أنزل الله فى آخر هذه السورة التخفيف ، فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة (١).

﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلا (٤) ﴾ [المزمل] قُمْ ليلك متعبِّداً راغباً فى فضل الله عز وجل ، وليكُنْ زادك فى ليلك هو القرآن فرتّله ترتيلاً .

أى بيِّنه بياناً وترسَّل فى قراءته وتمهَّل وبيِّن حروفه حرفاً واعْطِ لكل حرف حقَّه بالمد والإشباع والتحقيق . حتى أن ابن عباس كان يقول : اقرأه على هَيْنتك ثلاث آيات وأربعاً وخمساً .

أحضر قلبك وعقلك عند قراءتك للقرآن فى صلاتك فى تأمل وتفكُّر فى حقائق الآيات ومعانيها ، ذكر لله وتعظيمه وذكر لوعده للمؤمنين بالجنة والثواب العظيم ، وذكر لوعيده للكافرين بالنار وسوء المصير، وذكر لقصص الأنبياء والأمم السابقة للاعتبار بما حدث مع الأمم السالفة الماضية .

فالمقصود بالترتيل إنما هو حضور القلب عند قراءة القرآن .

وقد سُئل أنس بن مالك : كيف كانت قراءة رسول الله ؟ فقال : كانت مدًّا ، ثم قرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) يمد (بسم الله) ويمد (الرحمن) ويمد (الرحيم) (٢).

---

(١) أورده الواحدى فى التفسير الوسيط (١٢٥٠) ، والقرطبى فى تفسيره (١٩/ ٣٤) والسيوطى فى الدر المنثور (٨/ ٣١٢) وأحمد فى مسنده (٢٤٢٦٩) ومسلم فى صحيحه (٧٤٦) من حديث عائشة رضى الله عنها .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١٣٠٥٠) ، والبخارى فى خلق أفعال العباد (١/ ٧٣) والحاكم فى مستدركه (٨٥٢) والبيهقى فى السنن الصغير (٩٧٨) ، والبخارى فى صحيحه (٥٠٤٦) عن قتادة قال : سُئل أنس بن مالك .

والقرآن لم ينزل لمجرد قراءته فقط ، لكن نزل ليُقرأ للحفظ والبقاء إلى يوم القيامة لئلاً يذهب ولا يُنسى . ولنتذكر ما فيه ولفهم ما أُودع فيه من الأحكام ، وما لله على العباد من حقوق ، وما لبعضهم على بعض .

والقرآن أيضاً نزل ليُعملَ بما فيه ويُتعظ بمواعظه ويجعلوه إماماً يتبعون أمره ، وينتهوا عن نهيه ، وهذا كله لا يُدرك إلا بالتأمل وذلك عند قراءته على الترتيل .

اقرأه بتؤدة وتبيين حروفه ترتيلاً بليغاً بحيث يتمكن السامع من عدِّها ، وترتيل القرآن واجبٌ ، فمَنْ لم يُرتِّله فهو آثم كترْك الإشباع مثلاً .

وتدبُّر القرآن إنما يحدث بالترتيل ، يقول تعالى :﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤)﴾ [محمد] فـ (يتدبرون) و (يتفكرون) هما أم كلِّ المعانى ، عليك أنْ تفهم آيات القرآن وتتدبرها وتتفكرها وتتفهمها عن معرفة وعلم .

ويقول تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ (٢٩)﴾ [ص]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ
وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ ﴾

كأنَّ الحقَّ سبحانه كان يُعدُّ رسول الله ﷺ للمهمة الكبرى لحمل الرسالة ، فأعدَّه إعداداً ربانياً بقيام الليل والتهجد والقرب منه سبحانه ، والوقوف بين يديه فى جوف الليل .

فكأنَّ التهجد ليلاً والوقوف بين يدى الله فى هذا الوقت سيعطى

رسول الله ﷺ القوة والطاقة اللازمة للقيام بهذه المسئولية الملقاة على عاتقه ، ألا وهى مسئولية حمل المنهج وتبليغه للناس .

والقول الثقيل هنا هو الوحى ، والحق سبحانه لم يقُلْ : سننزل عليك قولاً ثقيلاً ، بل قال: سنلقى. لأن كلمة سنلقى تناسب ﴿قَوْلًا ثَقِيلًا (٥)﴾ [المزمل] ، فالإلقاء فيه قوة وشدة وصعوبة .

والوحى كان كذلك ، وقد كان رسول الله يتفصَّد[1] جبينه عرقاً لما يحدث فى جسمه من تفاعل وعمليات كيماوية ، ثم حينما يسرّى عنه تذهب عنه هذه الأعراض .

وقد أخبر بعض الصحابة وكان يجلس بجوار رسول الله والرسول ﷺ يضع ركبته على ركبته ، فلما نزل على رسول الله الوحى قال الصحابى : شعرت بركبة رسول الله وكأنها جبل .

وإذا أتاه الوحى وهو على دابة كانت الدابة تئط . أى : تنخ من ثقل الوحى [2]، وقد قال تعالى : ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥)﴾ [المزمل]

إذن كان النبى ﷺ يتعب بعد هذا اللقاء ، ويشقُّ عليه حتى يذهب إلى السيدة خديجة رضى الله عنها يقول : زملونى زملونى . أو : دثرونى دثرونى. كأن به حُمَّى مما لاقى من لقاء الملَك ومباشرة الوحى أولاً .

ولأن الوحى كان قولاً ثقيلاً يشقُّ على رسول الله كان الوحى يفتر عن رسوله ليرتاح من تعبه ومشقته ، فإذا ما ارتاح وذهب عنه التعب بقيتْ له حلاوة ما نزل من الوحى فيتشوَّق إليه من جديد .

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « لقد رأيته ينزل عليه (أى الوحى) فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه يتفصد عرقاً » أخرجه الجوهرى فى مسند الموطأ (٧٤٣) . وأورده البغوى فى شرح السنة (٣٧٣٧) .

(٢) عن أسماء بنت يزيد قالت : إنى لآخذة بزمام العضباء ناقة رسول الله ﷺ إذ نزلت عليه سورة المائدة كلها وكادت من ثقلها تدق عنق الناقة . أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ٤٥٥) وابن راهويه فى مسنده (٢٢٩٨) .

فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِى أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣) ﴾ [الشرح] والوزر هو الحمل الثقيل الذى كان يحمله رسولُ الله فى نزول الوحى عليه .

فالحق سبحانه شاء أنْ يرفع عنه ﷺ هذه المعاناة ، وأنْ يريحه مما أنقض ظهره وأتعبه ، ففترَ الوحى فترةً عن رسول الله حتى استراحتْ أعصابه وهدأتْ طاقته وبقيتْ معه حلاوة ما أوحى إليه هذه الحلاوة التى جعلتْ رسول الله يشتاق للوحى من جديد ، وشوقك إلى الشيء يُنسيك التعب فى سبيله .

فُتور الوحى هذا وانقطاعه فترةً عن رسول الله جعل المشركين يقولون : إن ربَّ محمد قلاه . ففى الجفوة عرفوا أن لمحمد رباً يجفوه، أما حين الخلوة والجَلْوة فقالوا : مفتر وكذاب وشاعر .

فنزلت سورة الضحى ، قال تعالى : ﴿ وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥) ﴾ [الضحى]

ومعنى ﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى (٤) ﴾ [الضحى] يعنى ستكون عودة الوحى خيراً لك من بدايته ، لأنه جاءك أولاً فوق طاقتك فأجهدك ، أما فى الأخرى فسوف تستدعيه أنت بنفسك وتنتظره على شوق إليه، فطاقتُك هذه المرة مستعدةٌ لاستقباله ، قادرة على تحمُّله دون تعب أو إجهاد .

إذن فالحق سبحانه جعل لرسوله ما يُيسِّر له أمر الاندماج فى المستقبل ، لذلك لما عاوده الوحى لم يتفصَّد جبينه عرقاً ، ولا أُجهد كالمرة الأولى ، لأن طاقة الشوق عنده وطاقة الحب تغلبتا على هذا التعب وهذا الإجهاد .

فقوله تعالى: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) ﴾ [المزمل] تعبير عن شدة ما يُوحى إلى النبى ﷺ من جهة أنه يحتاج فى تبليغه وتفهيمه والعمل به إلى مجهود قوى .

ومثله قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (٢٧) ﴾ [الإنسان] فهو وصْفٌ ليوم القيامة باعتبار ما فيه من الشدائد والأهوال .

وفى قوله تعالى : ﴿ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥)﴾ [المزمل] أقوال أخرى ذكرها العلماء ، فهو قول ثقيل فى فروضه وأحكامه ، وهو ثقيل فى الميزان يوم القيامة ، وهو مهيبٌ ليس بالخفيف ، ولا يتعلق بسفاسف الأمور، فهو كلام رصين .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦)﴾ [المزمل]

ففى الوقت الذى ينام فيه الناس ويخلدون إلى الراحة وتتثاقل رؤوسهم عن العبادة ، تقوم بين يدى ربك مُناجياً متضرِّعاً ، فتتنزل عليك الرحمات والفيوضات ، فمَنْ قام من الناس فى هذا الوقت واقتدى بك فله نصيبٌ من هذه الرحمات ، وحظ من هذه الفيوضات ، ومَنْ تثاقلت رأسه عن القيام فلا حظَّ له .

إذن فى قيام الليل قوة إيمانية وطاقة روحية ، ولما كانت مهمة الرسول فوق مهمة الخَلْق كان حظّه من قيام الليل أزيد من حظِّهم ، فأعباءُ الرسول ﷺ كثيرة ، والعبء الثقيل يحتاج الاتصال بالحق الأحد القيوم ، حتى يستعين بلقاء ربِّه على قضاء مصالحه .

فـ ﴿نَاشِئَةَ اللَّيْلِ (٦)﴾ [المزمل] هى ساعاته ، وكلُّ ساعة منها ناشئة، لأنها تنشأ عن التى قبلها ، فكلُّ صلاة بعد العشاء الآخرة هى ناشئة الليل[1] .

---

(١) أورده مجاهد بن جبر فى تفسيره (٦٧٩/١) عن الحسن قال : « كل صلاة بعد العشاء الآخرة فهى ناشئة الليل » .

وقد تُنسب الناشئة إلى قائم الليل نفسه ، فهو الذى ينشيء عبادته لله الليلية ، وهو ينشئها فى أى ساعة من ساعات الله شاء ، فالله فى بداية السورة أعطى القائم الليل ثلاثة اختيارات فقال تعالى :

﴿يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلا(٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلا (٤)﴾ [المزمل]

فأنت تختار الساعة التى تقوم فيها لقيام الليل بين يدى الله ، فى الساعة التى توافقك ، وتكون أكثر مواطأةً لك ، لذلك قال تعالى : ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا (٦) ﴾ [المزمل] من المواطأة، فساعات الليل أكثر موافقةً ومواطأة لأنْ تصلى وتقترب فيها من الله من ساعات النهار .

فالقلب يكون أفرغَ فى الليل لإدراك وتأمُّل الآيات وتدبُّر معانيها ، وكذلك السمع والبصر يكون أحفظَ للقرآن .

وقد تكون (وطئاً) بمعنى الوطأة كالوطء بالأقدام ، فقيام الليل أشدُّ على البدن وأصعب ، فالليل هو وقت راحة الإنسان فإنْ قضاه فى قيام الليل كان أشدَّ عليه .

﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦)﴾ [المزمل] فترتيلُ القرآن وقراءتُه أصوب قراءةً وأصحُّ قولاً من النهار لهدأة الناس وسكون الأصوات ، إنه خير ما تقرأه فى ليلك ، وأصوب ما ينطقه لسانُك بعيداً عن الرياء ، وملاحظة نظر الآخرين .

فأصحُّ القول وأصوبه ما تخرجه فى حال الهدوء والسكون والبُعد عن ملاحظة الناس ، فلا أحد معك وأنت تناجى ربك ولا شيءَ يشغلُك بعكس حالك فى النهار حيث المعاش .

فعبادةُ الليل أشدُّ نشاطاً وأتمُّ إخلاصاً وأكثرُ بركة ، وأبلغُ فى الثواب من عبادة النهار .

هذا عن الليل ، أما عن النهار فقد قال الحق سبحانه : ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧)﴾ [المزمل] ففى النهار لك فرصة وتوسُّع وفراغٌ لتقضى حوائجك وإقبالاً وإدباراً وذهاباً ومجيئاً .

وأصل السَّبْح الجرى والدوران ، ومنه السابح فى الماء لتقلّبه بيديه.. ورِجْلَيْه ، ولكن السَّبح أيضاً النوم والتسبُّح التمدد ، فمعنى ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧)﴾ [المزمل] أى لك فراغٌ طويل لنومك وراحتك ، فاجعل ناشئة الليل لعبادتك .

ومن أهم مهمات رسول الله ﷺ فى نهاره تبليغ رسالته سبحانه وتعليم أمته وجهاد عدوه ، فالحق سبحانه يُعدُّ نبيه ورسوله محمداً ليتلقَّى القول الثقيل ، وينهض بالعبء الجسيم ، قياماً لله فى الليل وفراغاً فى النهار لمشاغله ونشاطه .

فلينقَضِ نهارك فى هذا السَّبح والنشاط ، ولتُخلص لربك فى الليل تقوم له بالصلاة والذكر وترتيل القرآن ترتيلاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ ﴾

اذكر ربك الذى شرع لك ثم وفَّقك وأعانك ، والحق سبحانه يقول : ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً (٢٠٥) ﴾ [الأعراف]

ويقول : ﴿ اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) ﴾ [الأحزاب]

وهناك فارق بين : ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ (٤١) ﴾ [آل عمران] و ﴿ اذْكُرُوا اللَّهَ (٤١) ﴾ [الأحزاب] فقوله (اذكر الله) يستشعر سامعها التكاليف ، لأن الله هو المعبود ، والمعبود هو المطاع فى الأوامر والنواهى .

أما قوله ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ (٤١) ﴾ [آل عمران] فهو تذكير لك بما حباك به

من أفضال ، خلقك وربّاك ، وأعطاك من فيض نعمه ما لا يُعد ولا يُحصى، فاذكر ربك لأنك إنْ لم تعشقه تكليفاً فأنت قد عشقته لأنه مُمدُّك بالنعم، وسبحانه يتفضَّل علينا ويُوالينا جميعاً بالنِّعم .

واذكره على حالين : الأول تضرعاً أى بذلَّة لأنك قد تذكر واحداً بكبرياء ، إنما الله الخالق المحسن يجب عليك أنْ تذكره بذلَّة عبودية لمقام الربوبية .

واذكر اسم ربك خيفةً أى خائفاً متضرِّعاً ، لأنك كلما ذللْتَ له يُعزُّك، ولذلك نجد العبودية مكروهةً فى البشر وهى استعباد ، والناس ينفرون ممنْ يستعبدهم لأن عبودية الإنسان لمساويه طغيانٌ كبير وظلم عظيم ، فهى تعطى خير العبد للسيد ، ولكن عبوديتك لله تعطى خير الله لك .

وأنت عندما تكون بين يدى الله تقيم الليل ، فاذكر اسم ربِّك بربوبيته سبحانه لك وقِفْ أمامه خاشعاً خاضعاً متضرعاً ، فأنت ترفع دعاءك للخالق المربِّى .

فاذكر اسم ربِّك بالتوحيد والتعظيم والتقديس والتسبيح والإخلاص.
﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨) ﴾ [المزمل] التبتُّل : الانقطاع عن الدنيا ورفض الدنيا وما فيها والتماس ما عند الله ، فأخلص لله إخلاصاً وتفرَّغ لعبادته ، واقطع نفسك عن الشهوات واللذات .

وأصل التبتل القطع ، ولذلك قيل لمريم العذراء البتول ، فالتبتل الانقطاع عن كل شيء إلا من عبادة الله وطاعته .

وقد يسأل سائل : نظم السياق كان يقتضى أنْ يقول : وتبتَّل إليه تبتُّلاً . ولكن الحق سبحانه قال :﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨) ﴾ [المزمل] فتقدير الكلام : وبتِّل نفسك إليه تبتيلاً .

فكأنه لا يحدث التبتيل إلا إذا حدث التبتُّل . فبتِّل نفسك واجتهد ، فكأنَّ الأمر يحتاج إلى مجاهدة للنفس شديدة تجعلك تنقطع عن ملذات

الدنيا وراحتها لتقف بين يدى الله تذكره وتعبده .

فـ (تبتيلاً) مصدر على غير المصدر وهو واقع موقع التبتُّل ، فمصدر « تفعَّل » (تفعُّل) ، تبتل تبتُّلاً . مثلما نقول : تصرَّف تصرُّفاً وتكرَّم تكرُّماً ، أما التفعيل فمصدر فعَّل ، أى بتَّل تبتيلاً .

وأنت لاتتبتَّل وتنقطع إلى الله إلا إذا كنتَ تعيش معنى أنه سبحانه ربُّ السماوات والأرض ، مالك الملْكِ سبحانه، لذلك يقول الحق سبحانه بعدها :

﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩)﴾ [المزمل]

فالحقُّ سبحانه ربُّ المشرق والمغرب ، وقد جعلنا التقدم العلمى نفهم بعمق معنى هذه الآية ، فكلُّ مكان على الأرض له مشرق وله مغرب ، ثم عرفنا أن الشمس حين تشرق عندى تغرب عند قوم آخرين، وحين تغرب عندى تشرق عند قوم آخرين .

إذن فمع كل مشرق مغرب ، ومع كل مغرب مشرق ، فيكون هناك مشرقان ومغربان ، ثم عرفنا أن الشمس لها مشرق كل يوم ومغرب كل يوم يختلف عن الآخر ، وفى كل ثانية هناك شروق وغروب .

فالحقُّ سبحانه رب المشرق والمغرب ، ربِّ ليلك ونهارك ، وهذا يناسب قوله تعالى قبلها : ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦) إِنَّ لَكَ فِى النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧)﴾ [المزمل]

وكلٌّ من المشرق والمغرب له مهمته التى يقوم بها فى الكون ، فالليل والنهار إنما ينتج عنهما ، وأنت لك مهمة فى ليلك تختلف عن مهمتك فى نهارك ، فكُنْ حيث يريدك الله .

وهذا اعترافٌ بربوبية الله سبحانه ، ثم يأتى قوله : ﴿لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ(٩)﴾ [المزمل] المعبِّر عن وحدانية الله، فلا ربّ ولا معبودَ بحقٍّ إلا الله، هو وحده المستحق للربوبية والعبودية والألوهية ، فتبتَّل إليه تبتيلاً ،

وأخلص له وحده التوجه .

وإذا كان الحقُّ سبحانه ربّ المشرق والمغرب الذى بهما معاش الناس ، وإذا كان هو وحده المستحق للعبادة فلا يسعك إلا أنْ تتخذه وكيلاً ، لذلك قال تعالى : ﴿ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلا (٩) ﴾ [المزمل]

فـ﴿ تَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا (٨١) ﴾ [النساء] ، فأنت محدود القدرة محدود الحيلة محدود العدة ، فتوكَّلْ عليه وحده ، واتخذه وكيلاً عنك أى أنه سبحانه يكون وكيلاً عنك ، فلماذا تقلق ؟

أنت وكَّلتَ ربَّ العالمين عنك فدعْكَ من الدنيا وما فيها :﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨) ﴾ [المزمل]

فكفى بالله وكيلاً وهو نِعْم الوكيل سبحانه ، فالله ربُّ الجميع ومربِّى الجميع وراعى الجميع ورزّاق الجميع ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩)﴾ [المزمل]

وكُنْ متوكلاً عليه وحده ولا تتوكل على غيره ، بل اقصر توكلك على الله وحده ، وأنت عندما تعجز عن فعل شيء بنفسك توكل عنك مَنْ يستطيع، ومَنْ يستطيع غيو ﴿ رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ (٩)﴾ [المزمل]

﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ ﴾

الحق سبحانه يُعدُّ نبيه ورسوله لأمر عظيم ، وهو أمر دعوة قومه للإسلام ، وهو يعلم سبحانه أنهم لا بدَّ سيؤذونه بالقول والفعل ، لذلك أراد سبحانه أنْ يُعدَّه إعداداً ربانياً .

أنْ يكون رسولُه عبداً لله وحده لا يعبد غيره سبحانه يقوم الليل من أجله سبحانه يخلو بربه حينما تنام النفوس وتغمض العيون وتهدأ حركات الناس ، يقوم هو لله يعبده ويناجيه ويرجوه ويخافه .

يذكر اسم ربه ويتبتَّل إليه تبتيلاً يعترف لله وحده بأنه ربُّ المشرق والمغرب ، وأنه لا إله إلا هو ، وإذا كان هذا فيا محمد ويا أمة محمد لا

تتخذوا غير الله وكيلاً .

ولأن الله سبحانه يعلم أن قومه سيرفضون دعوته ورسالته كما رفضتها أمم الأنبياء والمرسلين قبله ، لذلك قال له ﴿وَاصْبِرْ(١٠)﴾ [المزمل] فاصبر على ما يقولون من التكذيب لك والأذى ، وقد أُمر المسلمون عند قلَّتهم وضعفهم بالصبر والتحمُّل ، ثم أُمروا عند قوتهم بالقتال وصدّ العدوان ، فليس في الأمر بالقتال نسخ للأمر بالصفح والعفو، بل هو من باب تغيير الحكم لتغيير العلة ، فالحكم يدور مع عِلّته وجوداً وعدماً .

فاصبر على تكذيبهم إياك ، واصبر على ما يقولونه عنك من أنك ساحر أو شاعر أو مجنون أو كاهن ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣)﴾ [الأنعام]

وإذا كانوا يكذِّبونك فى أنك رسولٌ من عند الله يُوحَى إليه فإن كل قوم جاء فيهم رسولٌ أو نبى كذَّبوه ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤)﴾ [آل عمران]

جاءتهم الرسل بالبينات والكتاب والآيات الدالة على صدقهم ، ولكنهم رغم هذا لم يؤمنوا ، بل كذَّبوا وأصرُّوا على تكذيبهم وكفرهم.

فاصبر على ما يقولون من الأذى والسَّبِّ والاستهزاء ، ولا تجزع من قولهم ، ولا تمتنع من دعائهم .

وقد قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤)﴾ [الأنعام]

فإذا كان الرسل الذين سبقوك قد كُذِّبوا وصبروا على ذلك ، وهم رسل لقومهم أو لأمة خاصة ولزمان خاص ، فماذا عنك يا خاتم الرسل وأنت للناس كافة وللأزمان عامة ؟ إن عليك أنْ تتحمل هذا ،

فالحقُّ سبحانه اختارك لهذه المهمة ، وهو العليم أنك أهلٌ لها .

سيقولون عنك ما لا يُقال من كونك ساحراً أو كاهناً أو مجنوناً أو شاعراً أو كاذباً فلا تلتفت إليهم ولا تعبأ بهم .

﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠)﴾ [المزمل] فإذا كان الصبر فيه إيلام لك ، فليكُنْ صبرك عليهم صبراً جميلاً ، وليكُنْ هجرك لهم واعتزالك إياهم هَجْراً جميلاً .

ومادة هجر وما يُشتق منها تدلُّ على تَرْك شيء إلى شيء آخر ، والهجر فيه كراهية النفس للشيء المؤدى إلى قطْع الصلة بين رسول الله وبين قومه واعتزالهم ، فالهجْر يعنى أن الإنسان قد عدل من مكان إلى مكان ، أو عدل عن وُدٍّ إلى وُدٍّ آخر ، أو عن خصلة إلى خصلة .

ولكن الحق سبحانه يصف الهجر المطلوب بأنه ﴿هَجْرًا جَمِيلًا (١٠)﴾ [المزمل] أى اعتزلهم اعتزالاً حسناً لا جزع فيه ، رغم أنهم آذوْك بكلِّ أنواع الأذى .

فالاعتزال والهجر الجميل ألاَّ يدع شفقته عليهم ، ولا يدعو عليهم بالهلاك ، ولا يمتنع عن دعائهم إلى ما فيه رُشْدهم وصلاحهم ، ولذلك تروى لنا سيرة رسول الله ﷺ أنه قال فى وقت أذاهم إياه : « اللهم اهْدِ قومى فإنهم لا يعلمون »[١].

ونجد أن النبي ﷺ وقد جاء له جبريل قائلاً : « إن الله قد سمع قوْلَ قومك لك ، وما ردُّوا عليك وقد بعث إليك ملكَ الجبال لتأمره بما شِئْتَ فيهم ، فنادانى ملك الجبال فسلم علىَّ . ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قوْل قومك وأنا ملك الجبال ، وقد بعثنى ربّك إليك لتأمرنى

(١) لما كسرت رباعية رسول الله وشجّ وجهه يوم أحد شق ذلك على أصحابه وقالوا : لو دعوت عليهم فقال رسول الله : إنى لم أبعث لعَاناً ولكن بعثت داعياً ورحمة « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون» أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان مرسلاً (١٣٧٥) .

بأمرك مما شئت ؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين[١] فقال رسول الله ﷺ : « بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم مَنْ يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً »[٢].

وهذا من رحمة رسول الله بقومه بل بالعالمين ، قال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧)﴾ [الأنبياء]

فهم محتاجون لأدبك الجمِّ ، ولتواضعك الوافر ، ولجمال خُلقك ، ولبسمتك الحانية ، ولنظرتك المواسية ، فتنازل عن هفوات خصومك وليسعها خُلقك ، وليسعها حِلْمك ، ولا تغضب لأى بادرة تبدر منهم .

وقد كان رسول الله يؤلمه ويؤذيه تكذيبُ قومه له ، لأنه كان يريد هدايتهم ونجاتهم ، وكان يكاد يُهلك نفسه ، لذلك قال الحق سبحانه لرسوله : ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ(٨)﴾ [فاطر]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ ﴾

قوْل الحق سبحانه : ﴿ وَذَرْنِي (١١)﴾ [المزمل] أى : اتركهم لى فأنا الذى أعاقبهم وأنا الذى أعلم أجل الإمهال وأجل العقوبة . وهو فعل أمر مثاله قوله تعالى : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ(٣)﴾ [الحجر]

فهو أمر بأنه يدعهم ويتركهم ، ويستعمل من مادة هذا الفعل فعل مضارع هو « يذر » ، وقد قال الحق سبحانه : ﴿ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ (١٢٧)﴾ [الأعراف]

(١) الأخشبين : الأخشب من الجبال : الخشن الغليظ . (تهذيب اللغة للأزهرى) وقال ابن الأثير فى (النهاية فى غريب الحديث) مادة خشب : الأخشبان الجبلان المطيفان بمكة وهما أبو قبيس والأحمر وهو جبل مشرف وجهه على قيقعان .

(٢) أخرجه الفاكهى فى أخبار مكة (٢٦٢٤) وابن خزيمة فى التوحيد (١/ ١١٠) وأبو عوانة فى المستخرج (٦٩٠٢) ، والطبرانى فى المعجم الأوسط (٨٩٠٢) عن عائشة رضى الله عنها .

ويشارك فى هذا الفعل فعلٌ آخر هو (دع) بمعنى اترك . وقيل : أهملت العربُ ماضى (يدع) و (يذر) إلا فى قراءة فى قول الحق سبحانه : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣)﴾ [الضحى]

﴿وَذَرْنِى وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِى النَّعْمَةِ (١١)﴾ [المزمل] فدعنى ومَنْ كذَّبك لا تهتم به فإنِّى أكفيك أولى النعمة أى أصحاب النعم والترفُّه ، وهؤلاء غالباً ما يكونون عقبة فى طريق الدعوة والرسالة وتطبيق شرع الله، فأصحاب العيش المترف لا يحبون منهج الله لأنه يقيد حركاتهم وتصرفاتهم الفاسدة ، لذلك يحاربون الدعاة إلى الله وإلى الالتزام بمنهج الله .

فأهل الخِصْب ورغد العيش ورفاهيته هم الذين اشتغلوا بالتكذيب ، وهم الذين كانوا يصدُّون الناس عن سبيل الله ، وقد قال تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا (١٢٣)﴾ [الأنعام]

فالإجرام يجعل الإنسان يريد كلَّ شيء لنفسه ، لذلك تجد المجرمين وخاصة أكابرهم يسعوْنَ دائماً إلى التسلُّط وارتكاب الرذائل ، لذلك تجدهم يريدون من كل المجتمع أن تنتشر فيه مثل هذه الرذائل لأنه لا يستطيع أنْ يعيش إلا فى جو الفساد والرشوة والإجرام .

ويقول الحق سبحانه أيضاً : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٣٤)﴾ [سبأ]

فأولو النَّعْمة هم أصحاب المال والغِنى ، والنعمة التنعُّم والترفُّه ، والنَّعمة بالفتح : التنعم . والنِّعمة بالكسر : الإنعام ، والنُّعمة بالضم: المسرة .

وقد اختلفوا فيمَنْ عُنى بـ (أُولى النعمة) على ثلاثة أقوال : أحدها أنهم المُطعمون ببدر . والثانى : أنهم بنو المغيرة بن عبد الله . والثالث: أنهم المستهزئون وهم صناديد قريش .

فأولو النعمة المكذِّبون للرسل هم أهل المعصية المترفون من كل

صنف من أصناف الفساد البشرى .

والحق سبحانه يهددهم ﴿وَذَرْنِى وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِى النَّعْمَةِ .. (١١)﴾ [المزمل] فهو تهديد مزلزل مفزع لهؤلاء السادة المتنعمين من مشركى القوم، فإنهم هم الرءوس العفنة التى تقود تلك الحملة الضالة التى تؤذى النبى وتقف لدعوته بالمرصاد .

﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (١١)﴾ [المزمل] والإمهال لا يعنى الإهمال والترك ، بل يعنى أن الله تعالى يُملى للكافر ويُمهله لأجَل ، فإذا جاء أَجَل العقاب أخذه ، وقد قال تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ الْمَصِيرُ (٤٨)﴾ [الحج]

فأمليتُ لهم أى أمهلتهم ، ثم يحدث الأخذ ، وأَخْذ الشيء يتناسب مع قوة الأَخْذ وقدرته وعنف الانتقام بحسب المنتقم ، فإذا كان الآخذ هو الله عز وجل فكيف سيكون أَخْذه ؟

وكلمة الأَخْذ فيها معنى الشدة والعنف والقهر .

والحق سبحانه يقول : ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ (١٨٣)﴾ [الأعراف]

والإملاء هو الإمهال أى أنه لا يأخذهم مرة واحدة ، فساعة يقوم الفاسد بالكثير من الشر فى المجتمع فإن الله يمهله حتى يزداد إثماً وظلماً حتى إذا أراد الله أَنْ يأخذه أخذه أَخْذ عزيز مقتدر .

والحق سبحانه قال : ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (١١)﴾ [المزمل] قوله (قليلاً) هنا البعض قال : إن الأجل هنا إلى يوم بدر ، فلم يمكثوا كثيراً بعد هذا التهديد لهم حتى قُتِلوا ببدر ، فالمراد من القليل تلك المدة القليلة الباقية إلى يوم بدر ، فإن الله أهلكهم فى ذلك اليوم .

ولكن فى الآية قوْلٌ آخر أن أجلهم هو عمر الدنيا كلها ، وهو مهما طال فهو قليل ، فإنْ هى إلا يوم أو بعض يوم فى حساب الله ، وفى

حسابهم هم أنفسهم حين تطوى ، بل إنهم ليحسّونها فى يوم القيامة ساعة من نهار فهى قليل أيًا كان الأمد .

ولهذا التأويل وجاهته أيضاً ، فإن الحق سبحانه قال بعدها :

﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ ﴾

إذا كنا أمهلنا هؤلاء المكذبين فى الدنيا إلى أجل قليل أنزلنا بهم بعده عقاباً فى الدنيا كهذا العذاب الذى نزل بهم فى بدر ، فإنه ينتظرهم فى الآخرة عذابٌ أشدّ جزاءَ تكذيبهم رسلنا ورسالاتنا إليهم.

والحق سبحانه يوضح لنا ما أعدَّه من ألوان العذاب لهؤلاء المكذبين الكافرين ، فيقول : ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا (١٢)﴾ [المزمل] أى عندنا فى الآخرة قيود عظام ثقال لاتنفك أبداً .

فالأنكال عقوبة من ألوان العذاب ، فالسلاسل والقيود فى حدٍّ ذاتها عذابٌ نفسى للمقيد بالقيود وإذلال وقهر له ، فيامَنْ كنتَ تكذِّب بآيات الله وتصدّ عن سبيل الله وتحارب دين الله ورسله والمؤمنين بمنهج الله قد تركناك فى الدنيا حراً ، وأعطيناك المهلة والإملاء ، وهاأنت الآن مقيَّد بالقيود والسلاسل ، فهل تقدر على تحرير نفسك وإنجائها ؟

وإذا كان الحق سبحانه قد وصفهم بأنهم أهل تنعُّم وترف ورفاهية فإن الحق سبحانه يذكر لهم ما يضاد هذا التنعُّم والترف ، فهاهم فى القيود والسلاسل يُسحبون نكالاً لهم وعقوبةً وجزاءً .

﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا (١٢)﴾ [المزمل]

والجحيم اسم من أسماء النار وهو ما عَظُم منها ، فالجحيم مأخوذة من الجموح وجمحت النار اضطربت ، وعندما ترى النار متأججة يقال جحمت النار ، أى أصبح لهيبها مضاعفاً بحيث يلتهم كل ما يصل إليها فلا تخمد أبداً .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٠)﴾ [المائدة] وحين نسمع هذا تتزلزل النفوس رهبةً من تلك الصحبَة التى نبرأ منها ، فالصحبة تدل على التلازم والارتباط معاً، وألاَّ يترك أحدهما الآخر ، كأنَّ الجحيم لا تتركهم وهم لا يتركون الجحيم.

ومما أعدَّه الله للمكذِّبين الطعام ، كيف يتركهم بدون طعام ، ولكنه طعام ذو غصة ، يقول تعالى : ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ (١٣)﴾ [المزمل]

والطعام ذو الغصَّة هو طعام غير سائغ فى الحلق لا ينزل ولا يخرج وهو الزقوم والضريع . وهو طعام لا يستطيع ابتلاعه لحقارته ونتنه وخبث رائحته ، فهو طعام كريه لا يُستساغ .

فكأن فى الطعام شوكاً ناشزاً يعلق بالحلق فلا يدخل ولا يخرج .

وقد كان التابعون وتابعو التابعين يفْرقون ويشفقون من مثل هذه الآيات ، فعن خليد بن حسان الهجرى قال : أمسى الحسن صائماً فلما أُتى بإفطاره عرضتْ له هذه الآية ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (١٣)﴾ [المزمل] فقلصت يداه عن عشائه ، فقال: ارفعوه.

فرُفع فأصبح صائماً ، فلما أُتى بإفطاره عرضتْ له أيضاً هذه الآية فرُفع الطعام ، فلما كان اليوم الثالث انطلق ابنه إلى ثابت البُنانى ويزيد الضبى ويحيى البكَّاء وناس من أصحابه فقال : أدركوا أبى فإنه لم يذق طعاماً منذ ثلاثة أيام ، كلما قربنا إليه الطعام عرضت له هذه الآية ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا (١٢) ﴾ [المزمل] فيتركه ، فأتوه فلم يزالوا به حتى سقوه شربة من سويق[(١)] .

---

(١) أورده الثعلبى فى تفسيره (١٠/ ٦٤) والواحدى فى تفسيره الوسيط (٤/ ٣٧٦) والزمخشرى فى تفسير الكشاف (٤/ ٦٤١) وكذا المراغى فى تفسيره (٢٩/ ١١٧).

وقد ذكر لنا الحق سبحانه ثلاثة أنواع من الطعام الذى أعدَّه لأهل النار مما لا يُستساغ : الزقوم ، الضريع، الغسلين .

أما الزقوم فهى شجرة فى أصل الجحيم ، قال عنها الحق سبحانه: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِى أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥)﴾ [الصافات]

ويقول فى آية أخرى : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِى فِى الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْىِ الْحَمِيمِ (٤٦)﴾ [الدخان]

فطعام الزقوم سيأكله الكافر ويتعذّب به ، إنها أداة من أدوات العقاب ووسيلة من وسائل التعذيب لأعداء الله ، ولا يأكل منها إلا الأثيم والأثيم ملعون .

أما الضريع فقد قال عنه الحق سبحانه :﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ (٦)﴾ [الغاشية] والضريع نبْتٌ ذو شوك لاطيءٍ بالأرض ، تسميه قريش الشِّبْرق ، فإذا هاج سموه الضريع ، وهو أخبث طعام وأبشعه .

وقال ابن عباس عنه : الضريع شيء فى النار يشبه الشوك ، أمرّ من الصبر ، وأنتن من الجيفة ، وأشد حراً من النار [١].

وهو يُسمَّى طعاماً ولكنه لا يحقق الهدف منه ، لذلك قال تعالى: ﴿ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ (٧)﴾ [الغاشية]

لا يستسيغه الطاعم لذلك، فيبقى الطاعم جائعاً أبداً ، فليس أمامه إلا الزقوم والضريع .

أما الغسلين فقد قال تعالى : ﴿ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦)﴾ [الحاقة]

والغسلين هو صديد أهل النار ، مأخوذ من الغسل ، كأنه غُسَالة

---

(١) أورده الخازن فى تفسيره (٤/٤٢٠) وكذا الثعلبى فى تفسيره (١٠/١٨٨) ، والواحدى فى تفسيره (١٣٣٧) عن ابن عباس ، وسراج الدين الدمشقى فى كتابه [اللباب فى علوم الكتاب] (٢٠/٢٩٤).

جروحهم وقروحهم ، وقيل : هو شجر يأكله أهل النار لا يأكله إلا الخاطئون ، وقد قال ابن عباس عنه : لو أن قطرة من غسلين وقعت على الأرض أفسدت على الناس معايشهم (١).

ثم يقول تعالى : ﴿ وَعَذَابًا أَلِيمًا (١٣) ﴾ [المزمل]، أعدَّ الله أنكالاً وجحيماً، وطعاماً ذا غُصَّة ، ثم جمع الله عليهم رابع الكوارث على المكذِّبين الكافرين وهو العذاب الأليم .

وكأنَّ ما سبق ليس عذاباً أليماً ، قيود وأغلال ونار محرقة مشتعلة وطعام ليس بطعام ، بل هو عذاب حتى فى الاقتراب منه ، لا يمر من الحَلْق أصلاً .

فهو عذاب أليم لن يُطاق ، فالله سيعذِّب المكذبين عذاباً أليماً وعظيماً ومهيناً ، ولكلٍّ وصف مراده فى النص حتى يستوعب كلّ حالات الإهانة من إيلام .

فهناك عذاب أليم وعذاب عظيم وعذاب مهين ، وكلها صفات للعذاب، فالعذاب هو الإيلام ، ولكن هناك مَنْ يفزعه الألم فيصرخ، وهناك مَنْ يحاول أنْ يتجلّد ويتحمل لأن كبرياءه يمنعه أنْ يصرخ ، وفى هذه الحالة يكون عذابه مهيناً لأنه بكبريائه تحمَّل الألم ، فيُهان فى كبريائه ، وبذلك يكون عذابه مهيناً .

و (أليم) فعيل بمعنى مؤلم ، وعندما تسمع صيغة (فعيل) فنحن نأخذها بمعنى فاعل أو مفعول ، لذلك نفهم (أليم) على أنه مؤلم مُوجع .

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا (١٤) ﴾

﴿ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ .. (١٤) ﴾ [المزمل] : تتزلزل وتهتز وتضطرب

---

(١) أخرجه عبد الله بن وهب (ت ١٩٧ هـ) فى تفسير القرآن من الجامع لابن وهب (٩٩) عن ابن عباس.

وتتزعزع ، مثلها قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧)﴾ [النازعات]

وذلك يوم القيامة ، لذلك قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ (١٤)﴾[المزمل] وذلك للنفخة الأولى في الصُّور ، أما الثانية فهى التى قال عنها الحق سبحانه : ﴿تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧)﴾ [النازعات]

ورجف الشيء رجفاً ورجفاناً كما يرجف الشجر إذا أرجفته الريح. فحتى الأرض التى أنتم تعيشون عليها ستتزلزل زلزالاً شديداً ، وقد قال تعالى : ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا(١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢)﴾ [الزلزلة]

ويقول تعالى : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١)﴾ [الحج] والزلزلة الحركة الشديدة التى تزيل الأشياء عن أماكنها ، واستخدم الحق سبحانه أيضاً لفظة (الرجّ) فقال تعالى : ﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (٤)﴾ [الواقعة]

والزلزال أو الرجفة أو الرجَّة يوم القيامة ليس زلزالاً كالذى نراه من هزات أرضية تهدم بعض البيوت أو حتى تبتلع بعض القرى ، فهذه مجرد صورة مصغرة لما سيحدث فى الآخرة وتنبهنا إلى الزلزال الكبير فى الآخرة ، حتى لا نغتر بسيادتنا فى الدنيا .

فليس هذا زلزالاً عاماً إنما هو زلزال مخصوص منسوب إلى الأرض بوحى من الله ، وبأمر منه سبحانه أنْ تتزلزل ، لذلك وُصف زلزال يوم القيامة بأنه شيء عظيم : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١)﴾ [الحج]

رجفة عظيمة ليست بمقياسك أنت ، بل بمقياس الحق سبحانه ، ولك أنْ تتصور فظاعة زلزال وصفه الله سبحانه بأنه عظيم .

والأرض تتزلزل وترجف بما عليها من جبال رغم أن الجبال خلقها الله رواسى للأرض لكى لا تضطرب ولا تختل .

يقول تعالى : ﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ .. (١٥) ﴾ [النحل] أى حتى لا تضطرب بكم الأرض ، ولو كانت الأرض مخلوقة على هيئة الثبات لما احتجنا إلى الجبال الرواسى كى تثبتها ، ولكن الأرض مخلوقة متحركة وهى عُرْضة للاضطراب ، ولولا الجبال الرواسى لمادت الأرض .

ولكن فى يوم القيامة الأمر مختلف، فالجبال لن تصبح رواسى للأرض ، ولكن الجبال ستُنسف ، حينها يضطرب نظام الأرض وتتزلزل وتميد وتتحرك ويضطرب كلُّ شىء فيها .

لذلك ذكر الحق سبحانه هنا الجبال مقرونةً بالأرض ، لأن اختفاء الجبال بسبب نسفها سيجعلها غير قائمة بمهمتها .

حينها تكون الجبال ﴿كَثِيبًا مَهِيلًا (١٤) ﴾ [المزمل] أى تصبح الجبال رملاً سائلاً مجرد رمال متحركة ، بعد أنْ كانت الجبال صخوراً صلبة تستعصى على النحت فيها أو التقطيع إلا بوسائل خاصة .

الآن أصبحت مجرد رمال سائلة ، مجرد كثبان رملية مهيلة أى إذا حُرِّك تبع بعضه بعضاً ، فإذا كانت الجبال وهى أثبت وأصلب شىء فى دنيا الناس قد أصبح رملاً مهيلاً متحركاً ، وقد قال تعالى فى آية أخرى أنها ستصبح ﴿ هَبَاءً مَنْثُورًا (٢٣) ﴾ [الفرقان] وتصبح ﴿ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥) ﴾ [القارعة] أى الصوف المندوف.

وهذه مراحل ، فالجبال تُنسف فتصبح رمالاً متحركة وتصبح

كالصوف المندوف ، فإذا هبَّتْ ريح فتصبح هباء منثوراً وكأنها لم تكُنْ .

نقول : فإذا كان هذا حال الجبال فى ذلك اليوم العظيم ، فما حال الإنسان الضعيف وإلى أين يذهب ؟ وماذا يصبح ؟

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾

الحق سبحانه يخاطب أهل مكة الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ بل كذَّبوه وآذوه ورفضوا رسالته وراحوا يصدُّون عنه مَنْ يريد أنْ يؤمن به ، فيقول لهم الحق سبحانه : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا (١٥) ﴾ [المزمل]

لقد أرسل الله محمداً رسولاً ليبلغهم بمنهج السماء ، وأرسل معه القرآن كلام الله المعجز ، وهو رسول أمى ، سألوه عن أشياء حدثت فأوحى الله بها إليه بالتفصيل ، جاء القرآن ليتحدى فى أحداث المستقبل وفى أسرار النفس البشرية ، وكان ذلك يكفيهم لو أنهم استخدموا عقولهم ، ولكنهم أرادوا العناد كلما جاءتهم آية كذَّبوا بها وطلبوا آية أخرى .

ويخاطب الحق سبحانه نبيه ورسوله محمداً : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩) ﴾ [البقرة]

فقد أرسلناك وبعثناك بالحق ، والحق هو الشىء الثابت الذى لا يتغير ولا يتناقض .

والحق سبحانه إنما يرسل الرسل رحمة بالخَلْق ليبينوا للناس الطريق الصحيح من الطريق المعوج .

والحق سبحانه يقول لهم : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨) ﴾ [التوبة]

وهو رسول محبٌّ لكم يشقُّ عليه ويُتعبه ما يشقّ عليكم ويتعبكم ، ولذلك كان رسول الله ﷺ مشغولاً بأمته .

ولكن الحق سبحانه هنا يضيف صفة أخرى لرسول الله ، وهو أنه أرسل محمداً ﷺ : ﴿ شَاهِدًا عَلَيْكُمْ (١٥) ﴾ [المزمل]

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٩) ﴾ [الفتح]

أى أرسلناك شاهداً على أمتك وعلى مَنْ سبقك من الرسل أنهم قد بلَّغوا الرسالة ، فهو شاهد عليكم بما أخبره الله به فى القرآن . وشاهد عليكم يوم القيامة أنه قد بلَّغكم رسالات الله ، فمنكم مَنْ آمن ومنكم مَنْ كفر .

والحق سبحانه وصف رسوله هنا بأنه ﴿ شَاهِدًا عَلَيْكُمْ (١٥) ﴾ [المزمل] ولكنه فى آيات أخرى وصفه بأنه (شهيداً عليكم) ، قال تعالى: ﴿ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ (٧٨) ﴾ [الحج]

فكلٌّ منَّا كأنه مبعوثٌ من الله ، وكما شهد رسول الله عليه أنه أبلغه، كذلك هو يشهد أنه بلَّغ من بعد رسول الله ، لذلك جاءت هذه الآية للأمرين ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس .

فرسول الله شاهدٌ عليهم بكلِّ ما قالوه وفعلوه به وبأصحابه الذين آمنوا به وصدّهم عن سبيل الله ومحاولات قتله وإيذائه .

ورسول الله ليس بِدْعاً من الرسل ، فالحق سبحانه أرسله إليكم ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) ﴾ [المزمل] فقد أرسلنا موسى بن عمران عليه السلام رسولاً إلى فرعون مصر .

وقد يسأل سائل : لماذا ذكر هنا فرعون وإرسال موسى له ولم يذكر أقواماً آخرين فى الجزيرة العربية وعلى أطرافها ؟

نقول : فرعون ازدرى موسى عليه السلام باعتبار أن موسى تربَّى فى بيت الفرعون ، فكيف يتبع مَنْ ربَّاه هو ؟ وقد قال الفرعون لموسى:

﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) ﴾ [الشعراء]

فهنا فرعون يمتنُّ على موسى ويُذكِّره بأنه رباه فى قصره إلى أن كبر ، ولكن موسى عليه السلام لا يجامل فى الحق ، لأن الحق سبحانه وتعالى هو من ربَّاه ، قال تعالى يخاطب موسى :

﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (٣٩) ﴾ [طه]

أما تربية فرعون فلم يكُنْ لها اعتبار فى ميزان الحق فكان يوبِّخ موسى كيف يقف منه هذا الموقف العدائى بعد ما كان منه .

لذلك رد عليه موسى : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) ﴾ [الشعراء]

كأنه يقول له : أتمنُّ عليَّ بهذا ، وتذكر هذه الحسنة وهى لا تساوى شيئاً لو قارنتها بما حدث منك من استعباد بنى إسرائيل وتذبيح أبنائهم واستحياء نسائهم وتسخيرهم فى خدمتك .

كذلك كان رسول الله ، رفضه كفار قريش لأنهم نَفَسُوا عليه أنْ ينزل

عليه الوحى وهو واحد منهم وفى القوم مَنْ هو أعظم منه فى نظرهم، لذلك قالوا : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

يقصدون الوليد بن المغيرة أو عروة بن مسعود الثقفى ، فردَّ الله عليهم : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَعِيشَتَهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ (٣٢) ﴾ [الزخرف]

ثم إن محمداً ﷺ أنجاه الله من كيد ومكر الكافرين بهجرته ﷺ من مكة إلى المدينة وقد اجتمعوا ليقتلوه ، ولكن الله أنجاه ، كذلك موسى عليه السلام أنجاه الله من فرعون رغم أنه خرج إليه بجيشه ليلحق به ويدركه ، ولكن الله أنجى موسى بأنْ فرقَ لموسى البحر حتى عبره موسى وقومه ، ثم أطبق البحر على فرعون وجنوده فكان من المغرقين فكانت أشد هزيمة على مَنْ كذَّب وأعرض .

وقد فعل الله بكفار قريش فى غزوة بدر هزيمة قاسية أذلَّتْ صناديد قريش وعظماءها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ ﴾

الحق سبحانه هنا يخوِّف كفار مكة من عاقبة كفرهم وتكذيبهم فى الدنيا ، فأعطى لهم مثلاً مما حدث لفرعون الذى لم يؤمن برسول الله إليه ، وهو موسى عليه السلام ومعه هارون رسولاً أيضاً .

وكلمة فرعون ليست اسماً لشخص ، بل هو تصنيف لوظيفة ، وكان لقب كل حاكم لمصر قديماً هو « فرعون » ، ونحن نعلم من التاريخ أن

الأسر الحاكمة توالت وكانوا فراعنة وكان منهم من يضطهد المؤمنين ولا بد أنْ يكون خليفة كل فرعون اضطهد المؤمنين أنْ يكون أشدَّ ضراوة وأكثر شحنة ضد المؤمنين .

فقد أرسل الله موسى وهارون إلى فرعون وقال لهما : ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلا تَنِيَا[1] فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤)﴾ [طه]

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٤٨)﴾ [طه]

يقول الحق سبحانه :

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧)﴾

هذا اليوم يجب أنْ نحتاط له حيطة كبرى وأنْ نترقبه لأنه يوم عظيم، والحق سبحانه يقول : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢)﴾ [الحج]

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ (١٧)﴾ [المزمل] كيف تقون أنفسكم وتحمونها من يوم عظيم مهول كهذا إنْ كفرتم بالله ولم تؤمنوا به وبرسوله وكتابه ، وهو يوم آتٍ لا محالة.

---

(١) تنيا : لاتنيا أي لا تضعفا [مجاهد في تفسيره ٢/٦٦٢٤] وقال الماتريدي في تفسيره (٧/ ٢٨٤) أي لا تضعفا في تبليغ الرسالة .

فبأىِّ شىء تتحصَّنون من عذاب ذلك اليوم وكيف تنجون منه إنْ كفرتم فى الدنيا ، فمن كفر بالله لا يتقى ذلك اليوم وهو لا يؤمن بذلك اليوم أبداً، فلو كان يؤمن به لاتقى عذابه ولخاف أهواله ، فاجتنب معصية الله .

والحق سبحانه يصف لنا هذا اليوم العظيم الشديد ﴿ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) ﴾ [المزمل]

فالشيب لا يوجد فى الدنيا للولدان الصِّغار إنما يوجد للإنسان بسبب كِبَره فى السنِّ غالباً ، ولكن فى هذا اليوم العظيم يرى الوليد ما يشيب له شعره من النار والعذاب والجحيم .

فيجعلهم ذلك اليوم شيوخاً شُمطاً ، وذلك حين يُقال لآدم : أخرج بعث النار . قال : يارب وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون[1] . فحينئذ تضع الحامل حملها ويشيب الوليد ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد .

فهذا اليوم العظيم ﴿ يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) ﴾ [المزمل] ، وشيباً هنا جمع شائب وشايب أى الرجل أو المرأة التى شاب شعرها فابيضَّ ، فإنما تشيب الولدان من شدة هَوْل وكَرْب هذا اليوم .

فالولدان فى ذلك اليوم يشيبون لا بسبب المشيب ، والمشيب فى الدنيا لا يوجد إلا بعد وجود سببه وهو الكِبَر ، وهذا ما ذكره القرآن من قول زكريا عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّى وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا (٤) ﴾ [مريم]

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٣٣٤٨، ٦٥٣٠) وكذا مسلم فى صحيحه (٣٧٩) من حديث أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله يا آدم فيقول : لبيك وسعديك والخير فى يديك . قال : أخرج بعث النار . قال : وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين . قال : فذاك حين يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد . فاشتد ذلك عليهم قالوا : يا رسول الله أيّنا ذلك الرجل ؟ فقال : أبشروا فإن من يأجوج ومأجوج ألفاً ومنكم رجل ».

فالشَّيب هنا بسبب كِبَر زكريا حتى أن عظمه وَهَن وضَعُف من كِبَر سنِّه، وقد قال الحق سبحانه أيضاً : ﴿ اللهُ الَّذى خَلَقَكُمْ من ضَعْف ثُمَّ جَعَلَ من بَعْد ضَعْف قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ من بَعْد قُوَّة ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَليمُ الْقَديرُ (٥٤) ﴾ [الروم]

فالشيبة مرحلة من مراحل عمر الإنسان فى حياته الدنيا ، ضعف ثم قوة الشباب ، ثم ضعف الشيخوخة والشيب .

أما فى يوم القيامة فليس كِبَر السنِّ والشيخوخة سبباً لشيب الشعر ، لذلك تجد الولدان يشيبون وهم صغار السن الذين لم يصبحوا شباباً .

﴿ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا ١٨ ﴾

فالسماء مع عظمها تنفطر وتتشقق فى هذا اليوم ، فما ظنك بغيرها من الخلائق ، فالحق سبحانه هنا ينبه إلى يوم الهول الأعظم الذى تنشقّ فيه السماء وتتساقط فيه الكواكب فلا أى شىء منها مهمته ، فالله قد سلبها ما كانت به صالحة .

والحق سبحانه يقول : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ (١) ﴾ [الانفطار]

أى تسقط قطعاً صغيرة ، فالسماوات بقوتها وعظمها تتفطر أى تتشقق وتكاد تكون مِزَعاً ، تقرب أنْ تنفطر وتنشق .

وقد قال الحق سبحانه ﴿ مُنْفَطِرٌ بِهِ (١٨) ﴾ [المزمل] فبعض العلماء أن (به) هنا معناها بأمر الله سبحانه ، وَالسماء مُثقلة بذلك اليوم متصدِّعة متشققة .

ونلحظ أن الحق سبحانه لم يقل : السماء منفطرة به . فالسماء مؤنث

ولكن قال : ﴿ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ (١٨) ﴾ [المزمل] أى ذات انفطار فعبَّر بها كما يعبَّر عن الذكور كما يقال امرأة مرضع . أى : ذات إرضاع .

وقد يكون عبَّر عن السماء بالمذكَّر نظراً للمعنى ، فالسماء معناها السقف كقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا (٣٢) ﴾ [الأنبياء]

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى عن تشقُّق السماء : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلا (٢٥) ﴾ [الفرقان]

ولهذا قال بعض العلماء أن السماء تنفطر وتتشقق بنزول الملائكة من السماء فى هذا اليوم ، فيوم تنشقُّ السماء بالغمام وينزل الغمام من الشقوق ، وقد ذُكر الغمام أيضاً فى قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِى ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ (٢١٠) ﴾ [البقرة]

﴿ مُنْفَطِرٌ بِهِ (١٨) ﴾ [المزمل] والانفطار التصدُّع والانشقاق على غير نظام وبغير قصد ، والضمير فى (به) قال المنذر وغيره : هو عائدعلى اليوم . وقال مجاهد : هو عائد على الله تعالى .

﴿ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا (١٨) ﴾ [المزمل] لأن الحق سبحانه وتعالى بقدرته الشاملة وصفات جلاله الكاملة لا يتخلَّف شىء فى وجوده عن أمره ، فإذا وعد بشىء فلا بد أنْ يحدث .

فأمر الله غير أوامر البشر ، فأوامر البشر هى التى تتخلف أحياناً سواء أكانت وعداً أو وعيداً ، لأنك قد تعد إنساناً بخير ولكنك ساعة أداء الخير لا تستطيعه فتكون قدرتك هى التى تحتاج إلى أداء الخير . وقد تُوعد إنساناً وتهدده بشرٍّ وستعمل فيه كذا وكذا غداً ، ولكن قد يأتيك الغد ولاتستطيع إنفاذ وعيدك .

أما الحق سبحانه فإذا وعد بشيء أو أوعد فلا يوجد ما يغير هذا ، فساعة يقول ربنا بوعد أو وعيد فاعرف أن هذا سيحدث فى الوعد ، أما فى الوعيد فإن الله قد يتجاوز عنه كرماً وفضلاً ماعدا الشرك بالله .

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ﴾

وردتْ هذه الآية بهذا النص فى القرآن الكريم مرتين ، هذه التى فى سورة المزمل ، والثانية ستأتى فى سورة الإنسان (آية ٢٩) ، وكلاهما جاءت بعد الكلام عن اليوم العظيم .

فى المزمل قال تعالى فيها : ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً (١٨) ﴾ [المزمل]

أما فى الإنسان فقال تعالى : ﴿ إِنَّ هَـٰؤُلاَءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (٢٧) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً (٢٨)﴾ [الإنسان]

فهذه تذكرة لهم لعلهم يتفكرون فى منطق الحق ويخشون الله ويبعدون أنفسهم عن الوقوع فى الباطل حتى يكونوا فى وقاية من عذاب الله وسخطه.

﴿ إِنَّ هَـٰذِهِ تَذْكِرَةٌ (١٩) ﴾ [المزمل] أى تذكيراً بهول ذلك اليوم العظيم وما فيه.

﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (١٩) ﴾ [المزمل] فمن شاء أنْ ينجو فى هذا

اليوم فليتخذ إلى ربه سبيلاً بالإيمان والطاعة . والبعض ممَّنْ ينفون القدر ويسمون القدرية يستدلون بهذه الآية على أن المعوّل على مشيئة الإنسان واختياره .

ولكن الحق سبحانه فى سورة الإنسان ربط مشيئة الإنسان بمشيئة الله ، فقال بعدها: ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ (٣٠) ﴾ [الإنسان]

فلستم تشاءون إلا بمشيئة الله تعالى فالأمر إلى الله ، ومشيئة الله مستلزمة لفعل العبد فجميع ما يصدر عن العبد بمشيئة الله .

وهذا لا ينفى مشيئة العبد ، فمَنْ شاء اتخذ إلى ماوعد له ربه فى الآخرة سبيلاً فى أنْ يُقبل على طاعته ويشغل نفسه بعبادته .

حينها سيجد رحمة الله وثوابه ، أما إن لم يشأ هذا ولم يسْعَ إليه ولم يؤمن ولم يُطع فسيجد عقابه أمامه .

فهذه الآيات مشتملة على أنواع الهداية والإرشاد ، فمَنْ شاء أنْ يؤمن ويتخذ بذلك إلى ربه سبيلاً أى طريقاً إلى رضاه ورحمته فليرغب .

والسبيل الطريق الموصّل للغاية .

والحق سبحانه يقول : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦) ﴾ [الأعراف]

سبيل الرشد يضغط على شهوات النفس وهواها ، فينهى عن السيئات وهم لا يقدرون على كَبْح جماح شهواتهم لأنها تمكنت منهم ، ولكن سبيل الغى يطلق العنان لشهوات النفس ، ولا يكون كذلك إذا غفل عن معطيات

الإيمان الذى يحرمه من شيء ليعطيه أشياء أثمن .

ثم يُنهى الحق سبحانه سورة المزمل بقوله :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾

فالحق سبحانه يخاطب نبيه ﷺ فى الخلوة الليلية معه ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى من ثُلُثَي اللَّيْلِ وَنصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائفَةٌ منَ الَّذينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ منَ الْقُرْآن عَلمَ أَن سَيَكُونُ منكُم مَّرْضَى (٢٠) ﴾ [المزمل]

والمرضى غير قادرين على العمل ، فعلى القادر إذن أنْ يعمل ليسُدَّ حاجته وحاجة غير القادر : ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ (٢٠) ﴾ [المزمل]

فقانون الإصلاح الذى جعله الله لحياة البشر يقوم على دعامتين : الضرب فى الأرض والسَّعى فى مناكبها وفيه مقومات الحياة ثم نقاتل

فى سبيل الله لبقاء الدعوة والمنهج فالأولى للقالب وبها نأكل ونشرب ونعيش، والأخرى للقيم .

فإنْ قعدت الأمة أو تكاسلت عن أيٍّ من هاتين الدعامتين ضاعت وهلكت وصارت مطمعاً لأعدائها ، لذلك تجد الآن الأمم المتخلفة فقيرة تعيش على صدقات الأمم الغنية لأنها كفرت بأنعم الله وسترتها ، ولم تعمل على استنباطها قعدت عن الاستعمار أى عمران الأرض واستصلاحها .

وقد كان النبى ﷺ والمؤمنون يقومون فى أول الإسلام من الليل نصفه وثلثه ، وهذا قبل أنْ تفرض الصلوات الخمس ، فقاموا سنة فشقَّ ذلك عليهم فنزلت الرخصة بعد ذلك عند السنة .

ففى أول سورة المزمل قال تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) ﴾ [المزمل]

فكان الأمر شاقاً عليهم ووجدوا حرجاً فى الاستمرار ، لذلك نزل قوله تعالى بالرخصة لهم فى آخر سورة المزمل : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ (٢٠) ﴾ [المزمل]

وقد علم الله أنكم لن تُحصوه ولن تستطيعوه ولن تداوموا عليه ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ (٢٠) ﴾ [المزمل] يعنى فتجاوز عنكم وخفف عنكم فقال : ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ (٢٠) ﴾ [المزمل]

فلم يفرض وقتاً من الليل ولا مقداراً منه ، بل جعله على السَّعة وحسب الاستطاعة ، وكان بين أول سورة المزمل وآخرها سنة حتى فُرضت الصلوات الخمس والزكاة .

فذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ (٢٠) ﴾ [المزمل]

وأسلوب القرآن أسلوب معجز ، فقد استخدم الحق سبحانه كلمة ﴿ أَدْنَى (٢٠) ﴾[المزمل] وهى تشمل ثلاث حالات فأجملها أى أدنى من ثلثى الليل ، وأدنى من نصفه ، وأدنى من ثلثه . وأدنى أى أقرب من الثلث أو النصف أو الثلثين على حسب حال كل قائم لليل وقارىء للقرآن فيه .

والحق سبحانه يقول: ﴿ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٢٠) ﴾[المزمل] فالله هو العالم بمقادير الليل والنهار وأجزائهما وساعاتهما لا يفوته علم ما يفعلون ، فيعلم القدر الذى يقومون من الليل والذى ينامون منه .

ومقدِّر الليل والنهار ومُدبِّرهما واحد هو الحق سبحانه ، ولا يقدر على تقدير الليل والنهار ومعرفة مقادير ساعاتهما إلا الله وحده ، لذلك نجد النظم القرآنى يقدم لفظ الجلالة فيقول : ﴿ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ (٢٠) ﴾[المزمل] دلالة على انحصار تقدير الليل والنهار فى يد الله .

﴿ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ (٢٠) ﴾[المزمل] فالله تعالى علم أنكم لن تطيقوه ، أى : لن تُطيقوا قيام الليل نصفه أو ثلثه أو ثلثيه . وقد كان الرجل يصلى الليل كله مخافة أنْ لا يصيب ما أمر الله به من القيام .

والإحصاء إطاقة الشىء والقيام والتزامه ، ومثلها قوله ﷺ : « خلتان لا يحصيهما رجل مسلم إلا أدخلتاه الجنة وهما يسير ، ومن يعمل بهما قليل ، يسبِّح الله فى دبر كل صلاة عشراً ويحمده عشراً ويكبِّره عشراً » .

وفى حديث أسماء الله الحسنى قال رسول الله ﷺ : « إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة » .

والإحصاء فى اللغة على وجهين : أحدهما بمعنى الإحاطة بعلم عدد

الشيء وقدره . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (٢٨) ﴾ [الجن]. والثانى بمعنى الإطاقة له ، كقوله تعالى هنا ﴿ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ (٢٠) ﴾ [المزمل] أى: لن تطيقوه .

﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ (٢٠) ﴾ [المزمل] فردَّهم إلى الفريضة ووضع عنهم النافلة إلا ما تطوَّعوا به ، وكلمة ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ (٢٠) ﴾ هنا لها عدة معانٍ .

فتعنى العفو عنهم ، وهذا يدل على أنه كان فيهم مَنْ ترك بعض ما أُمر به.

وتعنى فتاب عليكم من فرض القيام إذ عجزتم ، وأصل التوبة الرجوع.

وهم قد أُمروا بحفظ أوقات قيام الليل على وجه الإحصاء والتحرِّى أى تحرِّى الأوقات ، فخفَّف الله عنهم هذا التحرى والإحصاء لذلك قال: ﴿ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ (٢٠) ﴾ [المزمل]

لن تستطيعوا القيام به على الوجه الذى أُمرتم به .

﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ (٢٠) ﴾ [المزمل] يعنى صلُّوا ما تيسَّر لكم أنْ يكون ، فجعل ذلك إليهم فلتُصلُّوا متى شئتم تطوعاً غير متحرِّين أوقاتاً معينة أو أجزاء من الليل .

فكان ذلك تخفيفاً عنهم ، فإنهم كانوا قد قاموا حَوْلاً حتى ورمتْ أقدامهم وسُوقهم .

﴿ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ (٢٠) ﴾ [المزمل]

ثلاثة أصناف كانوا سبباً فى تخفيف الله : مرضى لا يستطيعون القيام، مسافرون فى الأرض يسعوْنَ على أرزاقهم يبتغون الرزق من فضل الله تعالى ، والأخيرون مجاهدون فى سبيل الله .

فالمريض يضعف عن التهجد بالليل ، فخفَّف الله عز وجل عنه لأجل

ضعفه وعجزه عنه ، فالله يعلم أنْ سيكون منكم أهلُ مرض قد أضعفهم المرض عن قيام الليل .

وآخرون أعجزهم عن قيام الليل خروجهم للتجارة والتنقُّل فى البلاد طلباً للرزق ، وقد يصعب عليهم التهجد لله فى الليل لأن هذا قد يُسبِّب لهم حرجاً فى التحرك نهاراً ، فلا يستطيعون طلب الرزق والمعاش والضرب فى الأرض.

والضرب هو انفعالُ الجارحة على شيء آخر بعنف وقوة ، وهذا معناه أن الحياة كلها حركة وانفعال ، فالله أودع فى الأرض كل أقوات الخَلْق ، فحين يحبون أنْ يُخرجوا خيراتها يقومون بحرثها حتى يهيجوها ويرموا البذور وبعد ذلك الرى . فكلُّ حركة تحتاج إلى شدة ومكافحة .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ (٢٠) ﴾ [المزمل] وما دامت المسألة ضرباً فى الأرض فهى تحتاج إلى عزم من الإنسان وإلى قوة .

ولذلك يقال : الأرض تحب مَنْ يهينها بالعزق والحرث ، وكلما اشتدت حركة الإنسان فى الأرض أخرجت له خيراً .

﴿ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ (٢٠) ﴾ [المزمل] وهذا هو الصنف الثالث الذى كان سبباً فى نسخ حكم قيام الليل بالأوقات المحددة بالنصف والثلث والثلثين .

لأن فى القتال مقاساة ومعاناة وتربُصاً وترقُباً لهجوم العدو ، وقد يكون قيام الليل عبئاً على المقاتلين ومشقةً عليهم فى القتال والمرابطة على ثغور الإسلام .

لذلك يسَّر الله الأمر ، فقال : ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ (٢٠) ﴾ [المزمل] فأقيموا من الليل ما استطعتم .

وجعل الحق سبحانه الأمر فيما فرضه الله من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، فقال تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ (٢٠) ﴾ [المزمل] والحق سبحانه قرن بين الصلاة والزكاة فى آيات كثيرة .

وإقامة الصلاة هى الركن الذى لا يسقط أبداً عن الإنسان ، فالتفتوا إلى نداءات ربكم للصلاة ، وعندما يرتفع صوت المؤذن بقوله الله أكبر فهذه دعوة للإقبال على الله .. إقبال فى ساعة معلومة لتقفوا أمامه سبحانه وتعالى وتكونوا فى حضرته يعطيكم الله المدد .

وذِكْر إقامة الصلاة هنا ثم إيتاء الزكاة بعد الضرب فى الأرض والضرب فى سبيل الله ، فى الأولى ابتغوا من فضل الله فعليهم أنْ يحمدوا الله على فضل الله ورزقه لهم ، وأنْ يُخرجوا مما أنعم الله عليهم به زكاة تطهر مالهم وتشيع التكافل والتعاون والإحساس بالفقير بين أبناء المجتمع .

والضرب فى سبيل الله يحتاج أيضاً إلى تجهيز الغازين بالعتاد والسلاح، وكذا يحتاج من المقاتلين اقتراباً من الله بأداء وإقامة الصلاة .

والحق سبحانه يُعقِب الزكاة بالقول ﴿ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا (٢٠) ﴾ [المزمل] والقرض شىء غير الزكاة وغير الصدقة ، فلا يتوقف إنفاقك على ما فُرض عليك أو ما تطوعتَ به ، بل أيضاً يطلب منك أنْ تقرض قرضاً حسناً ، والله لا يحتاج منك قرضاً ، والقرض إنما هو للمحتاجين ، وأنت عندما تُقرض إنما تقرض مَنْ تفضَّلْتَ عليه بالنعمة ، ورغم هذا يسألك أنْ تُقرضه هو .

والحق سبحانه يقول : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥) ﴾ [البقرة]

والقرض فى اللغة معناه قَضْم الشىء بالناب ، ولذلك الحق سبحانه هو

يُقدِّر الجزاء على قَدْر صعوبة القرض . والقرض شيء تُخرجه من مالك على أمل أنْ تستعيده ، وهو سبحانه يُطمئنك على أنه هو الذى سيقترض منك ، وأنه سيرد ما اقترضه لكن ليس فى صورة ما قدمت إنما فى صورة مستثمرة أضعافاً مضاعفة .

فأصْل مالك محفوظ ومُستثمر ، فهى أضعافٌ كثيرة بمقاييس الله ، لا بمقاييسنا نحن كبشر .

فلا شيءَ يضيع عند الله ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ (٢٠) ﴾ [المزمل] فليطمئن المؤمن أنَّ حركة حياته مقدرة عند الله ، وسنجد ثواب هذا عند الله ، فكلُّ ما تفعله من منهج الله له أجر ، وليس أجراً بقدر العمل بل أضعاف العمل أضعافاً مضاعفة .

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ (٩٦) ﴾ [النحل] فما عند الله باقٍ لا نفادَ له ، فخزائنُ الله ملأى لا ينفد ما فيها .

وما عند الله ليس هيِّناً ، بل ﴿ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا (٢٠) ﴾ [المزمل]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٠) ﴾ [المزمل] فالحق سبحانه يعلم أن بنى آدم لا يمكن لهم أنْ يراعوا حقوقه كما يجب أنْ تُراعى، فلا بد أنْ تفلت منهم أشياء ، وهو سبحانه وتعالى يعلم ذلك لأنه خالقهم فأمرهم جلَّتْ حكمته أنْ يستغفروه ليكفّروا عن سيئاتهم .

﴿ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٠) ﴾ [المزمل] والمغفرة والرحمة تقتضيان ذنوباً، والله ﴿ غَفُورٌ (٢٠) ﴾ [المزمل] لما قد بدر وحصل منكم من ذنوب استغفرتم ربكم منها ﴿ رَحِيمٌ (٢٠) ﴾ [المزمل] بكم فلا يعاجلكم بالعقوبة شفقةً عليكم وحباً فى رجوعكم إليه .

فالله غفور رحيم حتى لمن توانى قليلاً ، وذلك حتى يلحق بالركْب

الإيمانى ويتدارك ما فاته ، لأن يغفر ما فات إنْ حاول العبد تداركه .

والله غفور قبل أنْ يوجد مغفورٌ له أو مرحوم ، وصفة المغفرة وصفة الرحمة كلٌّ فى مُطلقها تكون لله وحده ، وهى توبة للجانى ورحمة للمجنى عليه .

والحق سبحانه له طلاقةُ القدرة فى أنْ يغفر وأنْ يرحم ، فإياك أنْ تقول: إن فلاناً لا يستحق المغفرة والرحمة ، لأنه سبحانه مالك السماء والأرض، وهو الذى أعطى للبشر ما يستحقون بالحق الذى أوجبه على نفسه .

سُورَةُ المُدَّثِّرِ

سورة المدثر[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) ﴾

يخاطب الحق سبحانه رسوله هنا بـ ﴿ يَـٰأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) ﴾ [المدثر] وفى السورة قبلها خاطبه بوصف المزمل فقال : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) ﴾ [المزمل]

وقد كان النبى ﷺ يُحدِّث عن فترة الوحى قال: فبينا أنا أمشى يوماً إذ رأيتُ الملَك الذى كان أتانى بحراء على كرسى بين السماء والأرض، فجثيتُ منه رعباً فرجعتُ إلى خديجة ، فقلت : زمّلونى زمّلونى . قالت

(١) سورة المدثر : هى السورة رقم (٧٤) فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها (٥٦) آية ، نزلت بمكة بعد سورة المزمل وهى سورة محكمة وما يُدّعى فيها أن آية ﴿ ذَرْنى وَمَنْ خلقْتُ وحيدًا (١١) ﴾ [المدثر] منسوخة بآية السيف فهو خطأ فهذا وعيد للوليد بن المغيرة فلا وجه للنسخ . وأيضاً فإن الوليد هلك قبل نزول آية السيف

خديجة : فدثَّرناه [١]. فأنزل الله تعالى عليه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) ﴾ [المدثر]

فيأيها المتدثر بثيابه عند نومه ، وأصل (المدثر) المتدثر بثيابه إذا نام ، فأُدغمت التاء فى الدال وشُدِّدت ، والدثار الثوب الذى يتدثر به الإنسان فوق الشعار ، أما الشعار فهو الثوب الذى يلى جلد الإنسان .

وهذا على أن التدثُّر هنا على ظاهره ، وأنه متغطٍّ فعلاً بدثاره وغطائه .

ولكن الآيـة تحتمل تأويلاً آخر ، أنـه ليس المـراد من المدثر المتدثر بالثياب، بل هو دثار معنوى ، وهو هنا التدثر بدثار النبوة والرسالة ، فيا أيها المتدثر بأثواب العلم العظيم والخُلق الكريم والرحمة الكاملة ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ (٢) ﴾ [المدثر] قم من مضجعك وانفض دثارك وغطاءك عنك. قُمْ لما أرسلك الله لأجله ، قم قيام عزم وتصميم .

والقيام فى لغة العرب إما أنه قيام جِدٍّ وعزم أو قيام انتصاب فأنذر الناس وأهل مكة عذاب ربك ووقائعه فى الأمم وشدة نقمته إذا انتقم، فحذِّر الناس من العذاب إنْ لم يؤمنوا ، ومثلها قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ (٢١٤) ﴾ [الشعراء] فبعد أنْ كان متوجهاً إلى الله تعالى مشتغلاً بعبادته والتحنُّث فى غار حراء ، وهو التعبُّد فى الليالى ذوات العدد .

فكان ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ (٢) ﴾ [المدثر] توجيه له ﷺ أنْ يخرج من تحنثه وعبادته للقيام بالمهمة التى كُلِّفَ بها وهى الإنذار وتبليغ الرسالة .

﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) ﴾ [المدثر] عظِّم ربك عمَّا يقوله عبدة الأوثان، ولا يعظم كفار مكة وجبروتهم وطغيانهم فى نفسك فالله أكبر، حينها قام رسول الله

---

(١) أخرجه عبد الرزاق فى تفسيره (٣٣٧٧) وكذا الطبرى فى تفسيره (٨/٢٣) من طريق الزهرى أيضاً .

من مضجعه فقال : الله أكبر كبيراً فكبّرت خديجة وخرجت وعلمتْ أنه قد أُوحى إليه(١) .

وليس المقصود طبعاً مجرد التكبير باللسان إنما المراد تعظيم الله وتنزيهه ، فعظمة الحق سبحانه فى نفس المؤمن أكبر من كل شىء ، وأكبر من كلِّ كبير ، لذلك جُعلتْ (الله أكبر) شعار أذانك وصلاتك فلا بد أنْ تكبِّر الله وتجعله أكبر مما دونه من الأغيار .

فالله أكبر من أى عظيم ، كبِّره تكبيراً بأنْ تقدِّم أوامره ونواهيه على كلِّ أمر وعلى كلِّ نهى ، ولا تنسَ أنك إنْ كبَّرت الحق سبحانه أعززْتَ نفسك بعزة الله التى لا يعطيها إلا لمَنْ يخلص العبودية له سبحانه .

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ(٤)﴾[المدثر] طهِّر ثيابك من الأدناس والنجاسات والأرجاس، وليس المعنى هنا أن ثياب رسول الله كانت بها دَنَس أو نجاسة ، لا فرسول الله خيار من خيار.

ولكن المقصود أن لا يلبس ثوباً على فخر أو غدر، ولا تطوِّل ثوباً فتقع أطرافها على الأرض فتصيبها النجاسات ، كما كان يفعل صناديد قريش.

فطهِّر نفسك ، وطهِّر عملك بالإخلاص ، وطهِّر ظنك بحُسْن الظن ، وطهِّر قلبك من الغِلّ والحسد .

فالمقصود تطهير النفس والثياب والجسم . ورسول الله مُقدم على الدعوة إلى رسالة التوحيد ، وهذا يقتضى طهارة القلب من الشرك ، وطهارة النفس من الخبث ، وكانت العرب تقول على الرجل الوفى فى تعاملاته : طاهر

---

(١) أورده مقاتل بن سليمان فى تفسيره (٤/ ٤٩٠) والرازى فى مفاتيح الغيب (٣٠/ ٦٩٧) والقرطبى (١٩/ ٦٢) وأبو السعود فى تفسيره (إرشاد العقول) (٩/ ٥٤) وابن عجيبة فى تفسيره البحر المديد (٧/ ١٧٢).

الثياب . ونحن نقول هكذا عمَّنْ اتصف بالعفة مثلاً نقول : ثوبه طاهر . أى لم يتدنَّس بدنس .

ثم يقول تعالى ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) ﴾ [المدثر] أى اهجر الرجز . أى اهجر المآثم والمعاصى والذنوب لتسلم من الرِّجز أى من العذاب . يقول تعالى :
﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا(١) مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢) ﴾ [الأعراف]

فاهجر الأوثان والأصنام ، والخطاب وإنْ كان لرسول الله إلا أنه خطاب لكلِّ مَنْ آمن بالإسلام أنْ يجتنبوا الأوثان والأصنام. ومثله قول إبراهيم عليه السلام : ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ (٤٨) ﴾[مريم]

والاعتزال تَرْك صحبة إلى خير منها ولو فى اعتقاده ، إبراهيم عليه السلام لم يعتزلهم لا لطلب الرزق وسعة العيش بل الاعتزال من أجل الله وفى سبيل مبدأ إيمانى يدعو إليه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (٦) ﴾[المدثر] أى لاتُعْطِ وتطلب أكثر مما أعطيتَ ، فلا تُعط شيئاً لتُثاب أفضلَ منه ، فلا تُعطِ مالك رجاء فضل من الثواب فى الدنيا بل ابتغ ثواب الآخرة .

فلا تُعْطِ بغرض الاستكثار ، فافعل الطاعة أو أعط لوجه الله لا لوجه الدنيا ، ولا لتستزيد ، وهذا غير قوله تعالى لسليمان عليه السلام:
﴿ هَـٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) ﴾ [ص]

فاعط مَنْ شئتَ أو أمسك ، وليس عليك حساب لم أعطيت.ولم منعتَ وأمسكتَ. فهناك يتحدث عن المنِّ والعطاء بغرض الاستكثار وفى آية سورة (ص) يُحدِّثنا عن العطاء الواسع ، فالله أعطى سليمان مُلْكاً لم يُؤته لأحد .

وأنت فى قيامك لتنذر وفى هجرك لأوثانهم وأصنامهم وتركك

---

(١) رجزاً : العذاب وقيل الطاعون . قال ابن عباس : كل شىء فى كتاب الله من (الرجز) يعنى به العذاب . قاله الطبرى فى تفسيره (١١٨/٢) . وأخرجه ابن أبى حاتم فى تفسيره (٥٩٢)

لعبادتهم لآلهتهم ستجد منهم عنتاً وإعراضاً وإيذاء واستهزاء ومحاولات كثيرة للتعريض بك .

لذلك يُوصيك ربك فيقول : ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) ﴾ [المدثر] فاصبر على طاعته وأوامره ونواهيه لأجل ثواب الله تعالى ، واصبر على ما أُوذيتَ فيه فلقد حُمِّلتَ أمراً عظيماً فاصبر على محاربة الناس لدعوة الله .

فاصبر على ما تُؤذَى ولا تُجازهم بصنيعهم ، فإن الله تعالى سيكفيكهم، وهذا معناه أن رسول الله مُقدِم على أحداث جسام وعلى إيذاء وتكذيب من قومه.

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (٨) فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠) ﴾

الناقور الصُّور وهو القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل ، وهما نفختان ، والمقصود هنا النفخة الثانية .

وقد قال رسول الله ﷺ: « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحَنَى جبهته يستمع متى يُؤمر ينفخ فيه » فقال أصحاب رسول الله ﷺ : كيف نقول ؟ فقال تقولون : حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا (١).

و﴿ نُقِرَ (٨) ﴾ [المدثر] أى نُفخ فى الصُّور وهو كهيئة البوق . وهى آية تهز الوجدان والقلوب حتى أن زرارة بن أبى أوفى كان يصلى بقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِى النَّاقُورِ (٨) ﴾ [المدثر] فخرَّ مغشياً عليه(٢) .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣٠٠٨ ، ١١٠٣٩ ، ١٩٣٤٥) ، والترمذى فى سننه (٢٤٣١ ، ٣٢٤٣) حسَّنه الترمذى ، وأخرجه كذلك ابن ماجه فى سننه (٤٢٧٣) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

(٢) أورده الترمذى (٤٤٥) وأخرجه أبو بكر الدينورى (ت ٣٣٣هـ) فى المجالسة وجواهر العلم (٤٤٨/١) عن بهز بن حكيم وتمامه : (فحملناه ميتاً رحمه الله) .

والله تعالى يُعرِّف الناس أمورَ الآخرة بأمثال ما شوهد فى الدنيا وقد كان عادة الناس النفخ فى البوق عند الأسفار وفى العساكر .

والنفخ فى البوق فيه رهبة وخوف وفزع كأنه يقول للموتى قوموا فقد حانتْ ساعة القيام من الموت والحشر من أجل الحساب .

وقد قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِى الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٣) ﴾ [الأنعام] فالنفخ فى الصور تفيد الإيذان بمقدم أمرٍ ما ، فبعد النفخة الأولى يموت مَنْ كان حياً ، وبعد النفخة الثانية يصحو الموتى ويقومون .

﴿ وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِى السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِى الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (٦٨)﴾ [الزمر]

والنفخ فى الصُّور دعوة عظيمة مهيبة للموتى للخروج من قبورهم، فقال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٥٢) ﴾

[الإسراء]

فقوله تعالى :﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ (٥٢) ﴾ [الإسراء] أى يقول لكم اخرجوا من القبور للبعث بالنفخة الثانية فى الصُّور ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ (٥٢) ﴾[الإسراء] أى تقومون فى طاعة واستكانة لا قومة مستنكفٍ أو متقاعسٍ أو متغطرس فكلّ هذا انتهى وقته فى الدنيا ونحن الآن فى الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه ﴿ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩)﴾[المدثر] فيوم النفخة وهو يوم القيامة يوم عسير شديد ، فهو يوم شاقٌ وليس معنى وصفه لهذا اليوم بأنه عسير أن هذا على إطلاقه ، بل هو عسير على فريق ، يسير على غيرهم .

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠) ﴾[المدثر] وإنما يقع العذاب على الكفرة ويحقّ عليهم ، فلذلك سماه عسيراً ، وهو إذا كان عسيراً

على فريق فهو يسير على غيرهم .

وقد يكون عسيراً على الخلائق أجمع ، بعض هول ذلك اليوم يشمل الفرق كلها ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) ﴾ [الحج]

فالناس هنا تشمل الجميع ، ثم إن المؤمنين تفرج عنهم الأهوال بما يأتيهم من البشارات والكرامات عن الله تعالى ويبقى عُسْره على أصحاب النار .

ويُقال (عَسُر) الأمر إذا صَعُب فهو عسير . و (عَسِر) فهو عَسِرٌ فإذا نُفخ فى الصُّور ، فذلك يوم شديد صعب غير سهل على الكافرين .

فهذا اليوم على الكافرين ﴿ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠) ﴾[المدثر] أى غير هيِّن . ويهون ذلك على المؤمن كأدنى صلاته فهو على المؤمنين هيِّن .

ورسول الله ﷺ يقول : « إنه ليهوّن يوْم القيامة على المؤمن حتى يكون أخفّ عليه من صلاة مكتوبة صلاَّها فى دار الدنيا »[(١)].

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) ﴾

فذرنى ومَنْ خلقتُه فى بطن أمه وحيداً فريداً لا مالَ له ، ولا ولد ، فذرنى وإيَّاه فأنا أكفيكه ، وقد نزلتْ هذه الآية فى الوليد بن المغيرة[(٢)] وكان

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (١١٧١٧) وابن حبان فى صحيحه (٧٣٣٤) وأبو يعلى الموصلى في مسنده (١٣٩٠) والبغوى فى شرح السنة (٤٣١٨) عن أبى سعيد الخدرى، وقد ضعَّفه الألبانى فى المشكاة (٥٥٦٤) .

(٢) الوليد بن المغيرة أحد قادة قريش فى العصر الجاهلى والد خالد بن الوليد كانت قريش تسميه الوحيد أو وحيد مكة وكان أغنى أغنيائهم وكانت قافلة تجارته تقدر بمائة بعير .

يُسمَّى الوحيد فى قومه .

فخلِّ بينى يا محمد وبين مَنْ خلقته وحدى لم يشترك أحد معى فى خَلْقه، فأنا وحدى الخالق خلقتُ كلَّ شىء وحدى . وهذا تهديد مرعب ومفزع ، فكأن الحقَّ سبحانه يقول : (إنى أتولى عذابه يوم القيامة وحدى كما تفردت بخَلْقى إياه وحدى).

وأنا لم أخلقه وأُوجده فى الدنيا وتركته هملاً ، بل تكفلت برزقه ، لذلك يقول الحق سبحانه ﴿ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا (١٢) ﴾ [المدثر]

فكلّ النعم التى هى من عطاء الربوبية لله هى فى الدنيا لخَلْقه جميعاً، فالله ربُّ الجميع مَنْ أطاعه ومَنْ عصاه ، فالله سبحانه خلق كل الخلق مؤمنهم وكافرهم ، وما دام قد خلقهم واستدعاهم إلى الوجود فهو لا يتركهم.

فالحق سبحانه رزق الإنسان وسخَّر الأشياء له ، فهو لم يسخِّر الكونَ للمؤمن فقط ، وإنما سخَّره للمؤمن وللكافر .

ولله عطاءان : عطاء الربوبية فهو المربِّى الذى استدعى إلى الكون المؤمن والكافر ، وسبحانه سخَّر الأسبابَ للكل ، فالشمس تشرق على المؤمن والكافر ، والأسباب قد تعطى المؤمن والكافر ، أما عطاء الألوهية فيتمثل فى (افعل) و (لا تفعل) .

وهذا الذى خلقته رزقتَه مالاً ممدوداً غير منقطع يمدُّ بعضه بعضاً دائماً، وهو ما يُمدُّ بالنماء كالزرع والضرع والتجارة ، وقد كان للوليد ابن المغيرة بستانٌ بالطائف لا تنقطع ثماره شتاءً ولا صيفاً .

وقوله تعالى : ﴿ مَالاً مَّمْدُودًا (١٢) ﴾ [المدثر] مثل قوله تعالى : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) ﴾ [الواقعة] أى ظل لا ينقطع . وقد قال رسول الله ﷺ : « إن فى

الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها »[1] . فهو ظِلٌّ دائم لا تنسخه الشمس كما تنسخ ظل أهل الدنيا .

فالله أمده وأنعم عليه بمال ممدود متتابع لا ينقطع مدده والذى لا ينقطع مدده لا يقع تحت الإحصاء ، وهو مال ممتدّ يأتيه المدد وتلحقه الزيادة شيئاً بعد شيء .

والمال هو كلّ ما يتموّل وكل ما يتموّل يعتبر مالاً ، إلا أن المال - ينقسم قسمين : مال يمكن أن تنتفع به مباشرة ، فهناك مَنْ يملك الطعام، وآخر يملك الشراب ، وثالث يملك أثواباً ، وهذا نوع من المال ينتفع به مباشرة .

وهناك نوع آخر من المال وهو النقد ولا ينتفع به مباشرة بل يُنتفع به بإيجاد ما ينتفع به مباشرة ، وهكذا ينقسم المال إلى رزق مباشر ورزق غير مباشر .

ثم إن الحق سبحانه لم يُعطه مالاً فقط ، بل أعطاه البنين أيضاً ، فقال تعالى : ﴿ وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) ﴾ [المدثر]

والمال والبنون قال عنهم الحق سبحانه ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (٤٦) ﴾ [الكهف]، فهو أنعم عليه بالمال الممدود وغير المنقطع ، وأنعم عليه بالبنين الشهود ، أى الرجال الذين يشهدون معه المحافل والمجامع ، وقد كانوا عشرة من الرجال .

ومن معنى ﴿ وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) ﴾ [المدثر] أنهم كانوا لا يغيبون أبداً عنه فى تجارة ولا غيرها لكثرة أموالهم بمكة ، فهو لم يَحْتَجْ إلى تفريق أولاده فى الجمع والاكتساب ، بل كان المال يأتيه سمحاً يأتيه بسهولة لا يحتاج إلى مشقة وتكلّف أسباب جمع المال .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٥١ ، ٣٢٥٢ ، ٤٨٨١) ومسلم فى صحيحه (٢٨٢٧) من حديث سهل ابن سعد الساعدى رضى الله عنه .

لذلك متَّعه الله برؤيتهم حوله ، فمتعة الأب برؤية أبنائه حوله لا تعدلها متعة خاصة إذا كانوا رجالاً يكونون عزوة له .

ثم يقول تعالى ﴿ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ﴾[المدثر] أى بسطت له فى العيش وطول العمر بَسْطاً مع الجاه العريض والرياسة فى قومه .

والتمهيد هو التمكين ، فقد مهَّد الله له سبل العيش الرغيد ، فمكَّنه الله بأنْ أعطاه المال وأعطاه القوة المتمثلة فى أبنائه العشرة ، فمكَّنته من التصرُّف فى الأمور .

فوجود هؤلاء البنين بحضرة أبيهم ، يغدون معه ويروحون ، زينة فى المجالس وعَوْنٌ على تصريف الأمور ، وقد امتنَّ الله على عباده بهذا فقال: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ (٧٢) ﴾ [النحل]

فالبنون هم الحلقة الأولى لاستبقاء الحياة ، والحفدة وهم ولد الولد هم الحلقة الثانية لاستبقاء الحياة ، ومن هنا جاء حب الكثيرين منا للذكور الذين يمثلون امتداداً للآباء .

ولكنه رغم كلِّ هذا ، رغم المال والثروة الواسعة والبنين الشهود والتمهيد والتمكين والسلطان والجاه فإنه يطمع فيما هو أكثر ، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) ﴾ [المدثر]

فهو يطمع فى المزيد من المال والولد والتمهيد ، إن الله أعطاه مالاً لم يُعطه لأحد فى قريش ، حتى أنه كان يقول : لو قسمت مالى يميناً وشمالاً على قريش مادمت حياً ما فنى . فكيف تعدنى الفقر يا محمد ؟ فقال ﷺ: أما والله إن الذى أعطاك قادرٌ أنْ يأخذه منك ، فوقع فى قلبه من ذلك شىءٌ، ثم عمد إلى ماله فعدَّه ، ما كان من ذهب وفضة أو حديقة أو رقيق

فعدَّه وأحصاه [1].

ورغم هذا ﴿ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) ﴾ [المدثر] يطمع أنْ أزيده من المال والولد والجاه والسلطان .

ولكن الله يقطع أمله في الزيادة ، فيقول سبحانه :

﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ ﴾

﴿ كَلَّا.. (١٦) ﴾ [المدثر] قاطعة حاسمة من الحق سبحانه فيها الهيبة ، قطع اللهُ بها أملَ هذا المكذِّب لآيات الله والمتبطر بنعمته ، فلن ينال ما يرجو ويأمل من زيادة المال والولد فوق ما أعطيته .

وقد أخذ أمره في النقصان من بعد قوله سبحانه هذا ، فأخذ ماله في النقصان لا الزيادة ، وذهب سلطانه وجاهه بموت أبنائه وقد أسلم من أولاده الوليد بن المغيرة اثنان : خالد بن الوليد ، وهشام بن الوليد .

فمازال الوليد بن المغيرة بعد نزول هذه الآية في نقصان من ماله وولده حتى هلك .

والحق سبحانه يعطينا سبب (كلا) القاطعة الحاسمة هذه بأن الوليد ابن المغيرة ﴿ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) ﴾ [المدثر] إنه لم يكن مُكذِّباً عادياً لرسول الله ولقرآنه ، ولم يكن مجرد كافر يرفض الإيمان إنما كان ﴿ عَنِيدًا (١٦) ﴾ [المدثر]

فكان عنيداً في رَفْض جميع دلائل التوحيد والقدرة والبعث والنبوة منكراً للكل ، وقد قال البعض أن كفره كفر عناد ، لا أنه كان لا يؤمن بالبعث حقيقة أو أنه كان لا يؤمن أن القرآن من عند الله فعلاً ، أو أنه تأليف محمد ﷺ فعلاً .

---

(١) أورده مقاتل بن سليمان في تفسيره (٤/٨٣٨) .

كلمة ﴿ عَنِيدًا (١٦) ﴾[المدثر] هنا تعطينا دلالة أن كفره كان لمجرد العنْد، وهذا مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) ﴾ [الأنعام]

إنهم يعرفون أنك يا محمد صادق لا تكذب أبداً ، لقد كانوا يقولون عنه أنه الصادق الأمين ، لقد عرفوا صدق النبى ﷺ وحقيقة رسالته ما فى ذلك ريب ، ولكن لأن لهم أهواء أصرُّوا على الضلال تمسكاً بالسلطة الزمنية ، لذلك نرى سيدنا رسول الله ﷺ يدع علياً ويتركه فى مكة ليؤدى الأمانات التى كانت عنده لهؤلاء جميعاً .

والجحد هو إباء اللسان وترفّعه وعدم رضاه بأنْ ينطق بكلمة الحق ، والله يعلم أزلاً أن بعضهم فى خبايا نفوسهم يوقنون بقيمة الإيمان لكنهم يجحدونها ، ومنهم من علم قيمة الإيمان جحدوها عناداً واستكباراً .

وقد قال الوليد بن المغيرة نفسه عن القرآن : « والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يُعلى عليه ، وما هو بقول بشر »[1].

إذن فهو كان عنيداً معانداً لآياتنا ، والآيات هى الدلائل الدالة على صدقك .

فالحق سبحانه لن يعطيه زيادةً على ما أعطاه ، بل سيؤول أمره إلى نقصان وانتزاع لما أعطاه سابقاً ، فمات أبناؤه ونقص ماله وضاع سلطانه وجاهه .

والأكثر من هذا أن الله توعده فقال ﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) ﴾[المدثر] أى

(١) أورده البيهقى فى الاعتقاد والهداية (١/٢٦٨) مرسلاً عن عكرمة . وأورده الثعلبى فى تفسيره [الكشف والبيان] (٦/٣٨) والبغوى فى تفسيره (١٢٦٤) والمراغى فى تفسيره (١٤/١٣٠).

سأكلفه مشقة من العذاب لا راحة له فيها . وقد وصف رسول الله هذا فقال: « الصَّعُود عقبة فى النار يتصعَّد فيها الكافر سبعين خريفاً ، ثم يهوي فيها سبعين خريفاً فهو كذلك أبداً » (١).

وقد قال أبو سعيد الخدرى : الصعود صخرة فى جهنم إذا وضعوا أيديهم عليها ذابت أيديهم ، وإذا رفعوها عادت ، وإذا وضع رِجْله ذابت ، فإذا رفعها عادت» .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧) ﴾ [الجن] فهم يُكلَّفون الصعود على جبل من نار فلا يقدرون على صعوده إلا بعد شدة عظيمة ، ثم إذا بلغوا أعلاها يهوون فيها فيكون ذلك دأبهم ، فهو عذاب لا راحةَ فيه ولا منه .

ثم يقول تعالى :

﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠
ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣ ﴾

﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) ﴾ [المدثر] أى فكَّر فى الأمر الذى يريده ونظر فيه وتدبَّره ورتَّب فى قلبه كلاماً وهيَّأه لذلك .

وذلك أن الله تعالى لما أنزل على نبيه ﷺ : ﴿ حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) ﴾ [غافر] إلى قوله ﴿ الْمَصِيرُ (٣) ﴾ [غافر] قام النبى ﷺ فى المسجد يصلي والوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته ، ففطن رسول

(١) أورده الخازن فى تفسيره (٤/ ٣٦٤) وعزاه للترمذى من حديث أبى سعيد الخدرى .

الله لاستماعه فأعاد قراءة الآية ، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه من بنى مخزوم فقال : والله لقد سمعتُ من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن .

والله إن له لحلاوةً ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو وما يُعلى عليه.

ثم انصرف إلى منزله فقالت قريش : صبأ والله الوليد ولتصبون قريش كلهم . فقام الوليد حتى أتى مجلس قومه فقال لهم : تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يخنق قط ؟ قالوا : اللهم لا .

قال : تزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه قط تكهن ؟ قالوا : اللهم لا . قال: تزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه ينطق بشعر قط ؟ قالوا : اللهم لا . قال : تزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب . قالوا : اللهم لا وكان رسول الله ﷺ يسمى الأمين قبل النبوة لصدقه[1] .

فقالت قريش : فما هو ؟ فتفكّر فى نفسه . فذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ﴾ [المدثر]

لقد ثبت كذبهم فى أن محمداً مجنون أو كاهن أو شاعر ، لذلك أخذ الوليد يفكر وقد فكّر كثيراً ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ﴾ [المدثر] فكر فيما أنزل الله على نبيه من القرآن ، وقدَّر فيما يقول فيه .

﴿ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ﴾[المدثر] أى لُعن لعنةً وطُرد من رحمة الله بسبب ما فكَّر فيه فيما يقول فى محمد وفيما قدَّر .

(١) أورده الخازن فى تفسيره (٣٦٤/٤) والثعلبى فى الكشف والبيان (٧٣/١٠) والبغوى فى تفسيره (٢٢٩٣) وابن عجيبة فى البحر المديد (١٧٦/٧) والمراغى فى تفسيره (١٣٠/٢٩) .

﴿ ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ﴾[المدثر] قطَّب وجهه وحاجبيه ، فهو أخذ يفكر ويفكر حتى ضاق صدره بالفكر ، فبدا أثر العبوس والبسور فى وجهه .

إنه فى آخر التفكير والتقدير والنظر والعبوس والبسور قال : ﴿ إِنْ هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) ﴾ [المدثر] .

هذا ما انتهى إليه تفكيره ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) ﴾[المدثر] والاستكبار إباء ورفض للإيمان ، وفيه تنصيب لنفسه كبيراً دون أن يملك مقومات الكبر .

فـ ﴿ اسْتَكْبَرَ (٢٣) ﴾[المدثر] حاول أنْ يجعل نفسه فوق قدره ، وكل إنسان منا له قدر محدود .

﴿ فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ (٢٥) ﴾

ما توصَّل إليه الوليد بن المغيرة بعد طول تفكير أنْ قال ما هذا القرآن ما هو إلا سحر ، فما يقوله محمد ويقرؤه ما هو إلا سحر ، وهو سحر ﴿ يُؤْثَرُ (٢٤) ﴾[المدثر] أى يؤثره عن غيره أى يرويه عن غيره .

وقد ذكر الحق سبحانه فاء التعقيب فى (فقال) ليعلم أنه لما ولَّى واستكبر ذكر هذه الشبهة أن القرآن سحر ، وأنه يُفرِّق بين الرجل وامرأته، والأب وابنه ، والأخ وأخيه .

وهو ﴿ سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) ﴾[المدثر] أخذه عمَّنْ تقدمه . ويحتمل وجهاً آخر أنه سحر يُؤثر فى الناس لحلاوته ، فكأن القرآن سحر يظهر الباطل فى صورة الحق .

فأطلقوا على رسول الله أنه ساحر ، وجعل لا يَلْقى أحد منهم النبى ﷺ

إلا قالوا : يا ساحر ، يا ساحر ، فاشتد ذلك على رسول الله .

فهؤلاء لم يجدوا حجة يواجهون بها القرآن فقالوا ساحر وهل للمسحور إرادة مع الساحر ؟ وإذا كان رسول الله ساحراً فلماذا لم يسحركم أنتم ؟إنَّ بقاءكم على العناد دليل على أنه لا يملك شيئاً من أمر السحرة ودليل على أن دعواكم كاذبة .

فلو كان ما جاء به محمد هو السحر وأن محمداً ساحر قد سحر العبيد والضعاف وأدخلهم فى الإسلام بسحره ، فلماذا لم يسحركم أنتم أيضاً ؟

ولم يكتفِ الوليد بن المغيرة بوصف القرآن بأنه سحر بل قال أيضاً أنه من قول البشر فقال : ﴿ إِنْ هَـٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) ﴾[المدثر] ويعنى هنا بالبشر يسار أبا فكيهة[1] وأنه الذى كان يأتى محمداً بالقرآن من مسيلمة الكذاب يلقنه إياه .

وهم ينسون أو يتناسون أنه لو كان من قول البشر لاستطاعوا هم أنْ يأتوا بمثله ، فلماذا لم يفعلوا ؟ لماذا عجزوا ؟ وقد تحداهم الله أنْ يأتوا بمثله ، تحداهم بأن يأتوا بعشر سور ، وحين فشلوا تحداهم بأن يأتوا بسورة فلم يأتوا بشىء فتدرج القرآن معهم فى التحدى .

فطلب أنْ يأتوا بسورة واحدة فلم يستطيعوا فقال تعالى: ﴿ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ (٣٨) ﴾[يونس] ومرة يقول ﴿ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ (٢٣) ﴾ [البقرة] . وفى مقام آخر طلب أنْ يأتوا بعشر سور مثله ، فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ (١٣) ﴾ [هود]

حتى أن الله حسم هذا الأمر ، فقال : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) ﴾

[الإسراء]

(١) يسار أبو فكيهة هو أحد الذين اتهموا رسول الله به أنه يعلمه القرآن ، وهو مولى لقريش مولى لعبد الدار ويقال مولى لصفوان بن أمية وأن أصله من الأزد .

فكيف تقولون أن القرآن من قول البشر ؟

ثم يقول الحق سبحانه بعدها :

﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ ﴾

﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) ﴾ [المدثر] سأورده باباً من أبواب جهنم اسمه سقر، فهذا وعيد من الله تعالى بأنْ يُصليه سقر، وهى الدركة الخامسة من دركات النار، فسقر إما باب من أبواب جهنم، وإما دركة من دركات جهنم.

فـ ﴿ سَأُصْلِيهِ (٢٦) ﴾ [المدثر] أى سأدخله سقر، ومنها قوله تعالى ﴿ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣) ﴾ [الصافات]، ويقول تعالى : ﴿ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) ﴾ [الليل]

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) ﴾ [المدثر] ما أعلمك يا محمد أى شىء هى سقر والمقصود ما أعظم هولها وعظمتها وشدتها.

وإنما سُميت سقر من سقرته الشمس إذا أذابته ولوَّحته وأحرقت جلدة وجهه.

﴿ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) ﴾ [المدثر] فلا تُبقى أحداً من المستحقين للعذاب إلا أخذته، ولا تذر مَنْ لحوم أولئك شيئاً إلا أكلته وأهلكته، وهى لا تُبقى مَنْ فيها حياً، ولا تذر من فيها ميتاً، كلما احترقوا جُدِّدوا وأُعيدوا.

﴿ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (٢٩) ﴾ [المدثر] البشر جمع بشرة، فهذه النار لوَّاحة لأبشار المعذبين مغيِّرة للجلد حتى تجعله أسود، فهى محرقة للجلد لافحة له بلفح النار فتدعه أشد سواداً من الليل.

﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) ﴾[المدثر] أى على النار تسعة عشر من الملائكة وهم خزنتها مالك ومعه ثمانية عشر ، وقد رُوى عن ترجمان القرن ابن عباس أن خزنة جهنم مع كل واحد من الأعوان ما لا يُحصى ، وذكر أن ستة منهم يقودون الكفرة إلى النار ، وستة يسوقونهم ، وستة يضربونهم بمقامع من الحديد والنار ، والآخر هو الخازن الأكبر وهو مالك يأمرهم بما أُمر هو به[1] .

وقد وصفهم الحق سبحانه فى آية أخرى ، فقال : ﴿ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) ﴾ [التحريم]

فهم غِلاظ على أهل النار شِداد أقوياء يدفع الواحد منهم بالدفعة الواحدة سبعين ألفاً فى النار لم يخلق الله الرحمة فيهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ (٣١) ﴾

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ (٣١) ﴾[المدثر] والصاحب هو الذى يألف صاحبه ويحب أنْ يجلس معه ويقضى أجمل أوقاته ، وليس المقصود بأصحاب النار الذين يُعذَّبون بها ، إنما المقصود بهم خزنة

(١) أورده الماتريدى فى تفسيره (١٠/٣١٣) وكذا النسفى فى (مدارك التنزيل ٣/٥٦٥) وابن عجيبة فى (البحر المديد فى تفسير القرآن ٧/١٧٩) .

النار التسعة عشر .

وقد نسب إليهم الحق سبحانه النار وكأنهم هم أصحابها لهم حقّ التصرف فيمَنْ يدخل النار ، فأمرهم كأنه قد انتهى ، حتى أن البعض من أهل النار يناشد مالك خازن النار فيقول : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (٤٩) ﴾ [غافر]

مَنْ فى النار يُعذَّب فيها يطلب من خزنة جهنم أنْ يدعوا الله ليخفف عنهم يوماً من العذاب ، ولكنهم يقال لهم : ﴿ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٥٠) ﴾ [غافر]

﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً (٣١) ﴾ [المدثر] فلم نجعل خزنة النار وحراسها رجالاً آدميين بل هم ملائكة ، فهم ليسوا من جنس المعذّبين أى أنهم لن يرأفوا بهم ولن يرحموهم.

﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا (٣١) ﴾ [المدثر]

فما جعلنا عددهم الذى قلناه وهو قليل فى نظركم إلا فتنة أى اختباراً وامتحاناً أو ضلالة لهم حتى قالوا ما قالوا ، فهم قد قالوا : كيف يقدر هذا العدد القليل على تعذيب جميع مَنْ فى النار ؟

حتى أن أبا جهل قال : ما لمحمد من الجنود إلا تسعة عشر ، أما يستطيع كل عشرة منكم أنْ يغلبوا منهم واحداً ، فقد نادى أبو جهل فى قريش هازئاً برسول الله : يا معشر قريش يزعم محمد أن جنود الله الذين يُعذّبونكم فى النار ويحبسونكم فيها تسعة عشر ، وأنتم أكثر الناس عدداً وكثرة أفيعجزكم مائة رجل منكم عن رجل منهم ؟[1] فأنزل الله تعالى فى ذلك من

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم فى تفسيره (١٥١٩٦) من قول محمد بن إسحاق أن أباجهل قال يوماً وهو يهزأ برسول الله . وأورده ابن هشام فى سيرة النبى (٣١٣/١) وكذا السهيلى فى الروض الأُنُف (١٠٦/٣) .

قوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا (٣١) ﴾ [المدثر]

فأمْرُ العدد كان فتنة لهم أوقعهم فى الضلال ، لأنهم لم يؤمنوا بالله وبقدرته وعظمته ، أما من آمن بالله حقاً فنظر فى آيات الله فلم يزده ذلك إلا إيماناً وتصديقاً .

﴿ لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ (٣١) ﴾ [المدثر] وذلك أن أهل الكتاب وجدوا فى كتابهم أن مالكاً رئيسهم وثمانية عشر من الرؤساء ، فبيَّن لهم أن ما يقوله النبى ﷺ يقوله الوحى .

﴿ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا (٣١) ﴾ [المدثر] تصديقاً لله ولما أنزله الله على محمد ، فيزدادون إيماناً إلى إيمانهم وتصديقاً إلى تصديقهم إذا وجدوا ما يخبرهم به من عدد خزنة جهنم موافقاً لما فى كتابهم .

﴿ وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ (٣١) ﴾ [المدثر]

والارتياب محله القلب ، ويقول تعالى فى آية أخرى ﴿ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) ﴾ [التوبة] فالإيمان عندهم يتردد بين العقل والقلب، والارتياب لا يعنى مجرد الشك إنما هو شكٌّ باتهام :

﴿ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا (٣١) ﴾ [المدثر]

فالذين فى قلوبهم مرض ضعيفو الإيمان ، مسلمون ساعة الرخاء فارُّون من الدين ساعة الشدة ، والذين فى قلوبهم مرض ليسوا منافقين ولكنهم ضعيفو الإسلام .

وقد فرَّق الحق سبحانه بين الذين فى قلوبهم مرض وبين المنافقين، فقال تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَـٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ (٤٩) ﴾ [الأنفال]

وفرَّق هنا بين الذين فى قلوبهم مرض وبين الكافرين وإنْ كانوا قد

اشتركوا معاً فى قولهم : ﴿ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا (٣١) ﴾ [المدثر]

وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٢٦) ﴾ [البقرة]

فالذين كفروا يكذبون المثل فيزدادون به ضلالاً ويهدى به المؤمنين يصدقونه ويعلمون أنه الحق .

﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ (٣١) ﴾ [المدثر]

فالله يخبرنا بمَنْ يستحق هدايته ومَنْ لا يدخل فيها وأنت باختيارك طريقك ، إما أنْ تؤمن فتدخل فى الهداية ، وإما أنْ تختار طريق الكفر والظلم فتمتنع عنك الهداية .

فإذا جاء أحد يجادلك ويقول لك : إن الله سبحانه قد قال : ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ (٣١) ﴾ [المدثر] لك أنْ تقول له : لقد بيَّن الله مَنْ شاء له الهداية ومَنْ شاء له الضلال .

وقلنا سابقاً أن الهداية نوعان دلالة على الطريق وهذه هداية للجميع فهى هداية عامة ، ثم هناك هداية خاصة للمؤمنين وهى التى بيّنها الله فى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

أى أعانهم على منهجه فيسَّر لهم الطاعة وصعَّب عليهم المعاصى ، فإذا امتثل المؤمنُ لمنهج الله وأطاعه فالحق عز وجل يشرح صدره بذلك ويحبِّب الطاعة إليه فيزداد طاعة ، وإذا شرع فى ارتكاب المعصية بغَّضها له وجعلها ثقيلة على نفسه حتى يتركها .

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ (٣١) ﴾ [المدثر] فلا تعوِّل فقط على قوتك

وتحسب مدى تكافؤك مع عدوك ، دعك من هذه الحسابات وما عليك إلا أن تستنفد وسائلك وأسبابك ثم تدع المجال لأسباب السماء .

وأقل جنود ربك أنْ يلقى الرعب فى قلوب أعدائك ، وهذه وحدها كافية، ويُروى أنهم فى إحدى المعارك الإسلامية تغيرت رائحة أفواه المسلمين وأحسُّوا فيها بالمرارة لطول فترة القتال فأخرجوا السواك ينظفون أسنانهم، ويطيِّبون أفواههم عندها . قال الكفار : إنهم يسنُّون أسنانهم ليأكلونا وقذف الله فى قلوبهم الرعب من حيث لا يدرون .

﴿ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ (٣١) ﴾[المدثر] ضمير (هى) المنفصل يعود على النار ، أى أن النار ما هى إلا تذكرة للبشر وموعظة للناس ، وهى سقر التى ذكرها الحق سبحانه فقال : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) ﴾ [المدثر]

تلك النار التى عليها تسعة عشر من الملائكة الغلاظ الشداد ، وقد جعل الله عددهم فتنة للذين كفروا واختلف فى موقفهم منهم الناس : الذين كفروا ، الذين أوتوا الكتاب ، الذين آمنوا ، الذين فى قلوبهم مرض . كل فرقة لها موقف مخالف للآخر من هذه النار وما عليها من ملائكة .

ولكن بعض المفسرين ذهبوا إلى أن الذكرى هنا هى القرآن ومواعظه ، فهو تذكرة للناس وموعظة ، ولكن تسلسل الكلام فى الآيات هنا هو عن النار .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ ﴾

(كلا) ليس الأمر كما قالوا أنهم يستطيعون هزيمة ملائكة النار ، من جهلهم أطمعهم أنَّ عِدَّتهم تسعة عشر نسوا أن هؤلاء خزنة جهنم

المتحكمين فيها فقط ، لا زبانية جهنم الذين يأتمرون بأمر التسعة عشر وعددهم بالآلاف .

كلهم يفعلون ما يُؤمرون ولا يعصون ولا يجاملون ، ولن يفلت أحدٌ من العقاب الذى قرِّر له من الواحد الديَّان .

ثم يقسم الله بالقمر وبالليل وبالصبح ، وكلها مخلوقات خلقها الله، والحق سبحانه وحده له أنْ يقسم بما يشاء على ما يشاء ، فيقسم مرة بالضحى والليل ، فيقول : ﴿وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى[1] (٢)﴾ [الضحى]

فأقسم بالريح والضحى والليل والملائكة ، بل إن الحق سبحانه يقسم بحياة رسول الله ، فيقول : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) ﴾[الحجر] وأقسم بالنجم إذا هوى .

وهو سبحانه الخالق العليم بكل ما خلق ، ولا يعرف عظمة المخلوق إلا خالقه ، وهو العالم بمهمة كل كائن خلقه ، لكنه أمرنا ألا نقسم إلا به لأننا نجهل حقائق الأشياء مكتملة .

والحق سبحانه يقسم هنا بالمشاهد لهم كالقمر والليل ، وبعد الليل يأتى النهار ولكنه يذكر أول وقت فى النهار وهو الصبح ، لأن فى الصبح شيئاً ليس فى باقى أوقات النهار .

قاله الحق سبحانه فى آية أخرى وهو يقسم بالصبح فقال : ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) ﴾[التكوير] وهنا يقول ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤) ﴾ [المدثر]

وإسفار الصبح يكون بعد إدبار الليل وذهابه ، فإسفار الصبح أى أضاء وتبيَّن ، أى أسفر ضوؤه عن ظلمة الليل ، فأضاء وأقبل وأنار . ومنه : أسفرتْ المرأة عن وجهها إذا كشفته .

---

(١) سجى : أى أظلم وركد فى طوله . [كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدى] وسجى أيضاً : غطى النهار بظلمته [مشارق الأنوار مادة س ج ى] وسجَّى الميت تسجية أى مدَّ عليه ثوباً .

والصبح إذا أسفر تجد لإقباله رَوْحاً ونسيماً ، فجعل الله له نفساً على المجاز كأنه إنسان يتنفس فقال : ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) ﴾ [التكوير]

ورسول الله ﷺ يقول : « أسفروا بالفجر فإنه أعظم للأجر »[1] .

أى صلوا صلاة الصبح مُسفرين حتى تنير السماء والإسفار الإنارة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (٣٥) نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ (٣٦) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧) ﴾

الكُبَر جمع كبرى ، وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا (٤) ﴾ [طه] العُلا جمع عُليا .

فـ (سقر) إحدى الأمور العظام ، ثم إن عذاب أهل النار ألوان وفى جهنم دركات سقر هى إحدى دركاتها ودركاتها سبعة : جهنم ولظى والحطمة والسعير وسقر والجحيم والهاوية .

وقوله تعالى ﴿ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (٣٥) ﴾ [المدثر] جواب القسم ﴿ كَلَّا وَالْقَمَرِ (٣٢) ﴾ [المدثر]

﴿ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ (٣٦) ﴾ [المدثر] فالنار نذير للبشر ، حتى أن الحسن البصرى قال : والله ما أنذر بشىء أدهى من النار[2] . والنار هنا تشمل دركاتها وعذابها وخزنة جهنم وزبانيتها ، فهؤلاء جميعاً إنذار للبشر .

وتأول البعض هذه الآية أنها عائدة على رسول الله ﷺ ، فقد قال الحق سبحانه فى أول السورة ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) ﴾ [المدثر] فأنت يا محمد نذير للبشر

---

(١) أخرجه الشافعى فى مسنده (١٥١) وابن أبى شيبة فى مسنده (٦٤) وأحمد فى مسنده (١٧٢٧٩) حديث رافع بن خديج وفى بعض رواياته عن أحمد مرسلاً عن محمود بن لبيد .

(٢) أورده الخازن فى تفسيره (لباب التأويل ٤/٣٦٦) .

تنذرهم عقاب الله وعذابه ناراً موقدة ، فمحمد ﷺ نذير للخلق جميعاً .

﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧) ﴾[المدثر] أي يسبق غيره في عمل الخير أو يتأخر عنه ، فلكم الخيار في أن تتقدموا فيما أُمرتم به أو تتأخروا.

والتقدم والتأخر قد يكون في الطاعة والمعصية ، أو في الخير والشر ، أو في التقدم إلى النار أو التأخر عن الجنة .

وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (٢٩) ﴾[الكهف] فلك أنْ تؤمن ولك أن تكفر ، وفائدة إيمانك تعود عليك أنت ولا تعود على الله ، فالله لا يفيده إيمانك ولا يضره سبحانه كفرك .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) ﴾

فكلُّ نفس من نفوس الكفار مرتهنة في النار بكسبها ومأخوذة بعملها، فكل كافر مرتهن بذنوبه في النار. والرهن في اللغة الثبوت والدوام وهو أيضاً من الحبس ، فهم محبوسون نتيجة معاصيهم وذنوبهم ، فهي معتقلة بعملها يوم القيامة .

فكلّ امرىء مرتهن بعمله لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس سواء كان أباً أو ابناً ، فلا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى .

فهم دائمون في الارتهان في سقر لا تنفعهم شفاعة شافع . فكلُّ فرد يحمل همّ نفسه وتبعتها ويضع نفسه حيث شاء أنْ يضعها ، يتقدم بها أو يتأخر ويكرمها أو يهينها ، فهي رهينة بما تكسب مقيدة بما تفعل .

﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) ﴾ [المدثر] فاستثنى اللهُ أصحابَ اليمين من

المرتهنين المحبوسين فى النار نتيجة ما عملوه من ذنوب ومعاصٍ، فأصحاب اليمين غير مرتهنين بذنوبهم فى النار ولكن الله يغفرها لهم ، فهم قد فكُّوا رقاب أنفسهم بأعمالهم الصالحة كما يفك الراهنُ رهنه بأداء الحق الذى عليه .

فأصحاب اليمين الذين أُعطوا كتبهم بأيمانهم ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (١٩) ﴾ [الحاقة] فاستثنى الحق سبحانه أصحاب اليمين من جملة المرتهنين.

ولكن استثناءهم من الارتهان بذنوبهم جعل على بن أبي طالب يقول أن أصحاب اليمين هم أطفال المسلمين ، فهؤلاء لم يكتسبوا إثماً يرتهنون به .

﴿ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) ﴾ [المدثر] فهم فى جنات يتساءلون فيما بينهم عن المجرمين الذين رأوهم فى الدنيا وقاسوا من إجرامهم وظلمهم أو صاحب لهم كان عاصياً وأرادوا معرفة مصيرهم .

وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) ﴾
[الصافات]

فيطلعوا فيجدوه ﴿ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) ﴾ [الصافات] أى فى وسطها فكانوا يقبلون على بعضهم بعضاً يتساءلون عن حاله فى الدنيا .

﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ ﴾

﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) ﴾[المدثر] أى : ما أدخلكم وحبسكم فى سقر ، سألوهم توبيخاً وتقريعاً لهم ، ما جعلكم فيها وكان سبباً فى دخولكم النار . و ﴿ سَقَر (٤٢) ﴾[المدثر] دركة من دركات النار .

﴿ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) ﴾[المدثر] إنهم كفار وقد يسأل سائل : إذا كانوا كفاراً فكيف يصلون ؟ إنه اعتراف منهم بأنهم كفار ولم يكونوا مسلوكين فى سلك مَنْ يصلى واعتراف بأنهم لم يكونوا مسلمين أو مؤمنين بالله .

وإسلاكهم فى سقر إدخالهم كما نُدخل الخيط فى ثقب الإبرة . يقولون : لم نَكُ فى الدنيا من المصلين لله .

﴿ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) ﴾[المدثر] فلم نكُن نتصدق عليه . وهل مجرد عدم التصدُّق موجب لدخول سقر ؟ لا طبعاً فهم لم يُقروا بالصلاة ولم يُؤدوها ، ولم يُقروا بالزكاة ولا بحق المسكين فى مالهم فلم يُؤدوها .

﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) ﴾[المدثر] فكنا نخوض فى الباطل مع مَنْ خاضوا فى الاستهزاء بالرسول والمسلمين وبكتاب الله القرآن .

وقد قال تعالى فى قوله : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠) ﴾ [النساء]

وكلمة ﴿ نَخُوضُ (٤٥) ﴾[المدثر] تعطى معنى واضحاً مجسماً لأن الأصل فى الخوض أنْ تدخل فى مائع أى سائل مثل الخوض فى المياه أو الطين ، وساعة تخوض فى مائع ، فالمائع لا ينفصل حتى يصير جزءاً هنا وجزءاً هناك ويفسح لك طريقاً ، بل مجرد أنْ يمشى الإنسان ويترك المائع يختلط المائع مرة أخرى ، ولذلك يستحيل أنْ تصنع فى المائع طريقاً لك .

والخوض هو الدخول فى باطل أو الدخول إلى ما لا ينتهى الكلام فيه

إلى غاية ، وما دمت قد دخلت فى مائع فلن تجد فيه طريقاً محدداً بل يختلط المدخول عليه فلا تتميز الأشياء وأخذ منه الخوض بالباطل ، أو الخوض باللعب الذى ليس فيه غاية .

فكان هؤلاء يخوضون مع مَنْ خاضوا فى الاستهزاء بالرسل وبكتب الله والمؤمنين به ، لذلك استحقوا سقر .

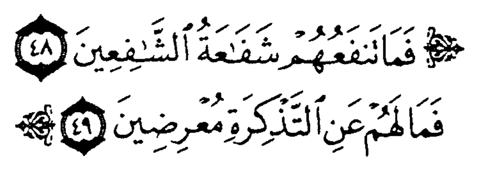
﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) ﴾ [المدثر] فكنا نكذب بيوم الجزاء على الأعمال وهو يوم القيامة ، فكنا نكذب بيوم المجازاة والثواب والعذاب ، ولا نصدق بثواب ولا عقاب ولا حساب .

﴿ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧) ﴾ [المدثر] لم نحاول أنْ نتوب أو نعرف الحق فنتبعه بل كذّبنا ما جاءنا به الرسل من عند الله واستمررنا على هذا حتى آتانا اليقين .

واليقين هو الموت ، واليقين هو أمر الثابت المعقود فى الواقع والأعماق بحيث لا يطفو إلى الذهن ليناقش من جديد أو يتغير .

ولا شيء ثابت فى الواقع والأعماق مثل الموت الذى يراه ويُقر به الجميع، فالناس قد تختلف فى وجود الله ، ولكنها لا تختلف حول حتمية موت الإنسان .

فهؤلاء بقوا على كفرهم ولم يُصلّوا ولم يُزكّوا وبقوا يكذّبون بيوم الدين حتى فاجأهم الموت دون رجوعهم ولا توبتهم .



فلن تنفعهم شفاعة الشافعين ، والشافعون جمع شافع أو شفيع . والحق

سبحانه يقول : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤٨) ﴾ [البقرة]

وقال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ (١٢٣) ﴾ [البقرة]

والشفاعة تقتضى شافعاً ومشفوعاً عنده ومشفوعاً له ومشفوعاً فيه ، هذه هى الأربعة العناصر فى الشفاعة ، والمشفوع عنده وهو الله سبحانه، والمشفوع فيه هو الذنوب وهى معروفة .

والله سبحانه لا يقبل الشفاعة من أى أحد إنما يقبلها ممن يرتضى قوله، قال تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُ قَوْلًا (١٠٩) ﴾ [طه]

﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) ﴾ [المدثر] وهذا مثل قوله ﴿ فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٢٠) ﴾ [الانشقاق] فالقياس كان يقتضى أن يؤمنوا وكذا هنا كان القياس ألاَّ يُعرضوا عن التذكرة ، فأسلوب (فما له) و (فما لك) و (فما لهم) و (فما لكم) على أن العمل يجب أن يُستقبل أولاً بترجيح ما يصنع أو بترجيح ما لا يصنع .

أما أن يفعل الأفعال جزافاً بدون تفكير فى حيثيات فعلها أو فى حيثيات عدم فعلها ، فهذا ليس عمل العاقلين .

﴿ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) ﴾ [الحجر] أى تكبَّروا وأعرضوا عن المنهج الذى جاءهم به رسلهم والإعراض هو أنْ تعطى الشيء عرضك بأنْ تبتعد عنه ولا تقبل عليه ، ولو أنك أقبلتَ عليه لوجدتَ فيه الخير لك .

﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ ﴾

كلمة (حمار) تُجمع فنقول (حُمُر) وهى حُمُر مستنفرة أى نافرة فرَّتْ من رجال أقوياء ، وكل ضخم شديد عند العرب قسورة ، والقسورة أيضاً الأسد تهرب منه الحُمر المستنفرة النافرة الهاربة من الأسد .

فالحُمر إما أنها هاربة من الرماة والصيادين ، وإما أنها هاربة من الأسد ، فانظر كيف جَرْيُها وكيف فرارها ، فتعجب من فرارهم من دعوة الله ودينه ورسله وكأنهم حمير فى البرية تهرب ممَّنْ يريد اصطيادها .

﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ ﴾

فالمشركون هؤلاء المكذِّبون طلبوا أنْ يصبحوا عند رأس كل رجل منهم كتاب منشور من الله أن محمداً رسول الله ويأمر فيه باتباعه .

وكانوا يقولون : كان الرجل من بنى إسرائيل ذنبه وكفارة ذنبه يصبح مكتوباً عند رأسه فهلا تُرينا مثل هؤلاء الآيات إنْ كنتَ رسولاً كما تزعم فقال جبريل : إنْ شئت فعلنا بهم كفعلنا ببنى إسرائيل وأخذناهم بما أخذنا به بنى إسرائيل ، فكره النبى ﷺ ذلك[1] .

والغريب أنهم يكذبون ولا يؤمنون ، ورغم هذا يريدون أن يُنزل الله على كل واحد منهم كتاباً خاصاً به يأمره فيه الله بأنْ يؤمن بمحمد ، كيف تكذب ولا تؤمن وتطلب مثل هذا ؟

﴿ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (٥٣) ﴾ [المدثر] فالمسألة بالنسبة لهم ليست أنهم يريدون كتباً وصحفاً تنزل عليهم فعلاً ، فلو نزلت عليهم فعلاً ما آمنوا ، وذلك مثل قوله تعالى :

---

(١) أورده مقاتل بن سليمان فى تفسيره (٤/ ٥٠٠) والخازن فى تفسيره (٤/ ٣٦٨) والبغوى فى تفسيره (٥/ ١٨٠).

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ[1] فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) ﴾ [الأنعام]

هم لن يؤمنوا على أى حال كان الأمر ، إنما هى مبررات يعطونها لأنفسهم حتى لا يؤمنوا وإن تحقق ما يريدونه لن يؤمنوا أيضاً ، لأنهم يريدون أن يهربوا من البعث والحساب واليوم الآخر ، ولا يريدون أن يلزمهم أحد بمنهج وأوامر ونواهى .

﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ (٥٤) فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ (٥٥) وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ (٥٦) ﴾

تجد فى نصوص القرآن عجيباً فتجد نصاً مساوياً لنص ، ثم يختلف السياق فيختلف النص ، فيقول الحق سبحانه هنا : ﴿ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (٥٥) ﴾ [المدثر]

ومرة أخرى يقول ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) ﴾ [عبس] ، ومرة أخرى يقول ﴿ إِنَّ هَـٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (٢٩) ﴾ [الإنسان]

فهذا لون ونوع من المتشابه من الآيات ليقول لنا الحق : ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ﴾ [القيامة]

فالمسألة إذن ليست (أكلاشيه) ثابتاً ، وليست عملية (ميكانيكية) صماء ، إنه كلام رب حكيم .

﴿ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤) ﴾ [المدثر] إنه عظة عظيمة ، فليس الأمر كما يقول هؤلاء

---

(١) قرطاس : الصحيفة يُكتب فيه من ورق أو غيره . وجمعه قراطيس قال تعالى : ﴿ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا (٩١) ﴾ [الأنعام]

المشركون فى هذا القرآن من أنه سحر يؤثر وأنه قول البشر ، ولكنه تذكرة من الله لخَلْقه .

﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (٥٥) ﴾[المدثر] فمَنْ شاء اتعظ به فإنما يعود نَفْع ذلك عليه ، فاستعمل ما فيه من أمر الله ونهيه ، فليس أحد بممنوع ولا مجبور على الفعل ، فمَنْ ترك التذكُّر فهو الذى ضيَّع ذلك حيث آثر واختار ضده واشتغل بغيره وأعرض عن ذكره .

﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (٥٦) ﴾[المدثر] فإذا شاء الله لهم الهدى تذكَّروا واتعظوا ، فلا أحدَ يقدر على شيء إلا بأنْ يشاء الله يقدره عليه ويعطيه القدرة عليه .

﴿ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (٥٦) ﴾[المدثر] ينهى الحق سبحانه سورة المدثر بالثناء على الله عز وجل ، فهو سبحانه حقيق وجدير بأنْ يتقيه عباده ويخافوا عقابه فيؤمنوا به ويطيعوه ، وهو حقيق بأنْ يغفر لهم ما سلف من كفرهم وذنوبهم .

وعن أنس رضى الله عنه أن رسول الله قال فى هذه الآية : قال الله تبارك وتعالى : أنا أهلٌ أنْ أُتَّقَى ، فمَن اتقانى فلم يجعل معى إلهاً فأنا أهل أنْ أغفر له[1] .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١٢٤٤٢ ، ١٣٣٤٩) وابن ماجه فى سننه (٤٢٩٩) وابن أبي عاصم فى السنة (٩٦٩) والطبرانى فى المعجم الأوسط (٨٥١٥) والحاكم فى مستدركه (٣٨٦٧) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبى .

سُورَةُ القِيَامَةِ

سورة القيامة[1]



﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢ ﴾

لقد جاء هنا الحق سبحانه بقوله ﴿ لَا أُقْسِمُ (١) ﴾ [القيامة] وكأنه يوضح ألاَّ حقَّ لكم فى الإنكار ، ولذلك ما كان يصح أنْ أقسم لكم ، ولو كنت مقسماً لأقسمت بكذا وكذا وكذا .

فمعنى ﴿ لَا أُقْسِمُ (١) ﴾ [القيامة] أن هذا الأمر واضح جلىّ وضوحاً لا يحتاج إلى القَسَم ، ولو كنتُ مقسماً لأقسمتُ به .

والحق سبحانه هنا يقسم ﴿ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) ﴾ [القيامة] ، وهو لا يقسم إلا بشىء عظيم له قدر عند مَنْ أقسم ، فما بالك أن الله هو الذى يقسم ؟

ثم يقسم سبحانه قسَماً آخر ﴿ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) ﴾ [القيامة] ،

---

(١) سورة القيامة هى السورة رقم (٧٥) فى ترتيب المصحف ، نزلت بعد سورة القارعة وقبل سورة الهُمزة وترتيبها فى النزول السورة رقم (٣٠) وهى سورة مكية عدد آياتها (٤٠) آية .

وهى النفس التى تصنع شراً مرة ، فيأتى من داخل النفس ما يستنكر هذا الشر فتعود إلى الخير .

فهى نفس تهمس للإنسان عند الفعل الخاطىء : الله لم يأمر بذلك . فيعود الإنسان إلى منهج الله تائباً ومستغفراً ، فهو يفعل السيئة لكن نفسه تعود إلى اليقظة إلى منهج الله لأنه يتمتع بوجود خلية المناعة الإيمانية فيه .

وقد جعل الله فى النفس الإنسانية نفساً لوَّامة ونفساً تأمر بالسوء ونفساً مطمئنة ، ومهمة النفس اللوامة هى أنْ تردَّ على كلِّ ما توسوس به النفس الأمَّارة بالسوء ، لكن إنْ لم تلُمْ النفس اللوامة فالنفس الأمَّارة بالسوء تتمادى ولا يردعها رادع .

﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤) ﴾

﴿ أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ (٣) ﴾[القيامة] أيظن هذا الكافر أن العظام بعد تفرقها ورجوعها رميماً ورفاتاً مختلطة بالتراب وبعدما نسفتها الريح فطيَّرتها فى أباعد الأرض ، أيحسب أنْ لن نجمع عظامه؟

والفعل (حسب) هنا جاء بالمضارع لأنه يتحدث عن شىء يحدث فى المستقبل ، وهو عند النفخ فى الصور النفخة الثانية ، فقال : ﴿ أَيَحْسَبُ (٣) ﴾ [القيامة]

وقد ورد (حسب) بالماضى فى قوله تعالى : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) ﴾[العنكبوت] أى أظنَّ الناسُ وتوهَّموا أنْ يقولوا آمنا دون أنْ يُفتنوا ، فهم وقعت بهم الفتنة فعلاً والاختبار والابتلاء .

وقد قال الأخنس بن شريق الثقفي[1] لرسول الله : يا محمد حدِّثنى متى تكون القيامة وكيف أمرها وحالها ؟ فأخبره النبى ﷺ فقال عدى بن ربيعة حليف بنى زُهْرة وهو ختن الأخنس : لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك ولم أؤمن بك ، أو يجمع الله العظام ؟[2]

فأنزل الله ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤) ﴾ [القيامة]

فنحن قادرون على جَمْع العظام وتأليفها وإعادتها إلى التركيب الأول والحالة والهيئة الأولى وعلى ما هو أعظم من ذلك ، وهو ﴿ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤) ﴾ [القيامة]

بنانه أى أصابعه ، وقد قال المفسرون أنه تسوية الأصابع براحة اليد حتى نجعله مثل خُفِّ البعير فلا ينتفع بها كما لا ينتفع البعير بها ما كان حياً .

حتى أن قتادة قال : « لو شاء اللهُ لجعلَ بنانه مثل خُفِّ البقر أو مثل حافر الدابة »[3] . فلا يستطيع أنْ يأخذ ما يأكل إلا بفيه كسائر البهائم كعقوبة له على إنكاره للبعث .

---

(١) الأخنس بن شريق : اسمه أُبيّ بن شريق ، سُمِّي بالأخنس لما أشار على بنى زُهرة بن كلاب بالرجوع إلى مكة حين توجهوا بالنفير إلى بدر ليمنعوا العير فقبلوا منه فرجعوا فقيل خنس بهم . أسلم يوم فتح مكة وشهد مع رسول الله حنيناً وأعطاه رسول الله مع المؤلَّفة توفى فى أول خلافة عمر بن الخطاب .

(٢) أورده الخازن فى تفسيره (٤/ ٣٧٠) وكذا مقاتل بن سليمان (٤/ ٥٠٩) .

(٣) أخرجه عبد الرزاق فى مصنفه (٣٤٠٣) عن قتادة بن النعمان السدوسى .

فإن الحق سبحانه خلق أصابع يدى الإنسان ورجليْه مُفرَّقة يتناول طعامه بيديه ويقبضهما إذا شاء ويبسطهما .

﴿ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَـٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۝٦ ﴾

هذا الإنسان الجاحد غير المؤمن بالبعث يريد أنْ لا يأمره أحد ، يريد أن يعصى ويرتكب المعاصى والفواحش ، فلو آمن بالبعث لأصبح لزاماً عليه أنْ لا يعصى الله ، وكأنه بهذا لن يكون بعث .

فهو يقدِّم المعصية ويؤخِّر التوبة يوماً بيوم يقول سأتوب ولكنه لا يتوب ، نفسه لا تطاوعه أنْ يتوب حتى يموت على شرِّ عمله .

فهو يمضى قُدماً راكباً رأسه فى معاصيه لا يردعه شيء ولا يرعوى ولا ينزع عن فجور ، بل دائماً طالباً الدنيا ولا يذكر الموت .

وكلمة (بل) هنا للإضراب عما سبق ، كأنَّ الحق سبحانه يقول لنا : دعك من كلامه أنه غير مؤمن بالبعث والإعادة فهو ينكر هذا لأنه يريد أنْ يعيش فى الدنيا دون منهج (افعل) و (لا تفعل) .

﴿ بَلْ يُرِيدُ الإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (٥) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَة (٦) ﴾ [القيامة]

ويقول تعالى فى آية أخرى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (١٨٧) ﴾ [الأعراف]

ومعنى ﴿ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَة (٦) ﴾[القيامة] أى متى يكون يوم القيامة ، وهو يسأل السؤال مُكذِّباً بيوم القيامة .

﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩
يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ ﴾

الآن هو يسأل متى يوم القيامة ، وغداً عندما تدهمه القيامة سيعرف أنه أضاع حياته التى أعطاه الله إياها فى تكذيب وإباء ، ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ(٧)﴾[القيامة] فإذا شَخَص بصره وبرق لما يرى من أهوال القيامة سيعرف أنه كان مخطئاً .

فـ ﴿بَرِقَ الْبَصَرُ (٧)﴾[القيامة] أى فتح عينيه وشخص وكان له بريقُ الفزع والرعب والدهشة والرهبة مما يرى، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢)﴾

[إبراهيم]

وقوله : ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا (٩٧)﴾

[الأنبياء]

فأبصارهم تشخص بصورة لا يتقلب بها يمنة أو يَسْرة من هول ما يرى، فحين ترى إنساناً مذعوراً من فرط الخوف فسحنته تتشكل بشكل هذا الخوف ، فيستولى الرعب على أصحابها فلا يتحولون عن المشهد المرعب .

وفى ظل هذا المشهد المرعب يخسف وينطفىء ضوء القمر ﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ(٨)﴾[القيامة] أى غاب ضوؤه أى أظلم وذهب وخُسف على البناء للمفعول .

﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩)﴾ [القيامة] أى : جُمعا فى ذهاب ضوئيهما ويُطلعهما الله من المغرب ثم يكوِّرهما الله ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١)﴾

[التكوير]

فالشمس تقترن بالقمر بعد افتراق ويختل نظامهما الفلكى المعهود حيث ينفرط عقد ذلك النظام الكونى الدقيق .

وفى وسط كل هذا قمر بلا ضوء مخسوف وشمس منطفئة ظلام كونى وهول وفزع ليس له حدود ، تجد هذا الإنسان المغرور المتكبر على خالقه

يقول : ﴿ أَيْنَ الْمَفَرُّ (١٠) ﴾ [القيامة]

تشعر من سؤاله بالرعب والفزع الذى يملأ جوانحه ، فلا عودة للدنيا وليس له مهرب ولا مفر ، ولا صاحب له ولا نصير .

إنه يشعر أنه قد أحيط به لذلك يقول ﴿ أَيْنَ الْمَفَرُّ (١٠) ﴾ [القيامة]

وهم إذا كانوا فى السورة السابقة قد ذكرهم الله وهم يفرون من الموعظة والتذكرة ، فقال : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (٥١) ﴾ [المدثر]

فإنهم هنا عند مواقعة الحدث وتيقنهم أنه الحق الذى لم يريدوا أن يعترفوا به يقولون ﴿ أَيْنَ الْمَفَرُّ (١٠) ﴾ [القيامة]

والحق سبحانه يقطع عليهم الأمل فى القدرة على الفرار ، فإلى أين فراركم ؟ ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) ﴾ [التكوير]

ثم يقول تعالى :

﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢) ﴾

الحق سبحانه لمَّا أراد أن يخوِّف الناس من الآخرة قال : ﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢) ﴾ [القيامة] فلا ملجأ ولا معين تفزع إليه إلا الله .

فكأنه يقول (لا وزر) أى : لا معين ولا نصير ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢) ﴾ [القيامة] فالآخرة هى المستقر لأنها الدار الباقية .

والمستقر المكان الذى تستقر أنت فيه ومستقرك ومرجعك ومصيرك إنما هو إلى الله ، فمستقر الخَلْق إنما هو إلى الله ، وقال عبد الله بن مسعود: إليه المصير والمرجع .

فإلى ربك أيها الإنسان يومئذ الاستقرار ، ومستقرهم الجنة أو النار .

ثم يقول تعالى :

﴿ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ ﴾

﴿ يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ (١٠) ﴾[القيامة] أى يُخبر الإنسان يومئذ يعنى يوم يُجمع الشمس والقمر فيكوَّران ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) ﴾

[الإسراء]

﴿ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣) ﴾[القيامة] أى بما قدَّم قبل موته من عمل صالح أو سيء ، وما أخَّر بعد موته من سُنة حسنة أو سيئة يعمل بها ، فالله يُنبئه بما قدَّم من أنواع الطاعة وما أخَّره منه فلم يفعله .

﴿ بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) ﴾[القيامة] فالإنسان على نفسه من نفسه رقباء يرقبونه ويشهدون عليه بعمله ، وهى سمعه وبصره وجوارحه.

وقد يسأل سائل : لماذا لم يقُل الله : بل الإنسان على نفسه بصير ؟ لماذا كانت (بصيرة) ؟ وتقدير الكلام : بل الإنسان على نفسه عين بصيرة ، فلا شاهدَ أفضلُ من نفسك ، وذلك قوله تعالى ﴿ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) ﴾ [الإسراء] يعنى شاهداً .

والحق سبحانه جعل الإنسان هو البصيرة على نفسه كما تقول للرجل: أنت حجة على نفسك .

﴿ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (١٥) ﴾[القيامة] ولو اعتذر بكل عذر وجادل عن نفسه

فإنه لا ينفعه ، لأنه قد شهد عليه شاهدٌ من نفسه .

و ﴿ مَعَاذِيرَهُ (١٥) ﴾[القيامة] جمع معذرة . وقد أوضح الحق سبحانه فى قرآنه بعض معاذيرهم مثل قوله تعالى : ﴿ وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) ﴾ [الأنعام] وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ (١٨) ﴾ [المجادلة]

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ١٧
فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ١٩ ﴾

الحق سبحانه يُطمئن رسوله على حفظ القرآن لأنه ﷺ كان ينزل عليه الوحى ، فيحاول إعادته كلمة كلمة ، فإذا قال الوحى مثلاً ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ (١) ﴾ [الجن] فيأخذ الرسول من تكرارها فى سرِّه ويرددها خلف جبريل عليه السلام مخافة أنْ ينساها لشدة حرصه على القرآن .

فنهاه الله عن هذه العجلة فقال : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ (١١٤) ﴾ [طه] أى : لا تتعجل ولا تنشغل بالتكرار والترديد ، فلا تَخْشَ أنْ يفوتك شيءٌ منه فقد تكفلت بحفظه .

وفى آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (٦) ﴾ [الأعلي] وهنا يقول سبحانه : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) ﴾ [القيامة] أى لما تكتمل الآيات فلكَ أنْ تقرأها كما تحب .

وقد كان ينزل عليه ﷺ عدة أرباع من القرآن أو السورة كاملة ، حيث يُسرى عنه الوحى يعيدها كما أنزلت عليه ، ولو أن السورة نزلت كاملة مرة واحدة لكان الأمرُ إلى حَدٍّ ما سهلاً إنما تنزل الآيات متفرقة .

ومن عجيب أمر القرآن أنك لا تجد شخصاً يلقى كلمة لمدة خمس دقائق مثلاً ثم يعيدها عليك كما قالها نصاً ، أما النبى ﷺ فكانت تُلقى عليه السورة فيعيدها كما هى .

أرِحْ نفسك يا محمد ولا تخْش النسيان ، وانتظر حتى تنتهى الآيات وسوف تعيدها كما هى لا تنسى منها حرفاً واحداً .

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧)﴾ [القيامة] إن علينا جمعه فى صدرك ونُقدرك على قراءته فلا تنسَ منه شيئاً ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨)﴾ [القيامة] فاستمع وأنصت .

فإذا جمعناه فى صدرك ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨)﴾ [القيامة] أى : ما جمع فيه فاعمل به من أمر أو نهى ، واستمع له ثم اقرأه كما أقرأك .

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩)﴾ [القيامة] وبيان الشيء توضيحه وشرحه وتأويله، بعد أنْ تحفظه وتقرأه كما أقرأناه لك فسنوضحه لك وسنبيِّن لك معناه وتفسيره .

وسنبين لك حلاله وحرامه ، وقد خاطب الحق سبحانه النبى ﷺ فى آية أخرى ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ (٤٤)﴾ [النحل] فالبيان من الله تعالى والتبيين من النبى ﷺ.

ثم إنَّ علينا بيانَ ما فيه من حلاله وحرامه وأحكامه نبيِّنها لك مُفصَّلة، وكلمة (علينا) تعطى معنى أن الله ألزم نفسه أنْ يجمع له آيات القرآن فى صدره ، وأنَّ عليه أنْ يُبيِّنه ويبيِّن له أحكامه .

فسنبيِّن إليك ما أجملناه فنفصِّله لك بفرائضه وآدابه وأركانه .

ثم يقول تعالى :

﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١) ﴾

﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) ﴾[القيامة] والعاجلة هى الدار الدنيا ، والحق سبحانه يقول : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (١٨) ﴾ [الإسراء]

ويقول تعالى فى آية أخرى : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِى الشَّاكِرِينَ (١٤٥) ﴾ [آل عمران]

فالذى يريد جزاء الدنيا وهو الذى يطلب جزاء حركته فيها يأخذها ولو كان كافراً .والكافرون قد يأخذون العاجلة المنتهية ولكن المؤمنين يأخذون الآجلة التى لا تنتهى ، والعاجلة هى عطاء الدنيا ومُتعها ورُقيها وتقدمها . فمَنْ كان يريد العاجلة ﴿ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ (١٨) ﴾ [الإسراء] أى : أجبْناه لما يريد من متاع الدنيا .

وهم يحبون العاجلة ، يحبون الدنيا ، والحق سبحانه يقول لهؤلاء ﴿ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ (٣٨) ﴾ [التوبة] والرضا هو حبُّ القلب . وفى آية أخرى يقول : ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ (٣) ﴾ [إبراهيم] و (استحب) لأنه أزاد الحبَّ عن حَدِّه الطبيعى ، فإذا أحببتَ الدنيا لأنها تُعينك على تكاليف دينك وجعلتها مزرعة للآخرة فهذا أمرٌ مطلوب لأنك تفعل فيها ما يجعلك تسعد فى آخرتك ، فهذا طلبٌ للدنيا من أجل الآخرة.

وهنا لا نجد هؤلاء الذين يستحبون الحياة من أجل أنْ يجعلوها مزرعة للآخرة ، بل هم يستحبون الحياة .

﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١) ﴾ [القيامة] فأنتم تتكالبون على تحصيل الدنيا من كلِّ طريق حتى ولو كان من الحرام ، وتصدون عن سبيل الله ، وتتفلتون من منهج الله ظناً منكم أن لا حسابَ فى الآخرة .

لذلك ﴿ تَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١) ﴾ [القيامة] فلا تؤمنون بها على الحقيقة بل تتركون العمل لها وتختارون عليها الدنيا ، وأكثر الناس تختار الدنيا على الآخرة .

والآية خطابٌ للكافرين لأنهم كانوا يعملون للدنيا ولا يعملون للآخرة، وهم إنما يحملهم على التكذيب بيوم القيامة ومخالفته ما أنزله الله عز وجل على رسوله ﷺ، إنما هو حبهم الشديد للدنيا العاجلة ، وهم لاهون متشاغلون عن الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

والنضارة الحُسْن والبياض والبهاء ، فيعلو وجوههم النور ، فوجوههم حسنة مسرورة من النعيم ، فالناضرة الناعمة من النعيم والغبطة ، فالحق سبحانه يصف وجوههم بما هم عليه من غاية السرور بالكرامات التى أُكرموا بها حتى نضرتْ وجوههم بذلك .

فوجوههم مشرقة مضيئة ، وقد قال الحق سبحانه فى آية أخرى ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) ﴾ [المطففين]

وقد قال السُّدى : إن أهل الجنة إذا سِيقوا إلى الجنة فبلغوا وجدوا عند بابها شجرة فى أصل ساقها عينان فشربوا من إحداهما فينزع ما فى صدورهم من غِلٍّ فهو الشراب الطهور واغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم

نضرة النعيم ، فلن يشعثوا ولن يسحنوا [١] بعدها أبداً .

فنضرة النعيم والعيش بادية على بشرتهم ، مُنعَّمين بأنواع النعيم المختلفة ، بهذه الوجوه الناضرة المنعَّمة تنظر إلى ربها المتفضل على أصحاب تلك الوجوه بالنعمة .

فيقول تعالى : ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾[القيامة] فإذا كانت المقاييس يوم القيامة تختلف عن مقاييس الدنيا ، فإعدادك وجسدك لا يمكن به أنْ ترى الله ، أما فى الآخرة فيسمح إعدادك وجسدك بأنْ يتجلَّى عليك الله سبحانه وتعالى .

وهذا قمة النعيم فى الآخرة ، وأنت الآن تعيش فى آثار قدرة الله ، وفى الآخرة تعيش عيشة الناظر إلى الله تبارك وتعالى ، فيعيش فى رضوان الله الأكبر وهو أنْ يضمن المؤمن الظفر برؤية ربه .

وقد قال الحسن البصرى : « تنظر إلى ربها ،حسَّنها الله بالنظر إليه وحقَّ لها أنْ تنضر وهى تنظر إلى ربها عز وجل »[٢] .

فهم ينظرون إلى الله تعالى معاينةً ، وذلك الرضوان الأكبر من الله ، ولكنِ لا تحيط أبصارهم به سبحانه من عظمته وبصره يحيط بهم ، فذلك قوله تعالى : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣) ﴾

[الأنعام]

ورسول الله ﷺ يقول : « إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون القمر لا

---

(١) ذكره الخازن فى (لباب التفسير) (٢/٢٠١) والبغوى فى تفسيره (٣/٢٣٠) . والسَّحْنة هى بشرة الوجه وهيأته وحاله وهى من الأضداد بمعنى أنها تعبر عن لين البشرة وحسنها أو عدم حسنها وعبوسها حسب سياق الجملة وهى تعنى هنا المعنى الثانى .

(٢) أورده مجاهد بن جبر فى تفسيره (١/٦٨٧) وكذا الطبرى فى تفسيره جامع البيان (٢٤/٧٢) والثعلبى فى الكشف والبيان عن تفسير القرآن . والبغوى فى تفسيره (٨/٢٨٤) .

تُضامون فى رؤيته »[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥) ﴾

إذا كانت وجوه المؤمنين ناضرةً ناعمةً تعبر عن التنعُّم فى جنة النعيم، فإن وجوه الكافرين المكذِّبين تكون ﴿ بَاسِرَةٌ (٢٤) ﴾[القيامة] أى عابسةً كالحةً متغيرة مُسودة قد أظلمتْ ألوانها ، قد خلَتْ من آثار النعمة والسرور.

والحق سبحانه قال فى آية أخرى ﴿ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ﴾ [المدثر] فاستخدم سبحانه الفعل (بسر) أما (باسرة) فهى (فاعلة) .

فـ (بسر) كلح وقطَّب وجهه قد أصابه الهمّ أو الاهتمام بأمر ما يفكر فى شيء يدبره .

فوجوههم باسرة عابسة كالحة تعلوها الظُّلْمة والغبار ، كما قال الله عز وجل ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَـٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢) ﴾ [عبس]

فعلى وجوههم غبرة سوداء وترهقهم قترة ، والقترة الغبار وهى مأخوذة من القتار ، وهو الهواء الذى يمتليء بدخان الدهن المحترق من اللحم المشوى ، وقد تكون رائحته أخَّاذة ويسيل لها اللعاب ، ولكن مَنْ يُوضع على وجهه هذا القتار يصنع له طبقة سوداء .

﴿ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥) ﴾[القيامة] والظنُّ هنا بمعنى اليقين أنْ يُفعل بها فاقرة . أى : يُفعل بهم أمرٌ عظيم من العذاب يقصم فقار ظهره .

(١) أخرجه الحميدى فى مسنده (٨١٧) وأحمد فى مسنده (١٩١٩٠) وابن ماجه فى سننه (١٧٧) وأبو عوانة فى مستخرجه (١١١٢) من حديث جرير بن عبد الله البجلى .

والفاقرة الداهية العظيمة والأمر العظيم الشديد الذى يكسر فقار ظهره ويقصمه ، وقيل : الفاقرة دخول النار .

وقيل : هى أنْ تُحجب تلك الوجوه عن رؤية الله تعالى .

فالفاقرة هى الداهية أو المصيبة التى إذا حلَّتْ بالإنسان كسرتْ فَقَار ظهره.

ومن العلماء مَنْ فسَّر الفاقرة بأنواع العذاب فى النار ، وقد فسَّرها الكلبى فقال : الفاقرة هى أنْ تُحجب عن رؤية ربها ولا تنظر إليه[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ ﴾

التراقي جمع تُرْقوة ، وهى العظم الذى بين ثغرة النحر والعاتق وعند مخرج الصوت . أى إذا بلغت الروحُ الحلقومَ . والتراقى هى عروقُ العنق .

وبلوغ التراقى أى حين تزول النفسُ والروح عن مكانها وتنتهى إلى التراقى ، وهى مُقدَّم الحَلْق من أعلى الصدر تترقى إليه النفس عند الموت، وهناك تقع الحشرجة واحدته ترقوة .

فالتراقى العظام المكتنفة لثغرة النحر عن يمين وشمال ، فروح الإنسان تُنزع من أصابع القدم إلى أمشاط القدمين ثم إلى الساقين فتبرد الساقان بعد أنْ تمرّ الروح بهما ومنها إلى الفخذين ، ثم تصعد الروح إلى التراقى .

ثم يُسمع للعبد حشرجة ويُسمع لصدره قعقعة ، فما هى إلا لحظات حتى يرتفع بصره ، والبصر يتبع الروح من حيث خرجتْ .

(١) أورده الرازى فى مفاتيح الغيب (٣٠/٧٣٣) ومثل تفسير الكلبى قاله السائب : هى أن تُحجب عن ربها فلا تنظر إليه .

﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) ﴾ [القيامة] إنها لحظة الاحتضار وخروج الروح وحوله أهله ، يظنون أنهم يستطيعون إنقاذ روحه ، فيقول بعضهم ﴿ مَنْ رَاقٍ (٢٧) ﴾ [القيامة]

هل من طبيب يرقيه ويداويه مما نزل به ويشفيه ويُخلِّصه من ذلك برقيته ودوائه والتمسوا له الأطباء ، فلم يُغنوا عنه من قضاء الله شيئاً .

وقيل : هذا من قول الملائكة الذين يحضرونه عند الموت يقول بعضهم لبعض : مَنْ يْرقَى بروحه إذا خرجتْ فيصعد بها ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب .

﴿ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٨) ﴾ [القيامة] لقد تأكد المحتضر أن هذه هى ساعته، وأنها ساعة فراق الأحبة والأبناء والأصدقاء ، ساعة فراق ما اكتسبه فى الدنيا من مال وعقار ، فالموت فى هذه الحالة أمر مقطوع به .

فالفراق الخروج من الدنيا ، وفراق المال والأهل والولد وهو تأكد له أنه خارجٌ من هذه الدنيا ، وأنه الموت لا محالة .

إن ما فيه لا حيلةَ للطبيب فيه ، عند ذلك ييئس من الحياة ومن أهلها ، فقد دنا فراقه من الدنيا ، ودنا توديع الأهل والأقارب والأصحاب ، ودنا انتقاله من هذه الدار لينتقل إلى عالم آخر إلى عالم القبور .

إنه سيفارق كلّ شيء لازمه فى حياته ، سيفارق منصبه ومكانته التى كانت له فى الدنيا ، سيفارق سيارته وزوجته وأولاده وأهله وأحبابه ، سيفارق الدنيا بكل ما فيها .

إنها لحظة الفراق ، لحظة تنتهى فيها حياةُ إنسان وحكايته وقصته على الأرض بكل ما فيها ، لحظة تدمع فيها عيون الصادقين المحبين لمن يعالج سكرات الموت ، ويفرح فيها خصومه الذين كانوا يكرهونه

ويتمنون موته .

﴿ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ ﴾

مَنْ يتأمل هذه الآية ويعيش تلك اللحظة التى يحتضر فيها إنسان يترك دنياه بكل ما فيها ، يتركها إلى حياة أخرى لا يدرى ما يُفعل به فيها .

مَنْ يرى مُغسِّلاً يغسِّل ميتاً ، إنه يقلب الميت يميناً ويساراً ، ولكى يتحكم فى رجليه من أنْ تسقط يضع اليمين على اليسار ، ويجعل الساقين تلتفان على بعضهما .

والبعض تأول هذه الآية على اجتماع شدة الموت بشدة الآخرة عليه ، وذلك آخر يومه من الدنيا وأول يومه من الآخرة ، وقيل : ما من ميت يموت إلا التفَّت ساقاه من شدة ما يقاسى من الموت[1] .

فشدائد الموت وسكراته تلتف بشدائد القيامة والقبر وتجتمع عليه ، فهو من كرب إلى كرب إن لم يكُنْ مؤمناً طائعاً لله .

والعرب تقول : قامت الحرب على ساق أى اشتدت ، فالتفت شدة مفارقة الدنيا ولذَّاتها بشدة ترك الأهل وترك الولد وترك المال والجاه .

والإنسان إذا مات تيبَّس ساقاه وتلتصق إحداهما بالأخرى .

﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ ﴾ [القيامة] فمرجع العباد إلى الله تعالى ، يُساقون إليه يوم القيامة ليفصل بينهم ، فلا تظن أن مرجعك إلى غير الله، تسوق الملائكةُ روحه حيث أمرهم الله سبحانه ، فإمَّا إلى الجنة وإما إلى النار .

---

(١) أورده الماتريدى فى تفسيره (١٠/٣٥٣) ولم يعزه لأحد . وقد أورد ابن الجوزى فى تفسيره للآية خمسة أقوال : الأول التف أمر الدنيا بأمر الآخرة . قاله ابن عباس . والثانى : اجتمعت فيه الحياة والموت . قاله الحسن . والثالث : التفت ساقاه عند الموت . قاله الشعبى . والرابع : التفت ساقاه فى الكفن قاله سعيد بن المسيب . والخامس : التفت الشدة بالشدة قاله قتادة .

وساعة ترى ﴿ يَوْمَئِذ (٣٠) ﴾ [القيامة] وتجد فيها هذا التنوين فاعلم أنه عِوَضٌ عن شيء محذوفٍ ، والمحذوف هنا أكثر من جملة ويصبح المعنى : يوم إذ نجيء بهم يوم القيامة يُساقون إلى مصيرهم.

﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴿٣٣﴾ ﴾

فلم يصدق بل أعرض عن الإيمان وكذَّب رسول الله ، وهذا فعله كبار صناديد قريش مثل أبى جهل وأبى لهب والوليد بن المغيرة .

لذلك ساق المفسرون هذه الآية فى أبى جهل وغيره قالوا : فلا صدَّق أبو جهل بالقرآن ولا صلَّى لله تعالى ، فلا صدَّق بما جاء من عند الله تعالى ولا صدق رسوله ﷺ(١) .

وليس المقصود أبو جهل أو الوليد بن عقبة ، إنما المقصود جنس الإنسان المذكور فى أول السورة ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) ﴾ [القيامة]

فكلمة ﴿ الْإِنسَانُ (٣) ﴾ [القيامة] اسم جنس . فلا هو صدَّق بالرسول أو بالقرآن أو بالبعث ولا صلَّى ﴿ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٣٢) ﴾ [القيامة] أى كذَّب بالحق وتولى عن الطاعة .

وقد تكون (صدَّق) بمعنى : تصدق . من الصدقة فإنه لم يتصدق بماله على الفقراء ولم يكُنْ يُطعم المسكين ، فلم يكُن يعبد الله على أى وجه بل كذَّب بالبعث والقرآن والرسول ، وتولَّى وأعرض عن الله والرسول .

﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ (٣٣) ﴾ [القيامة] يتمطى أى يتبختر ، ومن حديث رسول الله ﷺ : « إذا مشتْ أمتى المطيطاء وخدمتهم فارسُ والروم كان

---

(١) أورده مقاتل بن سليمان فى تفسيره (٤/٥١٣) .

بأسهم بينهم »[(١)].

فهو تولىَّ مُعرضاً وذهب يتبختر ويتيه ويفتخر ، ويتمطى هنا فى محل نصب حال ، ومعنى يتمطى أى يمد مطاه أى ظهره . والمطية ما يُركب مطاه من البعير .

فهو يتبختر عُتواً واستكباراً وفرحاً وتجبراً ، وكلمة (يتمطى) فيها شيء عجيب يدل على ارتباط الصوت بالصورة التى يريد أنْ ينقلها لنا الحق سبحانه .

فنستطيع أن نتلمس تطاول أعضاء مَنْ يتمطى بعد شَدِّ العضلات من الوقوف فى الشَّدة التى على الطاء ، والذى تتبعه الألف المقصورة ذات المد الطويل، وهذا المد يمثل انفراج الأعضاء وتعالى الرجل فى مباهاة وخيلاء.

﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾ ﴾

وسبب هذه الآيات أن أبا جهل تهدَّد رسول الله ﷺ بالقتل، فقال أبو جهل : إليك عنى فإنك لا تستطيع أنتَ ولا ربك أنْ تفعلا بى شيئاً ، لقد علمتْ قريش أنِّى أعزُّ أهل البطحاء وأكرمها ، فبأىِّ ذلكِ تخوِّفنى يابن أبى كبشة ، ثم انسلَّ ذاهباً إلى منزله فذلك قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ (٣٣) أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٤) ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٥) ﴾ [القيامة]

فأخذ رسول الله ﷺ بتلابيب أبى جهل بالبطحاء فدفع فى صدره وقال (أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى) أى يُهدده ويتوعده . وهو يُقال لمَنْ

---

(١) أخرجه عبد الله بن المبارك فى الرقائق والزهد (٢/٥٢) ولفظه : « إذا مشت أمتى المطيطاء وخدمتهم أبناء الملوك أبناء فارس والروم سلط الله شرارها على خيارها » . وأخرجه كذلك الخرائطى فى [مساويء الأخلاق] (٥٧٨) والبغوى فى شرح السنة (٤٢٠٠) من حديث ابن عمر رضى الله عنه .

وقع فى هلكة أو قاربها .

وقد قال أبو جهل عندما سمع قول رسول الله هذا له : أيوعدنى محمد وما بين جبليها أعزُّ منى ولا أكرم ، فأنزل الله ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) ﴾ [الدخان]

وقد يُسأل سائل : ولماذا التكرار ؟ تكراره للتأكيد ويحتمل أنْ يُراد به ويْلٌ لك فى الدنيا بالقتل واللعن ، وويلٌ لك يوم الموت ، وويلٌ لك إذا بُعثت، وويلٌ لك إذا دخلت النار .

لذلك استخدم الحق سبحانه حرف العطف (ثم) وهو يفيد التراخى، وليس الترتيب والتعقيب كحرف الفاء ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١١١) ﴾ [آل عمران]

فإذا دققنا الفهم فى العبارة حروفاً ، فقد يظن إنسان أن القول كان يقتضى أنْ يتأتَّى على نحو مغاير هو : يولوكم الأدبار فلا يُنصرون ، لأن الذى يأتى بعد الـ (فاء) يعطى أنهم لا ينتصرون عليكم فى بداية عهدكم.

وهذا ما تفيده الفاء لأنها للترتيب والتعقيب ، لكن أورد الحق (ثُمَّ) وهو يفيد التراخى ، وهذا يعنى أنهم لا ينتصرون عليكم أيها المؤمنون حتى لو استعدوا بعد فترة لمعركة .

(ثم) تأتى للتعقيب مع التراخى ، والفاء تأتى للتعقيب المباشر بدون تراخ ، لذلك فعندما نقرأ القرآن نجد وضع الفاء كالآتى ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ﴾ [عبس] فدخول القبر يكون بعد الموت مباشرة ، وبعدها يقول الحق ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢) ﴾ [عبس]

فإذا كان هناك تعقيبٌ بعد مدة زمنية ، فالحق يأتى بـ (ثم) وإذا كان هناك تعقيب فورى بلا مدة يأتى الحق بـ (فـ) .

﴿ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (٣٤) ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (٣٥) ﴾ [القيامة] اثنان فى الدنيا، واثنان فى الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ ﴾

أيظنّ الإنسانُ أن الله خلقه عبثاً ، وأنه سيتركه سُدىً بدون حساب ولا عقاب ، بل كلُّ عمل يفعله الإنسانُ فى الدنيا مُحصى عليه ، وسيُسأل عنه يوم القيامة .

فلا يظن الإنسان أنه سيفلت من الله أو أنه سيهرب من عقابه فى الآخرة، أو أنه سيُترك سُدى . لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) ﴾ [المؤمنون]

ولو تركنا الله تعالى بلا حساب لكان المنحرف الذى أعطى لنفسه شهواتها فى الدنيا أوفرَ حظاً من المستقيم .

وكلُّ مخلوق لغاية فلا شيء يُخلق عبثاً ، والعبث هو الفعل الذى لا غايةَ له ولا فائدةَ منه ، كما تقول : فيما تعبث ؟ لمن يفعل فعلاً لا جدوى منه . وغير العبث نقول : الجد .

فنفى الحق سبحانه أنْ يكونَ الخَلْق عبثاً بلا غاية ، لأن الله خلق الخَلْق لغاية مرسومة ووضع لها منهجاً يحدد هذه الغاية ، ولا يضع المنهج للخلق إلا الخالق .

فقوله تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) ﴾ [القيامة] أى هملاً لا يُؤمر ولا يُنهى ولا يُكلَّف فى الدنيا ولا يُحاسب فى الآخرة .

وقد قال البعض : أيحسب الإنسانُ أنْ يُترك فى قبره كذلك أبداً لا يُبعث .

ولايحسب هذا إلا الكافر الذى لا يؤمن ببعثه مرة أخرى إلى الحياة بعد الموت ، ولا يؤمن بحساب ولا جزاء ولا جنة ، ولا نار .

﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣٩) ﴾

النطفة فى الأصل هى قطرة الماء العذب ، وكذلك هى خلاصة الخلاصة، لأن جسم الإنسان تحدث فيه عملية الاحتراق ، وعملية الأيض أى الهدم والبناء بصفة مستمرة ينتج عنها خروج الفضلات المختلفة من الجسم .

فالبول والغائط والعرق والدموع وصمغ الأذن ، كلها فضلات ناتجة عن احتراق الطعام بداخل الجسم حيث يمتص الجسمُ خلاصةَ الغذاء وينقلها إلى الدم .

ومن هذه الخلاصة يُستخلص منىُّ الإنسان الذى تُؤخذ منه النطفة ، فهو خلاصة الخلاصة فى الإنسان ، ومنه يحدث الحمل ويتكوَّن الجنين .

وكأنَّ الخالقَ عز وجل قد صفَّاها هذه التصفية ونقَّاها كل هذا النقاء لأنها ستكون أصلاً لأكرم مخلوقاته وهو الإنسان . فالله خلق آدم من طين ثم جعل نسله من هذه النطفة الحية التى وضعها فى حواء ، ثم أتى منها كل الخَلْق بعده ، فكأنَّ فى كل واحد منا ذرة من أبيه آدم ، فهذه الذرة موجودة فيك فى النطفة التى تلقيها ويأتى منها ولدك ، وهى أصفى شيء فيك .

والنطفة التى هى أساس خَلْق الإنسان تعيش فى وسط مناسب هو السائل المنوى ، لذلك قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِي يُمْنَى (٣٧) ﴾ [القيامة]

وهى الحيوان المنوىّ الذى يتزاوج مع البويضة الموجودة فى رحم المرأة فتنتج العلقة ، فالقذفة الواحدة من الرجل قد يوجد فيها من الإنسان

ما يكفى خَلْق الملايين ، ولا يمكن للعين المجردة أنْ ترى الحيوان المنوى الواحد نظراً لدقته المتناهية .

وقد شاء الحق سبحانه ألاَّ ينفذ إلى بويضة المرأة إلا الحيوان المنوى الأقوى ، ليؤكد لنا أن لا بقاء إلاّ للأصلح ، فإنْ كان الحيوانُ المنويّ يحمل الصفات الوراثية لميلاد أنثى جاء المولود أنثى ، وإنْ كان يحمل الصفات الوراثية لميلاد الذكر جاء المولود ذكراً .

وهو ما يسميه العلماء (الإكس والإكس واى) فالحيوان المنوى يخرج من الرجل ، منه ما هو خاصّ بالذكورة ، ومنه ما هو خاص بالأنوثة ، ثم تتم عملية انتخاب للأقوى الذى يستطيع تلقيح البويضة .

وقد وصفه الحق سبحانه بالماء الدافق فقال ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) ﴾ [الطارق]

فـ ﴿ أَلَمْ يَكُ (٣٧) ﴾ [القيامة] هذا المنكر المكذّب لقدرة الله على إحيائه بعد موته ماءً قليلاً فى صُلْب الرجل (نطفة) هيِّنة يُمنيها الرجل فى موضع امرأته كالماء الذى ينزل منه عند التبول ، فهو بهذا الاعتبار ﴿ مَاءٍ مَهِينٍ (٢٠) ﴾ [المرسلات] وإن كان منه الإنسان المكرَّم عند الله .

فالنطفة منيٌّ يُمنى فى الرحم ويُصبُّ ويُقذف ، وهذا فيه إشارة إلى حقارة حاله ، فهو مخلوق من المنى الذى جرى ونزل من مخرج البول وهو نجس ، فلا يليق بمثل هذا أنْ يتمرد على طاعة الله عز وجل .

ثم يقول سبحانه : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) ﴾ [القيامة] العلقة جاء اسمها من مهمتها حيث تتعلق بجدار الرحم كما أثبت العلم المعاصر ، يقول سبحانه ﴿ فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً (١٤) ﴾ [المؤمنون]

ويقول العلماء : تتحول هذه النطفة إلى علقة بعد أربعين يوماً ، والعلماء يسمونها الزيجوت وهى عبارة عن بويضة مُخصَّبة وتبدأ فى أَخْذ غذائها منه .

﴿ فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) ﴾ [القيامة] أى فقدَّر خَلْقه وسوَّاه وعدله ، وبنفخ الروح فيه وكمل أعضاءه وسوَّاها وجعله سميعاً وبصيراً ناطقاً ، وجعله مُستوياً معتدلَ القامة .

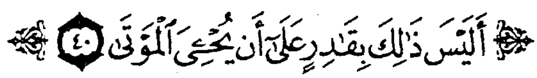
جعله إنساناً يمشى ويتحرك ويتكلم ويسمع ويبصر ويفكر بعد أنْ كان مجرد ماء جرى من أبيه لأمه وأصبح علقة تعلَّقت برحم أمه ثم مضغة ثم سوَّى اللهُ أعضاءه فى رحم أمه ، ثم خرج إلى الحياة .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٣٩) ﴾ [القيامة] كلمة (زوج) تعنى مفرداً معه مثله ، فالذكر زوج والأنثى زوج أيضاً ، والذكر والأنثى كلاهما من المنىِّ ، والجنس البشرى جعل منه سبحانه الذكر والأنثى ، ومنهما يأتى الإنجاب الخلافى ، فهو محمول أولاً فى ظهر أبيه نطفةً ، ثم فى أمه جنيناً ، ثم تضعه لترعاه مع والده ويربيه الاثنان حتى يبلغ رشده .

فجعل سبحانه من الإنسان أولاداً ذكوراً وإناثاً ، و﴿ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٣٩) ﴾ [القيامة] بدل من الزوجين ، والضمير فى ﴿ مِنْهُ (٣٩) ﴾ [القيامة] عائدة على ماء الرجل .

والمقصود بالزوجين الصنفين ، وإلاَّ فقد تحمل المرأة ذكراً فقط أو أنثى فقط أو ذكرين أو أنثيين أو ذكرين وأنثى ، أو أنثيين وذكر ، أو غير ذلك مما يقضى الله به.

ويقول الحق سبحانه :



السورة سورة القيامة ، ومدار الكلام فيها على إثبات البعث والقيامة، فقال من بدايتها ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَـامَةِ (١) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحْسَبُ الْإِنسَـانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) ﴾ [القيامة]

فهل يظن الإنسانُ أننا لن نجمع عظامه التى تفرقت وتفتتت ، ثم يذكر الحق سبحانه بعضَ أحداث يوم القيامة ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩) ﴾ [القيامة]

فأنت أيها الإنسان المكذِّب الذى لا صدَّقْتَ ولا صليْتَ ستموت حتماً ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٨) وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (٢٩) ﴾ [القيامة]

وإياك أنْ تفكر أيها الإنسان أن الله خلقك عبثاً ، وأنه سيتركك سُدى بدون أمر أو نهى ، أو دون ثواب وعقاب .

ولا تترفع عن أمر ربك ، فما أنت إلا نطفة أمناها أبوك فى رحم أمك ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٣٩) ﴾ [القيامة]

ثم ختم الحق السورة بقوله : ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى (٤٠) ﴾ [القيامة] والمنكرون للبعث يقولون ﴿ أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠) ﴾ [السجدة]

فهم لا يصدقون أن الذى أنشأهم أول مرة بقادر على أنْ يعيدهم مرة أخرى ، لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى (٤٠) ﴾ [القيامة]

سُورَةُ الإِنسَانِ

سورة الإنسان(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ①﴾

الحق سبحانه خلق الكون وعوالمه بكل مكوناته ، وذكرها كلها فى القرآن لم يترك منها شيئاً ، لذلك قال تعالى : ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ (٣٨)﴾ [الأنعام]

وكما ذكر الله سبحانه الإنسان هنا وسُميت السورة بهذا الاسم ، ذكر الجن وسُميت سورة باسم (الجن) ، وذكر الملائكة فى سورة أخرى أُسميت (فاطر) ، وقيل عنها : السورة التى يُذكر فيها الملائكة.

وقال تعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١)﴾ [فاطر]

وكما ذكر الحق سبحانه هذه العوالم الثلاث ذكر الكون الذى سيعيش فيه الإنسان من أرض وسماء وجبال وأنهار ، فذكر الله الشمس وخصَّص لها (سورة الشمس) ، وذكر القمر وخصص له (سورة القمر)، وذكر النجم وخصص لها (سورة النجم).

وذكر الحق الإنسان فى سورة باسمه وكأنه يُحدِّثنا عن أصل الإنسان وبدايته وصولاً إلى مصيره ، إنها تحدِّثنا عن ذلك المخلوق الذى خلقه الله

---

(١) سورة الإنسان وتسمى سورة الدهر لذكر الدهر فيها ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا (١)﴾ [الإنسان] وهى سورة مدنية وقيل نزلت بمكة . وهى ٣١ آية والبعض يسميها سورة هل أتى . قال علم الدين السخاوى فى (جمال القراء وكمال الإقراء) (١/٤٩٣) : ليس فيها منسوخ ، نزلت بعد سورة القيامة وقبل سورة المرسلات .

ليكون خليفة له في الأرض، وأسكنه في كون أعدَّه له.

فإذا كان الحق سبحانه هو الذى جعل الإنسان خليفة فى الأرض فقد أعدَّ له كلَّ هذه المقومات للحياة من قبل آدم عليه السلام ، أعدَّ سبحانه لخَلْقه الأرض والسماء والماء والهواء ومما ذخر وخبّأ وأوجد فى الأرض من أقوات لا تنتهى إلى يوم القيامة.

فالإنسان قد طرأ على النعم ، بمعنى أن الله لم يخلق الإنسان ثم خلق له النعم ، بل خلق النعم أولاً ثم جاء الإنسان إلى كون أُعدَّ له إعداداً كاملاً ، وفيه كلّ مقومات الحياة ومقومات استمرارها.

وليس هناك تفرقة فى هذا بين مؤمن وغير مؤمن ، فغير المؤمن مخلوقٌ لله كالمؤمن بالضبط ، استدعاه الله إلى هذا الوجود ، وسبحانه قد أعدَّ له مكانه فى هذا العالم.

وقبل أنْ يخلق سبحانه الإنسانَ أعدّ له الكون الذى يعيش فيه الأرض والشمس والقمر والسماء والكواكب والنجوم ، ثم جاء الإنسان إلى الكون ليجد كل شيء قد أُعدَّ لخدمته خاضعاً له ، فلا يوجد جنس من الأجناس يتأبى عن خدمة الإنسان . فلا الأرض إذا زُرعتْ رفضت إنبات الزرع ، ولا الحيوان الذى سخره الله جل جلاله لخدمة الإنسان يتأبَّى عليه.

فسبحانه قد خلق لنا السماوات والأرض من قبل أنْ يخلقنا وقدَّر الأرزاق ، ولو نظرت إلى خلقك أنت لوجدت العالم الكبير قد انطوى فيك، وهو القائل سبحانه : ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ(٢١)﴾ [الذاريات]

والشيء الذى يجب أنْ يتأمله الإنسان جيداً ويتحققه أنه وهو فى بطن أمه وعند تكونه يجد أن الله قد أعدَّ له حياته الخاصة داخل رحم أمه ، فيهيء الله له حبلاً سُرياً يمده الله من خلاله بالغذاء من خلاصة ما تأكله أمه دماً به كل العناصر الغذائية ، لا يسعى لرزق ولا يمضغ

طعامـاً ولا يهضـم أكلاً ، بـل يسـتفيد ممـا تكـوَّن داخـل رحـم أمـه .

حتـى عندمـا يخـرج إلى الحيـاة يجـد مَـنْ يسـتقبله ويرحـب بـه يجد عالمـاً جديـداً قد أعدَّه الله لـه فهو طارئ على حياة أُعـدَّتْ له ، هذا مثل وجود الإنسـان على الأرض فقد أوجد الله الإنسـان على أرض قد أعدها للإنسـان قبـل إهباطـه إليهـا فهيـأ الله لـه ماء عذبـاً فى أنهـار تخترق الجبـال والوديان حيث يوجد الإنسـان وهيَّأ له ثمراً وزرعـاً وعلَّمه كيف يسـتفيد مما حوله ، والله سـبحانه وتعالى خلق لنا فى هذا الكون أشـياء تعطـى الإنسـان بغير قـدرة منه ودون خضـوع له، والإنسـان عاجز عن أنْ يقـدم لنفسـه هـذه النعـم التـى يقدمهـا الحـق تعـالى لـه بـلا جهـد .

ونعمـة الله على الإنسـان التى يسـتحق عليها الحمد أنه سـبحانه جعل النعمـة تسـبق الوجـود الإنسـانى ، فعندمـا خلق الإنسـان كانـت النعمة موجـودة تسـتقبله .

بـل إن الله جـل جلاله قبـل أنْ يخلق آدم أبا البشـر جميعاً سـبقته الجنة التـى عاش فيهـا لا يتعب ولا يشـقى ، فقد خلق فوجد مـا يأكله وما يشربه ومـا يقيـم حياته ومـا يتمتـع بـه موجـوداً وجاهـزاً ومُعـداً قبـل الخَلْـق .

وحينمـا نـزل آدم وحـواء إلى الأرض كانـت النعمة قـد سـبقتهما فوجدا مـا يأكلانـه ومـا يشربانـه ومـا يقيـم حياتهمـا ، ولـو أن النعمـة لم تسـبق الوجـود الإنسـانى وخُلقت بعده لهلك الإنسـان وهـو ينتظـر مجـيء النعمـة .

وُجـد الكـون قبـل أنْ يوجـد الإنسـان ، وُجـد قبـل أنْ يكون الإنسـان شـيئاً مذكـوراً ، لذلك يسـأل الله السـؤال وهو يعلم سـبحانه أنه لن يسـع الإنسـان سـواء كان مؤمنـاً أو كافـراً إلا أنْ يجيـب بنعم ، نعـم أتى على الإنسـان حـينٌ مـن الدهـر لم يكـن شـيئاً مذكـوراً .

والحق سـبحانه لم يقل : هل أتى على الإنسـان حينٌ من الدهر لم يكن شـيئاً . وسـكت . بل أضـاف سـبحانه كلمة (مذكوراً) لأن الإنسـان كان

شيئاً ولكنه كان شيئاً لا قيمة له ولا وزن، كان طيناً ماء وتراباً.

والحق سبحانه وإنْ كان قد خلق الإنسان الأول آدم من ماء وتراب الذى أصبح طيناً فإنه جعله سلالة من ماء مهين، وقال: ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَـٰنِ مِنْ طِينٍ (٧)﴾ [السجدة] فبدء خلق الإنسان كان من الطين، ولكن لا يُعقل أَنْ يخلق كل أفراد الإنسان من الطين، لذلك جعله الله نسلاً وصهراً يتناسل ويتكاثر.

لذلك قال تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٨)﴾ [السجدة] والسلالة هى خلاصة الشيء، فالخالق سبحانه خلقنا أولاً من الطين، ثم جعل لنا الأزواج والتناسل الذى نتج عنه رجال ونساء، فالسلالة هى أجود مافى الشيء، وقد خلق الله الإنسان الأول من أجود عناصر الطين وأنواعه وهى زبد الطين.

فلو أخذتَ قبضة من الطين وضغطت عليها بين أصابعك يتفلت منها الزبد وهو أجود ما فى الطين ويبقى فى قبضتك بقايا رمال وأشياء خشنة.

والله جعل الإنسان سلالة من نطفة تُصفَّى من الرجل والمرأة، فتكون علقة من سلالة منتقاة من منى يُمنى، من ماء هيِّن يقذفه الرجل من عضوه ليُفرغه فى عضو زوجته، فكيف يتكبَّر مثل هذا؟

والبعض يسوق كلمة (الإنسان) هنا ليس عن جنس الإنسان ونوعه بل عن آدم عليه السلام نفسه، فمعنى ﴿ هَلْ أَتَى (١)﴾ أى قد أتى ﴿ عَلَى الْإِنْسَـٰنِ (١)﴾ [الإنسان] أى آدم عليه السلام ﴿حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ (١)﴾ [الإنسان] أى مدة أربعين سنة وهو من طين مُلقى.

فعن أنس رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «لما صوَّر الله آدم فى الجنة تركه ما شاء الله أنْ يتركه فجعل إبليس يطوف به وينظر إليه، فلما رآه أجوف عرف أنه خَلْق لا يتمالك». (١)

---

(١) أخرجه أبو داود الطيالسى (٢١٣٦) وأحمد فى مسنده (١٢٥٣٩) والحاكم فى مستدركه (١٠٥) وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وأقره الذهبى. من حديث أنس بن مالك.

والبعض روى أن آدم بقى أربعين سنة طيناً ، ثم أربعين سنة حمأً مسنوناً ، ثم أربعين سنة صلصالاً كالفخار ، فتمّ خلقه بعد مائة وعشرين سنة .

لقد بقى مائة وعشرين سنة لم يكُنْ شيئاً مذكوراً أى لا يُذكر ولا يُعرف ولا يُدرى ما اسمه ولا ما يُراد به . ولكن الله هو وحده الذى يعلم ما يراد بما خلقه وما هو، لذلك سمَّاه (الإنسان).

ويلفت نظرنا هنا كلمة (الدهر) والدهر الزمن الطويل ، وهذا يدل على أن آدم بقى فى طينته زمناً طويلاً يصل فعلاً لمائة وعشرين سنة.

وهذه السورة فى أحد تسمياتها (الدهر) ، وفى بعض تسمياتها سورة (هل أتى) . وهو لم يكن شيئاً مذكوراً لا فى السماء ولا فى الأرض ، فقد كان جسداً مُلقى من طين قبل أنْ يُنفخ فيه الروح .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ ﴾

إذا تحدَّث الله سبحانه عن فعل يحتاج إلى كمال المواهب من الله تعالى يقول :(إنَّا) ففى الفعل الذى يفعله الله يأتى بنون العظمة حتى نفهم أن الفعل من الله تعالى ليس وليد قدرته وحدها ولا علمه وحده، ولا حكمته وحدها ، ولا رحمته وحدها ، وإنما كل فعل من أفعال الله تكاملت فيه صفات الكمال المطلق لله .

إن نون العظمة تأتى لتلفتنا إلى هذه الحقيقة لتبرز للعقل تكامل الصفات فى الله لأنك قد تقدر ولا تعلم وقد تعلم ولا تقدر وقد تعلم وتغيب عنك الحكمة . إذن : فتكامل الصفات مطلوب .

فكل فعل من أفعال الله يقتضى حشداً من الصفات علماً وإرادة وقدرة وحكمة وقبضاً وبسطاً وإعزازاً وإذلالاً وقهارية ورحمانية .

وقد عظّم الحق سبحانه نفسه لأن الأمر هنا حشد صفات يتطلبها إيجاد الكون والقيام على أمر الكون ، فهو سيال القدرة الشاملة العامة لكل صفات الكمال التى تتطلب إيجاد الشيء ، فيأتى بنون التعظيم فيقول تعالى (إنَّا) .

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ (٢)﴾ [الإنسان] فالله خلق الإنسان الذى هو ولد آدم من نطفة أى منىٍ الرجل ومنى المرأة يختلطان ببعضهما، فقال تعالى (أمشاج) أى أخلاط ، يختلطان فى رحم المرأة .

فماء الرجل غليظ أبيض ، فمنه العصب والعظم والقوة ، ونطفة المرأة صفراء رقيقة ، فمنها اللحم والدم والشعر والظفر فيختلطان .

وقد ذهب البعض إلى أن الأمشاج هى العروق التى تكون فى النطفة، والمشج أيضاً المزج فقد امتزج الماءان فتكون منهما العلقة وينتقل من طوْر إلى طوْر، ومن حال إلى حال ، ومن لون إلى لون .

ونحن إنما خلقنا الإنسان من نطفة اختلط فيها ماء الرجل بماء المرأة مريدين ابتلاءه واختباره بالتكليف فيما بعد إذا شبَّ وبلغ الحلم.

وربما كانت (أمشاج) إشارة إلى تكوُّن النطفة من خلية الذكر وبويضة الأنثى بعد التلقيح ، وربما كانت هذه الأخلاط تعنى الجينات الكامنة فى النطفة وهى وحدات الوراثة الحاملة للصفات المميزة لجنس الإنسان أولاً ، ولصفات الجنين العائلية أخيراً .

فهذه الصفات الوراثية والجينات المختلطة هى التى تأتى بهذا الإنسان الذى تتمايز أخلاقه وتصرفاته وطرق وأساليب تفكيره وتختلط ردود أفعاله بين الحزن والفرح ، بين الضحك والبكاء ، بين التعقل والجنون .

وإذا كان الحق سبحانه بدأ الآية بالأمر المادى من خلق الإنسان

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَـٰنَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ(٢)﴾ [الإنسان] وهذا الأمر المادى المُحسُّ، نطفة رجل مع ماء امرأة يلتقيان ويختلطان ويصبحان مشيجاً أو مزيجاً ينتقل من حالة إلى حالة إلى أن يصبح إنساناً .

ولكن الحق سبحانه قال بعدها ﴿ نَبْتَلِيهِ (٢)﴾ [الإنسان] فنقلنا الحق سبحانه من الأمر المادى للخلق إلى الأمر المعنوى وهو الابتلاء أى الاختبار ، فالحق سبحانه لم يخلق الإنسان عبثاً ولا جزافاً ولا تسلية، ولكنه خلق الإنسان ليُبتلى ويُمتحن ويُختبر.

فـ ﴿ نَبْتَلِيهِ (٢)﴾ [الإنسان] حال مقدرة أى مريدين ابتلاءه حين تأهُّله، ﴿فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢)﴾ [الإنسان] فلأننا سنبتليه ونختبره ونمتحنه فإننا جعلناه سميعاً بصيراً، فابتلاؤه يأتى بعد إعطاء الإنسان وسائل الإدراك التى يدرك بها المُحسَّات ، وأهم تلك الوسائل الإدراكية السمع والبصر.

الحق سبحانه يتفضل على هذا الإنسان الذى كان تراباً مخلوطاً بماء فأصبح طيناً وظل حيناً طويلاً لم يكُنْ شيئاً مذكوراً ، فتفضل الله على هذا المخلوق الجديد بأنْ أسبغ عليه صفاتاً من صفاته فجعله ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا (٢)﴾ [الإنسان]

فلولا أن الله شاء أن يجعله سميعاً بصيراً لظلَّ فى طينته أصمَّ أعمى، فلا يحس ولا يدرك أى شيء حوله ، فيكون كأنْ لم يكُنْ ولا يصبح شيئاً .

وبجعله آدم سميعاً بصيراً علَّمه الأسماء كلها وجعل له منه إنساناً آخر سميعاً بصيراً أيضاً هو حواء أدرك وجودها وأدركتْ وجوده ، كان منهما البشر جميعاً وجنس الإنسان كله ، إنها حكاية الإنسان الذى لم يكُنْ شيئاً مذكوراً.

ومن السمع والبصر تتكون المعلومات فتنشأ عند الإنسان معلومات عقلية ، ووسائل الإدراك العلمى فى الإنسان هى السمع والبصر والذوق واللمس والشم ، التى تعطى العلم للإنسان الذى لم يكن يعلم شيئاً .

وهو سبحانه القائل ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)﴾ [النحل]

كلٌ من الأذن والعين وسيلة إدراك، والجوارح كلها وسائل إدراك ، وكل إنسان له ملكات متعددة منها ملكات إدراكية وملكات نفسية .

والملكات الإدراكية هى التى تُدرك بها الأشياء مثل السمع والبصر والشم والذوق ، وكلها من وسائل الإدراك الحسية التى تتكون منها الخمائر المعنوية ثم تصبح عقائد.

فوسائل الإدراك هذه تتلقى من العالم الحسى ما يعطيه لها من معلومات وتخزنها لتتصرف بعد ذلك على أساسها وتكون فى مجموعها هى ما يعلمه الإنسان.

والله خلق الإنسان وجعله سميعاً بصيراً ولم يتركه يعتمد على نفسه يهتدى أو لا يهتدى ، يؤمن أو يكفر ، يعرف ربه أو لا يعرفه ، بل يقول الحق سبحانه بعدها:

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾

السبيل : الطريق وهو الصراط ، وسبيل الله المستقيم هو عبادة الله الحق وحده ، والحق سبحانه يدل الناس على الطريق المستقيم فيقول: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)﴾ [الأنعام]

وما دام هناك طريق لغاية ما فلا بد أن نحدد الغاية أولاً ، وتحديد الغاية إنما يهدف إلى إيضاح السبيل أمام الإنسان ليسلك الطريق

الموصِّل إلى تلك الغاية .

وسبيل الله هو الطريق المستقيم ، فالطريق المعوج يطيل المسافة،فيطيل على نفسه السبيل ، فالخط المستقيم هو أقصر الخطوط للوصول للغاية .

وكلمة (السبيل) و (الطريق) كلها أمور حسية ، على المعانى العقدية المعنوية يوضحها سبحانه بأمور حسِّية أمامنا .

وعندما توجد فى مفترق طريق وتريد أنْ تصل إلى المنطقة الفلانية فانحرافك بمقدار ملليمتر واحد فى بداية الطريق يبعدك عن الهدف ، وكلما امتد بك السير اتسع المشوار وبعدت المسافة .

وليس للحق إلا سبيل واحد ، ومَنْ يخرج عن هذا السبيل ﴿ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (١١٥)﴾ [النساء] لذلك كان الضلال هو أنْ يسلك الإنسانُ سبيلاً غير موصِّل للغاية ، فيبتعد عن الغاية ، وذلك هو الضلال البعيد .

والهداية هنا فى قوله تعالى : ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ (٣)﴾ [الإنسان] أى الدلالة على السبيل الموصِّل إلى الجنة وليست هداية التوفيق والإعانة ، لذلك قال تعالى بعدها ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣)﴾ [الإنسان]

الله أنعم علينا بإيجادنا من العدم وأعدَّ لنا الكون لاستقبالنا وهيَّأ لنا الرزق وأسبابه ولا حيلة لنا فيه ، وهذا إنما يستحق الشكر منا .

ومن رحمة الله تعالى أنه جعل الشكر له فى كلمتين اثنتين هما : الحمد لله . ومن رحمة الله سبحانه أنه علَّمنا صيغة الحمد ، فلو أنه تركها دون أنْ يحددها بكلمتين لكان من الصعب على البشر أنْ يجدوا الصيغة المناسبة ليحمدوا الله على هذا الكمال الإلهى .

فمهما أُوتى الناس من بلاغة وقدرة على التعبير ، فهم عاجزون أنْ يصلوا إلى صيغة الحمد التى تليق بجلال المنعم .

عطـاء الله سـبحانه ومنعـه العطـاء يستوجبان الحمـد ، ووجـود الله سـبحانه الواجـب الوجود يسـتوجب الحمـد ، فالله يسـتحق الحمد لذاتـه .

وشُكْر الله يُذهب الغرور عن نفسـك فلا تفتنك الأسـباب ، والشكر إنما يؤديـه العبـد علـى نعمـة التمحيـص والتعليـم ، ولقد تعلَّـم المؤمنون أن الله يسـتحق منهـم الشـكر علـى النعـم .

والحق سـبحانه ربط بين الشـكر والإيمـان فقـال : ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ (١٤٧)﴾ [النسـاء] ، فلمـاذا وضـع الله الشـكر مع الإيمـان ؟

لنعـرف أولاً مـا الشـكر ؟ الشـكر هو إسـداء ثناء إلى المنعم ممَّـنْ نالته نعمته فتوجيه الشـكر يعنى أنْ تقول لمن أسـدى لك معروفاً «كثر خيرك» ومـا الإيمـان ؟ إنـه اليقـين بـأن الله واحـد .

فـالحق سـبحانه يدل الإنسـان على الطريق المستقيم ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣)﴾ [الإنسـان] فإنْ آمن الإنسـان بـأن الله يدلُّه على طريـق الحـق والخير فآمـن بكتبه ورسـله يكون قد شـكر نعمة الله عليـه .

والشـكر يكـون أولاً ثـم يوجـد الإيمـان ، فالشـكر عرفـان إجمـالي، والإيمـان عرفـان تفصيلى ، والشـكر متعلـق بـالنعمـة والإيمـان متعلق بـالـذات التـى وهبـت النعمة ، ولا بـد أنْ يشـكر الإنسـانُ واهـب النعمـة .

لـو فطن النـاسُ لشـكروا الأنبياء والرسـل على المنهـج الذى بلَّغوه عن الله لأنـه يهديهـم إلى حُسْـن إدارة الدنيـا ، وفـوق ذلـك يهديهـم للجنـة.

وقد ذكر الحق سـبحانه الكفر مقابلاً للشـكر ، فقـال تعالى : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧)﴾ [إبراهيم]

وشـاء سـبحانه أنْ يـترك الشـكر للبشـر على تلـك النعم ولم يسـخرهم شـاكرين ، وقد وصف الحق سبحانه أحد هؤلاء الشاكرين نوحاً عليه السلام، فقـال تعـالى : ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣)﴾ [الإسـراء]

وشكور صيغة مبالغة فى الشكر فلم يقل شاكر ، لأن الشاكر الذى يشكر مرة واحدة ، أما الشكور فهو الدائب على الشكر المداوم عليه .

وكما هو فى الناس مَنْ هو شكور ، ففى الناس مَنْ هو كفور ، ليس كافراً فحسب بل (كفور) وهى صيغة مبالغة من الكفر لأنه كفر وعمل على تكفير غيره ، وهو كثير الكفر للنعمة .

﴿ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا ٤ ﴾

لقد أعددنا وهيَّأنا ، فالمسألة موجودة وقد أُعدت فالجنة مُعدَّة وموجودة ، ورسول الله ﷺ حينما يتكلم عن الجنة يقول : «عُرضت علىَّ الجنة ، لو مددتُ يدى لتناولتُ من قطوفها »[1].

فالمسألة جاهزة وليست تحت الإعداد ، ومن الذى أعد ؟ إنه الله قوة القوى وقدرة القُدَر هى التى تُعد ، وسبحانه يعدها على قدر سعة قدرته .

ويقول تعالى فى آية أخرى : ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا للظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا (٢٩)﴾ [الكهف] فالمسألة منتهية مسبقاً ، فالجنة والنار مخلوقتان فعلاً ومُعدَّتان ومُجهزتان ، لا أنها ستُعد فى المستقبل .

وقد أُعدَّت إعداد قادر حكيم ، فأعدَّ الله الجنة لتسع كل الخلق إنْ آمنوا ، وأعدَّ النار لتسع كل الخلق إنْ كفروا . فإنْ آمن بعض الخلق وكفر البعض فالذى آمن وفَّر مكانه فى النار ، والذى كفر وفَّر مكانه فى الجنة .

والحق يذكر هنا تفاصيل ما أعدَّ للكافرين فقال ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلَ وَأَغْلالاً وَسَعِيرًا (٤)﴾ [الإنسان] ثلاثة أشياء ضمن أشياء كثيرة أعدَّها الله عذاباً للذين كفروا وللظالمين : السلاسل ، الأغلال ، السعير.

---

(١) أخرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده (١٨٦١) وأحمد فى مسنده (٦٤٨٣، ٦٧٦٣، ٢١٢٥٠) من حديث طويل عن جابر بن عبد الله وفيه ألفاظ كثيرة : «لقد عُرضت علىَّ الجنة حتى لو شئت لتعاطيت من قطوفها » ويقول : «لقد عُرضت علىَّ الجنة حتى لو أشاء لتعاطيت بعض أغصانها» .

فيُوثقـون بـالسلاسـل فى الجحيم ، وتُغلّ أيديهم إلى أعناقهم بـالأغلال، فهم يُقادون إلى جهنم والسلاسـل فـى أيديهم ، ولكنهم يُقيَّدون بـالأغلال فـى مستقرهم فـى جهنـم.

والسلاسـل جمـع سلسـلةوهـى حلقـات حديديـة متصـلة ببعضـهـا ، والأغـلال جمع غُـلّ ، وهو الحديـدة التى تجمـع اليدين إلى العنـق لتقييد الحركـة ، فهـى أطواق الحديد التى لها طرف فى كل يـد ليقيدها ، وطرف آخـر مُعلَّق فـى الرقبة ليقلل مسـاحة حركـة اليديـن لمزيـد مـن الإذلال.

وهنـاك الأصفاد ، قـال تعـالى : ﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩)﴾ [إبراهيـم] والأصـفـاد جمع صـفد وهـو القيد الذى يُوضـع فى الرِّجْل وهـو مثـل الخلخـال ، فيُقيِّدون فى الأصـفـاد أى من أرجلهـم ، هنـاك من يُقيَّـد بـالأغـلال أي توضـع أيديهم فى سلاسـل وتُعلَّـق تلك السلاسـل فى رقـابهم أيضـاً .

قيود وسلاسـل وأصـفـاد وأغلال ، وهـم فـى السعير النـار المستعرة الموقدة عليهـم . والسـعير اسـم للنـار المسـعورة التـى تلتهـم كل مـا يُلقـى فيهـا .

ثم يذكر الحق سبحـانـه الصـنف المقابل لهؤلاء الكـافرين وهم المؤمنون بـالله وكتابـه ورسـوله ووصـفهم بالأبـرار وذكـر مـا أعـدَّه لهـم، فقـال:

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ ﴾

والأبـرار يقابلهـم الفُجَّـار ، قـال تعـالى: ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤)﴾ [الانفطـار] ، فكمـا جـاء بمقـابل الأشـقيـاءً لا بد أن يفتـح القلـوب لتنعـم بسـعادة مصـير وجـزاء الذيـن سُعدوا بـالإيمـان ، فجمْـع المتقـابلـين يزيد مـن فرحة المؤمن ، ويزيـد مـن حسـرة الكافـر .

والأبـرار هـم المؤمنـون الصـادقون فـى إيمـانهـم المطيعـون لربهم ، واحدهـم بـارّ وبَـرّ ، وهـم الأنبيـاء والصـالحون ، وهـم الذيـن برُّوا الله

بـأداء فرائضـهم واجتنـاب محارمـه .

ثـواب هؤلاء الأبـرار المتقين أنهـم يشربون شراباً فـى كؤوس ﴿ كَانَ مِزَاجُهَـا كَافُورًا (٥)﴾ [الإنسـان] وهو اسـم عين فـى الجنة ، فهـذا الشراب فى الكأس يمازجـه ماء هـذه العين التـى تسمى كافوراً ، وليس فى الجنة مـن الدنيـا إلا الأسـماء . وحتـى لـو كان كافـوراً حقيقياً فليس ككافور الدنيـا ، بـل هـو كافـور لذيـذ لا ككافـور الدنيـا .

والكأس إنـاء بما فيه من الشراب ، لذلك ذكر الكأس وذكر مزاجها ولم يذكر ما فيها من شراب ، فقال تعالى : ﴿ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥)﴾ [الإنسـان] وسـيأتى فيمـا بعـد قولـه تعـالى : ﴿وَيُسْقَـوْنَ فِيهَا كَأْسًـا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيـلًا (١٧)﴾ [الإنسـان] وكل كـأس ذُكر فى القـرآن هى كـأس خمر إنما خمـر لا تستنزف العقـول ولا تغيبهـا ليس فيهـا أضـرار خمـر الدنيـا إنما هي ﴿ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (٤٦)﴾ [الصـافات] وتكون إما بـاردة كالكافور أو لاذعـة فيهـا لذعـة الزنجبيـل .

ولا يُطلـق علـى الكأس كأسـاً إلا وهـى مملـوءة بالشراب ، وإلا فهى زجاجـة أو كـوب أو إبريـق ، ثـم يقـول الحـق سـبحانـه :

﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (٦) ﴾

البعض قـال : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا (٦)﴾ [الإنسـان] أى يشرب منها عباد الله إذ لا يُشرب بـالعـين وإنما يُشرب منها . فعين الكافـور يشرب بها أولياء الله تعـالى فـى الجنـة .

وفـى سـورة المطففـين يقـول تعـالى : ﴿عَيْنًا يَشْـرَبُ بِهَـا الْمُقَرَّبُونَ (٢٨)﴾ [المطففين] يقولـون أى منهـا ، ولكنّ فى هـذه الكلمة (بهـا) سراً فقد كان يسـع الحـق سبحانه أنْ يقـول : يشـرب منهـا .

ونجـد أن الحـق سبحانه يقول فى آية سـابقة ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ (٥)﴾ [الإنسـان]

أمـا عند ذكـر العين فقـال: ﴿يَشْرَبُ بِهَـا (٦)﴾ [الإنسـان] أى يشـرب الخمر ممزوجـةً بالكافـور رائحتـه أو مادتـه ، والبعض اعتبر البـاء زائدة فى (بهـا) فقـال: يشـربهـا .

والحـق سبحانه عبَّر عمـن يشرب من هذه العين التـى مزاجها كافوراً أنهـم ﴿عِبَـادُ اللهِ(٦)﴾[الإنسـان]فمَـنْ هـم عبـاد الله ؟

عبـاد الله هـم مَـنْ تخلـوا عـن اختياراتهم إلى مـرادات الله سبحـانه ، فهـم الذيـن يتنازلـون عـن منطقـة الاختيـار لمـراد الله فـى التكليـف .

لذلـك يفرِّق الله سـبحانه بـين العباد والعبيد ، فيقول سـبحانه: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَـى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥)﴾ [الفرقان]

هكـذا نـرى أن الله أعطـى أوصـاف المؤمنـين وسـماهم عبـاداً، لكـن عندمـا يتحـدث عـن البشر جميعـاً يقول عبيد ، وهنـاك فـرق بين «عبيد» و«عبـاد» ، فالعبيـد هـم المرغمـون علـى القهـر فـى أى لـون مـن ألوان حياتهـم ولايسـتطيعون أنْ يدخلـوا اختيارهـم فيمـا يُجريـه الله عليهـم قهـراً.

أمـا العبـاد فهـم الذين يأتـون إلى ما فيـه اختيار لهـم ويقولون : لقد نزعنـا من أنفسـنا صـفة الاختيار هـذه ورضـينا بمـا تأمرنـا وتنهانـا.

إذن فالعبيـد مقهـورون بما يُجريـه عليهم الحق بما يريـد ، والعباد هم الذين يرضـون ويكون اختيارهم وفق ما يحبه الله ويرضـاه ، إنهم أسلموا الوجـه لله فهـم مقهورون بالاختيـار ، أما العبيـد فمقهـورون بالإجبـار .

هؤلاء الذيـن يشربون من عين مزاجها كافور ﴿يُفَجِّرُونَهَـا تَفْجِيرًا (٦)﴾[الإنسـان] جملـة ﴿يُفَجِّرُونَهَا (٦)﴾ [الإنسـان] حـال تعـبر عن ما يفعله الشـاربون فى هـذه العـين ، فإنهم يفجرونها تفجيراً سـهلاً حيث شـاؤوا من منازلهم لا

يصعب عليهم فهم يُجرونها حيث شاؤوا إجراءً سهلاً لا يمتنع عليهم، وفي بعض الآثار[1] أن هذه العين في دار رسول الله ﷺ تفجَّر إلى دور الأنبياء.

ويصف الحق سبحانه عباد الله فيقول:

﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝٧ ﴾

النذر هو أنْ تُلزم نفسك بشيء من جنس ما شرع الله فوق ما أوجب الله، فإذا نذرت أن تصلي لله كل ليلة عدداً من الركعات فهذا نذر من جنس ما شرع الله، لأن الله قد شرع الصلاة وفرضها خمسة فروض، فإنْ نذرت فوق ما فرضه الله فهذا هو النذر.

ويقال في الذي ينذر شيئاً من جنس ما شرع الله فوق ما فرضه الله، إن هذا دليل على أن العبادة قد حلَّتْ له فأحبها وعشقها، ودليل على أنه قارب أنْ يعرف قدْر ربه، وأن ربه يستحق منه فوق ما افترضه عليه.

فكأنَّ الله في افتراضه كان رحيماً بنا لأنه لو فرض ما يستحقه منا لما استطاع واحد أنْ يفي بحقِّ الله، إذن فعندما تنذر أيها العبد المؤمن نذراً فإنك تلزم نفسك بشيء من جنس ما شرع الله لك فوق فوق ما فرض الله عليك.

وأنت مخيَّر أنْ تقبل على نذر ما أو لا تقبل، لكن إنْ نطقت بنذر فقد لزم، لماذا؟ لأنك ألزمتَ نفسك به.

وأهل القرب من الله يقولون لمن يُخلّ بالنذر بعد أن نذر: هل جربْتَ ربك فلم تجده أهلاً لاستمرار الود، وليس فينا مَنْ يجرؤ على ذلك لأن الله أهلٌ لعميق الود، ولهذا فمن الأفضل أنْ يتريث الإنسان قبل أنْ ينذر شيئاً.

(١) أورده الثعلبي في تفسيره (١٠/١٠١) وابن عطية الأندلسي في (المحرر الوجيز من تفسير الكتاب العزيز (٥/٤١٠) الثعلبي ذكره من قول قتادة بن مهران.

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ (٧)﴾ [الإنسان] أى يتمون وينفذون نذورهم التى نذروها وألزموا أنفسهم بها، فلا بد أنْ يُوفوا بما أوجبوه على أنفسهم.

وصيغة النذر أنْ يقول: لله علىَّ كذا وكذا من صدقة أو صلاة أو صوم أو حج أو عمرة، يعلِّق ذلك بأمر يلتمسه من الله، وذلك بأن يقول: إن شفى الله مريضى أو قدم غائبى كان لله علىَّ كذا.

ولكن لو نذر فى معصية فلا يجب الوفاء به، وقد روت عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ نذر أنْ يطيع الله فليفِ بنذره، ومَنْ نذر أنْ يعصى الله فلا يفِ به».(١)

ولوجوب الوفاء بالنذر لا بد أنْ يقضيه الرجل عن أبيه أو أمه المتوفاة، فعن ابن عباس قال: «استفتى سعد بن عبادة رسول الله ﷺ فى نذر على أمه فتوفيت قبل أنْ تقضيه فأمره أنْ يقضيه عنها».(٢) فعباد الله ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ (٧)﴾، ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧)﴾ [الإنسان]

واليوم المقصود هنا هو اليوم الآخر، والمؤمنون عباد الله يخافون هذا اليوم لعظيم يقينهم أنه آتٍ لا ريب فيه، والحق سبحانه كما ذكر خوف وإشفاق الذين كفروا من اليوم الآخر ذكر أيضاً خوف الذين آمنوا.

الفارق أن الذين آمنوا يشفقون من يوم القيامة وهم فى الدنيا يعملون الصالحات يخافون أنْ لا تقبل أعمالهم ولا توبتهم من ذنوبهم، أما الذين كفروا فاليوم الآخر ليس فى بالهم، ولذلك عندما يعاينون العذاب وأنه حَقٌّ يصيبهم الهلع والخوف والرعب.

يقول تعالى: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ (٢٢)﴾ [الشورى]

وهذا عندما عاينوا العذاب بأعينهم، أما المؤمنون فهم مشفقون فى

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٤٠٧٥) من حديث عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصى الله عز وجل فلا يعصه». وكذا أخرجه ابن ماجه فى سننه (٢١٢٦)

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٣٥٠٦) وأبو عوانة فى مستخرجه (٥٨٣١) والطبرانى فى المعجم الكبير (٥٣٧٥,٥٣٧٢) وأبو يعلى فى مسنده (٢٣٨٣) وأخرجه البخارى فى صحيحه (٦٩٥٩) وكذا مسلم فى صحيحه(١٦٣٨) من حديث عائشة.

الدنيا ، قال الحق سبحانه : ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦)﴾ [الطور] إنهم يخافون يوماً ﴿كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧)﴾ [الإنسان] إنه شرٌّ فاشٍ منتشر كالحريق حين ينتشر وكضوء النهار عندما يستطير وينتشر ضوؤه فى جو السماء .

وقد قال رسول الله ﷺ : «لا يغرنكم من سحوركم أذان بلال ولا بياض الأفق المستطيل هكذا حتى يستطير هكذا» .[1] فالفرق بين الفجر الصادق والفجر الكاذب أن الفجر الكاذب يبدو فى الأفق فيرتفع مستطيلاً ثم يضمحل ويذهب ثم يبدو الفجر الصادق بعده منتشراً فى الأفق مستطيراً .

وهو يوم يستطير خوفه فى أهل السماوات والأرض ، واستطار فى السماوات فانشقت وتناثرت كواكبه وفزعت الملائكة وكوِّرتْ الشمس والقمر وفى الأرض فتشققتْ الجبال وغارت المياه وكسر كل شيء على الأرض من جبل وبناء وشجر .

فاستطار شرٌّ ذلك اليوم حتى ملأ السماوات والأرض ، وهم لم يكونوا يوفون بالنذر ويؤدونه وافياً كاملاً غير ناقص بل كانوا :

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾

فعباد الله بجانب الوفاء بالنذر على أتم وجه وأكمله يطعمون الطعام ﴿عَلَىٰ حُبِّهِ (٨)﴾ [الإنسان] رغم حب الإنسان لطعامه وماله ورزقه الذى اكتسبه بعرقه وكَدِّه ، ولكنه ينفقه ابتغاءَ مرضاة الله .

وقد وصف الحق سبحانه البر ، فقال : ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٠١٥٨) من حديث سمرة بن جندب أن رسول الله ﷺ قال : «لا يمنعكم من سحوركم أذان بلال ولا الفجر المستطيل ولكن الفجر المستطير فى الأفق» وأخرجه أبو عوانة فى مستخرجه (١١٠٧) باللفظ الذى أورده الشيخ .

وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِى الرِّقَابِ ..(١٧٧)﴾ [البقرة]

فليس البر أنْ تختلفوا حول تغيير القبلة ولا تجعلوا مسألة التوجه إلى الكعبة أو إلى بيت المقدس أو المشرق هو المشكلة ، ولكن البر هو الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين .

وهذه أمور عقدية ، ثم يُتبع الحق سبحانه هذا بأمر عملي يمسُّ حياة الناس والمجتمع الذى يعيشون فيه ، وهو ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ (١٧٧)﴾ [البقرة]

وإعطاء المال هو الإنفاق بصور شتى قد يكون صدقة أو زكاة أو قرضاً حسناً ، وكلمة (على حبه) يمكن أنْ نفهمها على أكثر من معنى.

يمكننا أن نفهمها على أنه يعطى المال وهو يحب المال ، ويحتمل أن نفهمها على أنه يؤتى المال لأنه يحب أن يعطى مما يحبه من المال عملاً بقول الله تعالى: ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ (٩٢)﴾ [آل عمران]

ويمكن أن تصعِّد المعنى فيصير : وآتى المال على حب الإيتاء أى يحب الإعطاء وترتاح نفسه له ، ويقول الحق سبحانه أيضاً : ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ (٩٢)﴾ [آل عمران]

وهم يُطعمون المسكين واليتيم والأسير ، ثلاثة أصناف نصَّ عليهم الحق سبحانه اهتماماً بهم ، لأنهم الأضعف والأكثر احتياجاً للإطعام والمساعدة .

أما المسكين فليس هو الذى لا يملك شيئاً على الإطلاق ليقيم به حياته ، فالحق سبحانه يقول : ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِى الْبَحْرِ (٧٩)﴾ [الكهف] فعرفنا أن المسكين قد يملك ولكنه لا يملك ما يكفيه.

وقد شاء الحق سبحانه أنْ يجعل للفقير نصيباً من البر وللمسكين أيضاً نصيباً كالآخر ، فكلٌّ من المسكين والفقير يستحق من مال الله .

فكلمة (مسكيناً) هنا تشمل الفقير أيضاً والمحتاج أياً كان ، ومنهم

عابـر السـبيل أيضـاً فإنه غريـب لا يملك ما يقوته ويقوم بـه ، فقد يكون ابـن السـبيل ذا مال فـى مكانه إلا أن الطريـق قد قطعه عـن ماله وباعد بينـه وبـين مـا يملـك ،أو يكـون ذا مــال وسُرق منـه مالــه .

فهـو بمثابـة المسـكين والفقـير ويسـتحق مـا يسـتحقانه مـن الإطعام وغـيره، وإيـاك أنْ تقـول : مـا دخلـى أنـا بـالمسـكين ؟ عليـك أن تعلم أن المسكنة عرض ، والعرض من الممكـن أنْ يلحق بك أنت ، فـلا تقدِّر أنك مُعـطٍ دائمـاً، ولكن قدِّر أنك ربما حدث لـك ما يجعلك تأخـذ لا أنْ تعطـي.

والإنسـان الضـعيف ضـعفاً طبيعيـاً وليس ضـعف التوسـل أو الكسـل أو الاحـتراف بل ضـعف عدم القدرة علـى العمل هو مسئولية المؤمنين ، فسبحانه وتعالى يجعل القوى مسئولاً أنْ يسـاعدك وأنت ضـعيف .

وهـم أيضـاً يطعمـون اليتيم ، واليتيم الـذى فقد أباه ، فقد مَنْ يعوله ومَـنْ يسـعى لأجله ويدافع عنـه ، واليتيـم يكون منكسراً لأنـه فقد والده فأصـبح لا نصـير له .

فـإذا رأيتَ فى المجتمع الإسـلامى أن كل يتيـم يرعاه رعاية الأب كل رجـال المجتمـع ، فذلـك يجعل الأب لا يخشـى أنْ يترك ابنه بعد وفاتـه .

فرعايـة المجتمع لليتيم تضـمن أولاً حمايـة حقه ، لأنه إذا كان يتيماً ولـه مـال فـإن الناس كلهـم يطعمون فـى ماله لأنه لا يقـدر أنْ يحميه ، والثانيـة أن هـذا التكافـل يُذهـب الحقد مـن المجتمع ويجعل كلَّ إنسـان مطمئنـاً علـى أولاده .

واليتيـم لا يكـون لـه وصـى إلا إذا كان عنده مـال ، فيكـون هنـاك وصـىٌّ لإدارة أمـور اليتيـم ، لذلك جاء الحـق بـالأمر بإعطـاء المال على حبـه لليتامـى ولم يقـل : لـذوى اليتامـى .

فربمـا كان هنـاك يتيـم ضـاع لا يتقدم أحـدٌ للوصـاية عليـه ، وليس عنـده ما يستحق الوصـاية ، لذلـك فعلينـا أنْ نؤتـى اليتيـم من مال الله

حتى ندخل فى صفات البر ، أو نعطى للوصى على اليتيم لينفق عليه إنْ كان له وصىٌّ .

والمسألة فى اليتيم ليست مسألة احتياج إلى الاقتيات ولكنه فى حاجة إلى أنْ نعوضه بالتكافل الإيمانى عما فقده من الأب ، وذلك يمنع عنه الحقد على الأطفال الذين لم يمت آباؤهم ، وحين يجد اليتيم أن كل المؤمنين آباء له فيشعر بالتكافل الذى يعوضه حنان الأب ولا يعانى من نظرة الأسى التى ينظر بها إلى أقرانه المتميزين عليه بوجود آبائهم ، وبذلك تخلع منه الحقد .

أطعم اليتيم وأدِّ الأمانة ولا تأكل ماله فى بطنك ، فمَنْ يأكل مال اليتيم فإنما يحشو بطنه ناراً فهو يأكل ما يؤدى به إلى النار .

وهذا قد يحدث عقاباً فى الدنيا ، فيُصاب آكل اليتيم فى بطنه بأمراض تحرق أحشاءه ، ويوم القيامة يرى المؤمنون الذين أكلوا مال اليتيم وعليهم سمات أكل مال اليتيم ، فالدخان يخرج من أفواههم .

والذين يخافون أنْ يموتوا ويتركوا من بعدهم ذرية ضعافاً عليهم بالإحسان إلى اليتيم ، فلو رأى الواحد منا يتيماً يُكرم فى بيئة أبوية إيمانية لما شغل نفسه ولما خاف أنْ يموت ويترك ولداً صغيراً .

بل يقول الإنسان لنفسه : إن المجتمع فيه خير كثير وبذلك يستقبل الإنسان قدر الله بنفس راضية ولا يؤرِّق نفسه . لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٩) ﴾ [النساء]

لأنك إنْ رأيت المجتمع الإيمانى قد رعى أيتام غيرك فستكون على ثقة من أنه يرعى أيتامك إنْ جاء الموت أو لم يأت فلا تشغل نفسك به .

لكن إذا رأى الإنسان يتيماً مضيَّعاً فهو يعضُّ على أسباب الحياة

ويريد أنْ يأتى بالدنيا كلها لولده ، فاعمل لابنك بأن تضع ما تريد أن تدخره له فى يد الله ، فالذى خلق آمنُ من المخلوق .

ثم يذكر الحق سبحانه الأسير ضمن مَنْ يوصى بإطعامهم ، فقال تعالى ﴿وَأَسِيرًا(٨)﴾ [الإنسان]

أنت قيَّدتَ حركة الأسير ، وأسره كان نتيجة حرب وقعت اقتضتْ الالتقاء والالتحام ويكون كل واحد منهم يريد أنْ يقتل عدوه ، فكأنَّ الله أراد أنْ يحمى القوم من شراسة نفوسهم وقت الحرب فقال استأسروهم لا تقتلوهم إلا إذا كنتم مضطرين للقتل ولكن خذوهم أسرى .

وفى هذا مصلحة لكم لأنكم ستأخذون منهم الفدية ، وهذا تشريع من ضمن تشريعات الرحمة لأنه لو لم يكن الأَسْر مباحاً لكان لا بد إذا التقى مقاتلان أن يقتل أحدهما الآخر . لذلك يقال خذه أسيراً إلا إذا كان وجوده خطرا على حياتك .

فمَنْ ينتقد الإسلام فى أمر الأسير عليه أنْ يعلم أنَّ الذى أسرته فى المعركة قد قدرت عليه وتمكنت منه وإنْ شئت قتلته ، فحين يتدخل الشرع ويجعل الأسير ملكاً لك فإنما يحقن دمه أولاً ثم الانتفاع به ثانياً ، إما بالمال حين يدفع أهله فديته ، وإما بأن يخدمك بنفسه .

الله سبحانه جعلك تحقن دمه لا أنْ تذله ، واقرأ قول النبى ﷺ: «إخوانكم خولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمَنْ كان أخوه عنده فليطعمه مما يطعم ، وليُلبسه مما يلبس ، ولا يكلفه ما لا يطيق ، فإنْ كلَّفه فليُعنه».(١)

فأىّ إكرام للأسير بعد هذا ، بعد أنْ حقن دمه أولاً ثم كرَّمه بأنْ جعله أخاً لك ، واحترم آدميته بالمعاملة الطيبة ، ثم فتح له عدة منافذ تؤدى إلى عتقه وحريته ، فإنْ كان للرق فى الإسلام باب واحد،

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٠، ٢٥٤٥) ومسلم (١٦٦١) وكذا أحمد فى مسنده (٢١٤٣٢) والبيهقى فى الآداب (٥٢) .

فللحرية عدة أبواب ، منها العتق فى الكفارات وهى فى تكفير الذنوب التى بين العبد وربه.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ ﴾

لم يقل المطعمون ذلك حينما أطعموا المسكين واليتيم والأسير إنما علم الله من قلوبهم هذا فأثنى به عليهم ، علم إخلاص قلوبهم لله عز وجل ، فمدح ما عليه قلوبهم وحسن توجههم وبما علم من نياتهم ، فذكر ما أتوا به.

وهم أطعموا مَنْ أطعموا ويعلمون أن مَنْ أطعموهم لا يملكون لهم جزاء ولا شكوراً ، فلن يستطيعوا ردَّ ما فعلوه.

وقد قيل إن هذه الآية ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩)﴾ [الإنسان] إنما نزلت فى رجل من الأنصار يقال له أبو الدحداح صام يوماً ، فلما كان وقت الإفطار جاءه مسكين ويتيم وأسير فأطعمهم ثلاثة أرغفة وبقى له ولأهله رغيف واحد.

والإطعام يكون لوجه الله أى رغبةً فى رضا الله ، لذلك نحن نضع الإخلاص أولاً فى كل عمل ، وقد يكون العمل واحداً أمام الناس، هذا يأخذ ثواباً وذلك يأخذ به وزراً وعذاباً ، فالمهم أن يكون العمل خالصاً لله.

قد يقول إنسان : الإخلاص مكانه القلب ، وما دام الإنسان لا يؤذى أحداً ولا يفعل منكراً فليس من الضرورى أنْ يصلى ما دامت النية خالصة نقول : إن المسألة ليست نيات فقط ولكنها أعمال ونيات.

ورسول الله ﷺ يقول «إنما الأعمال بالنيات»(١) فلا بد من عمل بعد النية ، لأن النية تنتفع بها وحدك والعمل يعود على الناس ، فإذا كان

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (١) والبيهقى فى سننه (١٠٣١،١٨١) وابن ماجه فى سننه (٤٢٢٧) من حديث عمر بن الخطاب.

فـي نيتـك أنْ تتصـدق وتصـدقت انتفـع الفقـراء بمالـك .

ولكـن إذا لم يكـن فى نيتك فعـل الخير وفعلته لتحصـل على سـمعة أو لترضـى بشراً انتفع الفقـراء بمالك ، ولن تنتفـع أنت بثواب هذا المـال .

والله سبحانه وتعالى يريد أنْ يقترن عملـك بنية الإخلاص لله والعمل حركة فـى الحيـاة ، والنيـة هى التى تعطـى الثـواب لصـاحبه أو تمنـع عنـه الثـواب .

ومعنى الإخلاص تصـفية أى شيء من الشـوائب التى فيه والشوائب فى العقائـد والأعمال تفسـد الإتقان والإخلاص ، فالإخلاص عمليـة قلبيـة .

والإنسـان مهمـا تحرَّى الإخلاص فـى عملـه وقصـد بـه وجه الله لا يأمـن أنْ يخالطـه شـيء من ريـاء أو سـمعة ، حتى أن المعصـوم محمداً ﷺ ليقـول: «اللهـم إنِّى أسـتغفرك من كل عمل أردت به وجهـك فخالطنى فيـه مـا ليس لـك» .[1]

فالعمل الإيمانى ما كانَ لله خالصاً وعلى قدر الإخلاص يكون الجزاء. ﴿ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩)﴾ [الإنسـان] والمجازاة هـى المكافأة لما أُسـدى إليـه . والشـكر هو الثناء عليه . فـلا نريد منكم مكافـأة فى الدنيا ولا ثوابـاً فـى الآخـرة .

والشـكور مصـدر كالقعود والدخول والخـروج ، فمعنى ﴿ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩)﴾ [الإنسـان] أى لا نطلب منكـم مجـازاة تكافئونا بهـا ، ولا أنْ تشـكرونا عنـد النـاس .

﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠) ﴾

فهـم يُطعمون المسـكين واليتيم والأسـير ابتغاء وجه الله لا لشـيء من

(١) عن ابن عمر قال : كان رسول الله كثيراً ما يقول لنا : معاشر أصحابى ما يمنعكم أن تكفروا ذنوبكم بكلمات يسيرة ؟ قالوا : يارسول الله وما هى ؟ قال : تقولون مقالة أخى الخضر . قلنا : يارسول الله ما كان يقول ؟ قال كان يقول : اللهم إنى أستغفرك لما تبت إليك منه ثم عدت فيه ، وأستغفرك لما أعطيتك من نفسى ثم لم أوف لك به . الحديث وعزاه للديلمى . كنز العمال (٢/ ٧٠١)

مكافأة ولا ثناء وشكر ، بل ابتغاء مرضاة الله وحده ، وخوفاً من يوم عبوس قمطرير.

فوجوههم تعبس وتتجهم من هول ذلك اليوم وشدته فلا تكون منبسطة مسرورة ، فترى وجوههم مسودة . يقول تعالى : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠)﴾ [الزمر] والعبوس شيء يضاف إلى سواد الوجه يقبِّض الإنسان ما بين عينيه، حتى أن ابن عباس قال : يعبس الكافر يومئذ حتى يسيل من بين عينيه مثل القطران.(١)

وقد يكون العبوس صفة لليوم نفسه ، فهو يعبس كالإنسان العبوس فهو يوم متجهم أسود حالك السواد ، فوصف الحق سبحانه اليوم بصفة أهله من الأشقياء . ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (٩)﴾ [الإنسان] نخاف عذاب يوم تعبس فيه الوجوه أشد العبوسة ، من شدة مكاره هذا اليوم وطول بلائه.

أما القمطرير فهو الصعب الشديد أشد ما يكون من الأيام وأطوله فى البلاء ، فهو يوم طويل الشر ، وإذا كان العبوس بالشفتين فإن القمطرير بالجبهة والحاجبين.

﴿ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ ﴾

فالحق سبحانه يقيهم شر ذلك اليوم العبوس القمطرير الذى يخافونه ويخشون منه ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠)﴾ [الإنسان]

فالله يقيهم عبوسه وشدته ويدفع شره عنهم ويحميهم، وقد كانوا يدعون الله أنْ يقيهم عذابَ وشرَّ ذلك اليوم وطول الوقوف والحساب فيه .

---

(١) أورده الطبرى فى تفسيره (٢٣/٥٤٧) والثعلبى فى تفسيره (١٠/٩٧) والقرطبى فى تفسيره (١٩/١٢٥).

وقد كانوا يقولون فى الدنيا ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١)﴾ [آل عمران] لقد طلبوا الوقاية من عذاب النار وصبروا وصدقوا وقنتوا فى العبادة وأنفقوا فى سبيل الله ، فاستحقوا الوقاية منها ومن ﴿شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ (١١)﴾ [الإنسان] و (ذلك) تشير إلى اليوم المذكور آنفاً فى آيتين هنا ، قال تعالى : ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧)﴾ [الإنسان] ثم ذكره مرة أخرى فى قوله تعالى : ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠)﴾ [الإنسان]

ولو تأملنا القرآن نجد أن الحق سبحانه قال ﴿ذَٰلِكَ الْيَوْمِ (١١)﴾ [الإنسان] اليوم مفرد وإذا كان يوماً واحداً فما مقدار ذلك اليوم ؟

يقول تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤)﴾ [المعارج] ، والله جل جلاله هو خالق الزمن ، ولذلك فإنه يستطيع أنْ يخلق يوماً مقداره ساعة ، ويوماً كأيام الدنيا مقداره أربع وعشرون ساعة ، ويوماً مقداره ألف سنة ، ويوماً مقداره خمسون ألف سنة ، ويوماً مقداره مليون سنة ، فذلك خاضع لمشيئة الله .

فالأزمنة متعددة وتختلف من قياس إلى آخر ، ومن كوكب إلى آخر. ففى آية ذكر سبحانه أنه كألف سنة ، فقال : ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٥)﴾ [السجدة] وفى آية أخرى قال : ﴿تَعْرُجُ (١) الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤)﴾ [المعارج] فاليوم عند الله تعالى يختلف عن يومنا ، فلله تعالى تقدير لليوم فى الدنيا ولليوم فى الآخرة .

فهو يوم بحساب البشر ، يوم طويل ثقيل شديد الوطأة ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ (١١)﴾ [الإنسان] ، وفوق وقايتهم من شر يوم عبوس قمطرير عصيب ، فإنه سبحانه : ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١)﴾ [الإنسان]

---

(١) تعرج : تصعد . والمعارج المصاعد والدَّرج ، والمعرج : الطريق الذى تصعد فيه الملائكة ، والمعراج : شبه سُلم أو درجة تعرج عليه الأرواح إذا قبضت . [لسان العرب مادة عرج] .

اللقاء رؤية تقتضى مصادفة ومعاينة وتُستعار لإصابة الخير والشر، فهؤلاء ﴿وَلَقَّاهُمْ (١١)﴾ [الإنسان] أى التقاهم ﴿نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١)﴾ [الإنسان] نضرة فى الوجوه وسروراً فى القلوب.

فأعطاهم بدل عبوس الفجار وحزنهم النضرة والسرور، النضرة للوجوه كما قال تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢)﴾ [القيامة] وفى مقابلها ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤)﴾ [القيامة]

فما فى داخل النفس إنما ينضح على قالب الإنسان وتظهر ملامحه، فقد يكون الأسود مضيء الوجه بالبشر والإشراق والتجلى بالجاذبية الآسرة، وقد يكون الإنسان أبيض الوجه لكنه مظلم الروح.

أما السرور فهو انشراح فى القلب وتصبح الملكات راضية والنفس مطمئنة، والانفعالات يظهر أثرها على بشرة الوجوه، فإن كان الانفعال حزناً فالوجه يظهر عليه الحزن بالانقباض، وإنْ كان الانفعال بالسرور فالوجه يظهر عليه السرور بالانبساط وتعكس البشرة انفعالات النفس من سرور وبشاشة وإشراق أو عبوس وتجهُّم.

﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾

المجازاة والمكافأة من الله، ففاعل الفعل جزى هو لفظ الجلالة، وتقديره: وجزاهم الله بصبرهم الجنة والحرير.

فالله جزاهم بما صبروا على طاعة الله واجتناب معصيته، فأثابهم وكافأهم جنة يسكنونها، وحريراً يلبسونه ويفترشونه.

وقد سُئل رسول الله ﷺ عن الصبر فقال: «الصبر أربعة: أولها الصبر عند الصدمة الأولى، والصبر على أداء الفرائض، والصبر على

اجتناب محارم الله ، والصبر على المصائب » . [١]

وقد جزاهم الله جنة بستاناً فيه من كل ما تشتهى أنفسهم من المأكل والمشرب مما لم تره عين ولم تسمع عنه أذن .

وقد حدَّثنا الحق سبحانه عن شراب من أشربة أهل الجنة ،فقال ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥)﴾ [الإنسان] وسيذكر الله قريباً مزاجاً آخر من مزاجات أشربة أهل الجنة فى الجنة ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (١٧)﴾ [الإنسان]

ولكن الحق سبحانه أتى بلباس من ألبسة أهل الجنة وخصَّ منها هنا الحرير ، فقال تعالى : ﴿ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢)﴾ [الإنسان]

والحق سبحانه إنما خصَّ الحرير هنا لأنه سبحانه تحدَّث عن صبرهم ومنه الصبر عن المحرمات ، ومنها الحرير الذى حرمه الشرع على رجال أمة محمد.

وقد قال رسول الله : مَنْ يلبس الحرير فى الدنيا فلا يُكساه فى الآخرة.[٢]

فالصبر على عدم **لبس** الحرير فى الدنيا كان ثوابه وجزاؤه أنْ يلبسه من صبر فى الجنة ، والحرير ولبسه دليل التنعم والرغد والرفاهية ، فالحرير **أنعم الأقمشة ملمساً**.

وفى سورة الحج يقول تعالى : ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣)﴾ [الحج] فهم لم يلبسوا الحرير فى الدنيا **فليبسوه** فى الآخرة لأنهم التزموا حدود الله والتزموا قول الرسول ﷺ : لا تلبسوا الحرير ولا تأكلوا فى آنية الذهب والفضة ، فإنها لهم فى الدنيا ولنا فى الآخرة « .[٣] فكانوا لا يلبسون

---

(١) أورده الثعلبى فى تفسيره (٩٧/١٠) قال : روى سعيد بن المسيب عن عمر قال : سئل رسول الله (الحديث) وكذا أورده القرطبى فى تفسيره (١٣٦/١٩) وكذا الزحيلى فى التفسير المنير (٢٩٣/٢٩) كلهم دون سند .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١٢٣) من حديث عمر بن الخطاب أنه قال فى خطبته أنه سمع من رسول الله ﷺ : «من يلبس الحرير فى الدنيا فلا يُكساه فى الآخرة ».

(٣) أخرجه أبو عوانة فى مستخرجه (٨٤٤٦) والبخارى فى صحيحه (٥٤٢٦) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٠٦٧/٥- ٢٠٦٩/١١) من حديث حذيفة بن اليمان .

الحرير، فكان جزاؤهم ﴿بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢)﴾ [الإنسان]

﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ١٣﴾

﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ (١٣)﴾ [الإنسان] الاتكاء أن يجلس الإنسان على الجنب الذى يريحه، **والأرائك هى السُّرر** التى لها حلية مثل الناموسية مثلاً.

ولكى نفهم معنى الاتكاء ودلالته على الترفه والتنعم تجد الإنسان إذا وقف أو جلس طويلاً ولم تجد له متكأ تراه قلقاً غير مستقر، ومن هنا كان المتكأ من مظاهر النعمة والترف فى الدنيا وفى الآخرة، كما قال تعالى فى شأن امرأة العزيز: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً (٣١)﴾ [يوسف]

فالاتكاء وسيلة من وسائل الراحة.

وقد ذكر الحق سبحانه الأرائك فى موقف آخر لأهل الجنة فى الجنة، فقال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾ [المطففين] **فسيجلس** المؤمنون على الأرائك فى الجنة متكئين ينظرون ويرقبون ماذا سيكون مصير الكفار، ويتساءلون: ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾ [المطففين]

ويقول تعالى فى آية أخرى عن أهل الجنة وانشغالهم: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِى ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (٥٨)﴾ [يس]

إنه النعيم الذى وعد به ربُّ العزة المتقين ﴿بِمَا صَبَرُوا (١٢)﴾ [الإنسان]

والأرائك جمع أريكة وهى السرير فى الحجال وهو بيت كالقبة يُستر بالثياب مُكللة بالدر والياقوت.

فجزاؤهم جنة فيها طعامهم وشرابهم ولباسهم فيها الحرير من أنعم الثياب فى قبة عالية عليها الستور متكئين على أسرَّة.

وليس هذا فحسب بل ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (١٣)﴾ [الإنسان] فقد هيَّأ لهم الله المقام فى هذا الرغد وهذا النعيم فلا يصيبهم فيه حر ولا برد ، فلا يرون فيها شمساً أى شمساً محرقة يؤذيهم حرُّها أو تصيبهم بالعرق .

فلا يؤذيهم حرُّ شمس ولا برد زمهرير ، فيضطرون أن يقوموا من على أسرَّتهم ليدخلوا أخبيتهم ، لا إن جلساتهم متكئين على الأرائك لا يزعجهم فيها شيء ، ومن يتأمل هذه الآية يجد شيئاً عجيباً ، هل معنى قوله تعالى ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا(١٣)﴾ [الإنسان] أنه لا شمس أصلاً فى الجنة ، أم أن هناك شمساً لكنها ليست حارة حرارة تؤذى مَنْ يتعرض لها .

بعض العلماء قال: الجنة ضياء من غير وجود شمس أو قمر ، ولهذا فسروا قوله تعالى ﴿زَمْهَرِيرًا(١٣)﴾ [الإنسان] أى قمراً ، وبهذا فسَّره الزمخشري.

والآية تحتمل هذا أى لا يرون فيها شمساً حارة محرقة ، أولا يرون فيها شمساً من الأساس لأن الجنة مضيئة بذاتها وبهذا لا حاجة لقمر أيضاً ، فالقمر كانت مهمته التى نعرفها فى الدنيا أنه يضيء .

ولو وضعنا مع هذه آية أخرى ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا(٢٤)﴾ [الفرقان] ولنا أنْ نسأل : أفى الجنة قيلولةٌ وليس فيها حَرٌّ ولا برد ولا زمهرير ؟

فالمقيل أى وقت القيلولة وهو فى الدنيا عند شدة الحر ، كيف وليس فى الجنة حر . قلنا : إن القيلولة تعنى محلّ فراغ الإنسان لخاصة نفسه ، ألا ترى أن الحق حينما ذكر أوقات الاستئذان جعل منها هذا الوقت ، فقال سبحانه : ﴿ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ (٥٨)﴾ [النور]

فأمر الصغار أن يستأذنوا علينا فى هذا الوقت لأنها من أوقات العورة ، ولأنها من أوقات الخلود إلى الراحة النفسية ، فى مكان

خاص ووضع خاص وتحرُّر من الملابس والرسميات.

ولأن الجنة ليس فيها شمس ولا زمهرير، لذلك كان ظلها ممدوداً دانياً عليهم، قال تعالى:

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾

جزاهم الله بما صبروا وأثابهم جنة دانية ظلالها عليهم، لا يجدون حَرَّ شمس ولا زمهرير برد، قد دنت أفرع شجرها منهم حتى أن الظل يغطيهم، وهذا دليل أن هناك شمساً ولكن ليس لها تأثير إلا فى الإضاءة فقط، أما حرُّها فقد أذهبه الله فلا يحس مَنْ فى الجنة بحرٍّ.

فأصل الظل الستر من الشمس، والحق سبحانه يقول ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا (٥٧)﴾ [النساء] فهو ظل لا يدخله الحر ولا السمائم أى الرياح الحارة الذى نقول عنه (الصهد).

فمعنى أن الظل ظليل أنه يُظل من الحر والريح معاً، وهذا معناه أن شجر الجنة أغصان متراكبة فوق بعضها، لا يمر منها حرارة شمس أو صهد ريح.

ومَنْ يتأمل هذه الآية يدرك معنى قوله فى الآية السابقة ﴿لَا يَرَوْنَ (١٣)﴾ [الإنسان] لأن هذه الكلمة جعلت بعض العلماء يقول أنه لاشمس ولاقمر فى الجنة، لأن أهل الجنة ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (١٣)﴾ [الإنسان]

والرؤية هنا بصرية إذن فهى غير موجودة، ولكن مَنْ يضيف إليها الآية التى بعدها ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا (١٤)﴾ [الإنسان] ويضيف إليها قوله تعالى ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا (٥٧)﴾ [النساء] يدرك أنهم وهم فى هذا الظل الظليل من أغصان وأوراق الشجر لايرون الشمس ولا تأثيرها فهى مستورة عنهم بالظل الوارف فكأنها غير موجودة.

فالظل الظليل لا يترك فُرْجة ولا خَللاً لنفاذ الهواء الحار ولا البارد

إلـى مَـنْ يجلس فيـه ، وليس الأمـر يتعلق بظل هـذه الأشـجار فقط ، بل هـى أيضـاً أشـجار مثمـرة تعطى ثمـاراً لا تُحـوج مَـنْ يجلس متكئاً أن يتكلـف أىَّ مشـقة فـى الحصـول علـى ثمـار.

لذلـك قـال تعالـى: ﴿وَذُلِّلَـتْ قُطُوفُهَـا تَذْلِيـلًا (١٤)﴾ [الإنسـان] ، فالحـق سـبحانه يريـد إراحـةَ عبده المؤمـن الـذى ثبت وصـبر علـى إيمانه فى الدنيـا رغم الصـعاب ورغم المغريات لارتكاب المعاصـى ، ولكنه صـبر على طاعة الله وصـبر عن معصـية الله .

فأثابـه الله ثوابـاً مضـاعفاً ، فمـع كل مـا ذكرتـه الآيـات مـن أوجه النعيـم يذكـر الحق سـبحانه نعيماً آخر يُقـدِّره مَنْ يتأمله حـقَّ التأمـل .

فالحـق سـبحانه يريـد للثمـر أنْ تتدانـى مـن المؤمـن حتـى لا يتعب، فيقـول تعالـى:﴿قُطُوفُهَـا دَانِيَـةٌ (٢٣)﴾ [الحاقـة] ويقول هنـا ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيـلًا(١٤)﴾[الإنسـان]أى ذُليـت عناقيدهـا .

فالفاكهـة تنزل إلى المـكان الذى يوجد فيه المؤمن وإن وقف المؤمن لطال بيده أنْ يقطف الثمار ، وإن اضـطجع لاسـتطاع أن ينال أيضـاً من الثمـار لأنهـا تتدانـى لـه ، وإنْ نـام المؤمـن لتدانـى قطـاف الثمار إلى مكانـه . وبذلـك يسـتطيع أنْ يـأكل منها فى أى وقـت وعلـى أى وضـع .

والإدنـاء المذكور فى قوله تعالـى :﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا (١٤)﴾ [الإنسان] هو تقريب شـيء من شـيء ، ومن ذلك قوله تعالى فى وصـف ثمار الجنة ﴿قُطُوفُهَـا دَانِيَـةٌ(٢٣)﴾[الحاقـة]أى قريبـة التنـاول سـهلة الجنـى .

ولكـن الحـق سـبحانه هنـا ذكـر الإدنـاء خاصـاً بالظـلال ، والتذليل للقطـوف والثمـار وكأنهـا مُسـخَّرة مُذلَّلة تقـول للمؤمـن اقطفنى وكأنه يعيش بيـن الثمار وقتما شـاء يجدها بين يديـه ، ناهيك عن روائح هذه الثمـار وهـى روائـح فـى الجنـة وليس فـى الدنيـا .

وهنـاك معنـى آخـر نستطيع أنْ نلمحـه فى الآية وهـو قولـه ﴿وَذُلِّلَتْ (١٤)﴾

[الإنسان] وهـى مـن الـذل كأنَّ الثمـار تتدانـى وتتدلى علـى المؤمنيـن فى ذل وكأنهـا تنتظـر اللحظـة التـى يمـدُّ فيهـا المؤمـن يـده ليقطفهـا.

فـالله أمرها وذلَّلها وسـخَّرها لعبـده المؤمن وكأنه سـبحانه قال لها: أنـتِ لعبـدى فظلت تتدلى فـى ذل منتظرة أنْ يمد مَنْ آمن بـالله وجاهد فى سـبيله يـده ليقطفهـا ، فهى تشـتاق إليه كما تشـتاق إليـه الجنة نفسـها .

ثـم ينقلنـا الحـق سـبحانه إلـى نعيـم آخـر ، فيقـول :

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾﴾

تلـك متعـة أخرى ونعيم آخـر ، فلن يُترك الإنسـان المؤمـن هكذا ، بل سـيطوف عليه ولدان مخلدون بآنية من فضـة وأكواب فيها من أصـناف الشـراب مـا تلـذ بـه الأعيـن قبـل أنْ تلتـذ بـه ألسـنتهم وأفواههـم .

فالآنيـة التـى فيهـا الشـراب كيـزان وأكواب بـدون عُـرى ، فليس لها يـد تمسـك به لأنك لـن تحتـاج هذه العُرَى ، فالإنسـان فـى الدنيا يحتاج العـرى فـى الأكـواب ليتجنـب حـرارة الشـراب السـاخن .

أمـا فـى الجنة فلن تجـد مـايكدرك أو يزعجك أو تحتـاج للاحتياط له، فكانـت كيزانـاً وأكوابـاً دون عـرى .

والغريـب أنها تجمع بين أنها من فضـة وأنها صـافية كالزجاج ترى الشـراب فيـه وهو بعيد عنك ، فـإذا كانت الأكواب فـى الدنيا من قوارير أى مـن زجـاج يُصـنع مـن الرمل ، فـإن أكواب وقوايـر الجنة من فضـة ولكنهـا فى صـفاء الزجاج . فلا تخشَ أن ينكسـر أو يصـيبك منه ضـرر.

لقـد اجتمع لهـذه الآنية والأكواب صـفاء القواريـر وشـفوفها ورقتها مـع أنهـا مـن فضـة ، وهـل هنـاك فـرق بيـن الآنيـة والأكـواب ؟

نقـول : نعـم فـالآنية هـى الأباريق التى يكون فيها الشـراب ثم يُصـب

منهـا فـى الأكـواب ، لذلك قـال ﴿بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ (١٥)﴾ [الإنسـان]، ففرَّق بين الصـنفين .

ولكـن هـل معنـى هـذا أن الآنية من فضـة غير شـفافة ، أمـا الأكواب فهـى فقـط التى كانت قوارير أى مثل القوارير فى صـفائها وشـفافيتها، فنـرى الشـراب مـن وراء جـدار الكـوب .؟

الأمـر يحتمـل هـذا ، لذلك أعربـوا جملة ﴿كَانَتْ قَوَارِيرَ (١٥)﴾ [الإنسـان] فـى محـل جر نعت لأكـواب، فالأكواب فقط هـى التى تشـبه القوارير فى شـفافيتها رغـم أنهـا مـن الفضـة.

ولـو تأملنا هـذا لوجدنا فيه معنـى جميلاً ، فعندمـا ترى الإبريق غير شـفاف تكـون مشـتاقاً لمعرفـة مـا فيـه ، فإذا بـه عندما يُصب منه فى الكوب الشـفاف تسـعد أكثر .

وحتـى فـى بنـاء الآية تجد تشـويقاً ، فـالآيـة الأولى تنتهـى عند قوله تعالـى ﴿كَانَتْ قَوَارِيرَ (١٥)﴾ [الإنسـان] ولكـن الله لا يتركك هكـذا بل يحدد فيقـول ﴿قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ (١٦)﴾ [الإنسـان] فتـزداد عجباً (قواريـر) (من فضـة) زجـاج مـن فضـة وليس مـن الرمـل !!

يزيـدك الله عجبـاً أنهـم ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦)﴾ [الإنسـان] فمَنْ صَبَّ لك الشـراب فـى الكـوب الخاص بك صـبَّ لـك على قـدر احتياجك بالضـبط بمـا يرويـك لا نقص بحيث تحتـاج إلى أكثر ، ولا زيـادة بحيث تحتـار أين تذهـب بمـا تبقى فـى الكوب . كيف عرف مَنْ صَبَّ لك قدر احتياجـك؟!

ولكـن لمـاذا قال ﴿قَدَّرُوهَا (١٦)﴾ [الإنسـان] فهل هم قـدَّروا الأكواب أم قـدَّروا الشـراب الذى فى الأكواب ؟ لو كـانت الأولى فهـذا معناه كل مُنعَّم لـه كـوب أو أكـواب خاصـة بـه قُـدِّرت علـى قـدر ريِّـه.

وإنْ كانـت الثانية فالأمر أعجب لأن الشـراب يُوضـع فـى الكوب على قدر رِىِّ الإنسـان وحاجته ، فكأن من يصـب الشراب عنده معرفة ودراية

أو شيء من هذا بقدر رِيِّ كل شخص .

وصدق رسول الله الذى نقل لنا عن رب العزة الحديث القدسى : «أعددتُ لعبادى الصالحين ما لا عينٌ رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر» .(١)

ولكن ماذا فى هذه الكؤوس والأكواب والآنية ؟ يذكره الحق سبحانه فى الآية بعدها :

﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۝١٧ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ۝١٨ ﴾

نلاحظ أن الحق سبحانه مازال يستخدم الفعل المبنى للمجهول ، فقال : ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (١٤)﴾ [الإنسان] وكان من الممكن أنْ يقول الحق : وذللنا لهم قطوفها تذليلاً . وقال : ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ (١٥)﴾ [الإنسان] وهنا يقول : ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا (١٧)﴾ [الإنسان] وكان من الممكن أنْ يقول الحق : ونسقيهم فيها كأساً : بالبناء للمعلوم .

لكن الحق سبحانه أراد أنْ يقول للإنسان الذى سُميت به هذه أنه إذا كنت قد قاسيتَ فى الدنيا وصبرت على مقاساتها ومعاناتها ، وكانت الدنيا لك متعبة تحاربك لأنك صبرت على إيمانك وطاعتك لله .

فإن أمر الجنة أمرٌ آخر قد أعددتها لتخدمك وسخرتها لك تسخيراً تفعل لك كل ما تريده دون أنْ تطلبه ، فلا تحزن ولا تهتم لما تلاقيه فى الدنيا ، فالعاقبة للمتقين .

الله يخاطب الإنسان ، يخاطب ما يرغب فيه ويخاطب آماله ، إنْ كنت تريد حياة أبدية منعَّمة فما عليك إلا أنْ تؤمن بالله وتطيعه وتصبر على طاعته وتصبر عن معصيته ، فسيجزيك الله ثواب هذا الصبر حياة تطاوعك فى كل شيء .

---

(١) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٤٤) وكذا مسلم فى صحيحه(٢/٢٨٢٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه فى الحديث القدسى .

وهنا يقول تعالى : ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا (١٧)﴾ [الإنسان] فهم يُسقون ، لا يُعدون ما يريدون بأنفسهم بل يُعد لهم ويُسقوْنَ إياه دون تدخُل منهم، وليس مهماً هنا مَنْ يسقيهم، بل المهم هنا ما يشربونه .

لذلك بنى الحق سبحانه الفعل للمجهول ، فهم يُسقون ﴿كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (١٧)﴾ [الإنسان]

وأى كأس فى القرآن المقصود بها كأس خمر ولكنها خمر ليست كخمر الدنيا التى تذهب بالعقول ، وتجعل الإنسان لايدرى ما يفعل .

والخمر فى الآخرة تمزج بأشياء أخرى وهنا مُزجت بالزنجبيل ، وفى آية أخرى هنا كان مزاجها كافوراً ، قال تعالى : ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥)﴾ [الإنسان]

فالطعوم مختلفة والنكهات متعددة حتى لو اتحدَّ الشراب ، ومعنى ﴿مِزَاجُهَا (١٧)﴾ [الإنسان] أى أنها مختلطة مشوبة بالزنجبيل بشيء قليل منه ، لأن الإنسان يعرف الزنجبيل فى الدنيا بلذوعته . ولكن أيضاً فإن زنجبيل الآخرة شيءٌ آخر غير زنجبيل الدنيا .

﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا (١٨)﴾ [الإنسان] إنها من عين فى الجنة تُسمَّى سلسبيلاً ، فالخمر يُمزج بالزنجبيل ، والزنجبيل من عين تُسمَّى تلك العين سلسبيلاً .

قال ابن الأعرابى : لم أسمع السلسبيل إلا فى القرآن . فهى عين يصدر منها هذا الشراب سلساً تسيل وتذهب فى مجرى نهر بلا شطآن.

والسلسبيل : الطيب الطعم والمذاق ، وهو أيضاً يتسلسل فى سلاسة فى الحلق ويستسيغه اللسان والحلق عَذْباً سلسالاً ، وهى تسيل عليهم من جنة عدن فتمر على كل جنة سلسة منقادة فهى ماء عذبة زلال .

وعلى هذا فكلمة (سلسبيلا) قد تكون صفة للماء نفسه أو اسم عَلَم للعين . والبعض ذهب إلى أن كلمة (سلسبيلاً) ليست كلمة بل

هـى جملة تقدير الكلام فيها : سَلْ سبيلاً . أولها سل فعل أمر والفاعل مستتر تقديره أنت أو يا محمد . وسبيلاً : مفعول به .

﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ ﴾

هنا بنى الحق سبحانه الفعل للمعلوم فقال ﴿وَيَطُوفُ (١٩)﴾ [الإنسان] أما هناك فقال ﴿وَيُطَافُ (١٥)﴾ [الإنسان] ، فهناك يحدِّثنا الحق عمّا يُطاف على المؤمنين به وهو الكؤوس والأكواب والشراب ، أما هنا فيحدثنا الحق سبحانه عمَّنْ يقوم بالطواف والإطافة بأوانى السقاء.

فيقول تعالى : ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (١٩)﴾ [الإنسان] فهم ولدان مخلدون أى لا يكبرون ولا يهرمون ، بل يبقون على حالهم لا يتغيرون ولا يكبرون وهم فى سِنٍّ واحد.

ونلاحظ أن الحق سبحانه قال (ولدان) فهم صبيان ، لكن الله يقول فى آية أخرى : ﴿ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧)﴾ [المزمل] ، ومفهوم أنه لا يشيب الصبيان فقط من هول يوم القيامة ، إنما تشيب البنات أيضاً، فالولدان هم القريبون من عهد الولادة . ومفرده وليد أى مولود.

والولد والوليد والولدان يشمل الصبى والصبية ، الذكر والأنثى ومثل هذا آيات الميراث ، قال تعالى : ﴿وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ(١١)﴾ [النساء]

وإذا كان معنى وِلْدان يحتمل الذكر والأنثى معاً ، فقد خصصت آية أخرى المعنى وحصرته فى الصبيان فقط ، فقال تعالى : ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤)﴾ [الطور] إذن الوِلْدان فى الآية معناها الصبيان ، فإن الغلام لا تُطلق إلا على الصبى.

ويصف الحق سبحانه هؤلاء الولدان بأنهم ﴿مُّخَلَّدُونَ (١٩)﴾ [الإنسان] مع أن التخليد ليس صفة مخصوصة بالولدان فى الجنة ، فكل أهل

الجنـة مخلـدون فيهـا لا يشـيبون ولا يهرمـون .

لذلـك قـال بعض المفسـرين أن معنـى (مخلـدون) هنـا أن هـؤلاء الولـدان مقرَّطون أى يلبسـون الأقراط فى آذانهم ، أو أنهم مُسوَّرون أى يلبسـون الأسـاور فـى معاصـمهم ، مـن التنعُّـم والتـرف .

أمـا الأقـراط فالعـرب يسـمون الحلق الذى فـى الأذن قُرْطـاً وخلدة . لذلـك قـال تعالـى ﴿مُخَلَّدُونَ(١٩)﴾ [الإنسـان] أى مقرَّطـون . ويقـال لجمع الحلـىّ : الخلـد .

ثـم يقـول تعالـى : ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا (١٩)﴾ [الإنسـان] وهو من عجيب القـرآن ، فاللؤلـؤ المنثـور غيـر اللؤلـؤ المكنون الذى وصـف به هؤلاء الغلمـان فقـال : ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (٢٤)﴾ [الطور] فاللؤلـؤ المكنـون كأنه كنَّ فى كنانه أو مكانه وهو مُصَـان حتى أن الله وصـف الحـور العيـن بنفس هذه الصـفة فقـال : ﴿وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣)﴾ [الواقعة]

فهم وهُنَّ كاللؤلؤ المصـون فى الصـدف لـم تنله الأيدى وقد قاله ابن جبيـر . ولا يُصـان ولا يُكـنُّ ولا يُحزن إلا الحسـن الغالى الثمـن الثمين ، فهـو مصـون لـم تعبـث بـه يـد عابثـة .

وكلمة ﴿مَكْنُونٌ (٢٤)﴾ [الطور] تتفق تمـامـاً مع كلمـة (لهم) قبلها فى قولـه: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ (٢٤)﴾ [الطور] فهم خاصـون بهـم ولا يطوفون علـى العمـوم ، وهذا معنـاه أن كل واحد من أهل الجنة له غلمان خاصُّـون بـه يخدمونـه غيـر الولـدان الذيـن يطوفـون عامـة بشـراب أو طعـام .

وإذا فهمنـا هـذا نستطيع أنْ نـدرك الفـرق بيـن الغلمـان المذكورين فـى سـورة الطـور وبيـن الولـدان المذكوريـن هنـا فى سـورة الإنسـان . فهنـاك ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (٢٤)﴾ [الطـور] ، وهنـا ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا (١٩)﴾ [الإنسان]

فهم هنا كاللؤلؤ المنثور يتلألأ فى كل مكان ، وكأنهم يطوفون على العموم لذلك انتشروا وانتثروا . فآية سورة الطور تعطى جواً أسرياً لحياة هؤلاء ، لذلك كان هؤلاء الغلمان مكنونين مُصانين .

يقول تعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٢٠) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ (٢١)﴾ [الطور]

وما دام قد ذكر الحور العين وذكر إلحاق الذرية بهم إذن فهو جو أسرى يحتاج إلى غلمان مخصوصين خاصين بهذه الأسرة أو تلك .

أما هنا فى سورة الإنسان فالوضع يختلف ، وقد يكون يتحدث عن جلسات المؤمنين فى جلسات عامة يكون فيها الولدان الطائفون عليهم عامّين لا يخصون أحداً فينتثرون كاللؤلؤ بعدد لا نهاية له .

ولك أنْ تتأمل الآيات تأملاً آخر ، وهو أنه لا تعارض بين اللؤلؤ المكنون واللؤلؤ المنثور ، ونلاحظ أن الحق سبحانه قال فى آية سورة الإنسان: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا (١٩)﴾ [الإنسان]

وكأن المشهد غير ما ذكرنا سابقاً ، وكأنَّ الله يطلب منك أن ترى مشهد هؤلاء المنعَّمين من أعلى من خارج ، فكل مؤمن له أريكة فى قبة عالية يتكيء عليها يعيش فى ظلال دانية وعناقيد ثمار متدلية يقطف منها كيفما يشاء ، معه ذريته والحور العين يطوف عليهم غلمان أو ولدان لهم بأنواع الشراب والطعام .

لو نظرتَ إلى هذه القباب العالية ، كل قبة مقصورة على مَنْ فيها ستتخيل أن الولدان الطائفين لؤلؤ منثور لأنهم يتلألأون فلا ترى إلا تلؤلؤ ضيائهم ونورهم ، بينما هم فى الحقيقة مكنونون ، كل ولدان فى قبتهم مع مَنْ يخدمونه .

قال تعالى : ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا (١٩)﴾ [الإنسان] أى ظننتهم ﴿لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا (١٩)﴾ [الإنسان] بينما هم على الحقيقة ﴿ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (٢٤)﴾ [الطور]

ولكن لماذا ذكر الحق سبحانه اللؤلؤ بالذات ، اللؤلؤ يتميز بالصفاء والنفاسة وهو مثل الياقوت والمرجان فى لمعانه ونضارته وشرفه، ولكن اللؤلؤ أبيض ، لذلك وصف الولدان والغلمان باللؤلؤ لبياض وجوههم وصفائها .

ثم يقول تعالى :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾

النعيم فى الدنيا على قَدْر قدرات البشر ، أما النعيم فى الآخرة فهو على قدر قدرات الله سبحانه ، المقاييس هنا غير المقاييس يوم القيامة ، فى الدنيا بإعدادك ، وجسدُك لا يمكن أن يرى الله .

أما فى الآخرة فيسمح إعدادك وحسدك بأنْ يتجلى عليك الله سبحانه، وهذا قمة النعيم فى الآخرة ، أنت تعيش الآن فى آثار قدرة الله ، أما فى الآخرة فتعيش عيشة الناظر إلى الله تبارك وتعالى .

فى الدنيا ألوان من المتع هى كذا وكذا ، والدنيا محدودة ولا تدوم لإنسان ولا يدوم إنسانٌ لها ، وإمكانات الإنسان فى النعيم الدنيوى محدودة على قدر الإنسان . أما إمكانات النعيم فى الآخرة فهى على قدر قدرة الخالق المربِّى بطلاقة قدرته وسعة رحمته ، إنه النعيم الموصول الذى لا يمنعه أحدٌ ولا يقطعه شيء .

والدنيا ليست خالصة النعيم لما فيها من أغيار تأتيك فتسوءك ، أما الإيمان فهو ثوابه النعيم المقيم والثواب العظيم .

والحق سبحانه يقول ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) ﴾ [التوبة] والرضوان هو ما يفوق النعيم ، ولكن ما سبب ذكر النعيم بعد الجنات ، أليس الجنة ليس فيها نعيم ؟

الجنة وُجدتْ أصلاً لينعم فيها الإنسان ، لكنه نعيم مقيم دائم لا

ينتهى لا يزول عنك وأنت خالد فيه لا تزول عن النعمة بالفناء أو الموت. فكأن المتاع والنعيم فى الجنة أكبر كثيراً من قدرتك وأعلى كثيراً من كل ما تستطيع أنْ تحققه.

لذلك يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ (٢٠)﴾ [الإنسان] أى إذا رأيت ما ثَمَّ. أى إذا رأيت ما هناك، والعرب تضمر (التى والذى ومَنْ وما) وتكتفى بصلاتها منها.

وهذا مثلما قال تعالى: ﴿هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ (٧٨)﴾ [الكهف] أى: هذا فراق ما بينى وبينك، ومثله قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ (٩٤)﴾ [الأنعام] أى: لقد تقطع ما بينكم.

فإذا نظرتَ يا محمد ببصرك ورميتَ بطرفك فيما أعطيت هؤلاء الأبرار فى الجنة من الكرامة: ﴿ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠)﴾ [الإنسان]

والآية تقول (رأيت نعيماً) ثم ﴿ وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠)﴾ [الإنسان] إذن النعيم غير الملْك الكبير. النعيم معروف وحدثنا الله عن بعضه.

﴿ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢) مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (١٤) وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ (١٥) قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا (١٨) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا (١٩)﴾ [الإنسان]

كل هذه عناصر هذا النعيم الذى سيتنعم فيه الأبرار، نعيم دائم مقيم لا ينتهى ولا يتغير ولا يزول، والحق سبحانه ذكر هذا النعيم بصيغة النكرة فقال (نعيماً) لأنه لا يُعدُّ ولا يُحصى ولا يعلمه إلا الله. فداخل النعيم نعيم، فكيف نُعرِّفه وكيف يكون معرفة؟

ثم يأتى قوله تعالى: ﴿ وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠)﴾ [الإنسان] ماذا بعد هذا النعيم؟ إنه المُلْك، أى تملك كل هذا للأبد، لا يزول عنك ولا تزول

عنـه، واعلـم أن هناك مِلْكاً وهناك مُلْك والملْـك هو ما تملكـه جلَباباً أو بيتـاً أو غيـر ذلـك، أمـا المُلك فهـو أنْ تملك مـن له مِلْـك وتسـيطر عليه، فالنعمـة إذن فـى المُلْـك.

لـو فهمنـا هـذا وتأملنـاه وسـمعنا قولـه تعالى: ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠)﴾ [الإنسـان] فـإنْ كنـتَ تفتقـد المُلْـك فـى الدنيـا فإنك سـتناله فـى الآخرة، سـيكون لـك سـلطانٌ علـى مـا حولك مـن نعيـم، وكذلـك مَـنْ حولك من الغلمـان والولـدان والحـور العيـن.

وأيضـاً سيكون لـك جـاه فـى الجنة التـى تعيش فيهـا، فقـد يعيش إنسـانٌ وسـط نعيم ورغـد وعيش وترفُّه ولكنـه يعيش فيـه فقط، لا يملك سـلطة أو جاهـاً على مَن يقـوم بخدمته. أما فى الجنة فلك جاهٌ ووجاهـة وسـلطان حتـى أن الملائكة تسـتأذن على الأبرار فى محالِّهـم وأماكنهم وتسَـلِّم عليهـم، وهـذا مـن الكرامـة بمـكـان.

وقـال الكلبـى: هـو أن يأتـى الملاك رسـولاً مـن عنـد الله بكرامة من الكسـوة والطعـام والشـراب والتحف إلـى ولى الله وهو فـى منازله التى أعدهـا الله لـه فيسـتأذن عليـه المـلاك، فذلـك المُلْـك الكبيـر.

أهنـاك أعظـم من هذا نعيم، أو أكبر من هذا مُلْك؟ والمُلْك أيضـاً قد يكون المقصـود بـه اتسـاع هذا الملك لكل مؤمن بَـرٍّ تقىٍّ دخل الجنة، فقد رُوى أن أدنـى أهـل الجنـة وأقلهـم منـزلاً ينظـر فـى مُلْكـه فـى مسـيرة ألـف عـام.

ثـم يقـول تعالـى:

﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١)﴾

كلمـة ﴿عَالِيَهُمْ (٢١)﴾ [الإنسـان] تعطى معنـى العلو والارتفـاع، فثياب

أهـل الإيمـان ثيابُ عزٍّ وكرامـة ورفعة ومجد وأبَّهة ، وعلو الثياب سـواء كانـت علـى أهـل الجنـة أنفسـهم أو على مـا يجلسـون تحته فهـى تدخل فـى الملـك الكبيـر.

العـلاء الرفعـة والبعض أخذ (عاليهم) أن الثيـاب فوقهم ملامسـة لهم ، وهذا ليس شرطاً فالحق سبحانه لم يقل : عليهم ، لكن قال ﴿عَالِيَهُمْ (٢١)﴾ [الإنسان] ولـو تأملنـا قولـه تعالـى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ (١٩)﴾ [الملك] وكذلـك قولـه تعالـى : ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ (١٥٤)﴾ [النساء]

ففوقهـم لا تعنـى الملامسـة إنمـا تعنـى العلـو الـذى لا حـدود لـه .

فالألـف فى (عاليهم) أضـافت معنى زائـداً للعلو لذلك تكـون عاليهم ظرفـاً للمـكان المكسو بالثياب والسـتائر والأرديـة . والبعض أخذ (عاليهـم) علـى أنها حـالٌ للولدان المخلدين وأن ثياب السـندس الخضـر والإسـتبرق هـى ثيـابُ أولئـك الولـدان.

فسـواء كانـت عاليهم حالاً للولدان المخلدين ، أو حالاً لأهل الجنة، أو وصـفاً لمـا يعلو قبابهم والأرائك والأسِـرَّة أنهـا عاليهم ثياب السـندس. فهـو مُلْـك كبيـر.

والسـندس هـو ما رقَّ مـن الحرير ونَعِـمَ وكان ملمسـه ناعماً حريرياً، أمـا الإسـتبرق فهـو ما غَلُظ وخَشُـن منـه ، وقد يكون السـندس منسـوجاً بخيـوط مـن الذهـب.

وقـد جمع الحـق سـبحانه هنا بين السـندس والإسـتبرق ، بين ما رقَّ مـن الحرير ومـا خَشُـن ، وقد قال الحق سـبحانه فـى آية أخرى ولكن عن الفُرش ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ (٥٤)﴾ [الرحمن]

فـإذا كانت بطائن الفُرش مـن حرير ولكنه خشـنٌ غليظ ، فإن الظهائر ومـا اتـكأ عليه المتكئـون فهـو مـن السـندس الحريـر النـاعـم الرقيـق .

ذلـك حديـث الله عـن الثيـاب ، فما بـال حلية أهـل الجنة مـن الحلى ،

يقول تعالى : ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ (٢١)﴾ [الإنسان] وفى آية آخرى أنها من ذهب ، قال تعالى : ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ (٣١)﴾ [الكهف] وفى آية أخرى : ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا (٣٣)﴾ [فاطر] فالأساور إما من ذهب أو فضة أو لؤلؤ .

ونلاحظ أن الحق سبحانه بنى الفعل للمجهول فى الآيات الثلاثة ﴿وَحُلُّوا (٢١)﴾ [الإنسان] ثم (يُحلون) فى آيتى الكهف وفاطر ، فليسوا هم الذين يُحلون أنفسهم بهذه الحلية ، بل حلاَّهم غيرهم .

أما الملبس فهم الذين يلبسون ثيابهم بأنفسهم ثم يُحلِّيهم غيرهم، قال تعالى: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ (٣١)﴾ [الكهف] فأتى الفعلُ مبنياً للمعلوم لأن الفعل حدث منهم أنفسهم بالعمل .

والأساور جمع أسورة وهى ما تكون حول معصم اليد ، والتحلية هنا للزينة فهى زيادة على ما هم فيه من نعيم ، كالرجل الذى يجهز ابنته للزواج فيأتى لها بضروريات الحياة ثم يزيدها على ذلك من الكماليات وزخرف الحياة من نجف أو سجاد أو خلافه .

ثم يأتى الشراب بعد أنْ يلبس الأبرار ثيابهم ويُحلَّون بأساور الذهب والفضة واللؤلؤ، فيقول: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١)﴾ [الإنسان]

أعطاهم ما يشربونه فى لحظته وساعته ، ولكنه سقاءٌ من الله سبحانه فنسبه إليه سبحانه أن ربهم الذى سقاهم ، لذلك استحق وصف ﴿طَهُورًا (٢١)﴾ [الإنسان]

فهو شراب طاهر من الأقذار لم تمسه الأيدى ولم تُدنِّسه الأرجل كخمر الدنيا ، ومن طهره أنه لا يصير بولاً نجساً ، ولكنه يصير رشحاً من أبدانهم كرشح المسك .

وقد صلَّى سهل بن عبد الله صلاة العشاء فقرأ قوله تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١)﴾ [الإنسان] فجعل يحرك فمه كأنه يمص،

فلما فرغ من صلاته قيل له : أتشرب أم تقرأ ؟ قال : والله لو لم أجد لذّته عند قراءته كلذّتي عند شربه ما قرأته .

﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا (٢٢) ﴾

فهذا النعيم الذي ليس له حدود ، وذلك الملْك الكبير جزاء وثواب لكم ﴿ بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) ﴾ [الحاقة] فحين تفعل الطاعة تكون صعبة عليك ، ولكن يجب أنْ تتذكر ثوابها وردّ فعل طاعتك وهو الراحة وحُسْن الثواب .

﴿ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) ﴾ [النحل] وهو جزاء أطول وأدوم ، فهم تعبوا واضطهدوا وعُذّبوا ، فحقَّ له أنْ نسعده في الآخرة سعادة أبدية. وحقَّ له أنْ نشكر سعيه ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا (٢٢) ﴾ [الإنسان] وهو خطابُ الله لمن استحقوا ثواب الله وجزاءه .

والسعي هو الحركة الموصِّلة للغاية ، وكل فرد من أفراد الكون له سَعي يختلف عن سعي الآخرين ، لذلك قال تعالى ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) ﴾ [الليل] أي إن سعيكم لمختلف ، فكلٌّ منكم مهمته وسعيه وحركته .

وقد يكون السعي ممدوحاً وقد يكون مذموماً ، فمن السعي المذموم ما ذكره الحق سبحانه فقال : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا (١١٤) ﴾ [البقرة]

فيمنع ذكر الله في مساجده ويسعى في خرابها بكل السبل ويتخذ من الوسائل والقرارات ما يجعلها خاوية من عُمَّارها وأهلها بإهمالها أوالتضييق على مَنْ يدخلها أو يهدمها ويحرقها أو يجعلها فارغة من مضمونها وارتباطها بما حولها من دوائر الناس .

ومن السعي المذموم أيضاً ما قاله سبحانه : ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) ﴾ [البقرة]

فحركته وسعيه وجهده ووقته فى الأرض كان بهدف الفسادوالإفساد فى الأرض وإبادة الحرث والنسل، والحرث الزرع، والنسل الذرية.

أما السعى المحمود المشكور غير المنكور فضله، فكسعى الأب لإطعام أبنائه ورعايتهم، وكسعيه من أجل الآخرة لا الدنيا، ويتخذ الدنيا مطية له للوصول إلى الآخرة. فالحياة الدنيا بما فيها من سعى وتعب وجهد وفناء ليست هى الغاية التى يجب أنْ يسعى إليها الإنسان، بل على الإنسان أنْ يسعى إلى الحياة الأرقى.

ولك أنْ تسعى إلى بيت الله، ولك أنْ تسعى إلى مجلس الخمر والفساد، فالحق سبحانه جعل للإنسان سيطرة على جوارحه فى الدنيا وجعلها خاضعة لإرادته لا تعصيه فى خير أو شر، فبيده يضرب ويعتدى، وبيده أيضاً ينفق على المحتاجين.

فللآخرة سعى ومَنْ سعى إليه كان سعيه مشكوراً، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَـٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩)﴾ [الإسراء] ومعلوم أن الشكر يكون لله استدراراً لمزيد نعمه، كما قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ (٧)﴾ [إبراهيم]، فما بالك إنْ كان الشاكر هو الله تعالى يشكر عبده على طاعته؟

ثم ينقلنا الحق سبحانه إلى الكلام عن القرآن، فيقول:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾

إذا تحدَّث الله سبحانه عن فعل يحتاج إلى كمال المواهب من الله تبارك وتعالى يقول (إنَّا): ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ [الحجر] ولكن حين يتكلم الله عن ألوهيته وحده وعن عبادته وحده يستخدم ضمير المفرد مثل قوله سبحانه: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنَا (١٤)﴾ [طه] فإنزال

القـرآن وحفظـه ليس وليد قدرتـه وحدها ، ولا علمه وحـده ، ولا حكمته وحدهـا ، ولا رحمته وحدهـا ، وإنما كل فعل من أفعـال الله تكاملت فيه صـفات الكمـال المطلـق لله .

فإنـزال الذكـر عملية عظيمة ، لأننا سـنُنزله بقدرة وسـننزله بحكمة، وننزله بعلـم وننزلـه ببصـر، وننزلـه بقيوميـة ، وننزلـه بقبض ، وننزلـه ببسـط .

وكلمـة ﴿ نَزَّلْنَا (٢٣)﴾ [الإنسان] تفيـد التتابـع وموالاة النـزول ، فالقرآن أُنزل جملـة واحدة مـن اللوح المحفوظ ، ثم نزَّله الله بعد ذلك منجّماً حسب الوقائع. لذلك قال تعالى : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا (١٠٦)﴾ [الإسراء] وفي آية أخرى :﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢)﴾ [الفرقان]

أي نزلنـاه مرتـلاً مفرقـاً آيـة بعـد آيـة ، فنـزل القـرآن مجموعـة من الآيـات بعـد الأخرى ، وهذه الطريقـة في التنزيل كانت تيسـر للصـحابة حفظـه وفهمـه والعمـل بـه .

يقول تعـالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢)﴾ [الفرقان]

فالحـق سـبحانه نـزّل القـرآن علـى الهيئـة التي نـزل بهـا لزومـاً لتثبيت فـؤاد رسـول الله ﷺ والمؤمنين ، ولـه نـزل مرة واحدة لـكان تكليفـاً واحـداً.

وأحـداث الدعـوة شـتى وكل لحظـة تحتـاج إلـى تثبيت فحيـن يأتى الحـدث ينـزل نجـمٌ قرآنـي فيثبِّـت بـه الحـق النبـي ﷺ والمؤمنيـن .

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ (٢٤)﴾ [الإنسان] فكلٌّ من قـام بالقرآن الـذى نزّلناه عليـك لابـد أنْ ينـاله مـا يناله مـن الأمور التي تحتـاج إلى صـبر عظيـم .

فمعنـى ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ (٢٤)﴾ [الإنسان] أي اصـبر لقضـاء ربك الذى يترتـب علـى هـذا التنزيـل ، وهذا يـدل على أنـه سـيناله منه مـا يحتـاج إلى صـبر .

﴿ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (٢٤)﴾ [الإنسان] لقد قـال عتبة بـن ربيعة

والوليد بن المغيرة للنبى ﷺ : إن كنتَ صنعت ما صنعت لأجل النساء والمال فارجع عن هذا الأمر . وقال عتبة : أنا أزوّجك ابنتى وأسوقها إليك بغير مهر . وقال الوليد : أنا أعطيك من المال حتى ترضى فارجع عن هذا الأمر فأنزل الله تعالى هذه الآية .

لذلك قال تعالى ﴿مِنْهُمْ (٢٤)﴾ [الإنسان] أى من أهل مكة الذين لم يؤمنوا بك ، وهذا ليس خاصاً بهم فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

والخطاب وإنْ كان لرسول الله فإن أمة محمد متضمنة فى هذا الخطاب فلا تطيعوا آثماً أو كفوراً ، والآثم المذنب العاصى الذى يرتكب الذنوب والمعاصى ، وليس شرطاً أنْ يكون كافراً ، أما الكافر فهو آثم بذنب الكفر نفسه وينضاف إليه ذنوب وآثام ، لأنه لا ضابط لسلوكه ، فهو لا يؤمن بكتاب ولا برسول ولا بيوم القيامة ، فلِمَ يستقيم ؟

لذلك فصل الحق سبحانه بين الآثم والكفور بـ (أو) ، فلا يسعك أنْ تطيع الآثم أو تطيع الكفور كل على حدة أو مجتمعين .

والكَفُور صيغة مبالغة على وزن (فعول) أى الشديد الكفر المصرّ على كفره الذى يجحد كل شيء وينكره ولا يُقر به معاند فى كفره ويدعو غيره إلى كفره ويصد عن سبيل الله .

فالكافر فقط قد يكون كافراً فى نفسه لا يدعو غيره ولا يصد عن سبيل الله ، وقد يكفر بأمر دون آخر ، أما الكفور فهو مبالغ متجاوز الحدّ فى كفره .

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾﴾

وذكْر الله هو تسبيحه وتنزيهه ، لذلك قال تعالى : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى (٣)﴾ [الأعلى]

فكيف لا تسبِّح أنت الله بينما الكل يسبِّح لله وأنت سيد هذا الكون؟ فاستح أن يكون الكون كله مُسبِّحاً وأنت غير مسبِّح ، فصِلْ أنت تسبيحك بتسبيح كل هذه المخلوقات .

فاذكر ربك لأنه بذكرك له سيذكرك في الملأ الأعلى ، قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ (١٥٢)﴾ [البقرة] فالله سبحانه يريد من عباده الذكر وهم كلما ذكروه سبحانه وشكروه شكرهم وزادهم .

والله سبحانه يقول في حديث قدسي : «أنا عند حُسْن ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإنْ ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه».

فمعنى قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ (٢٥)﴾ [الإنسان] أي اذكر اسم ربك في كل شيء في نعمه وعطائه وستره ورحمته وتوبته .

فـ ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ (٢٥)﴾ [الإنسان] تذكيرٌ لك بما حباك به من أفضال خلقك وربَّاك وأعطاك من فيض نعمه مالا يُعد ولا يُحصَى . فاذكر اسم ربك لأنك إنْ لم تعشقه تكليفاً فأنت قد عشقته لأنه مُمدّك بالنعم .

اذكر ربك وسبِّح باسم ربك ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٢٥)﴾ [الإنسان] ، وفي آية أخرى يقول :﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢)﴾ [الأحزاب]

وكأنَّ الحق سبحانه يريد أنْ نذكره ونسبِّحه ونلهج باسمه سبحانه آناء الليل وأطراف النهار.

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ٢٦﴾

الحق سبحانه لا يريد العنتَ بمَنْ آمن به فيكلفهم مالا يطيقون ، فلا يطلب من عباده قضاء ليلهم كله في عبادته والركوع والسجود

له ، بل يقول تعالى : ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ (٢٦)﴾ [الإنسان] وفى آية أخرى يقول : ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ (٧٩)﴾ [الإسراء]

فالله لا يأمر بقيام الليل كله ، حتى ما خاطب به رسول الله قال : ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤)﴾ [المزمل] فقُمْ من الليل جزءاً منه لذلك قال : ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ (٢٦)﴾ [الإنسان] فمن للبعضية أى بعض الليل .

﴿فَاسْجُدْ لَهُ (٢٦)﴾ [الإنسان] السجود علامة الخضوع وعلامة العبودية لأنك تضع أشرفَ شيء فيك وهو وجهك على الأرض خضوعاً له وخشوعاً له ، والسجود هو منتهى الخضوع .

والسجود لله تشريف للمؤمن الساجد لله ورَفْع لمقامه ، فهو لا يسجد لموازٍ له أو لمخلوق مثله ، بل هو يسجد لمن خلقه يسجد للعظيم الذى لا أعظم منه .

﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (٢٦)﴾ [الإنسان] والتسبيح هو التنزيه عما لا يليق بذات المنزه ، فاجعل نفسك مسبِّحاً لذاته العلية دائماً ، والتسبيح فعل مستمر لا ينقطع ولا ينقضى .

وستجد فى هذه الآية أمراً عجيباً ، ففى بداية الآية قال : ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ (٢٦)﴾ [الإنسان] أى اسجد وصلِّ له تعالى جزءاً من الليل لا كله .

إنما عند التسبيح قال : ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (٢٦)﴾ [الإنسان] فتسبيحك لله لا ينقطع ولا يجب أنْ ينقطع ، والكون كله مسبِّح لله ، فلا تتأخر أيها الإنسان عن ركْب المسبِّحين ، والسورة التى معنا سورة الإنسان كأنها ترسم للإنسان طريق فلاحه ونجاحه فى الآخرة .

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى : ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٤٩)﴾ [الطور]

هنا أيضاً تسبيح مستمر ﴿حِينَ تَقُومُ (٤٨)﴾ [الطور] أى حين تقوم

الليلَ صلاةً وتسبيحاً وتحميداً وتكبيراً لله .

وقد سُئلت عائشة رضى الله عنها : بأى شيء كان رسول الله يفتتح قيام الليل فقالت : سألتنى عن شيء ما سألنى عنه أحد قبلك ، كان إذا قام كبَّر عشراً وحمد الله عشراً وسبَّح عشراً وهلّل عشراً واستغفر عشراً وقال : اللهم اغفر لى وارحمنى واهدنى وارزقنى وعافنى . وكان يتعوذ من ضيق المقام يوم القيامة .

ثم ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٤٩)﴾ [الطور] تسبيح دائم مستمر يلهج به لسانك حتى تدبر النجوم ويذهب الليل وتظهر تباشير الفجر فيصلى الفجر ، ثم تسبيح إلى أنْ تشرق الشمس وذِكْرلله .

ثم يقول تعالى :

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ۝٢٧﴾

كلمة ﴿هَٰٓؤُلَآءِ (٢٧)﴾ [الإنسان] هنا تعود على الكافرين الذين قال الله فيهم هنا فى أول السورة : ﴿ وَإِمَّا كَفُورًا (٣) إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا (٤)﴾ [الإنسان]

ونلحظ أن الحق سبحانه بعد هذه الآية الرابعة لم يذكرهم بل ذكر الأبرار وذكر جزاءهم وثوابهم وأعمالهم التى اقتضت هذا الثواب ، حتى جاءت الآية ٢٤ فقال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (٢٤)﴾ [الإنسان]

فكلمة ﴿هَٰٓؤُلَآءِ (٢٧)﴾ [الإنسان] تشير إلى هذا الآثم أو الكفور ، ويصفهم الحق سبحانه أنهم :﴿يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٧)﴾ [الإنسان] والعاجلة هى الدنيا وصفها الله بصفة من صفاتها من النعيم العاجل المتعجِّل .

فالكافرون إنما يريدون العاجلة المنتهية ، فهم طالبو دنيا لا طالبو آخرة ، والإنسان لابد أنْ لا ينظر إلى حياته العاجلة فى الدنيا وشهواتها

فقط بل عليه أنْ يدبر أمر نفسه فيما يستقبله من أمر الآخرة.

إنك إنْ أحببت العاجلة ولم تنظر إلى الحياة الآجلة تكون قد ظلمتَ نفسك ظلماً عظيماً، فما فائدة متعة عاجلة لها مدة محدودة أمام عذاب غير محدود على تلك المتعة؟

والمشكلة ليست فيمن يريد أنْ يتمتع بمتاع الدنيا إنما هى فيمَنْ يريد أن يتمتع بها من أى طريق حلالاً كان أو حراماً، فيحب متعته العاجلة وينسى أنَّ هناك حياة أخروية آجلة.

وإلا فالحق سبحانه قال: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا (٧٧)﴾ [القصص]

فالله أعطاك نعماً لا تُحصى، ورزقك رزقاً على قدر نصيبك من هذه الدنيا، فإنِ ابتغيتَ برزق الله لك الحياة الدنيا فسوف يفنى معك فى الدنيا، لكن إنْ نقلته للآخرة لأبقيتَ عليه نعيماً دائماً لا يزول.

وحين تحب نعيم الدنيا وتحتضنه وتتشبث به فاعلم أن دنياك لن تمهلك، فإنك إما أنْ تتركه وترحل عنه وعن الدنيا كلها، وإما أنْ يزول هو فتصبح فقيراً معدماً.

فإن كنتَ عاشقاً ومحباً للمال مثلاً ولبقائه فى حوزتك فانقله إلى الدار الباقية ليظلَّ فى حضنك دائماً نعيماً باقياً لا يفارقك فسارع إذن واجعله يسبقك إلى الآخرة.

وإذا كان ربّنا عز وجل يوصينا بأنْ نبتغى الآخرة فهذا لا يعنى أنْ نترك الدنيا ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا (٧٧)﴾ [القصص] فنصيبك من الدنيا هو الحسنة التى تبقى لك وتظل معك وتصحبك بعد الدنيا إلى الآخرة، فكأن نصيبك من الدنيا يصبُّ فى نصيبك من الآخرة فتخدم دنياك آخرتك.

المشكلة أن الكافر أو الفاجر أو الظالم يظن أنه لا عقابَ ولا حسابَ

أولا يستحضر عذاب الله ، لذلك تجدهم :﴿وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (٢٧)﴾[الإنسان] أى يذرون وراءهم يوماً عسيراً شديداً ، فيتركونه فلا يؤمنون به ولا يهتمون لوقوعه ، فقد تركوه من كل وجه .

فهو يومٌ ثقيل على الكافرين إذا حُشروا وإذا وقفوا للحساب ، فالمشركون بالله يحبون الدنيا والبقاء فيها ويدعون خلف ظهورهم العمل للآخرة وما ينجيهم من العذاب فيتركونه فلا يؤمنون به ولا يعملون له .

وقد يسأل سائل : لماذا قال تعالى ﴿وَرَاءَهُمْ (٢٧)﴾[الإنسان] ويوم القيامة يومٌ سيأتى فهو أمامنا . فالبعض قال : ويذرون وراءهم عمل يوم ثقيل . أى لا يعملون للآخرة .

وكلمة وراء أيضاً مشتقة من توارى ، والشيء المتوارى عنك يقع لما بين يديك وما خلفك ، فيقع لما هو أمامك أو لما هو وراءك .

ثم إن يوم القيامة وراءهم يطلبهم مهما طالت أعمارهم ، فهم تركوه وتركوا العمل به ولكنه يطلبهم وليسوا بفارِّين منه ، ولا بدّ أنه سيلحقهم ويجدونه أمامهم فيقع بهم الحساب والعقاب .

﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾

يذكر الحق سبحانه دلائل قدرته لهؤلاء الكافرين المكذبين،﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ (٢٨)﴾[الإنسان] فنحن خلقناهم وشددنا خلقهم ، ويدخل فى شَدِّ الخلق شدّ مفاصلهم وقوتهم وخلقناهم خَلْقاً محكماً ذا بصر وسمع وذوق وشَمٍّ وحركة لليدين وللرجليْن وقلب ينبض وأجهزة داخل أجسامهم تعمل وجلد يحس ويشعر وأعصاب تنقل الإحساس

باللـذة أو بالألـم إلـى مـخ يسـتوعب كُل هـذا أو يصـدر أوامـر لجـوارح الإنسـان بفعـل فعْلٍ مـا .

فشددنا مفاصلهم بالعصب والعـروق والجلـد لئلا تنقطع المفاصل وقـت تحريكهـا ، وشـددنا قُبُلهم ودُبرهم لئلا يسـيل بولهـم وغائطهم إلا عند إرادة الإنسـان قضـاء حاجته أو أصـابه مرض .

﴿وَإِذَا شِئْنَـا بَدَّلْنَـا أَمْثَالَهُـمْ تَبْدِيـلا (٢٨)﴾ [الإنسـان] أي إذا شـئنا أهلكناهم وأتينـا بأشـباههم فجعلناهـم بدلاً منهـم ، مخالفين لهم فـي العمل ، فلا يـذرون وراءهـم يـوم القيامـة بـل يعملـون لـه .

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾﴾

وفـي آيـة أخرى يقـول تعالـى : ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢) إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى (٣)﴾ [طـه] فإنما أنزلنـا القرآن تذكـرة أي تذكيـراً ﴿لِّمَن يَخْشَى (٣)﴾ [طـه] أي لمـن يخـاف مـن الله بمهابـة وإجـلال .

﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً (٢٩)﴾ [الإنسـان] السـبيل الطريق ، أي فمَنْ شاء الانتفـاع بتذكيـر الله له اتخذ إلى ربه طريقاً يُوصِّـله للغاية من التذكرة، وهـي الاهتـداء بآيـات القـرآن .

وتحديد الغاية والهدف إنما يهدف إلى إيضـاح السـبيل أمام الإنسان ليسـلك الطريـق الموصِّـل إلـى تلـك الغـايـة .

ونتأمـل الآيـة نجد أن الله ذكر السـبيل بصـيغة النكرة ، فقال : ﴿سَبِيلاً (٢٩)﴾ [الإنسـان] أي وجهـةً وطريقـاً إلـى الخير ، ووجـوه الخيـر كثيرة قد تكـون فـي الصـلاة أو الصـيام أو الـزكاة أو مسـاعدة المحتـاجيـن .

فما دمتَ قد سلكتَ سـبيل الإيمان بالله ورسوله فلك أنْ تُعرف بسلوك سـبيل من سـبل الخير والطاعـات ، فسبيل الله آمنُ لكم وأيسـر من السبيل الـذي يوصِّـل إلـى عـذاب جهنـم .

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠)﴾

إذا كان الحق سبحانه قد أثبت للإنسان مشيئة ، فقال :﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (٢٩)﴾ [الإنسان] فإنه هنا أثبت أن مشيئتنا من داخل مشيئة الله ، فلو لم يشأ الله لم تكُنْ مشيئتنا ،

فقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ (٣٠)﴾ [الإنسان] فلا أحدَ يستطيع أنْ يخرج عن مشيئة الله أو إرادته ، وكل شيء من فعل الله ، فالله هو الذى خلق اختيار الإنسان لأمر معين.

فلا يحدث فى كون الله إلا ما يريده ، فاختيار الكافر للإيمان لم يكُنْ غَصْباً عن الله بل بإرادته سبحانه ، والله هو الذى خلق له الاختيار .

فالإنسان خُلق على هيئة القَسْر فى أمور ، وعلى هيئة الاختيار فى أمور ، فلا الفقير يستطيع أنْ يثْرى دون مشيئة الله ، ولا المريض يستطيع أنْ يشفى دون مشيئة الله ، ولا الضعيف يستطيع أنْ يقوى ضد إرادة الله .

لذلك قال الحق سبحانه : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ (٢٤)﴾ [الكهف] فإياك أنْ تقول : إنى سأفعل شيئاً إلا أنْ تشتمله وتربطه بمشيئة الله ، فأنت لا تفعل شيئاً إلا بإرادة الله ، فلا تعد إلا بالمشيئة .

﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠)﴾ [الإنسان] فقد ثبت لله العلم والحكمة أزلاً، لذلك قال ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ (٣٠)﴾ [الإنسان] فنحن نسمعها فى إطار أن الله لا يتغير، وما دام كان فى الأزل عليماً حكيماً فهو كذلك إلى الأبد.

ونعلم أنه إذا جاءت أى صفة من صفات الحق داخلة فى صورة كينونة أى مسبوقة بـ (كان) ، فإياكم أنْ تأخذوا (كان) على أنها

وَصْفٌ لما حدث فى زمن ماضٍ ، ولكن لنقُلْ (كان وما زال) .

لماذا ؟ لأن الله كان أزلاً ، فهو سبحانه عليم قبل أنْ يوجد معلوم ، وهو سبحانه حكيم قبل أنْ يوجد ما يحتاج إلى الحكمة . والحكيم لابد أنْ يكون عليماً ، وإلا كيف يكون حكيماً فى تدبير أمر لا يعلم كُنْهه ولا ماهيته .

ثم يُنهى الحق سبحانه سورة الإنسان بقوله تعالى :

﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾ ﴾

فالحق سبحانه بمشيئته يُدخل مَنْ يشاء فى رحمته ، ورحمته دينه وقيل جنته ، والدخول فى الدين يُوجب الجنة بمشيئته سبحانه ، فلا تعارض بين الدخول فى الدين والدخول فى الجنة . والمؤمنون إنما يدخلون الجنة برحمة الله ومشيئته لا بموجب العمل وحده ، فدخول الجنة إنما هو بموجب الفضل والإحسان ، لا بسبب الاستحقاق .

فالأمر متعلق بمشيئة الله سبحانه ، فالله لم يشأ أنْ يدخل فى رحمته مَنْ علم منه أنه يختار الضلال ، ولكن إنما شاء أنْ يدخل فى رحمته مَن علم منه أنه يختار الهدى .

فالذين ظلموا أنفسهم فماتوا على شركهم وكفرهم أعدَّ لهم فى الآخرة عذاباً أليماً مؤلماً موجعاً وهو عذاب جهنم ، الذى فصَّل فيه الحق سبحانه القول فى آيات سورة الإنسان .

والله هو الذى أعدَّ لهم هذا العذاب الأليم ، وكل حدث من الأحداث إنما يأخذ قوته من قوة فاعله ، فإذا كان الحدث التعذيبى منسوباً إلى الله وله مطلق القوة والقدرة ، لذلك فالعذاب لن يُطاق ولن يجد الظالم مَنْ يدرأ عنه هذا العذاب


سُورَةُ المُرْسَلَاتِ

سورة المرسلات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (٣) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا (٤) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦) ﴾

يقول تعالى ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (١) ﴾ [المرسلات] يقسم الله بالرياح المرسلة، فالله يرسلها يقول تعالى ﴿ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ (٥٧) ﴾ [الأعراف] وهي تُرسَل كهيئة عُرْف الفرس متتابعة يتبع بعضها بعضاً، وأحياناً تكون مرسلة برحمة الله رخاء تسوق الخير إلى الناس.

يقول تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا[1] سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ (٥٧) ﴾ [الأعراف]

هذه الرياح المرسلة بالخير والبشرى، أما تلك المرسلة شراً وعَصْفاً فقد قال الله عنها: ﴿ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢) ﴾ [المرسلات]

---

(١) ثقالاً: أي سحباً ممتلئة ماء كثيراً. [القاموس القويم ١/١٠٨] فنجد لونها داكناً لما تحمله من ماء.

والريح العاصفة أى الريح الشديدة القوية ، وهى غير الرُّخاء السهلة اللينة ، فالعاصفة سريعة قوية شديدة تعصف بما يكون أمامها من أشياء ، ونحن نرى الريح العاصفة على الطرق الصحراوية إذا هبَّت واحدة منها فإنها تغطى الطرق بحيث تعوق حركة المرور إلى أنْ تُزاح عنها هذه الطبقة من الرمال .

وإذا هبَّتْ على مياه البحار تكون نوَّة أو تسونامى يعلو فيها الموج ارتفاعاتٍ عالية تعصف بالسفن العملاقة حينها يغلقون الموانىء والبوغازات أمام حركة السفن والصيد .

﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا(٣)﴾ [المرسلات] الواو هنا للقسم والناشرات الرياح التى تنشر السحب الثِقال فتأتى بالمطر ، والنشر ضد الطىّ .

والبعض قرأ الآية : بُشْراً ، وحجته قوله تعالى ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ(٤٦)﴾[الروم] وذلك أن الريح تبشر بالمطر.

ورياح الرحمة ثلاث منشرات كقوله تعالى: ﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (٣)﴾ [المرسلات] والمبشرة كقوله (مبشرات) والثالثة الذاريات فهذه رياح الرحمة تهبُّ على كل شيء فى الدنيا .

﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا (٤)﴾ [المرسلات] فالفارقات هى الرياح التى تفرق بين السحاب فتبدده ، فيذهب بعضه فى أفق ، والبعض فى أفق آخر .

﴿ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥)﴾ [المرسلات] فالرياح إذا كانت عاصفة شديدة قوية قلعت الأشجار وهدمت المنازل ، حينها يحصل خوفٌ للعباد فى قلوبهم فيلجئون إلى الله تعالى ويذكرونه فصارت تلك الرياح كأنها ألقتْ الذكر والمعرفة فى القلوب عند هبوبها .

فالرياح تظهر بها النعم ، إذ تسوق النعم بسوْقها للسحب المحمَّلة بالماء فتكون خيراً ونماءً لقوم عطشت أرضهم ، فيكون اهتزاز أرضهم خضراً ، فيذكرون نعمة الله عليهم .

﴿هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ (٥٧)﴾ [الأعراف]

نلاحظ أن الحق سبحانه ذكر عدة كلمات مما هى فى آيات سورة المرسلات التى معنا مما يكون حجة لمن ساق الآيات فى الرياح.

فكلمات (يرسل) هى (والمرسلات) ، وكلمة بشراً هى ما ذكرناه من قراءة مَنْ قرأها : والناشرات بُشراً ثم ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧)﴾ [الأعراف] هى (الملقيات ذكراً) فتترك أثراً فيمن يرى آية **الله** فى هذا فيذكر **الله** ويُسبِّحه على ما أنعم به.

﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦)﴾ [المرسلات] أى إعذاراً إلى **الله** ، والعذر محو الإساءة وطمسها وهى من إبداء العذر للخروج من الذنب ، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ (١٦٤)﴾ [الأعراف] أى فعظهم اعتذاراً إلى **الله** وأننا قد أبلغناهم رسالة ربنا فلم يعد لهم عذر.

أما نُذراً أى إنذاراً وتخويفاً ، والذكر يحقق الأمرين الإعذار والإنذار.

وإذا كنا قد سُقْنا الآيات هنا أنها فى وصف الرياح ، وأنها مُرسَلة من **الله** ، وأنها قد تكون عاصفة تهب أو ناشرات تنشر السحاب وتفرِّقه وتبدده فى كل اتجاه ليصل إلى بلاد بعيدة ، وأنها تذكِّر عباد **الله** بنعمه ونقمه ، إنْ كانت خيراً فهى نعمة ، وإنْ كانت شراً فهى نقمة .

إذا كان هذا كله فى الرياح فإن بعض العلماء تأول هذه الآيات كلها تأويلاً آخر أنها الملائكة ، والبعض ساق بعض الآيات فى الرياح وبعضها فى الملائكة ، والبعض ساقها كلها فى الأنبياء ، والبعض ساقها كلها فى القرآن.

فآيات القرآن كانت تتنزل متتابعة تعصف القلوب بذكر الوعيد فهى العاصفات ، وتنشر أنوار الهداية والمعرفة فى قلوب المؤمنين فهى الناشرات نَشْراً .

وهى التى تفرق بين الحق والباطل ، فهى الفارقات فرقاً ، وهى ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥)﴾ [المرسلات] فتلقى الإيمان والنور وحب الطاعة في قلوب المؤمنين ، إعذاراً إلى الله وإنذاراً لعباده وتخويفاً فهى ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦)﴾ [المرسلات]

بعد هذه الآيات المقسَم بها يذكر الحق سبحانه المقسَم عليه ، فيقول تعالى :

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ٧﴾

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ (١٣٤)﴾ [الأنعام] ووعده وإيعاده لا بد أنْ يتحقق وأنْ يأتى أوانه فيصبح واقعاً ، لذلك قال ﴿لَوَاقِعٌ (٧)﴾ [المرسلات] أى متحقق في عالم الواقع وستشهدونه بأنفسكم ، وفى آية أخرى يقول : ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥)﴾ [الذاريات] إذن : ما وعدكم الله به آتٍ وواقع وصادق .

وسواء كان المقسم به هو الرياح أو الأنبياء أو القرآن أو الملائكة، فإن اجتماع هذا كله يدلّ على عظيم المقسَم عليه ، وهو يوم القيامة، فالله إنما يقسم بالعظيم على العظيم .

وكلمة ﴿لَوَاقِعٌ (٧)﴾ [المرسلات] لها وقع عظيم وشديد على الأسماع والقلوب تجعل القلوب ترتجف ، ولذلك سُمِّيت القيامة بالواقعة ، وجعل لها الحق سبحانه سورة بهذا الاسم .

وقد ذكر الحسن البصرى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (٨)﴾ [الطور] فربا منها ربوة عِيد منها عشرين يوماً »[1] أى مرض منها وزاره العُوَّاد عشرين يوماً .

---

(١) أورده ابن عطية الأندلسى (ت ٥٤٢ هـ) فى كتابه المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز (٣٨/١) وفيه أن عمر أنَّ أنَّة . وأورده ابن كثير فى تفسيره (٧/ ٤٣٠) وعزاه للإمام أبى عبيد فى فضائل القرآن (١٣٦/١) وبنحو ما ذكره ابن عطية ذكره الثعالبى فى تفسيره (الجواهر الحسان) (١/ ١٣٠).

﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ٩
وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ١٠﴾

فأول ما يحدث من وقائع يوم القيامة أنْ تُطمس النجوم التي تزيِّن السماء وتنيرها، فتظلم الدنيا وتصبح سواداً حالكاً مظلماً.

فطمْسُ النجوم إذهابُ ضوئها ونورها، فأنت عندما تريد أنْ تلقى الفزع في قلوب الناس تظلم عليهم المكان فلا يروْنَ شيئاً مما يجرى حولهم، وهذا يكون أشدَّ عليهم، فهم لا يعرفون إلى أين يذهبون.

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (٦٦)﴾ [يس] فأوَّل ما يحدث الطمس على أعينهم وجعلهم لا يرون شيئاً فيتسابقون على الصراط كالعميان يخبطون في بعضهم البعض لا يدرون إلى أين هم ذاهبون.

فأول مشهد من مشاهد يوم القيامة أن النجوم ينطفيء نورها، فتظلم السماء والأرض وتصبح حالكةَ السواد.

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (٩)﴾ [المرسلات] أي وإذا السماء انشقت، لكن الانشقاق هنا له معنى آخر، فمعناه انفراجها وانفتاحها لنزول الملائكة.

وهو معنى قوله في سورة النبأ الآتية بعد سورة المرسلات: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩)﴾ [النبأ] فانفراج السماء وانفتاحها وانشقاقها إنما هو لنزول الملائكة للحساب.

فينزل الملائكة من السماء ويحيطون بالأرض التي تُبدَّل غير الأرض يحيطون بها من كل جانب على أطرافها، يقول تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا (١٧)﴾ [الحاقة] أي على أطرافها ونواحيها حين تشقق السماء.

﴿وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (١٠)﴾ [المرسلات] ونلحظ أن الحق سبحانه ذكر أقوى مظهر ثابت في الحياة الدنيا ، وإلا ففي الأرض أشياء أخرى قوية وثابتة كالعمائر ناطحات السحاب ، فإذا كان الحق سبحانه سينسف هذه الجبال ويزيلها عن وجه الأرض فغيرها زائل من باب أَوْلى .

والإنسان ينظر إلى الجبال نظرةَ رهبةٍ وإعظام لقوتها وصلابتها ورهبتها ، فيقول لك جبال الألب وجبال الهيمالايا والتبت وأطلس وطوروس ويتحاكى الإنسان بقوتها وارتفاعها وصلابتها .

فها هي الجبال أيها الإنسان تُنسف فيختلّ توازن الأرض التي تعيش عليها بإيجادنا إياك عليها ، فماذا ستفعل ؟ وإلى أين ستذهب ، وها هي السماء فوقك قد انشقتْ وفُرِجت وانفطرتْ ، ونزل منها الملائكة لتحقيق وعد الله ووعيده ، فلماذا تكذِّب ؟

تنسف الجبال فتصبح ﴿كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥)﴾ [القارعة] أي كالصوف المندوف ، وتصير هباءً منثوراً أي ذرات تراب متناثرة تذروها الرياح .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ﴿١٢﴾
لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٤﴾﴾

﴿أُقِّتَتْ (١١)﴾ [المرسلات] أي وقتّت وهي قراءة أخرى في الآية ، أي ضُرب لهم ميقات معين لا يعلمه إلا الله للبعث بعد الموت وللجمع والحشر والحساب والعقاب .

فكلمة (أقتت) من الميقات والوقت ، والحق سبحانه يقول : ﴿قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٥٠)﴾ [الواقعة] والميقات من الوقت ، والوقت هو الزمن فحينها يُجمعونَ لوقتٍ واحد تجتمع فيه كل الأمم .

ومَنْ يتأمل النسق القرآنى يجد عجباً ، ففى آية سورة الواقعة قال تعالى : ﴿ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٥٠)﴾[الواقعة] فى شأن الجمع إلى يوم القيامة ، أما فى جمع سَحرة فرعون فقد قال تعالى : ﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨)﴾ [الشعراء]

الأولى (إلى ميقات)والثانية (لميقات) . فى شأن جمع السحرة استخدم الحق سبحانه اللام فقط متصلةً بكلمة ميقات مباشرة دلالةً على قِصَر المدى الزمنى لتحقُّق الميقات .

أما فى شأن القيامة الموعود بقيامها منذ بدء الخليقة فاستخدم الحق سبحانه (إلى) ، وزيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى ، وهذا دلالة على البُعد الزمنى لتحقّق هذا ، ولكنه آتٍ وواقع ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (٧)﴾ [المرسلات]

ثم يسأل الحق سؤالاً يعلمْ إجابته فيقول : ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢)﴾ [المرسلات] أى لأى يوم أخِّرت ، وضُرب الأجل للجميع لأنه لنْ يتخلف أحد ولن يفر أحد ، والتاء الساكنة فى (أجلت) تعود على الساعة والقيامة . وهذا تعظيم للوقت الذى يقع فيه الفصل والجزاء ، والمراد باليوم الحين والزمان .

﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ (١٣)﴾ [المرسلات] إنه يوم الفصل أى يوم الحكم بين المختلفين والمتخاصمين ، وهذا يحكم فيه الله ، وهو القادر سبحانه على أنْ يفصل بينهم بالحق .

ومتى يكون موعد هذا الفصل أو الحكم ؟ أهو فى الدنيا ؟ لا فالدنيا دار اختبار وليستْ دار حساب ولا محاسبة ولا فصْلَ فى قضايا الإيمان .

ولذلك فإن الفصل والحكم بينهم يتم يوم القيامة وعلى مشهد من خلق الله جميعاً : ﴿ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣)﴾ [البقرة] والذى سيفصل بين الناس هو الله الذى لا هوى له ولا مصلحة له

سبحانه فى أنْ يميل حكمه وفصله ناحية أحد بعينه ، ولا بد أنْ يكون الفصل بين الأمرين بلا هوى ، فالحكم بالميزان يقتضى أنْ تكون له كفّة هنا وكفة تقابلها . ونحن نسمى هذا الإنصاف فى الحكم أى نقف فى النصف دون ميل أو حَيْف .

ثم يؤكد الحق المعنى فيقول : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (١٤)﴾ [المرسلات] إنك لا تعلم ما يوم الفصل يُعظمه الله ويهوِّل منه تعظيماً لشدتها .

فمن أين تعلم كُنهه وماهيته ولم تَرَ مثله فى شدته ومهابته فما علمك يا أشرفَ الخلق بيوم الفصل وشدته ، فلا تعلم عِظمه وأهواله على سبيل التفصيل وإنْ كنتَ تعلمها إجمالاً .

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥ ﴾

هذه الآية ذُكرت فى هذه السورة عشر مرات بدءاً من هذه الآية ، فالسورة كلها تهديدٌ شديد ووعيد للمكذبين الذين كذَّبوا بيوم القيامة يوم الفصل .

وكلمة (ويل) تعنى الهلاك والعذاب وتُستعمل للتحسُّر على غفلة الإنسان عن العذاب ، مثل قوله تعالى : ﴿ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا (٤٩)﴾ [الكهف] وقوله جلَّ جلاله : ﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا(٩٧)﴾ [الأنبياء]

هذه الويلات تعنى الحسرة وقتَ رؤية العذاب ، وقيل : إن الويل وادٍ فى جهنم يهوى الإنسانُ فيه أربعين خريفاً والعياذ بالله .

وساعة ترى ﴿يَوْمَئِذٍ (١٥)﴾ [المرسلات] وتجد فيها هذا التنوين فاعلم أنه عِوضٌ عن شيء محذوف ، والمحذوف هنا جملة ، والمعنى : يوم إذ يأتى يوم الفصل .

حينها ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا (٤٢)﴾ [النساء] فهو يوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين، وقد أسماه الحق سبحانه مشهد اليوم العظيم، فقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧)﴾ [مريم] فهو يوم مشهود يشهده الجميع، فالعذاب فى الدنيا مثلاً لا يشهده إلا الحاضرون المعاصرون ولا يشهده السابقون ولا اللاحقون، أما عذاب الآخرة فهو المشهد العظيم الذى يراه كلُّ الخلق.

والحق سبحانه يقول عن المكذبين: ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥)﴾ [الواقعة]

فكلُّ مكذِّب ضال سينزل إلى الحميم ويَصْلى الجحيم ويعانى من عذابها حقَّ اليقين، وهم عندما يعانون عقابهم لتكذيبهم يقولون: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧)﴾ [الأنعام]

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾

الأولون: الأقوام السابقة التى كذَّبت بالله والإيمان والقرآن، كذَّبوا برسلهم، فالحق سبحانه يسأل أهل مكة الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ (١٦)﴾ [المرسلات]

لقد وصل إلى أسماعكم جزاء الأقوام السابقة عليكم وما حدث لهم نتيجة تكذيبهم وكفرهم، فأهلكناهم حين كذَّبوا رسلهم، فأهلكنا بعضهم بالصيحة وبعضهم بالخسف وبعضهم بالمسخ.

والأولون هم قوم نوح وعاد وثمود الموغلون فى القدم، أما

الأخيرون فهم قوم فرعون وقوم لوط وغيرهم القريبون من زمان بعثة رسول الله .

﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (١٨)﴾ [المرسلات] فكذلك سنفعل بمجرمي هذه الأمة من كفار قريش الذين كذَّبوا رسول الله وكفروا بالله وصدوا وأعرضوا ، وصدوا غيرهم عن الإيمان بالله .

فكفرهم وتكذيبهم هو أعظم جُرْم يرتكبونه ويترتب عليه كل الأفعال التي تُعتبر جرائمَ في عرف القانون والشرع ، فما دام لم يؤمن فتوقع من الكافر أنْ يفعل كلَّ الموبقات من قتل وزنا وسرقة لأنه كذَّب بالمنهج أصلاً ، فهو ينطلق في حياته بموجب هواه .

لذلك توعد الله هؤلاء المكذبين المجرمين بالويل ، فقال ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٩)﴾ [المرسلات]

ثم يقول تعالى مذكِّراً لهم بأنه الذي خلقهم وأوجدهم ، فقال تعالى:

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَـٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢١) إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ (٢٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٢٤)﴾

لِمَ تكفرون وتتكبَّرون على الله وتُكذِّبون رسله ونحن خلقناكم من ماء مهين ، وقد وصف الله الماء الذي خُلق منه الإنسان بأنه ﴿مَّاءٍ مَّهِينٍ (٢٠)﴾ [المرسلات] لأنه يجري في مجرى البول ويذهب مذهبه إذا لم يصل إلى الرحم .

والمهين أيضاً الضعيف ، فهو ماء ضعيف وهو نطفة الرجل أو المرأة ، ورغم ضعف أصل خِلْقة الإنسان فقد خلق الله منه إنساناً

سميعاً بصيراً عاقلاً مفكراً ، وشدَّ الله أسْره وشد عضلاته وأعصابه وعظامه ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ (٢٨)﴾ [الإنسان]

﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (٢١)﴾ [المرسلات] الهاء في ﴿فَجَعَلْنَاهُ (٢١)﴾ [المرسلات] أي فصيَّرناه وسهَّلنا له طريقاً يصل به هذا الماء المهين وهو النطفة إلى الرحم ، ليتحقق به مراد الله من خَلْق نسمة إنسانية .

وسمَّى الله رحم المرأة بـ ﴿قَرَارٍ مَكِينٍ (٢١)﴾ [المرسلات] لأن فيه تستقر نطفة الرجل بعد تلقيح بويضة المرأة تسعة أشهر أو أقل أو أكثر ، فهو مكان مُحصَّن جعله الله صالحاً لاستقرار النطفة التي تصبح علقة ثم مضغة ثم تصبح عظاماً ثم يكسو اللهُ العظامَ اللحم ، ثم يُنشئه الله خَلْقاً آخر فيخلق له السمع والبصر .

وقرار يعني مستقر تستقر فيه النطفة ، وهو الرحم خلقه الله على هذه الهيئة ، فحصَّنه بعظام الحوض وجعله مُعداً لاستقبال هذه النطفة والحفاظ عليها .

﴿إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢٢)﴾ [المرسلات] هو مدة حمل المرأة لجنينها في رحمها وهي مدة معلومة لنا . حينها تلد المرأةُ في الوقت الذي يشاؤه الله ، والقدر وقت الشيء المقدَّر له والمكان المقدَّر له .

﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣)﴾ [المرسلات] فقدرنا على خَلْقه وتصويره في أحسن تقويم وأحسن هيئة ونصبنا ظهره فلا يسير على أربع كالدواب ، وجعلنا خَلْقه صالحاً لأنْ يعيش في أي بيئة كانت فتجد الإنسان يعيش في كوخ أو خيمة أو كهف أو حتى في ناطحة سحاب .

فجاءت هنا (فقدرنا) من القدرة لذلك ناسب أنْ يأتي بعدها ﴿فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣)﴾ [المرسلات] ولكن البعض قرأ هذه الكلمة بتشديد الدال من

(فقدرنا) فقال : فقدَّرنا ، من التقدير . مثل قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ (٣٩)﴾ [يس]

واستحسن بعضُ العلماء قراءة (فقدرنا) من القدرة لأن الله قال بعدها ﴿فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣)﴾ [المرسلات] ولم يقُلْ: المقدِّرون.

ولكن كلاهما محتمل فإن مَنْ يُقدِّر الشيء ويخلقه على هيئة حسنة فهو قادر بقدرته، وقادر بتقديره وعلمه.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٢٤)﴾ [المرسلات] فإذا كنا خلقناكم ونخلقكم وسنخلقكم من ماء مهين حقير ضعيف ونجعله حال خرج منكم في محله المخلوق له نجعله في قرار مكين مستقر حصين إلى زمن معلوم لله، فلِمَ تكذِّبون ؟

ثم يُذكِّرهم الله بالأرض التي يعيشون عليها:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (٢٦) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا (٢٧) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٢٨)﴾

فجعلنا الأرض تكفت الناس أحياء وأمواتاً، أي تضمهم وتجمعهم، فهي تكفت الأحياءَ فيسكنون ظهرها وتكفت الأموات في بطنها.

مَنْ يتأمل معنى الكَفْت يجده عجيباً فهم يصنعون من مواد الأرض قوالب الطوب يبنون به مساكنهم، ويصنعون أسمنتاً يمسكون به الطوب ببعضه، ومن الشجر أسقفاً لبيوتهم، كله من الأرض.

وتلمح في الآية ملمحاً يؤدي بك إلى القول أن الله ذكر فيها جاذبية الأرض، فالأرض تكفتهم أحياء فتضمهم إليها ولا تتخلى عنهم

وكأنهم مجذوبون إليها بشيء يربطهم بها حتى إذا سقطوا من علٍ فإنها تضمهم إليها، ولا يخرجون خارجها.

حتى الأموات تضمهم قبور الأرض إليها ولا تتخلى عنهم إلا في يوم البعث، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤)﴾ [الانفطار] ويقول: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩)﴾ [العاديات]

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ (٢٧)﴾ [المرسلات] حفظنا لهم الأرض التي يعيشون عليها بأنْ جعلنا فيها رواسي تجعل الأرض راسيةً لا تضطرب ولا تتحرك ولا تميد بهم.

قال تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ (١٥)﴾ [النحل] والرواسي جمع (راسٍ) وهو الشيء الثابت، ولو كانت الأرض مخلوقة على هيئة الثبات لَمَا احتجنا إلى الجبال الرواسي كي تثبتها، لكن الأرض مخلوقة متحركة وهي عُرْضة للاضطراب، ولولا الجبال الرواسي لمادت الأرض.

﴿شَامِخَاتٍ (٢٧)﴾ [المرسلات] أي عاليات طوال مرتفعات في السماء شاهقات، وكل عالٍ فهو شامخ. ونلحظ أن الحق سبحانه ذكر الجبال هنا بصفة من صفاتها واختار هنا صفة الشموخ.

فإنْ كنتَ أيها الإنسان المخلوق من ماء يجري من قُبل الرجل إلى ماء موجود في قُبل المرأة ليستقر في رحم المرأة فهناك ما هو أكبر منك وأشمخ وأرفع أنا خالقه لك لتستطيع أنْ تعيش على هذه الأرض فخلقت الجبال لتمسك الأرض.

﴿وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا (٢٧)﴾ [المرسلات] لماذا ذكر الله الماء الفرات بعد ذكر الجبال؟ لأن الأمطار الغزيرة إنما تنزل على قمم الجبال الشامخة العالية، ثم تنحدر نازلة حتى تجري أنهاراً على وجه الأرض.

كل الأنهـار يأتى ماؤها هكذا ، من فـوق قمم الجبال كجبال الحبشـة مثـلاً التـى ينحـدر منها المـاء العـذب ويتجمع حتى يصبح نهـر النيل ، والمـاء الفـرات هو الماء العـذب الزلال الذى يصلح للشـرب يرتوى منه الإنسـان وتشـرب منه الأنعام ونروى به الزرع .

فالمـاء الفرات الشديد العذوبة الذى يستسقيه الإنسـان يقول تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ (١٢)﴾ [فاطر]

وقد يسـأل سـائل : وهل فى جزيرة العرب ماء فرات وأنهار ؟ بالطبع لا ، ولكنهـا حـول الجزيرة العربية فى العراق والشـام ومصـر وأهل مكة يعرفـون بهـا وإنمـا كانـت سُقياهم مـن مـاء الآبـار.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٢٨)﴾ [المرسلات] هـل مازلتـم تكذّبـون وتكفرون وتنكـرون ؟ فاعلمـوا أن الأرض سـتبدّل غير الأرض والجبال سننسـفها والمـاء العذب الفـرات سيصـبح ماءَ مِلحـاً أُجاجاً فـ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٢٨)﴾ [المرسلات]

﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢٩ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ
ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ ٣٠ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ٣١
إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ٣٢ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ٣٣
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ٣٤ ﴾

رغـم تكذيبكـم بـالبعث والحسـاب والعقـاب فهـا أنتـم تواجهونـه حقيقة فهـو حَـقٌّ وواقـع رغـم تكذيبكـم بـه ، فتكذيبكم لـن ينفى أنـه حق ، وقد أنذرنـاكـم وحذرنـاكـم وأكدنـا لكـم فمـا آمنتـم ومـا صـدَّقتم .

الآن عليكم أنْ تواجهوا ما كنتم تكذِّبونه وتظنون أنه لن يحدث، الآن ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩)﴾ [المرسلات] إنهم يخرجون من قبورهم سراعاً ، يقول تعالى : ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا (٤٤)﴾ [ق]

لذلك يقول لهم : ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩)﴾[المرسلات] والانطلاق فيه إسراعٌ بقوة ، مثل انطلاق الفرس من مربطه فذهب على وجهه .

ولكن هناك انطلاقٌ في استخفاء وانطلاق في جدٍّ ، والمقصود هنا في الآية الانطلاق في إسراع ، وقد يكون الانطلاق هنا هو مجرد الذهاب إلى مكانٍ ما .

﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (٣٠)﴾ [المرسلات] انطلقوا إلى ظل من يحموم ، ظل نار موقدة ، فدخان جهنم إذا سطع وارتفع تشعَّب وتفرَّق ثلاث فرق ، فيُقال لهم كونوا فيه إلى أنْ يُفرغ من الحساب كما يكون أولياء الله تعالى في ظِلِّ عرشه .

وقيل : يخرج عنق من النار فيتشعَّب ثلاث شُعب على رؤوسهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، إنه ظل خانق حار لافح ، وتسميته بالظل ليس إلا امتداداً للتهكم .

لأنه ظِلٌّ : ﴿لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (٣١)﴾ [المرسلات] فلا هو ظِلٌّ حقيقي يقيك حَرَّ النار، ولا هو يُغنيك عن اللهب .

وقد تكلمنا عن أهل الجنة وأن الله يُدخلهم : ﴿ظِلًّا ظَلِيلًا (٥٧)﴾ [النساء] وأنه ليس مجرد ظل بل هو ظل ظليل هو نفسه يُظلل بعضه ، فلا يصل لمَنْ يجلس في ظل الشجرة لا الشمس ولا الهواء الحار ولا الزمهرير .

أما الظل في النار فهو ليس ظليلاً ، لذلك فهو ﴿لَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (٣١)﴾

[المرسلات] فيصل حر النار ووهجها إلى الوجوه فتشويها ، فما بالنا إذا قاسوا الإلقاء فى النار نفسها .

﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢)﴾ [المرسلات] لك أنْ تتخيل هذا المشهد، يقف المكذِّب يرى النار وهى تتقد وتشتعل وتتوهج يأكل بعضُها بعضاً، وهو واقفٌ فى ظلٍّ يظنه ظلاً وأنه سيُغنيه من اللهب ، ولكن النار ترمى بشرر بحُمَم ومقذوفات تخرج من النار تصيب أولئك الواقفين المنتظرين للإلقاء فيها .

وهو ليس أى شرر بل هو شرر ﴿كَالْقَصْرِ (٣٢)﴾ [المرسلات] شرر عظيم كالقصر بضخامته وكبر حجمه ، والقَصْر المقصود هو أصول الشجر يكون فى الصحراء ، فإذا جاءالشتاء قطعت أغصانها فتبقى أصولها، فتراها كأمثال الجمال إذا أنيخت فى الصحراء . والآية تحتمل أيضاً أنْ يكون القَصْر هو القصر المعروف الكبير الضخم .

﴿كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ (٣٣)﴾ [المرسلات] جمالة جمع جَمَل . فإنها تبدو كأنها جمال عظيمة صفراء متناثرة فى الصحراء ، والبعض فسَّر (صفر) هنا بأنها سوداء . ولكنها صفراء كقطع النحاس إذا توهج من الاحتراق ، والبعض قال إنها لسواد النار وظلمتها تبدو سوداء تميل إلى الاصفرار .

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٣٤)﴾ [المرسلات] فأيًا كان لون الشرر وصفته فإنه شررٌ ولهب ونار محرقة ، فلم تكذِّبون وتُوردون أنفسكم موارد الهلاك؟ لم تعرِّضون أنفسكم للإلقاء فى هذا الوادى السحيق فى النار الذى يسمى (ويل) ؟

ثم يقول الحق سبحانه :



إنهم في يوم الهول الأكبر يعرفون أنهم كذبوا في الدنيا ، وهم لا ينطقون بأى قول ينفعهم ولا يأذن لهم الحق بأنْ يقدِّموا أعذاراً أو اعتذاراً .

فهم لا ينطقون قولاً يغيثهم من العذاب الذى ينتظرهم ، لا ينطقون قولاً ينفعهم في الموقف الذى هم فيه قد تكون مجرد إلقاء اللوم على بعضهم أو التبرؤ من الآخرين ، فماذا يُجدى هذا ؟ وبماذا ينفعهم ؟

والحق سبحانه يقول : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا (١١١) ﴾ [النحل]

وفى موضع آخر يقول : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (٢٤) ﴾ [الصافات]

وهكذا قد يُخيَّل للبعض أن هناك آياتٍ تناقض بعضها ، فهناك آياتٌ تسمح بالكلام ، وهناك آيات تنفى القدرة على الكلام .

ويجب أنْ نفهم أنَّ الكلام الذى سيعجز الأشقياء عن نطقه يوم القيامة هو الكلام المجدى النافع ، وسيتكلم البعض كلام السفسطة الذى لا يفيد مثل لومهم بعضهم البعض .

وقد ذكر الله بعضه فقال : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا (٢٩) ﴾ [فصلت]

وهذا كلام لا يشفع لصاحبه ولا يجدى . إذن فالممنوع هو الكلام المجدى المفيد ، أو أن مقامات القيامة متفاوتة فوقت يتكلمون فيه ، ووقت يُؤخذون فيه فلا يستطيعون التكلم .

والمقام هنا ليس مقامَ كلام أو نُطْق ، لقد انعقدتْ ألسنتهم عن الكلام والنطق ، لقد صدر الحكم عليهم ، فليس المقام مقامَ حساب يجيبون عليه ، بل هو مقام الجمع والحشد للإلقاء فى النار ، فماذا عساهم أنْ يقولوا ؟

لقد انتهى الأمر فلن يُؤذن لهم ليبدوا أعذاراً أو اعتذاراً، فلن يجديهم هذا شيئاً ، لقد قالوا كلَّ شيء عند الحساب ، أما وقد صدر الحكم

عليهم أنهم من أصحاب النار فلا نطق ولا كلامَ ولا اعتذار.

﴿ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

هذا اليوم الذى جعلناه لكم موعداً للبعث والحشر والحساب، هذا هو اليوم الذى جُعل لكم ميقاتاً تنالون فيه جزاء كفركم وتكذيبكم لرسلنا وكتبنا. هذا هو اليوم الذى قيل فيه: ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (١١) لأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (١٣)﴾ [المرسلات]

وهنا يقول تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالأَوَّلِينَ (٣٨)﴾[المرسلات] والجمع الحشر والحشد، جمعناكم مع مَنْ سبقوا فى العصور الموغلة فى القدم لم يتخلف منهم أحد، بل أتينا بكم جميعاً وتحقق الوعد الذى كنتم تكذِّبون به وتفرُّون منه وتعتقدون أنه ليس بآتٍ.

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (٣٩)﴾ [المرسلات] قد كنتم فى الدنيا تكيدون لأوليائى وللمؤمنين بى وتمكرون بهم وتتآمرون عليهم وتؤذونهم، فالآن أرونى كيدكم ومكركم وتآمركم:

فإن كان لكم حيلة فاحتالوا لإنجاء أنفسكم من عقابه، ولكنهم لا يستطيعون، فلقد انقطع مكرهم وكيدهم وحَوْلهم وحيلهم ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ(٢٦)﴾[الصافات] إنهم حتى لا يستطيعون النطق.

ثم يذكر الحق سبحانه المتقين كأنه يُذكِّرهم بما لهم إنْ هم آمنوا واتقوا ولم يكذِّبوا:

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ۝٤١ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۝٤٢ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٤٣ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٤٤ ﴾

الحق سبحانه منح الإنسانَ الاختيار بين المتقابلات : الإيمان والكفر، التقوى والفجور، الهداية والضلالة، النعيم والجحيم، الجنة والنار.

لذلك ذكر لنا الحقُّ سبحانه عقابَ وحساب الذين كفروا وكذَّبوا، ثم يذكر لنا المتقين الذين آمنوا وصدقوا. قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى ظِلالٍ وَعُيُونٍ (٤١)﴾ [المرسلات] تلك ظلالٌ وارفة فى حدائق غنَّاء، لا كتلك الظلال التى من يحموم التى لا تُغنى من اللهب.

فالمتقون فى جنات هى الظلال ويُضاف إليها العيون والأنهار والنعيم. فهم فى ظلال وعيون تجرى بالماء، والعيون ليست هى الآبار إنما هى فتحات كالعيون ينبع منها الماء وهذا أبهج.

كما نقول نحن (مجرى العيون) أى العيون التى تجرى منها الماء، ولم تعد مجرى للعيون إنما عيون صماء لا يجرى فيها شيء.

كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِى أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤)﴾ [الشعراء] فقد كانت لهم عيون يجرى منها الماء، أما الآن فهى تحت أطباق التراب.

﴿وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤١)﴾ [المرسلات] فليس الأمر أمر طعام وشراب فقط إنما الحق سبحانه يمتنُّ علينا بما نشتهى من الفواكه التى تسرُّ القلب وتُفرحه.

فواكه يتلذذون بها يأكلون منها كلما اشتهوا لا يخافون ضررها ولا عاقبة مكروهها، وهى فواكه من سائر أنواع الثمار مهما طلبوا وجدوا.

وقد وصف الحق سبحانه فاكهة الجنة ، فقال : ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣)﴾ [الواقعة] فنفى عنها عيوب فواكه الدنيا لأنها تأتى فى وقت ، وتنقطع فى وقت ، ولأنها ممنوعة إلا بالثمن ولها آفات كثيرة وليس فى فواكه الجنة آفة .

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)﴾ [المرسلات] وفى هذا القول فعلٌ وردّ فعل ، الفعل هو العمل الصالح فى الأيام السالفة الماضية التى خلتْ ، وردّ الفعل هو الطعام والشراب الهنىء فى الآخرة .

وهذا مثل قوله تعالى : ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤)﴾ [الحاقة] فهذا تعليل لما هم فيه من نعيم أنهم كثيراً ما تعبوا واضطهدوا وعُذِّبوا، وجزاء مَنْ عُذِّب فى الدنيا أنْ نسعده فى الآخرة .

﴿هَنِيئًا (٤٣)﴾ [المرسلات] فلتهنأ أنفسكم وتسعد بما تأكلونه وتشربونه بدون أنْ يضركم أو يُلجئكم إلى المهضمات من العقاقير . إنه طعام وشراب هنيء تستلذون به .

﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)﴾ [المرسلات] وتعملون غير تفعلون وغير تصنعون، فالعمل يشمل كل الأفعال التى بالجوارح اليد والقدم والعين وغيرها، وتشمل أيضاً عمل القلب من الصدق والإخلاص والتسامح ، لذلك قال ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)﴾ [المرسلات]

ولا يفكر أحد أنْ يكون نصيبه من العمل عمل قلبه فقط ، بل ليأخذ معه إلى الدار الآخرة أعمالَ جوارحه أيضاً ليثيبه الله جزاءَ عمله ما يسرُّه ويُقال له : ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)﴾ [المرسلات]

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٤٤)﴾ [المرسلات] فكلُّ مَنْ أحسن العمل وهو مؤمن بالله وبكتابه وبرسوله يجزيه الله أجزل الثواب .

هـذا جـزاء مَنْ أحسـن : ظـلال وعيـون وفواكـه ممـا يشـتهون أكل وشـراب هنـيء .

وتعـود الآيـاتُ بنـا إلـى مـا ينتظـر المكذبيـن فتقـول :

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

يقول الحق سبحانه لهؤلاء المكذبين ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا (٤٦)﴾ [المرسلات] فى الدنيا إلى منتهى آجالكم ، لقد كفرتم بى وكذبتم مَنْ أرسلتهم إليكم وكذَّبتم بالبعث والجنة والنار ، ولكن أنا من خلقتكم ، وبربوبيتى لن أمنع عنكم عطائى وإنْ كنتم كافرين ، فأنا الذى أوجدتكم فى هذه الحياة الدنيا وقد تعهدتُ برزقكم .

فـ ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا (٤٦)﴾ [المرسلات] ولكن أكلكم أكل أنعام وبهائم ، يقول تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ (١٢)﴾ [محمد]

ومتعتكم فى الدنيا قليلة ، ستزولون عنها بوفاتكم أو ستزول هى عنكم بفنائها ، فتصبحون فقراء بعد أن كنتم أغنياء ، ضعفاء بعد أنْ كنتم أقوياء ، مرضى بعد أنْ كنتم أصحاء .

﴿إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ (٤٦)﴾ [المرسلات] فوصفهم الله بالإجرام ، وقد جعل الله لكلِّ صاحب دعوة سماوية عدواً من المجرمين ، فالسماء لا تتدخل إلا حين صار الإجرام لا مقاومَ له .

وهكذا يجعل الله لكلِّ نبى ورسول عدواً من المجرمين ، وهذا العدو يُفتن به الناس ويميل له ضعاف العقائد ظناً منهم أنَّ لهم الغلبة، ولا يعرفون أن هذه الغلبة الظاهرة هى غلبة مؤقتة .

لأن لهم الويلَ حين البعث، ذلك الذى كانوا يُكذبون به فسيلاقوا جزاءهم ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٧)﴾ [المرسلات]

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

لقد كانوا مجرمين خارجين عن منهج الإيمان والإسلام، وكانوا ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (٤٨)﴾ [المرسلات] فكانوا يُعرضون عن الركوع لله سبحانه والصلاة لمن خلقهم وأسبغ عليهم نعمه ، والصلاة علامةٌ الإيمان والخضوع لله .

ولكن البعضَ كابن عباس قال : إنما يُقال لهم هذا يوم القيامة حين يُدعَوْن إلى السجود فلا يستطيعون ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (٤٣)﴾ [القلم]

قد كنتم ترفضون السجود والركوع والصلاة وعبادة الله لأنكم لم تؤمنوا بل كذَّبتم وكفرتم فـ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٩)﴾ [المرسلات]

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (٥٠)﴾ [المرسلات]

الضمير فى ﴿بَعْدَهُ (٥٠)﴾ [المرسلات] يعود على القرآن وكتاب الله ، فبأيِّ حديثٍ بعد القرآن وآياته يؤمنون ؟ فإنْ لم يُصدقوا بهذا القرآن فبأى كتاب بعد هذا القرآن يُصدِّقون ، كقوله تعالى : ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦)﴾ [الجاثية]

وقد كان رسول الله ﷺ إذا قرأ ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (٥٠)﴾ [المرسلات] قال: «آمنتُ بالله وبما أُنزل».(١)

فلا حديثَ أصدقُ من القرآن ولا أقوى فى الدلالة منه، فليس هناك حديثٌ بعد القرآن، فالقرآن هو الكتاب الخاتم الذى لا كتابَ بعده، فالإيمان بالقرآن والتصديق به هو آخر فرصة لهم.

فلتؤمنوا قبل أنْ يأتى يومُ النبأ العظيم الذى كنتم به تكذِّبون أو تؤمنون به، ولكن لا تعملون له أعمالاً تنجيكم من الموقف العظيم.

لذلك ناسبَ بعدها أنْ تأتى سورة النبأ: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥)﴾ [النبأ]

---

(١) أخرجه عبد الرزاق فى تفسيره (٣٦٥٤) والطبرى فى (جامع البيان) (٢٤/٥٣٦) عن معمر عن إسماعيل بن أمية.